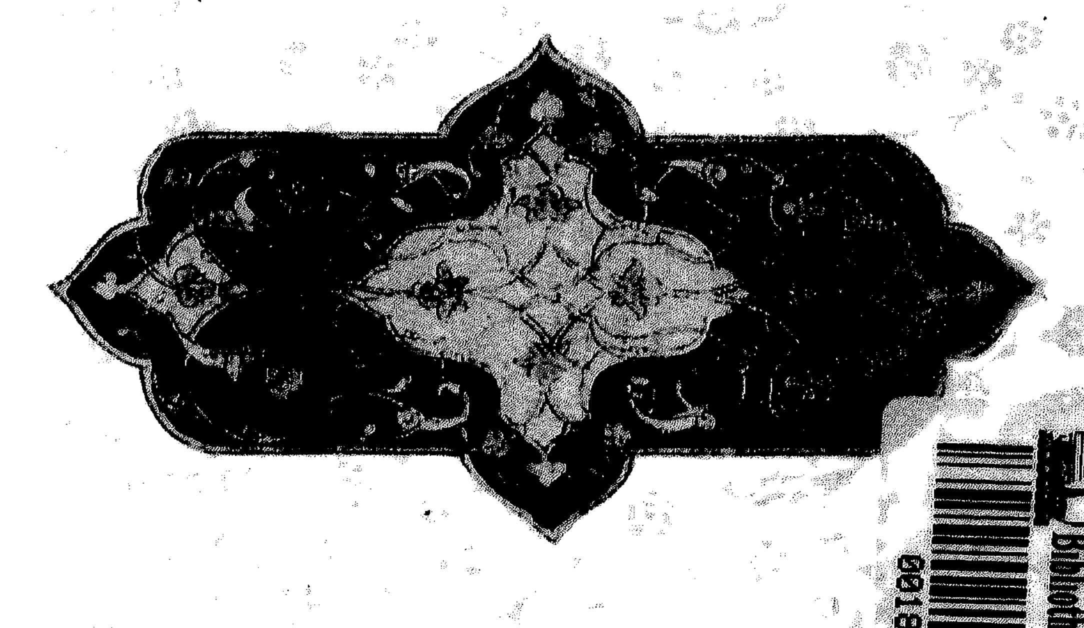
جبران شامية

الإسلام

هل يقدّم للعالم نظرية للحكم



دار الأبحاث والنشر


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)





جبران شامية
عضو مشارك، جمعية دراسات
الشرق الأوسط لأميركا الشمالية

الإسلام

هل يقدّم للعالم
نظرية للحكم

دار الأبحاث والنشر
ص.ب ٥٥.٢٥ - سن الفيل - لبنان



دار الأبحاث والنشر
ص. ب. ٥٥٠٢٥
سن الفيل، لبنان



The Research and Publishing House
P.O. Box 55025
Sin el Fil, Lebanon

and

6111 Du Boise Ave.
Suite 14 H
Montreal, Qc., H3S 2V8
Canada

Includes Index
ISBN 0-921632-00-2



المؤلف

وُلد المؤلف في دمشق عام ١٩١٤ ونال درجة ماستر في العلوم السياسية من الجامعة الأميركية في بيروت ثم ليسانس في الحقوق. يتقن العربية والإنكليزية والفرنسية.

اشترك بتأسيس «حركة القوميين العرب» في منتصف الثلاثينات في الجامعة الأميركية حيث كان منشأها.

انتدبته الحكومة السورية عام ١٩٤٧ ليمثلها في وفد ضم السيد نصري المعلوف (نائب ووزير لبناني)، والسيد أكرم زعيتر من كبار الوطنين الفلسطينيين لشرح القضية الفلسطينية في دول أميركا اللاتينية. رأس وفداً فلسطينياً ثانياً عام ١٩٦٢ مندوباً من الهيئة العربية العليا إلى الدول الأميركية. ثم حضر الوفد جلسات الأمم المتحدة في نيويورك بشهر نوفمبر ١٩٦٢.

ترشح للنيابة عن مدينة دمشق في انتخابات ١٩٤٩.

على أثر الانقلابات السورية المتكررة انتقل إلى بيروت سنة ١٩٥٤ وانتخب سكرتيراً تنفيذياً «لمؤتمر خريجي الجامعة الأميركية» الذي عقد دورته الأولى في بيروت سنة ١٩٥٥ وعقد دورته الثانية في القدس سنة ١٩٥٦ تحت اسم «مؤتمر الخريجين العرب».

كان المعلق الرئيسي في صحيفة «الحياة» البيروتية من عام ١٩٥٤ إلى حين اغتيال صاحبها المرحوم كامل مروة.

أسس «دار الأبحاث والنشر» في بيروت سنة ١٩٦٦ وأصدر موسوعة «سجل العالم العربي» باللغتين العربية والإنكليزية بالإضافة إلى نحو ثلاثين كتاباً مؤلفاً ومترجماً.

أصدر في السنوات القليلة الماضية باللغة الإنكليزية ثلاثة كتب سنوية عن المملكة العربية السعودية (١٩٧٩ - ١٩٨٣) وكتاباً رابعاً عن الخطة الخمسية الثالثة للمملكة السعودية (١٩٨٠ - ١٩٨٥).

انتخبته «جمعية دراسات الشرق الأوسط في أميركا الشمالية» عضواً مشاركاً تقديراً لأهمية موسوعة «سجل العالم العربي».

كتب أخرى للمؤلف
صدرت عن " دار الابحاث والنشر "

سجلّ العالم العربي، سلسلة فصليّة من ١٩٦٦_١٩٧٤، ٢٣ مجلّد، بالعربية والانكليزية

" قضايانا العربية " ١٩٦٦

" يا عقلاء العرب أتحدوا !" سلسلة من عشرة كتب، ١٩٦٧

" الاشتراكية المصرية والقضية الفلسطينية "، ١٩٦٨

" الاشتراكية الثورية في التطبيق " سلسلة من سبعة كتب، ١٩٦٩

" آل سعود، ماضيهم ومستقبلهم " ١٩٨٦

" مزرعة الحيوانات " لجورج أورويل، مترجم

" العالم عام ١٩٨٤ " لجورج أورويل، مترجم

" رجل دين في موسكو " لجيوفاني غويراشي، مترجم

Record of the Arab World, 1966-1974,23 volumes

Saudi Arabia Yearbooks 1979-1983

المواضيع



المقدّمة

ان انظمة الحكم القائمة اليوم في العالم سواء كانت ديمقراطية، او دكتاتورية، او شيوعية، او غيرها، لم يبلغ احدها حدّ الكمال في تلبية حاجات الناس الروحية والمادية.

وقد شاهدنا في اواخر عام ١٩٨٩ احداثا تاريخية خطيرة في الاتحاد السوفياتي ودول اوروبا الشرقية ذات النظام الشيوعي بيّنت امرَين هامَين في مجالي الاقتصاد والسياسة.

ففي الاقتصاد اعترف الاتحاد السوفياتي ودول اوروبا الشرقية بفساد نظام احتكار الدولة لوسائل الانتاج والتوزيع الذي فرضته التعاليم الشيوعية الماركسية، وعجزه عن تلبية حاجات المواطنين الحياتية فتخلّوا عنه ويحاولون الان الانتقال الى النظام الاقتصادي الحرّ القائم على الملكية الفردية، والمبادرة الشخصية، والتنافس بين المنتجين، كل دولة بالشكل الذي يلائم اوضاعها.

وفي السياسة عبّرت الشعوب عن تمسكها بالحريات الانسانية والسياسية التي كبتتها الدكتاتورية الشيوعية، بمجرد ارتفاع التهديد العسكري السوفياتي عنها، فسارعت تقلب حكوماتها بمظاهرات شعبية سلمية (عدا رومانيا)، وتُعيد تنظيم حياتها على الاسس الديمقراطية التي تحترم حرية الانسان، وحقه بالمشاركة بحكم بلده عن طريق مؤسسات سياسية حرّة وثابتة، وبموجب دستور واضح يحدّد كيفية انتخاب الحكام وصلاحياتهم، ويحمي حقوق السكان وحرياتهم من تعسّف شخص او حزب او جماعة متسلطة. ويعني هذا رفض جميع اشكال الحكم التي تستأثر بالسلطة بموجب نظام الحزب الواحد، وتعتمد في تثبيت حكمها على اجهزة المخابرات التي تقمع الحريات، وعلى انتخابات مزوّرة تعطيها شرعية مزيّفة، بما يعني رفضا لجميع الانظمة الدكتاتورية مهما تعددت اشكالها وتسمياتها.

ان الاحداث التاريخية المثيرة التي حصلت في الاتحاد السوفياتي وفي دول اوروبا الشرقية اثبتت ان النظام الشيوعي الماركسي في نواحيه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لم يعد خيارا وارداً في تطلعات الشعوب التواقة الى الرقي والحرية، ولم يعد امامها الا النظام الديمقراطي المستمد من اسس فلسفية ونظرية مشتركة، مع تعددية في اشكال الحكم حسب اوضاع كل شعب واختياره.

لقد توصلّت الشعوب الاوروبية الى هذه النتيجة، مع تعدد اجناسها ولغاتها، وتباعد مواطنها، وشدّة الخلافات القومية بينها، لان جامعا مشتركا يوحّد بين ثقافاتها وينظّم نمط تفكيرها، ويكوّن عقليتها هو انتماؤها الى اصول واحدة نابعة من التراث الهيليني ـ المسيحي.

وقد نجد في المجتمعات الغربية تيارات فكرية تبتعد عن الدين، وتعاديه احيانا، لكنها تبقى متأثرة بالقِيَم التي نشأت عن هذا التراث.

لكن أنظمة الديمقراطية الغربية ليست ايضا في المستوى المرغوب. وفي العالم شعوب اخرى ذات اديان وثقافات وذهنيات مختلفة قد لا تجد في تلك الانظمة السياسية والاجتماعية ما يتوافق مع تطلعاتها وحاجاتها وميولها وهي ترى ان في المجتمعات الغربية، خصوصا في اميركا الشمالية، معالم تأخر وانحطاط يتمثل بمظاهر من اهمها : تفكك العائلة كوحدة اجتماعية، فقدان قواعد الانضباط ضمن العائلة والمجتمع، التخلي عن القِيَم الدينية في العلاقات الخاصة والعامة، عدم اكتراث الفرد بما يصيب الاخرين، في حين ان هذه الاخلاقيات هي أساس تكوين اي مجتمع صالح. يضاف الى ذلك التراخي الملحوظ في الترابط الاجتماعي بين المواطنين لان الدولة قلّصت دور التعاون الطوعي بينهم وربّت في اذهانهم الاعتماد الكلّي على الخدمات الاجتماعية التي تكفلّت بتقديمها. ولم يطل الوقت حتى عجزت عن تقديم ما وعدت به رغم الضرائب الفاحشة التي تستوفيها فنشأ عن كل ذلك مجتمع مفكك العرى، يعتبر كل انسان فيه ان تحقيق أغراضه الخاصة هو همه الاول في الحياة ويتقدم على كل ما سواه.

وقد بلغ هَوَس هذه المجتمعات بالحرية الفردية ان التوازن اختلّ بين حقوق الفرد وحقوق المجتمع، وضاع الشعور بالمسئولية، وعمّت فكرة انتشرت

بين الناس معادية للمقاييس الاخلاقية التي كانت سائدة، روّج لها المجتمع الاكاديمي اليساري ووسائل الاعلام المتأثرة بنفوذه مما أدّى الى وضع قوانين متطرّفة لحماية حقوق الفرد صارت حين تطبيقها في القضاء تراعي المجرم تفضيلا على الضحيّة فاستفحل الاجرام وعجزت الدولة عن ضبطه حتى اصبح المواطن الشريف لا يأمن على حياته وماله من اعتداء يبقى دون عقاب.

فهل هناك خيار ثالث بين الدكتاتورية الفاشلة وبين النظام الغربي المنفلش؟ وهل يتوجب علينا ان نقبل الحياة الغربية بكل حسناتها ومساوئها اذا اردنا اقتباس التقدم العلمي الذي طوّره الغرب؟

يبدو لنا ان اليابان وكوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورة وغيرها اجابت على السؤال الثاني بالنفي وبيّنت انه يوجد خيار ثالث بين النظامين الشيوعي الدكتاتوري والديمقراطي الغربي. فقد اخذت هذه الدول من الغرب العلوم والتكنولوجيا ونافسته بها دون ان تتخلى عن ثقافتها وتقاليدها، بل ان احتفاظها بتراثها كان من اسباب نجاحها وتفوقها.

ونحن في الشرق الاوسط نعيش في محيط ذي ثقافة اسلامية . والاسلام قوة روحية هائلة وحيّة تستأثر بقلوب تابعيها وبمشاعرهم ربما اكثر مما تستطيع ان تدّعيه الان الاديان الاخرى فمن الطبيعي ان يرغب المسلمون بانشاء نظام حكم مختلف يستمد مبادءه من تعاليم الاسلام ومن ثقافته وتاريخه. ويعتبر كثير من المسلمين ان الاسلام جاء فعلا بنظرية سياسية مستقلة تصلح لكل عصر ولهذا العصر. ومهمتنا في هذا الكتاب ان نفتش عن هذه النظرية ونستكشف معالمها ان وُجِدت.

في هذا الموضوع نجد تيارين يتجاذبان المسلمين حاليا : تيّار يعتقد ان الاسلام دين ودولة اي انه نظّم دولة بالاضافة الى كونه دينا سماويا، وهو برأيهم قد شرّع للدولة واجباتها بموجب اوامر الهية لا تجوز مخالفتها. بالاضافة الى ذلك، فان الفقهاء برأيهم قد استنبطوا، في القرنين الثامن والتاسع، الاجتهادات الكافية والوافية في جميع المواضيع التي يمكن ان تعرض للبشر، بما فيه النظام السياسي، فأغلقوا باب الاجتهاد ولا يشعرون بحاجة الى فتحه . في هذا الفريق فئات ناشطة تسعى حثيثا في مختلف البلاد الاسلامية لاعادة الحكم الاسلامي والدولة الاسلامية كما كانت في القرن السابع أيام

الخلفاء الراشدين أذ أنهم يؤمنون ان هذه الدولة وحدها هي التي توفر الهناء والسعادة للبشرية جمعاء. وغالبا ما تترافق هذه الدعوة مع عداء واضح للغرب في سياسته وثقافته وعلومه فيرفضون التعامل معه في كل هذه الوجوه خلافا لما فعله اجدادهم في القرن التاسع حين اقتبسوا من العلوم الفارسية واليونانية وطوّروا حضارة اسلامية رائعة سنأتي على ذكرها.

بين المسلمين فريق اخر من المتحررين ليس عندهم تصوّر واضح لنظام اسلامي معيّن لكنهم منفتحون على اقتباس ما يفيد من الانظمة الاخرى، ويهمهم قبل كل شيء اقتباس العلوم والمعارف الحديثة للنهوض بالمجتمع الاسلامي باعتبار ان الحضارة تراث عالمي شائع يغترف منها من يريد ويضيف اليها اذا استطاع. هؤلاء المتحررون يقولون ان اجتهادات الفقهاء السابقين تأثرت بالمحيط والجو السائد حينئذ ولو عُرضت ذات المسائل لفقهاء هذه الايام لربما استنبطوا من الشريعة حلولا مختلفة. لذلك يرَون انه لا بد من فتح باب الاجتهاد واسعا لمعالجة المشاكل الحديثة ومنها ما يتعلق بنظرية الحكم. انه الصراع بين "أهل العقل" و "أهل النقل" الذي قام في القرن التاسع يتكرر في عصرنا بعد اثني عشر قرنا.

نظرا لاهمية الخلاف بين التيّارين في بحثنا رأينا ان نأخذ من كلام كل فريق ما يعبّر عن اتجاهه. اخترنا من التيّار الاصولي السيدين سيّد قطب وعبد القادر عودة من زعماء الاخوان المسلمين في مصر، والدكتور عبد الله النفيسي وهو باحث في القضايا الاسلامية في الكويت، والشيخ محمد محمود مندورة الاستاذ في جامعة الملك سعود في الرياض وهو مصري.

واخترنا من التيّار المتحرر الدكتور غازي القصيبي وهو أديب وشاعر وإداري ممتاز وأفضل من يمثل الطبقة الجديدة المتنورة والمتعلمة في الدولة السلفية التي هي المملكة العربية السعودية. وهو يُعتبر بالاضافة الى ذلك من الطبقة الحاكمة في الدولة السعودية إذ تولى وزارة الاقتصاد ثم وزارة الصحة في عهد الملك فيصل وأوائل عهد الملك فهد.

اخترنا ايضا من هذا التيّار الدكتور زكي بدوي رئيس الكلية الاسلامية في لندن، والشيخ خالد محمد خالد وهو كاتب اسلامي صاحب مؤلفات كثيرة وشهيرة.

نبدأ بالتيّار الاصولي حيث يقول الاستاذ سيّد قطب : "يقدّم الاسلام للبشرية نموذجا من النظام المتكامل لا تجد مثله في اي نظام عرفته الارض من قبل الاسلام ومن بعد. والاسلام لا يحاول ولم يحاول ان يقلّد نظاما من النظم، او ان يعقد بينه وبينها صلة او مشابهة، بل اختار طريقه متفرّداً فذاً، وقدم للانسانية علاجا كاملا لمشكلاتها". (١)

ويقول ايضا : "ان اسلوب التفكير الاسلامي القائم على الغايات الخلقية للاعمال لا يستطيع الالتقاء باسلوب التفكير الغربي القائم على الغايات النفعية للاخلاق. وهذا ما يجب علينا ان نحسب حسابه ونحن نعمل لتحقيق حياة اسلامية سليمة فلا نحاول ترقيع هذه الحياة باستعارات نستوردها من الخارج لان هذه الرقع لن تستقيم مع نسيج فكرنا الاصيل". (٢)

يتابع الاستاذ سيّد قطب قائلا : "لا يجوز ان نتّخذ الفكرة الغربية وسيلتنا لاحياء الفكرة الاسلامية. فلا بد اولا من التخلص من طريقة التفكير الغربية، ولا بد من اتخاذ طريقة تفكير اسلامية ذاتية لنضمن ان يجيء النتاج خالصا غير هجين". ثم يقول، ان الصراع الحقيقي الصحيح ليس بين كتلتي الشرق والغرب، انه بين الاسلام وبين الكتلتين الغربية والشرقية جميعا. ان الاسلام هو القوة الحقيقية التي يحسب لها المعسكران كل حساب . (٢)

هذا الكلام يعيدنا الى القرنين السابع والثامن عندما اندفع المسلمون يخضعون العالم لنشر الاسلام "بالجهاد" وحاربوا الامبراطوريتين الفارسية في المشرق، والبيزنطية في المغرب. بعد اثني عشر قرنا تقوم فئات تدعو المسلمين الى الجهاد والى اتخاذ موقف عدائي مماثل ضد العالمين الغربي والشيوعي في الوقت الذي اختلّ فيه ميزان القوى بشكل فادح لصالح غير المسلمين.

سيأخذ كثير من الناس هذا الكلام على محمل التفاخر والمبالغة لحفز الهمم ولا يجدونه كلاما جديّا جديرا بالاهتمام. لكن ما هو أشد خطرا على المسلمين في هذا التفكير هو الدعوة الى "نبذ طريقة التفكير الغربية واتخاذ طريقة اخرى اسلامية" دون شرح معنى "طريقة التفكير الاسلامية" وكيف تختلف عن الطريقة الغربية. إذ المعروف عن التفكير الغربي انه تفكير علمي مبني على الملاحظة والتجربة والاستقراء وتحكيم العقل. وهو اساس التقدم العلمي الذي حققته المدنية الغربية في القرون الاربعة الماضية، وهو اسلوب

تفكير متاح لجميع البشر يستخدمه جميع علماء العالم على اختلاف اجناسهم وادياناهم. فهل الدعوة الى طريقة تفكير مخالفة تعني انها ستكون طريقة غيبيّة وغير علمية. هذا ما لم يفسره التقليديون.

ويقول الاستاذ عبد القادر عودة من زعماء الاخوان المسلمين في مصر: "ان كل من يحاول الادعاء بان نظام الحكم الاسلامي يماثل نظاما معيّنا من انظمة الحكم التي عرفها العالم قديما وحديثا فانما يتكلف ويدّعي ما لا يعلم. فالنظام الاسلامي فريد في نوعه أوجده الاسلام ولم يحاول احد ان يقلّد المسلمين فيه، بل ان المسلمين انفسهم لم يطبقوا النظام الاسلامي بعد وفاة النبي الا في عهد الخلفاء الراشدين، ثم حولّت الاهواء هذا النظام الالهي الى ملك عضوض لا يتورع ان يعطل احكام الاسلام. واذا كان من اخصّ صفات الحكومة الاسلامية انها حكومة شورى فانها لا تشبه بشيء الحكومات النيابية. والشورى لا تشبه في شكلها ولا نوعها ولا الغرض منها تلك الشورى التي تقوم عليها الحكومات النيابية". (٤)

يضيف الدكتور عبد الله النفيسي الى ذلك في فضائل النظام الاسلامي "ان الحقوق السياسية للافراد في ظلّ الشريعة الاسلامية اكبر واخطر واشمل من الحقوق السياسية الممنوحة لهم في ظلّ الديمقراطية". (٥)

ننتقل الى موقف فريق المتحررين الذي تعبّر عنه الاقوال التالية :

كتب الدكتور غازي القصيبي تحت عنوان "نحن والحضارة الغربية" :

أقرأ بين الآونة والاخرى مقالات إنشائية عاطفية تتحدث عن سموم الغرب وبريق المدنية الزائف وتنتهي بدعوة صريحة او مبطنة الى مقاطعة الحضارة الغربية مقاطعة كاملة.

اول ما نلاحظه على هذه الدعوة انها غير عملية. بوسعنا ان نبغض الحضارة الغربية او نحبها، لكن ليس بوسعنا ان ننكر انها لعبت دورا حاسما في تطور البشرية وحققت من التقدم المادي والعلمي ما لم تحققه حضارة قبلها. وليس بوسعنا ان نزعم اننا نستطيع العيش بدون منجزاتها العلمية والتكنولوجية او ننكر انها تلعب دورا كبيرا في حياتنا اليومية.

ان دعوة رفض الحضارة الغربية تنبع اولا وقبل كل شيء من خوف

على الدين والتقاليد والعادات. وهذا الخوف امر مشروع اذا لم نسرف فيه فقد بقي الاسلام عبر اشد المحن وسيبقى. واقتباس بعض الجوانب الايجابية في الحضارة الغربية لن يضير الدين في شيء. وحتى التقاليد والعادات لا خوف عليها من الاقتباس المتبصّر. لقد نقلت اليابان التكنولوجيا الغربية والاساليب الاقتصادية دون ان تفقد طابعها المميز او عاداتها الخاصة.

وفي الحضارة الغربية جوانب لا مناص من اقتباسها اذا اردنا التخلص من تخلفنا الراهن. اذ ان كل ما يتم من تقدم في علم الطب، وفي هندسة الصواريخ، وفي نظريات الاقتصاد، وفي تحسين الكفاية الانتاجية يتم في الغرب وعلى يد علماء غربيين يتحدثون بلغات غربية، فاما ان نتابعهم او نبقى متخلفين عن ركب المدنية وقد علمتنا حرب حزيران ١٩٦٧ ان ثمن هذا التخلف قد يكون كرامتنا واراضينا واستقلالنا السياسي.

وهناك جوانب في الحضارة الغربية يحسن بنا ان نلمّ بها تشمل التراث في السياسة والفلسفة والادب والقانون. والواقع ان الخلاف الذي يثور حول الحضارة الغربية انما يثور حول هذه الجوانب بالذات.

لقد ضرب فقهاؤنا الاولون مثلا رائعا لكيفية مواجهة تحديات العصر بنجاحهم في ان يفسروا الشريعة ويستنبطوا منها القواعد لتنظيم ما يعرض لهم من مشاكل. غير اننا اليوم لا نستطيع ان نكتفي بالتراث الفقهي السابق. فاولئك لم يشهدوا الباخرة ولا الطائرة، ولا الصعود الى القمر، ولا الكومبيوتر لذلك لم يتركوا لنا قواعد اسلامية في هذه المواضيع وما يشابهها.

يجب ان لا يمنعنا من هذا التفاعل الخوف من الغزو الفكري الغربي الذي ينسب اليه البعض كل ما يعرفه المسلمون من تأخر. والواقع ان من الاقرب الى الدقة القول ان حالة التأخر التي تعيشها المجتمعات الاسلامية هي التي تجعل من السهل غزوها فكريا. ان عدونا الاكبر هو التخلف وهذا العدو اخطر علينا من اي غزو فكري غريب. (انتهى) (٦)

وكتب الدكتور زكي البدوي رئيس الكلية الاسلامية في لندن بموضوع "الاسلام والغرب" :

الحق اننا نقف حيارى بين تيارين متعارضين، تيار يدعو للعودة الى الماضي عودا كاملا نلغي فيه الحاضر ونجمّد المستقبل، وتيار اخر يدعو الى

الغاء الماضي ونبذ التاريخ والدخول في خضم الحضارة الحديثة غير مثقلين بتراث غريب على العصر وعلى روح العلم والصناعة.

وقد يبشرك انصار العودة الى القديم بقرب انهيار الحضارة الحديثة لانها كما يزعمون حضارة مادّية عاتية ستقتلها تخمتها الماديّة وعطشها الروحي، وعندئذ سيعلو الاسلام بلا تعب ولا مشقّة. ونحن ان صدقنا هذا السخف، ليس علينا الا ان نغمض عيوننا عاما او عامين، او ربما الف عام او الفين، فاذا بحضارة الغرب وقد انهارت واذا العالم يأتينا طوعا او كرها ليعب من روحياتنا الغامرة ما يرد عليه الحياة.

هذا الكلام وامثاله أضغاث احلام. فحضارة الغرب فيها كل عناصر الاستقرار والقوة، واهمها قدرتها على نقد نفسها وتحليل ما يحيط بها ورسم الخطط المناسبة.

ثم ان الغرب ليس اكثر مادية منا وليس اقل روحانية. ألم ننفق ما أنعم الله به علينا من مال لم نبذل فيه جهدا، في احط انواع المتع البدنية واللذات الحسّية؟ فاين هذه الروحية الغامرة؟ ثم ألم يقم الغرب المادي بالبذل لمساعدة الجوعى في افريقيا وكلهم او جلّهم مسلمون؟ أهذا من مظاهر مادّية الغرب؟

ان علة العلل في عجزنا عن مواجهة الحضارة الغربية تأتي من اننا نفكر بعواطفنا لا بعقولنا فنحلم ولا نخطط. ان حالتنا في العصر الحاضر تختلف اختلافا كبيرا عن عصر الرسالة وقد يكون حلّها لذلك مختلفا. لكن هذا الحل ليس غريبا عن الكتاب بل هو من صميم صلبه.

هذا هو التصور الحق للاسلام، إسلام الاصالة والتجديد، الاستمرار مع التطور، الوحي مع العقل. وهذا هو التصور الذي به نستطيع ان نواجه حضارة الغرب مواجهة عالمية بايمان، ومعتقده بفهم، ومباحثه في شئون العالم ومظاهر الطبيعة حبّا في العلم وطاعة لله. (انتهى) (٧)

لعل ابلغ ما يوضح الفرق بين منحى المتحررين والتقليديين الحادثة التالية. فقد نشر الشيخ خالد محمد خالد في جريدة "الشرق-الاوسط" الصادرة في لندن سلسلة من خمسة مقالات بعنوان "الديمقراطية والاسلام :

قضية تنتظر الفهم الصحيح" بيّن فيها ان الديمقراطية من حيث كونها نظاما سياسيا، تدعو الى نفس المباديء التي يدعو اليها الاسلام الذي "يحفل بالنصوص والمشاهد والوقائع التي لا تؤكد تقبّله للديمقراطية فحسب، بل تؤكد ايضا اختياره لها وايثاره إياها وحضّه عليها".

لم يلبث ان انبرى لدحض هذه النظرية الشيخ محمد محمود مندورة وهو استاذ مصري يدرّس في جامعة الملك سعود في الرياض فقال :

ان الاسس التي تقوم عليها الديمقراطية هي ما يلي :

أولا، فصل الدين عن الحياة.

ثانيا، ان الأمة هي مصدر التشريع والسلطات، وهي التي تضع الانظمة والتشريعات (بحكم الاكثرية).

ثالثا، تقديس الحريات الفردية وضمانها مثل حرية العقيدة، وحرية الرأي، وحرية الملكية، والحرية الشخصية.

وهذا كله، يقول الشيخ مندورة، مخالف للاسلام جملة وتفصيلا. فليس في الاسلام فصل للدين عن الحياة. والحاكمية لله وحده، ومصادر التشريع فيه معروفة.

يتابع الشيخ مندورة قائلا، ليس في الاسلام تقديس للحرية بمفهومها الموجود في الديمقراطية. فلا يستطيع المسلم ان يغيّر دينه مثلا.

وليس في الاسلام حرية الملكية الفردية.

وليست في الاسلام الحرية الشخصية بمفهومها في الديمقراطية.

والخلاصة هي ان الديمقراطية ليست من الاسلام في شيء وانها تخالف الاسلام مخالفة صريحة لا يشك فيها أحد.

وينهي الشيخ مندورة قائلا : ان مفهوم الديمقراطية وجميع ما يَبنى عليه من أحكام ودساتير وما ينبثق عنه من أنظمة تتنافى تماما مع الفكر الاسلامي. (انتهى) (٨)

ان هذا الاختلاف العميق بين المسلمين حول جوهر الحكم الاسلامي امر خطير لا يحله الا المسلمون فيما بينهم. ومع ذلك نشارك في البحث ليس تأييدا لفريق على آخر بل استطلاعا لحقيقة "النظرية السياسية في الاسلام".

ونود التاكيد ان اهتمامنا بالموضوع ليس تطفّلا على ابحاث اسلامية كما انه ليس بحثا أكاديميا في المطلق ذلك اننا في الشرق الاوسط نعيش في محيط غالبيته اسلامية ومن حقّنا كمواطنين في احدى دوله ان نحاول التعرّف على طبيعة الحكم الذي يُحتمل ان نعيش في ظلّه.

ونحن ندرك حساسية بعض المسلمين تجاه من يبحث امورا ذات صلة بالاسلام من غير المسلمين. لكن ما ذنبنا ما دام بعضهم يصرّ على القول ان الدين والدولة متّحدَين في الاسلام؟ أو لا يحق لنا ان نستكشف طبيعة النظام الذي يمكن ان يحكمنا؟ وقد أخذ بحثنا واقعية ملحّة بعد قيام الدولة الاسلامية في ايران ونشاط المنظمات الاصولية حاليا في عدة بلاد عربية وكلها تعطي مثالا عمّا يمكن ان يكون عليه نظام مماثل في بلادنا.

سنحاول استكشاف ما اذا كان الاسلام قد جاء بنظرية سياسية متكاملة يمكن ان يتناولها الفريق الاول ويطبقها في هذا العصر، او ان الاسلام اعطى دلالات وإشارات فقط يمكن الاسترشاد بها لبناء نظام سياسي حديث يتوافق مع متطلبات هذا العصر. ونعني بالنظرية السياسية تلك المبادىء والقوانين والانظمة التي تبيّن نوع الحكم، هل هو حكم ديني (ثيوقراطي)، او مدني ديمقراطي، او دكتاتوري يعتمد على القوة العسكرية وعلى أجهزة المخابرات، وكيف يجري تنصيب الحاكم وهل ذلك وراثي او انتخابي او سلطوي اغتصابي، وما هي علاقة الحاكم بالمحكومين، وحدود سلطته تجاه حرّياتهم، وما هي المؤسسات السياسية الثابتة التي يشارك المواطنون من خلالها بالحكم ويراقبون تصرفات الحكام ويحاسبونهم، وما هي التدابير الدستورية لعزل الحاكم اذا أساء.

وبما ان الاسلام دين ذو انتشار عالمي، وهو قوة تؤثر في مصائر المسلمين وغير المسلمين على السواء فلا يمكن ان يقتصر بحث قضاياه على المسلمين وحدهم، بل ان من مصلحة المسلمين ان يفهم غير المسلمين الاسلام ليعرفوا كيف يتعاملون معه ومع بعضهم البعض.

ان بحثنا لن يلامس المعتقدات الدينية والعبادات والاحكام والمعاملات من قريب او بعيد فنحن نقبل الوحي كما أُنزل ولا نناقش به، اما التصرف السياسي والاجتهاد في مواضيع الحكم بعد النبوّة ابتداءاً من عهد الخلفاء

الراشدين وما بعده فهو بنظرنا باب مفتوح للبحث والمناقشة لانه ينظر في تصرفات اشخاص هم بشر كسائر الناس مهما ارتفعت مكانتهم.

وقد يتضايق البعض من نقاشنا حول الخلفاء الراشدين والصحابة الذين انزلهم البعض منزلة تقارب القداسة. ولعل ضيقهم يزول متى تيقنوا ان معلوماتنا مستمدة من مراجع اسلامية موثوقة.

يتوجّه كتابنا ايضا الى الجماعات غير الاسلامية التي تعيش ضمن الاكثرية الاسلامية في الشرق الاوسط. هؤلاء، حسب اطلاعي، لا يعرفون كثيرا عن الاسلام رغم انهم عاشوا اجيالا في محيطه. وقد وجدنا من المفيد ان نطلعهم باختصار، في الفصلين الاول والثاني، على الدعوة الاسلامية منذ نشوئها في مكة الى وفاة النبي في المدينة لانها وضعت الاساس الديني والثقافي للمجتمعات الاسلامية اللاحقة. ولا يمكن، بنظرنا، فهم الاسلام الحالي اذا لم نفهم منشاه، كما اننا لانستطيع فهم الدين المسيحي اذا لم نطّلع على احوال المحيط اليهودي الذي نشأ فيه المسيح في فلسطين وبشّر برسالته.

بعد عهد النبوّة، بدأنا نستقصي "النظرية السياسية في الاسلام" على خطّين متوازيَين. ذهبنا في الفصل الثالث الى "منابع الدين" واستهدينا بآيات عالجت نواحي من مواضيع ذات صِلة بالسياسة والحكم. لكن ذلك لم يشكل نظرية سياسية متكاملة لان اهتمام "المنابع" انصرف بطبيعة الحال الى الدين وتَرَك تنظيم الحكم الى الاجيال اللاحقة على امل ان ينظّم كل جيل حكمه حسب مقتضيات ظروفه وعصره، فكان لا بد لنا ان نتابع استكشافِ "النظرية" من تصرفات الخلفاء والسلاطين.

وقد افردنا لكل عهد فصلا خاصًا ابتداءً من الخلفاء الراشدين، الى الامويين، ثم العباسيين. ثم تشعّب الموضوع مع ضعف سلطة الخلافة المركزية ونشوء دول ودويلات اسلامية عديدة فتابعنا استقصاء النظرية في تصرف حكّام هذه الدول المتفرقة في الفصل الثامن.

وكان لنا من ذلك غرض آخر. فما يعرفه اكثر الناس عن التاريخ الاسلامي (الذي يطيب للبعض ان يسميه "التاريخ العربي") يتوقف غالبا عند نهاية العهد العباسي الاول اي نحو سنة ٨٦٠ فيكون قد دام نحو ٢٣٠ سنة بعد وفاة الرسول. لكن حكم الاسلام دام الف سنة بعد ذلك في ممالك متفرقة

تمتد من الهند الى غرب اوروبا من ضمنها الدولة العثمانية التي عمّرت اطول من أية خلافة اسلامية سابقة فاستحقت ان نفرد لها الفصل التاسع.

ان استعراضنا للدول والدويلات الاسلامية بشكل مختصر استقصاءاً لانظمة الحكم فيها، يفيد القارئ من ناحية اخرى اذ يعطيه لمحة عن تاريخها، الذي هو بالحقيقة تاريخ الاسلام السياسي، يستطيع بعدها ان يتوسع في معلوماته اذا اراد، بالرجوع الى المصادر المطولة.

نستعرض في الفصل العاشر ردّ اوروبا على التوسع الاسلامي وتقليص امتداده واحتلال اقطار اسلامية كثيرة في القرنين التاسع عشر والعشرين دام الى نهاية الحرب العالمية الثانية، تبعه ظهور الدول المستقلة وبذلك ندخل العصر الحالي.

نأمل ان نكون ساهمنا في التعرف على "النظرية السياسية في الاسلام" من الاطلاع على المبادئ السياسية ومن متابعة اشكال الحكم الذي ساد في بلاد مختلفة الشعوب والثقافات امتدت من الهند الى اسبانيا في ازمان مختلفة، لا يجمع بينها الا الدين والثقافة الاسلامية، عسى ان يساعدنا ذلك على ادراك ما يمكن ان يكون عليه حكم اسلامي يقوم في هذا العصر في بلادنا او في جوارنا.

مونتريال، كندا، مايو (أيار) ١٩٩٠

جبران شامية

حيثما استطاعوا. ولم تكن العلاقة بين سكان الواحات والبدو ودية.

بالاضافة الى الواحات، نشأت تجمعات سكنية أكبر إمّا حول مياه اغزر وزراعة اوسع كيثرب والطائف، أو لانها وقعت على طريق القوافل التجارية كمكة، أو لاجتماع السببين. كانت تجتاز الجزيرة العربية قوافل تنقل البضائع ذهابا وايابا من بلاد الهند وفارس، ومن بلاد الشام والروم، وتتبع طريقين رئيسيين أحدهما يتاخم الخليج الفارسي ويتجه نحو العراق ثم يتجه غربا الى شواطئ البحر المتوسط، والثاني يسير بمحاذاة البحر الاحمر الى السويس ثم الى الاسكندرية على البحر المتوسط. وكانت هذه القوافل مصدر رزق لسكان الجزيرة فالقبائل تتقاضى منها رسوما لحمايتها، وأحيانا تنهبها، وسكان الواحات يبيعون ويشترون .

من هذه المراكز التجارية برزت مكة التي تقع في وادي محاط بالجبال لكنّه يتمتع بثلاثة منافذ تصِلُه بطريق الى اليمن، وآخر الى جدّة على ساحل البحر الاحمر، والثالث يتجه شمالا الى فلسطين .

كانت مكة بالاضافة الى مركزها التجاري، مركزا دينيا يحج اليها العرب كل عام لوجود الكعبة فيها وهي تضم الحجر الاسود وأصنام القبائل فيشكل ذلك موردا سنويا مهما لسكانها، وقد اصطلح العرب منذ أقدم العصور على تحريم الغزو والاقتتال أربعة أشهر من كل عام ليحجّوا الى مكة وهم آمنون .

سكان مكة : تقول كتب السِيَر أنه كانت تسكن منطقة مكة وشعابها وبطاحها قبائل مبعثرة وان قُصَي بن كلاب جمع هذه القبائل تحت زعامته في منتصف القرن الخامس وسُمي هذا التجمع "قريش" وتعني هذه اللفظة لغويا "تجمع الناس" وقُصَي هذا هو الجد الرابع للنبي محمد.

دار الندوة

نظم المكيون امورهم حول "دار الندوة" وهو المجلس الذي يدير الحياة السياسية والاقتصادية والقضائية في المدينة ويتألف من كبار اهل مكة فلا يتم امر من امور البلد الا باتفاق اعضاء الندوة، ولا تقضي قريش بامر خارج الندوة . (١)

نظرا الى اهمية مورد الحج في حياة سكان مكة فأن اعضاء الندوة كانوا





حيثما استطاعوا. ولم تكن العلاقة بين سكان الواحات والبدو ودية.

بالاضافة الى الواحات، نشأت تجمعات سكنية أكبر إمّا حول مياه اغزر وزراعة اوسع كيثرب والطائف، أو لانها وقعت على طريق القوافل التجارية كمكة، أو لاجتماع السببين. كانت تجتاز الجزيرة العربية قوافل تنقل البضائع ذهابا وايابا من بلاد الهند وفارس، ومن بلاد الشام والروم، وتتبع طريقين رئيسيين أحدهما يتاخم الخليج الفارسي ويتجه نحو العراق ثم يتجه غربا الى شواطئ البحر المتوسط، والثاني يسير بمحاذاة البحر الاحمر الى السويس ثم الى الاسكندرية على البحر المتوسط. وكانت هذه القوافل مصدر رزق لسكان الجزيرة فالقبائل تتقاضى منها رسوما لحمايتها، وأحيانا تنهبها، وسكان الواحات يبيعون ويشترون .

من هذه المراكز التجارية برزت مكة التي تقع في وادي محاط بالجبال لكنّه يتمتع بثلاثة منافذ تصِلُه بطريق الى اليمن، وآخر الى جدّة على ساحل البحر الاحمر، والثالث يتجه شمالا الى فلسطين .

كانت مكة بالاضافة الى مركزها التجاري، مركزا دينيا يحج اليها العرب كل عام لوجود الكعبة فيها وهي تضم الحجر الاسود وأصنام القبائل فيشكل ذلك موردا سنويا مهما لسكانها، وقد اصطلح العرب منذ أقدم العصور على تحريم الغزو والاقتتال أربعة أشهر من كل عام ليحجّوا الى مكة وهم آمنون .

سكان مكة : تقول كتب السِيَر أنه كانت تسكن منطقة مكة وشعابها وبطاحها قبائل مبعثرة وان قُصَي بن كلاب جمع هذه القبائل تحت زعامته في منتصف القرن الخامس وسُمي هذا التجمع "قريش" وتعني هذه اللفظة لغويا "تجمع الناس" وقُصَي هذا هو الجد الرابع للنبي محمد.

دار الندوة

نظم المكيون امورهم حول "دار الندوة" وهو المجلس الذي يدير الحياة السياسية والاقتصادية والقضائية في المدينة ويتألف من كبار اهل مكة فلا يتم امر من امور البلد الا باتفاق اعضاء الندوة، ولا تقضي قريش بامر خارج الندوة . (١)

نظرا الى اهمية مورد الحج في حياة سكان مكة فأن اعضاء الندوة كانوا

ينظّمون الشئون المتعلقة بهذا الموسم اي الحجابة وتعني حيازة مفاتيح البيت الحرام وخدمته، والسقاية وهي توفير الماء والنبيذ للحجاج، والرفادة وهي توفير الطعام لهم، كما كانوا يعيّنون شخصا لقيادة الجيش اذا خرجت قريش للحرب .

نظّمت "الندوة" ايضا تجارة المكيين الواسعة فقد كانت لهم رحلتان تجاريتان رئيسيّتان في السنة : رحلة الشتاء لليمن، ورحلة الصيف الى بلاد الشام، عدا رحلات اخرى متفرقة لانحاء مختلفة. وكان هاشم ابن عبد مناف الذي ينتسب اليه الهاشميون اول من سنّ الرحلتين لقريش. وقد تنظمت الرحلات الكبيرة على شكل ما نسميه الان "تعاونيات" او "شركات مساهمة" مفتوحة لجميع السكان فقد كان باستطاعة من اراد من أهل مكة ان يشارك بهذه التجارة فيدفع من المال ما يشاء حسب قدرته فتعم منافعها نسبة كبيرة من السكان وكان يبلغ حجم القافلة احياناً الفي بعير وتزيد قيمتها عن خمسين الف دينار وكانت تجارة مكة السنوية تساوي نحو ماية وستين الف جنيه ذهباً.

حلف الفضول

اهتمت قريش أيضا بضعفائها فتداعت قبائلها الى حلف فتعاقدوا على ان لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى تُرَدّ عليه مظلمته. فسمت قريش ذلك الحلف "حلف الفضول" قال فيه الرسول بعد ذلك "لقد شهدت حلفا لا احب نقضه"(٢) وهذا يشير الى درجة متقدمة من الوعي والتنظيم الاجتماعي لدى اهل "الندوة".

العصبيّة العربية

يجب التأكيد أن التركيب الاجتماعي في البادية والمدن الحجازية كمكة ويثرب والطائف كان قائما على العصبية بين القبائل، والعصبية بين العائلات، والعصبية بين فروع العائلة الواحدة كما حدث بين الامويين والهاشميين من أولاد قُصَيّ فقد اختلف اميّة بن عبد شمس جدّ الخليفة معاوية بن ابي

سفيان مع عمه هاشم ابن قُصَيّ في القرن الخامس فبدأت العداوة بين الهاشميين والامويين التي استمرت عدة قرون. ولم يختلف مجتمع المدن عن مجتمع البادية لان المدن نفسها كانت مؤلفة من تجمع قبائل.

وقد نقل العرب عصبيتهم الى الاقطار الجديدة التي افتتحوها وسكنوها وبقيت ملازمة لهم حتى بعد أن تركوا البداوة وتحضروا وأسلموا فكانت آفة نكبت العرب عبر تاريخهم بانقسامات وخصومات حادة زعزعت كيانهم وغلّبت الامم الاخرى عليهم. يقول ابن خلدون فى وصفها : "إن العصبية المستندة الى قرابة الدم من أخص خصائص العرب ولا بد للحاكم من عصبية تمكّنه من تأسيس السلطة السياسية وتساعده على حمل الناس على الطاعة والنظام واحترام الحقوق والواجبات. وبتعبير آخر، فان العصبية هي منشأ الرئاسة والسلطان وتكون الرئاسة دائما لاهل العصبية. فالرئاسة لا تكون الا بالغَلَب، والغَلَب لا يكون الا بالعصبية. ويتابع ابن خلدون قائلا : إن للدعوة الدينية أثراً في قيام الدولة، لكن الدعوة الدينية نفسها لا يمكن أن تتحقق دون عصبية (قائمة على الدم). ولا يكفي أن يكون القائد من عصبية كبيرة بل ينبغي أن يكون من نسل أقوى فرع من تلك العصبية الكبيرة". (٢)

يعلق الدكتور طه حسين على كلام ابن خلدون فيقول : "إن التاريخ لم يذكر قط شعبا يفوق الشعب العربي في الاستمساك بعصبيته وتقديم صلة الرحم (قرابة الدم) على ما سواها من الصلات. إن تاريخ العرب قبل الاسلام وبعده ليس الا سلسلة طويلة من الخصومات بين القبائل وهي خصومات منشأها الحقيقي تلك العصبية التي دفعت الى حد التعصب. يقول المثل العربي "انصر أخاك ظالما أو مظلوما" فلا عجب اذا كان ابن خلدون يعلق على العصبية أهمية عظمى ويعتبرها العامل الجوهري لقوة المجتمع السياسي"

إن هذه العصبية الناشئة عن القربى ورابطة الدم، وضرورة أن يكون القائد أو الزعيم من عصبية كبيرة، وأن يكون من نسل أقوى فرع من تلك العصبية الكبيرة، أمور يُخلق الانسان بها ولا يمكن اكتسابها. وقد رافقت العصبية خلال أخرى لازمت التاريخ الاسلامي هي الانَفَة والتعالي والتفاخر بالانساب وبالقبيلة عبّر الشعراء عنها قبل الاسلام وبعده في اشعار كثيرة نذكر بعض امثالها :

قال الشاعر عمر بن كلثوم يهجو كسرى ملك الفرس :

ملأنا البرّ حتى ضاق عنا   وماءُ البحر نملأه سفينا
اذا بلغ الفطامَ لنا صبيٌّ   تخرُ له الجبابر ساجدينا

وقال الفرزدق يتفاخر على منافسه جرير :

اولئك أخوالي فجئني بمثلهم   اذا جمعتنا يا جرير المجالس

وقال المتنبي :

الخيل والليل والبيداء تعرفني   والسيف والرمح والقرطاس والقلم
انا الذي نظر الاعمى إلى أدبي   وأسمعت كلماتي من به صمم

وقال آخر:

أنا من دانت الرقاب له   فقوّمَها بالسيف حتى استقلت

وقال الحجاج بن يوسف يهدد اهل العراق :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضعُ العمامة تعرفوني

لم يكن أبو بكر وعمر أصحاب عصبية عائلية قوية. لكنهما ذهبا الى سقيفة بني ساعدة أثناء وفاة النبي ينازعان الانصار باسم العصبية القرشية على من تكون الولاية بعد الرسول. لم يتكلم المجتمعون بالشخص الاكثر أهلية لقيادة المسلمين بل وجدوا من الطبيعي أن يتكلموا كجماعتين متنافستين كل رهط يريد الخلافة لجماعته. أما من يتسلم السلطة ضمن الجماعة فأمر تتنازع عليه الجماعة فيما بينها. وقد تغلبت قريش وأبعدت الخلافة عن الانصار الى الابد ولم يرتفع لهؤلاء شأن بعد ذلك.

وقد تصرف أبو بكر وعمر من ضمن مفهوم العصبية وخصتا قريشا بالمنافع ولم يعتبرا ذلك مخلاً بدعوة الاسلام الى العدل والمساواة.

عندما تولى عثمان بن عفان الخلافة وهو أموي من آل عبد شمس أقوى عائلات قريش وأغناها الذين كانت لهم الزعامة قبل الاسلام، وجد من الطبيعي أن يخصّ بني أمية بالمنافع وأن يميّزهم على سائر قريش. ولما اعترض عليه بعض الصحابة أجابهم "إن لي قرابة ورحما".

في الخلاف بين الامام علي ومعاوية استفحلت العصبية بين بني هاشم والامويين فانحازت قبائل لعلي وأخرى لمعاوية، وكثير منها لم يتحزب لهذا أو

لذاك بل لقبيلته مقابل قبيلة أخرى طلبا لمغنم أو تفاخرا وأنَفَة جاهلية، وكان تعاليم الاسلام التي شددت على محاربة العصبية الجاهلية وعلى جمع المسلمين كتلة متحدة في محاربة الكفار بقيت نصوصا جامدة لم تنفذ الى القلوب.

تغلب الامويون وأقصوا بني هاشم عن الخلافة والحكم. وفي عهدهم تعززت العصبية العربية فقد ميّزوا العنصر العربي واحتقروا الموالي (الذين أسلموا من غير العرب)، واستفحلت العصبية بين القحطانيين والعدنانيين (اليمنيين والقيسيين) أي عرب الجنوب وعرب الشمال، ثم بين القبائل داخل كل فريق. ونقل العرب خلافاتهم الى البلاد التي فتحوها شرقا وغربا مما كان سببا رئيسيا في إضعاف الدولة الاموية.

في العهد العباسي اعتمد الخلفاء على العنصر الفارسي وأهملوا العرب فأضيفت الى العصبية بين العرب عصبية جنسية أخرى بين العنصرين العربي والفارسي عُبّر عنها بالشعوبية، فصار الفرس يتفاخرون على العرب بملوكهم وتاريخهم وحضارتهم ويستهزئون ببداوة العرب. وانتقل الحكم من العرب الى الفرس فضعف شأن العرب عموما. ودام الحال نحو قرنين الى أن جاءت موجات البدو التركية من آواسط آسيا وانتزعت الحكم والنفوذ من العرب والفرس على السواء. وسنرى تفصيل كل ذلك في الفصول اللاحقة.

الاديان في الجزيرة

انتشار الوثنية : كانت عبادة الاصنام هي الاكثر انتشارا بين القبائل العربية وكان العرب يتعبّدون لها ويقدّمون القرابين. وكان لكل قبيلة صنم تعبده كما كان في أكثر البيوت أصنام. أهم أصنام العرب كان هُبَل كبير الآلهة وساكن الكعبة وحوله نحو ثلاثماية صنم آخر منهم أساف، ونائلة، واللات، والعزى، ومناة. ولم يكن البدو يكترثون كثيرا بالدين وكان ايمانهم سطحيا قبل الاسلام وبعده لذلك نزلت الآية : "الاعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله".(٤) لكن مجتمع مكة لم يكن بعيدا عن المعرفة بالله فقد كان اليهود والنصارى منتشرين في مدن الجزيرة وبواديها يتعبّدون ويتجوّلون ويتاجرون ويحتكون بسكان المدن والبادية. وبتأثير هذا الاختلاط جرى على الالسنة في الجاهلية لفظ "اللّهم" وهو يشير

الى الله تعالى، وانتشرت أسماء عبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن مثل عبد الله والد النبي محمد وعبدالله ابن جحش وأخيه عبيد الله ابنا عمة الرسول، وعبد الله ابن الزبير وعبد الرحمن ابن عوف وطلحة ابن عبيد الله وغيرهم مما يدل على شيوع ذكر الله واسم الرحمن في الجاهلية.

اليهودية

الى جانب الوثنية كانت هناك مراكز لليهودية والنصرانية. فاليمن انتقلت من الوثنية الى اليهودية على يد الملك ذي نُواس الحِمْيَري. وانتشرت النصرانية في نجران وجوارها فغزاها ذو نُواس وقتل أهلها في معركة الاخدود التي ورد ذكرها في القرآن. وقد استجار من بقي من سكان نجران بملك الروم فطلب هذا من حليفه نجاشي الحبشة أن ينصرهم لقربه من اليمن فارسل قائده أبرهة الاشرم الذي قضى على ذي نُواس وحكم اليمن ونشر المسيحية فيها. بقيت اليمن تحت حكم الاحباش أثنين وسبعين سنة ثم احتلها الفرس وظلت تحت حكمهم الى الفتح الاسلامي.

إن تعاقب هذه الغزوات ذات الطابع الديني على اليمن وقربها من سواحل الحبشة واستمرار العلاقات التجارية بين البلدين ترك تجمعات مسيحية كبيرة في البلاد الى جانب تجمعات يهودية بالاضافة الى الوثنيين. ولعلّ الفرس تركوا فيها أيضا بعضا من المجوسية. وكان لليهودية أيضا أتباع أقوياء في المدينة وخيبر وفَدك ووادي القرى وتيماء والبحرين وفي قبائل بني غازية وبني عريض وغيرها من القبائل البدوية كما سيأتي. (٥)

النصرانية

أما النصرانية فكان لها فرق مذهبية مختلفة منتشرة في سكان الجزيرة العربية تبعا لانتشارها في الجوار القريب أي في العراق وفي بلاد الشام. أهم هذه الفرق في الجزيرة اثنتان هما النسطورية واليعقوبية. نشأت النسطورية في آسيا الصغرى وسوريا وكانت أهم مراكزها الدينية في الرها (أورفه) حاليا، ونصيبين في شمال شرق سوريا، والحيرة في العراق، وجنديسابور في خوزستان. من هذه المراكز امتدت النسطورية الى الجزيرة العربية وبقيت

النسطورية مزدهرة بعد استيلاء المسلمين على سوريا والعراق وفارس وكان لها في نهاية القرن العاشر ميلادي خمس عشرة أبرشية في بلاد الخلافة الاسلامية وخمس أبرشيات خارجها في الهند والصين (الابرشية هي منطقة ادارية كنسية تضم عددا من المدن والقرى والكنائس تحت إدارة اسقف أو مطران). وقد قام النساطرة بدور رئيسي في تكوين الثقافة الاسلامية إذ كانوا، مع اليعاقبة، أقدر من ترجم العلوم اليونانية الى السريانية والعربية وسنفصل ذلك في فصل لاحق، لكن غزوات تيمورلنك في القرن الرابع عشر قضت على النساطرة وبقيت منهم الى الآن طائفة صغيرة تعرف باسم الطائفة الاشورية كان موطنها في شمال العراق ثم هاجرت في الثلاثينات الى سوريا وأقامت في منطقة الحسكة وتفرق أتباعها بعد ذلك في مدن سوريا ولبنان وبلاد اخرى في الشرق الاوسط والمهاجر.

أما الطائفة اليعقوبية فأسسها في الرها الاسقف يعقوب براداوس الذي توفي سنة ٥٧٨ ونُسبت الطائفة الى اسمه وهم يعترفون بطبيعة واحدة للسيد المسيح وتعرف كنسيتهم الآن باسم "الكنيسة السورية اليعقوبية" وقد حافظوا على اللغة السريانية في صلواتهم وهي لغة قريبة جدا من الآرامية التي كانت لغة المسيح وتلاميذه.

يتفق أقباط مصر والاحباش والارمن مع اليعاقبة بالاعتراف بطبيعة واحدة للمسيح. وقد حافظ اليعاقبة على العلوم اليونانية خصوصا علم الطب والكيمياء والطبيعة وترجموها الى العربية كالنساطرة وكانت أهم مراكزهم العلمية مدرسة الاسكندرية.

في بلاد العرب كانت اليعقوبية منشرة في غسان وسائر قبائل الشام، كذلك كانت لهم صوامع في وادي القرى. وكانت نجران أهم مواطنهم بسبب اتصال سكانها بالحبشة، وهي يعقوبية، أكثر من اتصالهم بالروم.

اشتهر من رؤساء العرب النصارى قسّ بن ساعدة الايادي ويقال أنه كان قسّ نجران. وكان القسس والرهبان يزورون أسواق العرب يَعِظون ويُبشّرون فانتشرت تعاليمهم. (٦)

الى جانب هاتين الطائفتين كانت توجد فرق نصرانية أخرى صغيرة اندثرت منها فرقة تدعى "الابيونية" وتعني بالعبرانية "الرجال الفقراء" وهم

من اليهود المتنصرين اشتهروا بالزهد والتقشف والابتعاد عن أكل اللحوم وقد تبعوا انجيل متى ثم وضعوا انجيلهم الخاص المعروف باسم "الانجيل حسب العبرانيين" ووصفوا المسيح بأنه "ابن الانسان". وقد بالغوا بالتأكيد على المبادئ اليهودية في الديانة المسيحية. أهمية هذه الفرقة في بحثنا أنها كانت، على ما يقال، معروفة ومنتشرة في مكة وقد انتسب اليها عدد من الكبراء بينهم القسّ ورقة بن نوفل ابن عم خديجة زوجة النبي الذي ترجم "الانجيل حسب العبرانيين" من العبرية الى العربية، وعبيد الله ابن جحش ابن عمة محمد ، وعثمان بن الحويرث، وغيرهم. (٧)

يقول بعض الباحثين أن نصرانية ورقة بن نوفل وزملائه تنكر الوهية المسيح وبنوّته لله، وترفض صلبه وقيامته، وترى في المسيح نبيا عظيما من الانبياء لكنه رجل كسائر الرجال جاءه الوحي بعد معموديته على يد يوحنا المعمدان. ويجدر التنويه أن المجامع المسكونية المسيحية منذ القرن الرابع اعتبرت الفرق النسطورية واليعقوبية والابيونية وغيرها من الفرق المسيحية بمثابة هرطقات مرفوضة لان عقائدها تختلف عن العقائد المسيحية السائدة حاليا في الكنيستين الارثوذكسية والكاثوليكية.

يذكر المؤرخون المسلمون انتشار النصرانية في القبائل دون تحديد طائفتها فيقول ابن قتيبة : "كانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاعة". (٨) ويذكر اليعقوبي : "تنصر تميم وربيعة وبني تغلب وطي ومذحج وبهراء وسليخ وتنوخ ولخم". (٩) ويشهد الجاحظ : "كانت النصرانية قد وجدت سبيلها في تغلب وشيبان وعبد القيس وقضاعة وسليخ والعباد وتنوخ ولخم وعاملة وجذام". (١٠)

الجاهلية والامية

لقد سُمّي العصر الذي سبق الاسلام "الجاهلية" ونسبوا اليه الاغراق في التأخر والجهل بجميع أوجه المعارف والآداب. كما استعمل البعض كلمة "الامّية" ليستنتج أن القراءة والكتابة لم تكن معروفة أو منتشرة في ذلك الزمن. وهذا صحيح بالنسبة لعامة العرب وبالنسبة للبدو على الاخص. فقد بقيت القراءة والكتابة والمعارف والآداب قصرا على الخاصة حتى بعد انتشار الاسلام

والى أجيال بعده كما كان الوضع في بلاد أخرى كثيرة. لكن ذلك لا يعني أنه لم يكن بين العرب قبل الاسلام حكماء وشعراء وكتبة ومفكرون واهتمام بالادب. فأشعار "الجاهلية" لا تزال تُدرّس في مدارسنا، واهتمام اولئك العرب بالآداب دعاهم الى عقد "سوق عكاظ" حيث كان يتبارى الشعراء في موسم سنوي وكانت القصائد الفائزة تُعلّق على استار الكعبة فسميت "المعلقات" وهذا يعني أنها كانت مكتوبة، وأن الشعراء أو بعضهم كانوا يحسنون الكتابة. ولا تزال الامثال سائرة عن حِكَم نُقلت الينا من تلك العهود كما أن الخطب الادبية للقسّ بن ساعدة وغيره كُتبت وما زالت محفوظة.

الخلاصة، أن كلمة الجاهلية برأي الاستاذ أحمد أمين "ليست من الجهل الذي ضد العلم بل من الجهل الذي هو السفه والغضب والانَفَة. فكلمة الجاهلية تدل على الخفّة والانَفَة والمفاخرة وهي أمور أوضح ما كانت في حياة العرب قبل الاسلام فسُمي العصر الجاهلي. أما الاسلام فعماده الخضوع لله والانقياد له". (١١)

أما القراءة والكتابة فتخبرنا كتب السِيَر أن ورقة بن نوفل ابن عم خديجة بنت خويلد وقريب النبي محمد ترجم الانجيل من العبرية الى العربية وكان قسًا نصرانيا. وتعلّم علي بن أبي طالب القراءة والكتابة قبل الاسلام ثم كتب "نهج البلاغة" بعدما أسلم ولا يزال كتابه من أعمدة الادب العربي ومن الطبيعي أنه لم يكن الوحيد في مكة الذي تعلم القراءة والكتابة فقد كان هناك من علّمه ومن تعلّم معه .

وقد نشأ محمد في بيتْ أبي طالب والد علي ومن المستبعد أن يتعلم علي ويبقى محمد جاهلا بدليل أنه لما اشتد المرض عليه قال لمن حوله : "أيتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتابا لا تضلّوا بعده أبدا". (١٢)

وقد قلنا أن مكة كانت مجتمعا تجاريا وكذلك كانت بعض مدن اليمن والخليج. والتجارة تستلزم تدوين أصناف البضائع وأسعارها ثم أسعار بيعها ومداخيلها ليتبيّن الربح من الخسارة. فحيث توجد التجارة يوجد التدوين والحساب. وقد كان تجار قريش يدوّنون ويحسبون، أو يستخدمون كتابا من المحاسبين بحيث نشأت طبقة من المدونين والحسبة.

كذلك كان بين الصحابة من كتب بعض آيات القرآن على الحجر

والعظام وسعف النخل التي جُمعت بعدئذ في مصحف عثمان بن عفان. وكان النبي قد استعان بعدد من أصحابه في المدينة على تحرير الكتب والرسائل الى القبائل والى الملوك والامراء يدعوهم الى الاسلام، وقد فكّ أسار بعض أسرى بدر مقابل قيامهم بتعليم الكتابة للانصار في المدينة. (١٣)

وتذكر كتب السيرة عددا من الذين كان النبي يكلّفهم بالكتابة وبتفقيه الناس في أمور الدين منهم : عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وخالد بن سعيد، وأبان بن سعيد ، والعلاء بن الحضرمي، وأُبَي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان، وحنظلة الاسيدي. (١٤)

وبما أن الصلاة عند اليهود والنصارى تستلزم أن يقرأ الكاهن شيئا من التوراة أو الانجيل على المصلين عند كل صلاة، فان القراءة كانت غالبا موجودة حيثما وجدت بيعة يهودية أو نصرانية وكاهن يقوم بخدمة الرعية.

"فالاميّة" في ذلك الزمن إذن لا تعني عدم معرفة القراءة والكتابة بل تعني أن "الاميّين" هم من ليس لهم كتاب منزل، فاليهود أبناء اسحق بن ابرهيم وكذلك النصارى "كتابيون" في حين أن العرب أبناء اسماعيل "أمّيون". يقول الشهرستاني : "كان أهل الكتاب ينصرون دين الاسباط ويذهبون مذهب بني اسرائيل، والاميّون كانوا ينصرون دين القبائل ويذهبون مذهب بني اسماعيل. (١٥)

التواريخ العربية

لم يهتم المؤرخون العرب بتدقيق تاريخ حصول الاحداث أو لم يستطيعوا ذلك ربما لان أول كتب السيرة، وهي المصدر الرئيسي للمعلومات عن حياة النبي، كتبت بعد قرنين من عصره فكان التثبت من التواريخ عسيرا. من ذلك أن المؤرخين اختلفوا في العام الذي ولد فيه النبي. فقال ابن عباس أنه عام الفيل (٥٧٠ م). وقال آخرون أنه ولد قبل ذلك بخمس عشرة سنة. (١٦) من هؤلاء المستشرق الاب هنري لامانس الذي يعتقد أن سن محمد يجب أن تقل ببضع عشرة سنة عما تذكره كتب السيرة ويستند في ذلك الى أنه عندما أعلن محمد نبوته كان أبو بكر الشخص الوحيد المسن بين أتباعه "ليس في الصحابة أشمط سوى أبي بكر". (١٧)

وتستمر عدم الدقة التاريخية فلا يُعرف تاريخ زواج محمد من خديجة وتاريخ ولادة أطفاله، وتاريخ زيجاته إلا تخمينا.

ظهرت أيضا خلال هذه الفترة الطويلة ما بين زمن النبي وبين تدوين كتب السيَر مطامع سياسية وفرق دينية متعددة أدخلت على سيرة النبي أشياء كثيرة كما وُضِعت فيها آلاف الاحاديث المكذوبة. (١٨) "وقد أضافت أكثر كتب السيَر الى حياة النبي ما لا يصدقه العقل ولا حاجة اليه في ثبوت الرسالة"(١٩) لكل ذلك يجب النظر الى تواريخ تلك الفترة بحذر.

نسب الرسول

يقول ابن هشام (٢٠) أن عبد المطلب وابنه عبد الله مرا برقية أخت ورقة بن نوفل فعرضت نفسها على عبد الله ليتزوجها فلم يفعل، ثم زوجه والده من آمنة بنت وهب فحملت منه بمحمد. مكث عبد الله معها ثلاثة أيام ثم أرسله والده الى المدينة بتجارة حيث مرض وتوفي قبل أن يولد محمد.

لما ولد محمد انتظرت والدته آمنة مجيء المراضع من بني سعد لتدفع به الى احداهن لارضاعه وتربيته في البادية على عادة أشراف مكة. وجاءت المراضع الى مكة لكنهن أعرضن عن محمد باعتباره يتيما لا يُرتجى البر من أهله، وذهبت كلٌ بمن تأمل من أهله الخير. الاّ ان احداهن لم تجد من الاغنياء من يدفع اليها بطفل فعادت الى محمد وانطلقت به الى البادية. (٢١)

أقام محمد في بني سعد الى الخامسة من عمره ثم عاد الى أمه فكفله جده عبد المطلب وهو من أسياد قريش. وتوفيت أمه بعد ثلاث سنوات وهي عائدة بابنها من زيارة لاخواله بني النجار في المدينة. وتوفي عبد المطلب بعدها بقليل ومحمد لا يزال في الثامنة من عمره وأصبح يتيم الابوين فكفله عمه أبو طالب وكان "كثير العيال قليل المال". (٢٢) وكان عمه الآخر العباس أكثر اخوته مالا لكنه كان حريصا على ماله فلم يتعهد محمدا. (٢٣)

كانت طفولة محمد قاسية . فقد فقد والدته بعد والده وتيتّم، وانتقل من كفالة جده الى كفالة عمه الذي غمره بحبه لكنه لم يكن ميسور الحال. ولا تذكر السيَر كثيرا عن فترة طفولته. ولما أصبح شابا سعى له عمه مع خديجة بنت خويلد من بني أسد وهي قرشية كانت من أوفر أهل مكة غنى وكانت

تتعاطى التجارة فجعلت لمحمد حصة وشغلته بتجارتها مع الشام على عادة أشراف قريش أعضاء "دار الندوة" الذين كانوا يشكلون طبقة أرستقراطية في مكة يقبضون على أمور الحكم والمال ويجهزون بأموالهم القوافل التجارية المتجهة الى اليمن والجزيرة والشام وفارس ويجنون من ذلك أرباحا حسنة .

زواج محمد من خديجة

بعد مدة وجدت خديجة في محمد صدقا واستقامة وراق لها فأرسلت خادمتها نفيسة تعرض نفسها عليه للزواج. (٢٤) وابتهج محمد بالخبر فما كان يأمل أن تنفتح أمامه أبواب الرغد والثراء بمثل هذه السرعة فهرع مع أعمامه يخطبونها. واعترض بعض ذويها على زواجها من "يتيم قريش" فما زالت خديجة بهم حتى وافقوا. وعقد زواجهما ورقة بن نوفل ابن عم خديجة. لكن تاريخ الزواج غير معروف إلا تخمينا وكذلك سن الزوجين.

يقول ابن هشام في ذلك : لما بلغ الرسول خمسا وعشرين سنة، وقيل ثلاثين، كما قيل سبعا وثلاثين، تزوج خديجة وكان سنها إذ ذاك اربعين سنة وقيل خمسا وأربعين. وكانت تزوجت أبا هالة بن زرارة التميمي وولدت له صبيا وبنتا. ولما توفي تزوجت عتيق بن عابد المخزومي فولدت له بنتا اسمها هند. (٢٥) ولا نجد ذكرا لهؤلاء الاولاد وما صارت اليه حالهم بعدما تزوجها الرسول. واذا صحّ أن سن خديجة كان أربعين أو خمسا وأربعين وانجبت لمحمد ثمانية أولاد فذلك يعني أنها بقيت تنجب الى منتصف سن الخمسين وهذا أمر نادر حصوله من ناحية طبية.

عاش محمد مع خديجة بطمأنينة ودعة فقد أصبحت أمور الحياة ميسورة له كما جاء في سورة الضحى :"ولسوف يعطيك ربك فترضى. ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى، ووجدك عائلا فأغنى". وأصبح باستطاعة محمد أن ينصرف الى التفكير والتأمل. أنجبت له خديجة ثمانية أولاد هم : القاسم، والطيب، والطاهر، وعبد الله، وزينب، ورقيّة، وأم كلثوم، وفاطمة. أما الذكور فماتوا وهم صغار، وأما الاناث فبلغن وتزوجن وولدن. (٢٦) ولم يُعرف عن محمد أنه تعاطى عملا بعد زواجه أو أنه ذهب في تجارة تموّلها خديجة كما سبق له أن فعل، بل بقي ساكنا راضيا بقربها لم يعكر

صفو حياته الا وفاة أبنائه الذكور، وصار وضعه المالي يمكنه من الانضمام الى المجتمع المكي الارستقراطي الذي يؤهله له نسبه والانتساب الى "دار الندوة" التي امتنعت عليه فيما سبق لضيق ذات يده. لكنه لم يرغب بذلك اذ كانت تجذبه تطلعات وتأملات أسمى.

التحنّف في مكة

كان في مكة جماعة ممن رفضوا عبادة الاصنام وكانوا يصعدون فترة من الوقت كل سنة الى جبل حراء قرب مكة حيث ينقطعون للتأمل والعبادة ويسمون ذلك "التحنّف" أو "التحنّث". من هؤلاء المتحنّفين ورقة بن نوفل ابن عم خديجة، وعبيد الله ابن جحش ابن عمة محمد (فهو ابن اميمة بنت عبد المطلب عمة محمد)، وعثمان بن الحويرث ابن عم خديجة، وزيد بن عمر وغيرهم. وكان ورقة بن نوفل قساً نصرانيا، ويرجح أن يكون رئيس طائفة الابيونية في مكة حسب وصف الكتب الاسلامية من أنه "كان يكتب بالعبرانية من الانجيل وأنه اعتزل عبادة الاوثان وقرأ الكتب وامتنع عن أكل الذبائح". ومن الذين تنصروا من أقرباء محمد عبيد الله ابن جحش أثناء هجرة المسلمين الى الحبشة. وعندما توفي عبيد الله تزوج محمد أرملته زينب وقد كانت عارفة بالنصرانية عن طريق زوجها. أما عثمان بن الحويرث فقد سار الى قيصر ملك الروم وتنصّر وحسنت منزلته. (٢٧)

لا بد أن يكون محمد قد استمع الى أحاديث أقربائه وأقرباء خديجة حول ما كانوا يفكرون به عن الوجود الالهي وعلاقة الانسان به ولربما شاركهم محمد بهذه الاحاديث والمناقشات في السنوات التي سبقت الوحي فقد كان قريبا من هذا المحيط المتنصّر منذ حداثته وبعد زواجه من خديجة. من ذلك أنه لما عادت به مرضعته من البادية وعمره خمس سنوات افتقدته والدته وأرسلت من يبحث عنه فرده اليها ابن عمها ورقة بن نوفل (٢٨) ويجتمع نسب ورقة بنسب محمد عند قصي بن كلاب الجد الثالث لورقة وخديجة والجد الرابع لمحمد. وورقة هو الذي عقد زواج محمد على خديجة، وبما أنه قسّ فلا يمكن أن يكون عقد الزواج على الطريقة الوثنية. "ولطالما سمعت خديجة من قريبها ورقة تراتيل الحنين الى النبي المقبل". (٢٩) وعندما نزل أول الوحي

على محمد وأصابته الرعشة والخوف انطلقت به خديجة الى ورقة ليهدئ من روعه ويطمئنه ولم تلجأ الى غير ورقة. (٢٠) وعندما توفي ورقة بعد ثلاث سنوات من بدء الوحي وقد تقدم به السن وفقد بصره قال فيه النبي "لقد رأيت القسّ في الجنة وعليه ثياب الحرير". (٢١)

نزول الوحي

تذكر كتب السيرة أن محمدا كان يتحنّف في غار باعلى جبل حراء قرب مكة شهرا من كل سنة ولا تذكر اذا كان يتحنّف وحده أو مع من ذكرناهم أو مع غيرهم.

بقي محمد على ذلك الى أن جاءه الوحي وأمره بالتبشير بالآيات وكان عمره أربعين سنة (نحو عام ٦١٠) وبقي يبشر برسالته سرا نحو ست سنوات ويُظَن أنه أعلن دعوته سنة ٦١٦.

عندها بدأت الامور تتعقد بينه وبين أقربائه من أشراف قريش. فقد كان لهؤلاء مصلحة مادية ومعنوية في الحفاظ على الوضع الراهن. وهم كجميع المنتفعين من أوضاع معينة حريصون على الاحتفاظ بما لديهم ويكرهون التغيير، فلما جاء واحد منهم، ومن أضعفهم، يدعو الى المساواة بين جميع الناس فيهدد زعامتهم وكبرياءهم، ويحث على تدمير الاصنام، وكان الحج اليها مورد رزق لاهل مكة يعلي شأن البلد، ويبشر بدين جديد ربما لم يفهموه في بادئ الامر لكنهم أدركوا سريعا أن نجاح الدعوة ينقل الزعامة منهم الى النبي الجديد، لكل ذلك كان من الطبيعي أن يقاوم أشراف مكة من أحفاد قصي بن كلاب دعوة قريبهم. وكان الامويّون أولاد عبد شمس، وعلى راسهم أبو سفيان (والد الخليفة معاوية)، من أشدهم مقاومة فهو لم يدخل في الاسلام إلا بعد أن انتشر الدين الجديد وانتصر.

لم يكن حظ محمد مع بني هاشم أفضل، "فعمه أبو طالب الذي كفله ورباه مات ولم يقبل دعوة محمد وقال له أنه يريد البقاء على دين ابائه (٢٢) لكنه بقي يدافع عن محمد بسبب العصبية العائلية الى حين وفاته. ورفض عمه العباس دعوة الاسلام فقد كان تاجرا يخشى ما يجره الاسلام على تجارته من مضرّة الى أن وصل جيش المسلمين الى ضواحي مكة. (٢٢) ومثل ذلك أبو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم محمد، وعبد الله بن أبي أميّة ابن المغيرة ابن عمته. (٢٤)

أما عمه الآخر أبو لَهَب فحارب الدعوة بعنف وكان شديد الايذاء لمحمد الى حين وفاته. وتأخر عمر بن الخطاب من بني عدي الذي لعب ذلك الدور الكبير في تاريخ الاسلام بقبول الدين الجديد الى ما قبل هجرة النبي الى المدينة بثلاث أو أربع سنين.

كيفية نزول الوحي

نقلت عائشة عن محمد أنه كان نائما في غار حراء عندما سمع صوتا يأمره قائلا : "اقرأ باسم ربك الذي خلق . . . "(سورة العلق) فكان هذا أول الوحي وبدء الرسالة وعُرفت ليلة ذلك اليوم بعد ذلك باسم "ليلة القدر" (سورة القدر) وكانت ليلة السابع والعشرين من رمضان ـ٦١٠. ومرّت فترة من الزمن ثم سمع صوتا يناديه للمرة الثانية فاضطرب ودخل على خديجة وهو يرتعد ويقول "زمّلوني" كأن به حمّى فنزلت الآية : "يا أيها المدثر قم فانذر" (سورة المدثر، الآية الاولى وما يليها) فجزعت خديجة وانطلقت به الى ابن عمها القس ورقة بن نوفل وقالت له اسمع من ابن اخيك. واستوضح ورقة محمدا فأخبره فقال ورقة "أبشر ثم أبشر فاني أشهد انك أنت الذي بشّر بك ابن مريم وأنك على مثل ناموس موسى وأنك نبي مرسل". (٢٥)

كانت الاصوات التي سمعها محمد تختلف عليه ومنها ما يأتي أحيانا مثل "صلصلة الاجراس" الى أن جاءت السُوَر المدنية فاذا الصوت واحد واضح فتأكد محمد أن الصوت صوت جبريل. (٢٦)

كانت خديجة أول من آمن بمحمد. وآمن بعدها ابن عمه علي بن أبي طالب وكان عمره نحو عشر سنوات، ثم زيد بن حارثة مولى النبي، وبعده أبو بكر بن أبي قحافة التيمي. وجعل أبو بكر يدعو الى الاسلام سرا من وثق به من قومه وكان الزاهدون في الدنيا والعبيد والمستضعفون أشد على الاسلام اقبالاً. (٢٧) أما أشراف قريش وزعماؤها فاشتدوا بالعداء للمسلمين حتى لم يعودوا يطيقوا الاضطهاد فنصحهم النبي أن يهاجروا الى بلاد الحبشة المسيحية "فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله

لكم فرجا مما أنتم فيه".

كان في الهجرة الاولى بعض كبار الصحابة : عثمان بن عفان وزوجته رقيّة بنت النبي، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وابو سلمة بن عبد الاسد وزوجته ام سلمة من بني مخزوم، وعبد الله ابن جحش واخوه عبيد الله ومعه امرأته أم حبيبة بنت ابي سفيان بن حرب، وغيرهم فكان جميع من لحق بأرض الحبشة ثلاثة وثمانون رجلا عدا النساء والاطفال. (٢٨)

لما قابل المسلمون النجاشي تلوا عليه "سورة مريم" عن بشارة مريم ومولد المسيح وهي قريبة جدا مما جاء في الانجيل فرحب بهم وأمّنهم. وكانت هذه هجرة المسلمين الاولى الى الحبشة تبعتها هجرة ثانية لم يرجع المسلمون منها إلا بعد انتقال النبي الى المدينة .

جدير بالذكر أن كتب السيرة التي هي المصدر الاساسي للمعلومات عن حياة محمد وأولها وأهمها سيرة ابن اسحق وسيرة ابن هشام، وُضعت بعد زمن طويل من وفاة النبي كما ذكرنا فقد توفي ابن اسحق عام ٧٦٨ أي بعد ماية وست وثلاثين سنة، وتوفي ابن هشام عام ٨٢٤ أي بعد مايتي سنة من وفاة النبي. ويُلاحظ أن كتب السيرة ظهرت في الفترة نفسها التي جمع فيها "الحديث" أي في منتصف القرن التاسع ميلادي وتعرضت لذات العوامل والمؤثرات التي تعرض لها "الحديث" وربما ينطبق عليها من حيث الصحة والمصداقية ما ينطبق على الحديث.

الاسراء والمعراج

قال ابن هشام (٢٩) روى النبي : بينما أنا نائم إذ جاءني جبريل فهزني بقدمه وأخذ بعضدي فقمت معه. وأخذني الى باب المسجد فإذا بدابة بيضاء بين البغل والحمار في فخذيه جناحان فحملني عليه. ومضى جبريل معي حتى انتهينا الى بيت المقدس فوجدت فيه ابرهيم وموسى وعيسى في نفر من الانبياء. فصلّى النبي بهم ثم انصرف الى مكة.

وتابع الرسول : لما فرغت مما كان في بيت المقدس أُتي بالمعراج فاصعدني صاحبي (جبريل) فيه حتى انتهى بي الى باب من أبواب السماء ثم

تلقفتني الملائكة.

فلما أصبح الصباح قصّ النبي على الناس في المسجد ما جرى فلم يصدقه الا القليل وارتدّ كثيرون ممن كان أسلم (انتهت رواية ابن هشام) .

حياة النبي العائلية

نعالج هذا الموضوع لانه المصدر الوحيد الذي وصلنا عن أوضاع العائلة الاسلامية في مجتمع النبوة وهو المثال الذي يحاول أن يحتذيه الداعون الى الرجوع للسلف الصالح .

تنقسم حياة النبي العائلية الى دورين : الدور الذي قضاه مع خديجة ومدته تزيد عن عشرين سنة. فقد توفيت قبل الهجرة الى المدينة بثلاث سنين ولم يُشرك محمد معها امرأة أخرى طيلة حياتها مع أنها كانت قد تجاوزت سن الصبا بكثير.

أما الدور الثاني فيمتد أربع عشرة سنة من وفاة خديجة الى وفاة النبي وفيه تزوّج محمد من أربع عشرة امرأة ودخل بثلاث عشرة وجمع بين احدى عشرة وتوفي عن تسع (٤٠) أي بمعدل زوجة جديد كل ثمانية أو تسعة أشهر.

كان أول من تزوّج محمد في مكة بعد وفاة خديجة، سودة بنت زومعة، ثم عائشة بنت أبي بكر وكان عمرها ست أو سبع سنين وكانت مخطوبة لشاب آخر لكن أباها فسخ الخطبة لما لاحظ ميل النبي إليها، وبنى بها محمد بعد مقدمه المدينة بثمانية أشهر وكان عمرها نحو عشر سنين أو أكثر قليلا. وبقيت الزوجة المفضلة عنده الى حين وفاته ومات عنها وهي ابنة ثمان عشرة سنة. (٤١) ولم يتزوج النبي بكرا غير عائشة (٤٢) إذ أن جميع زيجاته الباقية كانت مع أرامل أو مطلقات .

ينسب أهل الحديث الى عائشة ـ٢٢١ حديثاً (٤٣) وهي مصدر أكثر الاحاديث التي ترفع من شأن أبيها أبي بكر. وقد جرت الملاحظة أن حفظ هذا العدد الكبير من الحديث وروايته ربما يحتاج الى نضوج فكري يفوق قدرة فتاة لم تبلغ سن الرشد بعد. ونذكّر بما قلناه سابقا عن عدم دقة التواريخ العربية فقد تكون عائشة أكبر سنا مما ذُكر عنها.

بعد عائشة تزوج النبي حفصة بنت عمر بن الخطاب فصاهر الرجلين اللذين كانا الصق به من جميع الصحابة الآخرين وكان يسميهما "وزيريه" (٤٤) ولم تلد له حفصة شيئا .

بعد حفصة تزوج النبي حسب رواية ابن الاثير، هند ام سلمة المخزومية، وزينب بنت خزيمة، وجويرية ابنة الحارث من بني المصطلق، وام حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب اخت معاوية، وزينب بنت جحش ابنة عمته وهي ارملة عبيد الله ابن جحش ابن عم النبي الذي هاجر الى الحبشة وتنصّر وكان محمد قد زوجها لمولاه زيد بن الحارثة الذي لمس بعد مدة رغبة النبي بها فطلّقها وتزوجها محمد في السنة الخامسة للهجرة .

وتزوّج النبي أيضا صفية بنت حي بن أخطب وهي يهودية من سبايا خيبر قتل النبي أباها وزوجها ثم أعرس بها في طريق عودته من الغزوة وقد خشي ابو أيوب خالد الانصاري أن تتحرك في نفسها الضغينة لمقتل أبيها وزوجها لذلك سهر حول الخيمة التي بات فيها محمد مع صفية فلما أصبح الرسول سأله : ماذا تفعل؟ فقال أبو ايوب خفت عليك من هذه المرأة وقد قتلت أباها وزوجها وقومها. (٤٥)

وتزوّج النبي ميمونة ابنة الحرث الهلالية خالة ابن العباس وخالد ابن الوليد وكانت آخر نسائه وجعل لكل واحدة من نسائه يوما وليلة. (٤٦)

أما سراريه فهن مارية القبطية أهداها له المقوقس ملك مصر وولدت له ابرهيم الذي مات طفلا، وريحانة وهي يهودية من سبي بني النضير بقيت على دينها. (٤٧)

من زوجاته الخمس عشرة كانت خديجة الوحيدة التي أنجبت له أولادا مات منهم الذكور وبقيت البنات وهن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة. وماتت البنات في حياة النبي ما عدا فاطمة زوجة علي بن أبي طالب. ومع أن بعض زوجاته كن أرامل أو مطلّقات وأنجبن أولادا لازواجهن السابقين فإنهن لم يلدن للرسول شيئا.

لم تخلُ حياة النبي العائلية من الغيرة والخصومات بين نسائه وقد سبب له ذلك قلقا ونشبت أزمات أزعجته. من ذلك اتفاق بعض نسائه ضد بعض النساء الأُخَر ومصارحة بعضهن له أنه لا يعدل بينهن لان حبه لعائشة

يظلمهن. (٤٨) وقد عاقب النبي نساءه بالانقطاع عنهن شهرا كاملا وتهديده لهن بالطلاق. وشاعت أخبار بيت النبي بين المسلمين فتكدروا ونزلت في ذلك آيات (سورة الاحزاب ٢٨و٢٩، وسورة التحريم١ـ ٥) فاطمأن بال النبي وعاد إلى نسائه وانتهت الازمة. (٤٩)

حادثة عائشة

من الاحداث التي أقلقت النبي أنه أصطحب معه عائشة في غزوة بني المصطلق - ويروى ابن الاثير والاستاذ محمد حسين هيكل القصة التالية :(٥٠) في طريق عودة جيش المسلمين الى المدينة بعد انتصارهم في غزوة بني المصطلق توقف الركب للراحة. وخرجت عائشة من هودجها لقضاء حاجة لها ولما عادت الى الركب وجدت أن عقدها قد انسلّ من عنقها فرجعت تفتش عنه. في أثناء ذلك ارتحل الركب وهم يظنونها داخل هودجها. فلما عادت الى المعسكر وجدت القوم قد ارتحلوا فالتفّت في جلبابها واضطجعت مكانها واثقة من عودة من يبحث عنها. واذ هي في ضجعتها مرّ بها صفوان بن المعطّل السلمي وكان هو الآخر قد تخلّف عن المعسكر فلما نظر بها أركبها على بعيره ودخلت معه المدينة.

ضجّ الناس بالخبر وبعضهم يظن بها الاثم في حين أن جماعة من الأوس دافعت عن عائشة حتى كادت تحدث فتنة في المدينة. واضطرب النبي واحتار فهو متعلّق بعائشة لكن ما اتّهمت به خطير. ودام هذا القلق فترة من الزمن حتى نزلت الآيات التي تبرّىء عائشة (سورة النور١١ وما بعدها) فارتاحت نفسه وعادت عائشة الى منزلتها في قلبه.

بهذه المناسبة نزلت الآية بعقوبة رمي المحصنات : "والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فأجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة ابدا واولئك هم الفاسقون". تنفيذا لذلك أمر النبي بحسان بن ثابت ومسطح بن إثانة وحمنة بنت جحش اخت زينب زوج النبي، وكانوا ممن اتّهم عائشة بالفاحشة، فضُرب كلّ منهم ثمانون جلدة. وكان علي بن أبي طالب ممن نصح النبي بطلاقَ عائشة وكذلك فعل سعد بن عبادة زعيم الخزرج ومنذ ذلك الوقت اسرّت عائشة في نفسها حقدا عميقا على علي كان له اسوأ

النتائج على جماعة المسلمين فيما بعد.

بعد ثلاث سنوات من حادثة عائشة ولدت مارية القبطية صبيا لمحمد أسماه ابرهيم وكانت مارية الى يومئذ في مرتبة السراري فأصبحت تكنّى بأم ابرهيم وكان النبي يمر كل يوم بدار مارية ليزور طفله فاتقدت الغيرة مجددا في نفوس الضرائر وعانى النبي من ذلك. لكن الطفل لم يعمّر ومات بعد ستة عشر شهرا فزال أحد أسباب الحسد والغيرة بين نساء النبي. ثم نزلت الآية لحماية أزواجه : "يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إياه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ان ذلكم كان يؤذي النبي . . . وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ان ذلك كان عند الله عظيما". (٥١)

في أواخر السنة الثامنة نزلت الآية التي تحدد عدد الزوجات : "فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت ايمانكم". (٥٢)

كان بين نساء النبي خلاف من نوع آخر غير خلاف الضرائر هو أقرب الى الخلاف الاجتماعي والسياسي لكنه خلاف صامت. فأزواج النبي لم يكنّ من طبقة اجتماعية واحدة وإذا استعملنا تعابير هذا العصر يمكن القول أن بعضهن كنّ من الطبقة العليا الارستقراطية كأم حبيبة بنت أبي سفيان، وأم سلمة بنت أبي أمية، وميمونة خالة خالد بن الوليد من بني مخزوم، في حين كانت زوجات أخرى من الطبقة المتوسطة كعائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر بن الخطاب وغيرهن.

ومن الملاحظ أن النساء في "الجاهلية" كنّ يتمتّعن بحرية واسعة فيما يتعلّق باختيار بعولهن على الاقل فقد رأينا أن رقيّة بنت نوفل كانت صاحبة المبادرة في عرضها الزواج من عبد الله والد محمد، كما قامت خديجة بمبادرة مماثلة تجاه محمد.

مراجع الفصل الاول
المجتمع العربي في عصر النبوة

١ ـ هيكل محمد حسين، حياة محمد، ص ٢٥٤.
٢ ـ ابن هشام، السيرة، ص ٣٢.
٣ ـ ابن خلدون، المقدمة، ص ٦٣٦ـ٦٣٨.
٤ ـ سورة التوبة، ٩٧.
٥ ـ هيكل سبق ذكره، ص ٢٩٠ـ٢٩١.
٦ ـ احمد امين، فجر الاسلام ، ج ١، ص ٢٩ـ٣١.
٧ ـ هيكل، سبق ذكره، ص ١٢٧.
٨ ـ ابن قتيبة، المعارف، ص ٦٢١.
٩ ـ اليعقوبي، ج١، ص ٢٥٧.
١٠ ـ الجاحظ، كتاب الحيوان، ج ٧، ص ٢١٦.
١١ ـ احمد امين، فجر الاسلام، ج ١ ص ٨٢.
١٢ ـ هيكل، سبق ذكره، ص ٥٠١.
١٣ ـ المصدر السابق، ص، ٢٢.
١٤ ـ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٢، ٢١٣.
١٥ ـ الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٢٨٠.
١٦ ـ هيكل، سبق ذكره، ص ١٠٨و١٠٩.
١٧ ـ الأب هنري لامانس، عصر محمد وتسلسل السيرة، ص ٢٢١ ـ ٢٢٨ (بالفرنسية).
١٨ ـ هيكل، سبق ذكره، ص ٢١و٤٩.
١٩ ـ المصدر السابق، ص ١٤.
٢٠ ـ ابن هشام، السيرة، ج ١، ص ١٦٤.
٢١ ـ المصدر السابق، ص ٤٧.
٢٢ ـ ابن الاثير، الكامل، ج ٢، ص ٢٣.
٢٣ ـ هيكل، سبق ذكره، ص ١١٤.
٢٤ ـ المصدر السابق، ص ١٠٦.
٢٥ ـ ابن هشام، السيرة، ص ٥٧.

يظلمهن. (٤٨) وقد عاقب النبي نساءه بالانقطاع عنهن شهرا كاملا وتهديده لهن بالطلاق. وشاعت أخبار بيت النبي بين المسلمين فتكدروا ونزلت في ذلك آيات (سورة الاحزاب ٢٨و٢٩، وسورة التحريرا_ ٥) فاطمأن بال النبي وعاد إلى نسائه وانتهت الازمة. (٤٩)

حادثة عائشة

من الاحداث التي أقلقت النبي أنه اصطحب معه عائشة في غزوة بني المصطلق - ويروى ابن الاثير والاستاذ محمد حسين هيكل القصة التالية :(٥٠)
في طريق عودة جيش المسلمين الى المدينة بعد انتصارهم في غزوة بني المصطلق توقف الركب للراحة. وخرجت عائشة من هودجها لقضاء حاجة لها ولما عادت الى الركب وجدت أن عقدها قد انسلّ من عنقها فرجعت تفتش عنه. في أثناء ذلك ارتحل الركب وهم يظنونها داخل هودجها. فلما عادت الى المعسكر وجدت القوم قد ارتحلوا فالتفّت في جلبابها واضطجعت مكانها واثقة من عودة من يبحث عنها. واذ هي في ضجعتها مرّ بها صفوان بن المعطّل السلمي وكان هو الآخر قد تخلّف عن المعسكر فلما نظر بها أركبها على بعيره ودخلت معه المدينة.

ضجّ الناس بالخبر وبعضهم يظن بها الاثم في حين أن جماعة من الأوس دافعت عن عائشة حتى كادت تحدث فتنة في المدينة. واضطرب النبي واحتار فهو متعلّق بعائشة لكن ما اتّهمت به خطير. ودام هذا القلق فترة من الزمن حتى نزلت الآيات التي تبرّىء عائشة (سورة النور١١ وما بعدها) فارتاحت نفسه وعادت عائشة الى منزلتها في قلبه.

بهذه المناسبة نزلت الآية بعقوبة رمي المحصنات : "والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة ابدا واولئك هم الفاسقون". تنفيذا لذلك أمر النبي بحسان بن ثابت ومسطح بن إثاثة وحمنة بنت جحش اخت زينب زوج النبي، وكانوا ممن اتّهم عائشة بالفاحشة، فضُرب كلٌ منهم ثمانون جلدة. وكان علي بن أبي طالب ممن نصح النبي بطلاق عائشة وكذلك فعل سعد بن عبادة زعيم الخزرج ومنذ ذلك الوقت اسرّت عائشة في نفسها حقدا عميقا على علي كان له اسوأ

النتائج على جماعة المسلمين فيما بعد.

بعد ثلاث سنوات من حادثة عائشة ولدت مارية القبطية صبيا لمحمد أسماه ابرهيم وكانت مارية الى يومئذ في مرتبة السراري فأصبحت تكنّى بأم ابرهيم وكان النبي يمر كل يوم بدار مارية ليزور طفله فاتقدت الغيرة مجددا في نفوس الضرائر وعاني النبي من ذلك. لكن الطفل لم يعمّر ومات بعد ستة عشر شهرا فزال أحد أسباب الحسد والغيرة بين نساء النبي. ثم نزلت الآية لحماية أزواجه : "يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إياه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ان ذلكم كان يؤذي النبي . . . وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ان ذلك كان عند الله عظيما". (٥١)

في أواخر السنة الثامنة نزلت الآية التي تحدد عدد الزوجات : "فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت ايمانكم". (٥٢)

كان بين نساء النبي خلاف من نوع آخر غير خلاف الضرائر هو أقرب الى الخلاف الاجتماعي والسياسي لكنه خلاف صامت. فأزواج النبي لم يكنّ من طبقة اجتماعية واحدة واذا استعملنا تعابير هذا العصر يمكن القول أن بعضهن كنّ من الطبقة العليا الارستقراطية كأم حبيبة بنت أبي سفيان، وأم سلمة بنت أبي أمية، وميمونة خالة خالد بن الوليد من بني مخزوم، في حين كانت زوجات أخرى من الطبقة المتوسطة كعائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر بن الخطاب وغيرهن.

ومن الملاحظ أن النساء في "الجاهلية" كنّ يتمتّعن بحرية واسعة فيما يتعلّق باختيار بعولهن على الاقل فقد رأينا أن رقيّة بنت نوفل كانت صاحبة المبادرة في عرضها الزواج من عبد الله والد محمد، كما قامت خديجة بمبادرة مماثلة تجاه محمد.

٢٦ ــ ابن الاثير، الكامل، ج ٢، ص ٢٠٩.

٢٧ ــ الاغاني، ج ٢، ص ١٤.

٢٨ ــ هيكل، سبق ذكره، ص ١١٢.

٢٩ ــ خالد محمد خالد، وجاء ابو بكر، ص ٥٦.

٣٠ ــ ابن الاثير، الكامل، ج ٢، ص ٣١.

٣١ ــ علي ابن برهان الدين الحلبي ، السيرة الحلبية، ج ١، ص ٢٧٦.

٣٢ ــ ابن الاثير، سبق ذكره، ج ٢، ص ٣٨.

٣٣ ــ هيكل، سبق ذكره، ص ٤١٦ (الهامش).

٣٤ ــ المصدر السابق، ص ٤١٨.

٣٥ ــ ابن هشام، السيرة، ج ١، ص ٢٥٤، والاغاني، ج ٢، ص ١٤.

٣٦ ــ البخاري، ج ١، ص ٣.

٣٧ ــ هيكل، سبق ذكره، ص ١٤٣.

٣٨ ــ ابن هشام، السيرة، ج ١، ص ٢٤٤و٢٥٣.

٣٩ ــ المصدر السابق، ج ١، ص ١٥٢.

٤٠ ــ ابن الاثير، الكامل، ج ٢، ص ٢٠٩ــ٢١١.

٤١ ــ احمد امين، فجر الاسلام، ج ١، ص ٢٦٤.

٤٢ ــ ابن الاثير، الكامل، ج ٢ ص٢١٠.

٤٣ ــ احمد امين، فجر الاسلام، ج ١، ص ٢٦١.

٤٤ ــ هيكل، سبق ذكره، ص ٢٢٢.

٤٥ ــ المصدر السابق، ص ٢٩٢.

٤٦ ــ المصدر السابق، ص ٤٤٨.

٤٧ ــ ابن الاثير، الكامل، ج ٢، ص ٢٠٩ــ٢١١.

٤٨ ــ هيكل، سبق ذكره، ص ٤٤٨.

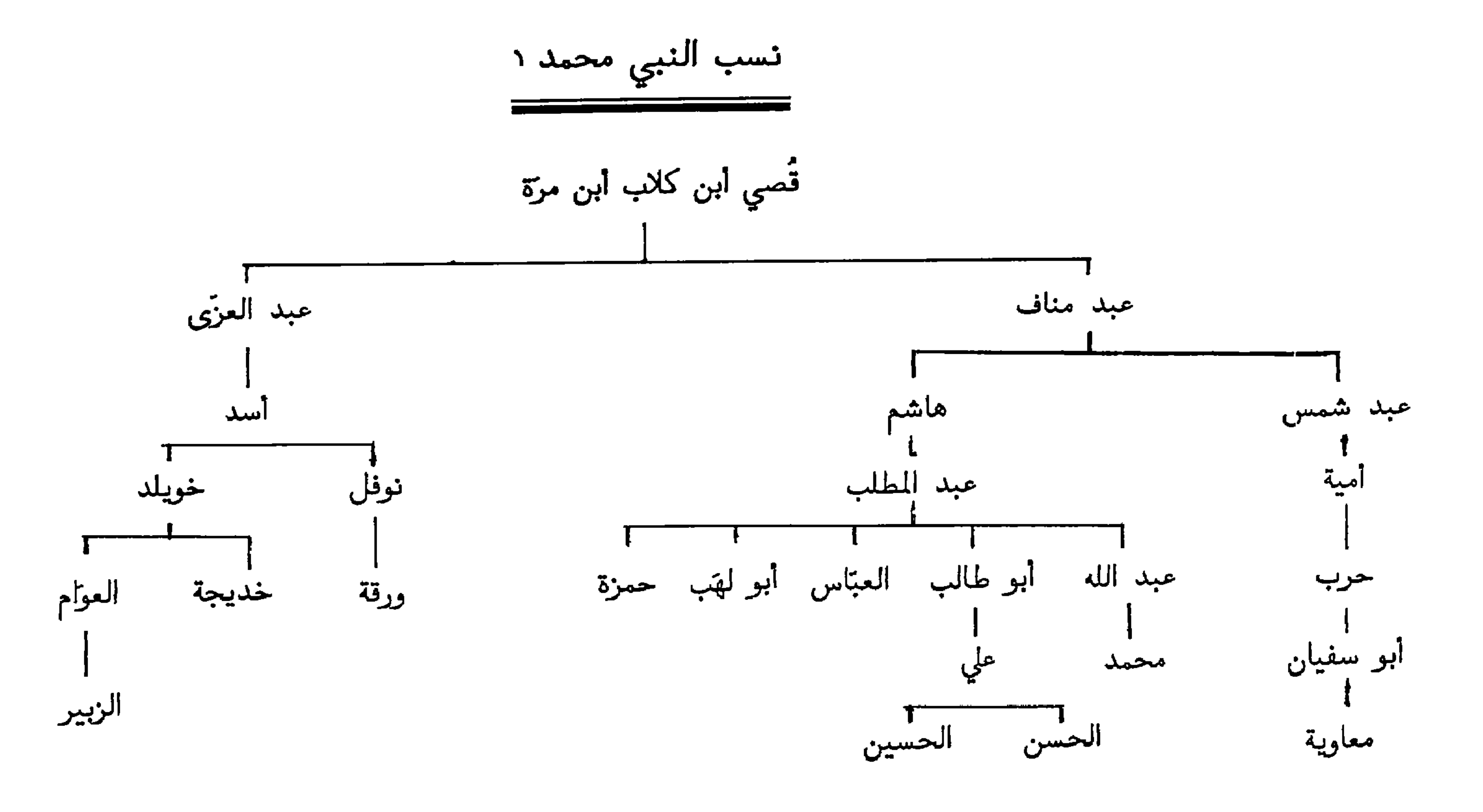
٤٩ ــ المصدر السابق، ص ٤٤٦.

٥٠ ــ ابن الاثير، الكامل، ج ٢، ص ١٢٢ــ١٢٥.

٥١ ــ سورة الاحزاب، ٢.

٥٢ ــ سورة النساء، ٢.

نسب النبي محمد [1]



١ ـ هيكل، محمد حسين، حياة محمد، ص ١٠٦

الفصل الثاني

النبي في المدينة (٦٢٢_ ٦٣٢)

هجرة المسلمين الى المدينة
بيعة العقبة

في سنة ٦٢٠ قدم سوق عكاظ نفر من يثرب من قبيلتي الأوس والخزرج فعرض عليهم محمد الاسلام فارتاحوا الى ما سمعوا. وبعد سنتين جاء اليه وفد منهم من خمسة وسبعين شخصا فبايعوه ودعوه الى اتخاذ المدينة مسكناً وهي مسقط رأس والدته. وكان ضغط أهل مكة قد اشتد على المسلمين فعقد الطرفان ما عرف "ببيعة العقبة" تعهّد فيها الأوس والخزرج بحماية محمد والمسلمين من قريش، لكنهم لم يعاهدوه على العدوان على قريش أو غيرها. (١) بعد ذلك خرج المسلمون جماعات صغيرة من مكة دون أن يلفتوا اليهم الانظار وكان محمد آخر من ترك. وكان ذلك بعد بداية النبوة بثلاث عشرة سنة. (٢) وأطلق على الذين تركوا مكة ولجأوا الى المدينة اسم "المهاجرين"، وعلى الذين استقبلوهم من أهل المدينة اسم "الانصار".

في المدينة استقبلهم الانصار استقبالا حسنا، ولم يكن بين المهاجرين من هو ميسور الحال إلا عثمان بن عفان فاشتغل بعضهم بالتجارة كعبد الرحمن بن عوف، واشتغل أبو بكر وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب في أراضي الانصار مزارعة مع ملاكها. وكان غيرهم في حال من العوز يلقون من الحياة شدة وضنكا. (٣) ولو استعملنا التعابير المعاصرة لقلنا أن الذين ناصروا الاسلام في البداية كانوا من "المستضعفين" ولم ينضم اليه "المستكبرون" إلا لما

انتصر الدين الجديد وصاروا يرجون منه المنافع والمناصب.
بعد هجرة النبي الى المدينة استمر نزول الوحي، وبدأ معه طور جديد في حياة المسلمين هو الطور الديني ـ السياسي الذي يتعلّق بنشر الاسلام وارساء قواعد التعامل مع الوثنيين واليهود والمسيحيين، وتوحيد جهود المسلمين وتدبير أمورهم الاجتماعية والمدنية.

غزوات النبي

في ظرف احد عشرة سنة أي في المدة الباقية من حياة النبي محمد، انتشر الاسلام فعمّ أكثر مناطق الجزيرة العربية بالدعوة والاقناع أو بالغزو والفرض. وقد غزا النبي بنفسه تسع عشرة غزوة، وفي رواية أخرى سبعا وعشرين غزوة، قاتل منها في تسع غزوات، (٤) هذا غير السرايا التي كان يرسلها بقيادة الصحابة لدعوة القبائل الى الاسلام ومقاتلتهم إذا رفضوا. وسنذكر فيما يلي باختصار بعض أهم الغزوات الدفاعية والهجومية التي شنّها المسلمون كنموذج عن الطريقة التي انتشر بها الاسلام في شبه الجزيرة.
كان العداء مستحكما بين قريش وبين المسلمين وكان المسلمون الفريق الاضعف ومع ذلك بدأوا بعد بضعة أشهر من الهجرة الى المدينة يهدّدون سير قوافل المكيين فقد كانت المدينة ومحيطها طريقا رئيسيا للقوافل المكية المتجهة الى بلاد الشام.

غزوة بدر (٦٢٤) .

توالت المناوشات نحو سنتين حتى صدف أن خرجت قافلة عظيمة من مكة بقيادة أبي سفيان متجهة إلى الشام ساهم بتمويلها كثير من أهل مكة وقُدّرت قيمة حمولتها بخمسين ألف دينار.
حاول المسلمون اعتراض القافلة لكنها فاتتهم فاستعدّوا للتعرّض لها حين عودتها. وأدرك قائد القافلة أبو سفيان ما يبيّته المسلمون فارسل الى أهل مكة يستنجدهم فلم يبق فيها من هو قادر على حمل السلاح إلا هبّ للدفاع عن تجارة المدينة. ومرة ثانية أفلت أبو سفيان وقافلته من المسلمين المتربصين بعودته ووقعت المواجهة بينهم وبين المحاربين من قريش في منطقة بدر وكان

النصر للمسلمين وقسم النبي الغنيمة بموجب الآية : "واعلموا أيّما غنتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل". (٥) ويقول ابن هشام (٦) إن سورة الانفال التي تقع فيها الآية نزلت بكاملها بعد موقعة بدر، كما نزلت الآية : "لقد نصركم الله ببدر وانتم أذلّة فاتقّوا الله لعلّكم تشكرون". (٧)

نقل القبلة الى مكة (٦٢٤)

في تلك السنة أيضا وبعد سبعة عشر شهرا من مقدمه الى المدينة أمر النبي المسلمين أن يتجهوا في صلاتهم إلى الكعبة في مكة بدل التوجه الى القدس كما كانوا يفعلون فارتاح أهل قريش لذلك لانه ثبّت لهم موارد الحج، لكن اليهود انكروا عليه عمله. وفي تلك السنة توفي أبو لهب عم النبي بعد معركة بدر وكان خصما عنيدا لابن أخيه .

غزوة أحد (٦٢٥)

تهيات قريش للاخذ بثأر بدر وجهزت قوة كبيرة انضمت اليها بعض القبائل وسارت بقيادة ابي سفيان وكان مع المقاتلين من قريش عمرو بن العاص وخالد ابن الوليد قبل اسلامهما.

اشتبك الفريقان في منطقة أُحُد بمعركة عنيفة جُرِح فيها النبي في وجنته وجبهته وقُتل عمه حمزة وانتصرت قريش فانتقمت ليوم بدر وعاد مقاتلوها الى مكة. وكان عدد القتلى من المهاجرين والانصار خمسة وستين رجلاً، ومن المشركين اثنان وعشرون. (٨)

غزوة ذات الرقاع (٦٢٦)

في السنة التالية لأُحُد أغار المسلمون في غزوة "ذات الرقاع" على بدو غطفان وسبوا نساءهم وأولادهم ونهبوا متاعهم. ثم اتجهوا نحو دومة الجندل على الحدود ما بين الحجاز والشام لكن قبائلها انسحبت حين قدوم المسلمين وتركت لهم ما كانت سلبته من القوافل. (٩)

غزوة الخندق (٦٢٧)

بعد سنتين من أُحُد اجتمعت قريش وعرب غطفان وهذيل وبنو فزارة وبنو مرة وسليم وبنو سعد وأسد وكل من لهم عند المسلمين ثأر وساروا جميعا تحت أمرة أبي سفيان قاصدين المدينة ليضربوا المسلمين في معقلهم. لكن المسلمين استعدوا لصدّ الهجوم فحفروا خندقا حول المدينة وحصّنوا داخلها ولم يكن للمهاجمين معرفة بهذا النوع من الحرب وكان الشتاء قارصا فما لبث المهاجمون أن تفرّقوا وفشلت حملتهم. (١٠)

غزوة بني المصطلق (٦٢٧)

بعد غزوة الخندق بشهرين غزا الرسول بني المصطلق وهم فرع من خزاعة وأخذهم المسلمون أسرى مع نسائهم وإبلهم وماشيتهم. وكان من السبايا جويرية بنت الحارث شيخ القبيلة .قد تزوجها محمد بعد الغزوة(١١)

غزوة مؤتة (٦٢٩)

كانت غزوة مؤتة مقدمة لما كان بعد وفاة النبي من فتح الشام. فقد أرسل النبي ثلاثة آلاف من خيرة رجاله الى معان والبلقاء من أرض الشام لمباغتة الروم وغزوهم. لكن خبر الغزوة اتصل بالروم فاستعدّوا لملاقاة المسلمين. وكانت المعركة وقتل فيها قائد المسلمين وفشلت الحملة وتمكّن خالد ابن الوليد من الانسحاب والرجوع على رأس الجيش الى المدينة راضين من الغنيمة بالاياب. (١٢)

غزوة هوازن وحصار الطائف (٦٢٩)

كانت قبيلة هوازن تقيم على مقربة من مكة فخشيت من سيطرة المسلمين عليها بعدما استولوا على مكة فجمع شيخها مالك بن عوف قبائل هوازن وثقيف ونصر وجشم وتصدوا للمسلمين. وكاد المسلمون ان ينهزموا فقد فنيت منهم قبيلتان او كادتا. لكنهم استجمعوا صفوفهم وكان النصر لهم وكان ما غنموا وما سبوا وما اسروا في هذه الغزوة اكثر مما كسبوا في اية غزوة سابقة.

لكن قائد هوازن مالك بن عوف نجا من المعركة واحتمى مع ثقيف بالطائف وهي مدينة محصنة فحاصرها المسلمون شهرا ورموها بالمنجنيق فلم ينالوا منها ورجعوا الى مكة.

غزوة تبوك (٦٣١)

اتصل بالنبي نبأ من بلاد الروم انها تهيء جيوشا لغزو حدود الحجاز الشمالية فارسل محمد يستنفر القبائل التي اسلمت وحثّ الاغنياء ليشاركوا بتجهيز الجيش فلبى البعض وتقاعس آخرون ممن كانوا اعتنقوا الاسلام رغبة في الغنائم فقد كانت المسافة بعيدة والوقت قيظ وحظوظهم التغلب على جيش الروم ونهب عدته ومتاعه قليلة.

تولى محمد قيادة الجيش وانطلق قاصدا تبوك فلما وصلها لم يجد جيش الروم فيها فمكث عشرين يوما اقام خلالها عهدا مع سكان الحدود في قرى أيلة (العقبة) والجرباء واذرع ودومة الجَنْدل في البلقاء واخذ منهم الجزية وجعل له حلفاء يفصلون بينه وبين الروم. لكن المقاتلين الذين كانوا في الحملة استهزأوا بهذه الغزوة ولم يقيموا لها وزنا لانهم عادوا ولم يغنموا او يأسروا بل لم يقاتلوا. (١٢)

عهد الحديْبية (٦٢٨)

من عادات العرب القديمة أنهم خصصوا أربعة شهور من كل سنة سمّوها الاشهر الحرام حرّموا فيها الغزو والقتال بحيث تكون أراضي القبائل آمنة لجميع العرب حتى للاعداء يجتازونها بسلام ويحجون فيها الى بيت الله الحرام في مكة.

بعد ست سنوات من الهجرة، وبعدما عجزت قريش والمسلمون عن تغلّب فريق على الآخر بالحرب، قرر النبي أن يسير مسالما بالمسلمين إلى مكة دون سلاح للحج الى الكعبة ودعا العرب غير المسلمين لمرافقته تدليلا على أنه لا يدخل مكة إلا مسالما.

ارتابت قريش بمقصده وقررت منع المسلمين من دخول مكة حتى لو أدّى ذلك إلى انتهاك حرمة الاشهر الحرام وأرسلت قوة بقيادة خالد بن الوليد

وأصدر النبي عفوا عن قريش وعن أهل مكة جميعا وطهّر الكعبة من الاصنام ولم ينقل إلى الاسلام من مناصب البيت الحرام أيام الوثنية إلا سدانة الكعبة وسقاية الحج من زمزم التي جعلها لعمّه العباس. (١٧) ونزلت الآية ٢٨ من سورة التوبة : "يا أيها الذين آمنوا إنما المشركين نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد يومهم هذا". وقد فسّر المفسّرون هذه الآية بأن الله حرّم على غير المسلمين من الوثنيين دخول مكة كما حرّمه على أهل الكتاب. ولا يزال هذا التفسير مرعيا إلى هذا اليوم.

مكث النبي اسبوعين في مكة ثم توجّه لغزو هوازن.

مراسلة الملوك ودعوتهم إلى الاسلام (٦٢٨)

بعدما اتفق محمد مع أهل مكة على نوع من الهدنة في عهد الحُدَيْبية وارتاح مؤقتا من خطر قريش، كتب رسائل إلى هِرَقل ملك الروم، والمقوقس ملك مصر، والنجاشي ملك الحبشة الذي كان أجار المسلمين الذين لجاؤا إليه، والحارث الغساني ملك الحيرة، والحارث الحِمْيَري ملك اليمن، وكسرى ملك الفرس، يدعوهم الى الاسلام. وكانت الرسائل على منوال متقارب مثل كتابه التالي لكسرى : "باسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله الى كسرى عظيم الفرس. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا اله إلا الله وإن محمدا عبده ورسوله. إني أدعوك بدعاء الله فأسْلِم تَسْلَم وإن تولّيْت فان إثم المجوس (أي سوء مصيرهم) عليك". (١٨)

في هذه الرسائل أمور تستوقف النظر. لقد خاطب النبي الملوك يدعوهم إلى الاسلام وهم لا يعرفون عن الاسلام شيئا، وكذلك رعيّتُهم. ثم إن فيها تهديدا واضحا بنشر الاسلام بالقوة فقد جاء فيها عبارة "أسْلِم تَسْلَم" الذي أصبح شعار المسلمين في علاقاتهم مع قبائل شبه الجزيرة العربية وفي التعامل مع الشعوب الاجنبية كما سنرى.

في تلك الفترة أسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص فاشتد ساعد الاسلام بهما. وفي غزوة مؤتة تولّى خالد قيادة جيش المسلمين ولقّب "سيف الله". (١٩)

لتحول بين محمد ومكة. ودارت مفاوضات بين الجانبين في موقع الحُدَيبية قرب مكة حتى تأكدت قريش أن ليس في الامر خدعة ومع ذلك رفضت دخول المسلمين الى مكة لئلا يفسّر العرب ذلك بأن المسلمين فرضوا ارادتهم. وانتهت المفاوضات الى اتفاق بين الطرفين على الهدنة بينهما لمدة عشر سنين. من شروط الاتفاق أن من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليّه ردّه اليهم، ومن جاء قريشا من رجال محمد لم يردّوه إليه، وإن من أحبّ من العرب مخالفة محمد فلا جناح عليهم وكذلك لمن أحبُ مخالفة قريش، وإنه على محمد وأصحابه أن يرجعوا عن مكة هذا العام على أن يعودوا إليها للحج في العام الذي يليه فيدخلوها ويقيموا فيها ثلاثة أيام بدون سلاح. (١٤) وعاد المسلمون إلى المدينة وكثير منهم غير راضٍ عن الاتفاق.

دخول مكة (٦٢٩)

اعتبرت قريش أن غزوة مؤتة (٦٢٩) كانت هزيمة للمسلمين أظهرت ضعفهم فاعتدوا في مكة على قبيلة كانت في عهد المسلمين ونقضوا بذلك عهد الحُدَيْبية.

جهز النبي قواته وأراد أن يباغت قريشا في مكة ليستولي على الكعبة دون قتال. لكن المكيين عرفوا بقدومه فذهبت إليه جماعة تفاوضه منهم أبو سفيان ابن حرب كبير قريش، والعبّاس عمّ النبي، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي، وعبد الله ابن امية ابن عمته مع عدد من بني هاشم.

ويظهر أن قوة المسلمين كانت متفوقة، أو أن أهل مكة أرادوا أن يجنّبوا مدينتهم ويلات الحرب فقبلوا الاسلام. لما دخل النبي مكة جاءه ابوسفيان زعيم قريش برفقة العباس عمّ النبي. لم يتردد ابو سفيان بالشهادة "ان لا الَه الا الله". لكنه حين طُلب اليه ان يشهد "ان محمداً رسول الله"، قال : "أما هذه فإن في نفسي منها شيئاً". ولولا حثّ العباس له وتخويفه من القتل لما اعترف بهذه الشهادة. (١٥) وعرف النبي لابي سفيان بن حرب مكانته في قريش فاعلن أن "من يدخل دار أبي سفيان فهو آمن وكذلك من دخل المسجد ومن أغلق بابه". (١٦) دخل المسلمون مكة فلم يلقوا فيها مقاومة

ثم بدأ دور التباعد والعتاب كما تدل الآيات :

"قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نَعبُدَ الا الله ولا نُشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضُنا بعضاً اربابا من دون الله فان تولّوا فقولوا اشهدوا اننا مسلمون". (٢٨) وقد فسر البيضاوي هذه الآية فقال انها موجهة الى اليهود والنصارى معاً. أما تفسير الجملة "ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله" فمعناه ان لا يطيعوا الاحبار (رجال الدين) فيما احدثوا من التحريم والتحليل. فقال عدي بن حاتم ما كنا نعبدهم يا رسول الله. قال : اليس كانوا يحلّون لكم ويحرّمون فتأخذون بقولهم. قال نعم. قال محمد هو ذاك فان اعرضوا عن التوحيد فهو اعتراف منهم بأنهم كافرون بما نطقت به الكتب.

ونزلت الآية : "يا أهل الكتاب لِمَا تكفرون بآيات الله وانتم تشهدون. يا أهل الكتاب لِما تَلْبِسون الحقَ بالباطل وتكتمون الحق وانتم تعلمون". (٢٩) يفسرها الامام البيضاوي بالقول : "لِمَ تكفرون بما نطقت به التوراة والانجيل ودلت على نبوة محمد وانتم تشهدون أنها آيات الله، او تكفرون بالقرآن وانتم تشهدون نعته في الكتابين. يا أهل الكتاب لِمَ تلبسون الحق بالباطل بالتحريف وتكتمون نبوة محمد ونعته وانتم عالمون بما تكتمون".

ونزلت الآية : "كنتم خيرَ امةٍ اُخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهَون عن المُنكَر وتؤمنون بالله. ولو آمن اهل الكتاب لكان خيرا لهم، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون". (٣٠)

ثم جاء الدور الثالث، دور التكفير والحرب فنزلت الآيات :

"يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم اولياء بعض ومن يتولّاهم (يتبعهم) منكم فانه منهم ان الله لا يهدي القوم الظالمين". (٣١) فسّرها الامام البيضاوي بان لا تعتمدوا عليهم ولا تعاشروهم معاشرة الاحباب فانهم متفقون على خلافكم، يوالي بعضهم بعضا لاتحادهم في الدين واجتماعهم على مضادتكم ومن والاهم منكم فانه من جملتهم.

والآية : "لا يتّخذ المؤمنون الكافرين اولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء الا ان تتقوا منهم تُقَةً ويحذِّرْكم اللهُ نفْسَهُ

والى الله المصير". (٢٢) تفسيرها في الجلالين : "لا يتخذ المسلمون الكافرين اصدقاء او حلفاء بدل المسلمين ومن يواليهم اي يصادقهم او يحالفهم فليس من دين الله (اي من المسلمين) الاّ اذا خفتم منهم فلكم موالاتهم باللسان دون القلب. وكان هذا قبل عزّة الاسلام ويجري فيمن هو في بلد ليس المسلم قويا فيها. ويحذركم الله بأن يغضب عليكم ان واليتموهم (صادقتموهم) والى الله المرجع فيجازيكم".

والآية : "ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن شاء". (٢٣)

والآية : "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون". (٢٤) تفسيرها حسب الامام البيضاوي : "قاتلوا الذين يخالفون اصل دينهم المنسوخ، ولا يحرّمون ما تم تحريمه بالكتاب والسنّة، ولا يدينون دين الحق (الاسلام) الذي هو ناسخ سائر الاديان ومبطلها، من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية، وهي ما تقرر عليهم ان يعطوه، عن يد قاهرة عليهم ، بمعنى وهم أذلّاء" .

ونزلت الآية : "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم. قل ان هدى الله هو الهدى". (٢٥)

ثم جاء التأكيد بأن الاسلام هو الدين الوحيد المقبول عند الله :

"ومن يبتغ غيرَ الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الاخرة من الخاسرين". (٢٦) فسّر الامام البيضاوي ذلك بأنه لا دين عند الله سوى الاسلام، وهو التوحيد والتدرع بالشرع الذي جاء به محمد.

وجاء في سورة آل عمران (آية ١٧ و١٨) :

"شهد الملائكة وأولوا العلم ... قائماً بالقسط ... ان الدين عند الله الاسلام". فسّرها البيضاوي "بأن الله والملائكة وأولوا المعرفة بالايمان، مقيمين للعدل، شهدوا بأن لا دين مرضي عنه عند الله سوى الاسلام".

ونزلت آيات كثيرة تحضّ المسلمين على قتال المشركين. وهنا تختلط الامور ويسود الغموض. فليس واضحا هل اعتبرت الآيات أهل الكتاب من الكفرة المشركين ام فئة لا ينالها ما ينال عبدة الاصنام؟ هذا ما ربما تدلنا

عليه الآيات في آخر سورة أُنزلت وهي سورة التوبة، والمعالجة العملية للاحداث، واراء الاصوليين المعاصرين. ولنبدأ بالآيات المتعلقة بالقتال :

"يا ايها النبي حرض المؤمنين على القتال". (٣٧)

"فاذا انسلخ الاشهر الحُرُم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم". (٣٨)

"وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله". (٣٩) فسّرها الامام البيضاوي بقوله : "قاتلوهم حتى لا يوجد فيهم شرك وتضمحل عنهم الأديان الباطلة فان عادوا عن الكفر فان الله يجازيهم على رجوعهم عنه".

"يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير". (٤٠) قال الامام البيضاوي انها تعني : جاهد الكفار بالسيف، والمنافقين بالزام الحجة واقامة الحدود واغلظ عليهم في ذلك ولا تسايرهم.

"يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا ان الله مع المتقين". (٤١) فسّرها الامام البيضاوي بقوله : " أن المؤمنين أُمروا بقتال الاقرب منهم فالاقرب كالروم فانهم كانوا يسكنون الشام وهو قريب من المدينة. وليجدوا فيكم شدة وصبرا على القتال".

محمد واليهود

حين هجرتهم الى المدينة وجد المسلمون فيها من اليهود بني قَيْنَقاع يقيمون في داخلها وهم حلفاء الأوس، وبني النضير يقيمون على مقربة من المدينة. وتقع خيبر المدينة اليهودية الكبيرة في شمالها. وكانت هذه الجاليات اليّهودية قوية بالمال والسلاح والرجال.

احسن اليهود استقبال النبي عند قدومه الى المدينة وبادر هو الى توثيق صلاته بهم فتحدث الى رؤسائهم وكبرائهم ونشات المودة بينهم باعتبار انهم أهل كتاب موحّدون وبلغ من ذلك ان النبي كان يصوم صومهم، وكانت قبلته في الصلاة قبلتهم في بيت المقدس. وما كانت الايام الا لتزيده باليهود مودة وقربى حتى وصل الامر بينه وبينهم الى عقد معاهدة صداقة وتحالف، واتفقوا على تقرير حرية الاعتقاد للمسلمين واليهود. (٤٢) جاء في المعاهدة : ان يهود بني عوف امة من المؤمنين. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، وكذلك ليهود بني النجار، وبني الحارث، وبني ساعدة، وبني جشم، وبني الأوس، وبني

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثعلبة. وان من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة الا من ظَلَم وأثم. وان الله جارٌ لمن برّ واتقى. (٤٣)

ونزلت آيات حسنة باليهود منها : "يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم واني فضلتكم على العالمين". (٤٤) "واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون". (٤٥)

لكن الامور بين محمد واليهود ما لبثت ان ساءت بسرعة. فقد كان اليهود اقوياء واغنياء في المدينة عاصمة الاسلام في ذلك الوقت مما كان يمكن ان يشكل تهديدا للمسلمين. ثم قام الجدل الديني بين الفريقين، وبعد سبعة عشر شهرا من مقامه في المدينة (سنة ٦٢٤) نقل النبي القبلة من القدس الى مكة فانكر عليه اليهود ما فعل.

ونزلت الآية تؤنب اليهود : "افكلما جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم ففريقاً كذّبتم وفريقا تقتلون". (٤٦)

وتكرس العداء بالآية "لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا". (٤٧) والآية : "وقالت اليهود يدُ الله مغلولة غُلت ايديهم ولُعنوا بما قالوا". (٤٨) تفسيرها : "انهم يقولون ان الله ممسك يقتّر بالرزق فدعا عليهم بالبخل والنكد وبالمسكنة".

بلغ العداء غايته بالآية : "وضُربَت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله". (٤٩) تُرجم هذا العداء بحروب شنها المسلمون على اليهود كان من نتيجتها اجلاؤهم عن الحجاز. وفيما يلي شرح ذلك :

اجلاء بني قَيْنُقاع (٦٢٤)

عندما عاد النبي من غزوة بدر منتصرا دعا اليهود الى سوق بني قَيْنُقاع وكان اكثرهم يشتغلون بالصياغة وقال لهم لقد عرفتم ما حل بقريش فاحذروا واسلموا، فرفضوا. وتنابذ رجلان يهودي ومسلم فاعتبر النبي انهم نقضوا العهد فقرر قتلهم. فغزاهم وحاصرهم خمس عشرة ليلة. وكان اليهود حلفاء الخزرج فتوسط بالامر شيخهم ووافق النبي ان يجلوا عن المدينة تاركين وراءهم سلاحهم والذهب الذي كانوا يصوغون. فرحلوا الى اذرعات

على حدود الشام. (٥٠)

اجلاء بني النضير (٦٢٦)

بعد سنة من اجلاء بني قَيْنَقاع، اتّهم المسلمون بني النضير انهم تآمروا على قتل النبي فأرسل اليهم رسولا وقال له : "اذهب وقل لهم لقد نقضتم العهد فاخرجوا من بلادي وقد اجّلتكم عشرا فمن بقي بعد ذلك ضربت عنقه".

ولما لم يجلوا حاربهم عشرين يوما وقطع نخيلهم واحرقه وهم ثابتون في حصونهم. ثم اتفقوا على ان يخرجوا ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ما شاءوا. فخرجوا الى خيبر وتركوا وراءهم اموالا كثيرة من غلال وسلاح واراضي زراعية. وكانت اموالهم لمحمد وحده فقسمها على المهاجرين الاولين دون الانصار بحيث اصبحوا اصحاب مال واراضي يتساوون مع الانصار.

وكان كاتب سرّ النبي من بني النضير فلما اجلاهم امر زيداً بن ثابت فتعلم السريانية وغيرها من اللغات ليبعث الرسائل الى الملوك. وزيد هو الذي جمع القرآن في خلافة ابي بكر ثم راقب الجمع حين اختلفت القراءات في خلافة عثمان فوضع مصحف عثمان وأحرقت سائر المصاحف. (٥١)

مذبحة بني قُرَيْظة (٦٢٧)

يروي ابن هشام وابن الاثير هذه الواقعة كما يأتي :

بعدما رأى بنو قُرَيْظة ما حل ببني قَيْنَقاع وببني النضير في مدة سنتين ادركوا ما يبيّته لهم المسلمون. من جهة ثانية، كانت قريش قد تراجعت عن المدينة بعدما فشلت غزوة الخندق وخاف المسلمون ان تحاصرهم قريش ثانية ويناصرها بنو قُرَيْظة من داخل المدينة فيكون موقفهم حرجا.

وصدف ان تقاتل مسلم ويهودي فاعتبر النبي ان اليهود نقضوا العهد معه فدعا المسلمين الى القتال فقد كانت الجماعة تؤخذ بجريرة احدها.

حاصرهم المسلمون خمسا وعشرين ليلة وكان بنو قُرَيْظة حلفاء الأوس كما كان بنو قَيْنَقاع حلفاء الخزرج وقد استطاع الخزرج ان يحموا بني قَيْنَقاع من القتل. فذهبت جماعة من الأوس الى محمد يطلبون ان يعامل

حلفاءهم كما عاملَ حلفاء الخزرج فأجابهم انه يقبل بحكم رجل من الأوس يختاره اليهود. فاختار هؤلاء سعد بن معاذ رئيس الأوس. وبعدما اخذ سعد المواثيق من الجانبين اصدر حكمه بأن يُقتَل المحاربون اليهود، وتقسم اموالهم وتُسبى الذرية والنساء. فكان حظ بني قُرَيْظة مع سعد بن معاذ الذي وثقوا به كحظ الامام علي بن ابي طالب مع ابي موسى الاشعري لما اختاره حَكَما يمثله في خلافه مع معاوية.

ثم أمر النبي بحفر الخنادق في المدينة وجيء باليهود وكانوا نحو اربعماية وقيل ثمانماية فأمر بضرب اعناقهم واشرف بنفسه على قتلهم.

قسم النبي اموال بني قُرَيْظة ونساءهم وابناءهم على المسلمين بعد ان اخرج منها الخمس. ثم بعث بطائفة من السبايا الى نجد فابتاع بها خيلا وسلاحا. وكانت ريحانة احدى السبايا قد وقعت في سهم محمد واصبحت سرية عنده. (٥٢)

وهكذا كان جزاء نقض العهد افناء نحو ثلاثة آلاف شخص من الرجال والنساء والاولاد لم يعد لهم وجود او ذكر.

غزوة خيبر

بقيت خيبر آخر معقل لليهود في الحجاز. فلما رجع النبي من عهد الحُدَيْبية سنة ٦٢٨ أمر الناس بالتجهز لغزو خيبر فوصلوا امام حصونها في ثلاثة أيام. وكانت جموع اليهود في خيبر من أقوى الطوائف اليهودية بأسا واوفرها مالا واكثرها سلاحا وكان المسلمون مؤمنين انه ما بقيت لليهود شوكة في شبه الجزيرة فستظل المنافسة بين اليهودية والاسلام حائلا دون تمام الغلبة لهم. وكان القتال من أشد ما عرفه المسلمون وانتهى بصلح استولى فيه المسلمون على الارض بحكم الفتح وبقي اليهود مزارعين مستثمرين لقاء نصف المحصول. (٥٢)

يهود فدك

عندما طلب يهود خيبر الصلح بعث النبي الى أهل فَدَك فتصالحوا على نصف اموالهم من غير قتال وكان هذا النصف خالصا لمحمد لأن المسلمين لم

يكسبوه بقتال.

يهود وادي القرى وتيماء ٦٢٨

بعد فَدك تجهز الرسول للعودة الى المدينة عن طريق وادي القرى فصالح أهلها على شروط خيبر. أما يهود تيماء فقبلوا الجزية من غير حرب.

ولم يفرض النبي الجزية على يهود البحرين وبقوا على دينهم. وصالح يهود غازية وبني عريض على ان لهم الذمة وعليهم الجزية. (٥٤)

بهذه الحروب انتهى دور اليهود في الجزيرة كقوة سياسية او عسكرية يمكن ان تشكل عقبة في وجه الدين الجديد وانصرف الالتفات الى المجموعة المتميزة الثانية وهي النصارى.

نظرة المسلمين الى الدين اليهودي

وجد المسلمون في التوراة أشياء لا تنطبق على ما نزلت به الآيات في القرآن. فقال فريق من الفقهاء في العصور اللاحقة ان التوراة كلها مبدلة ومغيّرة وليست هي التوراة التي انزلها الله على موسى. وقال البخاري والرازي وغيرهما ان التبديل وقع في التأويل لا في التنزيل. وقال آخرون، ومنهم ابن تيْميّة، انه قد زيد في التوراة لكن أكثرها باقي على ما أنزل عليه والتبديل في يسير منها جداً. (٥٥)

محمد والنصارى

ذكرنا سابقا ان محمداً وخديجة كانا محاطَين في مكة قبل نزول الوحي وبعده، بعدد من اقربائهما المتنصرين وعلى رأسهم ورقة بن نوفل فلم تكن تعاليم النصرانية اذن مجهولة منهما. وعندما اشتد ضغط قريش على اتباع محمد وكانوا لا يزالون قلة في مكة نصحهم بالهجرة الى الحبشة المسيحية وقال لهم : "ان بها مليكا لا يُظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه". (٥٦)

ولم يكن للنصارى تجمعات كثيفة تشكل تهديدا للنبي ولرسالته الا في نجران فرأينا الآيات تنزل في بداية الرسالة تتحدث عن المسيح وأمه مريم

والنصارى بأجمل الكلام وأكثره مودّة. وجاء كلام القرآن عن بشارة مريم بولادة المسيح مماثلا لكلام الانجيل انما بلغة عربية أجمل : "اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يُبَشّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المُقَربين. ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين. قالت ربِ انّى يكون لي ولد ولم يمسُسني بشر. قال كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون، ويعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل". (٥٧) (راجع ايضا سورة مريم، آية ١٥_٢٢).

ثم توجه الكلام الى المسيح : "اذ قال الله يا عيسى اني مُتَوَفيك ورافِعُك اليّ ومطهّرك من الذين كفروا وجاعلُ الذين اتّبَعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة". (٥٨)

لما ساءت العلاقات بين النبي واليهود حافظ على مودته مع النصارى فنزلت الآية تذم اليهود وتمدح النصارى : "لتجدنّ اشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهودَ والذين اشركوا. ولتجدَنّ اقْربَهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا انّا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون". (٥٩)

ولما جاء وفد من نصارى نجران يزور النبي دخلوا عليه المسجد حين كان يصلي العصر وعليهم ثياب ثمينة من برود اليمن فلما حانت صلاتهم قاموا في المسجد يصلّون فقال الرسول دعوهم، فصلّوا الى المشرق.

عهد نصارى نجران

قام عهد بين النبي ونصارى نجران وغيرهم من النصارى يقُرّهم على دينهم وعلى القيام بمراسيم عبادتهم وجاء فيه : "لنجران وحاشيتها جوارُ الله وذمةُ محمد على اموالهم وانفسهم وملّتهم وبيعتهم وارضهم وشاهدهم وغائبهم وكل ما تحت ايديهم من قليل او كثير. لا يُغَيّر اسقف من اسقفيته ولا راهبٌ من رهبانيته ولا كاهنٌ من كهانته ولا يحشرون ولا يطأُ ارضهم جيش". (٦٠) فلما تولى ابو بكر عاملهم بذلك اما عمر بن الخطاب فأجلاهم عن الحجاز.

لم تدم المودة طويلا بين النبي والنصارى فقد تغيرت اللهجة في وصفهم ونزلت الآيات تساوي بينهم وبين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم

الآخر وتَصِفُهم بالكفر وتدعو المسلمين الى قتالهم، وعقوبة الكافرين القتل.

من هذه الآيات :"لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم". (٦١)

والآية : "ولقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من إله الا الهٌ واحد".(٦٢)

والآية : "ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل".(٦٣)

تفسيرها في الجلالين : ما المسيح ابن مريم الا رسول قد مضت من قبله الرسل فهو يمضي مثلهم وليس بإله كما زعموا والا لما مضى.

والآية : "واذ قال الله يا عيسى ابن مريم انت قلت للناس اتخذوني وامي إلَهين من دون الله. قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق". (٦٤)

والآية : "يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب اليم". (٦٥) فإذا قارنّا هذه الآية التي نزلت في السنة العاشرة للهجرة مع آية المائدة، التي نزلت في السنة الخامسة او السادسة والتي تقول :"ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انّا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون"، ادركنا مقدار التطور العدائي الذي نما خلال السنوات الخمس الأخيرة من حياة النبي.

ثم جاءت الآية : "قاتلوا . . . الذين اُوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون". (٦٦) وقد فرضت هذه الآية على المسلمين اذلال اليهود والنصارى في حياتهم اليومية واستمر العمل بموجبها اجيالا طويلة حسبما قنّنتها "عهدة عمر".

نظرة المسلمين الى الدين المسيحي

يعتقد كثير من المسلمين ان الانجيل الحالي الذي يؤمن به المسيحيون ليس هو الانجيل الحقيقي الذي سرد أعمال المسيح لأن الانجيل الصحيح برأيهم تنبأ بمجيء محمد كخاتمة الأنبياء في حين أن الأنجيل المتداول لا يذكر ذلك. وكان اختلاف المسلمين في صحة الانجيل وتحريفه كاختلافهم في

التوراة بل ذهب ابن حزم وابن تيمية وغيرهما في عدم الاعتراف بالانجيل الذي بين أيدينا الى أكثر مما ذهبوا اليه في التوراة. وعلى أساس هذا الاعتقاد وضع ابن تيمية كتابه "الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح". (٦٧)

سورة التوبة واهميتها

في السنة العاشرة للهجرة (٦٣١) أرسل النبي أبا بكر يرأس الحج وأرسل في أثره علي بن ابي طالب وأمره بقراءة سورة البراءة على المشركين وكانت آخر سور القرآن (وتسمى ايضا سورة التوبة). فلما رآه أبو بكر انزعج من قدومه وخاف ان يتقدم علي عليه خصوصا في إمارة الحج لما لها من أهمية في نظر المسلمين فبادره بالسؤال : هل تأتي أميرا أم مأمورا. فأجابه علي بل مأمورا. ولم يطمأن ابو بكر فهرع عائدا الى النبي متوسلا ان تنزل فيه آيات يحملها كما يفعل علي لترتفع مكانته، فقد كان منذ ذلك الوقت، وقبله، يسعى الى حجب المنافسين له عن الحظوة لدى النبي خصوصا علي وبني هاشم. فطيب النبي خاطره وعاد أبو بكر يرأس الحج.

يعتبر كتاب مسلمون ان سورة التوبة او البراءة وهي آخر سورة نزلت، كانت فصل الخطاب في المواضيع التي عالجتها ومن هنا أهميتها. وفيما يلي بعض المبادئ التي وردت فيها وقرأها علي على الحجاج : (٦٨)

"ان الله بريء من المشركين ويبشّر الذين كفروا بعذاب اليم. أما الذين عاهدتم من المشركين (المشركون في هذا السياق هم اهل الكتاب الذين عاهدهم المسلمون) فاتمّوا عليهم عهدهم الى نهاية المدة المتّفق عليها ثم تنظرون في أمرهم. واذا انتهت الاشهر الحُرُم الاربعة فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم. "انما المشركون نَجَس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد هذا العام".

تتضمن هذه السورة أيضا آيات تذم اليهود والنصارى واحبارهم ورهبانهم وتشبه قولهم بأن المسيح هو ابن الله بقول الكافرين، وتحض المسلمين على جهاد الكفار والمنافقين واستعمال الغلظة معهم. وأخيرا تدعو السورة الى قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية وهم صاغرون.

بعد أن قرأ علي على الناس هذه الآيات صاح بهم : "أيها الناس، لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان،

ومن كان له عند الرسول عهد يبقى سارياً الى نهاية مدته".

بعد نزول آية التوبة وجّه النبي خالدا ابن الوليد الى نصارى نجران يدعوهم الى الاسلام كي يَسْلَموا من القتال، بعد ان كان اقرّهم على دينهم وعلى القيام بمراسم عبادتهم، فأسلم بعضهم وتمسك آخرون بالعهد المقطوع

وأرسل عليا بن أبي طالب الى اليمن يدعو أهلها للاسلام فرفضوا فقاتلهم وتغلب عليهم فلم يجدوا من التسليم بدا فسلّموا واسلموا.

بحلول عام ٦٢١ كانت أكثر القبائل الكبرى في شبه الجزيرة قد أعلنت دخولها في الاسلام وقبولها بدفع الزكاة مع ما يعنيه ذلك من خضوعها لسلطة النبي. لكن الاسلام لم يغير التركيب القبلي للمجتمع العربي ولم يتغلب على طبيعة العرب ونزعتهم للحرية الفردية المتطرفة ومناوئتهم لأية سلطة روحية او سياسية تحاول ان تفرض نفسها عليهم فلا يرضخون الا تحت الضغط والقهر. لذلك ذمهم القرآن وقال عنهم : "الاعراب اشد كفرا ونفاقا واجدر الا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله". (٦٩)

المطامع السياسية ترافق الدعوة

لما بدأ محمد رسالته في مكة أهمله أقرباؤه من بني هاشم. عاداه بعضهم بقسوة كعمه أبي لهب وزوجته فنزلت الآية :"تبّتْ يدا أبي لهب وتَب. ما أغنى عنه ماله وما كسب سيُصلى نار ذات لهب وامرأته حمّالة الحطب في جيدها حبل من مَسَد". (٧٠) ولم يكترث البعض الآخر به كعمه العباس. حتى عمه ابو طالب الذي كفله ورباه رفض ان يقبل الدين الجديد ومات وثنيا. أما أقرباؤه من آل عبد شمس فقد قاوموه مقاومة عنيفة بقيادة ابي سفيان ولم يقبلوا الدين الجديد إلا عندما لم يعد بدّ من ذلك.

لذلك وجد محمد نفسه منساقا نحو الجماعة التي قبلت رسالته وتجمعت حوله وعلى رأسهم أبو بكر بن قحافة التيمي، وعمر بن الخطاب من بني عدي، وأبو عبيدة ابن الجراح، وجميعهم من أصل متواضع إذا ذُكرت أنساب العرب.

يقول بعض المستشرقين ومنهم هنري لامانس في كتابه "الثلاثية" ان هؤلاء الثلاثة بزعامة أبي بكر شكلوا عصبة احاطت بالنبي وتقربت منه

واستطاعت بمهارة ان تستغل مقاومة الأمويين وبني مخزوم للاسلام (منهم خالد ابن الوليد قبل اسلامه)، وان تكتسب ثقة النبي الذي صار يرتاح اليهم. وتوثقت العلاقة أكثر لما تزوج النبي عائشة بنت أبي بكر ثم حفصة بنت عمر بن الخطاب فصار الرجلان داخلين في صميم الحياة العائلية الحميمة للنبي خصوصا وان عائشة بقيت عنده الزوجة المدللة والمفضلة طيلة حياته.

وكانت عائشة وحفصة متفقتين طيلة زواجهما ومن الطبيعي ان تسعيا الى ما فيه مصلحة والديهما المتحالفَين. وليس بالامكان معرفة مدى تأثيرهما في سياسة الدين الجديد لكنه من المؤكد أنه كان لعائشة نفوذ وكان أحيانا حاسما في بعض المواضيع. (٧١) من ذلك حسب قول المستشرق لامانس، تعيين أبي بكر أميرا للحج في السنة التي سبقت وفاة النبي وقد رأينا كم اضطرب أبو بكر عندما جاءه علي يحمل سورة التوبة فقد خشي أن يدل ذلك على تقديم علي عليه ولعله كان يعلم عن حالة النبي الصحية بواسطة ابنته أكثر مما عرف الناس.

من ذلك أيضا تكليف أبي بكر ليصلي بالناس اثناء مرض النبي بتأثير عائشة فاتخذ أبو بكر ذلك دليلا عى ان النبي قدمه على سائر المسلمين واحتج بذلك عندما تنافس مع الانصار على الخلافة. ويلاحظ المتتبعون ان معظم الاحاديث التي تشيد بأبي بكر وتعلي مكانته تُسند الى ابنته عائشة. (٧٢)

وقد استطاعت الزوجتان عائشة وحفصة ان تقصيا فاطمة عن أبيها فلم تلعب دورا مهما في حياته ولم تذكرها كتب السيرة الا نادرا. كما تمكن "الوزيران" من حجب الدور الذي كان يستطيع ان يلعبه عثمان بن عفان الاموي بفعل مصاهرته لمحمد (تزوج ابنته رقية ثم ام كلثوم)، وبحكم كونه أمويا ثريا وبارزا يستطيع ان يوثق العلاقة بين النبي وبين أقربائه الامويين الاقوياء بالمال والرجال والدهاء مما كان سيفسد خطط المتحالفين الثلاثة.

يقولا لامانس أن أبا بكر كان أقدر سياسي في محيط النبي وهو الذي أطلق الشعار : "لا يجوز ان تجتمع الخلافة والنبوة في بيت واحد" حسب حديث عمر لابن العباس (٧٣) وغرضه من ذلك اقصاء الهاشميين عن الخلافة. وأبو بكر هو الذي شكل وتزعم "الحلف الثلاثي" المؤلف منه ومن

عمر بن الخطاب ومن أبي عبيدة ابن الجراح ليخلفوا النبي في السلطة على ان يكون أبو بكر الخليفة الاول يعقبه عمر ثم أبو عبيدة. "وكان الثلاثة موضع حسد الصحابة الآخرين"(٧٤).

وقد استطاع أبو بكر استبعاد علي بن أبي طالب ابن عم النبي وزوج ابنته فاطمة وضَمِن الخلافة لعمر كما سنرى. أما أبو عبيدة فقد أبرزه عمر في بداية ولايته وعينه أميرا على جيوش الشام وعزل خالدا ابن الوليد أحد اعظم قادة المسلمين لأنه كان يشكل تحديا خطيرا لأبي عبيدة. لكن هذا توفي في خلافة عمر فانتهى المشروع الثلاثي بوفاته وان استمر العمل لاستبعاد الهاشميين.

وهكذا نرى ان الطموح الى السلطة والسعي لحيازتها واقصاء المنافسين عنها، بدأ أثناء حياة النبي واستمر بعدها ولم يتعارض هذا السعي مع تديّن الذين قاموا به وكانوا من أكبر المخلصين للاسلام والعاملين على نشر رسالته.

سيرفض كثير من المسلمين رواية هنري لامانس وتحليله كما يرفضون سلفا معظم أبحاث المستشرقين متّهمينهم بالتعصب والتحيز ضد المسلمين. ولا شك ان في بعض تلك الابحاث تعصباً وتحيزاً. لكن في بعضها نقدا علميا يستند الى دراسات دقيقة للتاريخ الاسلامي ويجب التمييز بين هذه وتلك. وما دام كثير من علماء المسلمين في عصرنا يرفضون مجرد التساؤل عن أحداث تلك السنين، ويهملون من أحداث ذلك العصر ما اورده المؤرخون المسلمون القدماء لانهم يريدون ان لا يأخذوا من التاريخ الا ما يعزز اتجاهاتهم وتصوراتهم، ويكتفون بتكرار ما يختارون من الاخبار مرددين آيات الاعجاب بكل ما جرى دون تمحيص، ويستبعدون التشكيك بما نقل اليهم، ويتهيّبون ولوج باب النقد العلمي والاستنتاج المنطقي، فانهم يستقيلون من أهم واجباتهم ولا يعود من حقهم أن يلوموا غيرهم اذا حاولوا ملء هذا الفراغ.

ولعل لعلماء المسلمين عذرهم. فالذين تجرأوا منهم على ملامسة النقد بشكل ملطف وخفيف كالدكتور طه حسين والشيخ علي عبد الرازق اُتّهموا بالكفر والزندقة وحوكموا وطردوا من وظائفهم. وليس هذا مما يشجع غيرهم

على سلوك طريقهم.

حجة الوداع

سار النبي الى الحج عام ٦٣٢ومعه عدد كبير من المسلمين وسُمّيت حجته هذه "حجة الوداع" فادى الفريضة ثم خطب في الناس ووعظهم وتلا الآية : "اليوم اكملت لكم دينكم وانعمت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً". (٧٥) فادرك ابو بكر ان النبي وقد تمت رسالته قد دنا يومه الذي يلقى فيه ربه . (٧٦)

والملفت للنظر ان هذه الآية التي ختمت رسالة النبي ليست موجودة في سورة التوبة التي يُجمع المسلمون انها اخر سورة نزلت، بل وردت في سورة "المائدة" التي يُظَن انها نزلت في السنة الخامسة او السادسة للهجرة (٦٢٧ او ٦٢٨) اي قبل اربع او خمس سنوات من نزول الآية التي انتهت بها رسالة النبي. وهذا مثل اخر على الاضطراب الذي رافق ترتيب السور والآيات.

تدبير امور القبائل

لم يغيب عن النبي انه لما منع الغزو بين القبائل التي اسلمت حرمها موردا مهما للرزق، والغى تقاليد قرون ربي عليها الناس، وعطل حياة الفروسية، وكبت نشاط صفات كانت موضع اعتزاز العرب كالشجاعة والنجدة والمرؤة وهي كلها ذات صلة بالغزو والحرب. لذلك كان من الضروري ان يفتح للعرب منفذا جديدا للغزو وكسب الغنائم كي تثبت القبائل على اسلامها.

كانت بلاد الشام تحت حكم الروم اقرب البلاد الى المسلمين. فامر النبي بتجهيز جيش بقيادة اسامة بن زيد واوصاه ان يغير على تخوم البلقاء من ارض فلسطين "وان يداهم اعداء الله واعداءه في عماية الصبح وان يمعن فيهم قتلاً، وان يحرقهم بالنار، وان يتم ذلك دراكاً قبل ان تصل اخباره الى العدو، فيغزوهم ويعود بالغنيمة." (٧٧) بدأت الاستعدادات لتحضير الحملة وكان الحماس كبيرا فقد مرّت مدة على قبائل المسلمين ولم يغزوا ويحصلوا على أسلاب وغنائم.

واضح من هذا التوجيه ان غرض هذه الحملة كان الغنيمة ولم يكن نشر

الدين والاستقرار في الارض. لكن هذه الغزوة لم تحصل لان المرض داهم النبي فانتظر الجيش شفاءه.

وفاة النبي

اشتد المرض على النبي وكان في بيت ميمونة فقد كان ذلك اليوم دورها بالزيارة. وميمونة هي احدى ازواج النبي من بني هاشم. بقي النبي سبعة ايام عند ميمونة حيث لازمته ابنته فاطمة وزوجها علي بن ابي طالب. ولم يكن هذا الوضع مريحاً لابي بكر وعمر فعملا على نقله الى منزل عائشة ملفوفاً بغطاء يحمله اربعة رجال. وقضى النبي الاسبوع من حياته الملئ بالالام المبرحة محاطا بعائشة وحفصة دون غيرهما. وفي حالة الضعف هذه طلب من ابي بكر ان يصلّي بالناس في المسجد بدلا عنه. (٧٨)

يقول الاستاذ محمد حسين هيكل : فيما النبي في هذه الشدة قبيل وفاته وفي البيت رجال، قال "أيتوني بدواة وصحيفة اكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده ابدا". فقال عمر "ان الرسول قد غلبه الوجع وعندكم القرآن وحسبنا كتاب الله". واختلف الحضور منهم من يقول قربوا يكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده، ومنهم من يأبى ذلك وعلى رأسهم عمر. فلما رأى محمد خصومتهم قال "قوموا ما ينبغي ان يكون بين يدي النبي خلاف". وانتهى الامر كما يريد عمر. وقد تسائل خصوم عمر هل اراد حقاً ان يوفر على النبي مشقة الكتابة ام خشي أن يستخلف النبي في كتابه خليفة غير ما خطط له عمر مع ابي بكر؟

الاكيد ان هاجس خلافة النبي كان مستحوذاً على اذهان الصحابة من آل هاشم والمهاجرين والانصار على السواء. فقد قال العباس عم النبي لابن اخيه علي بن ابي طالب "ان النبي سيُتَوَفّى في مرضه هذا فاذهب واسأله لمن يكون الامر بعده. فأن كان فينا علمناه، وان كان لغيرنا اوصى بنا"، فرفض علي. (٨٠) وهُنا يتضح الفرق بين حزم عمر وتردد علي.

اما الانصار فلم ينتظروا وفاة الرسول ليبحثوا فيمن يخلفه بل اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة والنبي يحتضر ليضمنوا ان تكون الخلافة لهم لا للمهاجرين كما سياتي.

وقد توفي الرسول يوم ٨ يونيو (حزيران) ٦٣٢.

اسلوب الدعوة الاسلامية

انتشر الاسلام بسرعة مذهلة فعمّ قبائل الجزيرة العربية في عشر سنوات. والجزيرة بلاد شاسعة مساحتها اكبر من مساحة مجموع دول اوروبا الغربية، تقطنها قبائل متناثرة في بقاع متباعدة تفصل بينها صحاري واسعة غير صالحة للسكن. فكيف تمّ هذا الامر.

لقد وصفنا في ما مرّ المجتمع العربي زمن الدعوة، ثم انتقال النبي والمسلمين الى المدينة، وبعض الغزوات التي قام او امر بها. ولم يكن غرضنا سرد حياة النبي واعماله فذلك موفور بتفصيل اكبر في مصادر عديدة اخرى. لكننا اردنا من ذلك شيئين : اولاً، ان فهمنا للاسلام يقتضي معرفة المجتمع الذي نشأت فيه الدعوة والظروف والشخصيات التي احاطت بها خلال نزول الوحي. والامر الثاني، استطلاع ما اذا كانت الاحداث التي جرت ما بين نزول الوحي نحو سنة ٦١٠ ووفاة النبي سنة ٦٣٢ تتضمن المؤشرات التي تفسر سرعة انتشار الاسلام في قبائل شبه الجزيرة العربية، والاهم من ذلك انتشاره الخاطف خارج الجزيرة في العقود الثلاثة التي تلت الوفاة.

ان كل دعوة الى عقيدة جديدة أكانت دينية او سياسية او اجتماعية تحتاج الى شرح مبادئها للناس واقناعهم بها ثم دعوتهم الى اعتناقها. وليست عملية الشرح والاقناع سهلة خصوصاً اذا كانت العقيدة دينية كالدعوة الاسلامية تقدم للناس افكاراً ومبادئ جديدة وتدعوهم الى انكار الاديان التي اعتادوها والتي ترسخت في نفوسهم بحكم معتقدات وعادات وتقاليد أِلفها الناس على مدى قرون وقد تكون ارتبطت بها مصالح مادية ومعنوية.

بدأ محمد يدعو الى رسالته بالحجة والاقناع نحو عشر سنوات تعرّض خلالها لاضطهاد اهل مكة حتى اضطر للهجرة الى المدينة. وبقيت الآيات تنزل وتكمل الدين، وبقي محمد والصحابة يبشرون بالدين الجديد ويدعون الناس اليه فيلقون استجابة بطيئة ومترددة.

وقد جرت حادثة تبيّن ضعف تمسك بعض المسلمين بالدين الجديد وصعوبة الاعتماد على ثبات اكثرهم إذا لم تمتزج العاطفة الدينية بمصالح

دنيوية. فقد كان النبي يَعِظ في المسجد وحوله عشرات المصلّين لما حدثت جلبة في السوق تنبىء بوصول قافلة كبيرة الى المدينة. فما كان من المصلّين إلا أن انفضّوا عنه وهرعوا الى القافلة تاركين النبي ومعه اثنا عشر من المصلّين فقط بينهم أبو بكر وعمر وعلي. وقد تأثّر النبي من هذا التصرف الذي يدل على خفة وعدم اكتراث بالدين فنزلت الآية : "واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضّوا اليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو والتجارة والله خير الرازقين". وقد احتاج النبي الى جهود كبيرة وحنكة سياسية ليرسّخ في نفوس اتباعه وعيا دينيا أعمق.

ثم بدأ سير الدعوة يتغيّر. صارت القوة تساند الحجة وصار العنف يدعم الاقناع. صارت رسالة محمد الى القبائل ثم الى العالم الاوسع التي تقول "أسلِموا تسلَموا" توضع موضع التطبيق العملي.

معنى ذلك انه اصبح على العرب من سكان المدن والواحات والبادية ان يقبلوا الدين الجديد قبل ان يأتيهم من يشرح لهم مبادءه، وان يعترفوا بان محمداً رسول الله قبل ان يطّلعوا على رسالته ويفهموها، اي ان المطلوب كان ان يقبلوا قبل ان يفهموا. وكان يكفي ان يُعلن المدعو الى الاسلام "اشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله"، ويقبل دفع الزكاة دليلا على الطاعة والوفاء، حتى يحق له ان يغزو مع المسلمين ويشارك بالغنيمة. ولا شك بان هذا كان حافزاً قوياً لانتشار الاسلام بهذه السرعة. لهذا ميّز القرآن بين الذين اسلموا عن ايمان والذين اسلموا لغرض اخر دون ايمان بالرسالة فنزلت الآية "وقالت الاعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم". (٨١)

لقد كان اسهل على العرب ان يعترفوا بالاله الواحد من ان يعترفوا بأن محمداً رسول الله. ففكرة الاله الواحد كانت معروفة ومقبولة حتى عند الوثنيين منهم ككائن ارفع منزلة واكبر قدرة وان عبدوا الاصنام الى جانبه. كما كان الله في اساس الديانتين اليهودية والمسيحية. اما ان شخصا هو رسول الله فذلك يحتاج الى دليل لم يكن ثبت عندهم بعد.

يفسّر ما نعنيه الحوار الذي جرى بين النبي وبين سُهيل بن عمر مندوب قريش في مفاوضات الحُدَيْبية. فبعدما اتفق الطرفان على الصلح دعا

النبي عليا بن ابي طالب وقال له : "اكتب باسم الله الرحمن الرحيم". فقال سهيل : امسك، لا اعرف الرحمن الرحيم بل اكتب "باسمك اللهم" (اي انه اعترف بالله لكنه انكر التعبير الاسلامي المتمثل بلفظ الرحمن الرحيم) فقبل النبي. ثم قال لعلي : اكتب "هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمر"، فقال سهيل، "امسك، لو شهدت انك رسول الله لم اقاتلك لكن اكتب اسمك واسم ابيك". فقال النبي اكتب "هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ..." (٨٢)

نعود الى رسالة النبي للقبائل ان "أسلِموا تَسلَموا" فاذا قبلوا يرسل لهم احد الصحابة يعلّمهم ما حفظ من القرآن (لان القرآن لم يكن جُمع بعد) ويفسر لهم الآيات التي حفظها حسب مفهومه لها لان كتب التفسير لم تصدر الا بعد نحو قرن من الزمن، فهل يا ترى كان مفهوم هؤلاء المبعوثين للآيات وتفسيرهم لها واحداً في اعوام الانتشار ام فسرها كلٌ منهم للقبيلة التي أُرسل اليها حسب مفهومه الخاص للآيات التي حفظها. يقول الاستاذ احمد امين في ذلك : لم يكن شائعا في عهد النبي حفظ القرآن جميعه كما شاع بعد لكن الصحابة كانوا يحفظون السورة او جملة آيات". (٨٣)

اما القبائل التي لم تقبل الاسلام فماذا كان مصيرها؟

ياتينا الجواب من الغزوات التي شنّها النبي على القبائل وكانت تسع عشرة غزوة وقيل سبعاً وعشرين في اقل من عشر سنوات كما سبق وذكرنا في بداية هذا الفصل. فهل اختلفت هذه الغزوات عن سابقاتها ايام الجاهلية.

اختلفت في الغاية ولم تختلف في الاسلوب. فقد اصبح الغزو "جهادا" في سبيل نشر الدين، وحظي بشرعية الهية لان الله امر به وحض عليه في القرآن. اما اسلوب الغزو ونتيجته فلم يختلفا. فالذين يقاومون المجاهدين يُقتلون او يُؤسرون او يفرّون، وتُسبى النساء والاولاد ويُسترقون ويُوزّعون غنائم على المنتصرين وكذلك مواشي القبيلة ومتاعها كما كان يجري في الجاهلية.

معاملة الاسرى

بعد معركة بدر (٦٢٤) وقع عدد من الاسرى في يد المسلمين. ولم يكن

النبي قد وضع للاسرى نظاما يكون على مقتضاه قتلهم أو فداؤهم، او استرقاقهم، لكنه أمر بقتل اثنين من أسرى بدر كانا يؤذيان المسلمين كثيرا في مكة. ورُوي أنه أُتي بيوم بدر بسبعين أسيرا فاستشار النبي فيهم أصحابه فنصح أبو بكر بأخذ الفدية وقال عمر بقتلهم. وخيّر الرسول أصحابه فأخذوا الفداء. ثم نزلت الآية : "ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الارض". (٨٤) ويفسّرها الامام البيضاوي بأنها "أمر للنبي بأن يُكثر القتل في الاسرى ويبالغ فيه حتى يذلّ الكفر ويقلّ حزبه، ويعزّ الاسلام ويستولي أهله. وقد أمر الله بالاثخان ومنع عن الافتداء حين كانت الشوكة للمشركين وقال تريدون حطام الدنيا بأخذكم الفداء والله يريد لكم ثواب الآخرة والله عزيز يغلّب أولياءه على أعدائه، وحكيم يعلم ما يليق بكل حال، وخيّر بينه وبين العفو لما تحولت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين. وهذا دليل، يقول البيضاوي أن الانبياء يجتهدون وقد يخطئون."

بدأت كفة المسلمين ترجح في الغزوات مع ازدياد عددهم بمن آمن بالاسلام عن عقيدة وبمن انضم طمعاً بالغنيمة. فلما اصبحت قوتهم ظاهرة ومتفوقة خصوصاً بعد دخول مكة، سارعت القبائل الباقية الى قبول الاسلام حماية لنفسها من الغزو وللمشاركة في الغنيمة من القبائل إلتي بقيت ممتنعة فصارت قوة المسلمين تتكاثر ككرة الثلج حتى عمّت شبه الجزيرة.

يقول الاستاذ محمد حسين هيكل : كان في العرب من دخل دين الاسلام رَغَباً ورَهَباً، رَغَباً في مغانم الحرب بعد ان اصبحت قبائل العرب كلها لا تثبت امام غزو المسلمين فتُسلِم، ورَهَباً من هذه القوة التي اصبحت متفوقة". (٨٥)

كم من هؤلاء المنضمين فهم عقيدة الاسلام واقتنع بها واعتنقها، وكم منهم ركب موجة النجاح ليحمي نفسه اوِ ليشارك بالغنيمة؟ هذا ما لا يمكن التأكد منه. لكن اصرار المقاتلين في غزوة هوازن بأن يوزع النبي الغنيمة عليهم، ثم استهزاؤهم بنتيجة غزوة تبوك لأنهم لم يحصلوا منها على غنائم مع انها حققت منافع سياسية للاسلام، يدل على ان الغنيمة كانت حافزاً مهماً لنسبة كبيرة منهم، وان رداء الاسلام كان عند بعض هؤلاء شفافاً.

في هذا الموضوع يتساءل الاستاذ احمد امين : "الى اي حدّ تأثر

العرب بالاسلام، وهل انمحت تعاليم الجاهلية ونزعاتها بمجرد دخولهم في الاسلام؟ الحق ان الامر ليس كذلك. فقد جاء الاسلام يدعو الى محو التعصب للقبيلة والجنس، والى ان الناس جميعاً سواء، ونزلت آيات عدة في ذلك لكن النزعة العصبية لم تمت وكانت تظهر بقوة حتى بوجود النبي". (٨٦) ويتأكد ذلك بما حصل بعد وفاة النبي وعُرف "بحروب الردّة" حيث ظهر اربعة يدّعون النبوة وينافسون بلاغة القرآن، ورفضت القبائل دفع الزكاة لانها اعتبرتها دليل خضوع ومذلّة. وسنفصّل ذلك في الكلام عن خلافة ابي بكر.

الحقيقة ان الاسلام لم يغيّر التركيب القبلي للمجتمع العربي الذي بقيت افاقه محدودة بالقبيلة وولاؤه مقيّداً بعصبيّتها. كما ان نشوء سلطة مركزية تقيد من حريته وتفرض عليه واجبات انضباطية كان مناقضاً لطبيعته ولايقبلها الا مرغماً.

وقد ادرك النبي هذه الصفة في العرب ومع ذلك تمكن في السنة التاسعة للهجرة ان ينتزع من اكثر القبائل قبولا بالاسلام وموافقة على دفع الزكاة مع ما تعنيه من الخضوع للمدينة عاصمة الاسلام في ذلك الوقت.

* * *

مراجع الفصل الثاني
النبي في المدينة

١ ــ هيكل، محمد حسين، حياة محمد، ص ٢٤٥.
٢ ــ ابن هشام، السيرة، ص ٢٦١.
٣ ــ هيكل، سبق ذكره، ص ٢٢٣ و ٢٢٤.
٤ ــ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٢٠٦.
٥ ــ سورة الانفال، ٤١.
٦ ــ ابن هشام، السيرة، ص ٢٠٥.
٧ ــ سورة آل عمران، ١١٩.
٨ ــ ابن هشام، ص ٣٠٥.
٩ ــ هيكل، سبق ذكره، ص ٢١٣ و ٢١٤.
١٠ ــ ابن الاثير، ج ٢، ص ١٢٢ــ١٢٦.
١١ ــ هيكل، سبق ذكره، ص ٢٥٢.
١٢ ــ ابن الاثير، ج ٢، ص ١٥٥.
١٣ ــ المصدر السابق، ج ٢، ص ١٨٩ ــ ١٩٢.
١٤ ــ هيكل، سبق ذكره، ص ٢٧٦ و ٢٧٧ .
١٥ ــ طه حسين، علي وبنوه، ص ١٧.
١٦ ــ هيكل، سبق ذكره، ص ٤١٨.
١٧ ــ ابن الاثير، ج ٢، ص ١٦١ ــ ١٦٦.
١٨ ــ المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤٥.
١٩ ــ المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٨.
٢٠ ــ هيكل، سبق ذكره، ص ٤٨٦.
٢١ ــ سورة البقرة، ٦١، وسورة المائدة ٦٨.
٢٢ ــ سورة آل عمران، ١٩٨.
٢٣ ــ سورة البقرة، ٨٦ .
٢٤ ــ سورة المائدة، ٤٥.
٢٥ ــ سورة البقرة، ١٢٥.

٢٦ ــ سورة النحل، ١٢٤.

٢٧ ــ سورة العنكبوت، ٤٥.

٢٨ ــ سورة آل عمران، ٦٣.

٢٩ ــ سورة آل عمران، ٦٩ و ٧٠.

٣٠ ــ سورة آل عمران، ١٠٩.

٣١ ــ سورة المائدة، ٤٧.

٣٢ ــ سورة آل عمران، ٢٧.

٣٣ ــ سورة النساء، ٤٧.

٣٤ ــ سورة التوبة، ٢٨.

٣٥ ــ سورة البقرة، ١١٩.

٣٦ ــ سورة آل عمران، ٨٤.

٣٧ ــ سورة الانفال، ٦٤.

٣٨ ــ سورة التوبة،٤.

٣٩ ــ سورة الانفال، ٣٨.

٤٠ ــ سورة التوبة، ٧٢.

٤١ ــ سورة التوبة، ١٢٣.

٤٢ ــ هيكل سبق ذكره، ص ٢٢٤.

٤٣ ــ المصدر السابق، ص ٢٢٦ و ٢٢٧.

٤٤ ــ سورة البقرة، ٤٧ و ١٢١.

٤٥ ــ سورة البقرة، ٥٢.

٤٦ ــ سورة البقرة، ٨٦.

٤٧ ــ سورة المائدة، ٨١.

٤٨ ــ سورة المائدة، ٦٢.

٤٩ ــ سورة البقرة، ٦٠.

٥٠ ــ ابن الاثير، ج ٢، ص ٩٦ و ٩٧

٥١ ــ المصدر السابق، ج ٢، ص ١١٩.

٥٢ ــ ابن هشام، السيرة، ص ٢٩٩، وابن الاثير،ج ٢، ص ١٢٧.

٥٣ ــ هيكل، سبق ذكره، ص ٢٨٦ ــ ٢٩٠.

٥٤ ـ المصدر السابق، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١.

٥٦ ـ ابن الاثير، ج ٢، ص ٥١.

٥٧ ـ سورة آل عمران، ٤٤ ـ ٤٧ وسورة مريم ١٥ ـ٢٢.

٥٨ ـ سورة آل عمران، ٥٤.

٥٩ ـ سورة المائدة، ٨١.

٦٠ ـ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٧٢.

٦١ ـ سورة المائدة، ١٦ و ١٧.

٦٢ ـ سورة المائدة، ٧٢.

٦٣ ـ سورة المائدة، ٧٤.

٦٤ ـ سورة المائدة، ١١٥.

٦٥ ـ سورة التوبة، ٣٢.

٦٦ ـ سورة التوبة، ٢٨.

٦٧ ـ احمد امين، ضحى الاسلام، ج ١، ص ٣٢٩.

٦٨ ـ هيكل، سبق ذكره، ص ١٧٢.

٦٩ ـ سورة التوبة، ٩٦.

٧٠ ـ سورة اللهب، ١ ـ ٥.

٧١ ـ هنري لامانس، الثلاثية، ص ١٢١ (بالفرنسية).

٧٢ ـ المصدر السابق، ص ١٢١.

٧٣ ـ المصدر السابق، ص ١١٥ ـ ١١٦.

٧٤ ـ المصدر السابق، ص ١١٧.

٧٥ ـ سورة المائدة، ٢.

٧٦ ـ هيكل، سبق ذكره، ص ٤٩١.

٧٧ ـ المصدر السابق، ص ٤٩٤.

٧٨ ـ هنري لامانس الثلاثية، ص ١٢١ (بالفرنسية)

٧٩ ـ هيكل، سبق ذكره، ص ٥٠١.

٨٠ ـ ابن الاثير، ج ٢، ص ٢١٧.

٨١ ـ سورة الحجرات، ١٢.

٨٢ ـ هيكل، سبق ذكره، ص ٢٧٤.

٨٣ ـ احمد امين، فجر الاسلام، ج ١، ص ٢٣٦.

٨٤ ـ سورة الانفال، ٦٦.

٨٥ ـ هيكل، سبق ذكره، ص ٤٥٧.

٨٦ ـ احمد امين، فجر الاسلام، ج ١، ص ٩٤.

• • •


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

الأسلام : منابع الدين ومباديء الحكم

منابع الدين

إن الاستسلام الكامل لمشيئة الله ولارادته هو العقيدة الاساسية في الاسلام وقد أجمع الفقهاء على أن منابع الدين الاسلامي هي القرآن، والسنّة، وسيرة السلف الصالح. "فالقرآن هو أساس الاسلام ودعامته، أما السنّة فهي مبيّنة الكتاب وشارحته، وأما سيرة السلف الصالح فهم منفذو أوامره والآخذون بتعاليمه، وهم المثل العملية لهذه الاوامر والتعاليم". (١)

القرآن

إن القرآن بنظر المسلمين هو كلمة الله محفوظ في السماء و"انه في أمّ الكتاب". (٢) "بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ". (٣) والآيات هي كلام الله مباشرة وليست كلام محمد. ولم يكن النبي الا واسطة لنقل كلام الله الى الناس، وبما انها كلام الله فلا يجوز تغيير حرف او حركة فيها.

وقد نزلت الآيات على النبي متفرقة في نحو ثلاث وعشرين سنة، منها ثلاث عشرة سنة في مكّة نزل فيها ثلثا القرآن، ونحو عشر سنوات في المدينة نزل فيها الثلث الباقي. وفي القرآن ١١٤ سورة ونحو ستة آلاف آية ليس منها ما يتعلق بالاحكام الا نحو مائتين او اقل (اي التي تتعلق بالتشريع في الامور المدنية والجنائية والاحوال الشخصية) واكثرها وارد في سورة البقرة، والنساء، والمائدة. (٤)

نزلت الآيات باللغة العربية. "انّا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون". (٥)

و"هذا لسان عربي مبين". (٦) وكان واسطة التنزيل "الروح" و"الروح القدس" و"جبريل". "وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين بلسان عربي مبين" (٧) "قل نزله الروح القدس من ربك بالحق" (٨) وورد ذكر جبريل كناقل للآيات في سورة البقرة، آية ٩٦ و ٩٧، وفي سورة التحريم، آية ٣.

يقول الاستاذ احمد امين : "ان نزول القرآن بلغة العرب لا يعني ان العرب كلهم استطاعوا ان يفهموه في مفرداته وتراكيبه ومعانيه. حتى ان ألفاظ القرآن نفسها لم يكن العرب كلهم يفهمون معناها. وهم، اذا فهموا الالفاظ، فان ادراك المعاني العميقة للآيات كان يحتاج الى فهم وثقافة ربما تجاوز مقدرة العديد من الصحابة الذين سمعوا الرسول يتلو الآيات. رُوي عن أنَس بن مالك ان رجلا سأل الخليفة عمر بن الخطاب عن الآية "وفاكهةَ وأباً"، ما الأب؟ فقال عُمر "نُهينا عن التكلف والتعمق". انما كان كثير من الصحابة يكتفون بالمعنى الاجمالي للآية، فيكتفون من الآية و"فاكهة وابا" بانه تعداد لنعم الله ولا يلزمون انفسهم بتفهم معاني الآيات تفصيلا. وفوق ذلك ففي القرآن آيات كثيرة لا يكفي لفهمها معرفة الفاظ اللغة العربية واساليبها مثلا : "والعاديات ضَبحاً" "والذاريات ذَرواً". وما المراد بالليالي العشر في الآية "والفجر وليال عشر، وما المراد بليلة القدر"؟ (٩)

جمع القرآن

كان النبي يتلو الآيات حين نزولها فيحفظ بعضَها عدد من الصحابة ويدوّن بعضَها اخرون على الحجر وسعف النخل وورق الشجر والجلد والعظام. لكن الذين كتبوا الوحي لم يكونوا مهرة في الكتابة ولا كانت كتابتهم سائرة على نمط واحد ولا خاضعة لقوانين الاملاء التي لم تكن وُضعت بعد، فضلا عن ان التنقيط والتشكيل لم يكونا معروفين فجاء قرآن عثمان غير منقَط ولا مُشكّل.

وكان الصحابة الذين حفظوا القرآن ودوّنوا آيات منه ينتسبون الى قبائل عربية ذات لهجات وكتابات مختلفة فبعضها مثلا كان يلفظ الكلمة ويكتبها بشكل يخالف لهجات اخرى كأن يكتب التاء الطويلة والالف الطويلة في آخر الكلمة بينما كان اخرون يستعملون التاء القصيرة والالف المقصورة.

وكان بعضهم يلفظ ويكتب الواو بدل الالف. ونرى الالف الطويلة ساقطة في اواسط الكلمات في كثير من اللهجات كما في سورة الحِجْر وغيرها من السُوَر.

وقد قُتل في حروب الردة كثير من حفظة القرآن وخاف البعض عليه من الضياع فكلف ابو بكر زيداً بن ثابت كبير كتاب النبي ان يجمع الآيات. وتمّ الجمع خلال سنتين او ثلاث من وفاة النبي وحُفظ الكتاب عند حفصة بنت عمر ابن الخطاب زوجة النبي.

مع الفتوحات الكثيرة في عهد عمر وعثمان استقبل الاسلام شعوبا مختلفة اللسان وكثرت اللهجات التي يُقرأ بها القرآن وظهرت الحاجة الى توحيدها فاحضر الخليفة عثمان بن عفان نسخة القرآن التي عند حفصة زوجة النبي وعرض القراءات المختلفة وعيّن زيدا بن ثابت سنة ٦٥١ يعاونه عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن ابن الحارث لتدوين الآيات والسُوَر وترتيبها، واوصاهم اذا اختلفوا في شيء ان يكتبوه بلغة قريش.

بعدما انتهى الجمع أرسلت نسخ من هذا المصحف الى جميع الامصار وسُحبت النسخ السابقة وأُحرقت وبقي المصحف الحالي الذي يعرف باسم مصحف عثمان.

لكن مصحف عثمان لم يكن منقّطا ولا مشكّلاً. كما بقيت القبائل تتلوه بلهجاتها التي تختلف كثيرا عن بعضها البعض. ودام هذا الوضع الى ان "ثبت النص القرآني سنة ٩٢٣ في عهد الخليفة العباسي القاهر على يد الوزيرين ابن مقلة وابن عيسى بمساعدة العلامة ابن مجاهد الذي اجاز سبع قرآآت فقط"(١٠١) (راجع باب "اللغة العربية" وموضوع "التصحيف" في الفصل السادس).

خلال هذه الفترة الطويلة اشتدت النزاعات بين المسلمين وظهرت فرق دينية وسياسية كثيرة. وينقل الاستاذ محمد حسين هيكل ادّعاء بعض المستشرقين بان القرآن حُرّف وبُدّل في ذلك الزمن لخدمة اغراض سياسية ودينية ومآرب اخرى كما حصل بانتحال الحديث.

من جهتهم، يدّعي الشيعة ان الذين جمعوا قرآن عثمان اغفلوا متعمدين الآيات التي تزكّي عليا بن ابي طالب. كما انهم يفسرون معاني

بعض الآيات بما يختلف عن تفسير السنّة لها.

ترتيب السوَر والآيات

ترتبت الآيات والسور على شكل غير مألوف. فهي لم تُرتّب حسب تاريخ نزولها ولا حسب موضوعها اذ نجد كثيرا من السُوَر تحتوي على آيات تبحث في مواضيع مختلفة لا رابط بينها. ولا يبدو ان زيداً ابن ثابت وصحبه تبعوا نهجا معينا في ترتيب موضع الآيات "لذلك لاترى الآيات القانونية مثلا قد جمعت في موضع واحد، ولا الآيات المتعلقة بموضوع واحد في مقام واحد او مقامين الا نادرا". (١١)

اما بالنسبة لترتيب السور فكان اسلوب الذين جمعوا القرآن غريبا. رتّبوا السُوَر حسب طولها. فأطول السُوَر في اول الكتاب، وأقصرها في آخره. وبما ان السُوَر المكّية نزلت بطبيعة الحال قبل السُوَر المدنية، وهي في الغالب اقصر، فانهم وضعوها في آخر المصحف بعد السُوَر المدنية بحيث اذا اردت ان تقرأ القرآن مبتدأ بالسور التي نزلت اولا وجب ان تبدأ بقرائته من آخره متدرجا الى أوله.

ان نصوص الآيات هي تنزيل الهي باعتقاد المسلمين، لكن ترتيب السُوَر والآيات كان من عمل البشر لا يتمتع باية قدسية دينية، ولا تذكر كتب السيَر ان الوحي نزل على أعضاء اللجنة التي عيّنها الخليفة عثمان بن عفان لجمع المصحف وترتيبه على الشكل الحالي. فما الذي يفسر اذاً احجام العلماء والفقهاء المسلمين طيلة اربعة عشر قرنا عن اعادة النظر بعمل زيد بن ثابت ولجنته واتّباع طريقة علمية ومنطقية في ترتيب المصحف إمّا حسب التسلسل التاريخي او حسب المواضيع، او بالاسلوبين معاً. اغلب الظن ان التقليد والتمسك بالقديم واعطائه صفة شبه قدسية هو الذي منع المسلمين من معالجة هذا الموضوع الهام.

يتضمن القرآن آيات منسوخة اي انه تأتي آية تلغي آية سابقتها، ولا يوجد اتفاق على عدد الآيات المنسوخة اذ يتراوح العدد لدى المفسرين من قليل الى كثير.

وقد حاول عدد من المستشرقين ترتيب سُوَر القرآن حسب تاريخ

نزولها منهم نولدكة وغريم وهيرشفيلد ورودويل، وآخرهم ريتشارد بِلْ الذي ترجم القرآن الى الانكليزية. ولا نرى اهتماما مماثلا لدى العلماء المسلمين، وهم اجدر بذلك، لكننا نقرأ كثيرا من الانتقاد اذا بحث غير المسلمين شئونا اسلامية تجنّبها العلماء ورفضوا الخوض فيها.

الحديث

يقول الاستاذ احمد امين : "يراد بالحديث او السنّة ما ورد عن الرسول من قول او فعل او تقرير. وبعد عصر الرسول ضُمّ الى الحديث ما ورد عن الصحابة، فالصحابة كانوا يعاشرون النبي ويسمعون اقواله، ويشاهدون عمله ويحدثون بما رأوا وما سمعوا فكان من الاخبار عن الرسول وصحابته "الحديث". (١٢)

ولم يكن الصحابة كلهم في مستوى واحد. فقد كانوا ينتقدون بعضهم بعضا وينزلون بعضا منزلة اسمى من بعض. (١٢) واختلف الصحابة في الحديث عن الرسول كثرة وقلّة. كان اكثرهم حديثا ابو هُريَرة، وعائشة، وعبد الله ابن عمر، وعبد الله ابن العباس، وأنَس بن مالك، وجابر ابن عبد الله.

يُنسب الى ابي هُريَرة ٥٢٤٧ حديثاً، ولعائشة ٢٢١٠، ولعبد الله بن عمر وانَس بن مالك ما يقارب حديث عائشة. ولكل من جابر بن عبد الله وعبد الله ابن العباس أزيد من ١٥٠٠ حديث، ولعمر بن الخطاب ٥٣٧ حديثا، اي ما مجموعه نحو خمسة عشر الف حديث منسوب الى من كانوا اقرب الناس الى النبي. ومن الغريب انه لا يُنسب الى فاطمة ابنة النبي اي حديث عن والدها وهي الوحيدة من بناته التي عاشت بعده. وكان للحديث قيمة كبرى بعد القرآن فكثير من آيات القرآن جاءت مجملة او مطْلقة او عامة فجاء الحديث فبيّنها او قيّدها او خصّصها.

كان جمع الحديث اساسا لكل العلوم الدينية تفرّع عنه التفسير والفقه وتاريخ السيرة النبوية. وكانت هذه العلوم كلها شفوية يتناقلها الناس بعضهم عن بعض بالسماع ولا يُعنى بالتدوين الا افراد قلائل بكتابة بدائية. وكان للحديث اكبر الاثر في نشر الثقافة في العالم الاسلامي في عهد الامويين واوائل عهد العباسيين فقد كانت الحركة العلمية في ذلك الوقت حركة دينية وكان

الحديث اكبر مصادرها واغزرها مادة فيما يتعلق بالعبادات والمسائل المدنية والجنائية. فقد اقتصر الناس في ذلك الزمن على الاهتمام بالعلم المتصل بالكتاب والسنّة وما عدا ذلك فليست له قيمة. (١٤)

لم يهتم الخلفاء الأول بتدوين الحديث وجمعه انقاذاً له من الانتحال كما فعلوا بالقرآن فقد مضى نحو قرنين على وفاة النبي قبل ان تظهر الكتب التى جمعت الحديث. وكان احمد بن حنبل (٧٨٠ - ٨٥٥) اول من عُني بجمع الحديث في كتابه "المسند" الذي يحتوي على ثلاثين الف حديث رتّبه ابنه عبد الله حسب اسماء الصحابة الذين روى عنهم.

ثم ظهرت في منتصف القرن التاسع ست مجموعات للحديث تُعتبر موثوقة صُنّفت فيها الاحاديث حسب مواضيعها ودقق مؤلفوها بالروايات ومحّصوها واختاروا منها ما اعتبروه صحيحاً وهي :

١ - كتاب الجامع الصحيح للبخاري (٨١٠ - ٨٧٠).
٢ - كتاب صحيح مسلم (٨١٧ - ٨٧٥).
٣ - كتاب السنن لابن ماجة (٨٢٤ - ٨٦٦).
٤ - كتاب السنن لابي داوود (٨١٧ - ٨٨٨).
٥ - الجامع الصحيح للترمذي (توفي ٨٩٢).
٦ - كتاب السنن للنسائي (٨٣٠ - ٩١٥).

يُلاحظ ان هذه المجموعات الست كُتبت في زمن متقارب (ما بين ٨٢٠ـ ٩١٥) كأنه تسلط فجأة على الوسط الديني شعور بضرورة وضع حدّ للانتحال. ففي القرنين من وفاة الرسول الى صدور هذه الكتب استباح كثيرون لانفسهم وضع الحديث ونسبته كذباً الى النبي. "ويظهر ان ذلك حدث والنبي لا يزال حياً". (١٥)

اما اسباب وضع الحديث فكثيرة. منها الخصومة السياسية : بين علي وابي بكر، وبين علي ومعاوية، وبين عبد الله ابن الزبير وعبد الملك بن مروان، وبين الامويين والعباسيين، وبين السنّة والشيعة والخوارج وغيرهم من الفرق الاسلامية.

ومنذ تولّى عثمان بن عفّان الخلافة بدأت الخصومة إلتي كانت بين بني

هاشم وبني اميّة قبل الرسالة تظهر من جديد فوُضعت احاديث تعزّز موقف كل فريق. فلمّا قُتل عثمان وقامت الحرب الاهلية بين المسلمين وخاصمت عائشة عليّا بسبب حادثة صفوان التي ذكرناها، بدأت الاحاديث المنحولة تكثر. فلما استتبّ الامر لبني اميّة جعل الامويون يُضعفون ما رُوي عن علي وفضائله في حين صار انصار علي يزيدون منها.

ويتصل بهذا النحو احاديث وضِعَت في تفضيل القبائل العربية وتفضيل العرب على العجم والروم، فقابلها هؤلاء باحاديث في فضل العجم والروم والاحباش والترك على العرب. ومثل ذلك في تفضيل كل قوم عصبيّتهم على عصبيّة غيرهم.

وقامت الخلافات الكلامية والفقهية. فمثلاً اختلف علماء الكلام في القدر او الجبر او الاختيار فوُضعت احاديث نصرت هذا الاتجاه او ذاك. وتزلف الناس والشعراء لهوى الخلفاء والامراء فوضعوا لهم الاحاديث التي ترضيهم(١٦) وفي الزمن الذي ظهرت فيه مجموعات الحديث كان في التداول بين الناس نحو ستماية الف حديث.

علم الحديث

وضع العلماء في القرن التاسع قواعد للجرح والتعديل (اي تفحّص صحة الاحاديث) لكنهم عنوا بنقد الاسناد (اي من نقل عن من) اكثر مما عنوا بنقد المتن والمحتوى فقلّ ان تجد نقداً من ناحية ان ما نُسب الى النبي لا يتفق والظروف التي قيل فيها الحديث، او ان الحوادث التاريخية تناقضه.

وزاد في اضطراب الحديث ان اهل السنّة يجرّحون كثيراً من احاديث الشيعة، ويفعل الشيعة مثلهم في احاديث السنّة. وقد اختار البخاري في كتابه نحو سبعة الاف حديث منها ثلاثة الاف مكررة بمعنى انه ثبت لديه اربعة الاف حديث فقط من الستماية الف المتداولة.

واذا تذكرنا ان الاحاديث المنقولة عن اقرب الناس الى النبي كعائشة وابي هُريَرة وعبد الله ابن عمر وعبد الله ابن العباس بلغت خمسة عشر الف حديث، في حين ان البخاري اقتصر على اربعة الاف من كافّة الاحاديث على

اختلاف مصادرها، ادركنا مقدار ما أُنتحل على لسان هؤلاء وحدهم. معنى ذلك ان المسلمين في اقرب الايام والسنين لنشوء الدعوة لم يتحرّجوا بالاختلاق على لسان النبي خدمة لاغراضهم الدينية والسياسية، ولا يدل هذا على تقوى ذلك المجتمع.

ويُلاحَظ ان رواة الاحاديث لم ينقلوا شيئا عن زوجات النبي عدا عن عائشة. فهل كنّ كلهنّ على درجة من الجهالة بحيث لم تحفظ احداهنّ حديثا واحدا عن زوجها؟ الارجح ان الامر لم يكن كذلك. ولعل الرواة تجاهلوهن ابرازا لمكانة عائشة.

وقد رُوي عن الامام الشافعي قوله انه لم يثبت عن ابن العباس الا نحو مائة حديث، ولم يثبت عن عمر بن الخطاب الا نحو خمسين. اما الامام ابو حنيفة فلم يصح عنده الا سبعة عشر حديثا من الستماية الف حسب قول ابن خلدون. (١٧) فاذا صحّ قول هؤلاء الفقهاء فعلى ايّ اساس اذاً قامت تلك العلوم التي يقول الاستاذ احمد امين انها تفرعت عن الحديث؟

امام هذه الشكوك الجسيمة التي تتناول صحة الاحاديث، وامام اهمال العلماء السابقين تجريحها بالنسبة لمتونها، فما هو عذر العلماء المعاصرين بالامتناع عن ذلك؟

سيرة السلف الصالح

بقي ما يعتبره البعض المنبع الاخير للدين الاسلامي وهو "سيرة السلف الصالح". والسلف الصالح هم صحابة النبي الذين قبلوا الاسلام في حياة الرسول وعاصروه وعايشوه وسمعوا تعاليمه وشاهدوا تصرفاته وعملوا بها ونقلوها الى الناس بعد وفاته. لكنه من الخطأ الايحاء بان الصحابة كانوا جماعة مؤتلفة متحابة ومتعاونة نذرت نفسها لخدمة الدين الجديد وابتعدت عن مطامع الدنيا ورغائبها، فقد برزت الخلافات بينهم حال وفاة الرسول وانقسموا شيَعاً واحزابا تتقاتل، ثم انقسموا صحابة سنّية وصحابة شيعية يتعادى افرادها ويتنافرون. وسنرى تفصيل ذلك في الفصل الرابع مما يحمل على التساؤل باي فئة من "السلف الصالح" يريد المسلمون التقليديون المعاصرون ان يقتدوا؟

الشريعة

الشريعة لغةً هي مورد الماء. وهي في الاسلام "ما شرع الله لعباده من السنن والاحكام" وهي مستمدة من المنابع التي ذكرنا. فقد تثبّت النص القرآني وجُمعت الاحاديث الصحيحة ونشأ منها نظام اخلاقي مدني ازلي لانه يعتمد على وحي الَهي موجّه الى العالم اجمع يتفوق بنظر المسلمين على رسالات الانبياء السابقين. فالشريعة تعبّر عن الارادة الالهية التي تبيّن للمسلم وللمجتمع الاسلامي الالتزامات الدينية والاخلاقية وطريقة الحياة والسلوك المتوجبة عليهم بموجب احكامها.

وكان من الطبيعي مع تطور المجتمع واحتكاكه بالعالم خارج محيط الجزيرة العربية ان تظهر حاجات لم يأتِ عليها نصٌ في القرآن او الحديث بحيث تعذّر على المسلم العادي ان يدرك ما اراده الله في كل موضوع فكان لا بد لاهل العلم من استخلاص الاحكام وشرحها ليجري العمل بموجبها. وقد عُرف علم استنباط الاحكام الشرعية من القرآن والحديث باسم "الفقه" وهو يعني لغةً المعرفة بالشيء، وعُرف اللذين يتابعون هذا العلم باسم "الفقهاء" الذين لهم حق "الاجتهاد" اي إعمال رأيهم واستعمال عقلهم في الاستنباط. وقد استخدم الفقهاء السنّة في استنباطهم قواعد "القياس" اي المقارنة مع احكام ونصوص سابقة مشابهة تصلح لاستخلاص حكم ينطبق على حالة جديدة. ومع الزمن، حظيت هذه الاحكام المستنبطة بقبول عام من العلماء فسُمّي هذا القبول "اجماعا" اي اجماع اهل العلم على رأي موحّد في قضية معيّنة فاصبح "الاجماع" اصلا رابعا ملزما من اصول الشريعة الى جانب القرآن والحديث والقياس.

كان من الطبيعي ان يحصل اختلاف بين الفقهاء في فهم الآيات واختيار الاحاديث الصحيحة والقياس عليها واستنباط الاحكام منها فظهرت احكام مختلفة في مسائل متشابهة تركزت لدى السنّة في اربعة مذاهب منسوبة الى الأئمة الذين اجتهدوا وهم ابو حنيفة التيمي ومحمد بن ادريس الشافعي ومالك بن انَس واحمد بن حنبل، وتركزت لدى الشيعة الامامية في المذهب الجعفري.

اعتبر التقليديون من المسلمين ان العمل التاريخي في استنباط احكام الشريعة قد انتهى في القرن التاسع عندما تركزت المذاهب الفقهية الاربع وتعززت في القرون اللاحقة بشروح وتعليقات ثبّتت اتجاهات هذه المذاهب واعطتها مضمونها وشكلها القائم. ويرى التقليديون ان مبدأ "الاجماع" انحصر باجماع علماء ذلك العصر وبذلك أُغلق باب الاجتهاد وتعطل مبدأ القياس "والاجماع" وتجمدت الشريعة عند مجتمع القرن التاسع، في حين يرى التقدميون ضرورة التوسع باعمال الرأي لتطوير المجتمع الاسلامي حسب مقتضيات العصر الحاضر وتوسيع ممارسة الاجماع ومفهومه حتى يتحول الى شورى حقيقية وديمقراطية عصرية.

تختلف الشريعة بالمقارنة مع النظام الحقوقي الغربي، فهي تنظم علاقات المسلم مع الافراد الاخرين، ومع ربه ووجدانه. فالواجبات الدينية كالصلاة والحج والزكاة والصوم هي جزء اساسي من الشريعة. وتعنى الشريعة ايضا بالمباديء الاخلاقية عنايتها بالقوانين اذ تُبيّن للمسلم ما يجوز عمله وما يجب الامتناع عنه في تصرفه الشخصي تجاه ضميره وتجاه افراد مجتمعه، وتشكل له نهجا اخلاقيا ينظم حياته الخاصة والعامة. فللاسلام اذن صفة اجتماعية، بالاضافة الى الصفة الدينية تعبر عن نفسها بنظام اخلاقي امر الله بنشره مع الدين بواسطة الجهاد. وتختلف الشريعة مع الانظمة الحقوقية الغربية في انها تعبر عن مشيئة الله وليست من صنع المواطنين. ولما كان الوحي قد توقف مع وفاة النبي، ثم توقف استنباط الاحكام بتكامل المذاهب السنية الاربعة، فقد اصبحت الشريعة نظاما صارما يصعب ان تستجيب للمتغيرات التي تطرأ على المجتمع بخلاف النظام الحقوقي الغربي الذي ينشأ عن ارادة المجتمع ويتبدل مع تطوره.

لم تهتم الشريعة ايضا بقواعد الحكم. فليس فيها تخطيط لنظام الحكم الاسلامي : من يكون خليفة النبي، وكيفية تنصيبه، وما هي صلاحياته، وكيفية مشاركة المسلمين بادارة شئون الدولة، وما هي الحريات التي يتمتعون بها، وكيف يحمونها من تعدي الخليفة او السلطان، ومن يخلف السلطان القائم، وكيف يتم تنصيبه. جميع هذه الامور الاساسية لقيام اية دولة تجاهلتها الشريعة مما اوقع الخلفاء والفقهاء في حيرة اهم دلائلها ان كل واحد من

الخلفاء الراشدين، وهم اقرب الناس الى النبي، تولوا الخلافة بشكل مختلف عن الاخر. ودامت هذه الحيرة مع ما تنتجه من عدم استقرار سياسي في الدول الاسلامية الى يومنا هذا.

اهداف الاسلام

لم يترك النبي مجالا للشك بأن الله امره بتنفيذ امرين في غاية الاهمية اولهما نشر كلمة الله وشريعته حتى تعمّ العالم اجمع وتخضع لها البشرية بكاملها، بالموعظة الحسنة ان امكن والا بالفتح والقوة.

والامر الثاني، تطبيق الشريعة في المجتمعات الاسلامية وفي البلاد المفتوحة وحمل الناس على الخضوع لها. وبما ان مشيئة الله واضحة في نشر الاسلام فان اية مقاومة لمشيئته هي تجديف وكفر وعمل ضد الله يجب التغلب عليها بكل وسيلة حتى تتم عالمية الاسلام. ومعنى ذلك بتعبير الاستاذ سيد قطب، احد كبار السلفيين في مصر، نزع السلطان الذي يمارسه البشر وردّه كله الى الله، فلا حاكمية الا لله، ولا شريعة الا منه، ولا سلطان لاحد على احد لان السلطان كله لله. (١٨)

فسّر سيد قطب ذلك بقوله ان الاسلام يقوم على اساس ان الله هو وحده الذي يشرّع في حين ان سائر الانظمة غير الاسلامية تقوم على اساس ان الحاكمية للانسان فهو يشّرع لنفسه، وهما قاعدتان لا تلتقيان. (١٩)

ويقول الاستاذ حسن البنا مرشد الاخوان المسلمين : "ان القرآن الكريم يقيم المسلمين اوصياء على البشرية القاصرة ويعطيهم حق الهيمنة والسيادة على الدنيا لخدمة هذه الوصاية النبيلة. فمهمتنا ان نرشد الانسانية كلها الى نظم الاسلام الصالحة وتعاليمه التي لا يمكن بغيرها ان يسعد الناس. وقد امر الله المسلمين ان يعمّموا الدعوة بين الناس بالحجة والبرهان، فان أبوا وتمردوا فبالسيف والسنان. (٢٠)

ويقول الاستاذ سعيد حوّى من الكتاب السلفيين في سوريا ان الاهداف الاسلامية هي اقامة دولة الله وفرض كلمة الله على العالم. اما الفكر الغربي القائم على حرية الانسان وعلى تحقيق رغبات الاكثرية (اي نظام الديمقراطية) فخاطىء في اصل التصور لطبيعة الانسان. فالانسان عبدٌ لله وليس حرا،

واهواء الاكثرية لا يصح اعتمادها، فحرية الانسان وقرار الاكثرية لا بد ان تقيّده شريعة الله وتضبطها حدوده. (٢١)

وقد استمد هؤلاء الكتاب السلفيون المعاصرون وغيرهم اراءهم من آيات قرآنية واحاديث نورد بعضها :

"شهد الله والملائكة واولوا العلم... قائما بالقسط... ان الدين عند الله الاسلام". (٢٢) تفسيرها : شهد الله والملائكة واولوا المعرفة بالايمان مقيمين للعدل، ان لا دين مرضي عنه عند الله سوى الاسلام. (٢٣)

والآية : ومن يبتغِ غير الاسلام دينا فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين". (٢٤)

والآية : "اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا". (٢٥) ويُعتقد ان هذه كانت اخر آية انزلت على النبي.

والآية : "وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله". (٢٦) تفسيرها : قاتلوهم حتى لا يبقى فيهم شرك وتزول عنهم الاديان الباطلة". (٢٧)

والآية : "يا ايها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم". (٢٨)

والآية : "الفتنة اشد من القتل"(٢٩) "والفتنة اكبر من القتل". (٣٠) وقد فسّر ابن تيميّة ذلك بان الله اباح من قتل النفوس ما يحتاج اليه في صلاح الخلق. اي ان القتل وان كان فيه شر وفساد، ففي فتنة الكفار (اي مسعى الكفار لمنع انتشار الاسلام او لتحويل المسلم عن دينه) من الشر والفساد ما هو اكبر واشد من القتل. لهذا اوجبت الشريعة قتل الكفار المقاتلين. (٣١)

فسّر الدكتور محمد حسين هيكل "الفتنة اشد من القتل" انها توجّه الى من يحاولون ثَني المسلم عن دينه ويمانعون حرية الدعوة الى الاسلام، هؤلاء يجب قتالهم حتى يُنصر دين الله. (٣٢)

وجاء في الحديث : "أُمرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله فاذا قالوها فقد عصموا (اي صانوا وحفظوا) مني دمائهم واموالهم". (٣٣)

لقد اقتنع المسلمون على مدى العصور بالعالمية والشمولية للاسلام لذلك فان الدولة الاسلامية في مسعاها المستديم والملحّ للسيطرة على بلاد وشعوب جديدة لم تقيّد نفسها يوما بالانتساب الى بلد او الى شعب او الى بقعة

جغرافية لانها عالمية. وكان انتسابها دائما الى سلالة حاكمة مثل حكم الراشدين او الامويين، او العباسيين، او الفاطميين، او الايوبيين، او العثمانيين، الخ حيث كانت كل سلالة تسعى لحكم جميع المسلمين ومدّ هذا الحكم ما استطاعت الى بلاد واقوام جديدة.

من ناحية اخرى، ادخل الاسلام على نظرية القانون مفهوما جديدا وجعله تشريعا الهيّاً يشمل امور الدين والدنيا جاء به الوحي فاصبح بذلك نظاما مطلقا غير قابل للتغيير والتبديل الا "بالاجتهاد" الذي رأينا انه تجمد بعد القرن التاسع.

تحقيق اهداف الاسلام بالجهاد

كيف يحقق المسلمون ارادة الله التي تأمر بنشر الاسلام في العالم ؟ الجواب : عن طريق الجهاد. قال ابن تيميّة : لقد عظّم الله امر الجهاد في عامة السور التي أُنزلت في المدينة، وذمّ التاركين له ووصفهم بالنفاق ومرض القلوب. والامر بالجهاد وذكر فضائله في الكتاب والسنة اكثر من ان يُحصر حتى قال النبي : "رأس الامر الاسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد". (٢٤) وقد جعلت الشريعة الجهاد واجبا دينيا على كل مسلم.

معنى الجهاد ان كل من بلغته الدعوة الى دين الله فلم يستجب لها، فانه يجب قتاله "حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله". (٢٥) واذا كان اصل القتال المشروع هو الجهاد، ومقصوده ان يكون الدين كله لله، وان تكون كلمة الله هي العليا، فمن منع هذا، أكان فردا او عشيرة او دولة، وجب قتاله. (٢٦) وفسّر الدكتور محمد حسين هيكل الجهاد فقال : "انه حق بل واجب على من يرى غيره يحاول فتنة مسلم عن دينه او يحاول منع انتشار الاسلام ان يقاتل في سبيل الله حتى يُنصر دين الله. هذا هو "الجهاد" اي القتال في سبيل حرية الدعوة الى الله ودينه. (٢٧)

وقال الشيخ حسن البنا مرشد جماعة الاخوان المسلمين في مصر : الجهاد هو الفريضة الماضية الى يوم القيامة وقد فرض الله الجهاد على كل مسلم فريضة لازمة لا مفرّ منها ورغّب فيه اعظم الترغيب واجزل ثواب المجاهدين والشهداء في الدنيا والاخرة. (٢٨)

وقال ايضا : من الجهاد في سبيل الله ان تتنكّر لمن تنكّر لدينه وان تقاطع من عادى الله ورسوله فلا تكون بينه وبينك صلة ولا معاملة ولا مؤاكلة ولا مشاربة. (٣٩)

وقد جاء الامر بالجهاد في آيات واحاديث كثيرة منها :

"كُتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم، وعسى ان تحبّوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون". (٤٠)

"وقاتلوا في سبيل الله واعلموا ان الله سميع عليم". (٤١)

"انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله".

"لا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل الله امواتا بل احياءً عند ربهم يُرزقون". (٤٢)

"فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالاخرة. ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتل او يُغلب فسوف نؤتيه اجرا عظيما". (٤٣)

"ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفّا كانهم بنيان مرصوص".(٤٤)

"ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون او يُقتلون وعْدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن". (٤٥)

يُلاحظ في هذه الآيات الاشارة المتكررة الى "سبيل الله". ويتساءل الشيخ محمد حسين فضل الله مرشد حزب الله في لبنان، اين نلتمس سبيل الله؟ فيقول : "جاء في الحديث ان من قاتل لتكون كلمة الله (اي الشريعة) هي العليا فهو في سبيل الله". ثم يحدد اهداف القتال بأنها : نشر الايمان من خلال اعتبار ان القوة تجعل الحركة اقوى واسرع، وحماية العقيدة من اعدائها الذين يحاولون منعها من التحرك والانطلاق بوضع الحواجز امامها، وفتنة المسلمين عن دينهم، واضعاف قوة المشركين لئلا يبقى الكفر قوة تمنع الاسلام من متابعة سيره. (٤٦)

وقد قال الرسول في اكبار الجهاد : من مات ولم يغزُ فقد مات ميتة جاهلية. ومن جهّز غازيا في سبيل الله فقد غزا. ومن كفل عائلة غازي فقد غزا. ومن لم يغزُ بنفسه ولم يجهز غازيا بالسلاح ولم يكفل عائلة مقاتل ذهب للحرب، اصابه الله بنكبة قبل يوم القيامة.

رفع الاسلام شعار "القرآن او السيف" وقسم العالم الى "دار الاسلام ودار

الحرب". في الاولى سلام وفي الثانية حرب متواصلة حتى يعمّ الاسلام وتدخل البشرية تحت رايته اما باعتناق الدين او كرعايا ذميين.

في النظرية الاسلامية لا يمكن للمسلمين ان يكونوا معتدين ولو هاجموا وقتلوا واستعبدوا وسبوا شعوبا اخرى آمنة ما داموا ينفذون امر الله بنشر الاسلام. ويكفي ان يرفض شعب او دولة دعوة الاسلام ويتمسكوا بدينهم وبطقوس عبادتهم حتى ينقلب الوضع فيصبح المدافع عن حريته وبلده وعقيدته هو المعتدي، ويصبح المهاجم هو المعتدَى عليه لانه مُنع من نشر دعوته في بلاد غيره.

الى جانب الحماس الديني لنشر الاسلام في العالم اجمع، لعب الطمع بالغنيمة دورا رئيسيا في الفتوحات وفي اقبال الناس على الجهاد. وقد ادرك الخلفاء من زمان ابي بكر ومن جاء بعده من الخلفاء والسلاطين قوة هذا الدافع فذكر البلاذري (٤٧) ان ابا بكر اذ رأى توجيه الجيوش الى الشام "كتب الى اهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب في نجد والحجاز يستفزهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم فسارع الناس اليه من بين محتسب وطامع واتوا المدينة من كل أوب".

وذكر البلاذري ايضا ان رستم قائد الفرس ارسل الى سعد بن ابي وقّاص يقول له قبل ان يبدأ هجومه على بلاد فارس : "قد علمت انه لم يحملكم على ما انتم فيه الا ضيق المعاش وشدة الجهد، ونحن نعطيكم ما تشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبّون".

وفي حماسة ابي تمام بيت يعبّر عن دور الغنيمة في الجهاد فيقول مخاطبا المجاهد :

فما جنّةُ الفردوس تبتغي   ولكن دعاك الخبز احسبُ والتمرُ

قواعد الفتح : معاملة المحاربين والاسرى والمدنيين

اما وقد شرحنا الواجب الالهي بنص الشريعة الذي يأمر بنشر الاسلام حتى يعمّ العالم بالدعوة والاقناع او بالقوة والاكراه ووسيلة ذلك الجهاد، فان

ذلك يستتبع معرفة القواعد التي تحكم تصرف المسلمين في تنفيذ هذه المبادىء، اي قواعد الجهاد والفتح ومعاملة سكان البلاد المغلوبة.

يقول الاستاذ حسن البنا ان المسلمين يدعون الناس الى احدى ثلاث : الاسلام او الجزية او القتال. (٤٨) ويقول الاستاذ احمد امين : تقضي تعاليم الاسلام بأنه اذا اراد المسلمون غزوَ بلد وجب عليهم اولا ان يدعوا اهله للدخول في الاسلام، فان أسلموا كانوا هم وسائر المسلمين سواء. وان لم يُسلموا دعوهم الى ان يسلّموا بلادهم الى المسلمين يحكموها ويبقوا على دينهم ان شاؤا ويدفعوا الجزية. فاذا قبلوا ذلك كانوا في ذمة المسلمين يحمونهم ويدافعون عنهم ومن اجل هذا يسمون "اهل الذمة"، وان لم يقبلوا الاسلام ولا الدخول تحت حكمه ودفع الجزية أُعلنت عليهم الحرب وقوتلوا. ويحلّ للمسلمين ان يقتلوا المحاربين ومن يعين على الحرب ومن يحرّض عليها. وان طلب المحاربون صلحا اثناء الحرب فللامام ان يقبل ذلك او يرفضه ويتابع القتال حتى الانتصار. وان لم يكن صلحٌ وانتصر المسلمون وفتحوا البلد فهناك المقاتلون واسرى الحرب واهل البلد المفتوح الذين لم يقاتلوا". (٤٩)

وسنبحث الاحكام المتعلقة بهذه الفئات المختلفة.

دعوة السكان الى الاسلام

في هذا الموضوع يوجد اختلاط بالمفاهيم. فالدعوة الى الاسلام لم تكن توجّه الى اهل البلاد المنوى غزوها، بل كانت الرسائل تُحرّر الى الملوك والحكام بمعزل عن السكان. وهؤلاء الملوك كانوا يقررون قبول الدعوة او رفضها. لذلك فان تحميل السكان نتائج رفض ملوكهم فيه شيء من التجني على العدالة خصوصا ان ذلك يستتبع القتل والسبي ونهب الممتلكات واستعباد الناس.

بالاضافة الى ذلك بقي هذا الخيار الذي يقدمه الاسلام نظريا لان جميع البلاد التي فتحها المسلمون كانت في وضع حضاري ارقى من الغزاة العرب ولم يكن من المتوقَع ان تقبل بالاستسلام لمقاتلين كان معظمهم في البداية بدوا رحلا.

دعوة السكان للتسليم ودفع الجزية

هذه الدعوة بقيت ايضا في اطار النظريات. فما من شعب يرضى باختياره ان يصبح ذليلا محكوما من شعب غريب يدفع له الجزية الا اذا جوبه بقوة قاهرة. لذلك لم تكن هذه الدعوة، كسابقتها، خيارا حقيقيا للسكان، كما نظن انها لم تكن ما يرغبه المقاتلون المسلمون حقا اذ ان نسبة كبيرة منهم كانت تقاتل في سبيل الغنيمة التي لا يحصلون عليها الا اذا قاتلوا وانتصروا.

خيار الحرب

بقي الخيار الواقعي الاخير هو خيار الحرب المفروضة على السكان. وقد اوجبت الشريعة قتل الكفار المقاتلين، (٥٠) ومن يعيْن على الحرب ويحرّض عليها. (٥١)

اما الذين لم يحاربوا من السكان فللامام ان يأمر بقتلهم او استعبادهم او تركهم احرارا يدفعون الجزية. وتُقبل الجزية من أهل الكتاب. (٥٢)

يؤكد ذلك الاستاذ احمد امين فيقول : "فيما يتعلق بأهل البلد المفتوح فالامام مخيّر بين قتلهم او استرقاقهم او تركهم احرارا يدفعون الجزية. فاذا استرقّ الاسرى او اهل البلد المفتوح وُزّعت توزيع الغنائم. فترى من هذا ان الفتح الاسلامي كان يستتبع رقّا وقد اتُبع نظام الاسترقاق في عهد النبي فكان من أُسِر في الغزوات يجوز استرقاقه. هذا الرقيق يُعدُ مملوكا للسيد كالمتاع له الحق في بيعه وهبته. واذا كان أمَة جاز للسيد ان يستمتع بها. ولا يُقيّد الملك بعدد. واذا ولدت الأمَة من سيدها فالولد ابنه وتُسمى "ام ولد" ولا يجوز للمالك بعدها ان يبيعها او يهبها. واذا مات عنها فهي حرة. وقد بلغ الاسترقاق من الكثرة بحيث انه صار لكل جندي تقريبا عبيد واماء يستخدمهم في حوائجه ويستولد الاماء ان شاء". (٥٣)

اما اذا طلب المحاربون صلحا اثناء الحرب فللامام ان يقرر القبول او الرفض. وغالبا ما يرفض لان طلب الصلح دليل على الضعف ويصعب على الامام ان يفوّت على مقاتليه نصرا تتبعه الغنائم.

معاملة الاسرى

بقي وضع اسرى الحرب. هؤلاء نزلت فيهم الآية التي ذكرناها في الفصل الثاني : "ما كان لنبي ان يكون له اسرى حتى يُثخن في الارض. تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم". (٥٤) وقد فسرها الامام البيضاوي بانها امر للنبي بأن يُكثر القتل في الاسرى ويبالغ فيه حتى يذلّ الكفر ويقلّ حزبُه ويعزّ الاسلام ويستولي اهله.

واذا استرشدنا بتصرف النبي في معاملة الاسرى، نرى انه قبل الفدية، واسترقّ اخرين، وقتل اسرى اخرين، وافتدى الرجل المحارب بأسير مسلم. ففي يوم بدر قتل عقبة بن معيط وقد جيء به اسيراً، وقتل بني قُريَظة وقد نزلوا على حكم سعد بن معاذ، واسترق ذراريهم، وفادى بجماعة من المسلمين اسارى المشركين الذين أُسروا بموقعة بدر. (٥٥)

يُلاحَظ في هذا الموضوع الخطير، موضوع الفتح ومعاملة الملايين من الاهالي من مقاتلين واسرى وغير مقاتلين، ان القرار بمصيرهم، بحياتهم وبموتهم، تُرك برأي الفقهاء كابن تيميّة وغيره، الى اهواء شخص واحد هو الخليفة اوالسلطان او الحاكم الذي لا تقيّده نصوص شرعية واضحة. وقد غلب على هؤلاء الفقهاء الاجتهاد بتحبيذ القتل. فالذين يحاربون اوجبت الشريعة قتلهم. والذين لم يحاربوا يحلّ للخليفة ان يأمر بقتلهم او استعبادهم وهو مصير قد يكون اسوأ من القتل.

كما ان التفريق في المعاملة بين الذين قاتلوا والذين لم يقاتلوا يبدو واهيا فالفريقان معرضان للقتل والاستعباد. اما الاسرى فيُحبّذ قتلهم كمبدأ لكن يمكن للخليفة ان يفتدي بهم مقاتلين مسلمين او يأخذ منهم فدية. وهذا ايضا عائد لقراره المنفرد.

وقد تطورت معاملة الاسرى مع ضعف الدولة الاسلامية وتفككها فذكر الدكتور صلاح المنجد في مقال بعنوان "هكذا كانت الاسرى تُفتدى في تاريخنا" (٥٦) حوادث كثيرة قام فيها الفداء مقام القتل في الغزوات بين المسلمين والروم، وبينهم وبين الصليبيين فقال انه كان يُتبع في الفداء الامور الآتية :

١ - فك الاسرى بالمال. فيُفتدى كل أسير مسلم او رومي او افرنجي بمبلغ

يُدفع لاطلاقه يُتفق عليه.

٢ - او يجري تبادل الاسرى، كل أسير مسلم بأسير رومي.

٣ - فاذا زاد عدد الاسرى المتبادلين عند طرف عما هو عند الطرف الثاني، يُفتدى الزائدون بالمال.

نلاحظ ان هذا التطور الانساني جرى بعدما حصل توازن بين قوة الدولة الاسلامية والدولة البيزنطية، وبين المسلمين والصليبيين، فتطورت النظرية الشرعية بموجب الضرورات. اما الايحاء بان هذا التعامل هو الذي سار عليه المسلمون منذ اول فتوحاتهم فهو لا يفسر الاعداد الهائلة من الرقيق رجالا ونساء واطفالاً التي تدفقت على المسلمين من الفتوحات والتي سجلها المؤرخون المسلمون مما يدل على ان الاسترقاق وليس الفداء كان مصير اكثر المغلوبين.

الغنيمة والفيء

ان كيفية معاملة سكان البلاد المفتوحة سواء كانوا محاربين او مدنيين تصبح اكثر وضوحا اذا عرفنا الاحكام المتعلقة بالاستيلاء على اشخاصهم واموالهم. فقد شرّع الاسلام الغنيمة التي يستولي عليها المسلمون من اعدائهم من مال ومتاع وسبايا ونظم توزيعها بالآية : "واعلموا أيما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول، ولذي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل" (٥٧).

يقول ابن تيميّة في اصناف الاموال السلطانية ان اصلها في الكتاب والسنّة ثلاثة : الغنيمة، والفيء، والصدقة. اما الغنيمة الناتجة عن الغزو فهي المال المأخوذ وسمّيت انفالا لانها زيادة في اموال المسلمين. والواجب في المغنم تخميسه ومعنى ذلك ان يُعطى الخمس لبيت المال ليُصرف لليتامى والمساكين وابن السبيل، واربعة الاخماس تعطى للمقاتلين، للراجل سهم وللفارس سهمان. (٥٨)

ويقول الاستاذ سيد قطب في تعداده لوسائل التملك الفردي في الاسلام ان الغزو واحد من تلك الوسائل. "وينشأ عنه ملكية السلَب وهو كل ما مع القتيل المشرك الذي يقتله مسلم". وفي الحديث "من قتل قتيلا له عليه بيّنة

فستلّبه له". كما تنشأ عن الغزو ملكية الغنيمة. (٥٩) ويقول ايضا "ان نصوص الاسلام تبيح للفاتحين ان يستأثروا بكامل ما يملك المحاربون الذين يأبون الاسلام والجزية ويقاتلون المسلمين". (٦٠)

بالاضافة الى الغنيمة الناتجة عن الغزو، هناك الفيء وهو اموال الذين لم يقاتلوا. يُقال افاء عليه الخير اي جلبه عليه. وبذلك صارت اموال سكان البلاد المفتوحة خيراً على المسلمين وحلالا لهم فتساوت بذلك مع اموال الغنيمة وصار الفرق بين اموال الذين قاتلوا والذين لم يقاتلوا واهيا، ذلك استيلاء بقتال، وهذا مصادرة لاموال المدنيين الذين لم يقاتلوا ولم يشتركوا بالحرب.

يقول الفقهاء : الفيء هو ما أُخذ من الكفار بغير قتال وسُمّي فيئا لان الله افاءه على المسلمين اي رده عليهم من الكفار. ويفسّر ابن تيميّة هذا الكلام الغامض فيقول : "الاصل ان الله انما خلق الاموال اعانة على عبادته. فالكافرون به اباح الله انفسهم التي لم يعبدوه بها، واباح اموالهم التي لم يستعينوا بها على عبادته، فاصبحت حقا لعباده المؤمنين كما يُعاد على الرجل ما غُصب من ميراثه". (٦١)

لنتبصر قليلا في معاني الغنيمة والفيء وما كان اثر ذلك على الفاتحين وعلى الشعوب المحتلة. فقد شملت الغنيمة المحاربين والاسرى ان لم يُقتلوا، واموالَهم الشخصية ونساءَهم واولادَهم وذراريهم الذين يصبحون عبيدا ارقاء يوزَّعون ويتم بذلك القضاء على العائلة كوحدة اجتماعية.

ويحصل الشيء نفسه للذين لم يقاتلوا كما رأينا فينضمون الى الجماعات المنهوبة وان اختلفت التسمية، فاولئك يذهبون كغنيمة، وهؤلاء يُنهبون كفيء والنتيجة على ما يظهر واحدة.

ومتى تذكرنا ان الاسترقاق اصاب مئات الالوف من العائلات فشتّتها ومزّق شملها ادركنا مقدار النكبة الاجتماعية التي انزلتها الفتوحات بالمجتمعات المغلوبة.

يُلاحظ ايضا عدم الدقة في استعمال كلمات "الكفر" و"الشرك" وهو امر مهم لان مصر وشمال افريقيا، والاندلس، وبلاد الشام، وبعض العراق كان يقطنه مسيحيون وقلة من اليهود، ويبدو مما قاله ابن تيميّة وغيره ان صفة الكفر ربما شملتهم مع ما يتبعها من عواقب. وفي كل الاحوال فان الغموض

في معاني هذه الكلمات مكّن الخلفاء والسلاطين والحكام من التلاعب على الالفاظ للاستيلاء على اكثر ما يمكن من اموال السكان.

نتج عن نظام الرق وكثرته وسعة انتشاره في جميع الطبقات وفي مختلف الامصار ان سيّد البيت العربي استولد جواري فارسيات او روميات او سوريات او مصريات او بربريات او تركيات او ارمنيات الخ فتعددت الجنسيات في البيت الواحد باختلاف اصول الجواري فلم يعد البيت بيتا عربيا بل بيتا مختلطا ورب البيت وحده هو العربي.

واذا كان نظام الفتح هذا من حيث القتل والسلب والاسترقاق قد نكب الشعوب المغلوبة، فان اثره في المجتمع الاسلامي لم يكن اقل خطورة وان لم يلتفت اليه المسلمون في بادىء الامر وسنرى ذلك في الفصل السادس.

ربما يرى القارىء فيما ذكرناه عن طريقة تعامل المسلمين مع الشعوب المغلوبة قساوة وعنفاً بالغَين بالمقارنة مع القوانين التي وضعتها منظمة الامم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية والتي وافق عليها اعضاء المنظمة ومنهم ممثلو الدول ذات الاكثرية الاسلامية، وهي قوانين تنظّم معاملة المدنيين غير المحاربين والاسرى وتحميهم من تعسف المنتصرين، وتحرّم بعض الاسلحة وغيره.

لكنه من الضروري وضع البحث في سياقه التاريخي. فالممالك التي سبقت الاسلام او عاصرته كانت تمارس اساليب مماثلة بالعنف والقسوة. ونكتفي بسرد بعض اخبار التوراة مختصرة في هذا الموضوع، وهي ايضاً بنظر اليهود اوامر الهية.

"كلم الرب موسى قائلا انتقم نقمة بني اسرائيل من المدنيين. فسيّر موسى الاسرائيليين من كل سبط الفاً للحرب فقاتلوا مِديَن كما امر الرب موسى وقتلوا كل ذكَر. وملوك مِديَن واطفالهم وجميع بهائمهم ومواشيهم واثاثهم غنموها. وجميع مدنهم مع مساكنهم وقصورهم احرقوها بالنار واخذوا جميع الاسلاب والغنائم من الناس والبهائم... وعادوا بها الى المحلة في صحراء موآب التي على الاردن قرب اريحا فسخط موسى على القادمين من جيش الحرب وقال لهم هل استبقيتم الاناث منهن؟ فالآن اقتلوا كل ذكَر من الاطفال وكل امرأة عرفت مضاجعة رجل اقتلوها. أما أناث الاطفال اللواتي لم

يعرفن مضاجعة الرجال فاستبقوهن لكم". (٦٢)

"وكان بعد وفاة موسى ان الرب كلّم يشوع بن نون خادم موسى قائلا قم فاعبر هذا الاردن انت وجميع هؤلاء الشعب الى الارض التي انا معطيها لبني اسرائيل. كل مكان تطأه اخامص ارجلكم لكم اعطيته كما قلت لموسى، من البرية ولبنان هذا الى النهر الكبير نهر الفرات. جميع ارض الحثّيين والى البحر الكبير في جهة مغارب الشمس تكون تخومكم لا يثبت احد امامكم طول ايام حياتك". (٦٣)

"عبر الاسرائيليون نهر الاردن وكانت اريحا مغلقة مقفلة في وجه بني اسرائيل. فقال الرب ليشوع انظر، اني قد دفعت اريحا وملكها الى يدك. تطوفون حول المدينة جميع رجال الحرب كل يوم مرة واحدة ستة ايام. وفي اليوم السابع تطوفون حول المدينة سبع مرات وينفخ الكهنة في الابواق ويهتف الشعب هتافا شديدا فيسقط سور المدينة في موضعه". "وقال يشوع لاسرائيل لتكن المدينة بكل ما فيها هالكة امام الرب. فاهلكوا جميع ما فيها من رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف". (٦٤)

"وفتح يشوع في ذلك اليوم مدينة مَقيَدة وضربها بحد السيف واهلك ملكها وكل الانفس التي فيها. ثم اجتاز يشوع وجميع اسرائيل من مَقيَدة الى لبْنة فقتلوا سكانها ودمروها. وفعلوا مثل ذلك ببلدة لاكيش، وبهورام ملك جازر؛ وبمدينة عجلون، وبمدينة حبرون، وبلدة دبير. وضرب يشوع جميع ارض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وجميع ملوكها لم يُبق باقيا بل اهلك كل نسمة كما امر الرب آله اسرائيل. وضربهم يشوع من قَادش برقيع الى غزة مع جميع اراضي جوشن الى جبعون. واخذ يشوع جميع اولئك الملوك وارضهم في هجمة واحدة لان الرب آله اسرائيل. كان يحارب عن اسرائيل. (٦٥)

ولو توسعنا في اخبار حروب الامم التي سبقت الاسلام من بابليين وآشوريين وحثيين، او التي عاصرته من فرس وبيزنطيين ورومان، لوجدنا فيهم ايضا قسوة وعنفا واستعبادا للشعوب المغلوبة. لكن ما يميز الوضع الاسلامي هو ان تلك الممالك زالت وعفا اثرها، كما ان اليهود اقتصرت حروبهم على منطقة جغرافية معينة وفي زمن معين، في حين ان الشريعة الاسلامية ما زالت سائدة تتحكم بتصرفات المسلمين في هذا العصر والعصور اللاحقة وهي

عالمية بشمولها.

السيادة والحكم

تعني السيادة مقّر السلطة العليا في الدولة. وهذه السلطة في الاسلام لدى السنّة هي مشيئة الله ممثلة في الشريعة لا ارادة المواطنين مجتمعين في مجلس تشريعي. والدولة الاسلامية تستمد سيادتها بالنهاية من الله لا من موافقة المواطنين استنادا الى الآية : "اللّهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتُعزّ من تشاء وتُذِلّ من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير". (٦٦)

وبما انه من اهداف الاسلام تنفيذ اوامر الشريعة وتطبيق تعاليمها في العبادات والمعاملات وفي صيانة الاخلاق والدفاع عن الامة الاسلامية تجاه اعدائها ونشر الاسلام بواسطة الجهاد، فقد استنتج اكثر الفقهاء ان ذلك كله يستلزم وجود سلطة سياسية وشخص يمارس هذه السلطة.

الخلافة

الخلافة في لسان المسلمين، وترادفها الامامة، هي رياسة عامة في امور الدين والدنيا نيابة عن النبي. وسُمّي القائم بذلك خليفة واماما. فاما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في امته، واما تسميته اماماً فتشبيها بامام الصلاة في اتّباعه والاقتداء به. فالخليفة اذن "ينزل من امته بمنزلة الرسول. فولايته عامة مطلقة شاملة لجميع الامة الاسلامية، وله وحده الامر والنهي، وبيده وحده زمام الامة وتدبير ما جلّ منها وما صغر، ليس له شريك في ولايته ولا لغيره ولاية على المسلمين الا ولاية مستمدة من مقام الخلافة. فكل ولاية دونه فهي مستمدة منه، وكل وظيفة تحته فهي مندرجة في سلطانه، وكل خطة دينية او دنيوية فهي متفرعة من منصبه "لاشتمال منصب الخلافة على الدين والدنيا". (٦٧) وليس على الخليفة قيد في سلطانه الا ان يبقى في حدود الشريعة لا يتخطاها. والخلافة عند السنّة لا تسبغ على الخليفة صلاحية التشريع.

وبما ان الشريعة تعبّر عن ارادة الله وتشمل جميع نواحي الحياة فقد انتفت الحاجة لتشريعات جديدة وانحصرت صلاحية الخليفة بالشئون القضائية

والتنفيذية اي اقامة العدل بين الناس وتنفيذ اوامر الشريعة في العبادات والمعاملات والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والدفاع عن الامة ونشر الدين. اما معالجة الاوضاع المستجدة في مجتمع سريع التطور فقد اوكلت عمليا "لاهل الرأي" اذا اجمعوا على فكر واحد وهو ما يدعونه اختصاراً "الاجماع" فلهؤلاء وحدهم حق استنباط الاحكام من القرآن والسنّة مع ما يعني ذلك من تطوير للشريعة عن طريق التفسير والاجتهاد. وبذلك يكون العلماء قد ساهموا بالتشريع عن طريق غير مباشر. لكن بقيت مشكلة غامضة. فمن هم اهل الرأي، وكيف يمكن التعرف عليهم، وهل كانوا يجتمعون ويتناقشون حتى يتوصلوا الى رأي موحد، ومن كان يجمعهم واين في غياب سلطة دينية منظمة. ان هذا الغموض الذي دام طيلة دوام الخلافة السنّية ولم يجد له حلاً يُلقي شكوكاً حول احتمال العودة الى ممارسة الاجتهاد بشكل واسع في هذا العصر.

اما الشيعة فلهم رأي آخر فيمن يتولى الخلافة ويفسر الشريعة. فهم يقولون ان سلطة الرسول انتقلت الى ابن عمه وصهره علي بن ابي طالب، ثم انحدرت في سلالة الامام علي من ولد الى اخر على مدى العصور الى ان اختفى اخر امام. لكن الشيعة يختلفون حول الامام المختفي فبعضهم يقول انه الامام الخامس (الزيدية)، واخرون يقولون انه السابع (الاسماعيلية)، واكثرهم يقولون انه الثاني عشر (الامامية) لكنهم يتفقون جميعا حول صفات الامام والمهمات الوكولة اليه فيقولون بان الامام وحده هو الذي له حق الاجتهاد والتفسير واستنباط الاحكام وانه معصوم عن الخطأ وسنبحث ذلك مفصّلا في الفصل السادس.

الاسلام دين ودولة

لم يرد في القرآن او الحديث كلمات "دولة او حكومة او سياسة". لكننا اذا سلمنا برأي القائلين ان تطبيق الشريعة يستلزم وجود سلطة سياسية فان الامة الاسلامية لا تكتمل برأيهم الا اذا صارت دولة يتّحد فيها الدين مع الحكم.

تستند هذه النظرية الى ان الشريعة تشمل جميع النشاطات الانسانية

في مختلف وجوهها فمن الطبيعي ان تهتم بموضوع الحكم في كل مظاهره. وبما ان الشريعة الهية وازلية فان الجزء منها الذي يعالج امور الحكم يتحلى بذات الصفات. والدولة بموجب هذا الرأي اداة الهية وجزء اساسي من الترتيب الذي امر به الله لمصلحة البشرية، وواجبها الاول ان تيسّر للمسلم ممارسة حياة اسلامية صالحة بموجب القاعدة الاساسية للحياة الاجتماعية والسياسية الاسلامية وهي "الامر بالمعروف والنهي عن المنكر" وهي مسئولية تشارك بها الدولة والفرد.

يقول ابن تيميّة في الموضوع : يجب ان يُعرف ان ولاية امر الناس من اعظم واجبات الدين بل لا قيام للدين الا بها. وفي الحديث "اذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمّروا احدهم. ولا يحلّ لثلاثة يكونون بفلاة من الارض الا امّروا عليهم احدهم". ولهذا قيل "ان السلطان ظلُّ الله على الارض"، ويقال "ستون سنة من امام جائر اصلح من ليلة بلا سلطان". (٦٨)

اتفق في هذا الرأي المذهبان السني والشيعي فقال الشيخ حسن البنا مؤسس حركة الاخوان المسلمين في مصر : "ان الاسلام يجعل الحكومة ركنا من اركانه ويعتمد على التنفيذ كما يعتمد على الارشاد. وقديما قال الخليفة عثمان بن عفان : ان الله ليَزَع بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن. وقد جعل النبي الحكم عروة من عرى الاسلام. والحكم معدود في كتبنا الفقهية من العقائد والاصول، لا من الفقهيات والفروع. فالاسلام حكم وتنفيذ، كما هو تشريع وتعليم وقضاء لا ينفك واحد منهما عن الآخر". (٦٩)

وافق على هذا القول الامام آية الله روح الله الخميني اذ جاء في وصيته التي نُشرت يوم ٥ يونيو (حزيران) ١٩٨٩ : "ان السياسة هي المهمة العظيمة في الاسلام... ففي القرآن الكريم وحديث الرسول محمد... اوامر تتناول الحكم والسياسة اكثر مما يوجد عن اي شيء آخر".

ربما كان ما عناه الشيخ حسن البنا والامام الخميني عندما تكلما عن الحكم والسياسة ليس اللفظان بذاتهما اللذان لم يردا في القرآن والحديث، بل الاحكام التي تضمنتها الشريعة. وقد اكد أكثر الفقهاء على مدى العصور ان الاسلام "ديِن ودولة" حتى رسخ ذلك في اذهان العامة ومعناه انه لا يمكن للدولة ان تعمل بمعزل عن الاوامر والشرائع الدينية كما جرى في المجتمعات

الغربية حيث تمّ في اكثرها فصل الدولة عن الدين المسيحي.

الى جانب هذا الرأي القائل باتحاد الدين والدولة وبوجوب الخلافة ظهر رأي مخالف كان الشيخ علي عبد الرازق اوضح من عبّر عنه في مصر عام ١٩٢٥ فقال : لم نجد في مباحث العلماء الذين زعموا ان اقامة الامامة فرض، من حاول ان يقيم الدليل بآية من القرآن او من الحديث (رغم كثرة الاحاديث). ومع شدة اهتمام المسلمين بالخلافة كيف نفسّر ان هذين المصدرين لم يتعرضا لشكل الحكومة، وكيفية تنصيب الحاكم، وتسلسل الحكم من خليفة الى من يليه. وكيف يمكن ان يقوم حكم دون مؤسسات تتولى ادارة الدولة وشئون الناس.

ويضيف الشيخ عبد الرازق : كان العصر النبوي خُلْواً من مظاهر الحكم واغراض الدولة فلم يكن هنالك ترتيب حكومي، ولم يكن ثمّة ولاة ولا قضاة ولا ديوان، الخ.

وقد سبق ان قال الخوارج انه اذا اتفقت الامة على العدل وتنفيذ الشريعة فلا حاجة الى خليفة ولا يجب نصبه. وقال بذلك ايضا حاتم الاصمّ وفريقه من المعتزلة وغيرهم. وهكذا نرى انه مع اهمال القرآن والسنّة النبوية الاشارة الى الخلافة وذكرها، فان الاجماع ايضا لم ينعقد عليها. واذا رجعنا الى الواقع والتاريخ وجدنا ان الخلافة في الاسلام لم ترتكز الا على اساس القوة الرهيبة، وان تلك القوة كانت على الغالب قوة مادية مسلحة. واذا ترددنا بالقول ان الثلاثة الاول من الخلفاء تبوأوا الخلافة بالقوة والقهر فان عليّا ومعاوية لم يتبوءا عرش الخلافة الا تحت ظلال السيوف، وكذلك الخلفاء من بعد الى يومنا هذا والحقيقة ان الخلافة كانت ولم تزل نكبة على الاسلام والمسلمين، وينبوع شرّ وفساد. (انتهى كلام الشيخ عبد الرازق) (٧٠)

جاء الدكتور طه حسين يؤيد فكرة لا تختلف كثيرا عن فكرة الشيخ علي عبد الرازق فقال ان القرآن لم ينظّم امور السياسة تنظيما مجملا او مفصّلا، وانما امر بالعدل والاحسان ورسم للمسلمين حدودا عامة ثم ترك لهم تدبير امورهم كما يحبّون على الاّ يتعدّوا هذه الحدود. والنبي نفسه لم يرسم نظاما معينا للحكم ولا للسياسة، ولم يستخلف على المسلمين احدا من اصحابه

بعهد مكتوب او غير مكتوب حين ثقل عليه المرض. ولو كان للمسلمين نظام سياسي مُنزل من السماء لرسمه القرآن ولبيّن الرسول اصوله، ولفرض على المسلمين الايمان والاذعان له.

ويتابع الدكتور طه حسين قائلا : واذا عدنا الى عهد الرسول لا نجد انه دعى الى انشاء حكومة اسلامية وانما كانت دعوته دينية خالصة. كذلك لا نجد في عهده وعهد الخلفاء الراشدين ادارة منظمة وميزانية لحكومة الامة الاسلامية. وهل يمكن ان تقوم دولة دون ادارة وميزانية.

ويستغرب الشيخ علي عبد الرازق ابتعاد العلماء المسلمين عن البحوث السياسية فيقول : من الملاحظ البيّن في تاريخ الحركة العلمية عند المسلمين ان حظ العلوم السياسية فيها كان اسوأ حظ فلسنا نعرف لهم في السياسة كتابا الّفوه او ترجموه، ولا نعرف لهم بحثا في شيء من انظمة الحكم او اصول السياسة. فما لهم اهملوا النظر في كتاب "الجمهورية" لافلاطون وكتاب "السياسة" لارسطو وهم الذين بلغ اعجابهم بارسطو ان لقبوه "المعلم الاول"، وكانت هذه الكتب متاحة لهم. وما لهم رضوا ان يتركوا المسلمين في جهالة مطبّقة بمباديء السياسة وانواع الحكومات عند اليونان وهم الذين ارتضوا ان ينهجوا بالمسلمين مناهج السريان في علم النحو. (٧١)

لقد عرف اليونان من ايام سقراط (توفي ٣٩٩ ق م) وما قبله انواعا مختلفة للحكم منها الحكم الاستبدادي، والحكم الارستقراطي، والحكم الديمقراطي، وناقشوا فيها وبيّنوا محاسن كل منها ومساوءه لكننا لا نجد شيئا من هذا في ابحاث العلماء المسلمين. ولعل تفسير ذلك ان علم السياسة اخطر علم على الخلفاء والحكام المتعسّفين لان البحث بعلم السياسة يفتح الاذهان على بدائل للحكم المطلق الذي ساد عصور الخلافة، ويثير المعارضة لها، ويدل على حقوق المواطنين ويبين كيفية صيانتها.

الخلاصة، ان لا نص الشريعة ولا السنّة دعى افراد المجتمع الى مشاركة فعلية بالمسؤولية السياسية في المجتمعات الاسلامية حتى ان كثيرا من العلماء ترددوا بالاشتراك في امور الحكم العملية. لذلك اصبحت كل سلطة مدنية او سياسية في النظام الاسلامي تستمد شرعيتها نظريا وعمليا من الخليفة او السلطان او الحاكم وتكون خاضعة لمشيئته. اما اهتمام الجماعة الاسلامية

فانصرف الى الالتزام بالواجبات الدينية والاخلاقية التي تتضمنها الشريعة لا الى هيكلية الحكم. وكان من نتيجة هذا المنحى ان الخلفاء والسلاطين مارسوا سلطة شخصية مطلقة في كل الامور التي لا تخالف الدين فكان لهم ان يحكموا بالموت، ويصادروا الاموال الخاصة، ويتصرفوا بأموال الدولة، ويعيّنوا ويعزلوا الموظفين، ويعلنوا الحرب، ليس عليهم رقيب او رادع ما داموا لا يتصدّون للمسائل الدينية.

اسلوب الحكم

يبدو لنا ان الاسلام السنّي مارس اسلوبين للحكم هما : اسلوب الاستخلاف او وراثة الحكم ضمن العائلة الواحدة، ونظرية الحكم بمشيئة الله، وقد تلازمت الاثنتان على مدى عصور طويلة. وناقش المسلمون نظرية ثالثة هي نظرية الشوري. وقد وضع الحكام المسلمون اسلوب الاستخلاف والحكم بمشيئة الله موضع التطبيق العملي في حين بقيت الشورى مجرد نظرية.

نظرية وراثة الحكم

قال بنظرية الوراثة بنو هاشم وعلى رأسهم الامام علي بن ابي طالب وهي تقوم على اساس ان ادنى الناس الى النبي بقرابة الدم (آل البيت) هم احق الناس بخلافته. وما زالت هذه النظرية تشكل الاساس الديني للمذهب الشيعي. وقد رأينا ان ابا بكر عارضها بقوة منذ وفاة النبي لما اطلق الشعار القائل : "لا تجتمع النبوة والخلافة في بيت واحد" ثم تولى هو الخلافة وحجبها عن بني هاشم وفعل مثله عمر بن الخطاب.

تختلف نظرية الوراثة هذه عما نراه في الدول الملكية الغربية. فهناك يتسلسل الحكم شرعا في خط نازل مستقيم من الملك الى ابنه البكر او الى ابنته في بعض الدول اذا لم يوجد وريث ذكَر. اما في الاسلام فتكون الوراثة في افراد العائلة الواحدة وليس بالضرورة في ابن الخليفة القائم. فقد يتبوأ الخلافة او الحكم الابن او الاخ او ابن العم اذا استطاع والمهم ان تبقى الخلافة في العائلة. هكذا كان الامر في السلالة الاموية في المشرق وفي الاندلس. والامويون من اقرباء الرسول لكنهم ابعد عنه من الهاشميين. وجرى مثل ذلك في

السلالة العباسية المنتسبة الى العباس عم النبي. التقط الخلافة بعد ذلك العثمانيون وهم اتراك لا يمتّون الى النبي بقرابة فرضي بخلافتهم معظم السنّة وانكرها الشيعة.

في جميع هذه العهود بقي الحكم محصورا في السلالة المسيطرة يتوارثه افرادها ويتقاتلون عليه احيانا كثيرة لكنهم يمنعونه عن السلالات الاخرى ما استطاعوا.

وحاليا، يتوارث آل سعود الحكم، وهم سلفيون ومن الدول القليلة التي تطبق احكام الشريعة، ولا يرون في التوارث ما يناقض تعاليم الاسلام ومبادئه.

نظرية الحكم بمشيئة الله

الى جانب هذه النظرية نجد تيارا فكريا واضحا ومتصلا لدى المسلمين يتلازم احيانا كثيرة مع نظرية الوراثة ويقول ان الخليفة يستمد سلطته من الله. كان اول من عبّر عن ذلك بصورة واضحة الخليفة الثالث عثمان بن عفان لما طالبه الثوار بخلع نفسه عن الخلافة ففضل الموت على ان يتخلى عن امر عهد الله به اليه، ورأى رأيه عدد كبير من المسلمين في ذلك الوقت.

وبعد نحو عشر سنوات من مقتل الخليفة علي بن ابي طالب خطب والي الكوفة زياد بن ابيه في المسجد فقال : ايها الناس انّا اصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي اعطانا ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما احببنا، ولكم فينا العدل فيما ولّينا، فاستوجبوا عدلنا وفَيئنا بمناصحتكم لنا.

يقول الشيخ عبد الرازق : لقد شاع الرأي القائل بأن الخليفة يستمد سلطته من الله وتحدث به العلماء والشعراء منذ القرون الاولى فتراهم يذهبون دائما الى ان الله هو الذي يختار الخليفة ويسوق اليه الخلافة.

روّج الشعراء لهذه النظرية، وهم ادوات الاعلام في ذلك العصر، على نحو ما نرى في القول :

جاء الخلافة او كانت له قَدَرا   كما اتى ربه موسى على قَدَرِ

والقول الاخر :

ولقد اراد الله اذ ولّاكها   من امة اصلاحها ورشادها

وقال الفرزدق :

فالارض ولاّها خليفته وصا حب الله فيها غير مغلوب

بعد الفساد الذي قد كان قام به كذاب مكة من مكر وتخريب

(يقصد بكذاب مكة عبد الله ابن الزبير الذي ثار مطالبا بالخلافة)

وذهب عبد الملك بن مروان الى الحج عام ٦٩٥ وعهد مكة بثورة عبد الله ابن الزبير قريب فخطب في الناس قائلا : لست بالخليفة المستضعف (يعني عثمان)، ولا بالخليفة المداهن (يعني معاوية)، ولا بالخليفة المأفون (يعني يزيد)، ألا واني لا اداوي هذه الامة الا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم. انكم تطالبوني بتقوى الله وتنسون ذلك في انفسكم. والله من قال لي بعد اليوم اتّق الله ضربت عنقه. (٧٢)

وقال الفرزدق في هشام بن عبد الملك عاشر الخلفاء الامويين :

هشامٌ خيار الله للناس والذي به ينجلي عن كل ارض ظلامها

وانت لهذا الناس بعد نبيهم سماء يرجى للمحول غمامها

وحج الخليفة المنصور العباسي (٧٥٤ - ٧٧٥) فخطب في الناس في مكة مثبتا انه خليفة الله في الارض فقال : "ايها الناس، انما انا سلطان الله في ارضه، اسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده، وانا حارسه على ماله، اعمل فيه بمشيئته وارادته، واعطيه باذنه. فقد جعلني الله عليه قفلا ان شاء فتحني لاعطائكم وقسمة ارزاقكم، وان شاء يقفلني عليها اقفلني". (٧٣) وسكّ المامون نقوداً حملت اسمه مع لقب "خليفة الله".

استمر القول بان الخليفة يستمد سلطته من الله متغلّبا على مدى العصور الاسلامية فقال الشاعر ابن هاني الاندلسي في الخليفة المعز الفاطمي (٩٥٢ - ٩٧٥) :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار فاحكم فانت الواحد القهار

انتم احباء الاله وآله خلفاه في ارضه الابرار

شرفت بك الافاق وانقسمت بك الارزاق والآجال والاعمار

ويختم الشيخ عبد الرازق بالقول : وهكذا نرى ان القول باستمداد الخليفة لسلطانه من الله مذهب جاري على الالسنة فاشي بين المسلمين. وقد بدأ به خطّاب وشعراء ودعاة وفقهاء هم اقرب ما يكون الى عهد الخلفاء

الراشدين. (٧٤) هذا مع العلم ان الخلفاء الراشدين انفسهم لم يتقيّدوا بالشورى كما يصفها بعض الدعاة اليوم.

نظرية الشورى في الحكم

الشورى كمبدأ في الحكم الاسلامي من الامور التي تكلم فيها الفقهاء كثيرا واختلفوا فيها كثيرا حسب ظروف الزمان والمكان الذي وُجدوا فيه. وسبب اختلافهم ان القرآن تكلم عن الشورى في آيتين مقتضَبَتَين تسردان مبدأ عاما لم يرد في الحديث المنقول عن النبي او عن الصحابة ما يكملهما او يفصّل اسلوب ممارسة الشورى، كما ان أيّا من الخلفاء الراشدين لم يجعل الشورى منهج تصرفه وقاعدة حكمه ليتبعه من خلفه.

لكن ذلك لم يمنع بعض الفقهاء القدامى والمحدثين من محاولة بناء نظام سياسي متكامل للامة الاسلامية استنادا الى هاتين الآيتين وهما : آية وردت في سورة الشورى نصها : "والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة وامرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون" (٧٥)

والآية الثانية واردة في سورة آل عمران "وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله". (٧٦)

يُلاحظ ان ذكر الشورى التي يبني عليها البعض النظام الاسلامي السياسي وردت في ست كلمات هي : "وامرهم شورى بينهم"، "وشاورهم في الامر"، ثم غاب موضوع الشورى عن باقي الآيات وعن الحديث والسنّة. وقد فسر البيضاوي "وامرهم شورى بينهم" بأن "الآية نزلت في الانصار. دعاهم الرسول الى الايمان فاستجابوا واقاموا الصلاة وهم ذو شورى لا ينفردون برأي حتى يتشاوروا ويُجمعوا عليه وذلك من فرط تدبرهم ويقظتهم في الامور". وجاء في تفسير الجلالين للآية نفسها "انها موجهة للذين اجابوا ربهم الى ما دعاهم اليه... وأمْرُهم الذي يبدو لهم يتشاورون فيه ولا يعجلون".

اما الآية الثانية فيقول البيضاوي : "وشاورهم في الامر اي في امر الحرب اذ الكلام فيه، او فيما يصح ان يُشاَ فيه، استظهارا برأيهم وتطييبا لنفوسهم. فاذا وطّنت نفسك على شيء بعد الشورى فتوكل على الله في امضاء امرك". وفي تفسير الجلالين : "وشاورهم في الامر" اي استخرج اراءهم

في الامور شانك من الحرب وغيره تطييبا لقلوبهم. فاذا عزمت على امضاء ما تريد بعد المشاورة فتوكل على الله".

يستفاد من الآية الواردة في السورة الاولى (سورة الشورى) انها لا تتضمن امراً للخليفة او للوالي او للحاكم بالاستماع الى الشورى والتقيد بمضمونها، بل ان الآية تشرح حالة وضعية كان عليها الانصار قبل الاسلام واستمروا عليها بعده من حيث التشاور فيما بينهم على ما يعرض عليهم من الامور.

وكان التشاور امرا مالوفا في النظام العربي العشائري. فرئيس العشيرة ينتسب عادة الى عائلة مرموقة اكتسبت مكانتها بشجاعة افرادها وحكمتهم وكرمهم، ومن مهمات الرئيس ان يقضي في خلافات الافراد، ويتعاطى مع القبائل الاخرى، ويقرر الرحيل من مرعى الى آخر، كما يقرر الغزو والحرب. وهو يستشير كبار العشيرة ورؤساء افخاذها في كل ذلك ولا يُمضي شيئا الا بعد الاطلاع على أرائهم. فاذا قرر شيخ العشيرة شيئا بعد المشاورة تبعته القبيلة. وما زالت هذه حالة العشائر الى يومنا هذا.

اتخذت هذه العادة العربية شكلا منظما في مكة قبل الاسلام فقد ذكرنا في الفصل الاول ان كبار قريش كانوا يجتمعون في "دار الندوة" ويتشاورون في جميع امور البلد وتجارتها وعلاقاتها بالقبائل وخلافاتها "فلا يُقضى امر في قريش الا في الندوة". فليست الشورى اذاً شيئا جديدا جاء به الاسلام بل نرى ان المسلمين اهملوا عادة الشورى في "الندوة" بعد الدعوة فلم يعد يرد ذكر لها في كتب السيرة والتاريخ.

اما الآية "وشاورهم بالامر" فتثير بعض الاسئلة :

اولا - ليس من الواضح الى من يتوجه ضمير الغائب في "شاورهم" اي الى من يتوجه طلب المشورة، اي من هم اهل الشورى.

ثانيا - هل طلب المشورة واجب على الحاكم؟

يظهر من تفسير البيضاوي والجلالَين ان الامر ليس كذلك لان الامر بالشورى يتبعه "تطييبا لنفوسهم وقلوبهم" وليس لمصلحة عامة.

ثالثا - هل الحاكم ملزم بالتقيد بالمشورة التي يطلبها او تُعرض عليه؟

بعض الفقهآء يقول بالوجوب، وبعضهم لا يجعلها ملزمة. والجزء الثاني

من الاية : "فاذا عزمت فتوكل على الله" اي اذا وطنت نفسك على شيء بعد الشورى فتوكل على الله في امضاء امرك وان كان مخالفا لرأي الناصحين، يدعم الرأي الثاني بأن الشورى غير ملزمة للخليفة او الحاكم.

يؤيد هذا الرأي الشيخ خالد محمد خالد فيقول : "ان كثيرين من فقهاء الاسلام قدامى ومحدثين، يرون ان الشورى غير ملزمة. القائلون بالالزام فقهاء والرافضون للالزام فقهاء فما العمل"؟

يستند القائلون ان الاسلام أمر بالشورى الى ان الرسول استشار اصحابه في بعض المسائل وقَبِلَ رأيهم في مناسبات اخرى، وفعل بعض الخلفاء الراشدين مثل ذلك فاكتسبت "الشورى" برأيهم شرعية ملزمة.

لكن ذلك يمكن ان يخلق التباسا بين "الشورى" و "المشورة" وشتّان بين الفكرتين. فاستطلاع رأي الناس والاستماع اليهم او قبول اقتراحاتهم يُسمّى "مشورة"، اما "الشورى" فهي نظام سياسي متكامل يتضمن القواعد التي تنظم مشاركة المواطنين بالحكم وكيفية مراقبة الحكام ومحاسبتهم، وليس في "المشورة" شيء من هذا.

لكن لماذا نلتمس الجواب من اجتهاد الفقهاء المختلفين فيما بينهم ولا نستخرجه من تصرفات الخلفاء الراشدين؟

لقد تولى ابو بكر الخلافة بعد اجتماعه الصاخب بالانصار في سقيفة بني ساعدة بطريقة بعيدة عن الشورى رافقها العنف كما سنرى في الفصل الرابع. فقد وثب عمر بن الخطاب على سعد بن عبادة وهو مريض وكاد يقتله لانه نافس ابا بكر على الخلافة. ثم لما امتنع بنو هاشم وغيرهم عن البيعة لابي بكر ذهب اليهم عمر وساقهم قسرا.

يقول الدكتور طه حسين في ذلك "ان ابا بكر لم يبايَع بالخلافة عن مشورة من المسلمين انما كانت بيعته فلتة وقى الله المسلمين شرها كما قال عمر". (٧٧)

ناقش الاستاذ علي حسني الخربوطلي الاستاذ في جامعة دمشق خطبة ابي بكر حين بيعته وما تلاها من تصرفات من حيث تطبيق مبدأ الشورى فقال : "انها تدل على ان ابا بكر معترف للامة بسلطة المراقبة على الحكم لكنه لم يؤلف تلك الهيئة التي تراقب الحاكم. ان هذا الاغفال من الصحابة لامر

اقامة هيئة مراقبة على الحكومة جرّ اسوأ النتائج في عهد الخليفة الثالث حيث تغلب مروان بن الحكم على ارادة عثمان بن عفان فاستبد بنو امية بالناس وتفاقم الخطب حتى انتهى بالفتنة المشهورة ومصرع عثمان. هذا من جهة، ومن جهة اخرى فان خطبة ابي بكر جاءت خالية من ذكر الشورى لان قول ابي بكر : ان اسأت فقوّموني يدل على انه يحب منهم ان يقوّموه متى اساء. والانسان لا يسيء الا بعد ان يبرم العمل وينفذه".

يتابع الاستاذ خربوطلي فيقول : "مما يدل على ان هذا الفهم صحيح ان المسلمين انتخبوا ابا بكر وتركوه لنفسه. فان حدث ان استشارهم في شيء ورأى غير رأيهم آثر رأيه على رأيهم ومضى حيث اراد. وكذلك سار عمر وعثمان وعلي. وهذا في رأينا تنازل من الصحابة عن اكبر حق لهم في حكومة دولتهم". (٧٨)

ولما ارتدت قبائل عربية كثيرة عن الاسلام ورفضت دفع الزكاة بعد وفاة النبي اراد ابو بكر ان يعيدهم الى الاسلام بالقوة وعارضه الصحابة بمن فيهم عمر بن الخطاب وزيره ومستشاره. لكن ابا بكر استأثر برأيه فحارب وانتصر ولم يكن ليّنا او رقيقا مع القبائل!

وعندما قاربته الوفاة لم يستشر ابو بكر احدا في خليفته بل قال للمسلمين اني اخترت لكم هذا الرجل (عمر) فاسمعوا واطيعوا، فسمع البعض واطاعوا وعارض كثير من كبار الصحابة فلم يؤبّه لهم.

ولم يُعرف عن ابي بكر او عمر انهما جمعا حولهما طائفة من الصحابة اصحاب العقل الراجح والرأي السديد يستشيرونهم في امور المسلمين بصورة منظمة كما اعتادت قريش في "دار الندوة" في مكة مع انهما كانا معاصرين لتلك الشورى التي سبقت الاسلام.

ولم تكن طريقة اختيار عثمان بن عفان للخلافة شورى مقنعة. فقد اختصّ عمر بها ستة من قريش لم يشاركه احد باختيارهم وحجب الشورى عن باقي الصحابة ثم رتب الامر بحيث ضمن استبعاد علي بن ابي طالب عن الخلافة.

يقول الاستاذ ظافر القاسمي بموضوع الشورى : "ليس من الدقة في شيء ان يقال ان حكم ابي بكر وعمر كان حكماً شورياً بالمعنى الدقيق.

فليس كل المسلمين اختاروا ابا بكر وعمر للخلافة وانما اختارهما فريق من المسلمين من اهل المدينة ولم يُستشار اهل مكة والطائف والبادية. (٧٩)

وقد وضع الخليفة العثمان حدا لموضوع الشورى لما اعلن ان الله عهد اليه بالخلافة وان ليس عليه ان يقدم عن اعماله حسابا سوى لله.

نظرا لفقدان تقليد التعامل بالشورى في عهود الخلفاء الثلاثة لجأ المسلمون الى الحرب لما اختلفوا حول خلافة علي بن ابي طالب وانقسموا الى شِيَع تتقاتل. ولو تابعوا تقليد "دار الندوة" في التشاور لربما امكنهم تلافي ما حصل.

نعود الى السؤال الاول : من هم اهل الشورى؟ كان الجواب سهلا بعد وفاة النبي فهم صحابته من المهاجرين والانصار لا ينازعهم في ذلك منازع. ولكن ما حال دون ذلك امران : العصبية العربية التي ظهرت في اقرب الناس الى النبي ففرقت بين المهاجرين والانصار كلٌ يريد الخلافة لعشيرته، ثم تصميم بعض قريش على استبعاد الهاشميين عن الخلافة. وهكذا ذهب مبدأ الشورى ضحية للعصبية القبيلية وللتنافس على السلطة.

في زمن متاخر حاول الفقهاء تلافي ما قصّر عنه السابقون في تحديد اهل الشورى فاخترعوا عبارة "اهل الحل والعقد" الذين يوكل اليهم اختيار الخليفة او الحاكم. يقول الاستاذ ظافر القاسمي في ذلك : "اهل الحل والعقد" او "اهل الاختيار" ترتيب دستوري اسلامي ابتكره علماء السياسة الشرعية المسلمون ولم اجد عليه نصا صريحا لا في القرآن ولا في السنّة. ويتابع قائلا : بقي نظام اهل الحل والعقد، على الاعم الاغلب، في الحدود النظرية يتناوله المؤلفون وينقله الخلف عن السلف ولا نرى له مجالا في واقع الحياة الاسلامية السياسية على اختلاف العصور. ولقد بحثتُ عن اصل لهذا النظام فلم اجد له اصلا، ولم اهتدِ كذلك الى اول من وضع هذا التعبير "اهل العقد" او اول من اطلقه او اول من استعمله. اما نصاب اهل الحل والعقد فقد اختلفوا فيه، فمنهم من قال ان اقلّه خمسة، ومنهم من قال ثلاثة، ومنهم من قال انه واحد. وقد بقي هذا النظام غامضا غير واضح، ذلك ان الفقهاء الذين اقرّوه لم يضعوا له اي ترتيب كان. فنحن لا نعرف المرجع الذي يصنّف الناس ويجعل احدهم من اهل الحل والعقد، ويحرم اخرا من ذلك.

ولا ندري من هو الذي يعلن ضرورة اجتماع اهل الحل والعقد ولا موعد اجتماعهم ولا مكانه. ويقيني ان بقاء هذا الترتيب في الحدود النظرية هو الذي ابقى هذا الغموض. (انتهى) (٨٠)

وهكذا! اخترع الفقهاء فئة من الناس سمّوهم "أهل احل والعقد" ليجيبوا على السؤال الذي أثارته الآية "وشاورهم بالامر" وليزيلوا الغموض ويملأوا الفراغ الناشيء عن عدم تحديد أهل الشورى. لكنهم زادوا الغموض، غموضا لان الفقهاء انفسهم لم يتوصلوا الى رأي واضح عن هؤلاء الذين سمّوهم بهذا الاسم، وعن طريقة اختيارهم وعددهم وموعد اجتماعهم ومكانه، كما يقول الاستاذ القاسمي. بل لعلهم زادوا الوضع ارتباكا وتعقيدا لانهم أطلقوا اصطلاحا ليس له مدلول دقيق ومع ذلك التقطه الناس وتداولوه كأنه أمر مقرر ثم أجهدوا انفسهم في استقصاء معانيه ومدلولاته فلم يتوفقوا.

يتّضح مما تقدم ان سيرة الخلفاء الراشدين لاتدعم نظرية الشورى التي ينسبها بعض التقليديين اليهم ليعطوها شرعية شبه دينية يبنون عليها حكما اسلاميا حديثا.

معنى البيعة

البيعة تقليد بدوي سابق للاسلام يتعلق بتولية شيخ العشيرة. والبيعة ليست انتخابا او اختيارا للزعيم من قِبَل افراد العشيرة بل هو اعتراف منهم بقبول سلطة الشيخ الجديد الذي يحصل على مركزه بمكانته الشخصية او بنفوذ عائلته او بترتيب جرى بين النافذين في القبيلة، او بفرض نفسه على الاخرين.

لما اقتبس الاسلام اسلوب البيعة أبقى في العهود الاولى على تقليدها البدوي لكن الفقهاء في العصور اللاحقة حاولوا ان يعطوها معنى مختلفا عن منشأها فقال ابو الحسن الماوردي (٩٧٤ـ١٠٥٨) ان البيعة عقد وكالة بين الامة وبين حاكمها المسؤول عنها، وان عقد البيعة عقد موقت مشروط فهو خاضع لمراقبة الاصيل (أي الامة) فأن رأى الوكيل ملتزما للشروط المحددة أبقى الوكيل إن شاء.

وقال ابن تيميّة ان الامامة (أي رئاسة الدولة) تثبت بمبايعة الناس لا

بعهد الامام السابق له. (٨١) لكن هذا الكلام بقي في اطار النظريات اذ لم يحدث في التاريخ الاسلامي ان قامت (الامة) بعزل الامام لانه خالف عقد الوكالة كما يقول الماوردي. وقد عُزل خلفاء وحكام كثيرون عن الحكم لكنهم عُزلوا عن طريق الجند لتحقيق رغبة طامع بالحكم، لا لانهم "حادوا عن شروط الوكالة المعقودة مع الامة"، كما انه لم يحدث في التاريخ الاسلامي ان المسلمين رفضوا البيعة لشخص تولى الحكم بعهد السابق له، اي بالاستخلاف.

اما قول ابن تيميّة بأن "الامامة تثبت بمبايعة الناس لا بعهد السابق له" فان ما كان يجري في الواقع المستمر يخالف ذلك. فقد بقي الخلفاء والسلاطين قرونا طويلة وفي مختلف العهود يعيّنون من يخلفهم ثم يسوقون الناس للبيعة سوقا.

وكان الدكتور منير العجلاني اكثر توفيقا في شرح البيعة على حقيقتها فقال : ان البيعة هي ان يظهر الناس الرضا بالخليفة (او الحاكم) والخضوع له. فهي ليست، كما يتوهم البعض، انتخابا او تفويضا او توكيلا بالخلافة، وانما هي الموافقة على الامر الواقع والتسليم به. والبيعة فرض كفاية في الفقه الاسلامي، اذا قام بها قوم سقطت عن الاخرين. وليس الناس ملزمين بمراسم البيعة ما دامت فرض كفاية ولكنهم ملزمون بالطاعة والقبول بالخليفة او الحاكم. (٨٢)

وصف ابن خلدون طريقة اخذ البيعة فقال : ان البيعة هي العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد اميره على ان يسلّم له النظر في امر نفسه وامُور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الامر على ما يحبه او يكرهه. وكانوا اذا بايعوا الامير وعقدوا عهده جعلوا ايديهم في يده تأكيدا للعهد فاشبه بذلك فعل البائع والمشتري فسمي بيعة، مصدر باع، وصارت البيعة مصافحة بالايدي. (٨٣)

اما "الامر الواقع" الذي تجري عليه البيعة والذي ذكره الدكتور العجلاني فيتم بان يسمي الخليفة من يليه كما فعل ابو بكر، او بأن يرتب الامر لمصلحة شخص معين كما فعل عمر، او بأن يعيّن الخليفة او الحاكم وليّا للعهد كما فعل معاوية ومن جاء بعده من الخلفاء والسلاطين، او ان يستولي احد الطامعين على الحكم بقوة الجند.

لم يغب الاكراه والارغام في عملية تولي الخلفاء فقد جمع الخليفة عمر ستة من اكابر الصحابة الطامعين بالخلافة وامرهم ان يختاروا احدهم خليفة في مدة ثلاثة ايام. ثم امر صاحب شرطته ان يشرخ رأس من يعارض منهم وان يقتل من لا يقبل برأي الاكثرية. وفعل معاوية مثل ذلك لما أخذ البيعة لابنه يزيد وتبعه بذلك باقي الخلفاء والسلاطين. وسنرى تفصيل ذلك في الفصل الرابع.

الطاعة واجب ديني

للخليفة او السلطان او الحاكم على الرعية او يطيعوه وينصروه بعد البيعة بموجب الآية : "يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله، واطيعوا الرسول، وأولي الامر منكم. فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله ورسوله". (٨٤) فسّر البيضاوي هذه الآية : "بانه يريد بأولي الامر امراء المسلمين في عهد الرسول وبعده. ويندرج فيهم الخلفاء والقضاة وامراء الجند. أمَرّ الناس بطاعتهم بعدما أمرهم بالعدل (في السورة السابقة) تنبيها لهم على وجوب طاعتهم ما داموا على الحق. فان تنازعتم انتم واولوا الامر منكم في شيء من امر الدين فاطيعوا علماء الشرع في اجتهادهم".

والآية : "واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا (كما فعلتم ببدر وأُحُد) فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا ان الله مع الصابرين". (٨٥)

والاحاديث كثيرة في الحضّ على الطاعة منها : "من اطاعني فقد اطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله. ومن يطيع الامير فقد اطاعني، ومن يعصي الامير فقد عصاني".

"ومن بايع اماما فليطعه ان استطاع. فان جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر".

"ومن خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له. ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية".

"اسمعوا واطيعوا وان أُمّر عليكم حبشي كأن رأسه زبيبة".

ورويت احاديث اخرى تقيد حق الطاعة : اسمعوا واطيعوا ما اقام فيكم (الوالي) كتاب الله تعالى". "وعلى المسلم السمع والطاعة فيما احب وكره

الا ان يؤمر بمعصيه الله. فان أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة".

"لا طاعة في معصية انما الطاعة في المعروف".

"لا طاعة لمن لم يطع الله".

يقول النفيسي نقلا عن ابن حزم في هذا الموضوع : ان الطاعة واجبة للامام ما قادنا بكتاب الله وسنة رسوله. فان زاغ عن شيء منهما مُنع من ذلك وأقيم عليه الحد والحق. فان لم يؤمَن اذاه الا بخلعه خُلع ووُلي غيرُه مكانه. (٨٦)

يُلاحظ في كلام ابن حزم اعادة الفعل الى المجهول في قوله : مُنع، وأُقيم عليه الحد، وخُلع، ووُلي غيره. فما هي السلطة في الاسلام التي تمنع، وتقيم الحد، وتخلع، وتولي؟ ولماذا تجاهلها اذا كانت موجودة فعلا!

يقول الدكتور منير العجلاني : لقد كان خلع الخلفاء في الاغلب نتيجة مؤامرات سياسية وانقلابات عسكرية يلتمس لها الانقلابيون احيانا مبرراً سوء سيرة الخليفة (او الحاكم) او فساد دينه لتضليل عامة الشعب. لكن الفقهاء قلّ ما وافقوا على خلع الخلفاء. وكل ما كان يقع من الخلفاء يجمعونها تحت اسم واحد هو الفسق، والفسق لا يمنع من استدامة الامامة سواء كان ذلك بارتكابه المحظورات واقدامه على المنكرات اتباعاً لشهواته كالسكر والزنا. وقلّ ان تظهر من الخليفة حالة تتجاوز الفسق الى الخروج عن الدين. فان فعل تألب عليه الناس وخلعوه. (٨٧)

وهنا ايضا لا بد من التساؤل : كيف "يتألب الناس على الامير ويخلعوه"؟ هل لدى العامة شعور فطري بأن الوالي خرج عن الدين فيجتمعون تلقائيا وعفويا لخلعه ام ان وراءهم من يثيرهم ويحرضهم ويدفعهم؟

وهل يستجيب الوالي لطلب الناس رضائيا بمجرد اجتماعهم ومطالبتهم بعزله ام سيأمر جنده بالمقاومة فيشتبك الناس وتعم الفوضى وتسيل الدماء؟ وما اسهل ان ينقلب الجمهور المحتشد الى غوغاء اذا بدأ العنف. والغوغاء لا تفكر ولا تعقل ولا يردعها نظام او قانون، فهل وضع الاسلام ضوابط لهذا الامر؟ ولماذا يُخلع الحاكم "بتألب الناس عليه" ولا يُخلع بحكم قضائي او سياسي من سلطة شرعية؟

لقد قامت في العهود الاسلامية حركات وانتفاضات وانقلابات وثورات كثيرة ضد الخلفاء والامراء والولاة كانت دوافعها غالبا سياسية لكنها لبست ثوبا دينيا وقامت بين شيَع اسلامية تتنازع على الخلافة والحكم. ونادرا ما حدثت ثورة في التاريخ الاسلامي الطويل تطالب بالحرية السياسية للفرد وللشعب من حاكم ظالم. بل ان فكرة "الحرية" ولفظها ومعانيها السياسية والاجتماعية كما وردت في "الشرعة الكبرى" الانكليزية سنة ١٢١٥ مثلا وكما نفهمها اليوم تكاد تكون غائبة عن كتب الفقه والادب. واذا وردت تلك اللفظة فهي تأتي بمعناها الحقوقي اي تحرير الرقيق من العبودية دون ان يكون لها مدلول سياسي.

التشديد على الوحدة

بالاضافة الى الامر بالطاعة، اكد الاسلام في القرآن والسنّة على وحدة المسلمين تأكيدا شديدا واعتبر اي محاولة للاخلال بهذه الوحدة جريمة تبلغ حد الخيانة يجب معاقبتها بقسوة. جاء في الحديث "ايما رجل يفرّق بين امتي فاضربوا عنقه"، "ومن اتاكم وامركم جميع على رجل واحد يريد ان يشق عصاكم او يفرق جماعتكم فاقتلوه". "ومن رأى من اميره شيئا فَكَرِه فليصبر، فانه ليس احد يفارق الجماعة فيموت الا ميتة جاهلية". يقول الاستاذ محمد اسد ان الدعوة لوحدة الصف ورفض الاختلاف متجذرة في النفس العربية التي لا تسمح لأي انسان ان يختلف بالرأي عن الجماعة. (٨٨) وقد قال الرسول : "يد الله مع الجماعة ومن شذّ شذّ في النار"، "ومن فارق الجماعة شبرا فقد خلع الاسلام من عنقه".

وما دام الحاكم يطبق احكام الشريعة فان واجب الرعية بالولاء له واجب مطلق وعليهم "السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره" ويجب ان يكونوا وراءه صفا واحدا يضحون في سبيل وحدتهم بممتلكاتهم وارواحهم "لان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة". (٨٩)

يقول الاستاذ حسن البنا : ان الاسلام دين الوحدة في كل شيء، ويجب ان لا تظهر الامة والقادة الا مجتمعين. لذلك فان الاسلام لا يقرّ نظام الحزبية (في الحياة السياسية) ولا يوافق عليه ولا يرضاه. (٩٠)

ان هذا الاصرار الشديد على وحدة الصف والطاعة المطلقة للحكام الا اذا خرجوا عن الدين ساعد الحكام المستبدين على التمادي في غيّهم واضعف المطالبين بالحد من تجاوزاتهم. كما تلازم التظاهر بالتدين والتشدد فيه مع مسلك الطغاة الظالمين في كثير من الاحيان.

وقد ترسخت دعوة الطاعة ووحدة الصف في النفس الاسلامية على مدى العصور وكانت من العوامل التي كبتت، برأينا، انطلاق الفكر الاسلامي للاصلاح في مختلف الميادين. فالمفكر المسلم يشعر انه مطوّق بقيود قاسية، لكن غير واضحة او محددة، تتشكل من المفاهيم التي اعتادتها العامة، ومن تلك التي يروّجها كثير من رجال الدين، ومن مصالح الحكام.

فالعامة من الناس ترتاح الى مفاهيمها التي اعتادتها، خصوصا في امور الدين. وتنفر ممن يقلق فكرها ويدفعها الى التساؤل عن مسائل مستقرة في ذهنها.

وقد وُجد في كل قطر، وفي كل زمن، رجال دين ترتبط مصالحهم بالوضع الجامد المستقر فهم يغذّون نزعة الجمود في العامة. كما ان الحكام والولاة على الحال نفسه يكرهون اكثر ما يكرهون الافكار الجديدة التي تدعو التى التغيير.

وقد تألف من هذه القوى الثلاث حاجز منيع يتّسم بالتعصب وعدم التسامح مع الافكار المخالفة بحيث يتردد كثير من المفكرين باقتحامه. وقد رأينا في التاريخ الحديث كيف تألبت هذه القوى ضد الشيخ علي عبد الرازق والدكتور طه حسين قبل سبعين عاما فاضطهدتهما، وعزلتهما من الوظائف، وقطعت ارزاقهما، لانهما تجرءا على مخالفة التيار الديني السائد عندئذ ولامسا برفق ولين بعض المسائل التي يعتبرها الجامدون حساسة. ولعل الوضع الفكري الاصلاحي في البلاد العربية في يومنا هذا اسوأ مما كان عليه في العشرينات.

من ناحية اخرى، فان الاصرار على وحدة الصف ترك اثره في الحياة السياسية المعاصرة لان اتجاه بعض الدول العربية نحو نظام الديمقراطية يضطرها الى اقتباس نظام تعدد الاحزاب السياسية في البلد الواحد مما يوقع المسلم تحت تأثير تيارين متناقضين يتجاذبانه، احدهما يدعوه الى وحدة

الصف ونبذ الفرقة كواجب ديني، والآخر يبيّن له ان لا سبيل الى الديمقراطية والحرية السياسية بغير احزاب ذات نظريات سياسية واجتماعية واقتصادية مختلفة تتنافس على الحكم.

ولعل هذا التجاذب يفسر سبب ضعف التنظيمات السياسية الحزبية في البلاد العربية التي تقتبس الانظمة الديمقراطية، كما قد يفسر ميل بعض الدول الاخرى الى نهج الحزب الواحد الحاكم فهذا النهج يتوافق مع تطلعات فرقاء مختلفين : تطلعات الاسلاميين الذين يكرهون تعدد الاتجاهات، وتطلعات اولئك الذين يحبّذون نظام الحزب الواحد الحاكم، وتطلعات الذين يحكمون بلادهم دكتاتوريا، وما اكثرهم في البلاد الاسلامية.

يتضح من كل ما تقدم ان هاجس المسلمين في موضوع الحكم السياسي هو ظهور الامة بمظهر الاجماع، ولا يترددون بممارسة الضغط للحصول على الاجماع المطلوب، بينما نرى هاجس الشعوب الغربية هو ضمان حرية الفرد واستقلاليته بالمعارضة.

ولعلنا نرى خطأ متصلا بالاصرار على الاجماع منذ البداية الى الوقت الحاضر عندما نجد حكومات اسلامية حالية تصرّ على ان تأتي نتائج الانتخابات ايجابية بنسبة ٩٩ بالماية سواء كانت لانتخاب رئيس الدولة او مجلس تشريعي او لاي استفتاء، وترى ان اي نقص في هذا الرقم يشكل انتقاصا من مكانة الحاكم ومن هيبة الدولة ومن تضامن الامة.

ونلاحظ انه بنهاية الحرب العالمية الثانية انحسر الاستعمار الغربي عن معظم البلاد الاسلامية وخلّف وراءه حكومات وانظمة سياسية على شاكلة الانظمة الديمقراطية الغربية. لكنه بعد عقد من الزمن او أقل وجدنا معظم هذه الانظمة قد استُبدلت بأنظمة عسكرية او حزبية تحقق الاجماع بالقسر، وتبيّن ان الفكرة الديمقراطية لم تستطع ان تنمي لها جذورا في ضمير الشعوب إما لقصر المدة التي مورست بها او لان التراث والبيئة غير ملائمين لها.

شرعية العنف

ذكرنا في الفصل الثاني وفي باب الفتوحات والجهاد في هذا الفصل

بعض الآيات التي تحث على القتال. وفي موضوعنا الحالي نذكر الآيات التالية وبعضها مكرر لكنه متصل بموضوعنا :

"جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم".

"فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم". (٩١)

"يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة". (٩٢)

"قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر، ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق (اي الاسلام) من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون". (٩٣)

"قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم ويخزهم وينصركم عليهم". (٩٤)

"قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة".

"واقتلوهم حيث تقفتموهم" (اي حيث وجدتموهم). (٩٥)

"فان تولّوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم". (٩٦)

"ايها النبي حرض المؤمنين على القتال". (٩٧)

"الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله". (٩٨)

"ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص".(٩٩)

"انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا، ان يُقتلوا او يُصلبوا او تُقطع ايديهم وارجلهم من خلاف، او يُنفَوا من الارض، ذلك لهم خزي في الدنيا وفي الاخرة عذاب عظيم. (١٠٠)

وقال النبي : "بُعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يُعبد الله وحده لا شريك له. وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والهوان على من خالف امري". (رواه احمد بن حنبل في المسند عن ابن عمر واستشهد به البخاري).

ونزلت آيات تدعو الى اللين :

"ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين". (١٠١)

"فان اعرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ". (١٠٢) تفيسرها لست عليهم رقيبا او محاسبا بعدما بلّغت.

"ما على الرسول الا البلاغ". (١٠٣) فسرها البيضاوي "بانه تشديد في وجوب القيام بما امر به الرسول من التبليغ".

"ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا. افأنت تكره الناس حتى يكونوا كلهم مؤمنين". (١٠٤)

"لا اكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي" (١٠٥) فسرها البيضاوي بان هذا اما عام منسوخ بقوله جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم، او خاص باهل الكتاب.

"وقل الحق من ربك فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، انّا أعتدنا للظالمين نارا". (١٠٦)

"ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة والحسنة وجادلهم بالتي هي احسن ان ربك اعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين". (١٠٧) تفسيرها حسب البيضاوي : "ادع من بُعثت اليهم الى الاسلام بالحكمة والخطاب المقنع والعِبَر النافعة. والأولى دعوة خواص الامة الطالبين للحقائق ثم لعوامهم. وجادل مع معانديهم بالطريقة التي هي احسن طرق المجادلة من الرفق واللين ان ذلك انفع. وربك اعلم بمن ضل واعلم بالمهتدين".

"ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن الا الذين ظلموا منهم. وقولوا آمنّا بالذين أنزل الينا وأُنزل اليكم والٰهنا والٰهكم واحد ونحن له مسلمون". (١٠٨)

المهم في الايات التي تدعوا احيانا الى اللين في معاملة غير المسلمين، ويدعو اكثرها الى العنف، ما رسخ في اذهان عامة المسلمين من هذه المفاهيم على مدى العصور. ولا شك ان المفاهيم الراسخة هي مفاهيم العنف التي تتمثل بالشعار الرئيسي الذي ابتدأ الاسلام دعوته به وهو : "أسلِم تَسلَم".

وما يزال الناس يذكرون المظاهرات التي كانت تطوف الشوارع وتطالب بالاستقلال في البلاد العربية اثناء الانتدابين الفرنسي والبريطاني وكان احد ابرز شعاراتها "دين محمد دين السيف" تعبّر به الجماهير بصورة عفوية عن مفهومها لطبيعة دينها.

قال الاستاذ حسن البنا في المؤتمر الدوري الخامس لجماعة الاخوان المسلمين سنة ١٩٢٩ : يتساءل الناس، هل في عزم الاخوان المسلمين

استخدام القوة في الوصول الى غاياتهم. واجيب : اما القوة فشعار الاسلام في كل نظمه وتشريعاته... ان الاخوان المسلمين سيستخدمون القوة العملية حيث لا يجدى غيرها. لم يلجأ الشيخ حسن البنا الى قوة الاكثرية النيابية او الشعبية).

ويقول الشيخ محمد حسين فضل الله المرشد الروحي لحزب الله في لبنان : ان الاسلام لم يبتعد عن قاعدته الاساسية الروحية والاخلاقية عندما شرع الجهاد، واباح القتال، وشجع على العنف من اجل مواجهة الضرورات التي تفرضها حركته كدين يتحدى الظلم والانحراف ويهدم الالحاد والفوضى. لذلك فان شرعية اعدام الانحراف تفسح المجال امام شرعية اعدام المنحرفين اذا توقف عليه انعدام انحرافه. (١٠٦)

نتوقف مرة اخرى امام هذه المبادئ العامة المجملة التي يقبلها بعض المسلمين وقد يرفضها اخرون لنلاحظ انها تتجنب دائما التحدث عن التنفيذ وادواته واساليبه وتترك هذه الامور وغيرها ضبابية. فما هي السلطة التي لها حق تقرير معنى الانحراف واعدام المنحرفين؟ وقد سبق ان تساءلنا عن قضية تنظيم الشورى التي يعتبرها البعض من اسس الدين، وعن السلطة التي تقرر ان الحاكم خرج عن الدين ويجب خلعه، الى آخر ما هنالك من امور اساسية تتعلق بالحكم الاسلامي لا نجد لها ايضاحا.

نعود الى الاسلام ومبدأ العنف فنجد ان ثلاثة من الخلفاء الراشدين ماتوا قتلا وكانوا من خيار الناس. ولعل الدعوة الملحة والمتكررة للقتال والقتل والفتح واستعمال العنف لنشر الدين او للدفاع عنه رسّخت في النفوس ان العنف قيمة مقبولة وممدوحة من قيم المجتمع.

وعندما يُعطي العنف هذه المكانة يصبح من الصعب على الكثيرين التمييز بين القتل المشروع ديناً، وبين القتل لتحقيق غرض شخصي، وبكل الاحوال يضعف حكم القانون وهو اساس المجتمعات المتمدنة في كل عصر.

يقول الشيخ علي عبد الرازق في العنف : "لقد كان مقتل الخلفاء الراشدين الثلاث بداية سلسة من الاغتيالات للخلفاء والحكام المسلمين لم تنته. ولا يكاد التاريخ الاسلامي يعرف خليفة الا عليه خارج، ولا جيلا من الاجيال مضى دون ان يشاهد مصرعا من مصارع الخلفاء. ولا نظن أن امة من الامم

تضارع المسلمين في ذلك. وقد نشأت معارضتهم للخلافة اذ نشأت الخلافة نفسها. ان عليا ومعاوية لم يتبوءا عرش الخلافة الا تحت ظلال السيوف وعلى أسنّة الرماح، وكذلك الخلفاء من بعدهم الى يومنا هذا". (١١٠)

لكن العنف لم يقتصر على قتل الخلفاء رغم كثرته، بل مارسه الخلفاء والسلاطين والولاة ضد رعيّتهم حتى صار حالة معتادة.

تبدّل النظرية السياسية

ان النظرية السياسية التي شرحناها، وهي مستمدة من الشريعة باعتقاد معظم الفقهاء، فقدت معناها وتغيرت حقيقتها بعد نحو قرنين من وفاة النبي عندما سقطت الخلافة العباسية تحت سيطرة الجنود الاتراك العبيد ثم استولى عليها آل بُويَه وتلاهم آل سلجوق ثم المماليك. وفي كل هذه العهود انحطّت مكانة الخليفة الى الحضيض حتى صار بمثابة موظف تحت امرة السلطان.

وقد تجاوب الفقهاء مع هذه التغييرات وسارعوا الى ايجاد المبررات لتطوير النظرية الشرعية حول مقام الخلافة وسلطتها بحيث تتجاوب مع رغبة السلاطين. اشتهر منهم ابو الحسن الماوردي (توفي ١٠٥٨) وابو حميد الغزالي (١٠٥٨- ١١١١) وتقي الدين ابن تيميّة (١٢٦٣ - ١٣٢٨). وسنشرح نظريتهم في الفصل السادس.

ان استعداد الفقهاء لتطوير النصوص الشرعية حتى تجاري الضرورات تبدّت في عدّة مسائل : في معاملة اسرى الحرب في العهود اللاحقة، وفي توسيع مفهوم الآية المتعلقة باهل الكتاب لتشمل المجوس والبربر وغيرهم فقُبلت منهم الجزية خلافاً للنص الذي يخيّر الكفار بين الاسلام او القتل، وفي ايجاد المبررات الشرعية لسيطرة السلاطين على الخلفاء.

وقد جرى تبرير سيطرة السلاطين رغم ان السنّة كانوا اعتبروا ان باب الاجتهاد قد اغلق في القرن التاسع. ومع ذلك وُجد فقهاء مرموقون جوّزوا للسلطان البويهي والسلجوقي والملوكي اغتصاب حقوق الامامة والخلافة بما يخالف روح الشريعة ان لم يكن نصّها.

نظرية الحكم عند الشيعة

بدأ التشيّع لما رأى ناس من الصحابة بعد وفاة النبي انه بغياب النص والتوجيه النبوي فان اهل بيته اولى الناس ان يخلفوه وأحقهم بذلك علي بن ابي طالب. كان اشهر من قال بذلك سلمان الفارسي، وابو ذر الغفاري، والمقداد بن الاسود وهم من كبار الصحابة.

وقد انضم الى الشيعة اقوام لاهداف مختلفة، منهم اعترافا باحقيّة علي وبنيه، ومنهم كرها بالحكم الاموي والعباسي لانه ظلمهم. وتشيّع كثير من الموالي كرها بالارستقراطية العربية التي مارسها الامويون. وتشيّعت قبائل عربية لان قبائل منافسة ناصرت الامويين او العباسيين فكانت العصبيّة تقضي بان يناصروا الجانب الاخر. وتشيّع إلفرس خاصة لانهم ورثوا عادة تقديس البيت المالك وهو الان آل النبي. وتشيّع اخرون من اعداء الاسلام لتهديمه بالغلو في التشيّع.

اهم خلاف بين الشيعة وغيرهم يدور حول مسألة الخلافة ولمن تكون. وبما ان الاسلام دين ودنيا حسب اعتقاد الاكثرية فقد صار النزاع دينيا سياسيا او سياسيا يرتدي سترة الدين. وبما ان النبي برأي الشيعة قد نصّ على خلافة علي له فان كل الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين يصبحون غاصبين للخلافة ومن واجب شيعة علي العمل السري والعلني لرد الامر الى اهله.

ان الخلاف الفقهي بين القائلين بان سلطة الخليفة (الامام) مستمدة من الله او من الشعب محلول لدى الشيعة على اختلاف فرقهم. فالامامة في نظرهم ليست من المصالح العامة التي تفوّض الى نظر الامة بل هي واجبة لانها ركن الدين وقاعدة الاسلام، وهي رئاسة عامة في امور الدين والدنيا، لا يجوز لنبي اغفالها ولا تفويضها الى الامة بل يجب عليه تعيين الامام لهم. والامام معصوم من الكبائر والصغائر ومن الخطأ في احكامه واقواله. والامام بعد النبي هو ابن عمه علي بن ابي طالب لنصّه عليه يوم الغدير بامر الله تعالى له. ومن هنا نشأت فكرة الوصية، ولُقِب علي بالوصي، يريدون ان الله اوصى بالخلافة لعلي من بعده فكان وصي الرسول. وعلي اوصى لمن بعده، وهكذا يصبح كل امام وصيّ من قبلَه ويكون مثله معصوما عن الخطأ. ولا يصدر من الائمة الا ما

كان صوابا. ويستدلون على وصية النبي لعلي بن ابي طالب بنصوص منها جليّ ومنها خفيّ. فالجليّ مثل قول النبي "من كنت مولاه فعليّ مولاه" ولم تطّرد هذه الولاية الا في علي. وقوله : "اقضاكم علي"، ولا معنى للامامة الا القضاء باحكام الله. ومنها قوله "من يبايعني على روحه وهو وصي وولي هذا الامر من بعدي"؟ فلم يبايعه الا علي.

ومن الخفيّ عندهم بعثُ النبي عليا لقراءة سورة التوبة في موسم الحج حين أُنزلت فقالوا ان هذا يدلّ على تقديم علي. ولم يُعرف ايضا ان الرسول قدّم احدا على علي. اما ابو بكر وعمر فقدم عليهما في غزوتين : اسامة بن زيد مرة، وعمرو بن العاص مرة اخرى. وهذه كلها ادلة شاهدة برأيهم على تعيين علي للخلافة دون غيره.

ويتبرأ الامامية من الشيخين ابي بكر وعمر حيث لم يقدّما عليا ويبايعوه بمقتضى هذه النصوص، ويطعنون في امامتها. وقد تجاوز بعض الشيعة في عهود مختلفة مجرد الطعن الى شتمهما.

ويعتبر الشيعة ان الاعتراف بالامام والطاعة له جزء من الايمان. وبما ان الامام معصوم فله وحده حق الاجتهاد الذي يسمى "التشريع" ويبقى اجتهاده دائما وملزما لكل واحد حتى يُبطله امام يخلفه. والامام قد ورث علوم النبي. وهناك نوعان من العلم، علم الظاهر وعلم الباطن. وقد علّم النبي هذين النوعين لعلي، فكان يعلم باطن القرآن وظاهره، واطلعه على اسرار الكون وخفايا المغيبات، وكل امام ورّث هذه العلوم لمن بعده. وكل امام يعلّم الناس في وقته ما يستطيعون فهمه من هذه الاسرار. ولا يؤمن الشيعة بالحديث الا اذا رُوي عن ائمتهم.

يتفق الشيعة بان الامامة محصورة في ذرية الامام علي وتنتقل بالتعيين، وان الامام معصوم يحكم بقدرة الله لا بمشيئة المسلمين وهو الوحيد المخوّل بالاجتهاد، اما ما يختلفون عليه فيدور حول المهدي المنتظر. والمهدي هو الامام الاخير الذي غاب والذي سيعود ليملأ الارض عدلا ونورا وهم بانتظار عودته. وعلى هذا، يقول الاستاذ ظافر القاسي، فان الخلاف بين السنّة والشيعة خلاف اصلي لا فرعي. (١١١)

اختلاف الشيعة على الائمة

بالاضافة الى المبادئ التي ذكرنا بقي الشيعة متفقين على تسلسل الائمة الاربعة الأول اي من علي بن ابي طالب الى ابنه الحسن ثم الى اخيه الحسين ثم الى علي زين العابدين ابن الحسين وهو الامام الرابع وامه جيهان بنت الشاه يَزْدَجَرد اخر الملوك الساسانيين. قال المتنبي في زين العابدين :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته   والبيت يعرفه والحلّ والحرم

هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله   بجده انبياء الله قد خُتموا

بعد علي زين العابدين اختلفت الشيعة فقامت فرقة ساقت الامامة منه الى ابنه زيد الذي اصبح الامام الخامس وسُمّيت "الزيدية" او "الخمسية". اما باقي الشيعة فساقت الامامة من علي زين العابدين الى ابنه الاخر ابي جعفر محمد الباقر (توفي ٧٣٠) ثم الى ابنه ابي عبد الله جعفر الصادق (٧٠٠ - ٧٦٥) وهو الامام السادس الذي ينتهي نسبه الى ابي بكر عن طريقين، فوالدته هي فاطمة بنت قاسم بن ابي بكر، وجدته اسماء بنت عبد الرحمن بن ابي بكر. وهذا يفسّر رفضه ما سار اليه بعض الشيعة من شتم ابي بكر وعمر.

كان الامام جعفر يسكن المدينة وكان فقيها عالما كريما جمع حوله طائفة من راغبي العلم كابي حنيفة، ومالك بن أنس، وواصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال، وجابر بن حيان الكيميائي الشهير الذي نسب الى الامام جعفر اكثر افكاره العلمية. ويُنسب الى الامام جعفر ايضا الفقه الجعفري الذي تتبعه الشيعة الاثنا عشرية. وقد عاصر الامام جعفر الخليفة المنصور وابتعد عن السياسة ولم يظهر رغبة بالخلافة. في زمانه قام محمد بن عبد الله (النفس الزكية) بثورة على العباسيين فقُتل سنة ٧٦٢. فطلب المنصور من جعفر ان يسكن بغداد ليكون تحت نظره. فجاء واقنع المنصور انه لا مطمع له بالخلافة وعاد الى المدينة ليقضي فيها باقي ايامه.

بعد وفاة الامام جعفر اختلفت الشيعة مرة ثانية على الامامة. فقامت فرقة ساقتها من جعفر الى بكره اسماعيل رغم انه توفي قبل والده سنة ٧٦٠ وكان جعفر قد عيّن اسماعيل خلفاً له لكنه عاد عن ذلك وعيّن ابنه الثاني موسى. لكن الاسماعيلية تمسكوا باسماعيل لزعمهم ان الأمام معصوم ولا يمكن ان

يؤخذ عليه شيء ثانوي كشرب الخمر مثلا. ثم قالوا ان اسماعيل لم يمت وانما اختفى. وبذلك اصبح اسماعيل الامام السابع فعُرفت هذه الفرقة باسم الاسماعيلية او السبعية.

بعد اسماعيل انتقلت الامامة عند الاسماعيلية الى ابنه محمد المكتوم وهو اول الائمة المستورين اي الذين لا يعلنون عن انفسهم اذ يجوز بموجب عقيدة الاسماعيليين ان يكون الامام مستورا حَذَرا من السطة، وان يكون دعاته معروفين. توالى بعد محمد المكتوم ستة ائمة مستورين هم ابنه اسماعيل بن محمد، ثم ابنه محمد بن اسماعيل، ثم ابنه احمد بن محمد، ثم ابنه عبد الله بن احمد، ثم ابنه احمد بن عبد الله، ثم ابنه حسين، واخيرا عبد الله المهدي ابن حسين الذي اعلن امامته في تونس وصار رأس الفاطميين. (١١٢)

اما الشيعة الاثنا عشرية وهم الاكثر عددا، فقد ساقوا الامامة من الامام السادس جعفر الصادق الى ابنه الثاني موسى الكاظم (توفي ٧٩٠) ثم الى ابنه ابي الحسن علي الرضا (توفي ٨١٩) وهو الذي اراد المامون تعيينه خليفة بعده فلقي معارضة شديدة من السنّة لكن علي الرضا توفي عام (٨١٩)؛قبل وفاة المامون. بعد علي الرضا انتقلت الامامة الى ابنه ابي جعفر محمد الجواد (توفي ٨٣٧) وهو الامام التاسع، ثم الى ابنه علي الهادي الامام العاشر (توفي ٨٧١)، ثم الى ابنه ابي محمد الحسن العسكري (توفي ٨٧٧)، ثم الى ابنه محمد ابي القاسم ابن الحسن العسكري وهو الامام الثاني عشر ويعرف "بالمهدي"، ويعتقد الاثنا عشرية انه دخل سردابا في منزلهم بالحلة، (وقيل في سامراء) عندما كان عمره تسع سنوات (٨٨٠) وغاب هناك وهو سيخرج في اخر الزمان فيملأ الارض عدلا، وهم الى الان ينتظرونه ويسمونه "المنتظر". (١١٣)

اختلاف الشيعة حول العقائد

الزيدية

من مبادئ الزيدية ان الامامة يجب ان تكون في اولاد فاطمة سواء كانوا من اولاد الحسن او الحسين لذلك رفضوا امامة محمد ابن الحسين لان

امه كانت غير فاطمة. ويقولون ان النبي عيّن الامام بالوصف لا بالشخص لذلك لا يتبرأون من ابي بكر وعمر بل يرون ان خلافتهما صحيحة وان كان علي افضل منهما لان امامة المفضول جائزة مع وجود الافضل (١١٤) وقد رفض شيعة الكوفة هذه المقالة. وقد تتلمذ زيد على واصل بن عطاء راس المعتزلة وصارت اصحابه معتزلة. يقول بعض المؤرخين ان الزيدية لا يقولون بعصمة الأئمة واختفائهم ورجعتهم (١١٥) وبذلك كانوا اقرب الى اهل السنة من الفرق الشيعية الاخرى.

يشترط الزيود في ائمتهم ان يكونوا فقهاء مجتهدين فكثرت اراؤهم في الفقه ونبغ منهم كثير من المجتهدين ورتبوا فقههم في كتب معروفة اهمها كتاب "المجموع" الذي يحتوي على الاحاديث التي رُوِيَت عن الامام زيد وفتاويه.

عاصر الامام زيد هشام بن عبد الملك وكان طموحا للخلافة وكانت امه جارية من بلاد السند. وكانت سيرته مع هشام كسيرة جده الحسين مع يزيد. فقد ثار على هشام في العراق فقُتل (٧٤٠) وهرب ابنه يحيى الى بلخ في خراسان حيث ثار على الوليد الثاني فقُتل ايضا (٧٤٢).

يشكل الزيود الان اكثر من نصف سكان اليمن وهم محاربون اشداء يقطنون الجبال الحصينة. وعندما حاول الرئيس عبد الناصر احتلال اليمن ليطوّق المملكة السعودية ويصل الى منابع البترول قاومه الزيود مقاومة عنيفة بمساعدة المملكة السعودية وافشلوا اهدافه فاضطر عبد الناصر الى الانسحاب بعد حرب دامت من ١٩٦٢ - ١٩٦٧ وتكبد فيها خسائر فادحة بالرجال والاموال.

الاسماعيلية او السبعية

الاسماعيلية هي من اهم الفرق الباطنية التي ظهرت في الاسلام وكانت اكبرها اثرا واشدها نفوذا وانتشارا ما بين القرن الثامن والثالث عشر. استهدفت عقيدتها تهديم الاسلام التقليدي فكريا ودينيا وعمليا ببذر الشكوك حول العقائد الاساسية، ثم في افعالها وممارساتها العملية عن طريق اجهزتها السرية والعلنية التي تمثلت بالخلافة الفاطمية وبحركة القرامطة،

ومنظمة الحشاشين، وجمعية اخوان الصفا وخلان الوفا.

تعني "الباطنية" ان للقرآن والحديث معاني ظاهرة ومعاني مخفية باطنية. اما المعاني الظاهرة فهي ما يفهمه العامة سطحيا عندما يسمعون او يقرأون الآيات والاحاديث. اما المعاني الباطنية فهي جوهر الدين التي لا تتضح الا لمن تدرب وتدرج في سلم المعارف.

تركزت تعاليم الاسماعيلية في القرن الثامن وبداية القرن التاسع واستهدفوا منها منذ البداية السيطرة السياسية عن طريق تقويض المذهب السني الذي استولى على الخلافة منذ وفاة النبي.

نظم الاسماعيليون دعوتهم سرا على اتقن ما يمكن. فقالوا انه يجب تفسير القرآن على سبيل المجاز لان المعنى الظاهري هو حجاب يستر المعنى الحقيقي الباطني الذي هم وحدهم يعرفونه. ولكي يصل الاسماعيلي الى هذه المعرفة المخصصة للنخبة عليه ان يقسم يمين الكتمان ثم يتدرج في مراتب، قيل انها تسع، من خلال تنظيم صارم يرأسه الامام ويبثه الدعاة في مختلف الاقطار الاسلامية.

تبدأ مراحل التعليم باثارة الشكوك في الاسلام وتنتهي بالتحلل من قيوده. من عقائدهم تناسخ الارواح وحلول الالوهية في اسماعيل وانتظار رجعته مهديا. وقد اولوا كل ما جاء في القرآن وقالوا ان الوحي ليس الا صفاء النفس، وان الشعائر الدينية هي للعامة اما الخاصة فلا يلزمهم العمل بها، وان الانبياء هم سوّاس العامة اما الخاصة فانبياؤهم الفلاسفة. وقالوا ليس هناك معنى للتمسك بحرفية القرآن لانه رموز لاشياء، انما يجب فهم القرآن على طريقة التأويل والمجاز خصوصا ان للقرآن برأيهم كما قلنا معنى ظاهر ومعنى باطن هم وحدهم يعرفونه، ومن ثم سُموا بالباطنية. وقد تأثر الاسماعيليون بالفلسفة الافلاطونية الجديدة كما تأثروا بمبادئ ماني الفارسية.

كان من رجال هذه الحركة الباطنية البارزين عبد الله بن ميمون القداح (توفي حوالي سنة ٨٧٤) وكان ابوه قداحا في الاهواز غير معروف النسب. وعبد الله هو الذي اكمل النظام السياسي - الديني للحركة الاسماعيلية. وقد جعل البصرة اولا مقره ثم انتقل الى سَلَمْية قرب مدينة حماة في سوريا ومن هذين المركزين كان يتوجه الدعاة الى انحاء العالم

الاسلامي.

لعب الاسماعيليون دورا بارزا في تاريخ الاسلام ما بين القرن الثامن والثالث عشر من خلال ثلاث حركات رئيسية تؤمن بعقيدتهم هي الخلافة الفاطمية والقرامطة والحشاشون. وفي القرن العاشر نشأت فرقة سرية يقال انها اسماعيلية او مرتبطة بهم تعبّر عن عقيدتهم وضعت "رسائل اخوان الصفا وخلان الوفا" وسنبدأ ببحث الحركة القرمطية نظرا للدور الهام الذي لعبته هذه الحركة في تاريخها المضطرب والطويل.

القرامطة

سنبحث الخلافة الفاطمية في الفصل الثامن. اما القرامطة فانه قبل موت عبد الله القداح ظهر بين رجال الدعوة الباطنية رجل يقال له حمدان قرمط كان فلاحا في سواد العراق ثم انضم الى القداح وكان من غلاة دعاته واسس فرقة باطنية نسبت اليه. وقد تجلت في حركته روح العداوة القديمة بين الفلاحين من اهل البلاد وبين ابناء الصحراء. والقرامطة، كباقي الفرق الشيعية، اعتبروا العباسيين مغتصبين لحق آل البيت فوجب قتالهم.

في سنة ٨٩٠ ابتنى حمدان قرمط لنفسه مقرا بجوار الكوفة سماه "هجر" وكثر عدد تابعيه من سكان البلاد الاصليين لا سيما الفلاحين والصناع المعروفين في المصادر العربية "بالنبط". وكانت هذه الحركة في الاصل منظمة سرية ذات صبغة اشتراكية. من مبادئهم انهم اباحوا الشراكة في النساء والاموال، وحضّوا على ترك الصلاة والصيام والحج، وشجعوا شرب الخمر والموسيقى والاباحة الجنسية، كما اباحوا سفك دماء خصومهم ولو كانوا مسلمين. وقد ناصروا الزنج في ثورتهم التي دامت من سنة ٨٦٨ الى ٨٨٣.

تمكن القرامطة بزعامة ابي سعيد الجنابي القرمطي من تاسيس دولة مستقلة على شاطئ الخليج الفارسي الغربي سنة ٨٩٩ واتخذوا منطقة الاحساء (في شرق الدولة السعودية اليوم) مركزا تحصنوا به وجعلوه قاعدة دولتهم التي نشروا منها الرعب في بلاد الخلافة. فقد اخضع الجنابي اليمامة (نجد) سنة ٩٠٣ ثم غزا عُمان. وخلفه ابنه ابو طاهر سليمان الذي احتل البحرين (٩٢٣) وخرّب معظم العراق الجنوبي واحتل الكوفة سنة ٩٢٤ ونهبها، وقطع

طريق الحج. ثم هاجم الاسماعيليون مكة اثناء موسم الحج سنة ٩٣٠ واستولوا على الحجر الاسود ونقلوه الى عاصمتهم ليعلنوا نهاية الحكم الاسلامي السني واحتفظوا به الى سنة ٩٥١ حين اعادوه بعد تدخل الخليفة الفاطمي والحصول على مبلغ ضخم دفعه العباسيون.

من مركزهم في سَلَمْية استولى القرامطة على دمشق سنة ٩٦٨ وحاصروا القاهرة سنة ٩٧١ اذ كانت علاقتهم بالفاطميين، رغم كونهم اسماعيلية، تتراوح بين مد وجزر. وقد اضطر العباسيون والفاطميون الى عقد هدنة معهم لقاء دفع جزية سنوية.

من اشهر مريدي القرامطة الشاعر الشهير ابو طيب المتنبي (٩٥١ - ٩٦٥) الذي انضم اليهم بعدما استولوا على الكوفة وعاش بينهم وقاد ثورة قرماطية في سوريا (٩٢٢) كانت فاشلة فقُبض عليه وسُجن سنتين ثم اعلن رجوعه عن العقيدة الاسماعيلية فأطلق سراحه (٩٢٥) وصار شاعرا متجولا.

بين القرنين العاشر والحادي عشر كان اتباع قرمط والجنابي يشنون الغارات من مقرهم في الاحساء وفي سَلَمْية (سوريا) فيعيثون فسادا في بلاد الشام والعراق ويستبيحون الدماء. ووصلت الفتن والقلاقل والاضطرابات التي اثاروها الى خراسان واليمن فاصبحت هي بدورها مراكز للفتن والنقمة. (١١٦)

جاءت نهاية القرامطة عام ١٠٧٧ بثورات قامت بها ضدهم قبائل بدوية وكانت عوامل الضعف والانشقاق قد استبدت بالحركة.

الحشاشون

انتقلت تعاليم القرامطة بعد سقوطهم الى الفاطميين في مصر ومن هؤلاء نشأت الطائفة الدرزية والفرق الاسماعيلية الجديدة التي عرفت باسم الحشاشين. فبعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر (١٠٩٤) انقسم الاسماعيليون الى فرقتين فاعترفت اسماعيلية مصر بابنه المستعلي، فيما ايّد اسماعيلية ايران وسوريا ابنه الاكبر نزار.

قاد النزاريين حسن الصباح (توفي ١١٢٤) وهو في الراجح فارسي من طوس انتسب الى الباطينة وتعاليمها واستولى سنة ١٠٩٠ بمساعدة حلفاء من الفرس، على قلعة آلاموت وجعلها قاعدة حكمه وهي حصن جبلي منيع ومرتفع

يقع في جبال ألبورز تسيطر على الممر الاقصر مسافة ما بين شواطئ بحر قزوين ومرتفعات ايران. وقد عُرف اتباع حسن الصباح باسم الحشاشين لان الصباح كان يستعمل الحشيش لاغرائهم والسيطرة على اذهانهم وضمان طاعتهم المطلقة، وقد مارس بواسطتهم الارهاب والاغتيالات كوسائل لتحقيق اغراضه السياسية فما كان امير او حاكم في ذلك الزمن يأمن على نفسه من الاغتيال، واشهر ضحاياه الوزير السلجوقي نظام الملك الذي قتله حشاش تنكر بزي صوفي. كما رفع حسن الصباح عمل التجسس الى مرتبة فنية عالية وكانت عيونه منبثة في كل قصر وبلاط.

في نهاية القرن الحادي عشر اصبح لحسن الصباح القائد الاكبر للجماعة، شبكة من القلاع الحصينة منتشرة في ايران والعراق مع فرق مُن الارهابيين المخلصين وعدد كبير من الجواسيس منبثين في المدن والمعسكرات عملوا على اضعاف الدولة السلجوقية واغتالوا عددا كبيرا من قادة الجيش ورجال الدولة.

في بداية القرن الثاني عشر امتد نشاط الحشاشين الى سوريا فاستمالوا اليهم رضوان بن تَتَش امير حلب السلجوقي (توفي ١١١٣). وفي سنة ١١٤٠ احتلوا حصن مصياف وحصونا اخرى كثيرة في جبال النصيرية المشرفة على البحر المتوسط منها قلعة الكهف والقدموس والعليقة بزعامة رئيسهم راشد الدين سنان (شيخ الجبل) المتوفي سنة ١١٩٢ الذي جعل قاعدته في حصن مصياف واستقل عمليا عن القائم في قلعة ألاموت في ايران. (١١٧)

لعب الحشاشون دورا هاما في الحروب بين الصليبيين والسلاجقة فكانوا يتعاملون مع الفريقين حسبما تقضي به مصالحهم. وجاءت نهاية الحشاشين في ايران على يد هولاكو خان المغولي الذي دمر قلعة الاموت، وفي سوريا سنة ١٢٧٢ على يد السلطان بيبرس الاول من المماليك.

لا يزال من النزاريين والاسماعيليين طائفة تعد بالملايين في سوريا وايران واواسط آسيا وشرق افريقيا وخصوصا في الهند والباكستان حيث يُعرفون باسم "الخوجة" ويتبعون الامام اغا خان الذي يرجع نسبه الى "داعي دعاة" قلعة ألاموت ومنه الى اسماعيل الامام السابع. وقد نقل آغا خان مقامه من ايران الى الهند عام ١٨٤٠ على اثر خلاف مع الشاة. اما اتباع المستعلي

فبقوا ناشطين في اليمن بعدما قضى صلاح الدين على الدولة الفاطمية (١١٧١). وقد اعتبروا ان الطفل الطيب حفيد المستعلي هو الامام المستور وسيظهر في زمن لاحق. وحتى ذلك الزمن فان "الداعي الاكبر" يمارس السلطة الروحية والزمنية. وقد نزح الداعي الاكبر في القرن السادس عشر من اليمن الى مدينة سورات في الهند ويُعرف اتباعه الان باسم "البحرة". (١١٨) واتباع الفرقتين الخوجة والبحرة اصحاب همة ونشاط وباع واسع في اعمال الاقتصاد والتجارة.

الاثنا عشرية او الامامية

الامامة عند الاثني عشرية هي المقام الذي تتجلى فيه الارادة الألهية في كل لحظة. والامام هو محمد ابو القاسم الذي غاب سنة ٨٨٥ وكان عمره تسع سنوات. تتركز تعاليمهم حول الخلافة او الامامة في اربعة مواضيع متشابكة هي العصمة، والمهدية، والرجعة، والتقية. (١١٩)

يقصدون بالعصمة ان الائمة كالانبياء معصومون طول حياتهم لا يرتكبون صغيرة ولا كبيرة، ولا تصدر عنهم اية معصية، ولا يقعون في خطأ او نسيان. اما ما دعا الى نصب الامام فهو جواز الخطأ من الامة وحاجتها الى هادي لتتفادى ذلك وهذا الهادي او المهدي هو الامام المنتظر. وقد غاب الامام الثاني عشر محمد ابو القاسم وسيعود بعد غيبته فيملأ الارض عدلا كما مُلأت جورا وهذا ما يسمى "الرجعة".

وهذا الامام موجود من حين ولادته الى اخر الزمان لان كل زمان لا بد فيه من امام معصوم، وغيره غير معصوم فيكون هو الامام. واما سبب خفائه فلمصلحة استأثر الله بعلمها.

وقد وضعت في الرجعة احاديث كثيرة عن النبي لكن البخاري ومسلم لم ياخذا بها.

اول من تكلم في الغيبة والرجعة كان كيسان مولى علي بن ابي طالب الذي اعتبر ان الامامة انتقلت من علي الى ابنه محمد ابن الحنفية بعد مقتل الحسين فلما توفي محمد لم يؤمن الكيسانية بموته وقالوا بغيبته وانتظار عودته، وانه مقيم في جبل رضوى في جوار المدينة. قال في ذلك شاعرهم

كثيّر عزة وهو كيساني :

ألا ان الائمة من قريش ... ولاة الحق اربعة سواء
عليٌ والثلاثة من بنيه ... هم الاسباط ليس بهم خفاء
فسبطٌ سبط ايمان وبر ... وسبطٌ غيّبته كربلاء
وسبطٌ لا يذوق الموت حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيّب لا يُرى فيهم زمانا ... برضوى عنده عسل وماء

وكانت الغيبة والرجعة اساسا لفكرة الامام المنتظر عند الامامية الاثني عشرية. وقد انكر الشيعة الاجماع كاصل من اصول التشريع لانه يؤدّي الى الاخذ باقوال غير الشيعة وهم الاكثر عددا. وانكروا القياس لانه رأي، والدين لا يؤخذ بالرأي وانما يؤخذ عن الرسول وعن الائمة المعصومين.

بقي المبدأ الرابع عند الشيعة بعد العصمة والمهدي والرجعة، وهو التقيّة. ومعناها ان يحافظ المرء على نفسه او عرضه او ماله مخافة عدوه فيُظهر غير ما يُبطن. وقد دفعهم الى ذلك الاضطهاد الذي تعرضوا له اجيالا على يد الحكام السنّة فلجأوا الى المداراة والكتمان والتظاهر بما ليس هو الحقيقة. فصارت التقيّة مكملة لتعاليمهم تواصوا بها وعدوها مبدأ اساسيا في حياتهم وركنا من دينهم ورووا فيها كثيرا عن ائمتهم وابتنى عليها تاريخهم. فاحداثهم كلها اساسها امام مختفي او مستتر يدعو الى نفسه في الخفاء ويبث دعاته في الامصار فياخذون له العهد من انصارهم ويطالبونهم بالكتمان والتظاهر بالطاعة الى ان يحين موعد الثورة. وكثيرا ما يوافق الشيعة اهل السنة في صلاتهم وصيامهم ومظاهر دينهم تظاهرا ويحمّلون الكلام معاني خفية وظاهرة وهذه كلها تقيّة. (١٢٠)

وقد اكثر بعض الشيعة من لعن ابي بكر وعمر وعائشة وحفصة ومعاوية ويزيد وغيرهم ولهم ادعية معروفة في لعن هؤلاء وامثالهم. ولا ياخذون الحديث والعلم الا ممن كان شيعيا ولا يثقون براوية تاريخ الا ممن كان منهم.

وقد حصل التباس باسم الشيعة ما بين العهدين الاموي والعباسي فالشيعة في الدّولة الاموية كانوا بني هاشم من علويين وعباسيين لانهم كانوا عصبة واحدة في عدائهم للامويين. اما في العصر العباسي فكانت الشيعة

محصورة في العلويين وصار العباسيون خصومهم ونكلوا بهم كما فعل الامويون سابقا.

يشكل الاثنا عشرية نحو تسعين بالماية من الشيعة وقد ازداد عددهم لما فرض شاه عباس (١٥٨٦ - ١٦٢٩) المذهب الشيعي الامامي على سكان ايران. وللاثني عشرية امتداد واسع في العراق حيث يشكلون اكثر من نصف السكان، وفي لبنان في منطقتي البقاع والجنوب وكذلك على الشاطيء الغربي للخليج الفارسي في المملكة العربية السعودية.

غلاة الشيعة

تفرعت عن الشيعة فرق متعددة متطرفة عرفت باسم "غلاة الشيعة" اتخذت مبادئ ابعدتها عن الاسلام فبعضها الّه عليا بن ابي طالب فقالوا "حل في علي جزء الهي واتحد بجسده فيه" وذكروا ان اول من دعا الى تأليه علي عبد الله ابن سبأ اليهودي وكان ذلك في حياة علي وهو الذي حرك الصحابي ابا ذر الغفاري للدعوة التي نسميها الان اشتراكية، واول من قال بغياب الامام ورجعته.

ومن غلاة الشيعة النصيرية الذين يسكنون جبال العلويين في سوريا، والدروز في سوريا ولبنان واسرائيل. وقد ورد ذكر فرق الغلاة بتفصيل في كتاب "الفرق بين الفرق" للبغدادي، وكتاب "الملل والاهواء والنحل" للشهرستاني، وكتاب "الفصل في الملل والنحل" لابن حزم. وهذه الابحاث لا تدخل في موضوعنا.

ولاية الفقيه في الجمهورية الايرانية

كيف تطبق الشيعة الامامية نظرتها السياسية في هذا العصر؟

لقد اعطتنا "جمهورية ايران الاسلامية" في دستورها ومبادئها المعلنة وتعاليمها داخليا وخارجيا صورة واضحة عن هذه النظرية. فقال الامام آية الله روح الله الخميني مؤسس الجمهورية الاسلامية انه في عصر غيبة الامام يكون "الفقيه" هو وصي النبي وإمام المسلمين وقائدهم، وهو "حجة الله" اي ان الله عيّنه وجعله مرجعا للناس واناط به تدبير امورهم في جميع الشئون وكذلك

الفقهاء. فكل ما كان يُناط بالنبي فان الائمة اناطوه بالفقهاء من بعدهم فهم المرجع في جميع الامور وهم مفوّضون بالحكم وولاية الناس. والفقهاء هم "حكام على الملوك". فالحكام الحقيقيون هم الفقهاء. اما السلاطين فيحكمون تحت اشرافهم. فاذا قام على الحكم فقيه عالم عادل فانه يلي من امور الناس ما كان يليه النبي، ومن بعده الائمة. هذه الولاية والحاكمية تنتقل الى الفقيه في غيبة الامام.

هذه نظرية "عموم ولاية الفقيه" التي شرحها الامام الخميني وقنّنها "الدستور الاسلامي لجمهورية ايران الاسلامية" الصادر في ١٥ نوفمبر ١٩٧٩ فقرر وصاية الفقهاء على الامة وانفرادهم بالسلطة العليا في الدولة، واعطى آية الله العظمى الامام الخميني هذه الوصاية وولاية الامر وكل المسئوليات الناشئة عنها. وفي حال غيابه يتكوّن مجلس الفقهاء من ثلاثة او خمسة من الفقهاء الحائزين على مرتبة "المراجع" يعينهم الوصي ويقومون مقامه.

وقد نصت المادة ١١٠ من الدستور على سلطات الامام الوصي ومنها :

انه راس الجهاز القضائي يعين القضاة ويعزلهم، وهو القائد العام للقوات المسلحة له الحق باعلان الحرب والسلم، والتعبئة العسكرية، وتعيين رئيس اركان الجيش وعزله، وتشكيل مجلس الدفاع الوطني الاعلى، وتعيين قادة قوات الجيش الثلاثة البرية والجوية والبحرية وعزلهم. وله التصديق على انتخاب رئيس الجمهورية وحق عزله، والموافقة على المرشحين لهذا المنصب او رفض ترشيحهم.

وقد ميزت نظرية "عموم ولاية الفقيه" بين السلطة الحقيقية في الدولة التي هي الفقهاء العدول وعلى رأسهم الامام الوصي، الذين من شانهم اقامة العدل بين الناس، وتوفير الامن، وتثبيت القيم الاجتماعية حسب نصوص الدين، وبين الادارة التنظيمية التي يمكن للفقهاء ان يستعينوا فيها برجال الاختصاص.

وقد كوّن الشيعة طبقة دينية من الفقهاء ذات مراتب متدرجة والقاب متميزة مثل "آية الله" "وحجة الاسلام" "والمرجع" وعلى راسها الفقيه الوصي، وفي ادناها جمهور "الملالي" المنتشرين في القرى واحياء المدن. لكن التدرج من مرتبة الى اخرى يبقى غامضا لانه لم يوضع نظام يقرر المواصفات المطلوبة لكل

مرتبة وبقي الامر خاضعا لما يحوزه الشخص من تقدير عام لعلمه وتقواه ودينه.

ان السلطة الفائقة التي يتمتع بها "الفقيه الوصي" كممثل للامام الغائب وكنائب عنه، والنظرية الشيعية التي تمنح الامام حق الاجتهاد في كل عصر، يمكن ان تؤدي الى اجتهادات جديدة تنقل المجتمع الشيعي الى ما يتوافق مع حاجات العصر. لكننا رأينا الثورة الاسلامية في ايران تسير في منحى معاكس وتتمسك اشد التمسك بالمفاهيم القديمة مما يحمل على التساؤل : هل يستطيع الفقيه الوصي حقا ان يمارس الاجتهاد اذا اراد تطوير بلده ومجتمعه بينما هو نتاج بيئة دينية مغرقة في التقليد وقد تكونت عقليته ونمط تفكيره من خلال حياته الطويلة في هذه البيئة مع قدر قليل من الاختلاط والاحتكاك بالمجتمع خارجها؟ ألا يؤدي هذا الوضع "بالوصي" الى البقاء ملتزما بمفاهيم بيئته ومحافظا على تقاليدها، وهل من الممكن تصور ثورة فكرية تعم هذه البيئة وتغيّر مفاهيمها واتجاهاتها؟

الاسلام والعلاقات الدولية

لا يوجد في القرآن والحديث شيء يتعلق بنظرية العلاقات الدولية بل جاءت هذه النظرية نتيجة اجتهادات في عصور لاحقة. وقد بُنيت هذه النظرية على اساس ان الجماعة الاسلامية وحدها هي موضوع النظام القانوني والاخلاقي في الاسلام، في حين ان الجماعات البشرية الاخرى يجب ان تكون في وضع الخضوع لذلك النظام.

وقد قسم الاسلام العالم الى قسمين : "دار الاسلام" التي تضم المناطق الاسلامية وغير الاسلامية الخاضعة للسيادة الاسلامية، "ودار الحرب" التي تشمل باقي العالم. تضم "دار الاسلام" جماعة المسلمين، واهل الكتاب الذين يدفعون الجزية ويتمتعون بحقوق مدنية جزئية. ودار الاسلام هي نظريا بحالة حرب دائمة مع باقي دول العالم ما دام هدف الاسلام النهائي هو السيطرة على البشرية بأجمعها. لكن حالة الحرب كان يمكن استبدالها باتفاقات هدنة مع الدول المعادية لا تزيد مدتها عادة عن عشر سنوات. فاذا حصل ذلك تتبدل حالة الحرب الى علاقة عدم اعتراف متبادل دون ان يعني ذلك مساواة

بين الفريقين. فاذا فاوضت الدولة الاسلامية دولة غير اسلامية فان ذلك لا يشكل اعترافا بها بل اقرارا ضمنيا ان سلطة واقعية اخرى قائمة لم يستطع الاسلام بعد ان يسيطر عليها.

فالدولة الاسلامية لم تعترف بدولة غيرها عندما كانت قوية.

ما بين "دار الاسلام" "ودار الحرب" ظهرت حالة وسطى سُمّيت "دار العهد" او "دار الصلح" وتعني ان يستمر حاكم غير مسلم بحكم بلده مع درجة من الاستقلال الداخلي تحت شكل من السيادة الاسلامية لقاء دفع مبلغ سنوي. وتختلف درجة الاستقلال بين بلد وآخر. مثال ذلك الاتفاق الذي جرى عام ٦٥٧ ما بين والي مصر ومملكة النوبة المسيحية، واتفاق معاوية مع امراء ارمينية.

في ايام العثمانيين كانت "دار العهد" مرحلة في ضم المقاطعات الاوروبية الى الدولة العثمانية. وفي زمن تقلص النفوذ العثماني اصبحت احيانا مرحلة على طريق الاستقلال الكامل عن السلاطين. ما بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر كثر عدد الدويلات الاسلامية المستقلة فاضطر المسلمون الى القبول بمبدأ "التعايش" وبمبدأ السيادة الاقليمية للدول. ثم برزت دولتان اسلاميتان رئيسيّتان هما الدولة العثمانية السنية، والدولة الصفوية الشيعية في ايران وكان ذلك اول انقسام دائم في العالم الاسلامي.

ثم بدأ ظهور الدول المسيحية القوية فاضطر المسلمون الى تعديل نظريتهم بشأن العلاقات الدولية فوقّع السلطان سليمان القانوني مع فرنسا سنة ١٥٢٥ اول وثيقة رسمية عن العلاقة السلمية بين دولة اسلامية ودولة مسيحية.

في هذا العصر تنتسب الدول الاسلامية الى الامم المتحدة مما يشكل اعترافا منها بالتساوي مع الدول الاخرى غير الاسلامية وتخليا عن النظرية السابقة.

احكام اهل الكتاب : الشروط العمرية

اهل الكتاب في الاسلام هم اليهود والنصارى والصابئة الذين يعيشون مع المسلمين في ظل الحكم الاسلامي. وقد ذكرنا في الفصول السابقة عددا

من الآيات المتعلقة بهم، بعضها يذكرهم بالرفق واللين، وبعضها يقسو عليهم ويجملهم مع الكفار والمشركين. فاذا اصروا على البقاء على دينهم بعد الفتح وجب ان يدفعوا "الجزية" وهي دليل على الطاعة والخضوع، وثمن كفّ الاذى عنهم، وبديلا عن الخدمة في الجيش. لذلك أُطلق عليهم لقب "اهل الذمة" لانهم في ذمة المسلمين اي تحت حمايتهم فلا يتساوون معهم بالحقوق والمقام. "والجزية" ضريبة سنوية يدفعها الرجل الذمي الى الدولة يتقرر مبلغها حسب وضعه المالي.

وقد تقررت مكانة اهل الذمة بآيتين الاولى موجهة الى المسلمين : "كنتم خير امة أخرجت للناس..." (١٢١) والثانية تبيّن كيفية التعامل مع اهل الكتاب وتقول : "قاتلوا... الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون". (١٢٢)

فالآية الاولى وضعت المسلمين في المقام الاعلى بين الشعوب، والآية الثانية فرضت الذل على اهل الكتاب بموجب الامر بأن يدفعوا الجزية "وهم صاغرون" اي عاجزون اذلاّء حسب تفسير البيضاوي الذي ذكرناه في الفصل الثاني. لكنه رغم ان الجزية تقتصر على اهل الكتاب وان القتل او الاسلام هو مصير الوثنيين، فان كثرة عدد هؤلاء في البلاد المفتوحة وحاجة المسلمين الى ابقائهم ينتجون ليدفعوا الضرائب لبيت المال، اضطرتهم لتوسيع دائرة الآية المتعلقة بالجزية فطبقوها على اتباع زرادشت وهم معظم سكان ايران، وعلى الوثنيين من البربر في شمال افريقيا، وعلى الاتراك في اواسط آسيا، وهكذا قامت الضرورة مقام النظرية القرآنية. (١٢٣)

جرى تنظيم العلاقة اليومية بين المسلمين واهل الذمة في مختلف نواحي الحياة ايام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الذي وضع قواعد هذا التعامل فيما عرف باسم "الشروط العمرية" وقد شرحها وفصّلها ابن القيّم الجوزية وهو تلميذ ابن تيميّة، (توفي سنة ١٢٥٠) في كتابه بالعنوان نفسه، وحقق الكتاب الدكتور الشيخ صبحي الصالح من اساتذة الجامعة اللبنانية في بيروت.

يقول الشيخ صبحي الصالح في مقدمة كتابه : "ان الباحث في احكام الشريعة الاسلامية في اهل الذمة يستطيع الوصول الى تلك الاحكام من أيسر السبل اذا جعل نصب عينيه الشروط العمرية وعدّها وثيقة تاريخية سواء

اصحّت نسبتها الى عمر ام لم تصح، لان كتاب هذه الشروط الذي تعددت رواياته لم يختلف مضمونه الا قليلا، وقد تلقاها الائمة بالقبول وانفذوا مضمونها وهي لم تهمل شيئا ذا علاقة بالذميين من قريب او بعيد".

مما يحمل على الاعتقاد بأن هذه الشروط من وضع الخليفة عمر انه اصدر كثيرا من الاوامر لولاته عن كيفية معاملة أهل الذمة ظهرت فيما بعد في كتاب "الشروط العمرية".

فصول الكتاب (١٢٤)

يتالف كتاب ابن القيّم الجوزية من ستة فصول تنظّم جميع نواحي الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية لاهل الذمة في الدولة الاسلامية وقد حظيت هذه الاحكام بالقبول من جمهرة الفقهاء، نذكرها فيما يلي باختصار :

الفصل الاول - احكام البِيَع والكنائس

تُقسم البلاد الاسلامية التي يسكنها أهل الذمة الى ثلاثة اقسام :

١ - بلاد انشأها المسلمون كالكوفة والبصرة وواسط وبغداد والقاهرة وغيرها.

هذه البلاد صافية للامام يستطيع ان يسمح لاهل الذمة بسكنها لكن لا يجوز ان يسمح لهم بأحداث بيعة او كنيسة. فقد قال الرسول : "لا خصاء في الاسلام ولا كنيسة". وكرر عمر بن الخطاب نفس الحديث.

٢ - البلاد التي فتحها المسلمون بالقوة.

هذه لا يجوز ان يُحدث فيها شيء من البيع والكنائس. اما ما كان فيها قبل الفتح فقد اختلف الفقهاء في وجوب بقائه او وجوب هدمه. وفصل الخطاب ان يقال : ان الامام يفعل في ذلك ما هو الاصلح للمسلمين، ويمنع ترميم ما تهدم من الكنائس، ولا يسمح ببناء كنائس جديدة.

٣ - البلاد التي احتلها المسلمون صلحا.

تتبع اوضاع الكنائس فيها شروط الصلح. قال ابن حنبل (٧٨٠ - ٨٥٥) "لهم ما صولحوا عليه فان كان في عهدهم ان يزيدوا في الكنائس فلهم وإلا لا.

وما انهدم فليس لهم ان يبنوه. وقد اختلف الفقهاء في جواز الترميم او عدم جوازه.

٢ ـ أحكام الابنية والدور : لا يجوز للنصراني او لليهودي ان يبني بيتا اعلى من بيوت المسلمين لان "الاسلام يعلو ولا يُعلى" ومنع التعلية من حقوق الدين لا من حقوق الجيران. اي ان موافقة الجيران لا قيمة لها اذا حصلت.

كذلك يُمنع أهل الذمة من صدور المجالس ويُلجَئون الى اضيق الطرق حسب الحديث : "اذا لقيتموهم في الطريق فاضطروهم الى اضيقه".

الفصل الثاني - شرح المنكر من اقوالهم وافعالهم

تنص هذه الاحكام على ان كل من ذكر الله او القرآن او النبي او الاسلام بما لا ينبغي، او فتن مسلما عن دينه، او قطع عليه الطريق، او اعان الاعداء بدلالة على المسلمين، او آوى جاسوسا، فقد نقض عهده وأُحِلّ دمه وماله.

ويكفي ان ينقض العهد بعض الذميين ليعاقَب الجميع. فان بني قَيْنقاع وبني النضير وبني قُريظة من اليهود لما نقض بعضهم العهد مع الرسول امر بحرب الجميع وان كان النقض وقع من بعضهم فقط.

وتنص هذه الاحكام ايضا انه لما كان الضرب بالناقوس او دق الاجراس هو شعار الكفر فقد وجب عليهم تركه. ولما كان الصليب من شعار الكفر الظاهرة فانهم ممنوعون من اظهاره لان ذلك بمنزلة اظهار الاصنام. ولا يجوز لهم اظهار اشارة الصليب على ابواب كنائسهم وظواهر حيطانها لكن لا بأس اذا نقشوا ذلك داخلها.

وكتب الخليفة عمر بن عبد العزيز الاموي لولاته (٧١٧ - ٧٢٠) : "امنعوا النصارى من رفع اصواتهم في كنائسهم فانها ابغض الاصوات الى الله وأولاها ان تُخفض".

وقد شملت الاحكام المراسم الدينية. فمُنع النصارى من اخراج باعوث (احتفال ديني بعد عيد الفصح) او شعانين (في الاحد السابق للفصح)، كما مُنعوا من رفع اصواتهم مع موتاهم لما فيه من اظهار شعار الكفر، وكذلك اظهار النيران اما بالشمع او السراج او المشاعل ونحوها فقد سمى الله

اعيادهم زورا والزور لا يجوز اظهاره بموجب الآية : "والذين لا يشهدون الزور"، كما لا يجوز للمسلمين ان يحضروا اعياد النصارى واليهود لانه اذا خالط اهل المعروف اهل المنكر بغير الانكار عليهم كانوا كالراضين به.

ورُوي عن النبي : "رب جنازة ملعونة ملعون من شهدها" وهي جنائز اهل الذمة (عن سعيد بن المسيّب) وقد بقيت هذه المعاملة مستمرة الى وقت غير بعيد ايام الخلافة العثمانية.

وقد مُنع أهل الذمة من حمل امواتهم في اسواق المسلمين او في الطرق الواسعة التي يمر بها المسلمون، وانما يقصدون المواضع الخالية التي لا يراهم فيها احد من المسلمين.

ومُنعوا من بيع الخمور ظاهرا لان ذلك من المنكر العظيم، وكذلك نقلها من موضع الى موضع في البلد وخارجها. ويجب حرق متاعهم وكسر اوانيهم التي تحتوي الخمر.

الفصل الثالث - ما يتعلق بالمظهر في الملبس والمركب وغيره

جاء في الحديث : "بُعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يُعبد الله لا يُشرك به، وجُعل الذل والصغار على من خالف امري، ومن تشبه بقوم فهو منهم". واستدل الفقهاء ان أهل الذمة اعظم خلافا لامر الرسول واعصاهم لقوله فهم أهلٌ ان يُذلّوا بالتغيير عن زي المسلمين الذين اعزّهم بطاعته. اما الذين عصوا الله ورسوله فاذلهم وصغرهم وحقرهم حتى تكون سِمَة الهوان عليهم فيُعرفوا بريهم.

وقد نهى الرسول ان يُبدأ اليهود والنصارى بالسلام. فاذا سلم احدهم "السلام عليكم" نجيبه "وعليكم".

كتب عمر بن الخطاب الى الامصار ان تُجَزّ نواصي أهل الذمة حتى يُعرفوا، والناصية هي مقدار ربع الرأس فاذا كان ربعه محلوقا كان عَلَما ظاهرا بأنه ذمي. ومَنَعهم من ركب الجياد لان ركوب الخيل عزّ وليسوا من أهله. ويُكلّفون ركب الحمير والبغال. ومن الكلام الشائع : ركب الحمار ذلّ، وركوب الخيل عزّ.

وامر عمر أهل الذمة ان لا يركب يهودي او نصراني ونساؤهم على

سروج فوق الحمير او البغال بل على برادع (وهي قطع من خيش او ما شابه توضع على ظهر الدابة تحت السرج) وتكون ارجلهم جميعا الى جانب واحد.

وكان اللباس موضوع العناية الشديدة في التفريق بين المسلمين وأهل الذمة ونجد الاشارة اليه في عهود المحتسبين كلهم. اما الفوارق الاخرى فقد تظهر احيانا. وقد تغيب احيانا اخرى.

وكان ينبغي على أهل الذمة ان يلبسوا الزنانير وان يشدوا المناطق ولا يلبسوا حريرا ولا خزا. ويجب ان تكون نعالهم مخالفة لنعال المسلمين ليحصل التمييز وعدم المشابهة في الزي الظاهر.

اما لون الملابس فالنصارى يختصون بالرمادي. اما الاصفر فيُمنعون من لبسه اذ كان الرسول يلبسه وكذلك الخلفاء بعده، وكان زي الانصار. واذا خرجت المرأة الذمية الى السوق فيجب ان يكون احد خفيها احمر حتى يُعرف انها ذمية.

تنفيذا للشروط العمرية نصح الامام ابو يوسف لهارون الرشيد في كتابه "الخراج" ان يامر بأن يجعل الذميون في اوساطهم زنانير مثل الخيط الغليظ، وبأن تكون قلانسهم مضربة الالوان. وأشار ابو يوسف الى ان عمر بن الخطاب كتب الى عماله ان يختموا رقاب أهل الذمة. وقد نفّذ هارون الرشيد النصيحة فامر بهدم الكنائس في الثغور وأمر أهل الذمة في بغداد بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم.

وكتب عمر بن الخطاب الى أهل الشام ان يمنعوا نساءهم من دخول الحمام مع الذميات.

ويُمنع أهل الذمة من تقلّد السيوف فان السيوف عزّ لاهلها وسلطان. كذلك يُمنعون من اتخاذ انواع السلاح وحملها على اختلاف اجناسها كالقوس والنشاب والرمح.

ولا يقوم المسلم للذمي، ولا يصدّره المجلس، ولا يقبّل يده، ولا يخاطبه بأخي وسيدي ووليّي ونحو ذلك لانه حرام قطعا. ولا يجوز ان يُسمّى الذمي سديدا ولا رشيدا ولا مؤيدا ولا صالحا ونحو ذلك. وان تسمى بشيء من هذه الاشياء لم يجز للمسلم ان يدعوه به، بل ان كان نصرانيا قال له : يا مسيحي، يا صليبي. ويقال لليهودي : يا يهودي، يا اسرائيلي.

الفصل الرابع - اسلوب التعامل المالي والتجاري

نهى الرسول عن مشاركة اليهودي والنصراني الا ان يكون البيع والشراء بيد المسلم. لان الذمي لا يتوقى مما يتوقى منه المسلم من العقود المحرّمة ويبيع الخمر والخنزير ويتناول الربا.

الفصل الخامس - احكام الضيافة

يجب على الذمي استضافة المسلم ثلاثة ايام يقدم فيها للمسلم من الطعام المعتاد، ولا يكلّف باللحم والدجاج.

الفضل السادس - عقوبات الذميين

جاء في القرآن : "وان نكثوا ايمانهم من بعد عهد وطعنوا في دينكم فقاتلوا ائمة الكفر انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون". لذلك فان من ضرب مسلما فقد خلع عهده لان عقد الذمة اقتضى ان يكونوا تحت الذلة والقهر، وان يكون المسلمون غالبين عليهم. فاذا ضربوا المسلمين كان ذلك نقضا لعهد الذمة.

وكل من شتم النبي او انتقصه، مسلما او كافرا، فعليه القتل اذا قامت عليه البيّنة. جاء في القرآن : "ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة". وروي عن علي بن ابي طالب "من سبّ نبيا فاقتلوه، ومن سبّ صحابيا فاجلدوه. ومن زنى بمسلمة فهو اولى بنقض العهد ويجب ان يُقتل. اما المراة فان كانت طاوعته اقيم عليها الحدّ، وان استكرهها فلا شيء عليها".

الذميون وولاية المسلمين

تُجمع كتب الفقه على انه لا يجوز لذمي ان يتولى منصبا يسوس فيه المسلمين وليست له حقوق سياسية في الدولة. وقد اوصى الفقهاء على مدى العصور بمنع استخدام غير المسلمين في وظائف سياسية او في ادارة شئون المسلمين. وقد استُخدم أهل الذمة باعداد كبيرة في مختلف دوائر الحكم لكن في وظائف ادارية وكتابية. وقد استخدم ابو موسى الاشعري عامل عمر

بن الخطاب على البصرة احد النصارى كاتبا له فقال عمر : قاتلك الله، ولّيت ذميا على المسلمين! فقال ابو موسى، يا أمير المؤمنين، لي كتابته، وله دينه. فقال عمر : لا أكرمهم اذ اهانهم الله، ولا ارفعهم اذ اذلهم الله ولا ادنيهم اذ اقصاهم الله! ويروون لعمر بن الخطاب ايضا هذه الجملة : لا تستعملوا اليهود والنصارى (في الوظائف) لانهم أهل رشا ولا يحلّ في الاسلام الرشا. لكن استبعاد أهل الذمة عن الوظائف لم يكن ممكنا لسببين : اولا، حاجة الدولة الاسلامية الى كفاءاتهم، وثانيا اطمئنان الخليفة الى ولائهم اذ لا مطمع لهم بالخلافة. لذلك نجد اسماء نصارى ويهود تولوا مناصب هامة خاصة في العهود التي اتّصفت بالتسامح والابتعاد عن التعصب الديني كالعهد الاموي، وبعض الخلفاء العباسيين، وعهد الفاطميين. لكن هذه التعيينات لم تكن تعني ابدا ان للذميين حق المشاركة في حكم بلدهم.

من ناحية اخرى، حافظ أهل الذمة على محاكمهم المذهبية التي كانت تفصل في النزاعات التي تتعلق بالاحوال الشخصية بين افراد الطائفة الواحدة كالزواج والطلاق والنفقة والنسب والوصية الخ. وهي الامور التي لا تهم المسلمين. وكانت هذه المحاكم تطبق القوانين الكنيسة. اما اذا حصل نزاع بين مسلم وذمي فالفصل فيه يعود الى القاضي المسلم.

وقد تساءلنا في الفصل الثاني حول الغموض الذي يحيط بوضع اهل الكتاب من يهود ونصارى بالنظر الى ان بعض الآيات تمدحهم ثم تنذرهم ثم تتهمهم بالكفر والشرك وتدعو الى قتالهم، الى ان صارت "الشروط العمرية" توضح ذلك وهي حسب رأي الشيخ صبحي الصالح "وثيقة تاريخية سواء اصحّت نسبتها الى عمر بن الخطاب ام لم تصح، وقد تلقاها الائمة بالقبول وانفذوا مضمونها في مختلف العهود".

هذه الوثيقة تنصّ في الفصل الثاني على "ان الضرب بالناقوس او الاجراس هو شعار الكفر، وان الصليب من شعائر الكفر الظاهرة فهم ممنوعون من اظهاره". وان "رفع اصواتهم في الجنائز هو اظهار لشعار الكفر. وكذلك اظهار النيران بالشمع او السروج او المشاعل في اعيادهم". فالكفر اذن هو الصفة التي تلازم اهل الكتاب حسب "الشروط العمرية".

هذا مختصر "للشروط العمرية" التي ارست القواعد لمعاملة النصارى

واليهود في الدولة الاسلامية منذ ايام الخليفة عمر بن الخطاب. وسواء صحت نسبتها اليه او وُضعت في عهد لاحق واسندت اليه، فقد رسخ في اذهان المسلمين لاجيال طويلة انهم طبقة متفوقة على اهل الذمة، وانه يجب دينا اذلال هؤلاء واهانتهم في الحياة اليومية.

وقد مارس المسلمون ذلك وهم لا يزالون اقلية عددية في البلاد المفتوحة اذ حافظت الكثرة الكبيرة من السكان على دياناتها في القرون الاولى بعد الفتح، ولم يعمّ الاسلام فيها الا بعد اجيال عديدة. وكان الاضطهاد المنظم والمستمر من العوامل الرئيسية التي دفعت بالناس الى الدخول في الاسلام هروبا من الاذلال.

من ذلك ان كثيرا من أهل الذمة اسلموا في بداية العهد الاموي تخلصا من الجزية فكتب الولاة الى الحجاج بن يوسف في العراق "ان الخراج قد انكسر لان أهل الذمة اسلموا ولحقوا بالامصار" (١٢٥) وجرى مثل ذلك على نطاق واسع في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز الاموي فنقصت واردات الدولة نقصا كبيرا.

وقد بقيت "الشروط العمرية" سارية المفعول في الخلافة الاسلامية يطبقها الخلفاء والسلاطين والولاة بدرجة متفاوتة من الشدة او التساهل إلى ان الغاها الخليفة العثماني عبد المجيد تحت ضغط الدول الاوروبية واصدر "الخط الهمايوني" لسنة ١٨٥٦ الذي اعلن لاول مرة منذ قيام الخلافة، مبدأ المساواة التامة بين المسلمين في الشئون السياسية والمدنية، وادان بصورة قاطعة في المادة الثامنة مبدأ اذلال غير المسلمين.

وبذلك أُهملت "الشروط العمرية" وبدأت مسيرة المساواة بين السكان على اختلاف مذاهبهم خلال القرن الماضي. وقد بلغت هذه المسيرة درجة عالية من النجاح في اكثر البلاد ذات الاكثرية الاسلامية عززتها دساتير نصّت على المساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات.

لكن يبقى التساؤل قائما : كيف سيكون وضع غير المسلمين في دولة اسلامية حديثة؟ يجيب على هذا السؤال جزئيا الاستاذ محمد اسد فيقول : "يجب ان نعترف منذ البداية بانه لا يمكن قيام دولة او دول اسلامية بالمعنى الذي اراده القرآن والسنّة بدون درجة من التمييز بين المسلمين وغير

المسلمين في الدولة. ان اية مخاتلة في هذا الموضوع تشكل غشا للمسلمين ولغير المسلمين على السواء. ويتعلق الخلاف اساسا بأنه لا يمكن الوثوق بغير المسلمين لاستلام مراكز حساسة في قيادة الدولة. يترافق مع هذا ضرورة النصّ في الدستور على ان اولئك الذين يتولون السلطة العليا في الدولة الاسلامية، والمسئولين عن تقرير سياستها وتنفيذها يجب ان يكونوا من المسلمين. (١٢٦)

فحوى ذلك ان دعاة الدولة الاسلامية يعترفون ان دولتهم ستتألف من فريقين مختلفين بالمنزلة : فريق المسلمين الذين لهم كل الحقوق وكل السلطة والسيادة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وفريق الاخرين الذين ليست لهم حقوق تداني حقوق الفريق الاول. وسيكون من المثير والمشوّق ان نراقب كيف سيمكن معالجة هذه المشكلة في عصر ثائر على التفرقة العنصرية والدينية، وعلى التمييز بين الرجال والنساء، وبين البيض والسود، الخ. وهل يمكن السير بعكس التيار العالمي الداعي باصرار وقوة الى المساواة بين البشر، والناقم على الدول والجماعات التي تتبنى سياسة التمييز والتفرقة؟

الخلاصة

لقد رجعنا في هذا الفصل الى الاصول في مسعانا لاستكشاف النظرية السياسية التي جاء بها الاسلام. وهو امر مهم يتناول مجتمعاتنا وجميع طوائفها الدينية ما دام الاعتقاد السائد يقول ان الاسلام "دين ودولة"، وما دام "الاسلاميون" يعلنون انهم سيعودون الى الاصول عند تنظيم مجتمعهم ودولتهم.

وقد استعرضنا في بحثنا اهداف الاسلام وطريقة تحقيقها بواسطة الجهاد، وتلاحم فكرة الدين والدولة، وقواعد نشر الاسلام، وكيفية معاملة المحاربين والمدنيين والاسرى، ومبدأ السيادة في الدولة الاسلامية، ومبادئ الحكم الوراثي والالهي، ومسألة الشورى التي بقيت فكرة طوباوية لم توضع يوما موضع التطبيق. وشرحنا ايضا اسلوب البيعة ومعناها، والدعوة الى طاعة الحاكم ووحدة الصف، ومقام العنف في التعامل السياسي، ثم الاحكام التي تنظم علاقة الدولة بالدول غير الاسلامية، وبرعاياها غير المسلمين.

هذه كلها عناصر تدخل في تكوين "النظرية السياسية الاسلامية" لكن ما افتقدناه في هذا الاستعراض هو غياب اي ذكر في الاصول الاسلامية وما تفرّع عنها من اجتهادات، لمبدأ الحريات السياسية التي يتمتع بها الافراد تجاه السلطة، واسلوب مشاركتهم بالحكم، ومبدأ "حكم القانون" أي أن يكون الحكام والمحكومون خاضعين بدرجة متساوية للقوانين النافذة، وهي امور تشكل العمود الفقري لأية نظرية سياسية من ايام ارسطو وافلاطون الى عصرنا هذا.

يضاف الى ذلك ان الاصول والاجتهادات اهملت كليا الجزء المكمّل والمنفّذ للنظرية وهو القواعد الدستورية والمؤسسات السياسية التي تحقق اهداف الدولة وتضبط مسيرة الحكم فتتفادى التغيير المفاجيء لان ازدهار الانسان والعمران يتطلب الركون الى اوضاع مستقرة مع استمرار التطور الهاديء للاحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية. فالقواعد الدستورية والمؤسسات السياسية في الدولة هي التي تبيّن :

١ - كيفية تنصيب الخليفة او الحاكم.

٢ - كيفية انتقال السلطة من الحاكم الى من يليه بصورة سلمية بموجب قواعد مقررة.

٣ - حريات المواطنين وحقوقهم السياسية، وكيفية ممارستها، وحدود هذه الحريات.

٤ - صلاحيات الحاكم وحدوده في ممارسة السلطة.

٥ - الضوابط التي تمنع الحاكم من الطغيان على الارواح والاموال والحريات

٦ - طريقة مشاركة المواطنين بالحكم.

ان جميع هذه التدابير والضمانات التي لا يمكن لاية دولة متمدنة ان تستقر وتزدهر بدونها، مفقودة في مبادئ الحكم الاسلامية وتُركت لتدبير الاجيال اللاحقة من المسلمين ليتكيفوا مع عصورهم، لكنهم لم يفعلوا. والى الآن لا يوجد في التعاليم الاسلامية نظام لتنصيب الخليفة او الحاكم، ثم لانتقال السلطة الى من يليه. وقد بقيت الشورى كلاما عاما مهملا لم تنظّم النظرية السياسية ممارستها. ولا تُعرف الصلاحيات السياسية التي يتمتع بها الحاكم وما هي حدودها. وليس هناك ضوابط واضحة تمنع الطغيان على الشعب.

والضوابط الوحيدة هي التي تتعلق بالدين والقائلة بان الخليفة او الحاكم يُعزل اذا خرج عن الدين وهذه ايضا بقيت كلاما عاما لا تنصّ على طريقة التنفيذ واسلوبه.

وقد اهتمت المباديء الاسلامية بتاكيد وجوب الطاعة للحاكم والحث عليها لكنها لم تذكر حريات المواطنين وحقوقهم بكلمة ولم تبيّن كيفية ضمان هذه الحقوق تجاه الحكام. بل ان لفظة الحرية نفسها ليس لها وجود في القرآن والحديث ولم ترد على ألسنة الفقهاء المتقدمين الا بمعناها الحقوقي فيما يتعلق بتحرير الرقيق. ومع غياب اللفظ غاب المعنى ايضاً في الثقافة العامة.

تجاه هذا النقص، نحاول ان نتابع تفتيشنا عن العناصر المفقودة في النظرية السياسية الاسلامية علّنا نجدها في الممارسات العملية للخلفاء والسلاطين، وتخريجات الفقهاء اللاحقين، مما يساعدنا على استكمال بحثنا.

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مراجع الفصل الثالث

منابع الدين ومبادىء الحكم

١ ـ حسن البنّا، مجموعة الرسائل، ص ١٨.
٢ ـ سورة الزخرف، ٢ .
٣ ـ سورة البروج، ٢١ـ٢٢ .
٤ ـ احمد أمين، فجر الاسلام، ج ١ ، ص ٢٧٣ و ٢٧٤.
٥ ـ سورة الزخرف، ٢.
٦ ـ سورة النحل، ١٠٢.
٧ ـ سورة الشعراء، ١٩١ و ١٩٢.
٨ ـ سورة النحل، ١٠١ .
٩ ـ احمد أمين، فجر الاسلام، ج ١، ص ٢٥٣ و ٢٣٦.
١٠ ـ حتي، فيليب، تاريخ العرب، ص ١٧٠ .
١١ ـ احمد أمين، فجر الاسلام، ج١، ص ٢٧٥.
١٢ ـ المصدر السابق، ص ٢٤٩.
١٣ ـ المصدر السابق، ص ٢٥٩ و ٢٦١.
١٤ ـ المصدر السابق، ص، ٢٦٧.
١٥ ـ المصدر السابق، ص ٢٥٢.
١٦ ـ المصدر السابق، ص ٢٥٦.
١٧ ـ المصدر السابق، ص ٢٥٦.
١٨ ـ سيّد قطب، معالم في الطريق، ص ٢٩.
١٩ ـ سيّد قطب، العدالة الاجتماعية، ص ٩٢.
٢٠ ـ حسن البنّا، سبق ذكره، ص ٢٥ـ٢٧.
٢١ ـ سعيد حوّى، دروس في العمل الاسلامي، ص ٤٠ و ١٠٧ و ١٠٨.
٢٢ ـ سورة آل عمران، ١٧ و ١٨.
٢٣ ـ البيضاوي، عبد الله ابن عمر، انوار التنزيل واسرار التاويل، ص ٦١.
٢٤ ـ سورة آل عمران، ٨٤.

٢٥ ـ سورة المائدة، ٢.

٢٦ ـ سورة الانفال، ٣٨، وسورة البقرة ١٩٢.

٢٧ ـ البيضاوي، سبق ذكره، ص ٢٤٠.

٢٨ ـ سورة التوبة، ٧٣.

٢٩ ـ سورة البقرة، ١٩٠.

٣٠ ـ سورة البقرة، ٢١٦.

٣١ ـ ابن تيمية، السياسة الشرعية، ص ١٢٤.

٣٢ ـ هيكل، سبق ذكره، ص ٣٢.

٣٣ ـ ابن تيميه، سبق ذكره، ص ١٢٥.

٣٤ ـ المصدر السابق، ص ١٣١.

٣٥ ـ المصدر السابق، ص ١١٧ و ١١٨.

٣٦ ـ المصدر السابق، ص ١٢٣.

٣٧ ـ هيكل، محمد حسين، سبق ذكره، ص ٢٥١ و ٢٥٢.

٣٨ ـ حسن البنا، سبق ذكره، ص ٢٤٣.

٣٩ ـ المصدر السابق، ص ٨٢.

٤٠ ـ سورة البقرة، ٢١٦.

٤١ ـ سورة البقرة، ٢٤٢.

٤٢ ـ سورة آل عمران، ١٦٨.

٤٣ ـ سورة النساء، ٧٢.

٤٤ ـ سورة الصف، ٢.

٤٥ ـ سورة التوبة، ١١٠.

٤٦ ـ فضل الله، محمد حسين، الاسلام ومنطق العنف، ص ١٨١ و ١٨٢.

٤٧ ـ البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٠٧.

٤٨ ـ حسن البنا، سبق ذكره، ص ٤٢.

٤٩ ـ احمد امين، سبق ذكره، ص ١٠٢ و ١٠٣.

٥٠ ـ ابن تيمية، سبق ذكره، ص ١٢٤.

٥١ ـ احمد امين، سبق ذكره، ص ج ١، ص ١٠٢.

٥٢ ـ ابن تيمية، سبق ذكره، ص ١٢٤ و ١٢٥.

٥٣ ـ احمد امين، سبق ذكره، ص ١٠٤- ١٠٨.
٥٤ ـ سورة الانفال، ٦٦.
٥٥ ـ احمد امين، سبق ذكره، ص ١٠٢.
٥٦ ـ جريدة الحياة، لندن، تاريخ ١١ أغسطس ١٩٨٩.
٥٧ ـ سورة المائدة، ٤١.
٥٨ ـ ابن تيمية، سبق ذكره، ص ٢٢-٢٧.
٥٩ ـ سيد قطب، العدالة الاجتماعية، ص ١٢٨.
٦٠ ـ المصدر السابق، ص ١٩٨.
٦١ ـ ابن تيمية، سبق ذكره، ص ٤٠.
٦٢ ـ سفر العدد، الاصحاح ٣١، ٦-١٨.
٦٣ ـ سفر يشوع، الاصحاح الاول، ١-٦.
٦٤ ـ سفر يشوع، الاصحاح السادس، ١-٢٤.
٦٥ ـ سفر يشوع، الاصحاح العاشر، ٢٨-٣١.
٦٦ ـ سورة آل عمران، ٢٥.
٦٧ ـ ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٠٧ و ٢٢٢.
٦٨ ـ ابن تيمية، السياسة الشرعية، ص ١٦٢.
٦٩ ـ حسن البنا، سبق ذكره، ص ١٢٦.
٧٠ ـ علي عبد الرازق، سبق ذكره، ص ٧٠-٧٣ و ٧٩-٤٣ و ١٠٢.
٧١ ـ المصدر السابق، ص ٦٩ و ١٩٩ و ٢٠٠.
٧٢ ـ ابن الاثير، سبق ذكره، ج ٣، ص ٤١.
٧٣ ـ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٢، ص ١٧٩.
٧٤ ـ عبد الرازق، علي، سبق ذكره، ص ١٩.
٧٥ ـ سورة الشورى، ٣٦.
٧٦ ـ سورة آل عمران، ١٥٨.
٧٧ ـ طه حسين، علي وبنوه، ص ٣١.
٧٨ ـ الخربوطلي، علي حسين، الاسلام والخلافة، ص ٤٤ و ٧٣.
٧٩ ـ القاسمي، ظافر، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ، ج ١، ص ١٦٨.
٨٠ ـ المصدر السابق، ص ٢٢٢-٢٢٦.

٨١ ـ ابن تيمية، منهاج السنّة، ج ١، ص ١٤٢.

٨٢ ـ العجلاني، منير، عبقرية الاسلام في اصول الحكم، ص ١٠٧.

٨٣ ـ ابن خلدون، المقدمة، ج ١، ص ٢٤٨-٢٥٧.

٨٤ ـ سورة النساء، ٥٨.

٨٥ ـ سورة الانفال، ٤٥.

٨٦ ـ النفيسي، عبد الله، عندما يحكم الاسلام، ص ١٦٢.

٨٧ ـ العجلاني، منير، سبق ذكره، ص ١٢٦.

٨٨ ـ محمد اسد، الطريق الى مكة، ص ١٦١ (بالانكليزية).

٨٩ ـ سورة التوبة، ١١٠.

٩٠ ـ البنآ، حسن، الرسائل، ص ١٦٨.

٩١ ـ سورة التوبة، ٤.

٩٢ ـ سورة التوبة، ١٢٢.

٩٣ ـ سورة التوبة، ٢٨.

٩٤ ـ سورة التوبة، ١٢.

٩٥ ـ سورة البقرة، ١٩٠.

٩٦ ـ سورة النساء، ٨٨.

٩٧ ـ سورة الانقال، ٦٤.

٩٨ ـ سورة النساء، ٧٥.

٩٩ ـ سورة الصف، ٣.

١٠٠ ـ سورة المائدة، ٣٢.

١٠١ ـ سورة البقرة، ١٨٩.

١٠٢ ـ سورة الشورى، ٤٧.

١٠٣ ـ سورة المائدة، ٩٨.

١٠٤ ـ سورة يونس، ٩٨.

١٠٥ ـ سورة البقرة، ٢٥٥.

١٠٦ ـ سورة الكهف، ٢٨.

١٠٧ ـ سورة النحل، ١٢٤.

١٠٨ ـ سورة العنكبوت، ٤٥.

١٠٩ ـ فضل الله، محمد حسين، الاسلام ومنطق القوة، ص ١٨٥.

١١٠ ـ عبد الرازق، علي، سبق ذكره، ص ٦٨.

١١١ ـ القاسمي، ظافر، سبق ذكره، ح ١، ص ٢٢٢-٢٣٦.

١١٢ ـ احمد امين، ضحى الاسلام، ح ٣، ص ٢١١.

١١٣ ـ محسن الامين، اعيان الشيعة، ج ١، قسم ١، ص ٦.

١١٤ ـ احمد امين، ضحى الاسلام، ج ٣، ص ٢١٢.

١١٥ ـ المصدر السابق، ص ٢٧٦.

١١٦ ـ حتي، فيليب، ص ٥٣.

١١٧ ـ المصدر السابق، ص ٥٢٦.

١١٨ ـ احمد امين، فجر الاسلام، ج ١، ص ٢١٨-٢٢٦.

١١٩ ـ احمد امين، ضحى الاسلام، ج ٣، ص ٢٣٦.

١٢٠ ـ المصدر السابق، ص ٢٤٦-٢٤٨.

١٢١ ـ سورة آل عمران، ١٠٩.

١٢٢ ـ سورة التوبة، ٢٨.

١٢٣ ـ حتي، فيليب، تاريخ العرب، ص ١٩٧.

١٢٤ ـ ابن قيّم الجوزية، شرح الشروط العمرية، ص ١٠٦-١٤٠.

١٢٥ ـ احمد امين، ضحى الاسلام، ج ١، ص ٢٦٣.

١٢٦ ـ محمد أسد، مبادئ الدولة والحكم في الاسلام، ص ٤٠ و ٤١ (بالانكليزية).



الفصل الرابع

السياسة في عهد الخلفاء الراشدين
٦٣٢ ــ ٦٦١

المقدمة

استعرضنا في الفصل السابق مبادىء الحكم الاسلامي كما وردت في القرآن والسنّة وهي المبادىء التي يرغب بعض المسلمين بتطبيقها في مجتمعاتنا. ويعتبر الكثيرون منهم ان هذه المبادىء لم تُطبّق بعد النبوة الا في عهد الخلفاء الراشدين (والرشد هو الهداية ضد الغيّ، والاستقامة على طريق الحق)، وهذا العهد هو المثال الذي يريدون الاقتداء به. وسنبحث الى أيّة درجة يتفق تصوّرهم لهذا العهد مع حقيقته الواقعية حسبما وصفها علماء مسلمون كانوا قريبين من ذلك الزمن.

وقع على عاتق هؤلاء الخلفاء مسؤولية بناء الدولة الاسلامية بعد وفاة النبي، وتثبيت اركانها، ونشر الاسلام في العالم، وهي كلّها شئون سياسية لم تسبقْ لهم خبرة بها. وسنبحث في هذا الفصل ما اذا كانوا وضعوا الاسس التي تصلح لبنيان دولة تكون نموذجاً للاجيال اللاحقة.

توفّي النبي ولم يترك ايّ دليل او اشارة تُهدي المسلمين الى طراز الحكم المقبل والى من سيتولاه. ولم يكن في القرآن او الحديث ما يبيّن ذلك عدا الآيتين اللتين تذكران مبدأ الشورى دون اي تفصيل لطريقة ممارسة المبدأ ولشكل الحكم الذي سينشأ عن تطبيقه. (١)

وكان النبي قد مارس بعد الهجرة الى المدينة جميع شئون الحكم فكان الآمر، والمفسّر للآيات، ومنفّذ احكام الشريعة، والقاضي بين الناس، ومدبّر

الغزوات لنشر الدين وقائدها احياناً، وموزّع الغنائم، ومراسل الملوك، فجمع في شخصه ما يُسمّى هذه الايام السلطة الروحية والقضائية والتنفيذية والادارية والعسكرية. والمالية والشئون الخارجية. ولم يُعرف انه شكّل جهازا استشاريا تنفيذاً لآيتي الشورى وان كان يستشير بعض من حوله احيانا، او انه أقام مؤسسات سياسية او ادارية تساعده في مهماته وتكون قدوة يحتذيها خلفاؤه.

تجاه الفراغ الذي احدثته الوفاة، وانعدام التوجيه النبوي، وعدم وجود أية مؤسسة سياسية او جهاز اداري يتولّى اعمال الدولة لبينما تتم تولية حاكم جديد، تعرّض المسلمون لأزمة خطيرة.

خلال مرض النبي الذي دام شهرا او اكثر ادرك القريبون منه ان وفاته وشيكة. فابتدأت الافكار تجول والمساعي تُبذل في من يتولّى السلطة وقيادة المسلمين بعده فقد اصبح للاسلام وجه سياسي بالاضافة الى الوجه الديني. والزعامة السياسية سلطة وحكم وجاه ومال ومنافع، فمن الطبيعي ان تتّجه اليها الانظار وان يكثر الراغبون.

وقد رأينا العباس عم النبي من بني هاشم يطلب من علي صهر النبي وابن عمه ان يساله لمن سيكون الامر بعده. وكان الهاشميون يعتبرون انهم احق الناس بالخلافة لقرابتهم من النبي، واقربهم اليه علي، وحجتهم ان اقرب الناس الى النبي اولى ان يخلفوه وان بيت هاشم خير من بيت ابي قحافة (ابي بكر).

وكان تنافسٌ حادّ بين المهاجرين والانصار.

وكان في الصحابة من يرى نفسه احق من غيره كطلحة ابن عبيد الله، والزبير ابن العوام، وعبد الرحمن ابن عوف، وعثمان ابن عفان، وسعد ابن ابي وقاص.

وكان الرسول قد قال قبل وفاته ببضعة ايام: ايها الناس اني راضي عن ابي بكر وعمر وعلي وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن ابن عوف فاعرفوا ذلك. (٢) ولم يذكر بينهم احدا من الانصار.

وكان بنو امية يطمحون الى لعب دور هام معتمدين على زعامتهم المكّية ومكانتهم المالية والتجارية وصلاتهم القوية بالقبائل.

برزت جميع هذه الطموحات والمطامع والمنافسات ولعبت دورا في اختيار

الخليفة الاول في الاسلام.

خلافة ابي بكر ٦٣٢_ ٦٣٤

ما كاد يتاكد الانصار من دخول النبي في طور الاحتضار حتى سارعوا الى الاجتماع بزعامة سعد ابن عبادة كبير الخزرج، في سقيفة بني ساعدة، ليضمنوا للانصار زعامة الاسلام، والانصار كثرة، و"المدينة" مدينتهم في حين ان المهاجرين من قريش ما زالوا قلّة غريبة وضعيفة.

دار التنافس بين الانصار والمهاجرين على قضية مصيرية : من الذي سيتولى امر الامة الاسلامية منهم، وهل سيبقى اهل المدينة تحت سيطرة المهاجرين من مكة كما كانوا ايام النبي. ان سرعة تجمع الانصار "والنبي لا يزال مسجّى في فراشه ام يُفرغ من امره بعد وقد اغلق اهله الباب دونه" يدل على اهتمامهم وتحفّزهم.

خشي المهاجرون بأس الانصار فلزموا بيوتهم، ولجأ علي والزبير وعدد من بني هاشم الى بيت فاطمة لا يحركون ساكنا. وحدُه ابو بكر اخذ المبادرة فترك بيت النبي واصطحب معه عمر ابن الخطاب وأبا عبيدة ابن الجراح وهرعوا الى سقيفة بني ساعدة ليثبتوا حق المهاجرين.

خطب سعد بن عبادة في الانصار فقال : يا معشر الانصار لكم سابقة في الدين وفضيلة في الاسلام ليست لاحد من العرب. ان محمدا لبث في قومه (قريش) بضع عشرة سنة يدعوهم الى عبادة الرحمن وخلع الاوثان فما آمن به الا القليل، وما كانوا يقدرون على إعزاز دينه ولا على دفع ضيم عنه حتى رزقكم الله الايمان به وبرسوله فكنتم اشد الناس على عدوه حتى استقامت العرب لامر الله طوعا او كرها، فدانت لرسوله بأسيافكم ولكم ان تستبدّوا بهذا الامر دون الناس فانه لكم دونهم. فأجابه الجمع ان قد وُفقت واصبت الرأي ونحن نوليك هذا الامر.

وخطب ابو بكر في القوم فمدح الانصار واثنى عليهم واقترح ان يكون الامراء من قريش والوزراء من الانصار ووعدهم "ان لا تُفاوتون بمشورة ولا تُقضى دونكم الامور" (اي ان الرئاسة تبقى لقريش).

فقام الحبّاب ابن المنذر ابن الجموح من الانصار وطلب ان يكون من

الانصار امير ومن المهاجرين امير (اي ان يتناوب الانصار والمهاجرون على الرئاسة). فقال عمر بن الخطاب : هيهات لا يجتمع اثنان في قرن. والله لا ترضى العرب ان تؤمّركم ونبيّنا من غيركم ولنا بذلك الحجة الظاهرة على من ينازعنا سلطان محمد ونحن أولياؤه وعشيرته.

اشتد الخصام بين الفريقين فاحتجّت قريش على الانصار بقول الرسول "الائمة من قريش"، وقوله "لا يزال الامر في هذا الحي من قريش".

وقال ابو بكر ان العرب لا تعرف هذا الامر (الرئاسة) الا لهذا الحيّ من قريش وهم اشرف العرب دارا ونسبا. ثم كشف ابو بكر عن شدة رغبته بالخلافة فذكّر الحضور بأن النبي ولاّه امارة الحج وارسله اثناء مرضه يصلي بالناس في المسجد مما يعني تقديمه على غيره من الصحابة. ولم يقتنع الانصار بهذا الكلام فارتفعت الاصوات وكثر اللغط.

واختلفت نوايا الأوس والخزرج في الاجتماع فلم يتحمس الأوس لتولي سعد بن عبادة الخلافة وهو رئيس الخزرج فضعف موقف الانصار.

وبدأ توزيع الادوار بين "الثلاثي" الذي ذكره هنري لامانس، اي ابي بكر وعمر وابي عبيده ابن الجراح. يقول عمر في وصفه لما حدث :خاطب ابو بكر المجتمعين قائلا لقد رضيت لكم احد هذين الرجلين فبايعوا ايهما شئتم واخذ بيدي وبيد ابي عبيدة. فحدثت جلبة. فصحت بابي بكر ابسط يدك لابايعك ففعل، فبايعته وتبعنا بعض الحضور، ثم وثبنا على سعد بن عبادة وهو مريض فوطأناه فقد خشينا ان فارقنا القوم ولم تكن بيعة ان يُحدثوا بعدنا بيعة فاما ان نتابعهم او نخالفهم فيكون فساد. (٢) وانتهى اجتماع السقيفة ببيعة جزئية لابي بكر. وقد أعلن ابو بكر خليفة والنبي لا يزال في بيته لم يُدفن بعد فقد تقدم الاهتمام بالخلافة على الاهتمام بالدفن حتى من أخلص المقرّبين الى النبي.

يُلاحظ في هذا النقاش بين المهاجرين والانصار ان المجتمعين لم يهتموا باختيار من هو اصلح واكفأ لخلافة النبي من بين المسلمين، ولم يبحثوا صفات ابي بكر وسعد بن عبادة الذي اختاره الانصار، ليفاضلوا بينهما، بل تعصّب كل فريق لجماعته اي لجأوا الى العصبيّة فتغلب المهاجرون على الانصار واستبدّوا بالخلافة لقريش.

المعارضة لبيعة ابي بكر

امتنع عن البيعة جميع بني هاشم، وجميع بني امية. وهذان الفرعان هما اقوى فروع قريش ومنهم علي بن ابي طالب صهر الرسول، والعباس ابن عبد المطلب عم النبي، وعبده الله ابن الزبير وآل سفيان، وغيرهم.

وكان ابو سفيان وابن الزبير اشد المعارضين لتولية ابي بكر. فيروي الطبري (٤) ان عمر بن الخطاب انطلق الى منزل علي وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين فقال : "والله لأحرقنّ عليكم البيت او لتخرجنّ الى البيعة". وفي رواية اخرى انه عندما بايع الناس ابا بكر تخلّف علي والزبير في بيت فاطمة فانطلق اليهما عمر وجاء بهما تَعِبا وقال "لتبايعان وانتما طائعان او تبايعان وانتما كارهان" فبايعا. (٥)

أما سعدُ بن عبادة زعيم الخزرج فقال : "والله لا ابايع حتى ارميكم بما في كنانتي من نبلي، واخضب سنان رمحي، واضربكم بسيفي ما ملكت يدي، واقاتلكم باهل بيتي، ومن أطاعني من قومي. وبقي لا يصلي بصلاتهم ولا يحج ولا يفيض بافاضتهم حتى هلك ابو بكر". (٦) وعندما تولى الخلافة عمر بن الخطاب عاقب سعداً على منافسته لابي بكر وطرده من المدينة الى الرملة في فلسطين.

كان ابو سفيان غائبا عند اجتماع سقيفة بني ساعدة. فلما اجتمع الناس على بيعة ابي بكر اقبل وهو يقول : "اني لارى عجاجة لا يطفئها الا الدم. أيا آل عبد مناف فيم ابو بكر من اموركم! اين المستضعفان، اين الاذلاّن، علي والعباس. ما بال هذا الامر في اقل حي من قريش؟ (معرّضا بنسب ابي بكر) ثم قال لعلي ابسط يدك ابايعك فوالله ان شئت لاملأنها عليه (على ابي بكر) خيلا ورجلا. فأبى علي. فتمثل ابوسفيان بشعر المتلمّس : (٧)

ان الهوانَ حمارُ الاهل يعرفه   والحرّ يُنكره والرُسْلة الأُجُدُ
ولا يُقيم على ضيم يُراد به   الا الاذلاّن عيرُ الحيّ والوتدُ
هذا على خسْف مربوطٌ برمّته   وذا يُشَجّ فلا يبكي له أحدُ

في اليوم الثاني لاجتماع السقيفة جاء ابو بكر الى المسجد فاجلسه عمر

على منبر الرسول وكان يده اليمنى طيلة مدة خلافته. ثم تقدم الناس وبايعوه بيعة عامة. خطب ابو بكر فقال : ايها الناس، قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم. فان أحسنت فأعينوني، وان اسأت فقوّموني. الصدق امانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه، والقوي ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فاذا عصيت فلا طاعة لي عليكم. (٨)

استقر الامر بعدها لابي بكر حتى وفاته وكانت ولايته سنتين وثلاثة اشهر. يلاحظ فيما رُوي عن اجتماع السقيفة والخطب التي قيلت فيه، صناعة لفظية وبلاغة كلامية يصعب ان تصدر ارتجالا اثناء احتدام المناقشة في امر خطير. ويجب ان نتذكر ان رواية الاجتماع دُوِنت بعد زمن طويل من حصوله.

حروب الردّة

سار ابو بكر على خطى النبي ما امكنه ذلك فحكم حكما مطلقا مستعينا بعمر بن الخطاب وبابي عبيدة ابن الجراح . ولم يفِ بوعده للانصار بان "منا الامراء ومنكم الوزراء" فلم يعيّن منهم وزيرا ولا مستشارا.

كان لحزم ابي بكر فضل كبير في تطويق الازمة ودرء خطر الانشقاق بين المسلمين وكان بحاجة لحزم مماثل في التغلب على عصيان القبائل فيما عُرف بحروب الردة.

يقول الشيخ خالد محمد خالد: (٩)

بعد وفاة النبي انشقت الارض فجأة عن كل الموتورين بالاسلام.

وقف طُليحة الأسدي يعلن نبوّته وتبعه الكثير من قبائل اسد وغطفان وطي وعبس وذبيان.

ثم اشتعلت نيران الردّة في بني عامر وهو ازن وسليم.

ثم شبّت في بني تميم وجاءتهم المرأة "سجاح" تدّعي النبوة.

ثم تمرد اهل اليمامة رافعين لواء مُسَيلَمة الذي ادّعى النبوة ايضا.

وسرت العدوى الى اهل البحرين وعُمان والمهرة وصاروا كلهم يتغنّون ببيت شعر نسبه صاحب الاغاني الى الحطيئة :

اطَعنا رسول الله ما دام بيننا فيا لعباد الله ما لابي بكر
ايورثوها بكرا اذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

ان ادعاء النبوّة من بعض زعماء المرتدين يتضمن ما هو اخطر من العصيان السياسي. فالذي يتلو آيات من صنعه يدّعى ان بلاغتها تفوق بلاغة القرآن انما ينكر ان يكون القرآن كلام الله وبذلك ينقض الاسلام من اساسه فالانسان لا يستطيع ان يباري الخالق في البلاغة او في اي موضوع اخر لكنه يستطيع ان يباري بلاغة القرآن اذا اعتبره كلام محمد لا وحيا من الله وهذا نقيض الرسالة الاسلامية لذلك كان لا بد من اخضاع المرتدين.

صمّم ابو بكر على استعمال القوة وخالفه في ذلك كل الصحابة حتى عمر بن الخطاب وزيره ومستشاره فلم يعبأ وانفذ رأيه. ارسل القوات تحارب المرتدّين وكانت اهم الحملات بقيادة خالد بن الوليد. وخيّر المرتدّين بين العودة الى الاسلام ودفع الزكاة او القتال وما يستتبعه من قتل وسبي وغنيمة. وقد قاتلت قبائل كثيرة ثم خضعت وانتهت حروب الردة قبل وفاة ابي بكر وتوحدت الجزيرة بسيف خالد بن الوليد.

تابع ابو بكر سياسة النبي في تحويل نشاط القبائل الحربي الى خارج الجزيرة فأرسل ثلاث فرق تتألف كل منها من نحو ثلاثة الاف مقاتل لتبدأ عمليات حربية في جنوب وجنوب شرق سوريا لكنه توفي سنة ٦٣٤ قبل ان تصل هذه الحملات الى غايتها.

ابو بكر يضمن الخلافة لعمر

لما احسّ ابو بكر بدنو الاجل كان همّه الاول ان يضمن الخلافة من بعده لعمر بن الخطاب حليفه في الثلاثية وان يُقصي عليا بن ابي طالب. فذهب رأسا الى الغرض وترك الشورى جانبا واهمل الصحابة واشرف على الناس وهو يقول : أترضون بمن استخلف عليكم فاني والله ما ألوْت من جهد الرأي ولا ولّيت ذا قرابة واني قد استخلفت عمرا ابن الخطاب فاسمعوا واطيعوا. فقالوا سمعنا واطعنا. (١٠)

فمن هم الذين سمعوا واطاعوا، وكم كان عددهم، ومن كانوا يمثلون؟

لقد توجه ابو بكر في كلامه الى بعض اهل المدينة، والارجح ان الانصار، وهم اكثر اهل المدينة عددا، لم يكونوا من الذين سمعوا واطاعوا نظرا لما حدث بينهم وبين عمر في سقيفة بني ساعدة. ولم يقف ابو بكر على رأي اهل مكة والطائف والبادية في استخلافه وانحصرت البيعة في بعض اهل المدينة.

كذلك لم يحصل على موافقة شاملة من الصحابة المقيمين في المدينة فقد جاهر كبارهم بمعارضتهم لاستخلاف عمر وعلى رأسهم بنو هاشم ومنهم علي بن ابي طالب، والعباس عمّ النبي، وبنو أميّة، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام.

ويبدو ان ابا بكر مضى بتنفيذ ما عزم عليه دون التفات الى ضرورة الشورى. وقد حاول الفقهاء فيما بعد ان يضعوا للعهد بالخلافة او للاستخلاف قاعدة شرعية تفسّره وتبرّره شرحها الاستاذ ظافر القاسمي بما يلي : الاستخلاف او العهد في الخلافة هو ان يقترح الخليفة او يرشح شخصا يتولى الخلافة بعده، وللمسلمين، نظريا، ان يقبلوا الاختيار او يرفضوه حين البيعة. (١١١) ولم يحدث في التاريخ الاسلامي ان رفض المسلمون حين البيعة شخصا استخلفه خليفة سابق بحيث بقي الاستخلاف او العهد، منذ ما استنّه ابو بكر، هو والتعيين سواء من ناحية عملية.

العبَر من خلافة ابي بكر

ما هي الدروس والعبر المستفادة من خلافة ابي بكر فيما يتصل بالمؤسسات السياسية وامور الحكم في الاسلام؟

لقد توفي النبي ولم يضع نظام حكم للمسلمين. وتوفي الخليفة الاول ولم يولي الموضوع عنايته وانفرد باختيار خليفته.

لكنه اذا لم يترك نظاما سياسيا فقد ترك اسلوبا في معالجة المشاكل السياسية يتمثل بوضوح الهدف والمبادرة في العمل والحزم والعزم مع ليونة ورقة في التنفيذ حسب الظروف.

فقد بادر بمواجهة الانصار في سقيفة بني ساعدة في الوقت الذي لجأ اكثر الصحابة الهاجرين الى منازلهم خوفا منهم. وخاطب الانصار بليونة ورقة، وتمكن من احداث انقسام بين الأوس والخزرج، ثم لعب دور البيعة بمهارة

،فاقترح على المجتمعين تولية عمر او ابي عبيدة فاذا بعمر يبايعه ويتبعه الاخرون.

مع ذلك ظهر الاكراه والارغام في السياسة في عهده فقد هجم عمر ابن الخطاب على سعد ابن عبادة في سقيفة بني ساعدة وهو مريض فوطأه حتى يجبره على الاذعان وكاد يقتله. ولما تخلف علي والزبير وطلحة وعدد من المهاجرين عن البيعة وهم من كبار الصحابة، انطلق اليهم عمر وجاء بهم الى البيعة قسرا. ولم يغيب الاكراه والارغام في انتخاب الخليفة في اي عهد لاحق.

وتابع ابو بكر سياسة الرسول في نشر الاسلام بالقوة فاعاد القبائل التي ارتدت الى الاسلام قهرا وبدأ الحملات على بلاد الشام.

في اجتماع سقيفة بني ساعدة ثبّت ابو بكر الامارة، أي السيطرة السياسية لقريش الى الابد ومنعها عن الانصار بموجب الشعار : "منا الامراء ومنكم الوزراء". ثم خالف هذا الشعار والوعد فلم يعيّن احدا من الانصار وزيرا او مستشارا كما قلنا. يقول الدكتور طه حسين : "لم تكد تمضي ساعات على وفاة النبي حتى عرف الاسلام نوعا جديدا من الارستقراطية يتصل بالحكم نفسه اتصالا شديدا. منذ ذلك الوقت نشأت في الاسلام ارستقراطية قوامها القرب من الرسول فاصبح الحكم الى قريش وحدها واصبحت المشورة الى الانصار، والمشورة حق عام لكل مسلم. فلقريش ان تحكم وللانصار وغيرهم من العرب ان يشيروا وليس لهم ان يحكموا". (١٢)

يقول الشيخ عبد الرازق في خلافة ابي بكر : "مع ابي بكر قامت دولة عربية على اساس دعوة دينية... مكّنت للعرب في الارض فاستعمروها استعمارا، واستغلوها استغلالا شان الامم القوية التي تتمكن من الفتح والاستعمار". (١٢)

خلافة عمر ابن الخطاب ٦٣٤ـ ٦٤٤

في خلافة عمر تحول الاسلام من جماعة دينية تسكن بلادا منعزلة الى قوة سياسية مؤسّسة على الدين تحكم ارجاء واسعة من العالم المتمدن في ذلك العصر.

يقول الاستاذ احمد امين عن شخصية عمر: لا نجد لعمر ابن الخطاب

كثيرا من الاقوال في تفسير القرآن كما لا نجده مكثرا في جمع الحديث لكن ميزته الكبرى قوته الفطرية في معرفة العدل والظلم فعقله عقل قضائي. (١٤)

ويقول الدكتور طه حسين :"لم يرضَ الناس عن تجربة عمر في ايامه فقد كانوا يهابونه ويطيعه اكثرهم خوفا ورهبا..." (١٥)

اشتهر عمر بالقدرة على التنظيم فوضع اللوائح باسماء المستحقين من الصحابة ومقدار ما يستحق لكل منهم بالنسبة لمكانتهم في الاسلام، ومنزلتهم وقرابتهم من النبي. وكان عمر يرى ويعلن ان المال الذي يأتي من الغنائم ومن الفيء ومن جباية الجزية والخراج هو ملك المسلمين جميعا. (١٦)

السياسة العامة للخليفة عمر

في سياسته العامة ابرز عمر العنصر العربي وقدمه على غيره فشكّل العرب طبقة متفوقة على غيرها. واعطى المسلمين غير العرب مكانة تعلو على غير المسلمين وان لم تداني مكانة العرب المسلمين.

وكانت سياسة عمر تهدف الى جعل الامة الاسلامية جيشا من الجند المجاهدين لفتح البلاد ونشر الاسلام. ولم تكن النية متجهة في البداية الى ان يسكن العرب في البلاد المفتوحة فقد منعهم عمر من ان يملكوا او يشتروا اراضي وعقارات فيها واراد لهم ان يبقوا جيوش احتلال يعيشون على موارد البلاد ويجبون الضرائب والفيوء من سكانها ويرسلونها الى بيت المال في المدينة لتوزّع على اصحاب الاستحقاق. لذلك بُنيَت للجند مدن خاصة اقاموا فيها ولم يختلطوا بالسكان المحليين فنشأت الكوفة والبصرة في العراق سنة ٦٣٠ ومثلها الفسطاط في مصر سنة ٦٤٠ ومدن الجابية وحمص وقنّسرين في بلاد الشام. وكان للجند من كل قبيلة حيّ خاص ضمن المدينة ثم تطورت هذه المعسكرات بعد زوال المنع فاصبحت مدنا كبيرة لعبت بعضها كالبصرة والكوفة دورا سياسيا هاما بعد وقت غيرطويل.

عيّن عمر ولاة على الاقاليم كانوا مسؤولين تجاهه مباشرة وكانت وظيفتهم الاساسية صيانة الحكم الاسلامي وتطبيق شرائع الدين وتحصيل الضرائب وارسالها مع الغنائم الى العاصمة. اما ادارة شئون الرعية فبقيت في ايدي الموظفين من اهل البلاد. ثم امر ان تأتي جميع الموارد من البلاد

المفتوحة اي الغنائم والفيؤ والضرائب الى المدينة ثم توزع هناك، والضرائب هي الخراج والجزية.

في القرن الاول هجري (السابع ميلادي) عندما كان المسلمون ممنوعين من استملاك الاراضي والعقارات في البلاد المفتوحة كانت الجزية تعني الضريبة على الارض. فلما سُمح للمسلمين بامتلاك الاراضي اصبح الخراج ضريبة على الارض يدفعها كل مالك في حين اصبحت الجزية ضريبة شخصية على الذمّيين بمبلغ سنوي مقطوع.

اتخذ عمر حين تولى الخلافة لقب "امير المؤمنين" فاصبح اللقب الرسمي لجميع الخلفاء بعده. وكان اول ما استهل به عهده انه عمد الى اقالة القائد خالد بن الوليد من قيادة جيوش الشام واستبداله بابي عبيدة ابن الجراح وقال "لا يلي لي خالد عملا بعد الان"، واقام خالد بعدها في بلاد الشام ودفن حين وفاته في حمص. يُقال في سبب عزل خالد ابن الوليد الذي كان بطل حروب الردة وفتوحات الشام محبوبا من الجند والسكان لقيادته البارعة والموفقة، ان الخليفة عمر وجده لذلك منافسا خطرا لابي عبيدة كخلف لعمر مما قد يفسد "الخطة الثلاثية" فكان لا بد من ازاحته. ودأب عمر بعد ذلك على الاشادة بأبي عبيدة واعلاء مكانته تمهيدا لتوليته الخلافة بعده لكن ابا عبيدة مات قبل وفاة عمر بوباء فشى في البلاد فانتهت "الخطة الثلاثية" بوفاته.

الاقامة الجبرية للصحابة

خاف عمر ان ينتشر الصحابة في البلاد المفتوحة ويخلقوا له فتنة خصوصا اولئك الذين عارضوا بيعته ففرض عليهم "الاقامة الجبرية" في المدينة (حسب تعابيرنا المعاصرة) فلا يخرجون منها الا بأذنه ولا يذهبون الى الاقطار المفتوحة الا بأمر منه. وقد شقّ ذلك على كثير من اصحاب النبي ومن المهاجرين خاصة. (١٧) فقد وجدوا في ذلك تقييدا غير مقبول لحرياتهم التي مارسوها منذ القدم في التنقل الحر للتجارة وغيرها. ولم يكد عثمان يتولى الخلافة حتى فكّ عنهم هذا العقال فتفرقوا في الارض يبيعون ويشترون ويتملكون الاراضي والعقارات.

عمر واهل الكتاب

من اجراءات عمر انه اخرج نصارى نجران من ديرتهم، واخرج يهود خيبر سنة ٦٢٥ـ ٦٣٦ فذهب اليهود الى اريحا وجوارها، والنصارى الى الشام والعراق ولم يبقَ في الحجاز يهودي او مسيحي. ويُنسب الى عمر ما عُرف باسم "الشروط العمرية" او عهدة عمر التي تبيّن كيف يجب ان يُعامَل اهل الذمة في البلاد الاسلامية وقد شرحناها في الفصل الثالث.

يُنسب اليه ايضا البدء ببناء مسجد الصخرة في القدس في المكان الذي قيل ان النبي محمد صعد منه الى السماء وهو ايضا المكان الذي يعتقد اليهود ان يعقوب اخذ اليه ابنه اسحق ليضحّي به. ومسجد الصخرة من اروع آيات الفن الاسلامي ومن المؤكد ان الذين بنوه وزيّنوه لم يكونوا من سكان الحجاز بل من مهرة البنائين السوريين.

الزهد والتقشف

في سيرة الخليفة عمر كلام كثير عن تقشّفه وفقره وانه كان يلبس ثيابا رثة يرقعها بيده بالجلد متى تمزقت ولم يكن عنده الا ثوب واحد، الى آخر ما هنالك من المبالغات. الغرض من هذه الروايات التأكيد على حرص عمر على اموال المسلمين وعلى انه لم يكن يمد يده لبيت المال. (١٨)

ولم يكن علي بن ابي طالب ابن عم النبي وصهره اقل ورعا وتقوى وصلاحا من الخليفة عمر لكن لم يُعرف عنه انه لبس ثوبا ممزقا ومرقعا.

هذه الاخبار ناتجة عن اختلاط بالمفاهيم تساوي بين الفقر والفضيلة، وبين الغنى والنقيصة، وهي مفاهيم اقرب الى النصرانية منها الى الاسلام. فليس في الاسلام زهد وتنسّك وانقطاع عن الدنيا، ولا فيه دعوة الى الفقر بل ان القرآن يحضّ على التمتع بأطايب الحياة ضمن حدود الشريعة. وليس الفقر فضيلة بحد ذاته ولا الغنى نقيصة فكلاهما حالة وضعيّة ليس لها مدلول اخلاقي. فقد يكون الفقر نتيجة كسل وضعف همّة، وقد يكون الغنى نتيجة جهد وعمل.

ولم يكن الخليفة عمر فقيرا ولا كان بحاجة الى مد يده لبيت المال. فقد كان له نصيب من الغنائم والفيؤ والضرائب كغيره من كبار الصحابة او اكثر،

مما كان كافيا ليوفر له حياة لائقة. ولم يخبرنا المؤرخون المسلمون ان ابا بكر وعمر رفضا حصتهما من الغنائم والفيئ وردّاها الى بيت المال.

مقتل الخليفة عمر بن الخطاب

يقول الطبري (١٩) : خرج عمر يوما يطوف في السوق فلقيه ابو لؤلؤة غلام المغيرة . فقال : يا امير المؤمنين انصفني من المغيرة بن شعبة فان عليّ خراجا كثيرا. قال وكم خراجك؟ قال درهمين كل يوم. قال وما هي صناعتك؟ قال نجار ونقاش وحداد. قال عمر: فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الاعمال. فتوعّده ابو لؤلؤة.

بعد ثلاثة ايام خرج عمر الى الصلاة ودخل ابو لؤلؤة بين الناس وفي يده خنجر له رأسان فضرب عمر ست طعنات احداهن تحت سرته كانت القاضية وكان ذلك في شهر نوفمبر ٦٤٤. وكانت خلافة عمر عشر سنوات وستة اشهر وبويع لعثمان بعد وفاة عمر بثلاثة ايام.

يقول ابن الاثير "لم يمت عمر الا وقد ملّته قريش لانه كان حصرهم بالمدينة". (٢٠)

لما طُعن عمر كان عليه ان يدبّر للمسلمين مستقبلهم وكانت لديه فرصة تاريخية ليضع نظاما للخلافة يقي المسلمين من خطر الانقسام وهو صاحب العقل القانوني والقضائي كما وُصِف. ثم ان عمر اختبر بنفسه النزاع الذي حصل بين المهاجرين والانصار حين تولية ابي بكر، ثم انقسام الصحابة حول خلافته هو نفسه حينما عيّنه ابو بكر. وما كان يجوز ان يغيب عن باله ان هذه النزاعات والخصومات ستتكرر حين وفاة كل خليفة ان لم يوضع نظام للولاية يتوافق عليه المسلمون فيقرّونه وتسير عليه الامة الاسلامية من بعد. وكان للخليفة عمر مثال يحتذيه في "دار الندوة" وهي، كما ذكرنا، كانت مجلساً من كبار اهل مكة يدير شئون البلد قبل الاسلام بطريقة الشورى التي ورد ذكرها بعدئذ في القرآن، وقد عايش الخليفة عمر هذه الندوة واطّلع على عملها وكان الاحرى به ان يُحييها.

لكن عمر لم يلقِ بالاً لكل هذا واهتم فقط بالظرف الآني اي بمن سيخلفه تاركا مصير المسلمين للتقادير.

يقول الدكتور طه حسين في ذلك : "لم يكن بدّ في ان ينشئ المسلمون لانفسهم في حدود القرآن والسنّة دستورا مكتوبا يعصمهم من الفرقة والاختلاف ويبيّن للخلفاء ما يجب عليهم ان يفعلوه وما يجب ان يتركوا، ويبيّن للشعب حقوقه وواجباته مفصّلة، والوسائل التي يختار بها الخليفة، ويراقبه بعد اختياره ويعاقبه ان حاد عن الطريق. ولو فعل المسلمون ذلك لمّا تعرّضوا لِما تعرّضوا له من الشرّ ايام عثمان." (٢١)

ولعل الدكتور طه حسين وغيره من الكتاب يكلّفون الخليفة عمر واقرانه من الصحابة اكثر مما تتيح لهم كفاءاتهم وعلمهم بأمور الحكم والسياسة. فمعلوماتهم بهذه الشئون يستمدونها من القرآن والحديث وليس في المصدرين ما يسعفهم لوضع دستور كالذي يطلبه الدكتور طه حسين. ولم يطّلع الصحابة بالقراءة او بالزيارة والاحتكاك على انظمة الشعوب الاخرى ليقتبسوا منها فقد كانوا منعزلين في شبه الجزيرة عن التيارات الحضارية، ومن زار منهم بلاد الشام وفارس اهتم بتجارته لا بتقصّي انظمة الحكم والادارة.

لكن اذا لم يكن باستطاعة رجال ذلك العهد ان يضعوا دستورا كاملا لعدم درايتهم فقد كان باستطاعتهم ان يتفقوا على ناحية واحدة اساسية من الدستور هي وضع نظام ثابت لتنصيب الخليفة.

هذا ما كان يستطيع الخليفة عمر ان يقدمه للامة الاسلامية لكنه لم يفعل.

ترتيب البيعة لعثمان

اللجنة الانتخابية

ننتقل الى وقائع عملية التنصيب. لما طُعن عمر قيل له : يا امير المؤمنين لو استخلفت فقال : لو كان ابو عبيدة ابن الجراح حيّا لاستخلفته فاني سمعت النبي يقول "انه أمين هذه الامة". لكن عليكم هذا الرهط الذين قال الرسول عنهم انهم من اهل الجنة وهم عبد الرحمن ابن عوف، وسعد ابن ابي وقاص، والزبير ابن العوام، وطلحة ابن عبيد الله، وعثمان ابن عفان، وعلي ابن ابي طالب، فليختاروا منهم خليفة. (٢٢)

لم يكن اختيار هؤلاء الاشخاص الستة عبثا بل كان تدبيرا محكما

لاقصاء علي ابن ابي طالب عن الخلافة. فسعد ابن ابي وقاص لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن ابن عوف. وعبد الرحمن هو صهر عثمان ابن عفان بحيث يشكل الثلاثة كتلة متحدة لا يختلفون، فيولّيها عبد الرحمن عثمان، او يولّيها عثمان عبد الرحمن. اما علي فلا يضمن وقوف الزبير وطلحة الى جانبه. وبفرض انهما فعلا فسيصبحون مع علي ثلاثة مقابل ثلاثة. وقد احتاط الخليفة عمر لهذا الاحتمال فعيّن ابنه عبد الله حَكَما اذا تساوت الاصوات. وعبد الله كاره لعلي. فاذا لم يقبل احدهم بحكم عبد الله فقد اوصى عمر ان يكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف وهذا حتما ليس مع علي، بحيث يخرج علي خائبا كيفما جرى التصويت.

والغريب ان عليا قبل عضوية اللجنة الانتخابية ووافق على حقها باختيار الخليفة وهو مدرك انها مؤلفة بالشكل الذي يضمن خذلانه. وقد نبهه عمه العباس الى ذلك. ومرة اخرى اثبت خصوم الهاشميين انهم اقدر على المناورة وابرع في التخطيط والتنفيذ من منافسيهم.

رأي الخليفة عمر في اعضاء اللجنة

ينقل الكتور منير العجلاني عن كتاب "السفيانية" للجاحظ ان عمرا دعا الستة الذين اختارهم، وخمسة منهم من اقرباء النبي، فدخلوا عليه وهو مُلقى على فراشه يجود بنفسه فنظر اليهم وقال لهم آكلكم يطمع بالخلافة بعدي؟ فوجموا. فسالهم ثانية فأجابه الزبير ولما لا فلسنا دونك في قريش ولا في السابقة ولا في القرابة من النبي.

فقال عمر : أفلا أخبركم عن انفسكم؟

قالوا : قل فانّا لو استعفيناك لما عفيتنا.

فقال: اما انت يا زبير فسيء الخلق لا تستقيم على وجه، يوما انسان، ويوما شيطان، فليت شعري من يكون للناس يوم تكون شيطانا.

ثم اقبل على طلحة، وكان له مبغضا منذ ما عارض ابا بكر في توليته، فقال له : أقول ام أسكت؟ فقال طلحة : قل، فانك لا تقول من الخير شيئا. فقال عمر : اما اني اعرفك منذ اصيبت اصبعك يوم أُحُد والوبال الذي حدث لك، ولقد مات الرسول ساخطا عليك.

ثم اقبل على سعد بن ابي وقاص فقال : انما انت صاحب خيل وجماعة، وقنص وسهام، فما للخلافة وامور الناس.

ثم اقبل على عبد الرحمن بن عوف فقال : انك يا عبد الرحمن لو وُزن نصف ايمان المسلمين بايمانك لرجح ايمانك. ولكن ليس يصلح لهذا الامر من فيه ضعف كضعفك.

وقال لعلي : لله انت، لولا دعابة فيك لحملتهم على الحق الواضح.

اما عثمان فقال له : كأني اراك قد حملت بني امية على رقاب الناس وآثرتهم بالفيء فازعلت الناس. (٢٢)

ان هذه الرواية تؤكد ما ورد في مراجع اخرى عن رأي كبار الصحابة السيء بعضهم ببعض وعن شدة تنازعهم وتنافسهم وسوء العلاقة التي ظهرت بينهم مباشرة بعد وفاة النبي وكان ذلك حديثا شائعا بين الناس ويفسّر كثيرا من احداث التاريخ الاسلامي اللاحقة.

ويبرز تساؤل هام. ما دام الخليفة عمر يعرف هذه الصفات في هؤلاء فلماذا اختارهم، والأهم من ذلك لماذا حصر حق انتخاب الخليفة وحق تولي الخلافة بهم ؟

تتابع الرواية ان عمر اوصاهم ان يتشاوروا ثلاثة ايام ولا يأتي اليوم الرابع الا وعليهم امير منهم. وطلب منهم ان يشترك معهم ابنه عبد الله مشيرا وحَكَما ولا يكون له من الامر شيئا.

رتّب عمر عملية الانتخاب فقال لصُهيب قائد شرطته : صلّ بالناس ثلاثة ايام ثم أدخل الستة بيتا ولا يأتيَنّ اليوم الرابع على اجتماعهم الّا ويكون عليهم امير منهم. وقم على رؤوسهم فان اجتمع خمسة وابى واحد فاشرخ رأسه بالسيف. وان اتفق اربعة وابى اثنان فاضرب رؤوسهما. وان اختار ثلاثة رجلا واختار ثلاثة رجلا اخر فتساوت الاصوات فحكّموا عبد الله بن عمر. فان لم يرضوا بحكمه فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين اذا رفضوا نتيجة الاقتراع.

انها رواية عجيبة اجمعت عليها كتب التاريخ الاسلامي واعتبرتها اجراءاً عاديا ولم تستهجنها مع انها اظهرت بأجلى صورة طبيعة الحكم المطلق الذي مارسه الخلفاء بدءاً من اول خليفة.

فقد امر عمر صاحب شرطته ان يشرخ رؤوس القوم وان يقتل من يرفض تدبيره بعد وفاته. وعمر لا يتكلم عن مجرمين اقام عليهم الحدّ بموجب الشريعة فاستحقوا القتل، بل يتكلم عن ستة من كبار الصحابة منهم خمسة من اقارب النبي لم يرتكبوا إثما الا احتمال معارضة ما انفرد بتدبيره. فهل في الشريعة ما يبيح له الامر بشرخ الرؤوس والقتل لمجرد مخالفة مشيئته في امر سياسي؟

ان استئثار عمر بالرأي في تعيين اعضاء هذه اللجنة فيه مخالفة واضحة لمبدأ الشورى الذي يعتقد بعض الفقهاء ان الشريعة تأمر به وان الخلفاء الراشدين تقيّدوا به. فهو لم يستشر لا في اعضاء اللجنة ولا في عددهم ولا في طريقة عملها ولا في صلاحياتها.

وقد اختار عليا ابن ابي طالب وهو ابن عم الرسول، وعثمان ابن عفان وهو زوج ابنة الرسول رقية ثم ام كلثوم وكان من اكابر بني امية، وعبد الرحمن ابن عوف خال النبي، وسعد ابن ابي وقاص، والزبير ابن العوام وهو ابن عمة الرسول، وطلحة ابن عبيد الله وهو من اوائل الصحابة.

ويُلاحظ ان جميع اعضاء اللجنة هم من قريش لم يضم اليها انصاريا واحدا خلافا لوعد ابي بكر في سقيفة بني ساعده بأن "منا الامراء ومنكم الوزراء لا تفاوتون بمشورة ولا تقضى دونكم الامور"، فلم يعيّن ابو بكر وعمر وزيرا انصاريا او مستشارا، وها هو الان يعيش في مدينتهم لكنه يقصيهم عن الاشتراك باختيار الخليفة المقبل مما يحمل على الظن بأن كلام ابي بكر كان "وعودا انتخابية" حسب تعابير عصرنا.

كان حصر الاختيار والتصويت والخلافة بالستة غريبا من وجوه اخرى. صحيح انهم كانوا من كبار الصحابة لكنه كان في الصحابة ايضا من لا يقل عنهم قدرة وكفاءة فلماذا حصر الخلافة بأحدهم. ثم ان كل واحد منهم كان يريد الخلافة لنفسه، أفلَم يكن اكثر عدلا وتجردا لو اوكل حق التصويت والاختيار لمن ليس لهم مصلحة شخصية بالامر؟

ويبقى السؤال الاهم : ما دام عمر قد لجأ الى لجنة انتخابية فلماذا حصر عددها بستة اشخاص كان رأيه في اكثرهم سيئا كما مر معنا، ولم يجعلها ستة عشر او ستة وعشرين او مائة بحيث تتمثل فيها جميع فئات

المسلمين من مهاجرين وانصار، ويتمثل فيها سكان مكة والطائف والبادية الى جانب سكان المدينة فتصبح اللجنة الانتخابية ممثلة حقا لمجموع المسلمين. ولو فعل لكان وضع النظام الانتخابي المطلوب، ولكان شكّل سابقة يضطر الخلفاء بعده الى اتّباعها، ولكان جنّب المسلمين الويلات والاضطرابات التي لازمت الخلافة منذ نشأتها.

انتشر خبر اللجنة الانتخابية فقال العباس لعلي : لا تدخل معهم. فأجاب علي اني اكره الخلاف، فقال العباس اذن سترى ما تكره. واني لم انصحك بشيء الا رفضته ثم تبيّن لك صدق النصيحة وندمت عليه. اشرت عليك في مرض الرسول ان تسأله فيمن يخلفه فأبيت. واشرت عليك بعد وفاته ان تعالج الامر لكنك تقاعست فتركته لابي بكر. واشرت عليك ان ترفض عضوية اللجنة الانتخابية فقلت انك تكره الخلاف. والان انصحك بأن ترفض كل ما سيعرضونه في هذا الاجتماع الا ان يُوَلّوك. واحذر هؤلاء القوم فانهم لا يبرحون يبعدون هذا الامر عنا حتى يتولاه غيرنا. (٢٤)

كان طلحة غائبا عن المدينة فاجتمع بقية الصحاب وكانوا كلهم طامعين بالخلافة "فاختلفوا في غير ائتلاف وتنافسوا في غير وفاق" حسْب تعبير الدكتور طه حسين.

تولى عبد الرحمن بن عوف ادارة الاجتماع ويقال انه تنازل عن الترشيح هو وسعد بن ابي وقاص، وتنازل الزبير عن حقه لعلي. وانحصرت المنافسة بين علي وعثمان. تولى عبد الرحمن بن عوف متابعة العملية في بقية الايام الثلاثة التي حددها عمر فاستشار الناس فلم يرجّحوا احد الاثنين على الاخر.

في اليوم الثالث دعا عبد الرحمن الناس الى المسجد وصعد الى المنبر فقال : ايها الناس، اني قد سألتكم سرا وجهرا فلم اجدكم تعدلون بعلي وعثمان احدا. فقم الي يا علي. فقام اليه واخذ عبد الرحمن بيده وسأله : عليك عهد الله وميثاقه ان تعمل بكتاب الله وسنّة رسوله وفعل ابي بكر وعمر لا تحيد عن شيء في ذلك؟

فقال علي : على كتاب الله وسنّة رسوله واجتهاد رأيي.

ثم دعا عثمان وكرر عليه السؤال فأجاب : اللهم نعم. فبايعه عبد

الرحمن وتبعه من في المسجد. (٢٥) فقال علي لعبد الرحمن : ليس هذا اول يوم تظاهرتم فيه علينا فوالله ما ولّيت عثمان الا ليرد الامر اليك. (٢٦)

يقول الدكتور طه حسين في جواب علي : ان القرآن لم يعرض لسياسة الحكم في تفاصيلها ووقائعها اليومية ولعلي الحق في ان يخالف سيرة الشيخين اذا رأى في المخالفة منفعة للرعية بسبب تغير الاحوال والظروف. (٢٧)

العبر من خلافة عمر

اذا كان لنظرية هنري لامانس اي نصيب من الصحة بأن ابا بكر وعمر وابا عبيدة ابن الجراح الّفوا حلفا ثلاثيا لتولي الخلافة واحدا بعد الاخر ولاستبعاد علي بن ابي طالب، فان ما اجراه الخليفة عمر قد يدعم هذه النظرية. فقد استهل عهده بتعيين ابي عبيدة قائدا على جيوش الشام وعزل خالدا ابن الوليد اثناء حصاره لمدينة دمشق رغم كفاءته العسكرية وشعبيته بين الجنود والسكان، لاعلاء مكانة ابي عبيدة تمهيدا لما ينتظره.

ولما طُعن عمر وطلب منه من حوله ان يستخلف قال بصراحة : "لو كان ابو عبيدة حيا لاستخلفته". لكن هذا الشق من "الاتفاق الثلاثي" كان انتهى بوفاة ابي عبيدة قبل وفاة عمر. اما الشق الثاني من الاتفاق وهو استبعاد علي بن ابي طالب عن الخلافة فبقي ساريا ومحققا الهدف كما رأينا في مناقشة عمل "اللجنة الانتخابية".

الاكراه والارغام : استمر الاكراه والارغام في التعامل السياسي الداخلي الذي بدأ في عهد ابي بكر. فمنع الخليفة عمر صحابة النبي من السفر الى البلاد المفتوحة الا باذنه. وهذا تدبير قاسي فيه تحكم واستبداد وان استند الى ذرائع سياسية. وظهر الارغام بصورة اجلى لما امر عمر رئيس شرطته ان يحضر اجتماع "اللجنة الانتخابية" وان يشج رأس من يعارض الاكثرية وان يقتل الذين يرفضون نتيجة الاقتراع.

خلافة عثمان ابن عفان ٦٤٤ـ ٦٥٦

تشكل خلافة عثمان منعطفا حادا في مسيرة الخلافة.

كان عثمان ابن عفان من آل عبد شمس اقوى عائلات قريش واغناها

ومنهم تحدّر بنو امية. ومع ان الامويين كانوا آخر من قبل الاسلام من قريش، وبقوا ضعيفي الالتزام بمراسمه، فان عثمان كان احد الخمسة او السبعة الاوائل الذين آمنوا بالنبي، وقد تزوج عثمان ابنته رقية فاصبح من اقرب الناس اليه، ولما توفيت تزوج اختها ام كلثوم. وكان من الذين هاجروا الى الحبشة ثم هاجر مع النبي الى المدينة وبقي على اتصال وثيق به.

مع خلافة عثمان عاد الامر الى الارستقراطية المكية بخلاف عهدي ابي بكر ابن ابي قحافة التيمي وعمر ابن الخطاب من بني عدي اللذين كانا من اواسط العرب نسبا.

كان اول ما فعله عثمان انه رفع "الاقامة الجبرية" التي فرضها عمر على الصحابة فانطلقوا في الارض.

وقد ورث عثمان من عمر بن الخطاب مجتمعا اسلاميا في طور تغيّر سريع يختلف عما اعتاده الناس في السابق. فالفتوحات الكثيرة والسريعة التي حصلت في عهد عمر وعثمان اغدقت على المسلمين اموالا هائلة من الغنائم والفيئ والرقيق الذي كان يُحمل الى المدينة عاصمة الامبراطورية الجديدة بموجب الاوامر الاسلامية في معاملة البلاد المغلوبة التي شرحناها في الفصل الثالث.

واذا كانت هذه السياسة قد جلبت الثروات الضخمة لطبقة من قريش وللمقاتلين، فإنها خلقت في البلاد اضطرابا اجتماعيا جلب اسوأ النتائج. وكانت الفتوحات التي استوعبت نشاطات القبائل العربية واستهلكت عددا كبيرا من المقاتلين قد طرأ عليها توقف موقت فعاد بذلك نوع من الحياة الطبيعية الى شبه الجزيرة العربية وتوجه اهتمام الناس الى الشئون الداخلية منها : غيرة القبائل من مكانة قريش المتميزة والمستعلية، وكراهة العرب لاية سلطة حكومية، ولم يشفع بهذه السلطة انها كانت سلطة دينية. يضاف الى ذلك تبرّم العرب الذين اقاموا في البلاد المفتوحة من سيطرة العاصمة على امورهم، ثم المنافسة الشديدة بين من بقي من الصحابة على المناصب والمنافع وعلى الخلافة نفسها فتفككت وحدة شبه الجزيرة العربية وادّت جميع هذه العوامل الى اضطراب الاحوال.

عثمان يعلن فلسفة الخلافة

في غياب نظرية سياسية واضحة للخلافة وللحكم الاسلامي في العهدين السابقين لعثمان اعطى الخليفة الجديد معنى محددا لسلطة الخليفة فهو لم يصل الى الخلافة نتيجة رغبة شعبية واضحة فقد حال الخليفة عمر دون ذلك لما عيّن اللجنة الانتخابية من ستة اشخاص فقط لا يستطيعون ان يدّعوا انهم يمثلون جميع المسلمين او كثرتهم، وهكذا انتفت الشرعية الشعبية.

ولا ينص القرآن او الحديث انه من حق الخليفة السابق ان يعيّن من يليه كما فعل ابو بكر وسمي "الاستخلاف"، او ان يولي الخليفة السابق من يريدهم لاختيار الخليفة الجديد كما فعل عمر. فهذه تخريجات فقهية صدرت بعد حصول الامر بزمن لتفسيره وتبريره.

وما دامت الخلافة وظيفة دينية والحكم الاسلامي حكما دينيا مرجعه الله، ولما كان القرآن لا يتضمن شيئا عن نوع هذا الحكم او عن طريقة تنصيب الحاكم، فقد اعتبر عثمان ان خلافته كانت تكليفا من الله خصّه به وجعله مسؤولا امامه لا امام الناس. فليس للمسلمين اذن ان يحاسبوه على اعماله في الادارة او السياسة او المال. وهذه هي نظرية "الحكم بنعمة الرب" او " الحكم الالهي المقدس". ولا ندري هل ابتكر عثمان هذه النظرية من نفسه ام تأثر بها ونقلها عن الروم والفرس الذين كانوا يمارسونها مع انه لم يُعرف عنه او عن احد من بطانته انه كان واسع الاطلاع على انظمة الحكم في تلك البلاد. ومما هو جدير بالذكر ان كثيرا من المسلمين الذين عاصروه كانوا يوافقونه على رأيه إتّباعا للآية : "يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم". (٢٨)

مما يدل على شدة يقين عثمان بأن الله خصه بالتكليف انه قال للثوار الذين حاصروه وطالبوه بأن يخلع نفسه "ما كنت لاخلع قميصا البسني اياه الله عزّ وجلّ وانه اسهل عليّ ان تُضرّب عنقي من ان اخالف ارادة الله". وبالفعل فضل عثمان ان يُقتل على ان يخلع نفسه مما كلفه الله به حسب اعتقاده.

يُرَدّ على موقف عثمان هذا انه تعهد للناس عند البيعة بأن "يلتزم بسيرة ابي بكر وعمر لا يحيد عن شيء في ذلك"، وعلى هذا الاساس رجّحه

عبد الرحمن بن عوف على علي الذي رفض هذا النص وقال "بل اجتهد برايي". واذا بعثمان حين تولى يخالف سيرة الخليفتين السابقين في بعض وجوهها واهمها التصرف بأموال بيت المال، وتفضيل الاقارب في التعيينات للمناصب المهمة.

كان موقف عثمان من مشاكل الثراء ان المال انما خلق لترفيه الخلق. وما دام المال حلالا والاستمتاع به مشروعا فليكن للناس حظوظهم من طيبات الحياة حسب الآية : "فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا". (٢٩) والآية "فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله ان كنتم اياه تعبدون". (٣٠)

في عهد عثمان استولت الارستقراطية المكية من قريش، وآل امية بالتخصيص، على امور الدولة. وبذل الخليفة كل جهده لدعم هذا الاتجاه فأسند اهم المناصب لاقربائه وحوّل لهم المنافع، وتصرف بأموال بيت المال دون حساب لمن له قرابة ورحما، فقد منح اقاربه من بني امية مبالغ طائلة من بيت المال واقطعهم اراضي واسعة في الاقاليم فاشتروا الضياع واتخذوا الدور والقصور في الحجاز والبلاد المفتوحة، واستكثروا من الموالي والاتباع في كل مكان. وهذا نوع اخر من الاستئثار بالحكم تناول خزينة الدولة والمال العام.

من استئثار عثمان بموضوع اموال المسلمين انه منح الحارث ابن الحكَم يوم عرسه مئتي الف درهم وكان منحه ثلاثماية الفا قبل ذلك. ومنح ابن عمّه مروان ابن الحكَم الذي كان يشرف على ديوان الخلافة خُمْس حصة بيت المال من غنائم فتح افريقيا. (٣١) ومروان هذا اصبح رابع خليفة في الدولة الاموية. واعطى عثمان سعيد ابن العاص ماية الف، وزوّج ثلاثا او اربعا من بناته لشباب من قريش فاعطى كل واحد منهم ماية الف دينار. واعطى خالد ابن أُسيد الاموي ثلاثماية الف، واعطى كل واحد من الذين وفدوا معه ماية الف حتى رفض صاحب بيت المال عبد الله الارقم ان ينفذ الامر واستقال من عمله. (٣٢)

يقول ابن خلدون نقلا عن المسعودي : في ايام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال فكان للخليفة عثمان يوم قُتل عند خازنة مائة وخمسون الف دينار ومليون درهم، وقيمة ضياعه مائة الف دينار، وخلّف إبلا وخيلا كثيرة. وكانت غلّة طلحة من العراق الف دينار كل يوم، ومن ناحية السراة اكثر من

ذلك. ولما توفي كانت تركته ثلاثين مليون درهم، كان النقد منها مليون ومايتي الف دينارٍ وكان باقيها اراضي وعقارات.

وبلغ ثمن الجزء الواحد من تركة الزبير خمسين الف دينار. وخلّف أكثر من الف فرس والف أمَة. وكان على مربط عبد الرحمن ابن عوف الف فرس، وله الف بعير وعشرة الاف من الغنم، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته اربعة وثمانين الفا. وخلّف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يُكسَر بالفئوس، وخلّف من الاموال والضياع بماية الف دينار.

وبنى الزبير دورا بالبصرة والكوفة والاسكندرية. وبنى طلحة بالمدينة وبالكوفة. ويختم ابن خلدون قائلا انها كانت كلها اموال حلال لانها غنائم وفيؤ. (٢٢)

وهكذا نرى انه بعد اقل من خمسة عشر عاما على وفاة النبي برزت في المدينة طبقة فاحشة الثراء من الصحابة بعضهم اقرباء النبي، ومنهم مقربون لابي بكر وعمر وعثمان، كانوا نقيضا لما رُوي عن الخليفتين من زهد وتقشف. وكأن هؤلاء اهملوا الآية "والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب عظيم". والآية : "يوم يُحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون".

يُلاحظ ايضا ان كل هؤلاء المستفيدين من اموال الدولة ومن مِنَح الخليفة التي ذكرتهم كتب التاريخ كانوا من المهاجرين القريشيين ليس بينهم أحد من الانصار من اهل المدينة، ولم يكن بينهم شخص محتاج بل كانوا من الاغنياء من اموال الغنائم والاعطايات والفيؤ. ولا بد من التساؤل عن مصدر هذه الاموال الهائلة التي تدفقت على اهل الحجاز خلال تلك المدة القصيرة. ولا بد من الاجابة انها كانت منهوبة من سكان البلاد التي فتحها المسلمون.

سار عمال عثمان في المال والعطاء سيرة امامهم حتى فرغت خزائن الدولة واحتاج الجند الى المال فاضطر عثمان ان ينفق على الحرب من اموال الصدقة وهي الاموال المخصصة للفقراء والمساكين، فعرّض نفسه للاستنكار.

كذلك اضطر العمال ان يتشددوا على الناس في جباية الخراج والجزية والزكاة فضج الناس بالشكوى. وكان من هؤلاء العمال عبد الله ابن سعد ابن

.ابي سرح الذي عيّنه عثمان واليا على مصر بعدما عزل عمرو بن العاص وكان من الذين سَخروا من الرسول، وهو اخو عثمان بالرضاعة. وكان يكلّف اهْل مصر اكثر مماَ يطيقون حتى شكوه الى عثمان. لذلك خرج من مصر الثائرون الاولون على عثمان واجتمع اليهم بعد ذلك غيرهم من اهل العراق الناقمين ايضا على واليهم. (٢٤) وزاد في نقمة هؤلاء غطرسة القريشيين في الكوفة حتى ضاق بهم سكانها.

ولي عثمان على الكوفة الوليد بن عقبة الاموي وهو اخو عثمان لامه، وكان من فتيان قريش وشعرائهم وشجعانهم واجوادهم. لكنه لم يتأثر بالاسلام كثيرا وكان يتهتك بالشراب ويتخذ بيته ملجأ للمرّاق من اهل العراق الى غير ذلك من كرم جاهلي وعصبية جاهلية. (٢٥) فشكاه اهل الكوفة الى عثمان.

بقيت بلاد الشام المنطقة الوحيدة الراضية تحت حكم واليها معاوية بن ابي سفيان الذي عيّنه الخليفة عمر على الشام واضاف الى ولايته الاردن. فلما ولي عثمان ضم اليه فلسطين وحمص فاجتمعت لمعاوية الاجناد الاربعة فصارت جيوش معاوية اقوى جيوش المسلمين. وكان معاوية يُغير سنويا على الروم فيربح من الغنائم والفيء ما يسرّ الجند ويسرّ بيت المال. (٢٦)

وكان عثمان قد قارب الثمانين "وكانت الغنائم والاموال تتدفق على العاصمة (المدينة) مع الجيوش العائدة منتصرة وكأنها ابواب السماء تفتحت بماء منهمر". (٢٧)

اسباب الثورة على عثمان

عندما توسع الخليفة عثمان بالمِنَح من بيت المال لبعض الصحابة من قريش ولاقربائه، كثر اللغط حول تصرفاته هذه. فالذين لم يأخذوا نقموا على الذين اخذوا وعلى من اعطاهم. وقد ادرك صحابة اخرون خطورة ذلك وعاتبوه عليه فأجاب ان لي قرابة ورحما.

ولما كثر التذمر تداعى الصحابة الى المدينة وكلّفوا عليا بن ابي طالب ان يكلم عثمان بالامر لكن عثمان لم يستجب فهو لم ينسَ ان عليا كان منافسه على الخلافة وان بين بني امية وبني هاشم عداوة ومنافسة قديمة.

ولاحظ المتدينون من المسلمين وعامة الناس المفارقة بين واقع هذه

الثروات الطائلة بين ايدي بعض الصحابة وطريقة انفاقها على اللهو والعبث، وبين سيرة المسلمين الاولين التي كانت قريبة لاذهانهم.

لكن الثورة على عثمان لم تنفجر من المدينة او من الجزيرة العربية بل اختمرت في الكوفة والبصرة والفسطاط. وكانت الجزيرة قد بدأت تأخذ مركزا ثانويا في عهده بالنسبة للبلاد الاغنى كالعراق وبلاد الشام ومصر وفارس.

من اسباب الثورة ايضا ان الخليفة عثمان، كأبي بكر وعمر، اظهر انحيازا واضحا لقريش في الوقت الذي لم تعد فيه لقريش تلك المكانة المتفوقة بسبب وفاة عدد كبير من الصحابة اصحاب السابقة وظهور طبقات اجتماعية جديدة في الامة الاسلامية.

وقد رأينا ان قريش شكلت بعد وفاة النبي طبقة ارستقراطية قوامها القرب من النبي واستغلت هذه المكانة لمنافعها وعصبيتها فخرجت بذلك عن اصل خطير من اصول الاسلام النظرية وهو المساواة بين المسلمين. واتبعت ذلك بخطوة خطيرة اخرى في تفضيل العرب على غيرهم ممن اعتنقوا الاسلام ولم يكن لهم في العرب نسب صريح فانقسم المسلمون الى عرب وموالي وقامت نزاعات خطيرة بينهم.

ثم تعززت الارستقراطية الناتجة عن المولد بارستقراطية المال الوفير والرقيق الكثير رجالا ونساء، المجلوب من اجناس مختلفة من بلاد الفتوحات فنشأت في مكة والمدينة والطائف طبقة لا تحتاج الى العمل وانما يعمل لها الرقيق فانصرفت الى فنون اللهو والعبث والمجون فكان الغناء والرقص والشراب في مدن الحجاز التي امتلأت بالمغنيين والمغنيات. وقد تكون العلة في هذا التبذل ان البدو اذا تحضروا وبَسَط لهم العيش، اسرفوا في اللهو شأن كثير ممن غَنيَ بعد حرمان فانصرف اولاد الصحابة بما لهم من مال وفير وجاه عزيز الى اللهو. (٢٨)

الى جانب هذه الطبقة الغنية المسرفة نشأت طبقتان اجتماعيتان. اولهما البانسون الذين يعملون في الارض واكثرهم من الرقيق المجلوب وهؤلاء لم يكن لهم دور سياسي في اول الامر.

والطبقة الثانية هي طبقة العامة من العرب الذين كانوا يقيمون في الاقاليم ويُغيرون على العدو ويحمون الثغور. وقد نشأ الصراع الاول بين

الاغنياء، ثم بين الطبقة الوسطى وهؤلاء الاغنياء. فالفتنة اذن كانت عربية نشأت من تزاحم الاغنياء على المال والسلطان، ومن حسد العامة العربية لهؤلاء الاغنياء.

مقتل الخليفة عثمان

كان زعماء المعارضة لعثمان في المدينة من كبار الصحابة والمهاجرين ومنهم بنو هاشم وعلى راسهم علي بن ابي طالب. اما الانصار الذين أُبعدوا عن الحكم منذ خلافة ابي بكر فكانت كثرتهم منحرفة عن عثمان لكنهم لم يتصدروا المعارضة. غير ان المهاجرين والانصار لم يكونوا هم الذين قاموا بالثورة الدموية. فقد بدأ الشر في الكوفة اولا سنة ٦٥٤. وكان بين الثائرين في مصر والكوفة والبصرة مراسلات واتصالات واتفقوا على الاجتماع في المدينة بنيّة الحج. ولم يكن بين الثائرين شامي واحد لان ولاء أهل الشام تحت حكم الوالي معاوية كان خالصا للامويين.

اختلف الثوار على الخليفة المقبل. فأهل مصر هواهم في علي ابن أبي طالب، واهل الكوفة هواهم في الزبير ابن العوام، واهل البصرة يميلون الى طلحة ابن عبيد الله. (٢٩) لكنهم كانوا كلهم مُجمعين على المآخذ تجاه عثمان. فكانوا يلومونه على ولاته الذين استأثروا بالغنائم وتشدّدوا بجباية الضرائب، ولاموه على قريبه ومستشاره مروان ابن الحكم، وعلى تصرفه ببيت المال. ولما اجتمعوا به طلبوا منه ان يخلع يفسه او يقتلوه فرفض وقال ان القتل احبّ الي من التبرؤ من خلافة اعطانيها الله. فحاصره الثوار في منزله اربعين يوما وفي مقدمتهم محمد ابن الخليفة ابي بكر وقطعوا عنه الماء ثم دخلوا عليه فقتلوه ونهبوا بيته كما نهبوا بيت المال. ولو اراد اهل المدينة ان ينجدوه لتمكنوا. ولو اراد ابن عمه معاوية في دمشق ان يرسل جندا ليخلصه لتمكن ايضا. وكانت خلافة عثمان اثني عشرة سنة وكان عمره عند مقتله نحو الثمانين.

العِبَر من خلافة عثمان

مع عثمان عادت الشخصية العربية الى طبيعتها، وعادت العصبية للعائلة والعشيرة الى الظهور الواضح تثبت رسوخها في نفوس العرب كالركن الاساسي

في التركيب الاجتماعي مع ان الاسلام قاوم هذه العصبية ودعا الى التساوي بين الناس على غير طائل.

وقد رافقت هذه العصبية العرب على مدى القرون ولا تزال تلعب دورا رئيسيا في مجتمعاتنا الحالية. وتعني العصبية كما سبق وشرحنا، انتماء الانسان الى مجموعة بشرية صغيرة نسبيا ومنحُها ولاءه وربط مصيره بمصيرها فهو يدافع عنها وهي تحميه.

نظرية الحق الالهي

كان عثمان اول خليفة يعلن صراحة ان الله عهد اليه بالخلافة وانه لا يحق للناس مناقشته على اعماله فهو مسئول تجاه الله وحده لا تجاه المسلمين. وقد تصرف ابو بكر وعمر قبله بما يشابه ذلك دون ان يعلناه اذ لم يذكر عنهما انهما كانا يكثران من المشورة او انهما كانا يشرحان للناس (يقدمان حسابا) عن اعمالهما وتصرفاتهما بالحكم فقد كانا يعتبران ان مهمتهما هي تطبيق احكام القرآن كما فهماها، وانهما بالنهاية مسئولين امام الله لا امام الناس ما داما لايخالفان أحكام الشريعة.

بدء الخلافة الاموية مع عثمان

يمكن القول ان الخلافة الاموية بدأت بعثمان بن عفان لا بابن عمه معاوية بن ابي سفيان. ذلك ان معاوية رفض الاعتراف بخلافة علي بن ابي طالب واستمر حاكما على بلاد الشام. وتحارب الفريقان فلم يتغلب احدهما على الاخر. فكتب معاوية الى علي : " اما اذا شئت فلك العراق ولي الشام ونكفّ السيف عن هذه الامة ولا تُهرق دماء المسلمين". فتراضيا على ذلك فأقام معاوية في الشام يجبيها وما حولها، وعلي في العراق يجبيها ويقسمها بين جنوده" (٤٠) فكان تسلسل الحكم الاموي متّصلا في بلاد الشام ومصر من عثمان الى معاوية ولم تقطعه خلافة علي الا في الحجاز والعراق حيث استمر عهد علي خمس سنوات مليئة بالحروب والفتن التي شغلت الخليفة عن كل امر آخر ثم توحدت تلك المقاطعات مع بلاد الشام تحت بني امية بعد مقتل علي سنة ٦٦١ كما كانت في عهد عثمان فلم يزيد انقطاع حكم الامويين في

العراق والمشرق عن خمسة اعوام.

ترى هل غاب فعلا عن اذهان الخليفة عمر وعبد الرحمن ابن عوف وسعد ابن ابي وقاص الذين رتبوا الخلافة لعثمان انهم كانوا ينتخبون امويا والامويون اصحاب عصيبة معروفة ودهاء وباس؟

انتقال مركز الثقل السياسي

في عهد عثمان هاجر كثير من الصحابة من الحجاز الى حيث الخصب والعمران والثروة في العراق وفارس والشام ومصر وسكنوها. فبدأ وهج المدينة يخبو وتألق نجم العواصم الاخرى كمراكز للنشاط السياسي. وليس صدفة ان الثائرين على عثمان جاءوا من الفسطاط والكوفة والبصرة في حين بقي الحجازيون متفرجين فاستقالوا بذلك من زعامتهم السياسية.

بعد عثمان نقل الخليفة علي ابن ابي طالب عاصمته الى الكوفة ليكون اقرب الى مراكز القوى المتصارعة. ولم يطل الوقت حتى انتقلت الخلافة الى دمشق واصبح الحجاز مجرد ولاية.

خلافة الامام علي ٦٥٦ـ٦٦١

كان الامام علي من افضل الصحابة خلقا وتقوى وزهدا وشجاعة. وقد حاول ان يعيد للخلافة صفاءها ونقاوتها لكن خصومه المزمنين تألبوا عليه واتهموه بما ليس فيه وشاغلوه بالحروب طيلة مدة خلافته حتى تجرأوا على اغتياله فكانت ولايته مأساة انسانية بالاضافة الى ان اغتياله احدث شرخا واسعا ومستمرا في الاسلام لا يزال يتفاعل الى يومنا هذا.

عند مقتل عثمان بايع عليا بعض الصحابة الذين في المدينة، وبايعت الانصار الا نفرا يسيرا فرأى علي ان بيعته قد انعقدت ولزمت من تأخر عنها باجتماع من اجتمع عليها في المدينة اسوة بما حصل في بيعة الخلفاء الثلاثة السابقين الذين لم يقبل بهم الجميع بل عارض، كلا منهم صحابة مرموقون ومع ذلك اعتُبرت بيعتهم شرعية.

اما المعارضون المزمنون لتولية علي كبني امية وعائشة وسعد ابن ابي وقاص، وعبد الله ابن عمر ابن الخطاب، والمغيرة ابن شعبة، واسامة ابن زيد،

وحسان ابن ثابت، وعمرو ابن العاص، والزبير وابنه عبد الله، وطلحة وابنه محمد ، وامثالهم من كبار الصحابة فقد امتنعوا عن البيعة متذرعين بحجتين، طالب البعض ان تتأخر البيعة حتى يجتمع الصحابة ويتفقوا على امام. وهذا تدبير لم يحصل عند اختيار ابي بكر وعمر وعثمان كما مرّ معنا. وقال اخرون انه يقتضي المطالبة بدم عثمان اولا ثم يجتمعون على امام. وبما ان هؤلاء او اكثرهم، كانوا في المدينة وقت حصار عثمان ومقتله فلم ينصروه ووقفوا متفرجين على الفتنة، فلم يكن لهم ان ينتظروا موته ليطالبوا بثأره ويتخذوا ذلك ذريعة ليبرروا معارضتهم لعلي، وهي معارضة ناشئة في الحقيقة عن مطامع واهواء شخصية قديمة العهد. وعلي هو بكل الاحوال اقرب منهم الى عثمان فهو ابن عمته واحرى ان يطالب بثاره.

والجدير بالذكر ان طلحة ابن عبيد الله والزبير ابن العوام كانا بايعا عليا في المدينة ثم نكلا لما ذهبا الى مكة مدّعين انهما بايعاه خوفا على حياتهما مع العلم ان كلا منهما كان طامعا بالخلافة لنفسه.

وقعة الجمل ٦٥٦

لم يكتف المعارضون بالمعارضة السياسية او الصامتة كما فعل علي وبنو هاشم مع الخلفاء الثلاثة السابقين بل لجاؤا الى السلاح. وكان اهل البصرة يميلون الى عثمان فارتحل اليها طلحة والزبير وعائشة واعلنوا المقاومة. اشتبك الفريقان في ما عرف بموقعه الجمل في ديسمبر (كانون الاول) ٦٥٦ لان عائشة كانت تركب جملا تحرّض منه المقاتلين، فانتصر علي وُقتل طلحة والزبير وأُسرت عائشة فأعادها علي الى مكة. وقد اراد المنتصرون ان يغنموا اموال اهل البصرة كعادة الغزوات التي اقرّها الاسلام فمنعهم علي فاستاء المقاتلون وقالوا : يبيح لنا دماءهم ولا يبيح لنا اموالهم؟ وكانت هذه من جملة اخطاء سياسية كثيرة حالت بين علي وبين كسب ولاء مناصريه الكامل مع انه كان يعرف ان الطمع بالغنيمة عند العربي حافز كبير للقتال فلما حرض الله على الجهاد قال : "وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها". (٤١)

بعد موقعة الجمل استولى علي على العراق ونقل عاصمته الى الكوفة.

بعد العراق، استمرت المعارضة العنيفة لعلي من معاوية في الشام الذي اتهم عليا بالتواطؤ مع المؤامرة التي ادت الى مقتل عثمان. لكن معاوية لم يفسّر سبب تقاعسه عن تلبية طلب النجدة الذي وصله من ابن عمه عثمان لما حاصره الثوار فانتظر حتى قتلوه فقام يطالب بثاره ويتهم منافسه عليا به.

ان النزاع بين علي ومعاوية على الخلافة كان ايضا نزاعا بين عقليتين ومنهجين. فعقلية علي نشات وتكونت في عهد النبوة وكانت متلاصقة مع شخصية الرسول منذ بدء الدعوة فكان تفكيره دينيا صرفا وكان اهتمامه منصرفا الى تنفيذ اوامر الشريعة والتصرف بموجبها.

اما معاوية فهو اموي، وبنو امية اخر من دخل في الاسلام من قريش ولم يأخذوا الموضوع بجدية على ما يقال. ثم ان معاوية أُرسل في اوائل الفتح والياً الى الشام فابتعد عن الجو الاسلامي الذي كان سائدا في المدينة، وتعامل في الشام مع محيط غير مسلم. ثم ان معاوية كان رجل سياسة لا رجل دين وكان همه توطيد حكمه وتوسيعه لا هداية الناس.

وقد بدأ الصراع بين علي ومعاوية بعد اربع وعشرين سنة من وفاة النبي وفي هذه البرهة القصيرة من الزمن تغيرت احوال كثيرة اهمها ان سلطان الدين لم يعد قويا على النفوس واخلى مكانه لسلطان المال والعيش الرغيد والمتعة التي نتجت عن الفتوحات.

والمحزن ان عليا لم يلحظ هذا التغير الخطير مع انه كان عائشا فيه يشاهده يوميا حوله في المدينة : في الثروات الضخمة التي نشأت، وفي كثرة الجواري والعبيد المجلوبين، وفي نوعية الحياة التي اختلفت، وفي كثرة المغنين والمغنيات ومجالس الشراب التي انتشرت في مكة والمدينة وغيرهما وكان روادها اولاد الصحابة والاثرياء.

كان كل هذا يدل على ان حوافز الماضي تغيرت، وان سيطرة الدين على النفوس ضعفت، وان سلطان المال، خصوصا على نفوس المحدثين من المسلمين في تزايد، وان من يطمح الى الخلافة يجب ان يأخذ هذه المتغيرات بالاعتبار. لكن عليا لم يفعل. اما معاوية فقد استوعبها واستغلها كأبرع ما يفعل رجال الحكم والسياسة. كانت ظروف الحياة الجديدة كلها مواتية لمعاوية ومنافرة لعلي. يُذكر ان عليا لم يكن يفضل شريفا على مشروف، ولا

عربيا على عجمي، ولا يصانع الرؤساء وامراء القبائل. فكان هذا من اهم الاسباب في تقاعد العرب عنه. فلما رأى انصاره ذلك وقارنوه بما كان يصنعه معاوية بالمال ساروا الى علي وقالوا له : يا امير المؤمنين اعطِ هذه الاموال الى الشرفاء وكبار القوم من العرب وقريش واستملهم اليك. فقال لهم "أتريدون مني ان اطلب النصر بالجور".

معركة صفين والتحكيم ٦٥٧

لا تُكسب المعارك بالرجال والعتاد فقط اذا لم تُدعم باجتماع الكلمة والتضامن. هذا ما عمل معاوية على تقويضه في معسكر علي وكانت وسيلته الفضلى المال، وكان تجاوب اصحاب علي مع اغراء المال سريعا. وتبيّن ان اشراف اهل العراق كانوا يتصلون بمعاوية في ايام علي يتلقون ماله ويمهدون له امره. ولم يكن اهل الحجاز خيرا من اهل البصرة والكوفة فكثيرون تسللوا الى الشام ايثارا لدنيا معاوية. ومن لم يذهب الى الشام من كبار الحجازيين كانت تصله هدايا ومِنَح معاوية الى مقره. ولم يقتصر ذلك على معارضي علي بل كان ذلك امر بعض الرؤساء من اصحاب علي وهو لا يدري.

وفيما كان معاوية يتمتع بأموال بيت مال الشام يصرف منها على تنفيذ غرضه، كان علي يأمر بتوزيع اموال بيت المال على المستحقين لا يترك فيه الا ما يكفي الحاجة : واحد يسعى لمكاسب الدنيا، واخر يسعى لثواب الآخرة.

اشتبك جيش علي مع جيش معاوية في معركة صفّين على الشاطئ الايمن للفرات سنة ٦٥٧، وكاد علي ان ينتصر لولا ان لجأ الشاميون الى الخدعة فرفعوا المصاحف على رؤوس الرماح. فأرسل علي الى معاوية يسأله عما يعني ذلك فقال اردت ان نختار منا رجلا وتختارون منكم رجلا ونأمرهما ان يحكما في خلافنا بموجب كتاب الله.

ومن المحتمل ان يكون بعض اصحاب علي قد تآمروا مع اصحاب معاوية . فلما غلبت كفة علي رفع اصحاب معاوية المصاحف وتجاوب معهم المتآمرون على علي من اصحابه وضغطوا عليه ليقبل بالتحكيم واستمالوا اخرين، فنزل علي على رأيهم كارها فسخط عليه الاخرون من مناصريه.

عيّن معاوية عمرو بن العاص حَكَما من قِبَله وهو من دهاة العرب.

وكان عمر قد انضم الى معاوية لقاء عهد من معاوية بتوليته مصر ما دام حيا. واراد علي ان يعيّن ابن عباس حَكَما لكن اليمانية من جماعته اصروا على تعيين ابي موسى الاشعري. وكان هذا والي علي على الكوفة ومع ذلك كان يحثّ الناس على الحياد في النزاع بين علي ومعاوية. ولما طلب علي من اهل الكوفة مناصرته حضّهم ابو موسى على رفض النجدة فعزله علي . ومع ذلك اجبره اصحابه على تعيينه. فكان علي مكرها على قبول التحكيم، ومكرها على قبول ممثل لا يثق به. ولم تأت هذه الامور مصادفة وانما جاءت على الارجح عن تآمر راح علي ضحيته.

لما اجتمع الحكَمان اجلا القضاء الى رمضان فتوقف القتال وتفرق القوم على لا شيء. وكان الظافر في هذا كله معاوية. فقد رُفعت عنه الحرب وصارت لديه فرصة ليستعد، وتورط اصحاب علي في الخلاف والفرقة والفتنة فيما بينهم. عاد علي الى الكوفة وقد اختلف اصحابه. فمنهم الخوارج الذين اصروا على التحكيم ثم لاموا عليا لقبوله به فاعتزلوا عنه، ومنهم من بقي مخلصا لعلي وان شعروا انه اخطأ بقبول التحكيم.

لما حان وقت الاجتماع توافى الحكَمان الى دومة الجندل واجتمعا. فسأل عمرو بن العاص ابا موسى عن رأيه فقال : ارى ان نخلع هذين الرجلين ونجعل الامر شورى فيختار المسلمون لانفسهم من احبّوا. فقال عمرو اني على رأيك. فاقبلا على الناس فقال عمرو يا ابا موسى اعلمهم ان رأينا قد اتفق. فتكلم ابو موسى وقال اننا قد اتفقنا ان نخلع عليا ومعاوية ويولي الناس امرهم من احبوا. واني قد خلعت عليا ومعاوية فولّوا عليكم من اردتم.

وقام عمرو فقال ان هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه. وانا اخلع صاحبه كما خلعه واثبت صاحبي معاوية. وبذلك انتصر دهاء معاوية وعمرو بن العاص على سذاجة ابي موسى الاشعري، او سوء نيته. "ثم انصرف عمرو واهل الشام الى معاوية وسلموا عليه بالخلافة". (٤٢)

عاد علي الى الكوفة بعد التحكيم ولم يكن الوضع مريحا له فقد تغلب عليه معاوية بالحيلة وكثرت تحرشاته بتخوم العراق، واستمر يستميل الانصار بالمال والمنافع. ولم يكن العراقيون جاهلين قول النبيّ : "من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والي من والاه وعادِ من عاداه". لكن هذا الحديث لم يخفف من

تهافت الكثيرين منهم على عطايا معاوية. من ناحية اخرى، بقي الخوارج يخلقون المشاكل فاشتبك معهم علي في موقعه النهروان (يوليو ٦٥٨) فقتل الكثيرين منهم وانتصر عليهم لكنهم استمروا يثيرون الفتن في وجهه.

بعد صفين والتحكيم لم تقع معارك بين علي ومعاوية وتهادنا على ان يستقل علي بالعراق ومعاوية بالشام. واعلن معاوية نفسه خليفة في الشام وعلي ما زال حيا. (٤٣) بعد ذلك خرجت خراسان عن سيطرة علي سنة ٦٥٩، وخرج الحجاز عليه سنة ٦٦٠ اما معاوية فقد استولى على مصر فازدادت قوته وعين عمرو ابن العاص واليا عليها كما وعده.

مقتل الامام علي

استمر الخوارج بقتال علي حتى انتهوا الى اغتياله في يناير ٦٦١. وكان ذلك ان ثلاثة من الخوارج هم عبد الرحمن ابن ملجم المرادي، والبرك ابن عبد الله التيمي، وعمرو ابن بكر التميمي، اجتمعوا ورأوا ان صلاح الامة يتطلب القضاء على علي ومعاوية وعمرو ابن العاص. وتعاهدوا ان يقتل ابن ملجم الامام عليا، ويقتل البرك ابن عبد الله معاوية، ويقتل عمرو ابن بكر عمرو ابن العاص، وعيّنوا اليوم الذي يقومون فيه بمهتهم وهو السابع عشر من رمضان، واخذوا سيوفهم فسمّوها وقصد كل رجل منهم الى صاحبه.

في اليوم المعيّن خرج الامام علي الى المسجد في الكوفة فهاجمه ابن ملجم وضربه ضربة قاتلة. اما البرك ابن عبد الله فهاجم معاوية وهو خارج للصلاة فأصابه بإليته ونجا معاوية. اما عمرو بن العاص فلم يخرج للصلاة تلك الليلة واناب عنه صاحب شرطته فالتبس الامر على عمرو ابن بكر فشد على صاحب الشرطة وهو يحسبه عمرو بن العاص وقتله. (٤٤) وكانت خلافة الامام علي خمس سنين الا ثلاثة اشهر وكان عمره تسعا وخمسين سنة وبموته انتهى ما عرف بعهد "الخلفاء الراشدين" مخلفا انقسام العالم الاسلامي بين سنّي وشيعي الى يومنا هذا.

كان علي مسلما مؤمنا صادقا لكنه لم يستطع ان يكسب ولاء اهل العراق لشخصه اذ كانوا يناقشونه في كل امر في حين كان معاوية واثقا من ولاء السوريين يطيعونه في كل ما يريد. كما كان معاوية اكثر دهاء ودراية

بشؤون السياسة وكان ابن عصره في حين كان علي ابن عصر فات.

نهاية عهد الراشدين

انتهى عصر الخلفاء الراشدين بمقتل الامام علي بن ابي طالب سنة ٦٦١ اي انه دام تسعا وعشرين سنة حكم فيه اربع خلفاء هم الذين يعتبرهم كثير من المسلمين المثال الذي يرغبون باقتدائه وتتبّع خطواته في جميع نواحي الحياة.

لكن هذا التعميم لا ينطبق على الواقع. فلم تكن سيرة الخلفاء الاربع متماثلة، كما لم يكن المجتمع الاسلامي حين مقتل الخليفة علي ابن ابي طالب مطابقا للمجتمع الاسلامي عند تولية ابي بكر قبل ثلاثين سنة، بل يمكن القول انه لم يعد يوجد شبه بين المجتمعين وبين عقلية المسلمين في بداية العصر وفي نهايته.

يتضح ذلك من مقارنة خطبة ابي بكر حين مبايعته بالخلافة مع خطبة زياد ابن ابيه عامل معاوية على الكوفة والبصرة بعد مقتل الامام علي. قال زياد : "ايها الناس إنّا اصبحنا لك ساسة وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي اعطانا ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما احببنا، ولكم علينا العدل فيما ولينا فاستوجبوا عدلنا وفَيئنا بمناصحتكم لنا". (٤٥)

وقد استمع الصحابة الى هذه الخطبة واستكانوا لها، وخافوا وسكتوا لان المال الكثير والعيش الرغيد الذي جلبته الفتوحات والطمع بالاستزادة اذلّ الرجال.

طبيعة عهد الراشدين

بماذا يمكن ان يوصف نوع الحكم الذي قام في عهد الراشدين؟

خلافا لما يقوله البعض، نعتقد ان ما ورد في هذا الفصل ينفي ان تكون الشورى قاعدة حكم الخلفاء الراشدين. ومهما بحثنا فاننا لا نجد لديهم فكرة سياسية واضحة عن نوع الحكم المرغوب وكيفية تسلسله بطريقة هادئة لضمان استمراريته، كما لا نجد في ذهنهم خطا سياسيا مستمرا

ووحدة تفكير يتصرفون بموجبهما ويوحّدان سلوكهم بحيث يصبح هذا التصور قاعدة لمن يليهم من امراء المسلمين، بل نرى ان كل واحد من الخلفاء الاربع تولى منصبه باسلوب مختلف عن الاخرين مما يدل على فوضى في التفكير السياسي عند تلك الجماعة من الصحابة التي رافقت عهد النبي.

ولا يصح القول انهم كانوا يهتدون بتعاليم القرآن لان القرآن لم يتعرض لشئون الحكم. وهكذا تولى ابو بكر الخلافة بعد نزاع شديد بين جماعتين وعصبيتين : المهاجرين والانصار، تنافروا في سقيفة بين ساعدة تنافرا لا يخلو من العنف وتغلبت قريش. وجاءت خلافة عمر بما هو قريب جدا من التعيين. اما خلافة عثمان فقد دبرها عمر تدبيرا محكما لغرض معين بعيدا عن مبدأ الشورى. ورافقت خلافة علي خلافات وحروب وفتن بين الصحابة منذ بدايتها.

لم تكن الخلافة وراثية في عائلة او سلالة ايام الراشدين كما صارت بعدهم. كما انها لم تعتمد على الشورى. فماذا كانت طبيعتها اذن؟

لعل اقرب وصف لها انها كانت امتدادا للحكم العشائري الذي اعتاده العرب مكسوا بثوب ديني.

وقد استمرت الخلافة على الشكل القبلي ما بقيت محصورة في الجزيرة العربية ومحيطها العشائري. فلما توسعت الفتوحات لم يعد النظام العشائري كافيا للقيام بمقتضيات الدولة. ولما لم يجد المسلمون في الكتاب والسنّة وسيرة الخلفاء الراشدين ما ينير لهم الطريق، بدأ الحكم يتحول الى ما وجدوه اماهم في الاقطار المفتوحة وهي ارقى حضارة متهم. وسيأتي بحث ذلك في الفصول التالية.

مقام الراشدين والصحابة

مما يلفت النظر في سيرة الخلفاء الراشدين ان التواريخ الاسلامية القديمة ذكرت اخبارهم ببساطة وتجرد فسردت اعمالهم الجليلة في خدمة الدين كما اوردت خلافاتهم وتنازعهم على الخلافة، وكيف نقدَ بعضهم بعضا دون حرج وقد ذكرنا شينا من ذلك. وتناولت التواريخ الصحابة فعاملتهم كبشر مثل سائر الناس ونقلت اخبارهم. من هذه الاخبار مثلا ان بني هاشم

وبني امية اقوى فروع قريش عارضا تولية الخلافة لابي بكر وعمر.

وان الخليفة عمر ابن الخطاب طعن في حديث ابي هريرة وهو من اكثر الناقلين لاحاديث النبي، وشتم خالدا ابن الوليد (سيف الاسلام) وحكم بفسقه، وخوّن عمرو ابن العاص ومعاوية ابن ابي سفيان ونسب اليهما سرقة مال الفيء. وقد اطّلعنا على رأيه في الستة الذين اختارهم لانتخاب الخليفة الذي سيليه وكلهم من اكابر الصحابة وخمسة منهم من اقرباء النبي. وبادله هؤلاء بمثل ما قاله فيهم.

من ناحية اخرى تعرض بعض الصحابة في عائشة زوجة النبي المفضلة، وفي الزبير ابن عمته، وفي طلحة الذي وقاه بيده، وفي معاوية اخي زوجته ام حبيبة، وفي محمد ابن الخليفة ابي بكر لاشتراكه بمقتل الخليفة عثمان.

وكانت عائشة تلعن الخليفة عثمان ومثلها الصحابي الكبير عبد الله ابن مسعود.

وكان ابو بكر وعمر قد لعنا سعدا ابن عبادة زعيم الخزرج والانصار لانه نافس ابا بكر على الخلافة واخرجاه قسرا من المدينة إلى الشام. وشهر الزبير وطليحة وعائشة الحرب على علي ابن ابي طالب فقُتلا في موقعه الجمل وأُسرت عائشة.

اما معاوية وعمرو ابن العاص فقد لعنهما علي ولعن ابا موسى الاشعري الذي خانه في التحكيم بعد معركة صفين. وقد بادل معاوية عليا اللعن من مساجد الشام.

اما المعتزلة فقد اعتبروا أبا موسى الاشعري من مرتكبي الكبائر بسبب الدور الذي لعبه في قضية التحكيم.

بالاضافة الى ذلك تبادل الصحابة من شيعة علي مع الصحابة المخالفين له الطعن ببعضهم البعض وبصدق اقوالهم وصحة حديثهم. (٤٦)

ولا ننسى تهافت عدد كبير من الصحابة على كنز الاموال الطائلة والسعي للاستزادة منها مما سبب حسد صحابة اخرين لهم، وانصراف الكثيرين منهم ومن اولادهم الى الجواري والغناء والشراب والرقص بعدما تدفقت اموال الغنائم والسبايا من الفتوحات فاصبحت مكة والمدينة والطائف مراكز لهو وعبث للطبقة الموسرة من الصحابة واولادهم بعد عشرين سنة من

وفاة النبي. ومن المؤكد ان اغتيال ثلاث خلفاء راشدين في ظرف ثلاثين عاما ليس دليل عافية في المجتمع الاسلامي الاقرب عهدا من النبي.

لقد كانت جميع هذه الاخبار معروفة ومتداولة بين الناس الى منتصف القرن التاسع وقد وردت في كتابات المؤرخين المسلمين والمعتزلة وغيرهم. ولم يجد المسلمون حَرَجا في ذلك لانهم نظروا الى الخلفاء الاربع والى الصحابة نظرة طبيعية باعتبارهم بشر يخطئون ويصيبون وتعمل في نفوسهم النزعات التي يتعرض لها كل انسان فيتنافسون على المصالح الخاصة، ويتقاتلون على المنافع، ويتفرقون شِيَعا واحزابا، ويتزاحمون على النفوذ السياسي، ويناورون في سبيل ذلك كما يفعل السياسيون في كل زمان ومكان.

يقول الدكتور طه حسين في ذلك : "الاحظ ان جماعة من اصحاب النبي ممن حسن بلاؤهم في الاسلام حتى بشّرهم النبي بالجنة أُمتحنوا بالسلطان الضخم العظيم وبالثراء الواسع العريض ففسدت بينهم الامور وقاتل بعضهم بعضا، وساء ظن بعضهم ببعض الى ابعد ما يكون سوء ظن الناس بالناس". (٤٧)

استمرت هذه النظرة الواقعية لعهد الخلفاء الراشدين وللصحابة مدة مايتي سنة طيلة عهد الخلفاء الراشدين انفسهم والعهد الاموي وعصر الازدهار العباسي الى ان جاء الامام ابو حسن الاشعري (٨٧٣-٩٢٥) وارتأى انه لا يصلح ان يتعرض احد لاحد من الصحابة بسوء فسار اخرون على منواله. وكان ذلك بعدما ابتدأ عهد التقليد أيام الخليفة المتوكل (٨٤٧-٨٦١) الذي اضطهد اهل العقل وانحاز الى "اهل النقل" الذين نسجوا حول الجيل الاول هالة من الاعجاب والاكبار لم تكن لهم في حياتهم، وبالغوا في ذلك الى حد يقارب التقديس الديني لاشخاصهم ولجميع تصرفاتهم مع ان الاسلام منع تقديس البشر لان ذلك يخلّ بوحدانية الله وجلاله، فلا يوجد في الاسلام قديس او ولي يتمتع بقدرات خارقة كما في بعض الاديان الاخرى. وبذلك حال "اهل النقل" دون النقد العلمي المجرّد لاحداث ذلك الزمان.

استمر التجهيل الى يومنا هذا بحيث يتعرض لسخط شعبي عام كل من يناقش اعمال الصحابة والخلفاء الاربع على اساس الوقائع التاريخية الثابتة.

وقد ورث بعض المسلمين هذا الموقف وعززوه فهم خلفاء "اهل النقل

والتقليد" في عصرنا وكوّنوا للناس صورة وهمية عن عهد الراشدين بانه كان مجتمع الوئام والالفة والتضامن والعدل، وانه يمثل اقصى ما يمكن للبشرية ان تصل اليه من صلاح الحكم وسعادة البشر وهم يريدون ان يعيدوا تركيب المجتمع الحالي على ذلك المثال. ومثل ذلك نظرتهم الى سائر الصحابة فهم في رايهم صادقون في اقوالهم وتصرفاتهم منزهون عن الخطأ في قولهم وفعلهم، منصرفون لخدمة الاسلام، مترفعون عن المصالح الشخصية، يجمع كل منهم في شخصه جميع الفضائل الانسانية فلا يجوز بحث اعمالهم الا للاشادة بحكمتها وحذار من التجرؤ على انتقاد نواياهم وتصرفاتهم رغم ان التناقض كان واضحا بينهم في القول والعمل.

يقول في ذلك الدكتور طه حسين :" ان كثيرا من العلماء يسبغون على التاريخ الاسلامي صفة من الجلال والتقديس الديني او الذي يشبه الديني تحول بين العقل وبين النظر فيه نظرا يعتمد على النقد والبحث العلمي الصحيح. فهم يؤمنون بمجد قدماء المسلمين وجلال خطرهم وتقديس مكانتهم ويضيفون اليهم كل خير وينزّهونهم عن كل شرّ ويصفونهم بجلائل الاعمال ويرفعونهم عن صغائرها. (٤٨)

وقد شمل هذا الموقف كتب السيرة عن حياة النبي فيقول السادة مصطفى السقا وابرهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي في تقديمهم لطبعة "سيرة ابن هشام" : "لعل النظر الى تراث السالفين ولا سيما ما يتصل فيه بعلم السيرة نظرة فيها الكثير من التقديس، هو الذي حال دون هؤلاء "الكتاب" ان يقفوا من هذا العلم موقفا فقدناه في جميع المؤلفين المتقدمين على اختلاف طبقاتهم فلم نرَ منهم من عَرَض لما تحمله السيرة من اخبار تتصف بالبعد عن الواقع فنقدها واتى على مواطن الضعف فيها".

وقد حاولنا في هذا الفصل ان نعيد الموضوع الى بساطته التاريخية كما عرفه "اهل العقل" والمسلمون قبل عصر التجهيل وفي يقيننا ان المصادر التاريخية الاسلامية التي لا يطعن احد بمصداقيتها كفيلة بان تعطي الباحث الصورة الصحيحة عن هذه المواضيع.

* * *

مراجع الفصل الرابع

السياسة في عهد الخلفاء الراشدين

١ ـ سورة الشورى، ٣٧، وآل عمران ١٥٨.

٢ ـ خالد محمد خالد، وداعاً عثمان، ص ٦٢.

٣ ـ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٢٢٥ .

٤ ـ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٠٢.

٥ ـ المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٠٣.

٦ ـ المصدر السابق، ص ٢٢٣.

٧ ـ ابن الاثير، سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٢٠.

٨ ـ المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٢٤.

٩ ـ خالد محمد خالد، وجاء أبو بكر، ص ٩٢.

١٠ ـ الطبري، ج ٤، ص ٤٢٨.

١١ ـ القاسمي، ظافر، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الاسلامي، ج ١، ص ١٦٨.

١٢ ـ طه حسين، الفتنة الكبرى،ج ١، ص ٢٥ و ٢٦.

١٣ ـ عبد الرازق، علي، الاسلام واصول الحكم، ص ١٨٤.

١٤ ـ احمد أمين، فجر الاسلام، ج ١، ص ١٧٦.

١٥ ـ طه حسين، الفتنة الكبرى، عثمان، ص ٩.

١٦ ـ المصدر السابق، ص ١٨.

١٧ ـ المصدر السابق، ص ٩.

١٨ ـ ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٦٢.

١٩ ـ الطبري، ج ٢، ص ١٩٠.

٢٠ ـ ابن الاثير، ج، ٣ص ٩١.

٢١ ـ طه حسين، عثمان، ص ٣٥.

٢٢ ـ ابن الاثير، ج ٢، ص ٢٥.

٢٣ ـ العجلاني، منير، عبقرية الاسلام في اصول الحكم، ص ١٠١ و ١٠٢ نقلا عن كتاب "السفيانية" للجاحظ.

٢٤ ـ ابن الاثير، ج ٢، ص ٢٥ و ٣٦.

٢٥ ـ خالد محمد خالد، وداعا عثمان، ص ٦٥.

٢٦ ـ ابن الاثير، ج ٢، ص ٢٧.

٢٧ ـ طه حسين، عثمان، ص ٤٢.

٢٨ ـ المصدر السابق، ص ١٩١.

٢٩ ـ سورة الانفال، ٦٩.

٣٠ ـ سورة النحل، ١١٢.

٣١ ـ طه حسين، عثمان، ص ١٩٢.

٣٢ ـ سيّد قطب، العدالة الاجتماعية، ص ٢١٤.

٣٤ ـ ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٥٢ و ٣٦٣.

٣٤ ـ طه حسين، عثمان، ص ١٢٥.

٣٥ ـ احمد أمين، فجر الاسلام، ج ١ ص ٩٧.

٣٦ ـ طه حسين، عثمان، ص ١٢٠.

٣٧ ـ خالد محمد خالد، وداعا عثمان، ص ٨١.

٣٨ ـ احمد أمين،فجر الاسلام، ج ١ ص ٢١٥.

٣٩ ـ ابن الاثير، ج ٣، ص ٨٠.

٤٠ ـ الطبري، ج ٥، ص ١٤٠.

٤١ ـ طه حسين، علي وبنوه، ص ١٥٤.

٤٢ ـ ابن الاثير، ج ٣، ص ١٦٢ ـ ١٦٨.

٤٣ ـ القاسمي، ظافر، سبق ذكره، ج ١، ص ٢١٩.

٤٤ ـ ابن الاثير، ج ٣، ص، ١٩٥ ـ ١٩٨.

٤٥ ـ طه حسين، علي وبنوه، ص ٢١٥.

٤٦ ـ احمد أمين، ج ٣، ص ٧٦، ٨١، ٢٥١، ٢٥٢.

٤٧ ـ طه حسين، عثمان، ص ٤٠.

٤٨ ـ طه حسين، حديث الاربعاء، ص ٧٨.

الفصل الخامس

السياسة في الدولة الاموية (٦٦٠ــ٧٥٠)

ينتسب الامويون الى امية ابن عبد شمس ويجتمع نسبهم بالرسول في جدهم قصي بن كلاب الذي تروي التقاليد انه اول من جمع قريش في مكة وكان زعيمها. وكانت ام حبيبة بنت ابي سفيان، اخت الخليفة معاوية، احدى زوجات النبي.

وقد كان بين بني امية وابناء عمهم بني هاشم نزاع وتنافس في قريش بدأ قبل الاسلام واستمر الى نهاية العهد الاموي.

تفرّع من بني امية فرعان توليا الخلافة هما السفيانية المنحدرون من ابي سفيان والد معاوية، والمروانية المنحدرون من مروان ابن الحكم، ابن عم الخليفة عثمان ابن عفان. اسس الخلافة الاموية معاوية ابن ابي سفيان وتوالى عليها من السفيانيين يزيد ثم معاوية الثاني وكان عليلا وتوفي في السنة الاولى من خلافته فكانت مدة السفيانيين ثلاث وعشرون سنة. بعد معاوية الثاني انتقلت الخلافة الى مروان ابن الحكم وكان مستشار عثمان مدة خلافته. وبقيت الخلافة في المروانيين الى نهاية العهد الاموي .

خلفاء بني امية

الخلفاء من آل سفيان

١ ــ معاوية ابن ابي سفيان ٦٦٠ــ ٦٨٠

٢ ــ يزيد الاول ابن معاوية

٣ ــ معاوية الثاني ابن يزيد

الخلفاء من آل مروان

٤ ــ مروان الاول ابن الحكم
٥ ــ عبد الملك ابن مروان
٦ ــ الوليد الاول ابن عبد الملك
٧ ــ سليمان ابن عبد الملك (اخو الوليد)
٨ ــ عمر ابن عبد العزيز حفيد مروان الاول
٩ ــ يزيد الثاني ابن عبد الملك
١٠ــ هشام ابن عبد الملك (اخو يزيد
١١ــ الوليد الثاني ابن يزيد ابن عبد الملك
١٢ــ يزيد الثالث ابن الوليد الاول
١٣ــ ابرهيم ابن الوليد الاول
١٤ــ مروان الثاني ابن محمد حفيد مروان الاول

بعد الاضطراب الذي شاهدناه في خلافة الراشدين حيث قُتل ثلاث خلفاء في ظرف تسعة وعشرين عاما، يبدو العهد الاموي اكثر العهود الاسلامية ثباتا واستقرارا. فخلال التسعين سنة التالية توالى على الحكم اربع عشرة خليفة بصورة هادئة لم يقتل منهم لاسباب دينية ــ سياسية الا الخليفة الحادي عشر الوليد الثاني، وكانت الدولة قد دخلت عصر الانحطاط، والخليفة الاخير مروان الثاني الذي قتل في حربه مع العباسيين. بالاضافة الى ذلك كان العهد الاموي انشط العهود الاسلامية في نشر الدين والفتوحات لم يجاريه بذلك عهد آخر.

تاسيس الدولة الاموية
وخلافة معاوية (٦٦٠ــ ٦٨٠)

نودي بمعاوية خليفة في بيت المقدس وجعل الشام عاصمته. لكن اهل العراق بايعوا الحسن ابن الخليفة علي من آل هاشم فلجأ معاوية الى السياسة تفضيلا على العنف. عقد اتفاقا مع الحسن تنازل فيه هذا عن الخلافة لمعاوية

واعتزل في المدينة لقاء أمان لشيعة علي وشروط مالية منها اموال وضياع، وخمسة ملايين درهم من بيت مال الكوفة، وعطاء سنوي، ودخل كورة يختارها من كور فارس ما دام حيا. (١) وقد توفي الحسن نحو سنة ٦٦٩ وهو في الخامسة والاربعين ويرجح انه مات مسموما اثر دسيسة دبرتها بعض نسائه فقد ذكر عنه انه كان مزواجا مطلاقا تزوج وطلق نحو مئة امرأة. اما الشيعة فعَزَت قتله الى معاوية واعتبرته سيد الشهداء. (٢)

بعد وفاة الحسن استقرت الامور لمعاوية فانصرف الى تثبيت حكمه وتنظيم دولته وتوسيع فتوحاته. وقد كان لانتقال مركز الخلافة من المدينة والكوفة الى دمشق معاني تتجاوز اختلاف الموقع الجغرافي. من ذلك اولا ان سوريا تتجه غربا نحو البحر المتوسط وسواحله الجنوبية لان بادية الشام تشكل حاجزا بينها وبين العراق والجزيرة . لذلك اتجهت فتوحات الامويين الى شمال افريقيا ثم الى الاندلس بالاضافة الى توسعهم شرقا من قاعدتهم في خراسان الى السند وتركستان. وسيأتي تفصيل هذه الفتوحات في الفصل الثامن. والمعنى الثاني لانتقال الخلافة ان دمشق وسوريا تحت حكم البيزنطيين كانت قطرا مدنيا متحضرا في وضعها الاجتماعي، والمستوى المعيشي لسكانها، واقتصادها، وادارة امورها، وكانت ارقى مما اعتاده العرب في باديتهم وفي مدن الجزيرة. وقد خبر معاوية هذه الحياة الدمشقية بحكم ولايته على سوريا منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب.

وضع بلاد الشام

كان سكان بلاد الشام في معظمهم نصارى يتكلمون اللغة الارامية التي كانت لغة السيد المسيح وكان بينهم بعض اليهود وقبائل عربية تسكن بادية الشام والقسم الجنوبي من بر الشام الاقرب للجزيرة العربية واشهرها غسان ولخم وجزام وقضاعة وكلب وطائفة من بني تغلب. وكان بعضهم يتكلمون لغة تمزج بين العربية والارامية وقد وقف بعضهم بجانب الرومان في محاربة المسلمين عند الفتح. اما سكان المدن (في سوريا ولبنان وفلسطين) فكانوا في رأي بعض المؤرخين، من اليونان الذين توطنوا منذ بداية الانتشار الهيليني وتميزوا عن باقي السكان النصارى بانهم كانوا يسكنون المدن وينتمون الى

الكنيسة البيزنطية في حين كان باقي نصارى بلاد الشام ينتمون الى الكنيسة السريانية. وبموجب هذا الرأي فان الارثوذكس والكاثوليك في البلاد الشامية هم احفاد اولئك اليونان وقد حافظوا على خصوصيتهم الى الان لان تزواجهم مع السريان والفاتحين العرب كان نادرا كما حافظوا على دينهم في حين ان اهل الريف والبادية من غساسنة وغيرهم غلب عليهم الاسلام مع الزمن. (٤)

بقيت النصرانية سائدة في بلاد الشام مدة تقارب الثلاثة قرون بعد الفتح وقد بقي المسلمون اقلية صغيرة مدة الخلافة الاموية يتضح ذلك من ان عدد الرواتب المفروضة للمسلمين وللجند في منطقة حمص مثلا ايام الخليفة مروان الاول (٦٨٤ـ ٦٨٥) لم تزد عن عشرين الفا. ولم تزد هذه الرواتب في دمشق ايام الوليد الاول (٧٠٥ـ ٧١٥) عن خمسة واربعين الفا. اما لبنان فقد بقي نصراني المذهب سرياني اللغة الى ما بعد الفتح باجيال طويلة. (٥)

هذا هو الوضع الذي واجهه معاوية منذ ولايته على الشام وحمص وفلسطين وبعد ان تولى الخلافة. وكان عليه ان يستجيب له بالتعاطي الايجابي معه والامتزاج به اجتماعيا وثقافيا وفكريا، او بالتنكر له ومحاولة اخضاعه للمفاهيم الواردة من الجزيرة. والحقيقة ان الخيار الثاني لم يكن متاحا لمعاوية ولخلفائه اذ فضلا عن ان الامويين لم يكونوا شديدي التمسك بالاسلام، عدا الخليفة عمر بن عبد العزيز، فان حاجتهم السياسية والعسكرية والمالية لاهل الشام، وسوادهم الاعظم نصارى، كانت تضطرهم الى ملاينتهم. وقد اعتمدوا عليهم وعلى القبائل العربية في سوريا، واكثرها يمنية، في حربهم مع الخليفة علي ثم في قمع ثورات الحجاز والعراق وفي الفتوحات الواسعة التي باشروها.

لا يبدو ان معاوية وبني امية كانوا كثيري التقدير والاحترام للخلفاء الراشدين وللصحابة عموما فقد رأينا ان ابا سفيان والد الخليفة معاوية كان من اكبر المعارضين لخلافة ابي بكر وعمر وهذا من اسباب نقمة بعض المسلمين المعاصرين على بني امية. اما الصحابة فقد خبرهم الامويون قبل الاسلام وبعده وشاهدوا تهافت بعضهم على المال وتنازعهم على الخلافة وتقاتلهم وتنافرهم بالكلام وبالسيف. وقد لعب المال الذي بذله معاوية للصحابة ولاشراف العرب ولرؤساء القبائل دورا هاما في تحويلهم عن الامام علي. والمال

يولد الاحتقار عند الذي يدفع، ويولد الذل عند الذي يقبض. وقد تجلى استهتار الامويين بالصحابة لما اتهم الصحابي الكبير أنَس بن مالك بالميل الى الفئات المقاومة للامويين فجاء به الحجاج بن يوسف وختمه في عنقه اذلالا له.

كان معاوية من اقدر الخلفاء العرب واحكمهم على مدى العصور. اشتهر بالحكمة والحلم وحسن التصرف السياسي. يُروى عنه قوله "لو بقيت بيني وبين خصمي شعرة ما تركتها تنقطع. فان ارخى شددت، وان شد ارخيت". ومع ذلك لم يكن ينقص معاوية الحزم والشدة عند اللزوم. وقد واجه في البيئة الشامية احوالا ومتغيرات لم يتعرض لها الخلفاء السابقون في محيط الجزيرة العربية ولم يكن في القرآن والسنة نصوص تشير الى الحلول المناسبة لها كما ان الخلفاء الراشدين لم ينشئوا مؤسسات وتقاليد سياسية لتولي الحكم وانتقاله وممارسته تصلح ان تكون قدوة لمن يأتي بعدهم.

في غياب النمط السياسي الاسلامي لجأ معاوية الى منبعَين اخرين هما التقاليد البدوية والادارة البيزنطية. والسياسة تعامل وحسن تدبير بقدر ما هي نصوص. وقد ازدادت اهمية التعامل اليومي حين اهملت الشريعة المعالجة السياسية. والمجتمعات البشرية كائنات حية تتطور صعودا او هبوطا، وكان المجتمع الاموي بجميع فئاته في مرحلة تطور سريع بسبب احتكاك الدين الجديد واللغة العربية والتقاليد البدوية مع عادات ومعتقدات وثقافة سكان البلاد المفتوحة وخاصة اهل البلاد الشامية مقرّ الخلافة والحكم.

تطور المجتمع العربي

ليس ادل على حتمية التطور في المجتمع العربي الجديد من طريقة تعامله مع اهل الذمة، وهم في الآيات القرآنية اليهود والنصارى والصابئة وهؤلاء يعرفون باسم نصارى القديس يوحنا ويسكنون الاغوار الواقعة على مصب نهر لفرات وقد بقي منهم عدد قليل في العراق يتعاطى اكثرهم الصياغة. فلما امتدت الفتوحات الى غير اهل الكتاب وكثر عددهم اضطر المسلمون الى توسيع المفهوم القرآني ليشمل عبدة النار (المجوس) من اتباع زرادشت، والوثنيين من اهل حرّان، والبربر والاتراك عبدة الاصنام فساووهم بالمعاملة مع النصارى واليهود وقبلوا منهم الجزية بدل قتلهم او اجبارهم على

قبول الاسلام كما تنص الشريعة. وبذلك قامت الضرورة العملية مقام النظرية القرآنية.

كانت الجزية تسقط عن الذمي بمجرد دخوله في الاسلام. وفي عهد الامويين اعفي العرب النصارى من دفع الجزية اكراما لعنصرهم العربي. ولاتوجد ادلة ان اهل البلاد المفتوحة دخلوا في الاسلام جماعات كبيرة الا في عهد الخليفتين عمر بن عبد العزيز (٧١٧_ ٧٢٠) والمتوكل العباسي اللذين اشتدا في الضغط على اهل الذمة. (٧) وقد قبلت الامم المغلوبة الاسلام في كثير من الاحوال لانها ارادت الخلاص من دفع الجزية، ومن الاذلال الاجتماعي، ولانها ارادت المشاركة في ولاية الامور والمنافع. (٨)

اقتبس معاوية من التقاليد البدوية المجلس العشائري المؤلف من رؤساء القبائل وكان الخليفة يدعوه للمشورة تقليدا "لدار الندوة" في مكة قبل الاسلام فيستأنس برايهم وهم اصحاب المكانة والنفودفي مجتمعاتهم، ويطّلع على احوالهم ويحل مشاكلهم فكان معاوية في ذلك اقرب الى الشورى التي ورد ذكرها في القرآن من الخلفاء الراشدين الذين اهملوها كما رأينا في الفصل الرابع مع انهم، مع الصحابة المهاجرين، عايشوا "دار الندوة" في مكة وكان بعضهم اعضاءاً فيها.

كان معاوية يستدعي ايضا الوفود من مختلف البلدان حاملة مطالبها وهمومها فيقضي لها حاجاتها ويضمن ولاءها. فكان حكم معاوية من هذا الوجه حكما قبليا شعبيا قريبا من الشعب العربي وهمومه. وقد عزز معاوية هذا الاتصال بتحسين ديوان البريد الذي كان ينقل اوامر الخليفة الى الولاة ويحمل رسائلهم ويتلقى تقاريرهم باقصى سرعة ممكنة في تلك الايام. اما في الادارة اليومية والمالية فقد اقتبس ما وجده في بلاد الشام من مؤسسات بيزنطية وبقيت الادارة في يد الموظفين المحليين، ولغة الدوائر الارامية واليونانية، والنقود المتداولة بيزنطية ذهبية من دنانير واجزائها، الى عهد عبد الملك بن مروان الذي جعل العربية لغة الدواوين واصدر نقودا عربية.

من الذين برزوا في الادارة منصور ابن سرجون الذي ساهم بتسليم دمشق للعرب مع اسقف دمشق وهو نصراني من اسرة سورية كان يتولى بعض رجالها شئون بيت المال ايام البيزنطيين. وكان حفيده القديس يوحنا

الدمشقي الذي عرّف عنه انه كان في شبابه احد ندماء الخليفة يزيد ابن معاوية ثم خلف اباه وجده في استلام الادارة المالية في الدولة الاموية وبقي مشرفا عليها حتى خلافة هشام بن عبد الملك (٧٢٤ـ ٧٤٣) حينما اعتزل الادارة وانصرف الى حياة الزهد والتعبد واقام في دير القديس سابا بالقرب من القدس حيث توفي سنة ٧٤٨. من مؤلفاته كتابات لارشاد النصارى في مجادلة المسلمين فقد كان مقبولا في ذلك العصر ان يتجادل الفريقان في شئون الدين وان يدلي كل فريق بادلته العقلية في تعزيز موقفه. وكان طبيب معاوية ابن أثال نصرانيا ايضا وقد ولاه على جباية خراج حمص. (٩) وكان الاخطل التغلبي النصراني شاعر الخلفاء ومن ندماء يزيد بن معاوية ومن اصدقاء القديس يوحنا المذكور. كان يدخل على الخليفة عبد الملك بن مروان والصليب مدلى من عنقه وريحة الخمر تفوح منه فينشده الشعر ويطربه. ويعزو المؤرخ ثيوفانوس الى معاوية بناء كنيسة للنصارى في الرها. (١٠)

كان لمعاوية عدد من الزوجات احظاهن عنده ميسون وهي عربية نصرانية من قبيلة كلب اليمنية وكانت على مذهب اليعاقبة كنائلة زوجة عثمان بن عفان التي كانت تنتمي ايضا الى قبيلة كلب. كانت ميسون تكره حياة القصور في دمشق وتؤثر عليها حياة البادية التي اعتادتها. وكثيرا ما كانت تصطحب معها ابنها يزيد الى البادية حول تدمر حيث كانت مضارب قبيلتها. وهناك تعلم يزيد الصيد والفروسية وقرض الشعر وشرب الخمر واصبحت البادية الشامية منذ ذلك الوقت مدرسة للامراء الامويين يتعلمون فيها العربية الخالصة من الرطانة الارامية. وقد حذا الخلفاء الامويون بعد ذلك هذا الحذو فبنوا لهم منازل على حدود الصحراء كانت تعرف بقصور البادية، منهم عبد الملك بن مروان وهشام ابن عبد الملك والوليد الثاني.

ان قسما كبيرا من نجاح معاوية يرجع الى عصبة من الاعوان المخلصين منهم عمرو بن العاص والي مصر، والمغيرة بن شعبة والي الكوفة المتمردة، وزياد بن ابيه الذي اعترف به معاوية اخا له، وهو والي البصرة مركز الشيعة. بعد موت المغيرة تولى زياد امارة الكوفة والبصرة والجزيرة العربية وفارس. وقد ساهم هؤلاء بنشاط كبير في قمع الفتن الداخلية التي اثارها الخوارج وشيعة الامام علي وغيرهم من الطامعين بالخلافة.

اثناء انشغال معاوية بقتال علي بن ابي طالب اضطر الى تأمين حدوده مع بيزنطية فاسترضى امبراطور الروم كونستانس الثاني (٦٤٢ـ ٦٦٨) بدفع جزية سنوية. لكنه بعدما استقر به الامر رفض دفع الجزية وصار يشنّ حملات سنوية على حدود بيزنطية عرفت باسم "الصوائف" لانها كانت تجري في الصيف وغايتها الرئيسية الغنيمة وابقاء الجيوش السورية مدربة وراضية. وقد بلغت بعض هذه الغزوات جوار القسطنطينية لكن العرب لم يستطيعوا تثبيت اقدامهم في آسيا الصغرى فقد كانت جبال طوروس تشكل فاصلا طبيعيا بين الفريقين وكانت الدولة البيزنطية ما زالت قوية.

العصبية العربية والموالي

ذكرنا في الفصل الاول ان العصبية القبلية في الجاهلية كانت اساس التلاحم الاجتماعي. وكان العربي ينجذب الى قبيلته يعتز بها وبمكارمها دون ان يشعر بالانتساب الى وطن جغرافي او الى مجموعة بشرية تشكل امة او دولة. وبقي العرب قبائل تتقاتل وتتناحر.

فلما جاء الاسلام وتغلبت القبائل العربية على دولتي الروم والفرس دخل على النفس العربية شعور بالانتساب الى قوم وجنس ودم. فصاروا يعتزون بجنسهم العربي على باقي الشعوب التي قهروها من روم وفرس واقباط واتراك وصقالبة واسبان واتراك وهنود وغيرهم. وتملكهم الشعور بالسيادة والعظمة ونظروا الى غيرهم من الامم الاخرة نظرة السيد الى المسود وعاملوهم على هذا الاساس .

لكن العرب مع ذلك لم يشكلوا امة بل ضاعوا بين نزعتهم العنصرية، وبين دعوة الاسلام الى الاندماج بين الاجناس والمساواة بين الافراد في ظل الدين الجديد كما جاء في الاية : "انما المؤمنون اخوة... وان اكرمكم عند الله اتقاكم". والحديث : "لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى". وبقي العرب تائهين لكن الامويين لم يلتزموا بالاوامر الدينية واسسوا حكمهم على العنصرية العربية الواضحة.

كان لهذه العصبية وجهان : العصبية المتعالية التي شملت العرب تجاه الشعوب المغلوبة، والعصبية القبلية التي بقيت تنخر في المجتمع العربي. وكانت

العصبيتان من اهم اسباب سقوط الدولة الاموية والقضاء على النفوذ العربي في التاريخ الاسلامي.

مع اتساع الفتوحات العربية وكثرة الرقيق دخل على اللغة لفظان غير واضحين يتعلقان بالموالي. فالمولى كان في البداية عبدا اطلقه سيده وقامت بينهما علاقة حقوقية تفرض واجبات على الطرفين. ثم استعمل البعض كلمة موالي بشكل اعم لتشمل الذين اعتنقوا الاسلام من غير العرب. وكانت قيمة الانسان في النظام العشائري العربي ترتبط وتتحدد بمكانة عشيرته وقوتها ومنزلتها. فمن ليست له عشيرة يفقد مكانته، ومن ينتسب الى عشيرة ضعيفة يبقى مهمَلا. لذلك اضطر المسلمون الجدد في البداية الى الدخول في هذا النظام والانتساب الى قبيلة او احد افرادها ليحصلوا على الحماية فسموا موالي وكانوا لا يتكافئون بالمكانة مع العرب الاخرين.

وقد نقم الموالي على هذا الوضع وتزايدت نقمتهم مع تكاثر عددهم وتنامي قوتهم فصاروا عنصرا رئيسيا في الحركات والفتن التي قوضت الحكم الاموي. وقد حقر الامويون الموالي فكانوا لا يعيّنون واليا او قاضيا او اماما الا اذا كان عربيا. وكان الحق والباطل يختلفان عندهم باختلاف جنسية فاعله هل هو عربي او مولى. (١١) من الامثلة على تحيز العرب ضد الموالي ان الحجاج بن يوسف وهو احد اركان الدولة الاموية، نفذ هذه السياسة بشدة فوَسَم ايدي النبط بمشراط حتى يتميزوا عن العرب. وسار باقي ولاة الامويين على ما يشابه ذلك.

واحتقر الامويون طائفة "المولدين" اي الاولاد من اب عربي وام جارية وسموا الولد "الهجين". وكان خلفاء بني امية لا يعهدون بالخلافة من بعدهم الى اولاد الاماء الا في اخر عهدهم عندما قوي الموالي واضطروا الى مسايرتهم فتولى الخلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك ثم اخوه ابراهيم وامهما بنت فيروز ابن يزدجرد اخر ملوك الساسانيين. وخلف ابرهيم مروان الثاني ابن محمد اخر الخلفاء الامويين وكانت امه جارية. لكن اشراف القبائل والبدو بقيت تحقّر الموالي. وكان من نتيجة ذلك ان تعاون اكثر الموالي مع بني العباس ومع آل البيت لاسقاط الامويين ونجحوا بذلك .

بالاضافة الى العصبية ضد الموالي الذين صاروا مع تتابع الفتوحات اكثر

عددا وقوة من العرب، بقيت العصبية القبلية متحكمة بالعشائر. وكانت قبائل عربية شمالية قد انتقلت الى العراق حيث انشأت ديار ربيعة على ضفاف دجلة، وديار مَضَر على ضفاف الفرات وكانت قيس المتقدمة بين قبائل مَضَر وعُرف القيسيون في اماكن اخرى باسم نزار او بني معد.

وكانت قبائل اخرى قد هاجرت من جنوبي الجزيرة وسكنت بلاد الشام فعرفت باليمانية واشهرها بنو كلب. وكان عرب خراسان من قبائل الشام واهمها تميم وكان فيها ايضا يمانية عرفوا بالازد. وبقي الانقسام الرئيسي بين عرب الشمال (عدنان) وعرب الجنوب(قحطان) على اختلاف التسميات.

وقد انغمس الخلفاء الامويون في هذه اللعبة الخطرة وتأرجحوا بالميل بين عدنان وقحطان فتخلخلت اسس الدولة التي يجب ان توحد عنصرها العربي لتدوم. فقد اعتمد معاوية على اليمانية وكذلك ابنه يزيد الذي تزوج امرأة من بني كلب كوالده فشعر القيسية انهم مستبعدين فحقدوا وانتهزوا اول فرصة ليعبروا عن سخطهم فرفضوا الاعتراف بخلافة معاوية الثاني ابن يزيد وناصروا عبد الله ابن الزبير. ثم تغلبت كلب على القيسية في معركة مرج راهط قرب دمشق (٦٨٤) واستقرت خلافة مروان الاول وعلا شأن اليمانية. الا انه في عهد الوليد الاول ارتفع شأن القيسية لان الحجاج بن يوسف الثقفي الذي اخمد ثورات الحجاز والعراق، وصهره محمد القاسم فاتح الهند، وقتيبة فاتح آسيا الوسطى كانوا من قيس.

اما سليمان اخو الوليد فمال الى اليمانية. فلما جاء يزيد الثاني راعى القيسية متاثرا بامه المضرية. ومثله فعل الوليد الثاني. ومالأ ابرهيم حزب اليمانية. وكذلك مروان الثاني الذي نقل العاصمة وادارة الحكومة من دمشق الى حران فانصرفت عنه قلوب اهل الشام. وهكذا اصبح الخليفة الاموي زعيم فريق عشائري اكثر من كونه خليفة لامبراطورية متحدة. (١٢) وقد دامت النزاعات بين القيسيين واليمانيين بعد زوال الخلافة الاموية وعمّت جميع ارجاء العالم الاسلامي من اسبانيا الى الهند فاضعفت العنصر العربي. وسار الولاة على سيرة خلفائهم، فاذا تولى والي على بلد تصرفت قبيلته كأن الحكم لها فامتهنت القبائل الاخرى وتعالت عليها مما سبب شروخا حادة في الجسم

العربي استغلها آل عباس لقلب الدولة الاموية، ثم نخرت هذه العصبية في جسم الدولة العباسية نفسها.

مثال ذلك انه لما تولي ابن هبيرة العراق للامويين اعتقدت قبيلة فزارة انها وليت الحكم معه فاذلت غيرها من القبائل. فلما عُزل وتولى خالد ابن عبد الله القسري اذلّ فزارة.

ولما تولى معن ابن زائدة الشيباني امارة اليمن للعباسيين اضطهد اليمانيين تعصبا لقومه من ربيعة ونزار وهم من عدنان فرد عليه ابن سالم والي عُمان والبحرين باضطهاد القيسيين تعصبا لقومه من قحطان .

كانت خراسان اهم ولاية في الدولة ومهد الدعوة العباسية وقد تولاها المهب ابن ابي صفرة وآله زمنا طويلا وهم يمانيون من ازد وقحطان فحكموا حكما قبليا وامتهنوا تميما وقيسا من مضر. ثم تولى امارة خراسان قتيبة ابن مسلم وكان مضريا فاذلّ القبائل اليمانية واستهان بها. ثم تولى خراسان نصر ابن سيار وكان مضريا ففعل مثل قتيبة (١٢) فضعف العرب من جراء هذه النزاعات.

استخلاف يزيد

استطاع بنو امية ان يبقوا على قدر من التضامن فيما بينهم حفظ الخلافة في اسرتهم لمدة قرن من الزمن فتوالى الخلفاء الامويون الاربع عشرة واحدا بعد اخر دون نزاع يُذكر ولم يقتل منهم الا الخليفة الحادي عشر الوليد الثاني بتحريض يزيد الثالث وكانت الدولة الاموية في ذلك العهد قد دخلت عصر الانحطاط. ولا نعني بهذا ان منافسين اخرين لم يطالبوا بالخلافة، بل نعني إن الاسرة الاموية بقيت متماسكة في وجه الطامعين.

لم يؤسس معاوية ملكا وراثيا كما يدعى خصومه اذ بعدما توفي حفيده معاوية الثاني دون خلف انتقلت الخلافة بهدوء الى الفرع المرواني فتولاها مروان الاول ابن الحكم. خلفه ابنه عبد الملك ثم الوليد الاول ابن عبد الملك. وبدل ان يخلف الوليد الاول ابنه يزيد نجد ان الخلافة انتقلت الى اخيه سليمان. ثم قفزت بعد سليمان الى ابن عمه عمر ابن عبد العزيز. ثم عادت الخلافة الى اولاد عبد الملك، يزيد الثاني وهشام، ثم الى الوليد الثاني ابن

يزيد الثاني. واخيرا ذهبت الخلافة الى يزيد الثالث واخيه برهيم ولدي الوليد الاول وانتهت عند مروان الثاني حفيد مروان الاول فكانت الخلافة اذن متنقلة في البيت الاموي ولم تكن وراثية.

قلنا ان الامويين لم يولوا الصحابة مكانة خاصة وقد تجلى ذلك في تصرف معاوية لما اراد ان يضمن الخلافة لابنه يزيد من بعده. فقد دعا الصحابة واكابر البلاد وعلماءها وقادتها الى مجلسه ليباحثهم بالبيعة. فوافق البعض وعارض اخرون. فقام يزيد ابن المقنّع العذري خطيبا في القوم فأوجز البيان في بضع كلمات . قال : "امير المؤمنين هذا" واشار الى معاوية، "فان هلك فهذا" واشار الى يزيد، "فمن أبى فهذا" واشار الى سيفه. فقال له معاوية اجلس فانت سيد الخطباء.

ثم سار معاوية الى مكة يطلب البيعة ليزيد فجمع الصحابة والانصار ودعا صاحب حرسه بحضرتهم وقال له : أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين مسلحين فان ردّ احدهم عليّ بكلمة تصديق او تكذيب فليضرباه بسيفهما.

وخرج معاوية وخرجوا معه الى المسجد فرقي المنبر وقال للمجتمعين ان هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا انتم على اسم الله. فبايع الناس وكانوا ينتظرون بيعة هؤلاء النفر. ثم ركب معاوية وذهب الى المدينة حيث بايع أهلها. (١٤)

لم يختلف ما فعله معاوية بكثير عما فعله عمر بن الخطاب مع الستة الذين اختارهم. وهكذا اصبح "العهد بولاية العهد"، بعد معاوية، الطريقة الوحيدة المتّبعة على الاغلب في تولي الخلافة ايام الامويين والعباسيين وسائر الدول والدويلات الاسلامية التي قامت. فاما عهد الى ولد، او الى احد افراد الاسرة لئلا يخرج الملك من ايديها لا يكاد يشذ عن ذلك الا فيما ندر. (١٥) وهذا يخالف تماما قول القائلين بأن الامامة لا تثبت بعهد الامام السابق.

مقتل الحسين ابن علي (اكتوبر ٦٨٠)

بعد وفاة معاوية وتولي يزيد دعا الحسين لمبايعته فرفض والبيعة هي دليل الولاء والطاعة. وكان اهل الكوفة قد بايعوا الحسين بعد موت اخيه

الحسن فاتصلوا بالحسين ودعوه للاقامة بينهم ووعدوه بالتاييد. فسار اليهم مع نسائه وبعض اقاربه وانصاره بعدد قليل لم يزد عن مايتي شخص. وكان عبد الله ابن الزبير ابن اسماء بنت ابي بكر وابن اخت عائشة زوجة النبي، طامعا يضا بالخلافة فاغرى الحسين بطلب الخلافة وشجّعه على الذهاب الى الكوفة بهذا الشكل الضعيف متيقّنا ان الامويين لن يتركوه سالما فيزيحه من طريقه.

كان عامل يزيد على العراق عبيدالله ابن زياد، وزياد هو الذي اعترف به معاوية اخاً له من ابيه. ارسل عبيد الله كتيبة بقيادة عمر ابن سعد ابن ابي وقاص، وسعد من كبار الصحابة وفاتح العراق. التقى الجمعان في كربلاء شمال الكوفة وكانت القوة غير متكافئة ولم ينهض اهل الكوفة لنصرة الحسين وخذلوه. وأبى الحسين ان يستسلم فقُتل مع عدد من اهله واتباعه وأرسل رأسه الى يزيد في دمشق فسلمه الى نساء الحسين اللواتي رافقنه. وقد اثار مقتل الحسين مشاعر الشيعة ووثق التضامن بينهم اكثر من اي حادث اخر كما وسّع الخلاف والانشقاق بينهم وبين السنة. وما زال الشيعة يقيمون ذكرى تلك الحادثة في العشرة الاولى من شهر محرّم كل عام ويسمونها "العاشوراء".

كان الحسين متزوجا من ابنة الشاه الساساني الاخير يزدجرد الثالث الذي قتل بعد فتح فارس وسُبيت بناته الثلاث فتزوج الحسين احداهن فاعتبره الفرس قريبا لهم ولهذا وجد المذهب الشيعي اكثر فقهائه ومؤيديه في ايران وبين المنتشرين في البلاد الاسلامية من اصل فارسي. وقد استخدم الايرانيون السلاح الديني ليقاوموا سيطرة العرب ثم الاتراك الذين كانوا يتبعون المذهب السني .

ثورة عبد الله ابن الزبير (٦٨٠ــ ٦٩٢)

تخلص الامويون من العلويين بمقتل الامام علي والحسين فخلا الجو لعبد الله ابن الزبير في مكة فثار على بني امية طالبا الخلافة وناصره الحجازيون. فارسل يزيد جيشا سوريا الى المدينة فيه عدد كبير من نصارى الشام فاحتلوها. وفي بعض الروايات انهم استباحوها ثلاثة ايام. ثم توجهت

الحملة الى مكة وكان الزبير قد احتمى بالبيت الحرام فحاصره الامويون ورموا الكعبة بالمنجنيق. اثناء ذلك توفي يزيد (نوفمبر ٦٨٣) فعادت الجيوش الشامية الى مقرها تحسبا للقلاقل الداخلية.

اشتد امر الزبير بعد موت يزيد فأعلن نفسه خليفة في مكة عام ٦٨٥ واعترف بخلافته اهل الحجاز واليمن والعراق ومصر وبعض انحاء الشام وانضم اليه عرب الشمال (القيسية) في حين ناصرت اليمانية الامويين. عيّن عبد الله اخاه مصعب واليا على العراق ثم ارسل جيشا لمحاربة الامويين فالتقى الجمعان في مرج راهط (الى الشرق من قرية عدرا قرب دمشق) في تموز ٦٨٤، فتغلب بنو كلب وارتد جيش ابن الزبير.

بعد وفاة يزيد وابنه معاوية الذي لم يعمّر حاول خالد ابن يزيد ان يتولى الخلافة لكن اليمانية بايعوا مروان ابن الحكَم وهو ابن عم الخليفة عثمان ابن عفّان، ومؤسس الفرع المرواني في الاسرة الاموية.

توفي مروان بعد سنتين وخلفه ابنه عبد الملك.

عبد الملك ابن مروان (٦٨٥ـ ٧٠٥)

ولد عبد الملك "ابو الخلفاء الاربع" (الوليد، وسليمان، ويزيد الثاني، وهشام) في المدينة عام ٦٤٦ وتوفي في دمشق عام ٧٠٥ وهو خامس خليفة اموي قضى نصف حياته مع ابيه مروان في المدينة حيث درس الدين وانشأ علاقات حسنة مع الفئات المتديّنة مما ساعده في خلافته. بقي مع والده في المدينة الى عام ٦٨٢ حينما اضطروا لمغادرتها بسبب ثورة ابن الزبير. وقد تجمعت في وجه عبد الملك قوى معادية ضخمة في الحجاز والعراق ولكنها قوى متفرقة هي الشيعة، وعبد الله ابن الزبير، والخوارج. كان الشيعة والخوارج يعتبرون بني امية مغتصبين للخلافة وان مقاومتهم واجبة. اما عبد الله ابن الزبير فقد اعلن نفسه خليفة ودخل في صراع مميت مع بني امية. ترك عبد الملك هذه القوى الثلاث تتقاتل فيما بينها الى ان انهكت بعضها بعضا. فقد تغلب مصعب ابن الزبير على الشيعة وارتاح منهم، ثم استدار لقتال الخوارج فضعفت قوته. عندها هاجمه عبد الملك واستمال قسما من جيشه بالمال وقتل مصعب في المعركة فاستولى عبد الملك على العراق.

دور الحجاج بن يوسف (٦٨٠ـ ٧١٤)

بعد مقتل مصعب بقي اخوه عبد الله ابن الزبير خليفة في مكة فارسل عبد الملك اليه الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق فحاصر مكة (٦٩٢) وضربها بالمنجنيق وطال الحصار ستة اشهر فانفضّ الناس عن ابن الزبير الذي استمر يقاتل الى ان قُتل وأرسل راسه الى دمشق. وهكذا زال ركن اخر من اركان الصحابة وتم الانتقام لعثمان.

بعد مقتل ابن الزبير اعاد الحجاج الامن الى الحجاز واليمن حتى اليمامة شرقا. ثم عهد اليه عبد الملك ان يخمد الفتنة في العراق وكان متمردا ساخطا يضج بثورات العلويين والخوارج. فذهب الى الكوفة واعتلى المنبر في المسجد والقى خطبته الشهيرة التي استهلها بالبيت :

انا ابن جلى وطلاع الثنايا   متى اضع العمامة تعرفوني

"يا اهل الكوفة ! اني لأرى رؤوسا قد اينعت وحان قطافها واني لصاحبها. وكاني انظر الى الدماء بين العمائم واللحى". ثم توعد اهل العراق ونعتهم بالشقاق والنفاق وقتل منهم كل من شك بمعارضته. وتتبع مع عبيد الله بن زياد قاتل الحسين، اهل البيت يستذلونهم ويقتلونهم، وكل من عُرف بالتشيع لهم سجنوه او نهبوا ماله. ثم ارسل الحجاج القائد المهلب بن ابي صفرة ضد الخوارج الازارقة وكانوا استولوا على كرمان وفارس وسواهما في المشرق وهم اصحاب نافع بن الازرق يكفّرون كل من لا يقبل عقيدتهم، فتغلب عليهم واستأصلهم عام ٦٩٨. ويدعي اعداء الامويين انه بلغ عدد من فتك بهم الحجاج وقتلهم ما يقارب الماية الف. وتجدر الملاحظة ان هذا القتل الكثير كان يجري بلفظة من الوالي او القائد دون اي اجراء قضائي يحافظ على حياة المواطنين وحقوقهم.

لم يكن الحجاج يثق بالعراقيين ولا بسكان البصرة والكوفة فابتنى بلدة على ضفة دجلة الغربية سماها واسط لتوسطها بين المدينتين وجعلها مقرا لحكمه واسكنها اهل الشام الذين اخضع بهم المناطق تحت ولايته. وكانت ثقته بجند الشام لا تعرف حدا، كذلك ولاؤه للبيت الاموي وقد بادله عبد الملك والوليد الثقة فاطلقا يده في مقاطعات المشرق.

في عهد عبد الملك وبنيه الاربعة بلغت الدولة الاموية اوج عزها ومجدها ووصلت الامبراطورية الاسلامية في عهد الوليد وهشام الى اقصى اتساعها فامتدت من المحيط الاطلسي وجبال البيرينيه غربا، الى نهر السند في الهند، والى تخوم الصين شرقا وهو اتساع لم تبلغه دولة اسلامية فيما بعد.

الوليد ابن عبد الملك (٧٠٥ _ ٧١٥)

خلف عبد الملك ابنه الاكبر الوليد الاول وكان متدينا ومهتما بالبناء. صادر كنيسة القديس يوحنا في دمشق وحولها الى المسجد الاموي الشهير وزاد في بنائها، كما بنى مساجد في المدينة والقدس. في عهده امتدت الفتوحات في آسيا الوسطى وشمال افريقيا والاندلس. ومع ان الوليد لم يشارك شخصيا بقيادة الجيوش فانه حظي بقواد تولوا القيادة بكفاءة ممتازة.

تدور الفتوحات الكبيرة في هذا العصر حول شخصيتين بارزتين هما الحجاج ابن يوسف الثقفي (٦٦١_ ٧١٤) في الشرق، وموسى ابن نصير في الغرب.

سارت الجيوش العربية فاخضعت ملك كابول (افغانستان). وتولى قتيبة بن مسلم على خراسان وعاصمته مرو فاجتازت جيوشه نهر جيحون واسترجع اقليم طخارستان وعاصمته مدينة بلخ (٧٠٥)، ثم فتح بخارى وسمرقند ما بين عامي ٧٠٦_ ٧١٠ وكلاهما من بلاد الصغد، ثم استولى على خوارزم. وعام ٧١٣_ ٧١٥ غزا الاقاليم المحيطة بنهر سيحون الذي يشكل الحد الطبيعي والسياسي والجنسي الفاصل بين الشعبين الايراني والطوراني (التركي) واستولى على مدينة فرغانة. وكان عبور هذا النهر اول تحدي عربي مباشر للشعوب التركية وللديانة البوذية. وقد احرق المسلمون معابد البوذيين في بخارى وبلخ وسمرقند.

في هذه الاثناء توجه محمد ابن القاسم، صهر الحجاج، الى الجنوب الشرقي على رأس جيش مؤلف من ستة الاف جندي من اهل الشام فاخضع منطقة كرمان، وعبر بلوخستان (٧١١) الى الهند واحتل منطقة السند وجنوب البنجاب التي بقيت بيد المسلمين قرونا طويلة.(١٦)

بالاضافة الى اعماله الباهرة في تثبيت الحكم الاموي والقضاء على الفتن، وفتوحات القواد الذين كانوا تحت امرته، اهتم الحجاج بالعلم اذ بدأ حياته كمدرس في الطائف حيث ولد. عُني بامر التنقيط لضبط الحروف المتشابهة الذي كان بدأه ابو الاسود الدؤلي. كما ساعد في نقل الحركات من ضم وفتح وكسر عن السريانية، واهتم بالعمران فحافظ على اقنية الري ونشط الزراعة ومنع الفلاحين من الانتقال الى المدن.

من ناحية اخرى، اهتم بالشعر فاتخذ جرير شاعرا له وكان يشكل مع الفرزدق والاخطل ثالوث الشعر في العصر الاموي، وجعل تياذوق النصراني طبيبه الخاص. (١٧)

توفي الحجاج سنة ٧١٤ اي سبق الوليد الاول بسنة.

سليمان ابن عبد الملك (٧١٥ _ ٧١٧)

خلف الوليد اخوه سليمان وكانت ولايته قصيرة برز فيها حصار القسطنطينية الثاني. فقد ارسل جيشا تحت قيادة مسيلمة ابن عبد الملك حاصر المدينة برا وبحرا مدة سنة كاملة (٧١٧_ ٧١٨) لكنه لقي مقاومة شديدة من الامبراطور ليو الثالث الذي صب "النار اليونانية" على من كانوا يحالون تسلق الاسوار وهي مزيج من المواد الملتهبة. كما هاجم البلغار الجيش العربي الذي كان يحاصر المدينة من الشاطئ الاوروبي ومن البوسفور. توفي أثناء ذلك الخليفة سليمان وخلفه عمر ابن عبد العزيز الذي ادرك أن جهود الحملة ونفقاتها تذهب سدى فامرها بالانسحاب وبذلك انتهت ثاني واخر محاولة عربية لاحتلال القسطنطينية وانشاء قاعدة لهم للتوسع في شرق اوروبا. بعد اربعة عشر عاما في عهد هشام بن عبد الملك جرى شيء مماثل في غرب اوروبا اذ هُزمت الجيوش العربية في معركة بواتييه (٧٣٢) وقُتل قائدها عبد الرحمن الغافقي وكان ذلك نهاية التوسع العربي في اوروبا الغربية.

عمر ابن عبد العزيز (٧١٧_ ٧٢٠)

اوصى سليمان بن عبد الملك بالخلافة بعده الى عمر ابن عبد العزيز ابن مروان الاول. ولد عمر في المدينة وتوفي قرب حلب وهو ينتسب عن طريق

والدته الى الخليفة عمر بن الخطاب ولعل ذلك يفسر سبب تدينه خلافا لمعظم الخلفاء الامويين. كان والده عبد العزيز واليا على مصر، اما عمر فقد عينه الوليد الاول عام ٧٠٦ واليا على الحجاز.

لم يهتم عمر ابن عبد العزيز بالفتوحات والسياسة واتخذ منحى مخالفا لسيرة الخلفاء الامويين منصرفا الى تطبيق القواعد الدينية. فبعدما رفع الحصار عن القسطنطينية سعى الى استمالة الفئات الدينية والموالي. فساوى بينهم وبين العرب بالمقام وبالفروض المالية، ورفع الجزية عمن يعتنق الاسلام، وطبق الشروط العمرية على اهل الكتاب فدخل عدد كبير منهم في الاسلام تخلصا من الجزية والاذلال فنقصت موارد الخزينة نقصا كبيرا وتعرضت الدولة لازمة مالية. وقد اغضبت هذه الاجراءات العرب المتمسكين بعصبيتهم وبتفوقهم العنصري. ثم عزل عددا من حكام المقاطعات الذين عينهم الخلفاء السابقون، واستفحلت في عهده النزاعات بين عرب الشمال والجنوب وبدأ كيان الدولة يتصدع.

يلاحظ انه كلما جاء خليفة او سلطان او حاكم وصفه المؤرخون المسلمون بالتدين والتقوى ترافقت اعماله غالبا مع التعصب واضطهاد اصحاب الديانات الاخرى بمعنى ان التديّن في المفهوم الشعبي يترافق مع اضطهاد غير المسلمين.

هشام ابن عبد الملك (٧٢٤ ـ ٧٤٢)

استطاع هشام الذي خلف عمر ابن عبد العزيز ان يعيد للدولة بعض تماسكها خلال حكمه الطويل وان يتابع فتوحات الامويين فعيّن نصر ابن سيار عاملا على "ما وراء النهر" (اي ما وراء سيحون) فاخضع معظم آسيا الوسطى، واستولى على مدينة كاشغر في تركستان الصينية، وتابعت جيوش بني امية تقدمها فاحتلت مدينة شاش (طاشقند) (٧٥١) فاحتك الاسلام بعنصر جنسي جديد له ثقافته المغولية الخاصة. (١٨)

اما في الغرب فقد احتلت جيوش موسى ابن نصير شمال افريقيا ثانية واستولت على الاندلس ووصلت الى اواسط فرنسا في بواتييه، وسياتي تفصيل ذلك في الفصل السابع.

في زمن هشام قام الامام زيد ابن علي زين العابدين بثورة مطالبا بالخلافة فحاربه هشام وقتله. والامام زيد هو الذي تنتسب اليه الفرقة الشيعية المعروفة باسم "الخمسية" او "الزيدية".

وقد حاول هشام ان يقصي الوليد الثاني ابن اخيه يزيد عن الخلافة ليولي ابنه فنشر اشاعات حول صفات الوليد وسكره ومجونه مما اضعف الخلافة وشجع المعارضين واعطاهم مادة للطعن فيها ومع ذلك لم ينجح في مسعاه . يُروى عن مساعي هشام ليحرم الوليد من الخلافة وينقلها الى ابنه مَسْلَمه الملقب بابي شاكر، ان الوليد دخل عليه مرة في مجلسه فساله الخليفة ما شرابك؟ فاجلب شرابك يا امير المؤمنين. وقام مغضبا ثم قال :

ايها السائل عن ديننا   نحن على دين ابي شاكر
نشربها صرفا وممزوجة   بالسخن احيانا وبالفاتر

فغضب هشام على ابنه وقال له يعيرني بك الوليد وانا اسعى لك بالخلافة؟ وكان هشام يعمل على مضايقة الوليد فقتّر عليه وقطع عنه عطاءه وارزاق اصحابه ومواليه. ثم توفي هشام في الرصافة ولما وصل نعيه الى الوليد قال :

طاب يومي ولذّ شرب السلافة   اذ اتاني نَعيُ من بالرصافة
واتانا البريد ينعي هشاما   واتانا بخاتم للخلافة
فاصطبحنا من خمرة عاتية   ولهينا بقينة عزّافة (١٩)

في زمن هشام اشتدت العصبية بين عرب الشمال والجنوب واستفحلت حركات الهاشمية انصار بني العباس وحركات الشيعة والموالي وقامت ثورات في سوريا والعراق وخراسان.

الوليد الثاني ٧٤٣ـ ٧٤٤

هو الوليد ابن يزيد ابن عبد الملك. وامه بنت اخ الحجاج ابن يوسف. كان من فتيان بني امية وظرفائهم وشعرائهم واجوادهم واشرافهم. وكان فاسقا خليعا وماجنا ماهرا في المجون منطويا عليه، غير مؤمن بالبعث ولا بالعقاب والثواب. (٢٠)

اشتهر عنه انه فتح القرآن وقرأ الآية "واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد

وراؤه جهنم ويُسقى من ماء صديد" فالقى المصحف ورماه بالسهام حتى مزقه ثم أنشد :

تهددني بجبار عنيد ها انا ذاك جبار عنيد
اذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقني الوليد

وقال ابياتا اخرى تدل على شكه :

ادرِ الكاس يمينا لا تدرها ليسار
أسق هذا ثم هذا صاحب العود النضار
من كَميت عتقوها منذ دهر في جرار
ختموها بالافاوية وكافور وقار
فلقد أيقنت اني غير مبعوث لنار
وذَروا من يطلب الجنة يسعى لتبّار

والوليد هو الذي فتح باب الخمريات في الشعر لمن جاء بعده من الشعراء وينسب اليه صاحب الاغاني ان الشعراء العباسيين، ومنهم ابو نواس، اخذوا كثيرا عنه في الخمر. وكان من ندمائه مطيع بن اياس وهو من الشعراء الخليعين، وحمّاد الراوية.

ساءت سمعة الوليد بين المتدينين وكان المعتزلة من بين الناقمين فحرضوا عليه يزيد الثالث ابن الوليد الاول وكان تقيا يتبع مذهب المعتزلة وناصروه مع بعض اهل دمشق ومحيطها فقتلوه. (٢٢)

في زمن الوليد الثاني قام الامام يحيي ابن زيد من الشيعة الخمسية بثورة في خراسان يطالب بالخلافة فقُتل وكان مصيره كمصير ابيه الامام زيد مع هشام بن عبد الملك.

بعد الوليد تولى الخلافة في عام واحد (٧٤٤) يزيد الثالث واخوه ابراهيم ابنا الوليد الاول وخلفهما مروان الثاني ابن محمد وبه انتهت الدولة الاموية.

مروان الثاني وسقوط الدولة الاموية

هو مروان ابن محمد حفيد مروان الاول وامه جارية كردية.

كان مروان الثاني رجلا نشيطا قادرا لكنه تولى الخلافة سنة ٧٤٤ لما كانت عناصر الانحلال قد تفاقمت والقوى المعارضة اشتدت. وارتكب مروان

خطأ كبيرا لما نقل عاصمته من دمشق الى حرّان في شمال سوريا فانصرف عنه اهل الشام وهم عماد الدولة الاموية.

اسباب زوال الدولة الاموية

اسباب زوال الدولة الاموية كثيرة. اولها عصبية العرب ضد الموالي وحقد هؤلاء على الامويين بعدما ازداد عددهم بالفتوحات وتحسنت احوالهم لما ساواهم عمر بن عبد العزيز بالعرب.

ثانيا، العصبية القبلية العربية التي قسمت العرب قبائل متنافرة فكانوا يتقاتلون فيما بينهم رغم وضوح خطر الموالي.

ثالثا، عداوة آل البيت الدائمة وجهودهم لنقل الخلافة اليهم ويطلق عليهم ايضا اسم العلويين او الشيعة.

كان العراقيون يحسدون بلاد الشام على مكانتها فآزروا آل البيت واصطبغت معارضتهم بلون ديني.

رابعا، الى جانب الدعوة الشيعية قام من سلالة العباس عم النبي من يطالب بالخلافة باعتبارهم احق بها لقربهم من الرسول. والعباس هو في الوقت ذاته عم الامام علي بن ابي طالب وينتسب الجميع الى جدهم هاشم لذلك سمّيت الدعوة العباسية في البداية "الهاشمية". وقد اوهم العباسيون اولاد عمهم العلويين بانهم يدافعون عن حقوق بني هاشم وانهم حماة الدين تجاه تفريط الامويين فاتحد الفريقان في مسعاهم.

خامسا، الشعور القومي الايراني الذي عاد بعد زوال اثر الصدمة الاولى والهزيمة التي مُني بها الفرس قبلماية عام وعاد معه الاعتزاز بماضي الفرس وبحضارتهم وبتفوقهم على العرب وكان ذلك واضحا بصورة خاصة في اهل خراسان.

تجمعت هذه العناصر كلها ضد الامويين. واسند العباسيون الزعامة الى أبي العباس الذي اخذ على نفسه العهد بأن يُرجع منهاج السلف الصالح. وكانت الدعوة سرية كالدعوة الشيعية الى ان اظهر الثورة في خراسان ابو مسلم الخراساني في ٩ يونيو ٧٤٧ وهو مولى فارسي من اصل مجهول. زحف ابو مسلم على مدينة مرو عاصمة خراسان بجيش معظمه من فلاحي الفرس

والموالي. وعبثا حاول نصر بن سيار عامل الامويين على خراسان الحصول على نجدة من الخليفة مروان الثاني الذي كان مشغولا بقمع ثورة انتشرت من حمص الى فلسطين.

تلا سقوط مرو سقوط الكوفة (٧٤٩) التي بايعت ابا العباس ونودي به خليفة. جرت اخر موقعه بين مروان والعباسيين في شهر يناير ٧٥٠ على الضفة اليسرى لنهر الزاب الكبير احد روافد دجلة وكان يقود جيش العباسيين عبد الله ابن علي عم الخليفة الجديد فانهزم جيش مروان وفر هو الى مصر حيث قبض عليه وقتل. وبذلك سقط الامويون وزال مجد الشام وانتهى سلطانها، وانقضى العصر العربي الخالص في تاريخ الاسلام وابتدأ العصر الفارسي الذي تلاه بعد نحوماية عام العصر التركي.

في العصر العباسي الجديد تحرر العراق من سيطرة الشام، وثار آل البيت من آل امية وان كانوا تعرضوا بعدئذ لاضطهاد العباسيين، وتحرر الموالي بل تحكموا، واصبحت الدولة تتجه شرقا فالعاصمة انتقلت الى الكوفة على حدود فارس ثم الى الانبار ثم الى بغداد، واصبح حرس الخليفة الخاص من اهل خراسان، واحتل الفرس مناصب الدولة الرفيعة وقيادة الجيوش، وحلت محل الارستقراطية العربية طبقة الموظفين من اجناس مختلفة، واخذ المسلمون العرب يمتزجون بالزواج مع الاجناس الجديدة التي دخلت في الاسلام، وقامت القومية الايرانية محل العصبية العربية. (٢٢)

الامويون وآل البيت

لم يستكن الشيعة بعد مقتل الامام علي والبيعة بالخلافة لمعاوية. وكان اسم الشيعة في العهد الاموي يطلق على المعارضين من آل البيت وآل عباس الذين شكلوا جبهة واحدة متعاونة.

وقد قام الائمة من آل البيت بثورات متلاحقة قمعها الامويون بقسوة وفيما يلي ملخّص لها.

قام الحسين ابن علي يطالب بالخلافة في عهد يزيد ابن معاوية فقتل سنة ٦٨٠.

وكافح الحجاج ابن يوسف (٦٨٠ــ ٧١٤) آل البيت واتباعهم واشياعهم

في العراق والجزيرة وقتل منهم الكثيرين.

وخشي سليمان ابن عبد الملك (٧١٥_ ٧١٧) من مطامع ابي هاشم عبد الله ابن الامام محمد الملقب بالنفس الزكية فسمّه.

وثار زيد ابن علي إمام الزيدية على هشام بن عبد الملك (٧٢٤_ ٧٤٣) فقُتل.

وثار يحيى ابن زيد على الوليد الثاني (٧٤٣_٧٤٤) فقُتل ايضا.

وقبض مروان الثاني (٧٤٤_ ٧٥٠) على ابرهيم ابن محمد الذي آلت اليه الدعوة العباسية وقتله.

الحياة الاجتماعية والفكرية في العصر الاموي

تجاذب النفس الاموية عاطفتان : الحنين الى حياة البداوة، والتطبع بالحياة المدنية الدمشقية التي تصقل النفس وتهذب الطبع وتليّن الخلق وتؤدب الغرائز. اما الجاذب الاول فقد ظهر في بناء القصور في اطراف بادية الشام التي كان يؤمها الخلفاء والامراء للصيد والعاب الفروسية والشرب واللهو، وظهر الجاذب الى البداوة بالتزوج من بنات القبائل كما فعل معاوية ويزيد وغيرهما من الخلفاء والاشراف فبقيت صلاتهم بالبادية وثيقة.

اما التطبع بالحياة المدنية فكان تطورا طبيعيا اقتضته ظروف المعيشة في مجتمع مدني راقي، وظروف المال الوفير والرقيق الكثير من مختلف الاجناس الذي تدفق على البلاد من الفتوحات حتى كان للجندي العادي في الجيش السوري منذ معركة صفّين عدد من الخدم يتراوح بين الواحد والعشرة يقومون على خدمته. وكان الجندي يتقاضى مرتبا حسنا، بالاضافة الى ما يحصل عليه من غنائم فكانت الجندية مهنة مربحة. (٢٤) فاذا كان هذا حال الجندي فكيف يكون حال الخلفاء والامراء واشراف الناس.

وقد كان شرب الخمر امرا معتادا بين النصارى وهم اكثرية السكان. ولم تكن الخمرة غريبة عن العرب، الحضر منهم وسكان البادية، حتى قيل ان اشهى شيء عند العربي بعد النساء هي الخمرة والميسر. وكان ذلك عادة متواصلة من الجاهلية الى الاسلام. فقد ظل كثير من الاعراب سكان البادية على معرفة قليلة وسطحية بالاسلام فكانوا يعكفون على الشراب، ويتبعون

تقاليد قبائلهم ويعقدون الويتهم، ويحاربون القبائل المعادية لهم، كما كانوا يفعلون قبل الاسلام. (٢٥)

فلما جاءت الفتوحات وكثر الرقيق، عمت في الحجاز حياة فرح ومرح وطرب وشراب وتشبيب بالنساء ولهو لدى اولاد الصحابة وغيرهم الذين لم يعرفوا الا سعة العيش والبذخ والثراء، فكانت مكة والمدينة في ذلك العصر، وهما مهبط الاسلام، اقرب الى اللهو والمجون والتفنن في اللذة بما فيها من شرب وغناء وغزل، من دمشق عاصمة الملك وذلك لكثرة ما ورد الى الحجاز من جواري ومغنين ومغنيات وراقصات. (٢٦)

تتابع ذلك في العهد الاموي حيث عاش كثير من شبان بني هاشم عيشة هي اقرب الى الجاهلية منها الى الاسلام : شرب وصيد وغناء وغزل ورقص.

وقد انتشرت مجالس الشراب والمنادمة التي تضم الجواري والمغنيين في قصور الخلفاء والامراء والاغنياء ابتداءاً من عهد يزيد بن معاوية. ففي زمانه يقول المسعودي، اظهر الناس شرب الشراب وغلب على ولاته ما كان يفعله. ولا نرى ان ما فعله الامويون يختلف عما كان يمارسه اولاد الصحابة في مكة والمدينة في الفترة الزمنية ذاتها.

للامويين فضل تعريب الدولة ابتداء من عهد عبد الملك بن مروان اذ بدأت اللغة العربية تحل محل اللغات اليونانية والارامية والفارسية في اجهزة الدولة والدواوين وابتدأ العرب يشغلون المناصب الادارية محل الفرس واليونان والاراميين. وتابع خلفاء عبد الملك هذه السياسة الى ان تعربت اجهزة الدولة تماما.

كان العرب يتعاملون منذ الجاهلية بنقود بيزنطية ذهبية من دنانير واجزائها، وبدراهم فضية فارسية، فسك عبد الملك اول نقود عربية حلت محل النقود الاجنبية وانتشرت في انحاء العالم الاسلامي.

لم يكن للخلفاء الامويين اهتمام كبير بشئون الدين اذ انصرفوا لتثبيت ملكهم وللفتوحات فتركوا باب الاجتهاد مفتوحا لمن اراد من الفقهاء. ووُجد في عهدهم ائمة كثيرون يجتهدون اشتهر منهم الامام عبد الرحمن الاوزاعي الذي لقب "امام اهل الشام" اذ ولد في بعلبك وعاش في الشام. لكن مذاهبهم

اندمجت في مذاهب جاءت بعدها او اندثرت. وظهر في اواخر الدولة الاموية امامان من الائمة الاربعة : الامام ابو حنيفة في العراق والامام مالك بن أنَس في المدينة. وكان القضاة ايضا يجتهدون فقد يُصدر قاضي حكما بمسألة ثم يُصدر قاضي اخر حكما مختلفا في مسألة مشابهة فلا تتدخل الدولة في الامر.

يؤخذ على بني امية، وينطبق هذا ايضا على بني العباس ومن خلفهم من السلاطين، شدتهم في معاملة خصومهم ومعارضيهم. فقد كانت لفظة من فم الخليفة او واليه تكفي لقتل انسان او سجنه او مصادرة امواله اي ان مفهوم "حكم القانون" الذي تعتز به المجتمعات المتمدنة حاليا لم يكن معروفا. ويبدو ان الحكام خلال الاجيال الاسلامية المتعاقبة طبقوا الشريعة سلبيا بمعنى انهم امتنعوا عن عمل ما نهت عنه لكنهم تصرفوا بحرية تامة في الامور التي لم تتعرض لها صراحة خاصة في قضايا الحكم وتسلط الخليفة وولاته على السكان.

ظهر في العهد الاموي كثير من الحركات الدينية الفلسفية التي ازدهرت بعدئذفي العصر العباسي اشهرها المعتزلة التي اعتمدت على تحكيم العقل دون النقل في الامور الدينية فنزهوا الله عما يقوله خصومهم من انه قدّر على الناس المعاصي ثم عاقبهم عليها. وقالوا ان الانسان حرّ فيما يفعله ومن اجل هذا عُذّب على ما يفعل.

نشأ الاعتزال في البصرة وسرعان ما انتشر في العراق واعتنقه من خلفاء بني امية يزيد ابن الوليد ومروان الثاني ابن محمد. وسيأتي بحث اوسع في للمعتزلة في الفصل السادس.

ظهرت ايضا حركة القَدَرية التي تقول ايضا بحرية الارادة بخلاف الجبرية، وهي تمثل رد فعل لما جاء به الاسلام من تسليم للقضاء والقدر الناجم عن الاذعان لعظمة الآله وهو ما شدد عليه القرآن (سورة آل عمران ٢٥ـ ٢٦، وسورة الشورى ٢٦، وسورة الزخرف ١٠، وسورة القمر ٤٨). والقَدَرية تنم عن مؤثرات يونانية نصرانية وهي اقدم مدارس الفكر في الاسلام ويدلنا على سعة انتشار مبادئها ان اثنين من خلفاء بني امية هما معاوية الثاني ويزيد الثالث كانا من اتباعها.

نشأت ايضا حركة المرجئة التي ارادت ان تحد من الخلاف القائم بين

الفرق الاسلامية المختلفة وكانوا يريدون التساهل والوفاق فقالوا انه لا يجوز اصدار الحكم على الفرقاء المختلفين في المسائل الدينية من خلافة وغيرها ويجب ترك الامور ليقضي بها الله لا البشر.

ظهرت ايضا طبقة من الشعراء الموهوبين منهم عمر ابن ابي ربيعة (توفي ٧١٩) حامل لواء الشعر الغزلي في الادب العربي، وجميل بن معمر من بني عذرة وهي قبيلة نصرانية من اصل يمني سكنت وادي الحجاز ويكنى باسم جميل بثينة على اسم محبوبته وهو شاعر عذري (توفي ٧٠١) وقيس ابن الملوّح المشهور بمجنون ليلى.

ظهر ايضا حمّاد الراوية (٧١٣ــ ٧٧٢) وهو فارسي من موالي شيبان. ولد في الكوفة وكان والده من اسرى الديلم، نادم الوليد ابن يزيد واشتهر بذاكرة خارقة وكان يروي الالاف من اشعار العرب ويُتهم بانه انتحل الكثير منها وهو جامع المعلقات العشر.

لكن زعامة الشعر العربي في العصر الاموي كانت للثلاثة المتعاصرين : الاخطل والفرزدق وجرير. فالاخطل (٦٤٠ــ ٧١٠) ولد في الحيرة واسمه الكامل غياث ابن غوث ابن الصلت الاخطل صار نديما لزياد بن ابيه وللحجاج ثم انتقل لرعاية يزيد الاول وعبد الملك بن مروان.

اما الفرزدق فهو تمام ابن غالب ابو فراس (٦٤١ــ ٧٣٠) اصبح نديما للوليد الاول وحظي ايضا برعاية سليمان ابن عبد الملك لكن عمر ابن عبد العزيز فضل عليه جريرا. وولد الشاعر الثالث جرير ابن عطية ابن الخطافة (٦٥٠ــ ٧٢٩) في اليمامة من قبيلة كليب وتمتع برعاية الحجاج ثم انتقل الى منادمة الخليفة عمر ابن عبد العزيز.

ويُعتبر جرير اشهر شاعر هجّاء تبارى مع الفرزدق في هذا النوع من الشعر. مثّل هذا الثلاثي الفترة الادبية الانتقالية من الشعر البدوي المتصل من ايام العصر الجاهلي، الى الشعر المدني الممثل للحضارة الاسلامية الجديدة التي نشأت في العصر العباسي وجاءت بشعر وادب يختلف بتركيبه والفاظه ومعانيه عما سبقه. وسنعطي نماذج عن ذلك في الفصل السادس.

وقد نظم الشعر بعض الخلفاء ومنهم من نظم شعرا غنائيا وكان اول من دونت له صنعه منهم الخليفة عمر بن عبد العزيز . من اقواله : (٢٧)

علق القلب سعادا عادت القلب فعادا
كلما عوتب فيها او نهى عنها تمادا
وهو مشغوف بسعدى قد عصى فيها وزادا

الخلاصة

يعتبر بعض المؤرخين ان الفتوحات العربية، وكلها جرت تقريبا في عهد الخليفتين عمر وعثمان وخلفاء بني امية، كان الفوز الاول فيها للقومية العربية لا للدين الاسلامي اذ ان الاكثرية العظمى من سكان سوريا والعراق وفارس وآسيا الوسطى والهند ومصر وشمال افريقيا لم تدخل في دين محمد حتى القرن الثاني او الثالث للهجرة. اذن فبين الفتح العسكري والفتح الديني حقبة قرنين او ثلاثة من الزمن.

لما لحق الفتح الديني بالفتح العسكري وانتشرت اللغة العربية بين الشعوب المغلوبة سار العرب والمستعربون في منهاج الثقافة بخطى واسعة فاصبح الاسلام ثقافة وركز اركانه على اساس ما جاء به الدين وما ورثه من حضارة السريان والاراميين والفرس واليونان التي تحدرت اليه. وبالاسلام استطاع الشرق الادنى ان يسترجع ماضيه المجيد في ميدان السياسة والثقافة حيث تسنى له ان يعيد سيادته الفكرية لاجيال طويلة. (٢٨)

لقد بحثنا في الفصل الثالث النظرية السياسة الاسلامية ووجدنا انها تفتقد الجزء المكمل والمنفذ لها اي المؤسسات السياسية التي تضع النظرية موضع التطبيق وتبيّن كيفية تنصيب الخليفة، وطريقة انتقال السلطة الى من يليه باسلوب سلمي متفق عليه، وصلاحيات الخليفة وحدودها في ممارسة السلطة، والضوابط التي تردع الحاكم عن الطغيان على ارواح الناس واموالهم وحرياتهم.

ولما مارس الخلفاء الراشدون السلطة الفعلية لم يلقوا بالا الى هذا الفراغ في النظرية ولم يشكل سلوكهم نمطا متتابعا يصح اقتداؤه لان كلا منهم تولى الخلافة بشكل مختلف ونقل الخلافة الى من يليه بصورة جديدة. ولم يهتم

احد منهم بانشاء مؤسسات سياسية تضمن استمرار الحكم حسب قواعد واضحة .

ورث الامويون هذا الوضع الدستوري الناقص فساروا على منواله ولم يعملوا شيئا لسد الثغرات الواضحة فيه وكل ما فعلوه انهم حصروا الخلافة في عائلتهم لكنهم تركوها تتنقل من فرد الى اخر دون ضابط واضح، كما تابعوا مبدأ الاستخلاف الذي بدأه ابو بكر، اي ان يعهد الخليفة الى من يريد ان يخلفه فيبايعه الناس. لكن هذه القاعدة كان ايضا يشوبها الغموض. فقد راينا ان هشام ابن عبد الملك اراد ان يعهد الى ابنه مكان الوليد فلم يتمكن.

وعلى العموم فان الامويين لم يفعلوا شيئا ليتلافوا النقص الدستوري الذي ورثوه من العهد السابق.

* * *

مراجع الفصل الخامس

السياسة في الدولة الاموية

١ ـ الطبري، تاريخ الرسل والملوك ، ج٢، ص ٢.

٢ ـ حتي، فيليب، تاريخ العرب، ص ٢٥٢.

٣ ـ دائرة المعارف الاسلامية، مادة "الشام"

٤ ـ الدكتور اسد رستم، استاذ التاريخ في الجامعة الامريكية في بيروت في حديث مع المؤلف.

٥ ـ حتي، فيليب، سبق ذكره، ص ٩٩.

٦ ـ الطبري، سبق ذكره، ح ٢، ٨٥٤ـ ٨٥٥.

٧ ـ حتي، فيليب، سبق ذكره ص ٢٩٩.

٨ ـ المصدر السابق، ص ٢٥٩.

٩ ـ ابن عساكر ج ٥، ص ٨٠ .

١٠ـ حتي، فيليب، سبق ذكره، ص ٢٥٩.

١١ـ احمد امين، ضحى الاسلام، ج ١، ص ٢٦.

١٢ـ حتي، فيليب، ص ٢٥٠ـ ٢٥٥.

١٣ـ ابن خلدون، المقدمة، ج ٢، ص ٩٧.

١٤ـ ابن الاثر، الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٢٥١.

١٥ـ القاسمي، ظافر نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الاسلامي، ج١، ص ١٩١، ١٩٢.

١٦ـ حتي، فيليب، سبق ذكره، ص ٢٧٢ـ ٢٧٧.

١٧ـ المصدر السابق، ص ٢٨٥.

١٨ـ المصدر السابق، ص ٢٧٥.

١٩ـ الاصفهاني، ابو الفرج، الاغاني، ج ٦، ص ١٠١.

٢٠ـ طه حسين، حديث الاربعاء، ص ٩٩.

٢١ـ الاغاني، ج ٢، ص١٢٥.

٢٢ـ احمد امين، ضحى الاسلام، ج٢، ص ٨٢.

٢٣ـ فيليب حتي، سبق ذكره، ص ٢٥٨.

٢٤ـ المصدر السابق، ص ٢٠٤.

٢٥ـ احمد امين، فجر الاسلام،ج١، ص ٩٩.

٢٦ـ طه حسين، حديث الارتعاء، ص ٢١.

٢٧ـ الاغاني، ج ٦، ص ١٤٩.

٢٨ـ حتي، فيليب، ص ١٩٧.

الفصل السادس

تغيُّر المجتمع الاسلامي في العصر العباسي

المقدمة

كان الفتح مصدر قوة ومصدر ضعف للمسلمين في آن واحد. كان مصدر قوة. لانه بسط سلطان المسلمين على اقطار كثيرة وجبى لهم من اموال الامم المغلوبة ما لم يكن يخطر لهم ببال. لكن هذا المال الكثير الذي انهال على العرب دون جهد الا الجهد العسكري كان ايضا مصدر ضعف لانه خلق في نفوس العرب حاجات لم تكن معروفة، واظهر لهم فنونا من الترف اغرتهم فتعوّدوا عليها واستمتعوا بها. وقد بدأ ذلك في الصحابة مع فتوحات عهد الخليفة عمر بن الخطاب واستفحل في عهد الامويين وبلغ اوجه في عهد العباسيين. والمال الكثير خصوصا الذى يأتي دون جهد منتج يغري بالاستزادة منه، والاستزادة تفتح ابوابا من الطمع. واذا وُجد الطمع رافقه البغي وتبعه التنافس والتباغض والتهالك على الدنيا. (1)

يعتزّ العرب بفتوحاتهم ويفاخرون بها الاقوام الاخرى للسرعة التي قهروا بها شعوبا اكثر منهم عددا وارقى حضارة، ويركزون على الانتصارات العسكرية التي كانت حقا مذهلة. لكن هذه الانتصارات نفسها كانت مصدر ضعف لانها اخضعت للدولة الاسلامية كثرة من الناس لا يريدونها ولا يؤمنون بها وانما يخافون منها ويرهبون سطوتها. وقد رأينا انه بالاضافة الى من اسلموا عن قناعة وايمان، اسلم كثيرون لمصلحة شخصية. منهم من اعتنق الاسلام تقرّبا للخلفاء وللولاة استدرارا للمنافع، ومنهم من فعل ذلك فرارا من

الجزية والمهانة، ومن الناس من اسلم ولم يؤمن كما جاء في القرآ ن : "قالت الاعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الايمان في قلوبكم". بل كان من الاعراب من جرت كلمة الاسلام على لسانه لكن احتفظ بجاهليته كاملة في قلبه ونفسه وضميره. (٢)

فاذا كان هذا حال بعض العرب والدين دينهم والنبي منهم، فما بالك بحال الامم الاعرق التي خضعت للفتح من فرس وروم واقباط ويهود ونصارى وكل منهم له دينه الذى ربي عليه وتشرّب معتقداته.

لذلك لم يمض وقت طويل حتى تغلب المغلوبون على الغالبين وبدّلوا المجتمع الاسلامي حتّى لم يعد يوجد شبه بينه وبين مجتمع النبوة والخلفاء الاربع الأُول، واختلف كثيرا ايضا عن العهد الاموي. وانتقل النفوذ السياسي والعسكري من العرب الى الفرس منذ بداية الدولة العباسية وتبع ذلك خروج الحكم من يد العرب نهائيا الى اقوام اخرى (فارسية وتركية ومغولية وكردية وبربرية وعثمانية).

في مجال الفكر والادب والشعر واللغة والطب وباقي العلوم كان للموالي الباع الطويل فيها جميعا بعدما تعلموا اللغة العربية واتقنوها ووضعوا لها القواعد ودوّنوها، ونظموا الاشعار على منحى جديد، وجمعوا الحديث ورتّبوه، ووضعوا الكتب الادبية مستوحاة من الثقافات المختلفة. وبقي اكثر علم الطب والفلك في يد النساطرة واليعاقبة كما انفرد السريان بترجمة العلوم والفلسفة اليونانية التي اسس عليها المسلمون علومهم.

امتزاج الاجناس والثقافات

يقول الاميركيون ان الولايات المتحدة عبارة عن وعاء كبير يذوب فيه وينصهر كل الافراد والجماعات الذين يَفدون اليها مهاجرين فتتشكل منهم ومن ذراريهم امة واحدة متجانسة. وليس اكيدا ان الواقع يثبت هذا الادعاء.

والاسلام ايضا استوعب شعوبا واجناسا مختلفة ومتباينة عن طريق الفتح، ودعا الى المساواة بينها، وسعى الى ان تُنكر الشعوب انتماءاتها القومية والعرقية واللغوية والحضارية وتندمج بكليتها في الاسلام. فهل تحقق ذلك؟

بحثنا في الفصل الثالث قواعد الاسلام في الاستيلاء على البلاد المفتوحة

ومعاملة سكانها وتوزيع المال والرقيق على المحاربين. وبما ان الاسلام يفرض نشر الدين الاسلامي حتى يعمّ العالم فان الحروب كانت متواصلة وكان النصر في اكثرها للمسلمين. نتج عن ذلك ان الرقيق اصبح لا يحصى لكثرته وصار لكل مقاتل عربي عبيد واماء.

أثر الجواري

احلّ الاسلام للرجل ان يتخذ اربع زوجات وان يمتلك الى جانبهن ما شاء من الجواري. ومن ملك جارية فله ان يستمتع بها. ولا يتقيد الرجل في ذلك بعدد. لذلك كان في البيت الاسلامي زوجة او زوجات، وعدد من الجواري يستمتع بهنّ رب البيت ويستولدهن واطلق على ذلك اسم "التوليد".

كان ميل الرجال الى الجواري اكثر منه الى الحرائر ذلك ان الرجل يتزوج الحرة حسبما تصفها له الخاطبة دون ان يراها، في حين انه يتأمل كل شيء في الجارية قبل ان يتملكها. ومن اقوال العرب : "الأمة تُشترى بالعين، وتُرد بالعيب. اما الحرة فغلّ في عنق من صارت اليه".

سبب اخر لتفضيل الجواري هو ان الجمال في كثير من نساء البلاد المفتوحة كان اوفر منه في حرائر العرب من بياض البشرة، وصفار الشعر، وزرقة العيون وما الى ذلك، عدا عن كونهن اكثر معرفة بحاجات العيش الرغيد.

كان الخلفاء والامراء والاغنياء وكل من له قدرة مالية يكثرون من امتلاك الجواري من الاقوام المختلفة للاستمتاع فنشأ عن ذلك نسل يجرى في عروقه دم الاب العربي والام غير العربية. ولم يقتصر هذا الامتزاج على اختلاط الدم. فالامهات ينتسبن الى اقوام مختلفة من فارسيات ورروميات وكرجيات وحبشيات وكرديات وارمنيات وهنديات وصقلبيات وتركيات الخ، فنشأ الاولاد في البيت المسلم من أب عربي وامهات مختلفات اللغات والثقافات والعادات والاتجاهات كل منهنّ تحمل خصائص قومها وتؤثر في تكوين اولادها الفكري فشكل الاولاد وامهاتهم "عصبة امم" في كل بيت فيه من النسل ما يحمل خصائص الامم المختلفة.

وقد مرّ معنا في الفصل الرابع كثرة ما اقتناه بعض الصحابة من الإماء

والعبيد ايام الخليفتين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان. وسار على منوالهم بنو امية ثم بنو العباس فكان في قصور الخلفاء مئات الجواري ان لم نقل الالاف، ومثل ذلك في قصور الامراء والوزراء والاغنياء. من ذلك انه كان في قصر الخليفة المقتدر احد عشر الف خادم خصيّ. وقيل ان المتوكل كان له اربعة آلاف سرية. واهداه احد قوادة مرة مئتي وصيفة ووصيف. وجرت بين الولاة عادة اهداء الخليفة والوزير هدايا تتضمن بعض الفتيات والا حسب الخليفة او الوزير تخلّفهم عن ذلك علامة العصيان. وينسب الى المأمون انه كان يرسل بعض وصفائه ووصيفاته الموثوق بهم هدايا الى عمّاله ليكونوا عيونا عليهم وجواسيس يوافونه باخبارهم ويدسّون لهم السّم اذا لزم الامر.

كان ابن الجارية يُسمّى هجينا ولا يتساوى مع ابناء الحرائر في العهد الاموي. الاّ ان ذلك تغير في اواخر حكمهم عندما قوي الموالي وتحسن وضعهم فتولوا مناصب هامة في الدولة.

وقد انجب بعض الخلفاء اولادا من الجوارى تولوا الخلافة من بعد(٢). فيزيد بن الوليد بن عبد الملك (٧٢٩ - ٧٢٤) ابن جارية فارسية وكذلك اخوه ابرهيم ابن الوليد. ومروان بن محمد اخر الخلفاء الامويين ابن جارية كردية. وابو جعفر المنصور امه بربرية اسمها سلامة. والمأمون ابن جارية فارسية اسمها مراجل. والمعتصم ابن جارية اسمها ماردة. والواثق ابن جارية اسمها قراطيس. والمتوكل ابن أمة اسمها شجاع. ومثل ذلك في الامراء والعلماء والشعراء. فكان من الطبيعي ان يقاوم هؤلاء "الهجناء" العصبية التي تحتقرهم ويشجعوا نقيضها.

اذا تابعنا تسلسل الخلفاء العباسيين وكبار العهد العباسي، واكثر امهاتهم جواري، لوجدنا ان الدم العربي في عروقهم يشكل نسبة ضئيلة من الدم غير العربي. وهذا من اسباب تحوّل شعور الخلفاء والامراء وكبار القوم عن العنصرالعربي.

هذا الرقيق من رجال ونساء لا يسترد حريته الا بان يُعتقه مالكه. وقد وُضعت نصوص خاصة للجارية التي تلد من سيدها فتسمى "ام ولد" وتصبح فوق منزلة الجارية التي لم تلد تتمع بحقوق ليست لغيرها من الجواري، منها انه لا يجوز لمالكها الذي استولدها ان يبيعها او يهبها. فاذا مات صارت

حرة. اما اولادها فهم احرار منذ ولادتهم.

اللقاح العقلي

ترافق "التوليد" بين الرجل العربي والنساء غير العربيات مع توليد عقلي نتج عن لقاح حدث بين الذين اسلموا من مختلف الجنسيات والمذاهب، وبين ما تضمنه الاسلام والعربية. فالرجل الفارسي واليوناني والهندي والتركي والمجوسي والنصراني واليهودي وغيرهم بقوا يحملون عقلية قومهم وتراث اديانهم وحضاراتهم فلما دخلوا في الاسلام وتعلموا اللغة العربية نشأ مزيج بين ما كان في نفوسهم من حضارة ودين سابق وبين ما تضمنه الاسلام.

وتأثرت العقيدة الاسلامية ايضا من هذا التلقيح. فقد نقل الذين دخلوا في الدين الاسلامي من المجوس والرومان والنصارى واليهود عقائد موروثة عندهم وفهموا الاسلام مختلطا بتقاليدهم الدينية والسياسية. فقامت فرق تمثل النزعات والعصبيات المختلفة ووُضعت المذاهب التي تعبر عن الاتجاهات المتغايرة، بعضها متأثر بالفلسفة اليونانية، ذهبت تتبسط في مناقشة الامور كالمعتزلة والقَدَرية والجبرية وغيرها، وبعضها يعمل على الكيد للاسلام، بالاضافة الى تبلور الدعوة الشيعية ثم انقسام الشيعة الى فرق متعددة من خمسية وسبعية واثني عشرية عدا عشرات الفرق التي اطلق عليها اسم "غلاة الشيعة" ومنهم النصيريون والدروز. وكانت هذه الفرق تتجادل بالقول احيانا وبالسيف احيانا اخرى.

أما في السياسة فقد ادخل الفرس على صفة الخلافة نظرتهم الى ملوكهم بانهم شبه آلهة خصتهم الله بالسيادة فهم ظلّ الله على الارض ما على الرعية الا طاعتهم وتجلت هذه النظرة بصفة خاصة لدى الشيعة تجاه الامام علي بن ابي طالب وابنائه وهي تشابه نظرة الفرس القديمة في الملوك الساسانيين.

في الاجتماع والادب والشعر والعلم كان للذين دخلوا في الاسلام من غير العرب الباع الاطول.

فعندما ما نشأ اللحن في اللغة لكثرة الاعاجم في المجتمع الاسلامي وما دخل عليها من الالفاظ الاعجمية وظهرت الحاجة الى قوانين تضبطها، وضع ابو الاسود الدؤلي قواعد التنقيط والتشكيل وعالج علم النحو، وتبعه سيبويه

وبعده الفارسي والزجّاج والكسائي والخليل بن احمد وجلّهم عجم. كذلك كان حملة الحديث وعلماء اصول الفقه وعلم الكلام واكثر المفسرين. ونرى من ذلك ان الفرس، بعدما تعلموا اللغة العربية، نافسوا العرب فيما كان يجب ان يبقى مجال امتيازهم اي الدين واللغة.

حياة الترف : الغناء والشراب والشعر

يبدو ان الشراب ومعاقرة الخمر بقي متواصلا في بيئات كثيرة بعد الانتقال من الجاهلية الى الاسلام. فقد ظل كثير من الاعراب سكان البادية على معرفة قليلة وسطحية بالاسلام فكانوا يعكفون على الشراب، ويتبعون تقاليد قبائلهم، ويعقدون الويتهم، ويحاربون القبائل المعادية لهم كما كانوا يفعلون قبل الاسلام. (٤)

فلما جاءت الفتوحات وكثر الرقيق، عمت في الحجاز حياة فرح ومرح وطرب وشراب وتشبيب بالنساء ولهو لدى اولاد الصحابة وغيرهم لكثرة ما ورد الى الحجاز من جواري ومغنين ومغنيات وراقصات. (٥)

تتابع ذلك في العهدين الاموي والعباسي حيث انتشر الغناء والشراب انتشارا عظيما وتذوقته مختلف الطبقات ومُلئت به الكتب والحكايات فهو من مستلزمات حياة الترف والرغد. وكان من اثر مجالس الطراب واللهو ان بعض الخلفاء واولادهم شاركوا بتلحين الاغاني وبالغناء فكان ذلك دافعا اجتماعيا لا يقاوَم ليسير الناس في مسراهم. اشتهر منهم ابرهيم ابن الخليفة المهدي وكان اتقنهم صنعة واشهرهم ذكرا في الغناء. كان يبتذل نفسه ولا يتستر ولا يحاشي احدا. غنىّ للرشيد وللامين فلما امّنه المأمون تهتك بالغناء وشرب النبيذ بحضرته وكان يخرج من عنده ثَمِلا. وكان اعلم الناس بالنغم والوتر والايقاعات واحسنهم صوتا. ومثله اخته عليّة بنت المهدي امها جارية ام ولد مغنّية يقال لها مكنونة. كانت عليّة من احسن الناس واظرفهم تقول الشعر الجيد وتصوغ فيه الالحان الحسنة. (٦)

من اولاد الخلفاء عبد الله ابن موسى الهادي ينظم الشعر ويلحنه، وعيسى ابن هارون الرشيد امه جارية ام ولد بربرية وكان من احسن الناس وجها ومجالسة وعشرة وامجنهم واحدّهم نادرة واشرّهم عبثا. يقول شعرا ليّنا

طيّبا. وكان المأمون محبا لاخيه يعدّه للخلافة بعده لكنه قتل في حادث صيد. ومثله عبد الله ابن الخليفة محمد الامين وامه جارية ام ولد. (٧)

قال احمد بن اسحق : دخلت على الخليفة الواثق وهو يغني ويشرب وكان صوته من احسن الاصوات. وكان المنتصر ابن المتوكل ينظم ويغني، وكذلك اخوه عبدالله ابو عيسى، والخليفة المعتز الذي تولى الخلافة وعمره سبعة عشر عاما، وابو العباس عبد الله ابن المعتز، والخليفة المعتمد، وابن اخيه الخليفة المنتصر. (٨)

ادّى الشغف بالغناء وما رافقه من شراب الى التفنن في انواعه ومجالسه والى انتشاره في جميع الطبقات. ولا يصير غناء دون شعر فظهرت طبقة من الشعراء من ايام الخليفة الاموي الوليد الثاني الى اخر الدور العباسي الاول نقلت الشعر العربي من الفاظ البداوة الخشنة وصورها واساليبها، الى تصوير المجتمع المتحضّر الجديد بالفاظ سهلة ليس فيها تكلف.

عاش هؤلاء الشعراء في بيئة عصرهم بل شاركوا في تكوينها وتطوير مجتمعها : شعرٌ وغناء وشرب وجواري والتماس اللذات في الحياة، اطلق عليهم منافسوهم اسم "الشعراء الخليعين" ومنهم مطيع ابن اياس، وحمّاد عجرد المعاصر لابي حنيفة، ويحيى ابن زياد، وبشّار ابن برد، ووالبة ابن الحباب الاسدي، وتلميذه ابو نواس الذي اخذ عنه الفسق العملي واللفظي وكثيرون غيرهم من طبقتهم. (٩) كان جميع هؤلاء من الفرس عدا والبة ابن الحباب. ثم جاءت طبقة تزعّمها ابو نواس اشد من سابقتها مجونا واكثر فجورا واقل حرصا على الاستتار منها الرقاشي، والعباس ابن الاحنف، ومسلم ابن الوليد، والحسين ابن الضحاك. (١٠)

كانت صحبة الجواري مكمّلة للشعر والغناء والشراب. فبالاضافة الى الجواري في قصور الخلفاء والكبراء والاغنياء نشأت طبقة اخرى يملكها النخاسون علموهن الغناء والشعر والادب والموسيقى والرقص وعرضوهن في مجالس او خمارات يقصدها الفتيان لسماعهن والتمتع بعشرتهن. وكان ذلك من اسباب نشر الخلاعة والمجون الذي تبارى به الشعراء الخليعون في ذلك العصر. وكان وراء ذلك سبب اقتصادي ايضا. فالجارية الحسنة المنظر والصوت التي تتعلم الغناء والشعر والادب تزيد قيمتها اضعافا لمالكها. كان

من كثرة المجون وفساد الخلق ان ظهر فنّ جديد من الغزل لم يكن معروفا من قبل وهو فن التغزّل بالغلمان وكان رائده ابو نواس. ولما ملك الخليفة الامين طلب الخصيان وابتاعهم وصيّرهم لخلوته في ليله ونهاره، ورفض النساء الحرائر والاماء وابعدهن عن مجلسه. (١١)

يقول الدكتور طه حسين ان القرن الثاني للهجرة كان عصر شك ومجون وتهتك وازدراء لكل ما هو قديم ديناً ام خلقا ام سياسة ام ادبا واجتماعا ويكفي ان يكون بدأ بالوليد الثاني (٧٤٣) وخُتم بالامين ابن الرشيد (٨١٣). ومع ذلك فأن هؤلاء الشعراء كانوا اصدق تمثيلا لعصرهم وتصويرا لحياته من الفقهاء والمحدثين واصحاب الكلام. (١٢)

كان هؤلاء الشعراء الذين شكّوا بكل شيء واسرفوا في المجون واللهو يجتمعون كثيرا في بيوت الامراء والوزراء، وفي بيوتهم الخاصة وفي الحانات، على حديث وشراب ومنادمة الجواري، احاديث عذبة غير متكلّفة تصدر عنهم عفواً فتمثل ميولهم وشغفهم وتهالكهم على اللذات مما كان له عظيم الاثر في مجتمعهم وفي الادب العربي كمجدّدين في معاني الشعر والفاظه.

هل كان هؤلاء الشعراء يبلغون الشهرة ويُفتَن بهم الناس في العراق والشام ومصر فيحفظون اشعارهم ويتناشدونها في مجالسهم ويتحدثون بقصصهم لو لم يكونوا يعبّرون عن عواطف الناس ومشاعرهم ونوع الحياة التي يمارسونها او يتشوقون اليها.

وهكذا كان الشك بكل شيء الى ان يثبت العقل صحّته فاشيا في ذلك المجتمع فعمّ المجون والخلاعة في اكثر الاوساط مستترا في بعضها وواضحا في غيرها.

اما الذين تستروا ونافقوا فكانوا اصحاب السلطان وكبار الناس الذين شكّوا وتبذّلوا كشكوك الشعراء ومجونهم لكنهم عاشوا حياتين مختلفتين: حياة للشعب يتظاهرون فيها بالتمسك بالدين ومراسمه وابّهة الخلافة والحكم، وحياة خاصة في قصورهم يلهون ويشربون ويفسقون. اما الشعراء فلم يتحرّجوا بالتصرف علانية بما آمنوا به والتغزل علانية بما يشعرون. وفي ما يلي لمحة عن بعضهم.

ابو نواس الحسن بن هاني (٧٦٢ - ٨١٤)

هو اشهر هذه الطبقة من الشعراء وشعره اكثر تداولا بين الناس وهوفارسي .ولد في الاحواز ونشأ في البصرة وتخرج في الشعر على الشاعر الماجن والبة بن الحباب فتفوّق عليه في تهتكه ومجونه. اتصل بالرشيد والامين ومات قبل ان ينقل المامون مقرّ خلافته من خراسان الى بغداد. وشعر ابي نواس مرآة لنفسه وعصره فنرى فيه عبثه ومجونه وتهتكه وكفره وازدرائه بالدين. مات في بغداد وعمره زهاء اربع وخمسين سنة (١٤)

بشّار ابن برد

هو فارسي يُرجع بعضهم نسبه الى ملوك الفرس وان كانت تحيط بذلك شكوك كثيرة. كان والده طيّانا وامه جارية رومية. ولد في البصرة ونشأ فيها وسكن حران مدة ثم انتقل الى بغداد وفيها توفي. كان اعمى جاحظ العينين، مجدور الوجه، ضخم الجثة وقد ضُرب المثل بقباحته. وكان سيء الخلق سريع الغضب، هجاءاً، مجاهرا بالسكر مشجعا على الزنى يغري النساء به، وكنّ يترددن اليه ويضربن معه المواعيد ويشاركنه في اللهو والعبث رغم قبح منظره. وكان زنديقا يشكك بالدين ويدعو الى دين الفرس، ويكره العباسيين كرها شديدا ويمدح العلويين.

كان بذيء اللسان، شديد الاذى زنديقا شعوبيا يتفاخر بامجاد الفرس ويفسد موالي العرب ويدعوهم الى الرجوع الى اصولهم وترك الولاء. عاصر الخليفة المنصور والمهدي ونادمهما، وشكاه الناس لتحريضه النساء على الفسق، وتفاخر بقومه على العرب ويقال انه هجا المهدي فامر بقتله ضربا. (١٥)

مطيع ابن أياس

أسمه مطيع ابن اياس الكناني وهو عربي من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية. كان ظريفا خليعا حلو العشرة ملح النادرة ماجنا متهما في دينه بالزندقة، مولده ومنشأه الكوفه. وكان ابوه من اهل فلسطين، عاشر الوليد ابن يزيد . (١٦)

حماد عجرد

حماد عجرد من الموالي نشأ بالكوفه وهو من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية. كان خليعا ماجنا متهما في دينه مرميا بالزندقة وكان نديما لمحمد ابن ابي العباس السفاح.

وكان بالكوفه ثلاثة يقال لهم الحمادون : حماد عجرد، وحماد الراوية وحماد الزبرقان، يتنادمون على الشراب ويتناشدون الاشعار. وكانوا يتهمون بالزندقة واشهرهم حماد عجرد الذي قال فيه ابو نواس انه امام من ائمة الزنادقة. (١٧)

والبة ابن الحباب

ومنهم الكوفي والبة ابن الحباب الاسدي وهو استاذ ابي نواس. كان ظريفا شاعرا غزلا وصّافا للشراب والغلمان المرد. وقد هاجى بشارا وابا العتاهية فتغلبا عليه فعاد الى الكوفة وخمل ذكره. (١٨)

هذه طائفة من شعراء ذلك العصر تبيّن قصائدهم نمط حياتهم وتعكس صورة مجتمعهم وقِيَمه. ولهم انداد كثيرون من شعراء العهد العباسي الاول. وقد سمع الناس هذه الاشعار وتناقلوها في مجالسهم واسفارهم وطربوا لالفاظها ومعانيها، وراجت عندهم لانها عبّرت عن احاسيسهم وعن طراز الحياة التي يتمتعون بها او يشتهونها.

مشاركة اصحاب السلطان
بمنحى الشعراء

لربما ما كان هؤلاء استرسلوا في مجونهم المكشوف لولا انهم وجدوا من اولاد الخلفاء وعلية القوم من يسير سيرتهم ويحميهم. فقد كان محمد ابن ابي العباس السفاح خليعا اتخذ حماد عجرد نديما له يصِلُه ويحميه. وفعلَ مثله جعفر ابن الخليفة المنصور الذى كان خليعا يحمي نديمه مطيع ابن اياس. وكان ولدا هارون الرشيد صالح وابو عيسى متهتكين ينادمهما الحسين ابن الضحاك فيحميانه وقد انتقل ابن الضحاك بعدئذ الى منادمة الخليفة الامين ثم اتصل بالمعتصم والواثق والمتوكّل فنادمهم. وتبع اولاد

الخاصة اولاد الخلفاء في تهتكهم فكان حفيد الفضل بن الربيع وزير هارون الرشيد مغنيا ماهرا وماجنا مستهترا (١٩) ومثله آدم حفيد الخليفة عمر بن عبد العزيز الاموي الذى كان خليعا ماجنا يشرب الخمر فيفرط في شربها وتجري على لسانه ابيات فيها مساس بالدين فاتّهم بالزندقة وامر المهدي بضربه ثلاثماية سوط. (٢٠)

وقد ترافق الخمر مع الشعر والغناء والجواري كما ذكرنا لكن الاسلام يحّرم الخمر في الآية : "انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه".

وقد اثارت هذه الآية اسئلة كثيرة لان العرب كانوا يشربون الخمر قبل الاسلام وبعده وكذلك الاقوام المفتوحة فتساءلوا : ما المراد بالخمر، أهي عصير العنب وحده ام كل مسكر؟ وما هوالقدر المحّرم؟ أكل نوع مما يُسكر كثيره فقليله حرام، ام بعض الانواع يحلّ قليله؟

ظهر هذا الخلاف في عهد الصحابة واستمر في عهد الائمة. فقال الائمة أنس بن مالك ومحمد بن ادريس الشافعي واحمد بن حنبل ان المنع يشمل جميع الانبذة المسكرة من نبيذ التمر والزبيب والشعير والذرة والعسل وغيرها. وقالوا انها كلها تسمّى خمرا وكلها محرّمة.

اما الامام ابو حنيفة ففسر الخمر في الآية بعصير العنب. وحلّل بعض انواع النبيذ المستمدة من الزبيب والتمر والعسل والتين. ويظهر ان ابا حنيفة تبع بذلك الصحابي عبد الله ابن مسعود إمام مدرسة العراق الذى كان يرى ان شرب النبيذ حلال وتبعه بذلك عامة فقهاء الكوفة.

وما دامت الخلافة في العراق، والغناء والشراب فيه، وقد اباحه او اباح بعضه فقهاء، فقد استرسلت فيه فئات كبيرة من مختلف الطبقات.

لقد قلنا ان هذا العصر كان عصر شك ومجون، لكنه كان ايضا عصر رياء ونفاق. فكان لكثير من الناس، وبينهم بعض الخلفاء والعلماء مظهران مختلفان يطلّون به على الناس : احدهما للعامة والجمهور يُبدون فيه الجدّ والتقوى والوقار، فاذا خلوا لانفسهم ولخاصتهم خلعوا العذار وتركوا لشهواتهم مداها. (٢٢)

الزهد والمديح

الى جانب هذه الطبقة من الشعراء التي مثّلت عصرها وشملت العرب والفرس، ظهرت النزعة الى الزهد وكان زعيمها الشاعر ابو العتاهية الفارسي الاصل (٧٤٨ - ٨٢٥). ولد ابو العتاهية في الكوفة ومات في بغداد وعاصر الخلفاء المهدي والهادي وهارون الرشيد وجُمعت اشعاره في ديوانه المسمى "الزهوديات".

وقد ملأ ابو العتاهية الادب العربي في عصره بالموت والتخويف منه وفيما بعده، وحضّ على احتقار اللذة والابتعاد عنها.

كان شعر ابي العتاهية موجهاً لعامة الناس لا للخاصة اذ قال "ان الزهد ليس من مذاهب الملوك ولا من مذاهب رواة الشعر. وهو مذهب اقرب الناس اليه الزهاد، واصحاب الحديث، والفقهاء، والعامة الذين لم تسعفهم الاحوال للحصول على الحياة السهلة الطيبة".

من شعراء العصر الذهبي الذين ذهبوا مذهبا ثالثا ابو تمام وطبقته. اسمه ابو تمام حبيب بن أوس (٨٠٤ - ٨٤٥) وهو من أب مسيحي اسمه تاديوس فغيّره الى أوس وانتحل لنفسه نسبا عربيا. ولد قرب دمشق وتوفي في الموصل. اشتغل في حياته حيّاكا ثم ذهب الى مصر ودرس الادب وبدأ ينظم الشعر. ثم التحق ببلاط الخليفة المعتصم واصبح اشهر الشعراء المداحين في عصره. زار ارمينيا ونيسابور في ايران وتوقف اثناء عودته في همدان حيث بدأ بكتابة ديوانه "الحماسة" جمع فيه افضل القصائد العربية القديمة.

من مدرسة ابي تمام ابو عبادة البحتري (٨٢١ - ٨٩٧) ولد في بلدة منبج قرب حلب في سوريا وبرز كاشهر الشعراء المداحين في الدور العباسي الثاني. التحق البحتري بابي تمام حوالي سنة ٨٤٠ فاحضره هذا الى بغداد حيث التحق بالخليفة المتوكل وصار شاعر القصر واستمر يتمتع برعاية الخلفاء الخمسة المتعاقبين الى ان انتقل الى مصر سنة ٨٩٢ واصبح شاعر الدولة الطولونية. اشتهر بشعر المديح وبسعيه الحثيث وراء كسب المال من شعره. اصدر كتاب "الحماسة" الذى جمع فيه، كابي تمام، اشهر القصائد العربية.

لا نود ان نوحي للقارىء ان جميع المسلمين في ذلك العصر كانوا على

سِعَة من العيش يتمتعون باطايب الحياة. فالحقيقة انه كانت فروق شاسعة بين الخاصة المرفهة وبين مجموع الشعب المحروم. وقد ادى الحرمان بهذه الطبقات الى اختلال الامن في بغداد على يد "العيارين والشطار" الذين عجزت الشرطة عن رد اذاهم عن الناس فكان اختلال الامن من اسباب نقل العاصمة من بغداد الى سامراء.

كما لا نريد ان نعطي الانطباع ان ما ذكرناه عن حياة الترف والغناء والشراب والجوارى والاباحة كان السمة الوحيدة للعهد العباسي الاول الممتد الى خلافة الواثق مع انها كانت سمة مميزة. فقد كان الى جانب هذا المجتمع حركة علمية ودينية ناشطة. ففي هذا العصرجُمع الحديث، وكُتبت السِيَر عن حياة النبي (راجع الفصل الثالث)، وتركزت المذاهب الفقهية الرئيسية الاربعة.

وفي هذا العصر ايضا ظهر "علم الكلام" في الرد على معارضي الاسلام، وظهرت حركات فكرية - دينية كالقدَرية والجبرية، والمعتزلة، والصوفية سنستعرضها باختصار في هذا الفصل.

الشعوبية : ردّ الموالي على العصبية العربية

ذكرنا في الفصل الاول ان العصبية القبلية في الجاهلية كانت اساس الالتحام الاجتماعي. وكان العربي ينجذب الى قبيلته يعتز بها وبمكارمها دون ان يشعر بالانتساب الى وطن جغرافي او الى مجموعة بشرية تشكل امة او دولة. وبقي العرب قبائل متفرقة تتقاتل فيما بينها.

مقابل هذا التشرذم العربي كان الفرس، وهم العنصر الاكبر اثرا في العهد الذي نبحثه، يشكلون امة بمعناها الصحيح اذ كان ولاؤهم مجتمعا للامة الفارسية بعد ان تجاوزوا طور البداوة من زمن بعيد فلم يعانوا من الانشقاقات التي جعلت من العرب قبائل متنافرة. وقلنا انه لما جاء الاسلام وتغلبت القبائل العربية على دولتي الروم والفرس دخل على النفس العربية شعور بالانتساب الى قوم وجنس ودم. فصاروا يعتزون بجنسهم العربي على باقي الشعوب التي قهروها من روم وفرس واقباط واتراك وصقالبة واتراك وهنود وغيرهم، وتملكهم الشعور بالسيادة والعظمة ونظروا الى غيرهم من الامم الاخرى نظرة السيّد الى المسود وعاملوهم على هذا الاساس الى ان جاء

العباسيون فتغيّر كل ذلك، فقد اعترف آل عباس بفضل الفرس منذ بداية عهدهم فخطب داود بن علي عم ابي جعفر المنصور في اهل الكوفة، واكثر سكانها من الموالي، فقال : "يا اهل الكوفة انّا والله ما زلنا مظلومين ومقهورين على حقنا حتى اتاح الله لنا شيعتنا من اهل خراسان فاحيا بهم حقنا واظهر بهم دولتنا واداللك على اهل الشام، الخ". (٢٢)

وقال الخليفة ابو جعفر المنصور : "يا اهل خراسان، انتم شيعتنا وانصارنا واهل دعوتنا"(٢٣) وقال الجاحظ : "دولة بني العباس اعجمية خراسانية، ودولة بني مروان (الاموية) عربية اعرابية" (٢٤)

واوصى المنصور ابنه قبل وفاته فقال : "اوصيك باهل خراسان خيرا فانهم انصارك وشيعتك الذين بذلوا اموالهم في دولتك ودماءهم دونك". (٢٥)

نجح مسعى الفرس ونشأت الدولة العباسية. فاعتمد المنصور سياسة تولية الفرس شئون الدولة قاعدة لحكمه وقدّمهم على العرب، وسار الخلفاء بعده على منواله فضعف العرب وزال نفوذهم وصارت الوزارة وقيادة الجيوش وامارة المقاطعات وغيرها من المناصب الرفيعة توكل الى الفرس تفضيلا. فلما جاء الرشيد زاد نفوذهم بفضل البرامكة. ثم حدث النزاع على الخلافة بين الامين والمأمون فانتصر العرب للامين والفرس للمأمون فتغلب المأمون، وكان انتصارا ثانيا عزز نفوذ الفرس واضعف مكانة العرب وصار للموالي ونسلهم عصبية سياسية ضد العصبية العربية.

كان الفرس قد بدأوا يفخرون على العرب في العهد الاموي لكن الامويين صدّوا هذه النزعة وعاقبوا اصحابها بقسوة. وكان استخدام الموالي في وظائف الدولة نادرا في العهد الاموي وكان يُقابل بامتعاض من السكان. اما في العهد العباسي فقد تغيّر كل ذلك فقامت حرب بين الاسلام والديانات الاخرى، وبين اللغة العربية واللغات الاخرى، وبين النفوذ السياسي العربي والنفوذ السياسي الفارسي. وكانت نتيجة الصراع بين العرب والموالي غلبة الموالي وهزيمة العرب في السياسة والثقافة والاجتماع في اقل من ماية سنة من حروب الفتح.

ساعد على ذلك ان الخلفاء العباسيين تعصبوا للاسلام ولم يتعصبوا للعربية كيف لا واكثرهم مولّودون (اولاد جواري غير عربيات) وقد قامت

دولتهم على سواعد الفرس. ولقي العرب من الفرس عنتاً شديدا فالوزراء والقواد منهم فاذا ثار العرب في بعض الاقطار نكّل بهم قواد العجم تنكيلا قاسيا. وكثر الشعر من الفرس الذين تعلموا العربية وبرعوا فيها فقاموا يفخرون بنسبهم ويعتزون بقومهم ويحقرون العرب ويعبرون عن ذلك نثرا وشعراً. من ذلك قول ابي نواس :

عاجَ الشقيُّ على رسمٍ يسائله وعُجتُ اسألُ عن خمارة البلد
يبكي على طلل الباقِين من اسَدٍ لا درّ دَرّك قل لي من بنو اسد
ومن تميمٌ ومن قيسٌ ولفُّهم ليس الاعاريب عند الله من احد
لا جفَّ دمعُ الذي يبكي على حجرٍ ولا صفا قلبُ من يصبو الى وتد

وقال :

قلْ لمن يبكي على رسمٍ دَرَسْ واقفاً ما ضرّ لو كان جلس
تصِفُ الربعَ ومن كانَ به مثلَ سلمى ولبينى وخَنَس
أترُكِ الربعَ وسلمى جانباً واصطَبح كرْخيّة مثلَ القبس

ومثل هذا الشعر كثير لمعاصري ابي نواس من الموالي.

فاذا انتقلنا الى حفظة العلم وتدوينه نرى ايضا ان اكثر من قام بذلك هم الاعاجم. وكان هذا التطور منتظرا فقد كانت الامم المفتوحة ارقى من العرب حضارة ومدنية وثقافة وعلما فسادت مدنيتهم وحضارتهم ونظمهم في الحياة اليومية وفي الادارة الحكومية.

وكان كثير من الموالي الفرس والروم من الطبقة الارستقراطية المتعلمة في قومهم فلم يقبلوا سيادة العرب المسلمين الوافدين من صحاري الجزيرة الا على مضض. وقد خضعوا للامويين لشدة عصبية هؤلاء. فلما واتتهم الظروف اظهروا عداءهم. ولم يفرق بعض الشعوبيين بين العرب والاسلام وأدّت كراهيتهم للعرب الى كراهية كل ما جاء عنهم، ومن ذلك الدين. (٢٦) وتبع ذلك محاولة افساد الدين بالزندقة كما سنرى. وكان التشيّع عشّ الشعوبية الذى يأوون اليه وستارهم الذي يستترون به. (٢٧)

توصل الشعوبيون الى مراكز هامة سياسية وعلمية وكان منهم سهل ابن هارون صاحب "بيت الحكمة" قال فيه ابن النديم : كان حكيما فصيحا،

شاعرا، فارسي الاصل، شعوبي المذهب، شديد العصبية على العرب وله في ذلك كتب كثيرة. واتقن الفرس اللغة العربية حتى كان اكثر المجيدين فيها في هذا العصر فرساً.

يقول كتاب ايرانيون معاصرون انه جرى حدث مهم مع قيام الدولة العباسية هو ولادة حضارة اسلامية - ايرانية حولت الثقافة الاسلامية، التي بقيت الى ذلك الوقت بدائية وعربية، الى حضارة متقدمة بفضل الايرانيين ويقولون : يمكننا القول انه ليست ايران هي التي اصبحت مسلمة، بل ان الاسلام هو الذي اصبح فارسيا. وقد لجأ الايرانيون الى التشيع كسلاح ديني لمقاومة التسلط العربي. فالتشيع هو اشارة الى التصميم السياسي الايراني على التميّز منذ البداية عن الفتح العربي. وبهذا المعنى يقولون، أليست الثورة الخمينية ردة انتقامية على الفتح العربي بعد اربعة عشر قرناً. (٢٨)

الزندقة

هي اسم اشتقه العرب من كلمة زندو الفارسية الدالة على كتاب الفرس المقدس (الزوندوستا). وهو كتاب "ماني" الذي يُدعى اتباعه "المانوية" لانهم يؤمنون بالَهين اثنين. فقالوا تزندق اذا اعتقد اعتقاد مجوس الفرس. ثم اشتقوا منه "الزندقة" للاعتقاد، وزنديق للمعتقِد، ثم اطلقوه على من يكتم هذا الاعتقاد فيظهر الاسلام ويبطن الكفر. (٢٩)

كانت الزندقة من سمات العصر الذي نبحثه وهي متلازمة مع الشك بالدين وتعاليمه الذي فشا بسبب ظهور درجة من الحرية الفكرية في المجتمع، وقيام مناظرات بين الاديان، واطّلاع الخاصة على فلسفة ارسطو وافلاطون. ثم ان بعض الفرس رأوا انه لن يكون بوسعهم اعادة الحكم الفارسي ما دام الاسلام متسلطا فاخذوا يعملون لنشر المانوية والزرادشتيه والمزدكية ظاهرا ان امكن، وخفية ان لم يمكن فانتشرت الزندقة.

وكانت الزندقة من ناحية اخرى ممتزجة بالشعوبية وبحياة المجون والعبث والاستهتار بالدين. ولم تكن الزندقة تعني شيئا واحدا لجميع الناس. فكانت العامة تطلقها على المستهتر الماجن، وقد اسرف كثير من الشعراء في دعوة الناس الى الفجور والاباحة، وتعرضوا للدين وسخروا ممن يقول بتحريم

الخمر، وبمن يخوّف من النار وجهنم ويذكّر بيوم البعث والحساب، اشتهر منهم بشار بن برد وابو نواس وعدد من الشعراء الخليعين.

قال ابو نواس :

بَكرَت علي تلومني فاجبتها — اني لأعرفُ مذهبَ الابرار
فدعي الملام فقد اطعتُ غوايتي — وصرفت معرفتي الى الانكار
ورأيتُ إتياني اللذاذة والهوى — وتعجلاً من طيب هذي الدار
احرى واحزمَ من تنظّر آجل — علمي به رجمٌ من الاخبار
ما جاءنا أحد يخبّرُ انهُ — في جنّة كان او في نار

وقال :

يا ناظرا في الدين ما الامر — لا قَدَر صحّ ولا جبرُ
ما صحّ عندي من جميع الذي — تذكرُ الا الموتُ والقبرُ

وقال :

قلت والكاس على — كفي تهوي لالتثامي
انا لا اعرف ذاك — اليوم في ذاك الزحام

كان للزندقة معنى آخر يفهمه الخاصة ويطلقونه على من اعتنق الاسلام ظاهرا، وبقي متدينا بدين الفرس القديم باطنا، وخاصة مذهب ماني. هؤلاء يدينون بدين المجوس عن علم ويتظاهرون بالاسلام تقيّة او سبيلا لاضلال الناس وقد ادركوا انهم لا يستطيعون افساد العقيدة الاسلامية الا بالانتساب اليها حتى يؤمَن جانبهم ويسهل على الناس قبول قولهم ثم يدسّون تعاليمهم باشكال مختلفة في الدين والادب وتبيان مثالب العرب. وكانوا يعملون افراداً واحيانا جماعات وهمهم تقويض دين العرب بعدما قوّضوا سلطتهم السياسية. فعبد الكريم ابن أبي العوجاء اقرّ للمنصور قبل قتله انه وضع اربعة الاف حديث مصنوع. وحمّاد الراوية وخلف الاحمر دسّا كثيرا من الشعر على الشعراء المتقدمين خدمة لاغراضهما. وقد اشتهر بالزندقة في العصر العباسي من الشعراء الخليعين : حمّاد عجرد، وحمّاد الراوية، وحمّاد الزبرقان، وبشار ابن برد، وخلف الاحمر، وعبد الكريم ابن أبي العوجاء، وصالح ابن قدوس، وابو نواس وغيرهم. وقد عدّ ابو العلاء المعرّي من الزنادقة في "رسالة الغفران"

الوليد ابن يزيد الاموي، وآدم حفيد الخليفة عمر ابن عبد العزيز، ودعبل الشاعر، وبشار ابن برد، وابا نواس، وابا مسلم الخراساني مؤسس الدولة العباسية، والقائدان بابك والافشين، والحلاج الصوفي وغيرهم.

بالاضافة الى الشعراء كان من الزنادقة ادباء وعلماء من اشهرهم ابن المقفع وقد قتله المنصور، وغيره من طبقته.

صنف ثالث من الزنادقة هم الذين شككوا بجميع الاديان وقالوا بسلطة العقل الى اقصى الحدود، ولم يؤمنوا الا بما اقتنع به عقلهم فنبذوا جميع الاديان ودعوا الى الالحاد.

واخرون كان همهم في الحياة شهواتهم فنقموا على الدين لانه يحّد من لذاتهم.

كان الخلفاء العباسيون يشتدون على الزنادقة لان خلافتهم قائمة على الدين وكان اشدهم الخليفة المهدي وابنه موسى الهادي. انشأ المهدي دائرة خاصة لملاحقة الزنادقة والتنكيل بهم وكّل عليها موظفا سماه "صاحب الزنادقة" (٢٠) وقد سلك هارون الرشيد سبيل سلفيه في تعقب الزنادقة ومثله المامون بحماس اقل.

في ايام المعتصم جرت حادثة كبرى في تاريخ الزندقة هي محاكمة الافشين قائد جيوش المعتصم وكان المعتصم قد اصطفاه لحسن طاعته واعتمد عليه حتى ارسله لمقاتلة بابك الخرّمي عندما ثار فسار اليه واسره. وقد مدح ابو تمام الافشين بمدائح كثيرة. يقال ان بعض الحساد اوقعوا بين المعتصم والافشين فألّف المعتصم محكمة لمحاكمته بتهمة الزندقة كان من اعضائها محمد ابن عبد الملك الزيات واحمد ابن ابي داود فسُجن الافشين ومُنع عنه الطعام والشراب الى ان مات ثم صلب واحرق بالنار. (٢١)

يقول الدكتور طه حسين : "كانت الزندقة عراقية لانها كانت فارسية. وكانت في الكوفة والبصرة وبغداد. ولا تكاد تجد لها اثرا في غير هذه المدن من الامصار الاسلامية، لا في الشام ولا في مصر.

"ومهما نبحث عن اصل العبث والمجون والزندقة في الاسلام فلن نستطيع ان نعدو الفرس واهل العراق الذين تأثروا بالفرس وكانوا بهم اشدّ اتصالا. ولو اردت ان اشخص هذه الزندقة تشخيصا ادبيا لقلت انها ضرب من

السخط على العرب وعاداتهم واخلاقهم ومحافظتهم ودينهم بنوع خاص. وكان اكثر هؤلاء الزنادقة والعابثين يكرهون الاسلام ويؤثرون من العقائد الفارسية تلك البدع التي تدعو الى الاباحة واللذة وترغب فيهما.

"ان هذه الزندقة الادبية التي ظهرت في القرنين السابع والثامن ميلادى كادت تستأثر بالشعراء والادباء جميعا حتى عرّضت الحياة الدينية والسياسية للخطر فاضطر خلفاء بني العباس الى مقاومتها بالتنكيل والقتل" (انتهى). (٢٢)

وقد استغل امراء وشعراء وعلماء غضب الخلفاء على الزنادقة فاتهموا خصومهم بها انتقاما منهم. وكان من ضحاياهم كثيرون بعضهم عن حق وكثيرون عن باطل.

العلوم في العصر العباسي

اللغة العربية

لا يقوم علم في بيئة ليست لها لغة. ولا يكفي ان تكون اللغة محكية لان العلم يحتاج الى تدوين ليُحفظ، اي الى لغة مكتوبة. وقد كان للعرب لغة فصيحة وبليغة نُظمت بها الاشعار ونزل بها القرآن لكنها كانت في الغالب لغة محكية يتناقل الناس ادابها بالسماع وكانت كتابتها بدائية اذ لم يكن فيها تنقيط وتشكيل.

تتضح جسامة هذا النقص من انه يوجد في الابجدية العربية خمسة عشر حرفا لا تفهم ويختلط لفظها ومعناها ان لم تنقّط هي : (ب، ت، ث) (ج، ح، خ) (د، ذ) (ر، ز) (س، ش) (ص، ض) (ط، ظ) (ع، غ) (ف، ق) (ن، ي، ى). ونستطيع ان نتصور صعوبة القراءة الصحيحة لهذه الاحرف اذا حذفنا النقاط منها فتصبح الاحرف (ب ت ث) مكتوبة بشكل واحد لا يتميز احدها عن الاخر ولا يمكن للقاريء ان يعرف الحرف الصحيح الا من سياق الجملة وهذا غير ميسور دائما. ومثل ذلك بالنسبة لباقي مجموعات الاحرف.

وقد اشار العرب الى هذه الصعوبة واستعملوا في وصفها اصطلاح "التصحيف". قال ابو العلاء المعري في تفسير هذه الكلمة : "اصل التصحيف

ان يأخذ الرجل اللفظ من قرائته في صحيفة غير منقطة او مشكّلة ولم يكن سمعه من الرجال فيغيّره عن الصواب" (٢٣) بوضع النقطة او الحركة في غير موضعها فيتغير المعنى. وقد وقع في الخطأ من جراء هذا جماعة من الاجلاء من ائمة اللغة والحديث امثال الخليل بن احمد (٧١٨ - ٧٨٥)، والاصمعي (٧٤٠ - ٨٢٨) (٢٤) حتى تساءل الامام احمد بن حنبل "من يعرى من الخطأ والتصحيف". (٢٥)

فيما يلي بعض الامثلة عن الصعوبة التي يسببها غياب التنقيط والتشكيل : كلمة "يحيى" بدون نقاط يمكن ان تُقرأ بالاشكال التالية : نحيى، وتحيى، ونحيّي، وتحيّي، وبحثي، وتحثّي، ونجني، وتجني، ونجبن، وتجبن، وتجبي، ونجبي، الخ. وفي الكاتدرائية الكبرى في دمشق التي اصبحت المسجد الاموي يوجد قبر يوحنا المعمدان حسب التقاليد المسيحية. ويدعوه المسلون يحيى. أفلا يمكن ان يكون التصحيف قد نقل النقطة فوق الكرسي الى تحته فيتحول يُحنّى الى يحيى. وكلمة اخرى نستعرضها. فكلمة "بنى" بدون نقط يمكن ان تُقرأ ثنى، وثني، ونبي، وبُنَيّ، وبُنّي، وتِين، وتبن، وبين، وبيّن، الخ. ومثل ذلك كلمة "بقي" تصبح نفى، نفي، نقي، تقي، تفي، الخ. ويلحق مثل هذا الاختلاط بجميع الاحرف المنقطة وعددها خمسة عشر كما ذكرنا.

فاذا انتقلنا الى التشكيل، اي الضمة والفتحة والكسرة والسكون والشدة نقع في مشكلة مشابهة تجعل قراءة الخط العربي عسيرة واحيانا مضلّلة. فالقبائل العربية لم تكن تلفظ الكلام او تكتبه على شكل واحد، وزاد الاختلاف بعدما دخلت في الاسلام اعداد كبيرة من شعوب غير عربية تعلمت الكلام العربي بالسماع وادخلت عليه رطانة اجنبية. ويزداد الارتباك في كلمات يحتمل سياقها معنيين او اكثر باختلاف التنقيط فيتغير المعنى.

احتاج العرب الى ثلاثة اصلاحات لغوية رئيسية لضبط اللغة المحكية والمكتوبة ثم انجازها خلال ثلاثة قرون من تاريخ الدعوة.

كانوا يتكلمون في البادية لغة صحيحة بالسليقة وان اختلفت لهجاتهم فلما ابتعدت الاجيالُ العربية عن البادية وسكنت المدن، وكثر المستعربون، ظهرت الحاجة الى ضبط اللغة. تناول الاصلاح الاول ابتكار التنقيط ليمكن فهم

معنى الكلمة وتمييزها عن مثيلاتها. وينسب هذا الابتكار الى ابي الاسود الدؤلي وهو فارسي شيعي من علماء البصرة عاصر الامام علي بن ابي طالب وتوفي عام ٦٨٩ اي بعد اربعين سنة من جمع مصحف عثمان.

لكن التنقيط الذي ميّز الكلمات المتشابهة عن بعضها لم يبيّن طريقة لفظها اذ بقيت القبائل تلفظها بلهجاتها المختلفة كما كان المستعربون يلفظون الكلمة بما يعنّ لهم فاشتدت الحاجة الى التشكيل اي وضع الحركات التي ترمز الى الضمة والفتحة والكسرة والسكون والشدّة.

يقال ان ابا الاسود الدؤلي اهتم ايضا بالتشكيل فاستعمل النقط فوق الحرف وتحته ليبيّن الحركات وكتبها بلون حبر مختلف. ولعل استعمال النقط لضبط الكلمة وللتشكيل معاً ادى الى الاختلاط بين مختلف النقط وصعب التمييز بين النقط للتنقيط وبين النقط للتحريك وبذلك سهّل القراءة من ناحية وعقّدها من ناحية اخرى. وكان على الكاتبين باللغة العربية ان ينتظروا نحو ثلاثة قرون حتى جاء ابن مقلة (٨٨٦ - ٩٤٠) وغيره من الخطاطين ليخترعوا الخط النسخي وخط الثُلث ويتخلصوا من الخط الكوفي ويبتكروا الحركات التي نعرفها اليوم. بعد حل مشكلة التنقيط والتشكيل بقيت الحاجة الى ضبط اواخر الكلمات بواسطة علم النحو. وقد اشتهر بذلك ابو بشر عمر بن عثمان المعروف بابن سيبويه (٧٦٠-٧٩٣) وهو فارسي ولد في البيضة في فارس ودرس في البصرة وتوفي في شيراز ووضع "الكتاب في النحو". وقد نهج المسلمون نهج السريان في قواعد علم النحو. (٢٦)

اذا كان لا يقوم علم في بيئة ليست لها لغة مكتوبة، فان العلم لا يقوم ايضا في بيئة تفتقد وسائل التدوين لان الكتابة على الحجر والعظام وسعف النخل والآجر وجلد الحيوانات ليست كافية لحفظ العلم ونشره. وقد تلافى المسلمون هذا النقص لما اقتبسوا عن الصينيين صناعة الورق حوالي العام ٨٠٠ فانتشرت صناعته وتجارته وكان "الوراقون" يقومون بنسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها وبيعها بالاضافة الى تجارة الورق لسد حاجة العلماء والكتاب فاصبح في كل مدينة اسلامية سوق عرف باسم "سوق الورّاقين" يجد فيه الراغب حاجته من انواع الورق فاقبل العلماء على التأليف. ذكر ابن النديم وهو ورّاق في بغداد بعض مؤلفاتهم في كتاب اصدره بأسم "الفهرست"

عام ٩٨٨ يحتوي على عناوين الكتب المتداولة في مختلف العلوم وقد بلغ عددها رقما كبيرا. وذكر اليعقوبي في كتابه "تاريخ اليعقوبي" انه كان يوجد في زمنه اكثر من ماية وراق في بغداد.

تاثرت الثقافة الاسلامية بالقرآن والحديث بالدرجة الاولى. وعندما امتزج المسلمون بالشعوب المغلوبة حصل التلقيح الفكري الذي أشرنا اليه خصوصا مع الثقافتين الفارسية واليونانية.

الثقافة الفارسية واثرها

انتشرت الثقافة الفارسية في هذا العصر انتشارا عظيما وساعد على ذلك مكانة الفرس في الدولة. فقد كادت الوزارة ان تكون حصراً فيهم وكذلك قيادة الجيش، واكثر الولاة. ومع ان كلمة الوزارة كانت معروفة سابقا فان العباسيين هم اول من تبّنوا هذا المنصب واعطوا الوزير سلطة القيام مقام الخليفة في كل الشئون الحربية والمالية، وتولية الموظفين وعزلهم، وتوجيه الرسائل الى الجهات، مما كان يقتضي ان يكون الوزير حكيما ملمّا بالسياسة والادارة وكاتبا اديبا. وقد برز منهم، على سبيل المثال، ابو سلمة الخلال اول وزير عباسي، وابو ايوب المورياني وزير المنصور وهو من الاهواز، ويعقوب بن داود وزير المهدي، ويحيى ابن خالد البرمكي وزير الرشيد، واستوزر المامون الفضل بن سهل ثم الحسن بن سهل وهما من اولاد ملوك فارس، واستوزر بعدهما احمد بن يوسف ثم ثابت بن يحيى الرازي، وكلهم فرس.

استعان الوزراء على عملهم باعوان يُسمّون "الكتاب". وكذلك فعل ولاة الاقاليم. هؤلاء الكتاب كانوا فرساً كالوزراء يحتذون حذو اجدادهم الفرس حتى في مظاهرهم الخارجية. وكانت مناصبهم تحتّم عليهم ان يكونوا واسعي الاطلاع على احوال الناس الاجتماعية، وان يعرفوا طَرَفاً من اكثر العلوم اذ قد يعرض للخليفة او الوزير او الوالي مسائل يُفترض في الكاتب ان يحرر لرؤسائه جوابا عليها. كل هذا اقتضى ان يكون للكتاب ثقافة عامة تفوق ما تحتاجه باقي طبقات السكان.

نشأ عن هذه الحاجة ادب يعالج النحو والصرف والاملاء وحسن الكتابة والتعبير والانشاء وادب السلوك في التعامل مع الحكام والسكان، ووضعت الكتب

في ذلك وكان من اشهر مؤلفيها ابن المقفّع الذي توفي سنة ٧٥٦ وهو فارسي الاصل نشأ في البصرة وكان كابيه زرادشتيا عاصر الامويين وكرههم لشدة عصبيتهم ضد الموالي ثم اتصل، وهو لا يزال مجوسيا، بعيسى بن علي عم السفاح والمنصور فاسلم على يده. لكن المنصور ما لبث ان قتله بتهمة الزندقة بعد اقل من عشر سنوات على إسلامه.

كان ابن المقفع ذا ثقافة فارسية واسعة ضم اليها معرفة عميقة باللغة العربية فكانت اكثر معانيه فارسية بالفاظ واساليب عربية. وضع كتابا في ادب المخاطبة والسلوك لطبقة الكتاب والموظفين، وكتاب الادب الصغير، والادب الكبير او اليتيمة، ورسالة الصحابة، وكلها تبحث في الادب والاخلاق والتعامل في عبارة رشيقة. وترجم كتاب "كليلة ودمنة" من اللغة البهلوية وهو كتاب حِكَم على ألسنة الحيوان.

بعد ابن المقفع بماية سنة جاء ابن قُتَيبة (ابو محمد عبدالله الدينواري) (٨٢٨ - ٨٨٩) وهو فارسي الاصل من خراسان ولد في الكوفة وتولى القضاء في دينوار ثم انتقل الى بغداد. من مؤلفاته في ارشاد طبقة الكتاب "كتاب المعارف" "وكتاب العرب" الذي دافع فيه عن العرب ضد الشعوبية، وكتاب "الشعر والشعراء" وكتاب "عيون الاخبار" وهو مجموعة مقالات في اداب السلوك لمختلف طبقات الشعب.

امتدت ثقافة الفرس الى الحِكَم في كتاب كليلة ودمنة واخذوا في هذا الباب عن الثقافة الهندية. وانتشرت العادات الفارسية بين الناس فاتخذوا عيد النيروز، ولبسوا الآزياء الفارسية والقلانس، وفرشوا بيوتهم على النمط الفارسي، واستذاقوا الماكولات الفارسية، وعقدوا مجالس الشراب فقد كان الفرس منذ القديم ميالين للافراط في الشراب وما يلحقه من غناء ولهو. وترافق ذلك مع الموسيقى فوضع ابرهيم الموصلي وابنه اسحق، وهما فارسيان، علم الموسيقى والّفا فيه فاستذاقه الناس وانتشر.

نبغ الفرس في مختلف النواحي العلمية والثقافية فمنهم، بالاضافة الى الذين ذكرناهم، الامام ابو حنيفة إمام المذهب الحنفي، وحمّاد الراوية جامع المعلقات العشر وراوي كثير من الشعر الجاهلي ومنتحله، واكثر الشعراء الخليعين الذين ذكرناهم والذين طبعوا العصر بطابعهم، وسيبويه مؤسس علم النحو، والفارسي،

والزجاج من بعده، والكسائي العالم في النحو واللغة وأحد القراء السبعة، والفراء ابرع الكوفيين بالنحو واللغة، وابو العتاهية شاعر الزهد، ثم الكثرة من ائمة الاعتزال والصوفية.

قال في ذلك ابن خلدون: "إن حَمَلة العلم في الملة الاسلامية اكثرهم عجم سواء في ذلك العلوم الشرعية والعلوم العقلية الا في القليل النادر. وان كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه، فكان اصحاب صناعة النحو كلهم عجم. وكذلك حملة الحديث، وعلماء اصول الفقه كما يُعرف، وكذا حملة علم الكلام واكثر المفسّرين، ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه الا الاعاجم" (٢٧) نظرا لانهم اصحاب مدنية سابقة.

الثقافة اليونانية واثرها

يقول الاستاذ احمد امين: "علوم اليونان كنزٌ لا يفنى وثروة لا تُقدّر في الفلسفة والرياضة والفلك وعلوم الطبيعة والحياة والطب، وفي الادب والتاريخ والسياسة والفنون الجميلة.

"فاقليدس ظلّ إماما في الهندسة من القرن الثالث قبل الميلاد الى القرن التاسع عشر. والطب ظل قائماً في العصور القديمة والعصور الوسطى على اساس ما دوّنَ بقراط وجالينوس. والفلاسفة الى اليوم عيال على تعاليم سقراط وافلاطون وارسطو. وهكذا في كل فرع من فروع العلم والفلسفة والفن. وقد أُسّست فلسفة المسلمين على فلسفتهم، ونهضت المدنية الحديثة على اكتافهم". (٢٨)

كان التراث اليوناني الفكري والثقافة الهيلينية اثمن ما صادفه العرب في فتوحاتهم واشدها تاثيرا في حياتهم. فكانت الرها ثم نصيبين والحيرة وجنديسابور اهم مراكز السريان النصارى. وكانت حرّان مقر السريان الوثنيين الذين سمّوا انفسهم صابئة. وكانت انطاكية احدى مراكز الثقافة اليونانية، وكذلك الاسكندرية ملتقى الفلسفة الشرقية والغربية، وما لا يُحصى من أديرَة سوريا وما بين النهرين حيث كانت تقوم الدراسات العلمية والفلسفية علاوة على الدراسات اللاهوتية. (٢٩)

اختلف اقتباس المسلمين للثقافة اليونانية وتعاليمها عن اقتباسهم للثقافة الفارسية. فالعرب امتزجوا بالفرس بعد الفتح وسكنوا بلادهم وتعايشوا معهم،

وتعلم الفرس العربية ونقلوا اليها ادابهم وتقاليدهم. اما اليونان، او البيزنطيون، فقد غادروا بلاد الشام بعد هزيمتهم ولم يتركوا فيها جاليات يونانية الا في المدن حسب رأي بعض المؤرخين. اما من بقي في بلاد الشام بعد الفتح فكانوا نصارى ولكنهم كانوا مختلفين عن اليونان في الجنس واللغة والمذهب. كانوا من الجنس السامي وكانوا يتكلمون اللغة الآرامية وهي لغة سامية، وكانوا نصارى لكن على غير المذهب البيزنطي، فقد كانوا ينتمون الى المذهب النسطوري او اليعقوبي وكانت الكنيسة البيزنطية تضطهدهم احيانا. وهكذا لم يحصل امتزاج مباشر بين العرب واليونان يشابه الامتزاج السكاني الذي حصل بينهم وبين الفرس فقد انسحب اليونان الى بلادهم وبقوا على علاقات عدائية مع المسلمين. فاليونان لم يتعلموا العربية، ولا تعلم المسلمون اللغة اليونانية. فلما رغب المسلمون بالاطلاع على الثقافة اليونانية احتاجوا الى وسطاء فكانوا النساطرة واليعاقبة.

نظرا للاثر الكبير الذي كان للفلسفة والعلوم اليونانية على الحركات الفكرية الاسلامية وعلى تطور مختلف العلوم فان دور النساطرة واليعاقبة في نقل هذه الفلسفة والعلوم الى العربية يصبح حاسماً في ازدهار الثقافة الاسلامية ويستحق بعض التفصيل وان كنا ذكرنا عنهم شيئا في الفصل الاول.

النساطرة واليعاقبة : اصلهم ومذهبهم

ينتسب النساطرة الى نسطوريوس الذي ولد من ابوين فارسيين في آسيا الصغرى ودرس اللاهوت في انطاكية على يد مطرانها وتأثر بارائه. في سنة ٤٢٨ دعاه الامبراطور ثيودوسيوس الثاني ليصبح مطران القسطنطينية. فلم يلبث ان اختلف مع رجال الكنيسة على مسائل لاهوتية.

قال النساطرة ان للمسيح طبيعتين : الطبيعة الالهية والطبيعة الناسوتية وشددوا على انسانية المسيح بحيث ترائى كان طبيعة المسيح انفصمت الى ذاتيتين متمايزتين لا يوحّد بينهما الا رابط اخلاقي. ثم اعترض النساطرة على لقب مريم العذراء "ام الله" (ثيوتوكوس) ودعوها "ام المسيح".

اعترضت كنيسة الاسكندرية على هذا الاجتهاد وقالت ان للمسيح طبيعة واحدة هي الطبيعة الالهية قبل ان يتجسد المسيح انساناً. اما بعد التجسد فقد اصبح للمسيح طبيعتان متحدتان في شخص واحد وغير منفصمتين، اي ان الله

والانسان اتحدا في طبيعة واحدة، هي المسيح. فالمسيح هو الله اما الطبيعة الانسانية للمسيح فلم يكن لها قط وجود مستقل حسب اعتقادهم، وعرف هذا المذهب باسم الطبيعة الواحدة (مونوفيزية) او اليعقوبية واليه ينتسب اقباط مصر واهل الحبشة والنوبة والارمن. وكان للكنيسية البيزنطية رأي اخر.

اشتد الخلاف بين هذه المذاهب فدعا الامبراطور ثيودوسيوس الى مجمع مسكوني عُقد في مدينة افيسوس (قرب مدينة ازمير) سنة ٤٣١. وبعد المداولات رفض المؤتمر نظرية نسطوريوس واعتبرها هرطقة ونفاه الى دير في مصر حيث توفي سنة ٤٥١ لكن تعاليمه بقيت منتشرة.

بعد عشرين سنة من مؤتمر افيسوس عادت الكنيسة الى معالجة الانشقاق فاجتمع المجمع المسكوني في مدينة شالسدون في بيزنطية (تركيا حاليا) سنة ٤٥١ وقرر العقيدة التي تتبعها الان الكنائس الارثوذكسية واللاتينية والانكليكانية والتي تؤكد وحدة المسيح مع الله، ووحدته مع طبيعته كانسان ثم وحدته في ذاتيته. لكن الكنيستين النسطورية واليعقوبية بقيتا محافظتَيْن على عقيدتهما.

كانت الرها (اورفه) ومدرستها اللاهوتية اهم مراكز النساطرة الفكرية في القرن الخامس الى ان اشتدت النزاعات اللاهوتية بعد مؤتمر شالسدون فانتقلت المدرسة واساتذتها بعد سنة ٤٧١ الى مدينة نصيبين التي تجاور الان مدينة القامشلي في شمال شرق سوريا. حازت هذه المدرسة شهرة كبيرة في الغرب وصارت مركزا مهما للتعليم والّف اساتذتها في ميادين الادب والتاريخ واللغة واللاهوت بالاضافة الى نقلهم العلوم اليونانية الى اللغة السريانية.

كان للنساطرة مركز اخر مهم في الحيرة عاصمة اللخميين التي تقع جنوب الكوفة، وفي جنديسابور في خوزستان حيث اسسوا مدرسة اشتهرت بتعليم الطب والى جانبها مستشفى كبير.

كانت المسيحية قد انتشرت في فارس حيث لاقت بعض الاضطهاد فَقد كان الفرس على عداء وحروب مستمرة مع البيزنطيين فاعتبروا الكنيسة امتدادا بيزنطيا الى ان اعلنت الكنيسة الفارسية استقلالها التام عن باقي الكنائس عام ٤٢٤ فحصلت على حياد الدولة ثم اعتنقت المذهب النسطوري بتاثير اسقفها بارسوماس.

بعد الفتح الاسلامي بقيت النسطورية مزدهرة. وكان بَطْرِيقُها الذي اطلق

عليه الخلفاء العباسيون اسم الجاثليق تعريبا للقبه (كاثوليكوس)، يسكن بغداد ويحظى برعاية الخلفاء فيما لم يسمحوا لبطريق اليعاقبة بان يقيم في العاصمة وكان مقرّه في انطاكية. وقد ذكرنا في الفصل الاول ان النسطورية كانت منتشرة في قبائل الجزيرة العربية وفي بلاد الشام وفارس. وكان لها في نهاية القرن العاشر خمس عشرة ابرشية في بلاد الخلافة وخمس ابرشيات خارجها في الهند والصين الى ان قضت غزوات تيمورلنك عليهم وشتتهم في القرن الرابع عشر فبقي منهم الان نحو ماية وسبعين الفاً يعيشون في العراق وسوريا وايران والمهاجر.

النساطرة واليعاقبة : دورهم العلمي

كان للنساطرة دور هام في مجالين : في علوم الطب، وفي ترجمة العلوم والفلسفة اليونانية الى العربية. ففي مدينة جنديسابور في الاهواز (خوزستان) اسس كسرى انو شروان سنة ٥٥٥ مدرسة طبية شهيرة ومستشفى حيث كانت تُعلّم العلوم اليونانية باللغة الارامية. وكان اهم خدمة قُدمت لعلم الطب هي قيام النساطرة في مختلف مراكزهم العلمية بالحفاظ على المخطوطات اليونانية الطبية وترجمتها وتلقينها لطلابهم ومنها انتشر علم الطب في البلاد الاسلامية. وكانت جنديسابور والحيرة من اهم مراكزهم نبغ فيها اطباؤهم ومن اشهرهم عائلة بختيشوع.

كان جورجيوس ابن بختيشوع عميد الاطباء في مستشفى جنديسابور وقد جرت العادة في ذلك الزمان ان تنحصر المهن العلمية في اسر خاصة فيلقّن الاب اسرار المهنة الى ابنه، وهذا يسلمها بدوره لولده كما كان الحال في الصياغة وغيرها من الصناعات والحرف. وقد احتاج الخلفاء العباسيون الى خبرة هذه العائلة وعلمها من ايام الخليفة المنصور الذي اصيب بعلة في معدته استعصت على اطبائه فاستُدعي جورجيوس ابن بختيشوع فعالجه وشفاه. وبقيت عائلة بختيشوع مدة قرنين ونصف اي على مدى ستة او سبعة اجيال، يطببون دار الخلافة رغم تقلبات الدهر. فقد تولى بختيشوع ابن جورجيوس رئاسة مستشفى بغداد في عهد الرشيد. وبعد وفاته خلفه ابنه جبريل بن بختيشوع فصار طبيب الرشيد الخاص سنة ٨٠٥ ورئيسا لمستشفى بغداد الذي امر الرشيد

بنائه على نمط مستشفى جنديسابور فمارس فيه اطباء جنديسابور وتلاميذهم مهنتهم، ثم صار جبريل طبيب المأمون وعاشت عائلة بختيشوع في بغداد في فضل وجاه طيلة ذلك الزمن.

رُوي عن اخلاق هؤلاء الاطباء ان الخليفة المنصور قال يوما لطبيبه جورجيوس ابن بختيشوع "يا حكيم اتّق الله واسْلِم وانا اضمن لك الجنة" فاجابه "قد رضيت ان اكون حيث اباتي في الجنة او في النار". وطلب المتوكل من طبيبه الخاص حنين بن اسحق ان يصف له سمّا يقتل به عدوا فرفض. فحبسه سنة كاملة. ثم استدعاه واعاد عليه القول واحضر سيفا ونطْعاً فقال حنين : "قد قلت لامير المؤمنين ما فيه الكفاية" قال المتوكل "فاني اقتلك". فاجاب : "لم احسن الا الشيء النافع ولم اتعلم غيره". فتبسم المتوكل وقال اردت ان امتحنك. (٤٠)

الى جانب جنديسابور ونصيبين والحيرة كانت الاسكندرية مصدرا رئيسيا للثقافة اليونانية وقد كانت في عهد البطالسة في مقدمة البلاد في مختلف العلوم وعُرفت باسم "مدرسة الاسكندرية". وقد اشتهرت هذه المدرسة بالطب والكيمياء والعلوم الطبيعية وكان القائمون بها في العهد الاسلامي من اليعاقبة ولغتهم القبطية والسريانية فنقلوا تلك العلوم الى السريانية والعربية.

كانت حرّان ايضا مركزا مهما لنقل العلوم اليونانية وهي تقع على نهر البليخ الذي ينحدر من تركيا ويصب في الفرات قرب الرقة. وكان يسكنها وثنيون لم يتنصّروا ولم يُسْلِموا وسموا انفسهم "صابئة" ليعامَلوا كاهل الذمة. وقد اهتم اهل حرّان بعلوم الرياضيات والهندسة والفلك لانهم كانوا يعبدون النجوم وقد ترجموا كثيرا من الكتب اليونانية الى السريانية ثم الى العربية. وقد تقربوا الى الخلفاء العباسيين في الدور الثاني والى بني بويه واشتهر منهم ثابت بن قرّة وهو رياضي فلكي، وابن سنان وابراهيم ابو اسحق الصابيء وغيرهم.

المترجمون

نقل النساطرة واليعاقبة علوم اليونان الى اللغة السريانية قبل العهد الاسلامي وتعرّف العرب على فلسفتها قبل ان تُنقل الى اللغة العربية اذ نرى اثارها في العهد الاموي في مناقشات المعتزلة وغيرهم.

من اول المترجمين عن اليونانية يوحنا ابن البطريق ويقال انه ترجم للمنصور اهم تآليف جالينوس وابقراط. ونقل ايضا تآليف لبطليموس في الفلك وترجم كتاب اقليدس والمجسطى. وبين المترجمين الاولين يوحنا ابن ماسويه (توفي ٨٥٧) وهو سرياني نصراني درس على جبريل ابن بختيشوع ثم اصبح معلما لحنين ابن اسحق. عيّنه الرشيد امينا على الترجمة وقيّماً على الكتب التي استولى عليها المسلمون من انقره وعمورية والاسكندرية والتي تبحث في الطب والفلسفة والرياضيات والفلك وبقي في منصبه ايام الرشيد وخلفائه.

برز بين المترجمين حنين ابن اسحق (٨٠٩ - ٨٧٣) ولُقّب" شيخ المترجمين" وهو نصراني نسطوري من قبيلة عباد قرب الحيرة. درس على يوحنا ابن ماسويه ثم ذهب الى بلاد الروم وتعلم اليونانية. ولما عاد الى البصرة لازم الخليل ابن احمد واخذ عنه العربية فصار يجيد اربع لغات : السريانية والعربية واليونانية والفارسية. دخل في خدمة جبريل ابن بختيشوع طبيب المامون فسلمه المامون امر بيت الحكمة وامره بنقل ما يقدر عليه من كتب حكماء اليونان الى العربية واصلاح ما ينقله غيره. التحق به ابنه اسحق وابن اخته حبيش ابن الحسن وابو بشر ابن يونس ويوحنا ابن عديّ وكان حنين يستعين بطبقة واسعة من المترجمين تعمل بارشاده ويراجع ترجماتهم ويصحّحها.

برز من المترجمين النصارى ايضا قسطا ابن لوقا (توفي ٩٢٣) من مدينة بعلبك ترجم كتباً في الفلك منها كتاب المجسطي الشهير ومؤلفات ابلونيوس وارخميدس. وفي الوقت الذي كان التراجمة النساطرة يقومون بهذا العمل العلمي الجليل كانت جماعة اخرى من صابئة حران الوثنيين عبدة النجوم تترجم العلوم الرياضية والفلكية اشتهر منهم ثابت ابن قرّة (٨٣٦ - ٩٠١) ويُنسب الى ثابت وتلاميذه نقل القسم الاكبر من كتب اليونان في الرياضيات والفلك. وغالبا ما كانت هذه الترجمات تُنقل اولا الى السريانية ومنها الى العربية كما كان بعضها يترجم رأسا الى العربية.

ما ان جاء عصر الخليفة المامون حتى كان النساطرة قد ترجموا معظم كتب ارسطو ووضعوا اساس النشاط الفكري الرائع الذي انتعش في ذلك العهد. من ابرز وجوهه الفيلسوف الكندي (يعقوب ابن اسحق الصباح) المتوفي سنة

٨٧٠ وهو من اصل عربي عاصر المامون والمعتصم ولُقّب "فيلسوف العرب" فكان اول عالم اسلامي استخدم اللغة العربية في شرح فلسفة ارسطو، وبرع ايضا في علم الفلك والرياضيات والطب وصَنْع السيوف وكتب اكثر من ٢٧٠ رسالة كثير منها موجود.

جاء بعده ابو نصر الفارابي (٨٧٨ - ٩٥٠) وهو تركي الاصل ولد في تركستان والتحق ببلاط الحمدانيين في حلب وتوفي في دمشق. بحث في علم المنطق وحاول ان يبيّن كيف يمكن استخدام الفلسفة اليونانية في معالجة المشاكل التي تواجه المسلمين. على ان فلسفة ارسطو لم تصبح جزءا عضويا في الثقافة الاسلامية الا بفضل فيلسوفَين عظيمين هما ابن سينا في المشرق (٩٨٠ - ١٠٣٧) وابن رشد في الاندلس (١١٢٦ - ١١٩٨).

من غريب ما يُلاحظ في موضوع الثقافة اليونانية اعتماد المسلمين الكلّي على النصارى من نساطرة ويعاقبة، وعلى الصابئة الوثنيين، في نقل علومها اليهم وهي العلوم التي كانت اساساً لا يُستغنى عنه في بناء الحضارة الاسلامية. فلم تذكر كتب التاريخ مترجما مسلماً واحدا درس اليونانية ونقل عنها كما فعل ابن المقفع وابن قتيبة وغيرهما بالنسبة للثقافة الفارسية. تُرى لو لم يهتم النصارى بهذه العلوم وينقلوها الى السريانية قبل الاسلام ثم نقلوها الى العربية بعده هل كان المسلمون بقوا جاهلين لها، وكيف كانت تطورت الحضارة الاسلامية.

ثمّة ظاهرة اخرى هامة وغريبة هي انه رغم ترجمة الكثير من الكتب اليونانية في مختلف العلوم، ورغم اطّلاع علماء المسلمين على مؤلفات ارسطو واعجابهم بها حتى سمّوه "المعلم الاكبر"، فان احداً منهم لم يتعرض لبحث مؤلفاته ومؤلفات افلاطون في علم السياسة. ولعلهم لو فعلوا لربما كان التاريخ الاسلامي السياسي اتخذ منحى اكثر استقرارا واستجابة لمصالح الناس.

الاتجاهات الفكرية - الدينية

كان من سمات هذا العصر وما سبقه ان الخلافات السياسية كانت دوما تصطبغ بصبغة دينية حادة. فلما اختلف المسلمون حول خلافة علي ومعاوية ومن هو احق بها صار كل حزب فرقة دينية : شيعة وخوارج ومرجئة، لا يتجادلون

في اي رجل اصلح للخلافة، بل تجادلوا بالكفر والايمان والجنة والنار وتقاتلوا في سبيل ذلك فاصبح الخلاف دينيا ولكل حزب ادلّته الدينية.

ومثل ذلك في الخلاف بين الامويين والعباسيين، وبين العباسيين وآل البيت، فتحول كل حزب سياسي الى فرقة دينية.

وسنستعرض في ما يلي باختصار الاتجاهات التالية : اصحاب علم الكلام، والخوارج، والمرجئة، والشيعة، والقَدَرية، والجبرية، والمعتزلة، والباطنية ومنهم الاسماعيلية والقرامطة والحشاشون، ثم الصوفية لنعطي صورة عامة عن المناخ الفكري الذي ساد العصر الذي نبحثه واثره في النظام السياسي العباسي.

علم الكلام (٤١)

سُمّي العلم الاسلامي الذي يبحث في عقائد الاديان والرد على المخالفين للاسلام "بعلم الكلام" وسُمّي المشتغلون به "بالمتكلمين". وكانت اليهودية والنصرانية والوثنية وغيرها من المعتقدات قد اخذت من الفلسفة اليونانية واستعملت مفاهيمها ومنطقها في مناقشة الدين الجديد فاحتاج المسلمون الى الفلسفة ليجادلوا خصومهم بالادلة العقلية فدخلت الفلسفة في صميم بحوث المتكلمين. ويقال ان المعتزلة هم الذين سموا هذا العلم "بعلم الكلام" بعدما كان يُسمَى البحث في هذه المواضيع "الفقه في الدين". وقد كانت الدعوة الى الاسلام والرد على المخالفين من اهم اغراض المعتزلة.

اتّبع المتكلمون منهجا خاصا في البحث والتقرير والتدليل يخالف منهج القرآن والحديث واقوال الصحابة. ففي القرآن آيات تدل على الجبر وآيات تدل على الاختيار، وآيات في صفات الله، وآيات تخالف غيرها فكيف التوفيق بينها؟

سمع الاولون من المسلمين الآيات فآمنوا بها وصدقوها من غير بحث او جدل وفهموا هذا الآيات فهما مجملا. واكتفوا بهذا الفهم. سُئل خالد بن أنَس عن الآية : "الرّحمن على العرش استوى". كيف استوى؟ فاطرق ثم قال : "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والايمان به واجب، والسؤال عنه بدعة". هؤلاء الفقهاء رأوا القبول بما جاء في الدين من غير تفسير اما لان هذه البحوث قد تُزعزع الايمان عند العامة، او لان ما يتعلق بالله وصفاته يتجاوز العقل البشري فالأولى ان نقف على ما ورد فيه النص من غير السؤال

بكيف وأين. وقد استمرت هذه المدرسة في العصر العباسي وما بعده فكان زعيمهم في عهد العباسيين احمد ابن حنبل وفي العصور اللاحقة ابن تيمية وعُرف هؤلاء باسم "اهل النقل" مقابل خصومهم من "اهل العقل".

لكن التمسك بنصوص القرآن والحديث لا يفيد في الحوار مع الملل الاخرى من يهودية ونصرانية ووثنية التي لا تؤمن اساسا بالاسلام ولا بالقرآن. وقد كان بعضها لا يؤمن بوجود الله، وبعضها يُنكر جميع النبوات، وبعضها يُنكر نبوة محمد فكان لا بد من مناقشتهم، اذا لزمت المناقشة، باسلوب يستند على مستوى مشترك من العقل والمنطق فاضطر المتكلمون ان يقدموا الادلة العقلية على وجود الله ويؤلفوا الكتب في اثبات النبوة على العموم وفي اثبات نبوة محمد على الخصوص كما فعل الجاحظ وهو من المعتزلة ولم يتمكنوا من ذلك الا باللجوء الى الفلسفة اليونانية.

فالمتكلمون آمنوا بالله وبما جاء به الرسول وسعوا الى البرهان على ذلك بالادلّة العقلية المنطقية ولم يكتفوا بالايمان المطلق فجمعوا الآيات التي فيها خلاف كالجبر، والاختيار، وصفات الله، وسلطوا عليها عقولهم حتى توصلوا الى رأي في كل مسألة، فاذا وجدوا آيات تخالف تلك التي اعتمدوها اوّلوا الآيات المخالفة. فكان التأويل من اهم مظاهر المتكلمين.

وطبيعي ان اعطاء العقل حريته في البحث والنظر يؤدي الى تأويلات كثيرة متعارضة في مسألة واحدة وهكذا تعددت الاتجاهات والتفسيرات بما يكرهه اهل النّصّ "فكان الانقسام بين "اهل النقل" "واهل العقل" عميقا يتناول اصول الدين بالاضافة الى اختلافهم في الفروع.

اما الفرق بين المتكلمين والفلاسفة فهو ان المتكلمين آمنوا بالدين واقروا بصحته ثم اتخذوا ادلتهم العقلية للبرهنة عليه. فهم يبرهنون عليه عقليا كما برهن القرآن عليه وجدانيا. اما الفلاسفة فينشدون الحقيقة المجردة ويبحثون المسائل بحثا منطقيا متسلسلا حتى يصلوا الى النتيجة كائنة ما كانت فيعتقدونها. لذلك كان الفلاسفة المسلمون يصفون المتكلمين بانهم اهل سفسطة وجدل فقامت خصومة بينهم كالخصومة بين ابن رشد والمتكلمين، وبين الغزالي والفلاسفة.

الخوارج

عندما قبل علي بن ابي طالب التحكيم بعد معركة صفّين ظهر قوم من جند علي اكثرهم من قبيلة تميم، رأوا ان التحكيم خطأ ومخالف للدين وطلبوا من علي ان يقّر بانه اخطأ بل كفر لقبوله التحكيم وان يرجع عن اتفاقه مع معاوية. فابى علي لانه لا يريد ان ينكث بقوله فخرجوا على علي وقاتلوه فسموا "خوارج".

حاربهم الامام علي في موقعه النهروان وهزمهم وقتل منهم عددا كبيرا لكنه لم يُبدْهم ولم يُبدْ فكرتهم. ثم دبروا له مكيدة فقتله الخارجي عبد الرحمن ابن ملجم وكان زوجا لامراة قُتل الكثير من اهلها في وقعة النهروان. حارب الخوارج الدولة الاموية حربا تكاد تكون متواصلة. وكانوا فرعين فرع في العراق وما حوله ومركزهم "البطائح" قرب البصرة وقد استولوا على كرمان وولاية فارس وهددوا البصرة. وهؤلاء هم الذين حاربهم المهلّب بن ابي صفرة سنينا طويلة. وفرع ثاني في الجزيرة حيث استولوا على اليمامة وحضرموت واليمن والطائف. ولم يتغلب الامويون على هذه الفرعين الا بعد حروب شاقة وطويلة فلما جاء العباسيون كانت قوتهم قد ضعفت.

نظريتهم في الخلافة : قال الخوارج بصحة خلافة ابي بكر وعمر وعثمان في سنيه الاولى. واقروا بصحة خلافة علي لكنهم كفروّه لما قبل التحكيم. نظريتهم في الخلافة انها يجب ان تكون باختيار حرّ من المسلمين فاذا اختير الخليفة ليس له ان يتنازل او يحكّم. وليس من الضروري ان يكون الخليفة من آل البيت او قرشيا بل يمكن ان يكون من سائر الناس ولو عبداً حبشيا وهم في ذلك ديمقراطيون خالفوا الشيعة الذي يحصرون الخلافة في علي وابنائه وخالفوا السنة الذين يحصرونها بقريش.

قال الخوارج ايضا، او بعض مبهم، بعدم وجوب الخلافة لا بالعقل ولا بالشرع ووافقهم بعض المعتزلة منهم الاصمّ ورفاقه. والواجب عند هؤلاء هو امضاء احكام الشرع. فاذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ احكام الله لم يحتج الى امام ولا ضرورة لنصبه.

كان اكثر الخوارج عربا بدواً انضم اليهم بعض الموالي تأييدا لرأيهم بأنه ليس من الضروري ان يكون الخليفة من العرب. وانقسموا الى فرق كثيرة منها

الاباضية التي لا يزال لها اتباع في المغرب وفي سلطنة عُمان واشتهروا بالاخلاص لعقيدتهم وتفانيهم في الدين وشجاعتهم النادرة في القتال وعدم تسترّهم في معتقداتهم ومجاهرتهم بها ولو سبب ذلك اضطهاداً لهم. وهم في ذلك نقيض الشيعة الذين يلجأون الى "التقيّة". وقد كان الخوارج في حال ثورة دائمة ضد الامويين والعباسيين.

الشيعة

الشيعة هم انصار الامام علي ابن ابي طالب ويرون ان الخلافة يجب ان تنحصر فيه وفي بنيه. وقد بحثنا نظرتهم في الخلافة وفرَقهم في الفصل الثالث.

المرجئة

نشات المرجئة لما رأت الخوارج يكفّرون عليا وعثمان والقائلين بالتحكيم، ورأت من الشيعة من يكفّر ابا بكر وعمر وعثمان ومن ناصروهم. والفريقان يكفّران الامويين ويلعنونهم. وكل طائفة تدّعي انها وحدها على حق وتكفّر الاخرين. فجاءت المرجئة تسالم الجميع ولا تكفّر احدا وتقول ان الفرق الثلاث، الخوارج والشيعة والامويين مؤمنون، ولا نستطيع ان نعيّن المخطىء بينهم فلنترك امرهم لله ومن هنا جاء اسمهم "المرجئة" من ارجأ بمعنى امهل واخّر. وكانت نواة هذه الطائفة بين الصحابة في الصدر الاول.

وقد قاوم العباسيون هذه الفرقة لانها تناصر الامويين بعض الشيء فذابت في الفرق الاخرى ولم يعد لها وجود مستقل.

القَدَرية والجَبْرية

هاتان فرقتان متعارضتان فالجبرية تقول ان الانسان مجبور لا اختيار له ولا قدرة وان الله قدّر عليه اعمالا لا بد ان تصدر عنه. اشتهر بهذا القول جَهْم بن صفوان وهو من الموالي ومن اهل خرسان اقام بالكوفة ودعا الى رأيه وكان خطيبا فصيحا وكانت هذه هي الفكرة الشائعة بين المسلمين.

وقد عارضه كثير من العلماء لانهم رأوا في مسألة الجبر انها تدعو الانسان الى التعطيل وترك العمل والركون الى القَدَر. فقالوا ان الانسان حرّ الارادة له

قدرة على اعماله فسموا لذلك "بالقَدَرية".

وقد ذابت القدرية والجبرية في غيرهما من المذاهب ولم يعد لهما وجود مستقل. وظهر على اثرهما مذهب المعتزلة الذي وافق على قول القَدَرية ان للانسان قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها.

المعتزلة

تابع المعتزلة النقاش الذي دار بين الجبرية والقَدَرية فيما اذا كان الانسان مُسيّرا او مخيّرا. تكّونت الحركة في البصرة حول الحسن البصري وكان يجلس اليه واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وكلاهما من الموالي. وسرعان ما انتشرت في العراق وكان ممن اعتنقها من خلفاء بني امية يزيد بن الوليد ومروان بن محمد، ثم المأمون والمعتصم والواثق من خلفاء العباسيين.

فضّل المعتزلة ان يُسَمّوا "اهل العدل والتوحيد". اما العدل فلانهم نزّهوا الله ان يكون قدّر على الناس المعاصي ثم عاقبهم عليها. وقالوا ان الانسان حرّ فيما يفعله ومن اجل هذا عُذّب على ما يفعل. وهذا عدل. اما التوحيد فلانهم نفوا صفات الله وعدّوا القول بها تعديدا لله.

قضية خلق القرآن

عندما نفى المعتزلة صفات الله فمعناه ان ليس لله صفات غير ذاته لان الصفة مثل سميع وبصير الخ يدل على التشبيه بالمخلوق وهو مستحيل. فاذا كان الله لا يتكلم كالمخلوقات فليس القرآن اذن كلام الله وانما خَلَقه الله واوحى به الى النبي بلفظه ولم يكن القرآن موجودا مع الله من الازل. وكان ذلك ابرز شيء في تاريخ المعتزلة لما اتصل به من احداث تاريخية واجتماعية وسياسية.

كان المعتزلة اكثر من تأثر بالفلسفة اليونانية من الفرق الاسلامية وهم الذين خلقوا علم الكلام دفاعا عن الاسلام تجاه الاديان الاخرى وتتلخص تعاليمهم بما يأتي :

١ - القول بالمنزلة بين المنزلتين. اي ان مرتكب الكبيرةِ ليس بكافر ولا مؤمن لكنه فاسق يستحق النار بفسقه.

٢ - القول بقدرة الانسان وان الله لا يخلق افعال الناس وانما هم الذين

يخلقون اعمالهم ومن اجل ذلك يثابون او يُعاقبون.

٢ القول بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ولو لم يرد بهما شرع. فللشيء صفة فيه جعلته حسنا او قبيحا، والشرع لم يجعل الشيء حسنا بامره ولا الشيء قبيحا بنهيه عنه، بل الشرع انما امر بالشيء لحسنه، ونهى عن الاخر لقبحه.

تعرّض المعتزلة للامور السياسية التي سبقت عصرهم فشرّحوا الصحابة وانتقدوهم وأدانوا بعض اعمالهم وحروبهم وقالوا ان الصحابة انفسهم كان يخطىء بعضهم بعضا ويتحاربون. وقد طعن بعضهم بما رواه ابو هريرة من الحديث الكثير. وكان اكثرهم كلاما في ذلك من تبع الاعتزال من الشيعة.

اشتهر من رجال الاعتزال الحسن البصري وواصل ابن عطاء وعمرو ابن عبيد وابو هذيل العلاف وهو من الموالي ويرجع اليه الفضل في ادخال مبادىء الفلسفة على الاعتزال، وابرهيم ابن سيّار وابن هاني النظّام وهو ايضا من الموالي تتلمذ للعلاف وكان استاذ الجاحظ، ثم الجاحظ وكان لسان المعتزلة المدافع عنها والمفسر لمبادئها لكن خصومه اتلفوا كتبه الدينية عن الاعتزال فلم يصلنا الا كتبه الادبية "كالبيان والتبيين" و "الحيوان" و "البخلاء".

من رجال الاعتزال بشر ابن المعتمر مؤسس فرع الاعتزال في بغداد وكان [illegible] الرشيد واول مؤسس لعلم البلاغة. واحمد ابن ابي داود وهو [illegible] من [illegible] كان مقربا من المأمون وصار قاضي القضاة ايام المعتصم والواثق وكان [illegible].

كان [illegible] اعداء المعتزلة اهل الحديث والحنابلة. فلما كانت الدولة للمعتزلة ايام المأمون والمعتصم والواثق نكّلوا باهل الحديث الذين خالفوهم بقضية خلق [illegible] الامام احمد ابن حنبل. فلما جاء المتوكل ومال عن الاعتزال نكّل [illegible] الحديث بالمعتزلة فاندثرت حركتهم. من اسباب ذلك ان الاعتزال كان حركة [illegible] فهمتها الخاصة وعصيت على عقول العامة لاختلاطها بالفلسفة فلم تحظ بشعبية واسعة فلما زال عنها دعم السلطة تغلبت عليه المفاهيم الدينية المبسطة واضطهدتها.

من الجدير بالملاحظة الميل الواضح لدى الطبقات المتعلمة في عصر المأمون، المنفتح نسبيا، الى عدم التسامح مع الاراء المعارضة، واستسهال اللجوء

الى السلطة السياسية لكبت الافكار المخالفة حتى من جماعة المعتزلة المتشبّعة بالفلسفة اليونانية التي لاتبرر اللجوء الى العنف في المناقشات الفكرية.

الصوفية

منشا الصوفية

نشات الصوفية كحركة منظمة بين الاتقياء المسلمين تعويضا عن عدم اكتراث الامويين بالمسائل الدينية. واتخذوا الصوفيون اسمهم من "الصوف" وهو اللباس الذي كان يرتديه اوائل الزهاد المسلمين. وفي تركيا وايران عرفوا باسم "دراويش".

تقول "دائرة المعارف الاسلامية المختصرة" عن الصوفية : "ان في القرآن والحديث اشارات كثيرة الى حقائق عميقة تتجاوز الطبيعة تاتي احيانا بصورة مغلّفة كما تغلّف القشور حبوب القمح. ويرى الصوفيون في ذلك دعوة لهم لتقصّي هذه المعاني المستترة وجعلها محور حياتهم. وما الطرق الصوفية في احسن احوالها الا تجمعات لهؤلاء المتصوفين الباحثين عن الحقيقة".

استمد الصوفيون شرعية مسلكهم من آيات قرآنية : "واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى ان يَهديَن ربي لأقْربَ من هذا رَشداً". (٤٢) والآية : "يا ايها الذين آمنوا اذكُروا الله ذِكراً كثيراً". (٤٢) لذلك احتلت حلقات "الذكر" عند الصوفيين مقاماً هاماً. وقد سعى اكثرهم في البداية الى البقاء ضمن المجرى الاسلامي العام فاكدوا ضرورة الالتزام بالشريعة وباحكامها، ومارسوا الزهد في حياتهم وكان من اوائلهم الحسن البصري (ت ٧٢٨).

عبّرت الصوفية عن نزعة في النفوس تصبو الى اتحاد الانسان بربه مباشرة عن طريق المحبة والمعرفة، وهي حالة وجدوا ان الشريعة لا توفرها لهم لانها تتخذ شكلا قانونيا جافّا. وقد اكد الصوفيون على "المعرفة الداخلية" التي يتوصل اليها الانسان بالفطرة ولا تأتيه بطريق العقل والمنطق فاضافوا الى الفقه القائم على الاستقراء والاستنباط العقلي منحى جديدا لاكتشاف الحقيقة الالهية وقالوا ان فيما وراء العلوم الظاهرة، سواء كانت دينية او غيرها، يحتاج الانسان الى الاحساس الداخلي الفطري للتوصل الى "الاشراق" الذي لا يدركه العقل. وكان ذلك برأي البعض، معارضة ورفضا للتعابير الخارجية المقيّدة بالنصوص

القانونية التي يقدمها الاسلام التقليدي في الشريعة والفقه. لذلك نظر الفقهاء الى الصوفيين بشك وارتياب واضطهدوهم في كثير من الاحيان.

ارتكزت الصوفية على مبدأين رئيسيين : الفناء في حب الله، والتوصل الى معرفة "الحقيقة" باتحاد الانسان مع الله، وكانت رابعة العدوية التي توفيت في دمشق سنة ٨٠١ اول من أدخل محبة الله كمثل أعلى للصوفيين مجردة من رغبة الانسان بالجنة او خوفه من النار.

في السنين التي اعقبت رابعة العدوية انتشرت الصوفية في الاقطار الاسلامية فقد اسس المدرسة الصوفية العراقية ابو عبد الله الحارث المحاسبي (٧٨١ - ٨٥٧) وُلد في البصرة وتُوفي في بغداد وشرح الصوفية في كتابه "الرعاية لحقوق الله" مع الدعوة الى الالتزام بتعليمات الشريعة. خلفه ابو القاسم الجنَيد (ت ٩١٠) الذي وضع التعاليم التي تبعها بعده معظم الصوفيين ودرس عليه حسين ابن منصور الحلاّج.

في تلك الفترة الزمنية ظهر في مصر النوبي ذو النون (ت ٨٥٩) الذي ادخل على الصوفية تعبير "المعرفة" تمييزا لها عن "التعليم". وفي ايران ظهر ابو يزيد البسطامي (ت ٨٧٤) الذي يُنسب اليه مبدأ "فناء النفس".

غاية الصوفي ان يصل الى "المعرفة" والى "المحبة" التي تعني اتحاد المحب والمحبوب وهما عند الصوفية الانسان والله. ولكي يحقق ذلك يتوجب على الصوفي ان يمرّ بعدة "مقامات" والمقام هو مرحلة روحية في الطريق الطويل الذي يؤدي الى تلك النشوة المنشودة وهي حالة "الفناء" في الرب وعندها يصل الى "الحقيقة".

يحتاج الصوفي المتدرج (المريد) ان يتبع "الطريقة" تحت اشراف "مرشد" يقوده من مقام الى اخر. وقد عُرفت الفرق الصوفية باسم طُرُق تاخذ كل طريقة غالبا اسم الشيخ الذي اسسها او الذي يرشدها، كالمولوية والنقشبندية والبكتاشية والسنوسية والاشراقية والقادرية وغيرها.

يتدرج المريد "بالمجاهدة" اي بكبح شهواته ورغائبه، بمساعدة مرشده واشرافه، في سبعة مقامات تتبعها معظم "الطرق" وتسمّيها اسماء تختلف عن معناها العادي. في كل مقام يسعى المريد الى تطهير نفسه من كل الميول الدنيوية وتهيئتها للانتقال الى حالة روحية اسمى.

تبدأ هذه المقامات "بمقام التوبة" ويعني ذلك نسيان الخطايا وكل ما يمكن اي يلهي المريد عن محبة الله. يلي ذلك "مقام الورع" وهو تخلص المريد من الخوف بان يكون "محجوبا" عن الله. اما المقام الثالث فهو "مقام الزهد" حين يتخلص المريد من اية رغبة بحيازة الاشياء المادية. بعد ذلك ياتي "مقام الفقر" وفيه يؤكد المريد عزوفه عن الاشياء المادية وحاجته الى الله وحده. ثم يصل المريد الى "مقام الصبر" وهو مقام الثبوت على العقائد والمتانة فيها، يليه "مقام التوكل" حيث يدرك الصوفي ان الصعاب والآلام لا يمكن ان تثبط عزيمته لانه خاضع لمشيئة الله خضوعا متناهيا فيجد الفرح حتى في احزانه، واخيرا يصل المريد الى "مقام الرضا" وهي حالة من الرضى الهاديء والقناعة لانه يتوقع الاتحاد النهائي مع الله.

ينتقل المريد من مقام الى اخر بواسطة "الفكر" و "الذكر". اما "الفكر" فهو التأمل بمحاسن الله وافراغ النفس من اي فكر اخر. اما "الذكر" فهو اجتماع المريدين في حلقات يرددون فيها تراتيل دينية في تمجيد الله بموجب طقوس معينة ترافقها احيانا موسيقى ورقص بحركات وتنفس مفروضَين. واكثر ما يرددونه عبارات : لا أله الا الله، الله اكبر، الحمد لله، استغفر الله، وآيات قرآنية، ويكررون ترداد هذه العبارات مع الرقص احيانا حتى يصلوا الى "الغيبة". والغيبة عند الصوفية لا تعني غيبة الامام عند الشيعة، بل غيبة كل فكر اخر من القلب والذهن الا التفكير بالله بامل ان يصل الصوفي الى معرفة حقيقته الداخلية والى الوجود "بحضرة الله والفناء به". معنى "الفناء" مأخوذ من الآية : "كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام" (٤٤) فعندما ينجح الصوفي بتطهير نفسه تماما من العالم الدنيوي بالتأمل المستمر بصفات الله، ويُغرق نفسه في محبة الله، "ويفني" ارادته الذاتية وصفاته الانسانية، ويفقد الشعور بوجوده كانسان، فان اسرار الصفات الربانية تُكشف له بنعمة الله. وعندما يعود اليه الوعي يرتقي الى حالة "البقاء" السامية ويصبح اهلاً لمعاينة الله.

اشهر المتصوفين في العهد العباسي الاول واكبرهم اثراً هو ابو المغيث ابن منصور الحلاّج (٨٥٨ - ٩٢٠). ولد في جنوب ايران وتوفي في بغداد. كان جدّه زرادشتيا اما والده فاسلم وسكن في واسط واشتغل بحلج الصوف. حفظ الحلاّج

القرآن ودرس على عمر ابن عثمان المكي وعلى ابي القاسم الجُنَيد وهما من اساتذة الصوفية وتزوج من ابنة الصوفي ابي يعقوب الاقطع.

كان الحلاّج كثير التجوال والتبشير بالصوفية في فارس وخوزستان وخراسان. وكان من اول المسافرين الى الهند وتركستان فصار له مريدون كثيرون. عاصر الخلفاء المعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر في الدور العباسي التركي وكانت فترة مليئة بالفتن والاضطرابات السياسية والنزاعات الدينية والقلق الاجتماعي.

اثارت كثرة تجواله شكوك السلطات واتهمه خصومه بضلوعه مع القرامطة الاسماعيلية كما اتُهم بعلاقته بثورة الزنج من خلال عائلة زوجته.

كان بعض الصوفيين، ومنهم الحلاّج، يصلون في حالة النشوة والشعور بحضور الله الى نسيان انفسهم فيتفوهون بكلام غير موزون وعن غير وعي. في احدى هذه الحالات التي بلغها الحلاج رُوي انه تلفّظ بكلام قال فيه "انا الحقيقة" فسارع خصومه الى اتهامه بانه يدعي الالوهية وكانت تهمة تلصق بالقرامطة وبمن يؤيدون الزنج، فالُقي عليه القبض، وسجن من سنة ٩١١ - ٩٢٢، ثم عُذّب وقُتل في خلافة المقتدر لكنه خلّف رسائل وكتابات ومريدين كثيرين تابعوا مسيرته.

من الصوفيين البارزين بعد الحلاّج، ابو حميد محمد الطوسي الغزالي (١٠٥٨ - ١١١١). ولد في طوس وتوفي فيها. كان فقيها عالما عيّنه نظام الملك وزير السلطان السلجوقي امينا للمدرسة النظامية في بغداد. لكنه في سنة ١٠٩٥ تخلى عن وظيفته وباع املاكه وترك بغداد واتّخذ حياة صوفي فقير متجول. بعد عشر سنوات أقتنع بالعودة الى التعليم في الكلية النظامية في نيسابور وقد شرح سبب تخليه عن حياته كصوفي متجول في كتابه "المنقذ من الضلال".

دعا الغزالي الى طريقة صوفية معتدلة شرحها في كتابه "احياء علوم الدين" ونقّد كتابات الفارابي وابن سينا التي تاثرت بالافلاطونية الجديدة وابدت اراءً متعارضة مع تعاليم الاسلام التقليدية واصدر في ذلك كتابه "تهافت الفلاسفة" وهو الكتاب الذي رد عليه ابن رشد الاندلسي بكتاب عنوانه "تهافت التهافت".

في ختام حياته انهى كتابه "الاقتصاد في الاعتقاد". وكان الغزالي يعتقد ان

علم الفقه الذي يقدم الحقائق الدينية بطريقة عقلية منظمة هو ادنى مرتبة من الاختبار الروحي الذي يصل اليه المتصوف في محاولته الاتصال بالعزة الالهية. وكان للغزالي اخٌ اسمه احمد كتب كتاب "السوانح" عن الحب الالهي ألهم كثيرا من الشعراء الفرس.

بعد الغزالي اشتهر من الصوفيين الشيعة شهاب الدين سُهراوَردي (١١١٥ ١١٩١) وهو فارسي ولد قرب همدان وتوفي في حلب. سُمّي "شيخ الاشراق" لانه فسّر المعرفة الحقيقية بانها "اشراق". وحاول ان يوفق بين الفلسفة والاتجاه الروحاني. اسس طريقة صوفية اسمها "الاشراقية" خلقت تيارات صوفية لا تزال فاعلة في رجال الدين الشيعة الى الان. تجول في ايران والاناضول وسوريا وكان له مريدون كثيرون فيها. اهم مؤلفاته كتاب "حكمة الاشراق" كما نظم اشعارا وصف فيها الخمر واتحاد المحبين مما صدم رجال الدين السنّة. وكان قد وصل الى حلب وتمتع فيها برعاية الملك الظاهر ابن صلاح الدين لكن اعداءه دسّوا عليه فاعدم سنة ١١٩٠ ولهذا لقّبه مريدوه "بالمقتول".

وصلت الصوفية الى اوجها في القرن الثالث عشر مع ابن العربي (١١٦٥ - ١٢٤٠) في الاندلس، وابن الفارض (١١٨١ - ١٢٣٥) في مصر، وجلال الدين الرومي في الاناضول (١٢٠٧ - ١٢٧٣). كان من ميزات ذلك الزمن، القرن الثالث عشر، تغلغل الافكار الرئيسية للصوفية في جميع ارجاء العالم الاسلامي حتى وصلت الى الهند حيث اخذت بعض الاتجاهات الروحانية الهندية التي تؤكد على الوحدة الالهية والتي تعترف بحقيقة اساسية كونية واحدة بحيث يزول التمييز بين الله والعالم (الانسان). ومن المحتمل ان الامبراطور المغولي اكبر الكبير (ت ١٦٠٥) استهدى بهذه الافكار عندما سعى الى تطوير دين يتضمن المبادئ المشتركة بين مختلف الاديان البوذية والمسيحية والاسلام وغيرها.

كان القرن الثالث عشر ايضا قرن الغزوات المغولية التي اجتاحت بلاد الخلافة الشرقية لكنه كان ايضا العصر الذهبي للصوفية. فابن العربي (١١٦٥ - ١٢٤٠) الذي وُلد في فالنسيا (اسبانيا) من ابوين عربيين وتوفي في دمشق سار بالصوفية منحىً عمّق الخلاف بينها وبين الفقه الاسلامي في ما يختص بالعلاقة بين الله والعالم اذ وضع نظرية "وحدة الوجود" التي تقول ان الله ومخلوقاته هم مظهران لحقيقة الهيه واحدة. وقد شرح ذلك في كتابه "الفتوحات المكية" كما

جمع اشعاره الروحانية في كتاب "ترجمان الاشواق" وكان لكتبه واشعاره نفوذ كبير على الاجيال الاسلامية اللاحقة.

كان يمكن تفسير ابياته بانها ترمز الى الحب الالهي كما يمكن ان ترمز الى الحب الانساني. وقد اصبح هذا الغموض ظاهرة في الاشعار الصوفية في فارس وتركيا.

من المتصوفين معاصري ابن العربي، شرف الدين ابو حفص عمر ابن الفارض الذي عاش في مصر ومات فيها (١١٨١ - ١٢٣٥) وقضى بضع سنوات في مكة حيث اجتمع بالصوفي الفارسي الشهير سُهرَاوَرْدي الذي كان يقيم في بغداد. وقد نظم ابن الفارض بالعربية اجمل الاشعار الروحانية.

ثم جاء جلال الدين الرومي (١٢٠٧ - ١٢٧٣) وهو اعظمْ شاعر صوفي باللغة الفارسية نظم نحو ست وعشرين الف مقطوعة اعتبرها الصوفيون الذين يتكلمون اللغة الفارسية في المرتبة الثانية بالاهمية بعد القرآن. ولد جلال الدين في مدينة بلخ في عهد الغوريين. ولما اقترب الزحف المغولي هاجرت العائلة الى الاناضول التي كانت تحت حكم السلاجقة واستقرت في قونيا سنة ١٢٢٨. كان مريدوه يدعونه "مولانا" فعُرفت طريته باسم "المولوية". وما زال مريدو هذه الطريقة يقيمون حفلات الذكر وهم يرقصون على نغم الموسيقى ويرددون اشعار جلال الدين، وما زال قبره "القبة الخضراء" في قونيا مزاراً لالاف الحجاج.

في القرن الثالث عشر ايضا اسّس الشيخ صفي الدين الاردبيلي (١٢٥٣ - ١٣٣٤) الطريقة الصوفية المعروفة باسم "الطريقة الصفوية" التي اسست بدورها الدولة الصفوية الشيعية في ايران التي سياتي بحثها.

بالاضافة الى اهمية الصوفية في الفكر الاسلامي، فقد كان لها الدور الاكبر في نشر الاسلام في القبائل التركية والمغولية البدوية التي اجتاحت المشرق الاسلامي بكامله وربما كان ذلك لان بعض الطُرق تقاربت مع معتقدات "الشامان" (كهنة البدو) الاتراك والمغول الذين كانوا يُحدثون في أنفسهم حالة نشوة وغيبوبة تتيح لهم التوصل الى معرفة ما وراء الطبيعة.

لقد شكّلت الصوفية ذات الانتشار الواسع نقداً حيّاً للاسلام التقليدي الذي حدّد علماؤه اصول العقيدة ونظّموا السلوك الشخصي فجاءت الصوفية تحرر الانسان وتطلقه ليتصل مباشرة بخالقه دون شكليات العبادة، عن طريق

الاغراق بالتأمل والزهد وحلقات الذكر. لذلك تعرّض الصوفيون لاضطهادات كثيرة خلال فترات مختلفة منْ تاريخهم.

فضلا عن التنسك والزهد والطقوس الدينية ادخل المتصوفون الى الاسلام امورا اخرى منها استعمال السبحة وهي هندية الاصل. وقد وردت اول اشارة للسبحة في الادب العربي في شعر لابي نواس.

واحدث التصوف ايضا عادة تكريم الاولياء مستندا الى كرامات واعمال خارقة يقوم بها الولي مع انه ليس في القرآن والحديث ما يزكّي ذلك. ولم ياتِ القرن الثاني عشر حتى كان للاولياء مقامات ومزارات يقصدها الناس في مناسبات معيّنة ويتبركون بها.

الطرق الصوفية

اول طريقة صوفية ظهرت هي القادرية نسبة الى عبد القادر الجيلاني (١٠٧٧ - ١١٦٦) الفارسي الذي لمع في بغداد. تدعو هذه الطريقة الى التسامح والتواضع وعمل الخير ولها اتباع منتشرون في جميع انحاء العالم الاسلامي.

تلي القادرية في القِدَم الطريقة الرفاعية التي اسسها احمد الرفاعي المتوفي سنة ١١٧٥ في البصرة. تنتشر هذه الطريقة في سوريا ومصر وتركيا وهي تشدد على الفقر والزهد، وتقيم الذكر بشكل خاص اذ ينتظم المريدون في حلقات متشابكي الايدي مع تحريك اجسادهم بالانحناء الى الامام والخلف وهم يرددون اسماء الله او الآيات حتى يتوصلوا الى النشوة.

تفرّع عن هذه الطريقة في سوريا في القرن الرابع عشر فرع سُمي "السعدية" نسبة الى سعد الدين الجيباوي الدمشقي. هؤلاء يصلون الى النشوة بالدوران السريع على كعبهم الايمن مع ترديد كلام الذكر. وكان شيخ الطريقة يركب حصانا ويسير به على اجساد المريدين المبطوحين ارضا فلا يصيبهم مكروه.

وقد ذكرنا الطريقة المولوية والطريقة الصفوية. اما اهم الطرق الصوفية في شمال افريقيا فهي الشاذلية اسسها ابو الحسن الشاذلي في الاسكندرية (توفي ١٢٥٨). تشدد الشاذلية على خمسة مباديء : تقوى الله، والالتزام بالسنّة، وعدم الاهتمام بالحياة الدنيا، والتسليم بالقدر، واللجوء الى الله في السراء

والضراء. نشر مريدو الشاذلي هذه الطريقة في شمال افريقيا ومصر والسودان وامتدت الى سوريا ولبنان مع ان الشاذلي نفسه لم يدعُ الى الزهد وحثّ اتباعه ان يعيشوا حياة عادية. تفرّع عن الشاذلية عدد من الطرق منها الجزولية والدرقاوة والعيسوية في المغرب والجزائر وتونس.

في مصر انتشرت طريقة البدوي المنسوبة الى احمد البدوي المتوفي سنة ١٢٧٦ وهي طريقة ناشطة في هذا الزمن.

اما في تركيا فاهم الطرق هي البكتاشية قامت في اوائل القرن السادس عشر وكان لها علاقة بالانكشارية وهي تدعو الى التبتل واكرام الامام علي. اما طريقة الدراويش في آسيا الصغرى فقد احتفظت باثار الشامانية التي جاء بها الاتراك من اواسط آسيا. (٤٦)

واخيرا الطريقة السنوسية التي اسسها في ليبيا محمد ابن علي السنوسي سنة ١٨٣٧. انتشرت الطريقة من مركزها في برقه الى الصحراء الليبية وطرابلس ومصر وفزان والصحراء الكبرى والسودان. وكان الاتباع يتجمعون في "زوايا" اندمجت مع التركيب الاجتماعي البدوي ودعت للعودة الى الدين والى الحياة البسيطة في العهود الاسلامية الاولى.

كان للسنوسية دور سياسي ايضا فقد حاربت الاستعمار الايطالي الذي احتل برقة سنة ١٩٠٨. قاد هذا الجهاد "السنوسي الكبير" وعائلته التي تابعت النضال خلال الحرب العالمية الثانية فلما انتهت الحرب أُعلن رئيس العائلة ادريس السنوسي ملكا على ليبيا سنة ١٩٥١ وكان تقيا زاهدا بالمنصب ومع ذلك أطاح به انقلاب عسكري في اول سبتمبر ١٩٦٩.

جمعية اخوان الصفا وخلّان الوفا

هي جمعية سرية تاسست في البصرة في النصف الثاني من القرن العاشر (ما بعد ٩٥٠) واصدرت ابحاثاً فلسفية ودينية عرفت باسم "رسائل اخوان الصفا وخلّان الوفا" وصلنا منها اثنان وخمسون رسالة.

لم تُعرف هوية اعضاء "اخوان الصفا" او تاريخ تاسيس جمعيتهم بالتدقيق. لكن محتوى "الرسائل" يعكس العقيدة الاسماعيلية المتأثرة بالافلاطونية الجديدة ومذهب ماني. وقد عاصرت هذه الجمعية حركة القرامطة

وقالت ان للقرآن معاني باطنية لا يفهمها الا الخاصة ممن تعلموا مباد ءها.

قالوا ان النفس الانسانية تنبعث من النفس الكونية وتتحد معها بعد الموت. وهذه النفس الكونية تتحد بدورها مع الخالق حين البعث. فوظيفة "الرسائل" ان تطهر النفس من الاخطاء وتقودها الى معرفة كنه الحقيقة والى السعادة في الحياة الاخرة.

كانت نظرتهم الى المسائل شمولية وعالمية حتى انهم اقرّوا ان الاديان الاخرى تتضمن شيئا من الحقيقة. وكانوا يثيرون الاسئلة ولا يجيبون عليها الا تلميحاً. واكدوا على ضرورة "معرفة الذات" لتحرير النفس من الامور المادية والعودة بها الى الله.

في سنة ١١٦٠ امر الخليفة المستنجد باحراق رسائلهم لكن نفوذ الجمعية بقي منتشرا.

المذاهب الفقهية

بالاضافة الى علم الكلام والحركات الدينية - السياسية، شهد هذا العصر تثبيت وتقنين المذاهب السنيّة الاربعة.

كلمة الفقه في اللغة معناها العلم بالشيء والفهم له، ثم غلب عليها معنى العلم بالدين والفهم له. ويتبع ذلك العلم بالشريعة التي تحاول ان تنظم حياة المسلمين في كل نواحيها الدينية والاخلاقية والقانونية، وعلاقة الانسان بربه وبنفسه وبمجتمعه وعائلته، ويشمل ذلك العبادات وجميع انواع المعاملات كما يتناول حياة الانسان الخاصة المتعلقة بالزواج والطلاق والارث وما الى ذلك. فهي نظام شامل لجميع نواحي الحياة.

مصادر الشريعة لدى الفقهاء السنة اربعة : القرآن، والحديث، والاجماع، والقياس او الرأي.

وقد بحثنا في القرآن والحديث في الفصل الثالث. ويتفق الفقهاء ان اية مسألة يوجد فيها نص في القرآن او في الحديث الصحيح فهي مقضية. اما اذا لم يوجد نص فيمكن اللجوء الى الاجماع والقياس.

الاجماع : يعني الاجماع ان امرا او اجتهادا يصبح مقبولا شرعا اذا حظي باجماع المسلمين حسب الحديث "ان الله لا يجمع امتي على ضلالة".

وليس واضحا كيف يمكن التحقق من حصول الاجماع فيقول بعض فقهاء السنّة ان الاجماع يعني اجماع المجتهدين الذين ظهروا بعد وفاة النبي الى ان أغلق باب الاجتهاد في القرن التاسع. وفيما عدا الاحكام التي تقررت في القرآن والسنة والاجماع، يجوز لكل مجتهد ان يختار الحكم الذي يستحسنه فيقضي به بين الناس الذين له عليهم ولاية استمدها من الخليفة او من مصدر اخر.

القياس : المصدر الرابع للفقه هو القياس. ويعني ذلك استنباط حلول لمسائل تُعرض لم ينص عليه القرآن او الحديث الصحيح، اعتمادا على مقارنة مع احكام مشابهة لكن غير مطابقة، ورد فيها نص.

على اساس هذه الاركان الاربعة قامت مدارس الفقة السنّية التي استمرت الى يومنا هذا وهي الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ظهرت كلها في اواخر القرن الثامن وبداية القرن التاسع، اي في اواخر عهد الدولة الاموية وبداية العهد العباسي.

استمرت حرية الاجتهاد في عهد العباسيين مع ان مُلكهم بُني على الدين فكان القضاة والناس يختارون الاجتهاد الانسب من اي مصدر اتى. وفي زمنهم اصبح من واجبات طالب العلم ان يطوف الامصار الاسلامية يأخذ عن علمائها ويطّلع على مناهجهم المختلفة.

كان العصر العباسي اكثر عصور الاسلام نشاطا في التشريع واكثرها في عدد الفقهاء والمجتهدين. وبقي العلماء احرارا في مناحيهم واجتهادهم لا تتدخل السلطة في خلافاتهم ما زالوا مبتعدين عن مسائل الخلافة والبحث فيها. ولم تلتزم السلطة بمذهب فقهي معيّن تفرضه على القضاة والمحاكم، بل اختارت القضاة من مختلف الاجتهادات وتركت لهم حرية الفصل في الاحكام حسب اتجاههم. فكان من الممكن ان يصدر حكمان مختلفان في مسألة واحدة في قطرين، كما كان يمكن ان يصدرا في بلد واحد عن قضاة مختلفين فالحكومة لا تتدخل في حسم الخلاف وتوحيد القضاء.

بقي باب الاجتهاد مفتوحا على هذا النحو حتى تعددت المذاهب فنهض قوم فاغلقوا باب الاجتهاد (من وكيف؟) في القرن التاسع واكتفوا بالمذاهب الاربعة. اي ان المسلمين يعيشون الان بموجب اجتهادات وضعت لاحوال اجتماعية واقتصادية وسياسية مضى عليه اثنا عشر قرنا.

يقول في ذلك بعض العلماء المعاصرين : ان كثيرا من الاجتهادات التي جاء الآئمة الاربعة تأثرت بالبيئة الاجتماعية والفكرية في عصرهم التي تختلف كثيرا عن بيئتنا. لذلك فان النتائج التي يوصلوا اليها تتباين مع ما يمكننا التوصل اليه لو بحثنا المسألة نفسها اليوم.

لكنه مع مرور الزمن اكتسبت تلك الاختهادات مصداقيّة شبة مقدسة في أذهان المسلمين حتى أصبح الكثيرون يعتبرونها جزءا اساسيا من الشريعة فتوقف التطوّر الذهني والقضائي. وكان رد الفعل على هذا الجمود اقتباس بعض المجتمعات الاسلامية للافكار والمؤسسات الغربية اذ ان كثيرا من الدول ذات الاكثرية الاسلامية تطبق قوانين مدنية مستوحات من مصادر غربية.

في سبيل مقاومة هذا الاتجاه يقول الكاتب محمد أسد، يجب ان نتخلى عن اعتمادنا العقيم على ما اعتبره العلماء السابقون "قرارا نهائيا" فيما يتعلق بالامور الاجتماعية ـ السياسية، ويجب ان نبدأ بمعالجة هذه المواضيع مجددا في ضوء دراسة حديثة نقوم بها للنصوص الاساسية. (٤٥)

مدرسة الرأي ومدرسة الحديث

في العصر الذي نبحثه تركز الاتجاهان "العقلي" و "النقلي" بين مدرسة الرأي ومدرسة الحديث وكانت المناظرات قائمة بينهما في المساجد وحلقات الدرس والمنازل واثناء الحج. وفيما يلي شرح مختصر للاتجاهين :

واجه المسلمون في الفتح وبعده مسائل كثيرة تحتاج الى معالجة وتشريع لم يرد في القرآن او الحديث ما يتناولها فدرج كثير من الصحابة على استعمال رأيهم في حل المسائل التي تعرض لهم. وتوسع الخليفة عمر بن الخطاب في استعمال رأيه فكان يجتهد في تعرف المصلحة التي لاجلها نزلت الآية او الحديث، ثم يسترشد بتلك المصلحة في احكامه، وهو اقرب شيء الى ما يُعبّر عنه الان بالاسترشاد بروح القانون.

سار الصحابي ابن مسعود في العراق على منوال عمر ابن الخطاب فتأثر اهل العراق بعلمه وتُوجّت هذه المدرسة بابي حنيفة واشتهرت بالرأي.

من اسباب ذلك ان العراق قطر متمدن متأثر بالمدنية الفارسية واليونانية فكان اهله يقلّبون المسألة على وجوه متعددة ويتناولون فروعها ويحاولون

استنباط الحلول لكل فَرَضية تعنّ لهم.

من اسباب اعتماد الرأي ايضا ان رواية الحديث كانت قليلة في العراق لان اكثر الصحابة كانوا في الحجاز. وقد وضع العراقيون شروطا للتحقق من الحديث لا يسلم معها الا القليل وكانت تساورهم شكوك في صدق رواة الحديث.

قال الامام الشافعي انه لم يثبت عن ابن العباس الا نحوماية حديث. ولم يثبت عن عمر ابن الخطاب الا نحو خمسين. اما الامام ابو حنيفة فلم يصحّ عنده الا سبعة عشر حديثا من الستماية الف التي كانت متداولة.

كان يناهض "اهل الرأي" جماعة "اهل الحديث" او "اهل النقل" وفيها من الصحابة العباس والزبير وعبد الله ابن عمر ابن الخطاب وعبد الله ابن عمرو ابنُ العاص واحمد ابن حنبل. مذهب هؤلاء انهم اذا سُئلوا عن شيء فان عرفوا فيه آية او حديثا أفتوا، والا لم يقولوا شيئا. سُئل احمد ابن حنبل عن رجل يكون ببلد لا يجد فيه الا صاحب حديث لا يعرف صحيحه من سقيمه، وفي البلد اهل رأي، فاذا عرضت للرجل مشكلة فالى من يتجه؟ فاجاب يُسال اصحاب الحديث ولا يُسال اصحاب الرأي لان ضعيف الحديث اقوى من صاحب الرأي.

الى جانب التساهل في قبول الحديث وان كان ضعيفا، كان من سمات مدرسة الحديث كره اصحابها الشديد للبحث في مسائل فَرَضية، والتمسك بظاهر الآيات والحديث والابتعاد عن التأويل ما امكن.

كان هذا الموقف سببا غير مباشر لوضع الاحاديث. فما دام بعض الفقهاء يرفضون ان يعطوا رأيا، فقد وضع لهم المنتحلون الاحاديث الكثيرة التي تعالج مختلف المشاكل. ونعرض فيما يلي لمحة عن الائمة الاربعة :

الامام ابو حنيفة (٦٩٩ - ٧٦٧).

هو النعمان ابن ثابت المكنّى بأبي حنيفة التيمي وهو فارسي الاصل كان مولى لبني تيم الله. ولد في الكوفة نحو سنة ٦٩٩ في عهد الخليفة عبد الملك ابن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥) وتوفي سنة ٧٦٧ في عهد الخليفة ابي جعفر المنصور. عاش نحو خمسين سنة في ظل الدولة الاموية وثمان عشرة سنة في ظل العباسيين

العباسيين وكان كارها للامويين ومسايرا للعباسيين ومؤيدا لآل البيت. اخذ الفقه عن الامام جعفر الصادق من البيت العلوي ودرس في الكوفة.

في الفتنة التي قامت بين العلويين والعباسيين كان ناقما على العباسيين لسطوتهم وشدتهم. وكان ميله الى محمد بن عبد الله (النفس الزكية) والى اخيه ابرهيم. وقد شكّ به ابو جعفر المنصور فاستدعاه الى بغداد وكلفه بتولي القضاء لامتحان ميوله فابى فسجنه ومات في السجن بعد قليل ودفن في بغداد.

اشتهر ابو حنيفة بقدرته التشريعية وعُدّ امام اهل الرأي وقام تلميذاه ابو يوسف ومحمد ابن الحسن الشيباني فدوّنا مذهبه.

كان ابو حنيفة يتشدد في قبول الحديث والتحري عنه وعن ناقليه حتى يصحّ، ولا يقبل الخبر الا اذا رواه جماعة عن جماعة، او روى واحد من الصحابة الحديث عن الرسول في جمع منهم فلم يخالفه احد فكان بمثابة الحديث يرويه جماعة. وقد ادّى التشدد في قبول الحديث الى جعل القياس اساسا مهما للتشريع في فقه ابي حنيفة.

وقد انتشر مذهبه في العراق وساعد على ذلك ان تلميذه ابو يوسف تولى القضاء في بغداد لثلاثة من الخلفاء المهدي والهادي وهارون الرشيد الذي جعله قاضي القضاة فمكّن مذهب ابي حنيفة ونشره. وابو يوسف هو صاحب "كتاب الخراج" الشهير الذي نظّم شئون الدولة المالية وخصوصا موضوع الضرائب على الارض في مختلف البلاد الاسلامية.

من تلاميذ ابي حنيفة الذي ساعد على نشر مذهبه محمد ابن الحسن الشيباني من قرية حرستا قرب دمشق وقد ولاّه الرشيد قضاء الرقة ودوّن الفقه في كتب كثيرة اصبحت مرجعا لمن جاء بعده في فقه ابي حنيفة.

الامام مالك ابن أنس (٧١٤ـ٧٩٥)

هو عربي الاصل يُنسب الى قبيلة ذي اصبح اليمنية. عاش حياته في المدينة ودرس على علمائها ولم يغادرها.

كان مالك لا يشترط في قبول الحديث ما اشترطه ابو حنيفة من ان يرويه جماعة عن جماعة، بل يقبل الحديث منقولا عن شخص واحد اذا كان موثوقا صحيح السند. وهذا المبدأ يجعل الاحاديث التي بنى عليها مذهبه اكثر

عددا.

اختار اساسا ثانيا للتشريع هو عمل اهل المدينة باعتبار انهم ادرى بالسنّة. وخلاصة رأيه انه اذا اتفق اهل المدينة وعلماؤها على مسألة فذلك يشكل حجة تُقدَم على القياس.

ثم قال بضرورة العمل بقول الصحابي ان صحت نسبته اليه وكان من اعلام الصحابة. وكان نتيجة الالتزام بهذين الاصلين : عمل اهل المدينة، وقول الصحابي، تضييق دائرة الرأي. اشهر مؤلفاته "الموطأ" و "المدوّنة". وقد تركزت مدرسة المدينة الفقهية في مالك ابن أنَس، كما تركزت مدرسة الكوفة في ابي حنيفة.

وقد لقي الامام ابن أنَس من الخليفة المنصور عقابا لانه كان يفتي بمسائل اعتبرها المنصور مساسا بشرعية البيعة للعباسيين فأمره بالكف عنها. ولما لم يمتنع امر بضربه بالسياط ومُدّت يده حتى انخلعت كتفه. (٤٦) ولم يؤثر ذلك في مكانته عند الناس.

علّل ابن خلدون انتشار المذهب المالكي في المغرب بأن البداوة كانت غالبة في سكان تلك البلاد ولم يكونوا على درجة اهل العراق في الحضارة التي تدفع الى التساؤل واعمال الرأي، فكانوا الى بساطة مذهب اهل الحجاز أميل.

الامام محمد ابن ادريس الشافعي (٧٦٧ - ٨٢٠)

هو قرشي النسب يلتقي من جهة الاب مع النبي محمد في عبد مناف. ولد في غزة او عسقلان فلما توفي والده عادت به امه الى مكة وهو ابن سنتين. وقد نشأ فقيرا ودرس على علماء مكة ثم قصد قبيلة هذيل في البادية وكانت افصح العرب واقام بينها ردحا فاكتسب معرفة واسعة باللغة والشعر. بعد ذلك ذهب الى المدينة ولازم الامام مالك الى ان توفي فذهب الشافعي الى اليمن حيث ولاه واليها بعض الاعمال. وقد اتّهم بالتشيع لكنه دفع عن نفسه التهمة فعفا عنه هارون الرشيد. وبعد تنقل بين مكة وبغداد ذهب الى مصر وبقي فيها الى ان مات.

يقول في فقهه ان الاصل قرآن وسنة. فان لم يكن فقياس عليهما. واذا اتصل الحديث عن الرسول وصح الاسناد فهو سنّة. والاجماع اكبر من الخبر

المفرد ، والحديث على ظاهره. (٤٧)

وقف الشافعي في موضوع القياس موقفا وسطا بين مذهب مالك ومذهب ابي حنيفة فلم يتشدد برفضه تشدد مالك ولم يتوسع فيه توسع ابي حنيفة.

لم يلقَ مذهب الشافعي رواجا في العراق لمزاحمة الحنفية له وما لهم من جاه وقوة فتحول الى مصر. اهم ما بقي من اثار الشافعي مجموعة من سبعة اجزاء جمعها تلميذه الربيع المرادي وعلّق عليها وسماها "كتاب الامّ" وهي تتضمن رأي الشافعي في مختلف المسائل الفقهية.

الامام احمد ابن حنبل (٧٨٠ - ٨٥٥)

هو احمد ابن محمد ابن حنبل عربي الاصل من شيبان ولد ونشأ في بغداد وفيها درس القرآن والحديث وطاف في العراق والجزيرة العربية والشام واليمن والكوفة والبصرة في جمع الحديث. وقد لازم الشافعي واخذ عنه، والشافعية يعدونه منهم ولكنه في الواقع استقل عنهم. (٤٨)

لا يوجد خلاف في اعتبار احمد ابن حنبل من كبار المحدثين، لكن الخلاف يدور حول كونه فقيها. فابن جرير الطبري كان يقول انما هو رجل حديث لا رجل فقه. واقتصر ابن عبد البرّ على ذكر الأئمة الثلاثة أبي حنيفة ومالك والشافعي ولم يعتبر ابن حنبل صاحب مدرسة فقهية. كذلك لم يذكره ابن قُتيبة في كتابه "المعارف" بين الفقهاء، وذكره المقدسي في المحدثين لا في الفقهاء. (٤٩)

وقد بنى احمد بن حنبل فقهه على الحديث. فاذا وجد حديثا صحيحا لم يلتفت الى غيره، واذا وجد فتوى من الصحابة عمل بها، واذا وجد حديثا ضعيفا رجحه على القياس، ولا يستعمل القياس الا عند الضرورة القصوى. واذا اضطر الى التأويل ففي اضيق الحدود، ويكره الامام ابن حنبل الفتوى في مسائل فَرَضية وهو يُعتبر امام "أهل النقل".

وبالاجمال، فان موقفه في الفقه نقيض الحنفية. فهو ينكر القياس ويرى ان في القرآن والحديث ما يكفي لبيان الاحكام. وهو يتمسك بظاهر الكتاب والسنّة، ومن هنا اشتق اسم "الظاهرية". ويرى ان القول بالقياس تشريع عقلي في حين ان الدين الهي ولو كان الدين بالعقل لربما جرت احكام على خلاف ما اتى به

الكتاب والسنة لذلك وجب التقيد بهما بل بظاهرهما. وقد هاجم ابن حنبل القياسيين وخالف المذاهب الاخرى في كثير من المسائل ونتج عن ذلك ان مجال التشريع لدى الحنابلة اضيق من غيرهم لان اكبر مصدر للاجتهاد هو القياس وقد انكروه.

تعرض ابن حنبل لمحنة دلت على صلابته فلما دعا المأمون والمعتصم والواثق الى القول بخلق القرآن واستعمال العقل بشئون الدين عارضهم ابن حنبل ورفض الاحتكام للعقل واصرّ على القول ان القرآن غير مخلوق فضُرب وحبس في خلافة الواثق فلما جاء المتوكل والغى القول بخلق القرآن افرج عنه فازدادت مكانته بين الناس لموقفه هذا.

لم يضع ابن حنبل كتبا في الفقه على نمط خاص به، وكل ما روي له في الفقه مسائل سئل عنها فافتى فيها. وبعد وفاته اصدر ابنه عبد الله كتاب "المسند" الذي يضم نحو ثلاثين الف حديث جمعها والده واعتبرها صحيحة. وهذا العدد يزيد نحو خمسة اضعاف عما قبله مسلم والبخاري في صحيحهما مما يدل على تساهل الامام ابن حنبل في قبول الرواية.

ولا بد من الاشارة انه في الاصولية الاسلامية المعاصرة، تحتل تعاليم الامام احمد ابن حنبل اهمية خاصة لان عددا من الحركات الاصولية تعتبر نفسها حنبلية المذهب والاجتهاد. والحنابلة في الوقت الحاضر هم اقل اهل المذاهب السنية عددا.

بعض علماء وادباء العصر العباسي

بالاضافة الى من ذكرناهم من الشعراء والادباء والفقهاء والمتكلمين والاطباء والصوفيين نستكمل بحثنا عن المجتمع الاسلامي في العهد العباسي بذكر طائفة من الاعلام في مختلف هذه العلوم ظهروا في المشرق وفي اسبانيا واغنوا الثقافة والحضارة الاسلامية ونقل الاوروبيون بعضا من مؤلفاتهم في القرون الوسطى واستفادوا منهافي بناء حضارتهم. سنذكرهم مع اعمالهم باقتضاب وغرضنا ابراز معالم الحضارة الاسلامية وتعريف القاريء بهم فمن اراد الاستزادة فعليه مراجعة مؤلفاتهم او الكتب الاختصاصية.

جابر ابن حيّان (٧٢١ - ٨١٥)

ولد في مدينة طوس (ايران) وتوفي في الكوفة ويُعتبر ابو الكيمياء العربية. وكانت الكيمياء في ذلك الوقت، وفي القرون التالية، تصرف اكثر اهتمامها لتحويل المعادن المبذولة الى ذهب. واستنبط الكيمائيون ايضا علاجات للامراض من النباتات ومن مواد غير عضوية.

اشترك والد جابر بثورة عباسية ضد الامويين فاعدموه فانتقل جابر الى الجزيرة العربية حيث تشيّع ودرس العلوم ومنها الطب. بعدما انتصر العباسيون اصبح جابر طبيب القصر في عهد هارون الرشيد. وكان صديقا مقربا للامام السادس جعفر الصادق ونسب اليه معظم افكاره العلمية. ينسب الى جابر عدد كبير من المؤلفات منها أبحاث كثيرة في الكيمياء والتصوف الفها الاسماعيليون ونسبوها اليه. وقد ذاعت شهرته في عصور متاخرة بين المشتغلين بعلم الكيمياء في البلاد الاسلامية والاوروبية.

بعد جابر بن حيان نتابع اخبار الكيميائيين المسلمين مع ابي بكر الرازي الذي يجب تمييزه عن فخر الدين الرازي الذي سياتي ذكره.

الرازي، ابو بكر محمد ابن زكريا (٨٦٥ - ٩٣٢)

هو فارسي ولد وتوفي في مدينة الري في ايران. درس الكيمياء والطب والفلسفة ويُعتبر قمة الكيميائيين المسلمين، واشتهر ايضا بالطب. عمل طبيبا في مستشفى الري ثم في مستشفى بغداد وعاش كاكثر علماء عصره في كنف الولاة والحكام. اهم مؤلفاته "كتاب المنصوري" في الطب الذي الّفه لحاكم الري منصور ابن اسحق والذي تُرجم الى اللاتينية في القرن الثاني عشر، وكتاب "الحاوي" في الطب استعرض فيه الطب اليوناني والسوري القديم وشيئا من طب الهند وعلق عليه حسب اختباراته الشخصية. وكتب بحثا في الجدري والحَصبة وكان اول من ميّز بين المرضين ووصف اعراضهما.

من اهم ما قدمه الكيميائيون المسلمون ادوية مستخرجة من النباتات ومن مواد غير عضوية لمعالجة الامراض المختلفة. وقد نقل المعلومات عن هذه الادوية الى اوروبا قسطنطين الافريقي الذي كان مسلما تعلم في بغداد وتوفي راهبا مسيحيا في بلدة مونتي كاسّينو في ايطاليا سنة ١٠٨٧. كذلك عُرفت هذه

الادوية في اسبانيا في القرن الحاي عشر وتُرجمت كتبها الى اللاتينية في القرن الثاني عشر.

الواقدي، ابو عبدالله محمد ابن عمر (٧٤٧ - ٨٢٣)

ولد في المدينة وتوفي في بغداد. كان عالما بتاريخ مكة والمدينة والّف كتاب "المغازي" في غزوات النبي محمد. ثم انتقل الى بغداد حيث عيّنه وزير هارون الرشيد يحيى بن خالد البرمكي قاضيا في بغداد. وكان مقربا من الخليفة المامون.

الف الواقدي كتبا كثيرة منها تاريخ مكه والمدينة كما بحث في القرآن والفقه والحديث لكن لم يبق منها الا كتاب "المغازي".

الاصمعي، ابو سعيد عبد الملك ابن قريب (٧٤٠ - ٨٢٨)

ولد وتوفي في البصرة كان احد الثلاثة اللغويين في البصرة. التحق ببلاط هارون الرشيد الذي عيّنه مربيا لابنه. اشتهر بتديّنه وعيشته البسيطة وحظي برعاية البرامكة. كتب "الاصمعيات" جمع فيها افضل مختارات من الادب العربي.

ابن سعد، ابو عبد الله ابن مانع الزهري (توفي ٨٤٥)

عاش في بغداد وهوكاتب الواقدي ألّف كتاب "الطبقات الكبير" روى فيه حياة النبي محمد والصحابة الى زمنه.

الخوارزمي، محمد ابن موسى (٧٨٠ - ٨٥٠)

هو رياضي وفلكي اسلامي عاش في بغداد في عصر الخليفة المامون والمعتصم. وضع كتاب "الجبر والمقابلة" الذي تُرجم الى اللاتينية في القرن الثاني عشر ومنه اشتقت كلمة الجبر المستعملة في اللغات اللاتينية. ويعزى اليه ايضا استعمال الارقام الهندية - العربية التي استعملها الاوروبيون فيما بعد. وضع الخوارزمي ايضا لوائح وحسابات فلكية مستمدة من السنسكريتية الهندية ومتأثرة بالعلوم اليونانية.

الجاحظ، ابو عثمان ابن محبوب (٧٧٦ - ٨٦٨)

لُقب بالجاحظ لبروز عينيه. يقال انه من اصل حبشي متواضع من البصرة لكن ذكاءه وفطنته فتحت له ابواب الندوات العلمية والمجتمع. انتقل الى بغداد في عهد المأمون لكنه لم يتسلّم مركزا في البلاط بل عاش على عطاءات كبار القوم الذين كان يتوّج كتبه باهدائها لهم ولما انتقل مركز الدولة الى سامراء سافر الجاحظ اليها لكنه عاد الى البصرة قبل وفاته.

ضاعت مؤلفاته في الفقه والسياسة ولا يُعرف عنها الا المقتطفات التي تضمنتها مؤلفات كتاب اخرين. لكن مؤلفاته النثرية الرائعة حُفظت. من اهمها "كتاب الحيوان" الذي يضم بحوثا فقهية واجتماعية ولغوية. وكتاب "البيان والتبيين" الذي يبحث في لغة الاديب. وكتاب "البخلاء" ويضم نوادر عن اخبارهم. وهكذا قدم الجاحظ لجيله درسا كاملا فيما يمكن تسميته "العلوم الانسانية". ايّد الجاحظ حركة المعتزلة وكان منهم. ولما عارضها المتوكل وتركز نفوذ القواد الاتراك، بقي الجاحظ مرضيا عنه اذ الّف كتاب "مناقب الترك" ركّز فيه على الصفات العسكرية للجنود الاتراك وقوادهم.

اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب (ت ٨٩٧)

هو فارسي شيعي عاش مدة طويلة في ارمينيا وخراسان برعاية الحكام الطاهريين وسافر الى الهند والمغرب وتوفي في مصر. الّف في التاريخ والجغرافيا وكتب "تاريخ العالم" وكتاب "البلدان" في الجغرافيا.

المبّرد، ابو العباس محمد ابن يزيد (٨٢٦ - ٨٩٨)

ولد في البصرة وتوفي في بغداد. درس علم النحو في البصرة ودعاه الخليفة المتوكل الى بلاطه عام ٨٦٠. ولما قُتل المتوكل في العام الثاني بقي المبرّد يعلم في بغداد والّف كتاب "الكامل" الذي يتضمن مقاطع من الاشعار والامثال والحديث والتاريخ اخضعها المبرّد لتدقيق نحوي وادبي.

ابن عبد ربه، ابو عمر احمد بن محمد (٨٦٠ - ٩٤٠)

هو شاعر عربي ولد وعاش في قرطبة وعاصر ابن قتيبة في بغداد. وضع

كتاب "العقد الفريد" الذي ماثل فيه كتاب "عيون الاخبار" لابن قتيبة وجمع فيه اخباراً ونوادر، ويشكل الكتاب وصفا للاحوال الاجتماعية في عصره.

الفارابي، محمد ابن طرخان ابو نصر (٨٧٧ - ٩٥٠)

يُسمّى ايضا ابو النصر الفارابي. هو تركي ولد في "ما وراء النهر" في آسيا الوسطى شمال نهر جيحون (امو داريا) ودرس في خراسان وبغداد حيث عاش مدة طويلة ثم انتقل الى بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب وتوفي في دمشق.

الّف في الفلسفة وفي الرياضيات ويُعزى اليه اختراع الآلة الموسيقية المسماة "قانون" ويعتبره المسلمون من اشهر فلاسفتهم. وقد تُرجمت بعض كتبه الى اللاتينية ومن اهمها "اراء اهل المدينة الفاضلة".

ابن مقلة، ابو علي محمد ابن علي (٨٨٦ - ٩٤٠)

ولد وتوفي في بغداد. عاصر الخليفة المقتدر والقاهر وكانت احوال الدولة مضطربة والقواد الاتراك ينصّبون الخليفة ويعزلونه حين يشاؤن. هو اشهر الخطاطين في عصره. يُنسب اليه اختراع الخط النسخي وخط الثُلث بخطوطها المدورة التي حلّت محل الخط الكوفي المقرّن واعطت الخط العربي جماله حتى صار يستعمل في التزيين.

بالاضافة الى براعته كخطاط شارك ابن مقلة بالحياة السياسية فعُيّن وزيرا ثلاث مرات وكان يُعزل بانتقال السلطة بين القواد الاتراك المتنافسين. وفي المرة الثالثة سُجن ومات في السجن.

ابن البواب، (ت ١٠٢٢) ويُسمى ايضا ابن الستري

بعد نحو اربعين سنة على وفاة ابن مقلة ظهر خطاط اخر تابع عمل ابن مقلة وادخل تحسينات على خطوطه وابتكر خط "الريحاني" "والمحقق" وكان تلميذا لمحمد ابن اسد ومحمد ابن سمسماني وكلاهما من تلاميذ ابن مقلة. وبفضله وفضل من لحقه من الخطاطين اصبحت الخطوط العربية فنا تزيينياً.

الاصفهاني، ابو الفرج علي ابن الحسن (٨٩٧ - ٩٦٧)

ولد في اصفهان وتوفي في بغداد. هو سليل الخليفة الاموي مروان الثاني وكان شيعيا، قضى معظم حياته في بغداد وحظى برعاية آل بويه الشيعة.

الّف كتاب "الاغاني" الذي يشكل دائرة معارف اجتماعية عن العصر العباسي وخاصة عن حياة الخلفاء والامراء وكبار القوم والشعراء والموسيقيين. كتب ايضا كتابا بعنوان "مقاتل الطالبيين واخبارهم" عن شهداء الشيعة.

المسعودي، ابو الحسن علي ابن الحسين (ت ٩٦٧)

ولد المسعودي في بغداد وتوفي في الفسطاط. جال في سوريا وايران وارمينيا وشواطيء بحر الخزر ووادي السند وسيلان وعُمان والشاطيء الشرقي لافريقيا وزنجيبار. كان اول مسلم جمع بين التاريخ والجغرافيا العلمية في كتابه "مروج الذهب ومعادن الجواهر". يصفه ابن خلدون بانه إمام المؤرخين.

المتنبي، ابو الطيب احمد ابن الحسين الجعفي (٩١٥ - ٩٦٥) (٥٤)

ولد المتنبي في الكوفة وكان والده يحمل الماء الى البيوت. وانتسب الى قبيلة عربية يمنية. وقد اهّلته موهبته الشعرية للالتحاق بندوات العلم. وعندما استولى القرامطة على الكوفة ونهبوها سنة ٩٢٤ التحق بهم ابو الطيب واخذ عنهم معتقداتهم وعاش بين البدو فاتقن العربية واطّلع على مفرداتها وفصاحتها حتى اصبح لا يُسأل عن شيء الا استشهد له بكلام العرب من النظم والنثر.

اثناء وجوده مع القرامطة ادعى النبوة فسُمي المتنبي وقاد ثورة قرماطية في سوريا لكنها فشلت فقُبض عليه وسُجن سنتين ثم انكر معتقداته القرماطية فأفرج عنه وصار شاعرا متجولا يطلب الرزق ممن يمدحه.

عاصر الخليفة العباسي المقتدر ومن بعده من الخلفاء الذين وقعوا تحت سيطرة آل بويه وهم القاهر والمتقي والمستكفي والمطيع. وبما ان الخلافة كانت فقدت قوتها فقد انصرف المتنبي لمديح امراء المقاطعات التي كانت تتمتع باستقلال فعلي ضمن الخلافة العباسية. التحق اولا بالامير سيف الدولة ابن حمدان في حلب سنة ٩٤٨ فمدحه بقصائد خالدة فاجزل له العطاء واجرى عليه ثلاثة الاف دينار كل عام عدا الخلع والهدايا.

وكان لسيف الدولة مجلس يحضره العلماء والادباء كل ليلة فوقع جدال بين المتنبي وابن عم سيف الدولة ابي فراس الحمداني وهو ايضا شاعر كان يحسد المتنبي على مكانته فوثب على المتنبي وضربه فلم يدافع سيف الدولة عن ابي الطيب. وفي رواية اخرى ان المشادة وقعت بين المتنبي وابن خالويه، فخرج المتنبي غاضبا وغادر حلب الى دمشق سنة ٩٥٧.

بعد مدة، قصد مصر ومدح ابا المسك كافور وهو عبد اسود كان يحكم باسم الاخشيديين. وكان المتنبي طامعا ان يوليه احدى مقاطعات مصر، فلما لم يحصل على رغبته غادره سنة ٩٦٠ وهجاه. وذهب الى بغداد ثم الى شيراز حيث اقام خمس سنوات ومدح عضد الدولة بن بويه فاجزل عطاءه. ثم انصرف راجعا الى بغداد في شهر فبراير (شباط) ٩٦٥.

وكان المتنبي قد هجا ضبّة بن يزيد العيني وكانت والدة ضبّة شقيقة فاتك ابن ابي جهل الاسدي فاقسم هذا ان ينتقم من المتنبي. فلما علم فاتك بعودة المتنبي قاصدا بغداد تربّص له في الطريق. ولم يلتفت المتنبي الى من حذروه من غدر فاتك. فلما التقى به تقاتلوا فقُتل المتنبي مع ولده مُحَسّد وغلامه مفلح بالقرب من بغداد.

كان المتنبي فخورا ومعتزاً بنفسه وقد طبع ذلك شعره الذي اختلف عن اشعار طبقة ابي نواس التي ذكرناها واسس ما يمكن ان يوصف بانه الشعر الكلاسيكي الجديد الذي اقتدى به الشعراء اللاحقون وبقي يُدرّس في المدارس الى هذا اليوم.

ابن هاني (ت ٩٧٣)

تطورت الاداب العربية في اسبانيا والمغرب بالتوازي مع تطورها في البلاد المشرقية لكنها تاخرت بالوصول الى زهوتها بعض الوقت. كانت قرطبة عاصمة الامويين مركز اشعاع تلك الثقافة وكان الاسلوب الشعري البدوي في المغرب نادرا وتغلب عليه الشعر الوصفي والغزلي.

أُعتبر ابن هاني في الاندلس نَداً للمتنبي في المشرق في مدائحه للخليفة الفاطمي المعزّ الذي كان لا يزال في شمال افريقيا. كما اعتبر اسلوب النثر لابن عبد ربّه في "العقد الفريد" (ت ٩٤٠) مماثلا لادب ابن قُتَيبة وحظي بشهرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اكبر.

الهمذاني، بديع الزمان ابو الفضل احمد ابن الحسين (٩٦٩ - ١٠٠٨)

ولد في همدان (ايران) وتوفي في هرات (افغانستان حاليا) ايام الحكم الغزنوي. عاصر الخليفة الطايع في عهد آل بويه وهو معاصر ايضا للشاعر الفارسي الفردوسي. تجول في انحاء ما يعرف الان باسم ايران وافغانستان واستقر اخيرا في مدينة هرات. يُعتبر بديع الزمان اول من ادخل فن "المقامة" في الادب العربي وهو اسلوب قصصي من النثر المسجّع والشعر يصف فيه كاتبه قصصا طريفة ومسلية تدور بين شخصين وهميّين هما عيسى بن هشام وابي الفتح الاسكندري يُظهر فيها الكاتب ظرفه وقدرته اللغوية والفنية. وقد وضع بديع الزمان نحو اربعماية مقامة وصلنا منها نحو اثنين وخمسين.

الحريري، ابو محمد القاسم ابن علي (١٠٤٥ - ١١٢٢)

بعد نحو نصف قرن على وفاة بديع الزمان الهمذاني، تابع الحريري فن "المقامة". ولد وتوفي في البصرة في عهد آل سلجوق. وكان "رئيس الاستخبارات" في المدينة. نسج قصصه حول شخصيتين هما الحارث بن همام وابي زيد الساروجي اظهر فيها مقدرته الفنية واللغوية ولم ينكر انه يسير على منهج بديع الزمان الهمذاني. في عهده صار السجع من لوازم الكتابة الادبية الرشيقة.

ابو القاسم، خلف ابن عباس الزهراوي (٩٣٦ - ١٠١٣)

ولد ابو القاسم قرب قرطبة ويُعتبر اعظم الجراحين المسلمين في عصره. الف كتابه "التصريف لمن عجز عن التأليف" شرح فيه بالرسوم الاساليب الجراحية التي استعملها وكان اول من فعل ذلك. تضمن كتابه ايضا رسوما لمائتي آلة تستعمل في الجراحة. فكان اول من وضع كتابا مستقلا في العلم الطبي الجراحي كما كان اول من شخّص مرض الهيموفيليا.

كان طبيب الخليفة عبد الرحمن الثالث. ومع ان اطباء المشرق لم يلتفتوا كثيرا الى كتابه، فقد كان له اثر عظيم في اوروبا اذ تُرجم الى اللاتينية في القرن الثاني عشر وبقي لمدة خمسماية سنة كتاب التدريس لعلم الجراحة في اوروبا

حتى فضّلوه على كتاب غالينوس اليوناني.

الفردَوسي، ابو القاسم منصور (٩٣٥ - ١٠٢٠)

ولد الفردوسي في طوس ومات فيها بعد تجواله، وهو اعظم شعراء الفرس في عصره. كان شيعيا والّف "كتاب الملوك" "شاه نامه" شعرا من ستين الف بيت بناها على تاريخ منثور كان معروفا في طوس وتُرجم من اللغة الفهلوية يتحدث عن الملوك الفرس من الايام الاسطورية ومن نشوء النبي زرادشُت الى الشاه خسرو الثاني (٥٩٠ - ٦٢٨) لكن الفردوسي اضاف اليها ابياتا اوصلتها الى نهاية حكم الساسانيين والفتح العربي.

كان الفردوسي دهقانا اي ملاكا زراعيا وكانت له بنت واحدة اراد ان يضمن لها مهراً فعمد الى كتابة الشاه نامة. لما انجزها سنة ١١١٠ حملها الى السلطان محمود الغزنوي الذي كان استولى على بلده خراسان واهداها اليه. لكن بطانة السلطان من السنة ركّزوا على تشيّع الفردوسي وهم يعرفون كره السلطان للشيعة. بعد تردد منحه السلطان عشرين الف درهم فقط فغضب الفردوسي ووزعها على خدمه. ثم خاف غضب السلطان فهرب الى هرات ثم الى مزندران التي كانت تحت حكم عائلة تنتسب الى الساسانيين فاضاف الى الشاه نامة مائة بيت تهجو السلطان الغزنوي واهداها الى شهريار امير مزندران فاجازه بالف درهم على كل بيت.

ابن مسكَويه، ابو علي احمد ابن محمد ابن يعقوب (٩٣٠ - ١٠٣٠)

هو عالم وفيلسوف ومؤرخ يُعتقَد انه انتقل من الزرادشتية الى الاسلام ولا يُعرف كثير عن حياته الشخصية. الّف في الكيمياء التي كانت تعني في ذلك العصر محاولة تحويل المعادن الى الذهب، كما كان شاعرا. لكن اهم اعماله تناولت الاخلاق والتاريخ فكتابه "تهذيب الاخلاق" المتاثر بفلسفة ارسطو يُعتبر من افضل ما وضع في الفلسفة الاسلامية.

اهتم مسكويه بالتاريخ فتخلى عن سرد الاساطير وعبّر عن اقتناعه بان تاريخ الشعوب يقدم دروسا اخلاقية. اهم مؤلفاته كتاب "تجارب الامم وتعقب الهمم" اعتمد فيه على المراجع المتاحة له ونشّط الابحاث التاريخية لمن جاء بعده.

كان مسكويه منحازا في ابحاثه لوطنيته الفارسية.

ابن سينا، ابو علي الحسين ابن عبد الله (٩٨٠ - ١٠٣٧)

هو فيلسوف وطبيب فارسي ولد في قرية قرب بخارى في تركستان وتوفي في همدان. انتسب والده الى فرقة الاسماعيلية لكن ابن سينا لم يذهب مذهبه. عاش ابن سينا في نهاية عهد آل بويه وفي بداية عهد آل سلجوق وكان قد اصبح طبيبا بارعا في سن الثماني عشرة.

بعد انهيار الدولة السامانية سنة ٩٩٩ غادر ابن سينا بخارى الى همدان حيث صار وزيرا لحاكمها سنة ١٠٢٠. ومضّى اخر عقدين من حياته في بلاط علاء الدولة السلجوقي حاكم اصفهان.

اهم كتبه الفلسفية كتاب "الشفاء" اي شفاء الروح من الخطأ واختصره في كتاب سماه "النجاة" وفي الكتابين يعالج ابن سينا الفلسفة وعلم النفس والمنطق وما وراء الطبيعة والعلوم الطبيعية وقد ترجمت كلها الى اللاتينية في القرن الثاني عشر. ثم اصدر كتاب "اشارات وتنبيهات" وصلنا كاملا وهو يشمل الفلسفة بكاملها.

اهم كتبه الطبية "القانون في الطب" يستند فيه على ما جاء في كتب اليونان الى العهد الامبراطوري الروماني، وعلى الكتب العربية التي سبقته وعلى اختباراته الخاصة. وقد انهى جميع كتبه في اصفهان. وقد حظي كتاب "القانون في الطب" باهتمام عام في العالم الاسلامي وبقي يُدرّس في جامعات اوروبا لمدة قرون بعدما تُرجم عدة مرات الى اللاتينية.

المعري، ابو العلاء احمد ابن عبد الله (٩٧٣ - ١٠٥٧)

ولد المعري في بلدة معرة النعمان قرب حلب وتوفي فيها. ينتسب المعري الى قبيلة تنوخ العربية التي استقرت في شمال سوريا. وقد اصابه مرض الجدري في حداثته ففقده بصره. درس في حلب وانطاكية وطرابلس وكان يتمتع بدخل شخصي بسيط ساعده على معيشته.

جمع اشعاره الاولى في ديوان سماه "سقط الزند" لقي رواجاً حسناً. ثم سافر الى بغداد في اخر عهد آل بويه حيث شارك في الندوات الادبية ومضّى

سنتين لكنه لم يجد شخصا يرعاه لانه رفض ان ينصرف الى المديح. بعدها عاد الى المعرة وتخلى عن طلب الثروة وعاش حياة زهد في منزل منعزل فقصده عدد من التلاميذ درسوا عليه.

في هذه الفترة من حياته جمع اشعاره في ديوان سماه "لزوم ما لا يلزم" او "اللزوميات" لانه تقيّد فيها بقواعد ليست مطلوبة في الشعر العادي. ظهرت في أشعاره نزعة التشكيك والتشاؤم التي تابعها في "رسالة الغفران" يصف فيها زيارة الشاعر للفردوس حيث لاقى اسلافه من الشعراء الوثنيين الذين وجدوا الغفران عند الله رغم وثنيّتهم. وقد اثارت رسالة الغفران بعض الانتقاد في الاوساط الدينية.

ثم كتب "الفصول والغايات" بنثر مسجّع قال عنه منتقدوه بانه تقليد للقرآن. وبلغ من تشاؤم المعري انه استحسن عدم انجاب الاولاد حتى يوفر عليهم مشقات الحياة ومتاعبها.

الماوردي، ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (٩٧٤ - ١٠٥٨)

ولد الماوردي في البصرة وتوفي في بغداد عن عمر ناهز ٨٦ سنة. كان من وجوه فقهاء الشافعيين واماما في الفقه والاصول والتفسير. تولى القضاء في بلاد كثيرة وكان رئيس القضاة في ناحية نيسابور ولقبوه "اقضى القضاة". امتاز بالمرونة والاجتهاد ومن اقواله "أجتهد ولا أقلّد".

عاش الماوردي في عهد آل بويه وكان متّصلا بالحياة السياسية وعاصر الخلفاء الطائع والقادر والقائم وكان الخليفة يرسله احيانا للتوسط مع السلطان البويهي.

من اهم مؤلفاته كتاب "الحاوي الكبير" في فقه الشافعيه، وكتاب "ادب الوزير" واهمها كتاب "الاحكام السلطانية" الذي يبحث في عقد الامامة وتقليد الوزارة والامارة والقضاء وقد برّر الماوردي فيه تسلّط السلاطين واغتصابهم.

ابن زيدون (ت ١٠٧١)

ولد الشاعر ابن زيدون في قرطبة من اسرة نبيلة وبرع بنظم الموشحات وهي نوع من الشعر مؤلفة من مقاطع، كل مقطع يحتوي على اربعة الى ستة

ابيات خفيفة رشيقة وموضوعها غالبا الغزل. نظم ابن زيدون كثيرا من هذه الموشحات الغزلية بالاميرة الاموية ولاّدة واشتهرت موشحاته وانتشرت.

ابن حزم، ابو محمد علي بن احمد ابن سعيد (٩٩٤ - ١٠٦٤)

ولد في قرطبة وشاهد تفكك الخلافة الاموية في الاندلس (١٠٣١) وقيام عدد من الدويلات عُرفت باسم "ملوك الطوائف". تولى الوزارة كوالده وبقي مواليا للامويين الى ان زالوا فسُجن ولما افرج عنه استقر في اراضي عائلته قرب اشبيلية وانصرف للكتابة والتأليف.

كان ابن حزم يتبع المذهب الشافعي لكنه انضم الى اراء الظاهريّين الذين لا يقبلون الا المعنى الظاهري لآيات القرآن وللحديث ويرفضون القياس والاجتهاد الشخصي كما يرفضون اللجوء الى سلطة الامام الروحية (كالشيعة). من اهم كتبه "الفصل في الملل والاهواء والنحل" وفيه هاجم الاشعرية، وكتاب "طوق الحمامة" عن فنون الحب .

عمر الخيام (١٠٤٨ - ١١٢٢)

ولد عمر الخيام في نيسابور (ايران) وتوفي فيها.

هو رياضي وفلكي وشاعر فارسي عُرف في زمنه باعماله العلمية، لكنه اشتهر في الخارج وخصوصا في البلاد الغربية بقصائده (الرباعيات) التي ترجمها الى الانكليزية ادوارد فيتزجيرالد سنة ١٨٥٩ فانتشرت واستساغها الناس كما ترجمها الى العربية عدد من الشعراء واكثرها في الخمريات والغزل.

عاش عمر الخيام في نيسابور وبلخ وسمرقند. وقد دعاه السلطان السلجوقي مالك شاه لتصحيح الروزنامة المستعملة في ذلك الزمن حسب قياساته الفلكية.

كان الخيام مشككا بالعقائد الدينية وبالبعث، وبالحياة بعد الموت، كما كان يزدري اليقين الديني، ويقلقه ما يراه من جهل الناس وضعفهم. ولعل كثيرا من ذلك تبدى في رباعياته.

ابو حميد الغزالي (١٠٥٨ - ١١١١) ذكرنا سيرته في باب "الصوفية".

ابن باجه، ابو بكر محمد الاندلسي السرقسطي (١٠٩٥ ـ ١١٣٨)

ولد في سرقسطة (اسبانيا) وتوفي في فاس. هو اول من مثّل في اسبانيا الفلسفة العربية المتأثرة بالتعاليم الارسطوطالية والافلاطونية الجديدة فمهّد الطريق لابن طفيل وابن رشد.

تضمنت افكاره احتمال اتحاد النفس البشرية مع الذات الالهية كالمرحلة النهائية في تطور العقل المتصاعد حتى الوصول الى "الفكر الفعال" المنبثق من العزة الالهية. اهم مؤلفاته كتاب "تدبير المتوحد". وكَتَب اشعارا واغنيات وبحثا في علم النبات، ودرس علم الفلك والطب والرياضيات، وقد اعتبره كثير من المؤلفين المسلمين ملحداً.

ابن زُهر، ابو مروان عبد الملك ابن ابي العلا (١٠٩٠ - ١١٦٢)

ولد وتوفي في اشبيلية. هو من اقدر المفكرين الاسلاميين واعظم من مارس الاساليب العملية في المعالجة الطبية ووصفها في كتابه "التيسير في المداواة والتدبير" الذي تُرجم الى العبرية واللاتينية وكان له نفوذ عظيم على تعاطي الطب في اوروبا. تتلمذ عليه الفيلسوف والطبيب الشهير ابن رشد. شرح المعالجة الجراحية لانبوب التنفس، وجراحة العين لازالة الغشاوة، واستخراج البحص من الكلية، ومعالجة اتساع او ضيق بؤبؤ العين، ونصح باستعمال نبات مخدر لمعالجة امراض العين، ووصف تضخم الغلاف الذي يحيط بالقلب.

ابن طفيل، ابو بكر محمد ابن عبد الملك (ت ١١٨٥)

وُلد ابن طفيل في مدينة قادس (اسبانيا) في العقد الاول من القرن الثاني عشر وتوفي في مراكش. التحق بخدمة ابي يعقوب يوسف سلطان الموحدين (١١٦٣ - ١١٨٤) وصار مستشاره وطبيب بلاطه.

كتب عدة مؤلفات طبية بالعربية لكن شهرته ذاعت بفضل رسالته "حيّ ابن يقظان" وهي عبارة عن قصة فلسفية يصف فيها حياة رجل امضى الخمسين سنة الاولى من حياته وحيداً في جزيرة غير مأهولة. واستطاع مع ذلك ان يثقّف نفسه ويكتسب المعلومات الفلسفية بالتأمل الروحاني بحيث توصل في النهاية الى الاتحاد الدائم بالله.

كان ابن طفيل يعتقد ان التأمل الروحاني يتفوق على الفلسفة في استجلاء الحقيقة. وهو الذي قدم صديقه الاصغر سناً ابن رشد الى سلطان الموحدين.

ابن رشد، ابو الوليد محمد ابن احمد (١١٢٦ - ١١٩٨)

وُلد ابن رشد في قرطبة وتوفي في مراكش وعاصر عهد الموحدين. في سنة ١١٦٩ قدمه ابن طفيل الى الموحدين فتمتع برعايتهم وعُيّن قاضي القضاة في العاصمة قرطبة سنة ١١٧١ حيث قضى بموجب المذهب المالكي.

يُعتبر ابن رشد اهم كتّاب الفلسفة العربية في اسبانيا فقد وفّق بين الفقه الاسلامي والفلسفة اليونانية واصدر ما بين ١١٦٢ - ١١٩٥ سلسلة من الابحاث والتعليقات على معظم مؤلفات ارسطو وعلى "جمهورية افلاطون".

كتب ابن رشد ايضا في علم الفلك والطب والشريعة فعيّنه ابو يعقوب يوسف سنة ١١٨٢ رئيس اطبائه. وكانت اشهر مؤلفاته الطبية كتاب "الكليات" الذي ترجم الى اللاتينية سنة ١٢٥٥.

دافع ابن رشد كالفارابي، عن اولوية العقل على ما عداه، ودخل في نقاش مع الغزالي الذي هاجم الفلاسفة في كتابه "تهافت الفلاسفة" ورد عليه بكتابه "تهافت التهافت" الذي تُرجم الى اللاتينية عام ١٣٢٨ والى اللغة العبرية.

ابن الجوزي، عبد الرحمن (١١٢٦ - ١٢٠٠)

ولد وتوفي في بغداد في نهاية عهد آل سلجوق. كان فقيها وعالما دينيا ومؤرخا وواعظا ومعلما احتل مركزا مرموقا في دوائر الحكم العباسي. وكان حنبليا ايّد سياسة الدولة الدينية التقليدية بعظاته وتعليمه فكافئه الخلفاء وعينوه سنة ١١٧٨ رئيسا لخمس مدارس دينية والمتكلم الرئيسي باسم الحنابلة.

ما بين ١١٧٠ - ١١٨٠ في عهد الخليفة المستضيء اوكل اليه محاربة الزندقة والتفتيش عن الذين يحيدون عن التعاليم الشرعية. فنظّم حملات اضطهاد ضد الذين اعتبرهم قد حادوا عن الاسلام واضطهد على الخصوص الصوفيين والشيعة مما استنكره الفقهاء المتحررون. وقد حاز ابن الجوزي هذا النفوذ بسبب حسن علاقاته مع الخلفاء المتعاقبين ووزرائهم لكن اعتقال الوزير

ابن يونس سنة ١١٩٤ ايام الخليفة الناصر الذي قضى على السلاجقة، حرمه من حماية صديقه وحاميه فقُبض عليه ونُفي الى واسط.

وضع بعض المؤلفات التي تعكس انتسابه الى المذهب الحنبلي منها كتابه "صفات الصفوة" الذي يؤكد فيه ان الذين يؤمنون بالروحانية الحقيقية هم الذين يجعلون حياتهم صورة لحياة الصحابة.

فخر الدين الرازي (١١٤٩ - ١٢٠٩)

وُلد في مدينة الري في ايران وتوفي في مدينة هرات في افغانستان حاليا. ويجب التفريق بينه وبين ابي بكر الرازي الذي عاش في القرن التاسع واشتهر بالطب والكيمياء.

يُعتبر فخر الدين الرازي من اشهر فقهاء وعلماء عصره. ألّف نحو مائة كتاب جلبت له الشهرة والثروة. تجول في منطقة تشمل حاليا شمال غرب ايران وتركستان (في الاتحاد السوفياتي) واستقر اخيرا في مدينة هرات (افغانستان).

كان الرازي معتدلا في موقفه الفقهي حاول ان يوفّق بين الفقه والفلسفة وعبّر عن ذلك في كتابه "المباحث المشرقية". لكن اهم ما اشتهر به الرازي كتابه في تفسير القرآن "مفاتيح الغيب او كتاب التفسير الكبير". كما كتب "محصل افكار المتقدمين والمتأخرين" في علم الكلام.

عاش الرازي في اواخر العهد العباسي والخلافة في دور الانحلال السريع وقد استقل حكام المقاطعات وتكاثرت الفرق الدينية وازدهرت الطرق الصوفية ولم يطل الوقت حتى احتل المغول بغداد وانهوا الخلافة العباسية.

ابن الاثير، ابو الحسن علي عز الدين (١١٦٠ - ١٢٣٣)

وُلد في جزيرة ابن عمرو (شمال شرق سوريا) وتوفي في الموصل.

درس في الموصل ورافق جيش صلاح الدين ثم عاش في حلب ودمشق مدة من الزمن تحت حكم الاتابك الذين حكموا نيابة عن السلطان السلجوقي وتوفي قبل خمس وعشرين سنة من الغزو المغولي لبغداد الذي انهى الخلافة العباسية.

اهم اعماله كتاب "الكامل في التاريخ" وهو من اهم مصادر التاريخ

الاسلامي يبدأ بالخليقة وينتهي بوفاته. كتب ايضا في تاريخ الاتابك وهم وكلاء في خدمة السلجوقيين اسسو لنفسهم امارات مستقلة.

مع ابن الاثير وكتابه التاريخي ننهي استعراضنا للاوضاع الفكرية والاجتماعية والفقهية والادبية والعلمية التي ميّزت هذه الخلافة التي دامت نظريا نحو خمسماية عام واشتهرت في دورها الاول بحضارة زاهرة مشرقة في تاريخ العالم حاولنا ان نبيّن ملامحها من خلال وصف مقتضب لنحو ثمانين عالم وشاعر واديب وطبيب وفقيه وفلكي وفيلسوف زخرت بهم دنيا المسلمين خلال تلك القرون. وقد اضفنا الى الاعلام المشرقيين سيرة بعض معاصريهم الاندلسيين لان الحضارة الاسلامية كانت واحدة وان فرّقت النزاعات السياسية بين دولها.

ولا ندعّي ان عرضنا كان شاملا ووافيا لكننا حاولنا جهدنا ان نعطي صورة لمختلف نواحي تلك الحضارة وما على الراغب بالاستزادة الا الرجوع الى الاصول. ونعتبر ان غرضنا من هذا العرض قد تحقق اذا تكوّن لدى القاريء صورة عن الحياة الاجتماعية والثقافية تساعده على فهم النظام السياسي الاسلامي الذي هو هدفنا الاول في هذا الكتاب.

* * *

مراجع الفصل السادس
تبدل المجتمع الاسلامي

١ - طه حسين، علي وبنوه، ص ١٥٧.

٢ - طه حسين، عثمان، ص ٣٩.

٣ - احمد امين، ضحى الاسلام، ج ١، ص ٢٦ و ٢٧.

٤ - احمد امين، فجر الاسلام، ج ١، ص ٩٩.

٥ - طه حسين، حديث الاربعاء، ص ٢١.

٦ - الاصفهاني، ابو الفرج، الاغاني، ج ٩، ص ٢٠ و ٨٣.

٧ - المصدر السابق، ج ٩، ص ٩٦ و ٩٩ و ١٠٢.

٨ - المصدر السابق، ج ٨، ص ١٦٢ و ١٧٦ و ١٨٤ و ١٨٦ و ج ٩، ص ٢٠ و ١٠٤ و ١٤٠.

٩ - طه حسين، حديث الاربعاء، ص ٩٧.

١٠ - المصدر السابق، ص ٢٤٩ و ٢٥٠.

١١ - الطبري، ابو جرير، تاريخ الرسل والملول، ج ١٠، ص ٢١٥، واحمد امين، صحى الاسلام، ج ١، ص ١١٦.

١١٢- طه حسين، حديث الاربعاء، ص ٢٤٢.

١٣ - المصدر السابق، ص ٢٥٨ - ٢٦٠.

١٤ - ديوان ابي نواس، المقدمة، ص ٥.

١٥ - ديوان بشار بن برد تقديم الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور.

١٦ - الاغاني، ج ١٢، ص ٨٧ و ١٠٣.

١٧ - المصدر اسابق، ج ١٢، ص ٧٣ - ٩٨.

١٨ - المصدر السابق، ج ١٥، ص ١٤٨.

١٩ - المصدر السابق، ج ١٧، ص ١٢٧.

٢٠ - احمد ابن، فجر الاسلام، ج ١، ص ١٠ و ٤٦.

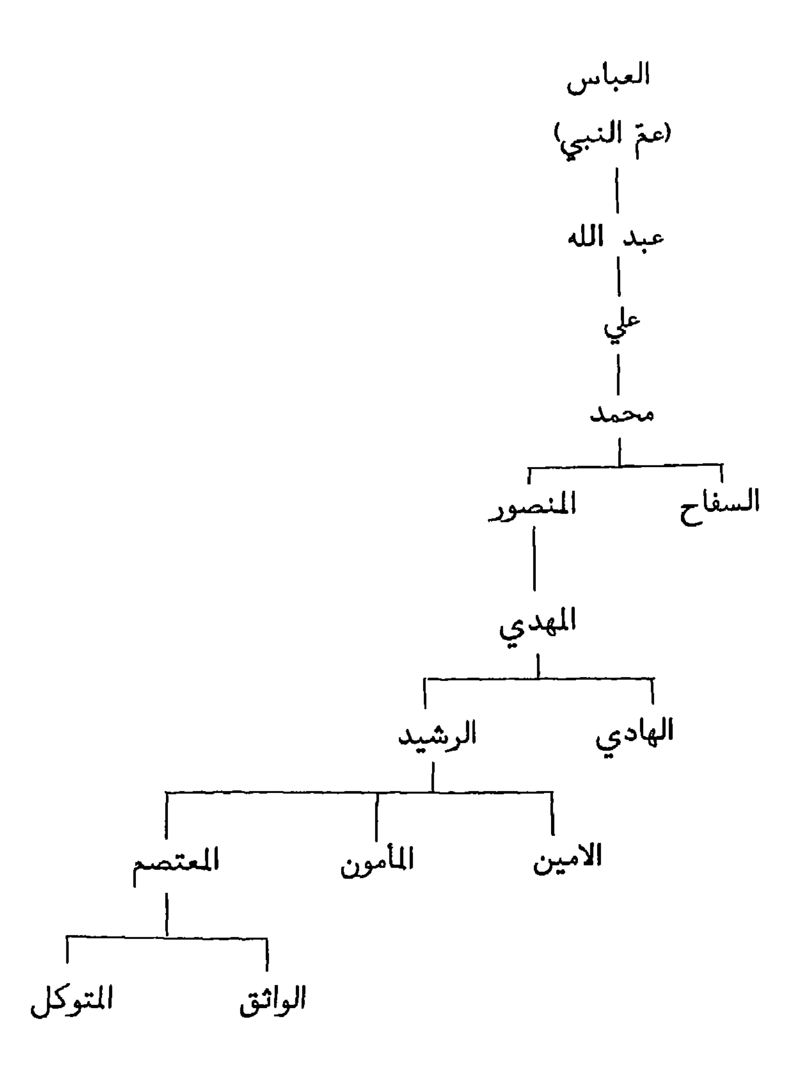
٢١ - طه حسين، حديث الاربعاء، ص ٤٤.

٢٢ - الطبري، سبق ذكره،.ج ٩، ص ١٢٧.

٢٣ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ص ١٩.
٢٤ - الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢، ص ٢٠٦. وضحى الاسلام، ج ١، ص ٣٥.
٢٥ - الطبري، سبق ذكره، ؛ ٩، ص ٢١٩.
٢٦ - احمد امين، ضحى الاسلام، ج ١، ص ٦٠.
٢٧ - المصدر السابق، ص ٦٢.
٢٨ - Houchang Nahavandi,
Anatomie d'une Revolution, p. 11-B
٢٩ - ديوان بشار ابن برد، ص ٢٨.
٣٠ - الاصفهاني، أبو الفرج، الاغاني، ج ٢، ص ٧٣.
٣١ - الطبري، ج ١٠، ص ٢٦٤.
٣٢ - طه حسين، حديث الاربعاء، ص ١٩٧ - ٢٠٨.
٣٣ - الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢، ص ٢٠٦.
٣٤ - الطبري، سبق ذكره، ج ٣، ص ٢١٩.
٣٥ - احمد امين، ضحى الاسلام، ج ١، ص ٦٠.
٣٦ - المصدر السابق، ج ١، ص ٦٢.
٣٧ - ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٧٧ و ٤٧٨.
٣٨ - احمد امين، ضحى الاسلام، ج ١، ص ٢٥٣.
٣٩ - حتي، فيليب، تاريخ العرب، ص ٢٨٤.
٤٠ - المصدر السابق، ص ٢٨٩.
٤١ - احمد امين، ضحى الاسلام، ج ٣، ص ٧ - ٢٠.
٤٢ - سورة الكهف، ٢٣.
٤٣ - سورة الاحزاب، ٤٠.
٤٤ - سورة الرحمن، ٢٥ و ٢٦.
٤٥ ـ محمد اسد، الدولة والحكم في الاسلام (بالانكليزية)، ص ١١ و ١٦.
٤٦ - احمد امين، ضحى الاسلام، ج ٢، ص ٢٢٣.
٤٧ و ٤٨ و ٤٩ ـ المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٢٥.

* * *

الخلفاء في الدور العباسي الاول



الفصل السابع

السياسة في الدولة العباسية

الدعوة العباسية

رأينا في الفصول السابقة ان النزاع على الخلافة بدأ حال وفاة النبي، واستمر في عهد الخلفاء الراشدين، ثم انتقلت الخلافة الى بني امية بقوة معاوية ودهائه. لكن التحفز للخلافة لم يتوقف وتركز في آل البيت (الشيعة) وآل العباس والخوارج. وقد تحالف الشيعة والعباسيون ضد الامويين ظنّاً من آل البيت ان العباسيين يدعمونهم ثم تبيّن لهم خلاف ذلك.

ينتسب العباسيون الى العباس عم النبي وابنه عبد الله المتوفي سنة ٦٨٨ وهو جدّ الخلفاء العباسيين وكان مقيما في مكة واشتهر بالحديث والفقه والتفسير.

ثم خلفه ابنه علي بن عبد الله الملقب بالسَجّاد ذهب في ايام عبد الملك بن مروان الى دمشق واقام بها. ثم اساء اليه الوليد ابن عبد الملك فتحوّل الى الحُميمَة (بلد من اعمال البلقاء بالشام) ومنها انطلق دعاتهم. ثم اتى ابنه محمد بن علي فاظهر مشايعة العلويين واليه انتقلت الامامة من ابي هاشم ابن محمد ابن الحنفية.

لكن بني العباس لم يدّعوا ان الامامة تنحدر اليهم من العباس عم النبي او من ابنه عبد الله مباشرة بل ساقوها بطريق متعرج من علي بن ابي طالب الى ابنيه الحسن والحسين وكانوا متفقين بهذا التسلسل مع الشيعة. لكنهم اختلفوا مع الشيعة بعد مقتل الحسين. فالشيعة ينقلون الامامة من الحسين الى ابنه علي زين العابدين ثم الى اولاده. اما العباسيون فقد نقلوا الامامة بعد

الحسين الى اخيه محمد ابن الحنفية وقد سمّي بذلك لان امه كانت من بني حنيفة. ومنه نقلوا الامامة الى ابنه ابي هاشم لذلك يُلقبون احيانا بالهاشمية. وقد خاف سليمان بن عبد الملك من منافسة ابي هاشم فارسل اليه من سمّه. وقد زعم العباسيون ان ابا هاشم لما احسّ بالموت وهو منصرف من الشام اوصى بالامامة الى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس اي انه نقل الامامة من بيت علي بن ابي طالب الى بيت آل عباس. ولا يوجد تفسير لعمله هذا اذا صحّ. واستمر العباسيون يدّعون الامامة فلما مات محمد بن علي اوصى بالامر لابنه ابرهيم المعروف بالامام وهو الذي قتله مروان الثاني اخر خلفاء بني امية. وكان الامام ابرهيم قد اختار ابا مسلم الخراساني رئيسا لدعاته واوصى بالامامة بعده الى اخيه عبد الله ابن الحارثية الملقب بالسفاح، واوصى هذا الى اخيه ابي جعفر الملقب بالمنصور. وبذلك قامت الخصومة بين العباسيين وآل البيت.

يلاحظ في هذا التسلسل ان آل العباس التزموا بمبدأ الاستخلاف الذي سار عليه الامويون ولم يلتفتوا الى موضوع الشورى.

اختلفت الدولة العباسية عن الاموية بامور خطيرة منها انها تطلعت الى الشرق اي الى فارس وخراسان وآسيا الوسطى والهند، في حين كان اتجاه الدولة الاموية الى الغرب اي الى البحر المتوسط وشمال افريقيا واسبانيا.

لم يكن الخلفاء العباسيون يحبّون البادية ويحنّون اليها كالامويين، ولم يكونوا يقلدون عيشة اهلها في قصورهم وتعاملهم مع الناس بل قطعوا كل صلة بالبادية واهلها وقلدوا ملوك الفرس في اكثر الامور، واستبدلوا بالخلافة التي كانت بدوية ملكا حضريا في كل شيء.

اعتمدت الدولة العباسية على الفرس في تركيز دعائمها وتنكّرت للعنصر العربي .ولم تطمأن اليه لان العرب كانوا عماد الدولة الاموية ونالوا في ايامها العزّ والمنافع والمناصب. وتوسل العباسيون الدين سبيلا لاستمالة الموالي فتظاهر الخلفاء به.

اقام العباسيون حكومة اخذت كثيرا من اساليب أكاسرة آل ساسان ومظاهرهم، وصار الخلفاء يمارسون حكما مطلقا على الطريقة الفارسية مبتعدين عن التقاليد العربية، ووقع الاسلام العربي تحت تأثير الثقافة

الفارسية.

اما العنصر العربي الذي لم يدرك اول الامر خطورة التغيير الحاصل، فقد اكتشف بعد وقت انه فقد السلطة السياسية والمكانة الاجتماعية التي كانت له وخسرها الى الابد.

سكان الدولة العباسية

كان سكان الدولة العباسية، خصوصا في الدور الاول، من أهل البلاد الاصليين ومن طبقة الفلاحين واهل الحرف الذين استمروا يعيشون في منازلهم ومزارعهم الريفية، او ملتصقين بحرفهم في المدن، متمسكين بتقاليدهم الثقافية ومحافظين على دياناتهم ولغاتهم الاصلية فكانوا يتكلمون الارامية والسريانية في العراق وبلاد الشام، والايرانية في فارس، والقبطية في مصر. وكانت هذه الطبقة اهم مورد لدخل الدولة اذ كانت تدفع الخراج على الارض والجزية على الرأس لان الشريعة اعتبرتهم اهل ذمة. لكن اهل الذمة في الاصل هم اهل الكتاب من نصارى ويهود وصابئة ولا يمكن ان يكون النبي محمد قد اعتبر اتباع زرادشت (المجوس) الذين ورد ذكرهم مرة واحدة في القرآن (سورة الحج، ١٦)، في عداد "اهل الكتاب". غير ان السياسة العملية والمصلحة قضت بان يوسع الفقهاء نطاق اهل الكتاب ليشمل اتباع زرادشت وماني وسكان حرّان الوثنيين، والذين لم يعتنقوا الاسلام من ملايين الاتراك والهنود والبربر في شمال افريقيا، لانه استحال على المسلمين تطبيق النصّ الشرعي القاضي باجبار هؤلاء على الاسلام او قتلهم بالنظر لكثرة عددهم ولحاجة الدولة الى الضرائب التي يدفعونها.

بقي هؤلاء السكان من اهل الذمة يشكلون الكثرة الكبيرة في الدولة العباسية لكنهم كانوا يعيشون على هامش الحياة السياسية والاجتماعية لا يشاركون بها ولا يؤثرون فيها وان تحملوا عواقبها. فاذا جاء سلطان ظالم وزاد في الضرائب، وكثيرا ما كان هذا يحصل، فان الفلاحين واهل الحرف هم الذين يدفعون. واذا قامت الثورات واحرقت الجيوش المزارع والحقول فالفلاحون هم المنكوبون. واذا اختل الامن في المدن وفتك العيارون والشطار والجنود وكثرت التعديات فاصحاب الحرف وصغار التجار هم المتضررون.

الاقاليم الرئيسية في الدور الأول

اهم الاقاليم التي تكوّنت منها الدولة العباسية في دورها الاول هي :
١ ــ افريقية وهي ما كان غربي صحراء ليبيا، ٢ــ صقلّية، ٣ ــ مصر، ٤ ــ سوريا وفلسطين وكانتا احيانا مفصولتين، ٥ ــ الحجاز واليمامة (اواسط الجزيرة)، ٦ ــ اليمن او الجزيرة الجنوبية، ٧ ــ البحرين وعُمان وعاصمتها البصرة، ٨ ــ السواد او العراق (القسم الاسفل مما بين النهرين) واهم مدنه بغداد والكوفة وواسط، ٩ ــ الجزيرة او شبه الجزيرة وهي اشور القديمة وعاصمتها الموصل قرب نينوى عاصمة اشور، ١٠ــ اذربيجان واهم مدنها اردبيل وتبريز، ١١ ــ الجبال وهي بلاد مادي القديمة وقد عُرفت بعدئذ باسم العراق العجمي واهم مدنها همدان والري واصفهان، ١٢ ــ خوزستان واهم مدنها الاهواز، ١٣ ــ فارس وعاصمتها شيراز، ١٤ ــ كرمان وعاصمتها كرمان، ١٥ ــ مكران وكانت تشمل بلوخستان الحالية وامتدت الى المرتفعات المشرفة على نهر السند، ١٦ ــ سجستان او سيستان وعاصمتها زرنج، ١٧ ــ قوهستان وطبرستان وجرجان وارمينيا، ١٨ ــ خراسان وفيها البلاد التي يتكوّن منها اليوم القسم الشمالي الغربي من افغانستان واهم مدنها نيسابور ومرو وهرات وبلخ، ١٩ ــ خوارزم وعاصمتها الاولى كاث، ٢٠ ــ الصغد بين جيحون وسيحون واهم مدنها بخارى وسمرقند، ٢١ ــ فرغانة وعاصمتها شاش (طاشقند) اليوم.

قبل ان نسترسل في بحث النظم السياسية في العهد العباسي نذكّر بما قلناه في الفصل السادس عن المجتمع الجديد الذي تبدل تبدلاً كاملا في جميع النواحي : في العناصر التي ايّدته ودعمته، وفي اتجاهاته الثقافية والفكرية، وفي علومه وفقهه، وفي حياة الشعب اليومية، وفي أدبه وشعره وموسيقاه وفنونه، فذلك كله يساعدنا على فهم النظام السياسي الذي نشأ.

تأسيس الدولة

خلال حكم المنصور الطويل تركزت اسس الدولة وتسارع تبدل المجتمع الاسلامي وتميّز بالظواهر التالية :

اولا : حَرص الخلفاء العباسيون على الظهور بمظهر المتدينين عن ايمان، او لاستمالة عامة الناس، فاخذ الخليفة يرتدي بردة النبي في صلاة الجمعة والاحتفالات الرسمية ويجمع حوله الفقهاء. لكن هذا الادعاء كان في كثير من الاحيان ظاهريا لان الخلفاء العباسيين لم يكونوا اقل اقبالا على الدنيا وملاّذها من الامويين.

ثانيا : مارس الخلفاء العباسيون عمليا نظرية الحكم بمشيئة الله فلا قيود على سلطة الخليفة الا ما نهت عنه الشريعة صراحة وقد قلدوا بذلك ملوك الساسانيين.

ثالثا : سار الخلفاء العباسيون على منوال الخلفاء الراشدين والامويين في اهمال وضع قاعدة لتسلسل الحكم تقي الدولة من النزاعات والثورات لدى وفاة كل خليفة، ولجأوا الى مبدأ الاستخلاف اي ان يعيّن الخليفة القائم من يليه من ابنائه او احد افراد عائلته دون ان تكون هناك قاعدة واضحة، ثم يسوق الناسَ للبيعة. ولم يعارض العلماء والفقهاء هذا الاسلوب ولم يتمسكوا بالشورى. وبقي الاستخلاف قاعدة الخلافة الى ان تسلط القواد الاتراك على الخلافة وصاروا هم الذين يولّون الخليفة ويعزلونه.

رابعا : اعتمد العباسيون اعتمادا كاملا على العنصر الفارسي واقصوا العرب عن مراكز النفوذ في السياسة والجيش والادارة مما ولّد التنافس بين العرب والفرس (الشعوبية).

خامسا : تابع العباسيون اضطهاد العلويين المطالبين بالخلافة الذين ظنوا ان العباسيين يعملون ضد الامويين من اجلهم فلما تاكدوا ان الامر غير ذلك جاهروا بعدائهم وقاموا بثورات عديدة فنكّل بهم العباسيون.

سادسا : جرى في هذا العصر امتزاج جنسي واسع بين العرب والشعوب المغلوبة بسبب كثرة الرقيق، وجرى ايضا لقاح فكري ترك اثرا كبيرا في مختلف العلوم والفنون والادب، وفي الحياة الاجتماعية. وهو عصر يمتد من الوجهة الحضارية من خلافة الوليد الثاني الاموي (٧٤٤) الى نهاية خلافة الواثق العباسي (٨٤٧) اي نحومائة سنة ورد تفصيله.

وبالاجمال، فقد تميّز الدور العباسي الاول بغلبة العنصر الفارسي، وبحرية فكرية محدودة مثّلتها الحركات التي اخذت كثيرا من الثقافة اليونانية

والفارسية فخالف هذا العصر العصور السابقة واللاحقة مما جعله عصرا مميّزا قائما بذاته. وقد شارك العرب بهذه النهضة فجاؤا بالدين واللغة، واخذوا عن الاقوام الاخرى اليونانية والفارسية والهندية وغيرها الفلسفة والرياضيات والطب وعلم الفلك والاساطير والاداب واللباس والمسكن والطعام واساليب العيش الرغيد وكثيرا من التقاليد السياسية واساليب الحكم، فنتج عن هذا التفاعل حضارة اسلامية مزدهرة شارك بها العرب والاقوام الاخرى بدرجات متفاوتة من العطاء اضاءت ارجاء العالم الاسلامي.

يجدر بنا ان ننبه الى الطبيعة العابرة لهذا العصر اذ سيطر الجمود والتقليد على المجتمع العباسي منذ خلافة المتوكل (٨٤٧-٨٦١) الذي كبت القدر المحدود من الحرية الفكرية التي تمتع بها المسلمون في الدور السابق وكانت اساس الازدهار الثقافي والحضاري.

ترافق الجمود العقلي مع سيطرة العبيد الاتراك على الحكم. وبرز ذلك بصورة واضحة منذ خلافة المتوكل ومن جاء بعده من الخلفاء طيلة ما يزيد عن قرن وتتابع ذلك لقرنين اخرين في عهود آل بويه وآل سلجوق. ولا يعني ذلك انه لم يظهر علماء وادباء في القرنين العاشر والحادي عشر فزخم الحضارة لا يتوقف عند حدّ تاريخي معين، لكن تلك الشعلة الوضاءة بدأت تخبو تدريجيا وانتقلت مراكز الاشعاع العلمي والادبي من بغداد عاصمة الخلافة التي اصبحت اسمية، الى عواصم الاقاليم التي استقلت عمليا كبخارى وسمرقند واصفهان وشيراز والقاهرة والقيروان وفاس وقرطبة وغيرها من المدن الاسبانية.

الادوار السياسية

مرت الخلافة العباسية في خمسة ادوار سياسية واضحة لكل منها وضع مختلف هي :

اولا : عصر التأسيس والازدهار الذي دام سبعا وتسعين سنة من تأسيس الدولة الى نهاية خلافة الواثق (٧٥٠-٨٤٧)، توالى فيه على الحكم تسع خلفاء كان النفوذ السياسي والثقافي الفارسي فيه متغلبا وواضحا.

ثانيا : دور القواد الاتراك الذي دام سبعا وثمانين سنة (٨٤٧-٩٣٤)

توالى فيه على الحكم ثلاث عشرة خليفة. في هذا الدور سيطر القواد والجند الاتراك وتحكموا بالخلافة وبالبلاد.

ثالثا : دور آل بُوَيه، وهم فرس شيعة، دامماية وثلاث وعشرين سنة (٩٣٢ - ١٠٥٥) توالى فيه على الحكم خمس خلفاء خضع فيه الخليفة السني وشعبه للسلاطين الشيعة.

رابعا : دور آل سلجوق الاتراك السنّة الذي دام ماية واربعين سنة (١٠٥٥ - ١١٩٤) توالى فيه على الحكم ست خلفاء تحت سيطرة السلاجقة الاتراك الى ان تغلب خوارزم شاه وانهى العهد السلجوقي.

خامسا : الدور الخامس الذي توالى فيه اربع خلفاء وامتدّ من تغلّب خوارزم شاه على آل سلجوق عام ١١٩٤ الى دخول هولاكو خان المغولي بغداد والقضاء على الخلافة العباسية عام ١٢٥٨

الدور الاول الفارسي (٧٥٠ - ٨٤٧)

تأسيس الدولة

كان دعاة بني العباس ناشطين في الاقطار الشرقية طيلة عشرين سنة يهيئون للانقضاض على بني امية واستفادوا من وضعين : انقسام العرب لعصبيات متقاتلة اضعفت بعضها بعضا رغم شعورهم باشتداد ساعد الفرس، ثم كره الموالي وهم اكثرية السكان، للامويين الذين احتقروهم واذلوهم فلما عيّن الامام ابرهيم ابا مسلم الخراساني رئيسا لدعاته كانت الظروف قد نضجت للعمل.

لا يُعرف كثيرا عن نشأة ابي مسلم والارجح انه كان مولى من اصل وضيع تلقن مبادئ الدعوة العباسية عن الامام ابرهيم الذي ارسله عام ٧٤٥ الى خراسان اهم المقاطعات واكبرها واكثرها نضوجا للثورة وقال له "ان استطعت الاّ تدع بخراسان احدا يتكلم العربية الا قتلته فافعل. وعليك بمِضَر فانهم العدو القريب فلا تدع على الارض منهم ديّاراً".

شكل ابو مسلم في خراسان جبهة من الموالي ومن العرب الناقمين على الوالي الاموي نصر بن سيّار بسبب عصبيته المضرية، وكان اقناع الموالي الفرس

سهلا فقد قال الدعاة لهم ان نقل الخلافة الى العباسيين وهم هاشميون من اقرباء النبي يعطيها صبغة دينية ويجعلها مقبولة لدى عامة المسلمين. فاذا وصلوا الى الخلافة بمعونتنا يكون ظاهر الحكم لهم وباطنه لنا، فلهم الشكل ولنا الجوهر. وهذا ما كان.

توالى على الحكم في الدور الاول تسع خلفاء هم : ابو العباس السفاح، والمنصور، والمهدي، والهادي، وهارون الرشيد، والامين، والمامون، والمعتصم، والواثق، والسبعة الاخيرون كلهم من سلالة المنصور.

هناك من لا يعتبر الثلاثة الاخيرين (المعتصم والواثق والمتوكل) من خلفاء الدور الاول الفارسي لان المعتصم هو الذي ادخل الاتراك باعداد كبيرة في الجيش بحيث اختلّ انضباطهم وتفاقمت تعدياتهم على اهل بغداد فاضطر الى بناء عاصمة جديدة سمّاها سامراء. وجرى ابنه الواثق على منواله مع احتفاظهم بشيء من سلطة الخلافة ومهابتها. اما المتوكل فكان اول خليفة يقتله الاتراك ثم اصبح ذلك عادة متّبعة في الدور الثاني.

الخلفاء في الدور الاول

عبد الله أبو العباس السفّاح (٧٥٠ ـ ٧٥٤)

أبو جعفر المنصور (٧٥٤ ـ ٧٧٥)

محمد المهدي (٧٧٥ ـ ٧٨٥)

موسى الهادي (٧٨٥ ـ ٧٨٦)

هارون الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩)

محمد ألامين (٨٠٩ ـ ٨١٣)

أبو العباس المأمون (٨١٢ ـ ٨٣٣)

المعتصم (٨٣٣ ـ ٨٤٢)

الواثق (٨٤٢ ـ ٨٤٧)

سلطة الخلفاء في الدور الأول

كان الخليفة رأس الدولة وقمة الهرم السياسي لا يدانيه في مقامه أحد

من أقربائه او بطانته وهو مصدر السلطات كلها. وقامت سلطته على القوة والبطش بالاضافة الى شرعية الخلافة. ولاول مرة في تاريخ الاسلام صار النطع يُبسط الى جانب كرسي الخلافة ويُتخذ منه ومن سيف الجلاد وسيلة لتوطيد العرش وكانت تكفي كلمة من الخليفة ليقوم الجلاد بقتل من يغضب عليه بحضرته. والنطع بساط من الجلد يقطع الجلاد عليه راس من يأمر الخليفة بقتلهم.

من ناحية اخرى، كان الخليفة يتصرف بواردات الدولة تصرفه بماله الخاص دون رقيب او ضابط مالي لانه لم يُعرف انه كان للدولة الاسلامية ميزانية تضبط الدخل وتوزع النفقات بموجب قواعد مقررة ومبالغ مخصصة للانفاق في امور معينة.

وكان الوضع في الاقاليم يماثل وضع بغداد. فالوالي وحاشيته ومن حوله يتصرف في منطقته كمثل تصرف الخليفة في عاصمته بعد ان يؤدي ما يتوجب عليه من الاموال للعاصمة.

بعد الخليفة في هرم الحكم يأتي الوزراء والامراء والقواد وكبار رجال الدولة، والكتّاب في الدوائر الحكومية، والعلماء والفقهاء، وعائلات جميع هؤلاء وندماؤهم وشعراؤهم ومن يلوذ بهم. هؤلاء جميعا كانت ارزاقهم تاتيهم من الخليفة ومن هم دونه في سلم الهرم.

تنظيم دوائر الدولة

اهم الدوائر ايام العباسيين كانت : الوزارة، والقضاء، وقيادة الجيش، وديوان الخراج، وديوان المصادرة، وديوان التوقيع، وديوان المظالم، وديوان الشرطة، وديوان الحسبة، وديوان البريد، وصاحب الزنادقة، والحاجب، والجلاد، والمنجم، واكثرها مأخوذ عن النظام الفارسي.

الوزارة : الوزير هو ساعد الخليفة الايمن ويليه في المقام وكثيرا ما كان يقوم مقامه في ادارة شئون البلاد. وكانت سلطته تتسع بمقدار انهماك الخليفة باللهو وابتعاده عن الاهتمام بالامور العامة فيمارس الوزير عمليا سلطات الخلافة بكاملها فيعيّن الولاة والقضاة وباقي الموظفين بموافقة اسمية من الخليفة، ويعزلهم، ويعيّن احيانا من يلي الوزارة بعده عملا بنظام وراثة

المناصب. •

ولاية القضاء : كان الخليفة او الوزير يفوّض شئون القضاء الى احد الفقهاء فيعرف بالقاضي. فاذا تسلم القضاء في بغداد سُمّي قاضي القضاة. وكان ابو يوسف اول من أخذ هذا اللقب (توفي ٨٠٨).

امارة الجيش : لم يكن للخلافة جند نظامي بالمعنى المعروف اي جيش كامل العدة ومدرب وجاهز للحرب. لم يكن سوى حرس الخليفة يصح تسميتهم بالجند النظامي يتعاطون الجندية حرفة دائمة وقد عُرفوا بالمرتزقة لان ارزاقهم على الدولة. اما باقي المقاتلين فكانوا من المتطوعة من القبائل والمقاطعات يتقاضون رواتب مدة الخدمة العسكرية واكثرهم من البدو والفلاحين وعوام الناس في المدن. (٢)

ديوان الخراج : هو من اهم دواوين الدولة لانه كان يقوم باعمال ما يُسمى الان وزارة المالية اي تحصيل ما للدولة من ضرائب واموال وادارتها لسد حاجات الخليفة والدولة. ولم يكن يوجد فارق بين نفقات الخليفة ونفقات الدولة فكان الخلفاء يغرفون من الخزينة قدر ما يشائون.

ديوان المصادرة : عمد الخلفاء العباسيون الى مصادرة اموال من يغضبون عليهم من الوزراء والولاة والموظفين والناس. وفعل مثل ذلك الولاة في الامصار فكانوا يصادرون املاك من يسخطون عليهم. ولما كثرت المصادرات واصبحت عادة شائعة، أُنشيء ديوان خاص برئاسة موظف ينفذ المصادرة ويحصي اموالها كان يعتبر كسائر موظفي دوائر الدولة القانونية.

ديوان التوقيع : كانت تصدر عنه الرسائل الرسمية والارادات والبرآات الخليفية.

ديوان المظالم : أريد منه اصلاح القضاء واقرار العدل بين الناس وفي دوائر الدولة باتصال مباشر بين الخليفة والمتظلمين. فكان الخليفة، ابتداءً من المهدي، يخصص يوما في الاسبوع يسمع شكاوي الناس ويفصل فيها. وجرى على مثل ذلك هارون والمأمون وخلفاؤهما، وآخر من جلس لها الخليفة المهتدي (٨٦٩-٨٧٠). فلما انتقلت السلطة من الخليفة الى القائد التركي انتهى هذا التقليد.

ديوان الشرطة : يراسه موظف كبير يدعى "صاحب الشرطة"

ولكل مدينة شرطتها لحفظ الامن ومراقبة الحركات المعادية للدولة.

ديوان الحسبة : الحسبة في الاسلام ولاية دينية - سياسية خاصتها الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مما ليس من خصائص الولاة والقضاة واهل الديوان. يقول ابو الحسن الماوردي انها امر بالمعروف اذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر اذا ظهر فعله حسب الآية : "ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر".

للمحتسب ان ينيب عنه نوابا في جميع انحاء البلاد وله سلطة تنفيذية مفوّضه الى رأيه، وهو ما عرف "بالتعزيز" الذي هو نوع من العقاب للمخلّين بالواجبات الدينية والاخلاقية كالصلاة والصوم والمحافظة على الاداب. والمحتسب هو ايضا المشرف على احوال التجارة والسوق يراقب الموازين والمكاييل ويحصّل الديون لاصحابها.

ديوان البريد : يرأسه "صاحب البريد". انشيء ايام معاوية ليحمل مراسلات الدولة وكان يوجد مركز للبريد في عاصمة كل قطر. وقد استعملت الحكومة الحمام الزاجل ايضا لنقل المراسلات.

الحاجب والجلاد والمنجم : نقل العباسيون عن الاكاسرة هذه الوظائف. اما الحاجب فكان يقف بباب الخليفة يُدخل عليه المراجعين من الموظفين واصحاب الحاجات والندماء والشعراء ويردّ منهم من لا يروق له فاصبح ذا نفوذ عظيم.

وكان الجلاد ايضا من الشخصيات البارزة في بلاط بغداد ينفذ امر الخليفة في من يريد قتلهم او سجنهم او تعذيبهم. ولاول مرة في تاريخ العرب وُجدت حجرات تحت الارض لتعذيب المغضوب عليهم. (٢)

اما منجم البلاط، فكانت وظيفته ان يستطلع الفلك في افضل الايام لقيام الخليفة بعمل ما.

صاحب الزندقة : وصفنا الزندقة في الفصل السابق وسعة انتشارها مما اقلق العلماء والمتدينين والخلافة فانشأ الخليفة المهدي ديوانا سماه ديوان الزندقة واوكل امره الى موظف سماه "صاحب الزندقة" كانت وظيفته ملاحقة الزنادقة في انحاء البلاد ومعاقبتهم. فقتل كثيرا منهم، وقُتل اخرون بالوشاية.

الولاة : هم وكلاء الخليفة في الاقاليم يعينهم ويعزلهم حين يشاء وهم مسئولون تجاهه او تجاه الوزير مباشرة ويمارسون في اقاليمهم سلطات الخليفة بتفويض منه.

خلافة عبد الله ابي العباس السفاح (٧٥٠-٧٥٤)

عمل ابو مسلم بوصية الامام ابرهيم فكان يقتل على الشبهة ووحد صفوفه واعلن ثورته في خراسان في ١٥ يونيو ٧٤٧ وسرعان ما امتدت لتشمل مقاطعات اخرى. تكللت الثورة بالنجاح عند مقتل الخليفة الاموي مروان الثاني في معركة نهر الزاب الكبير عام ٧٥٠ وبويع بالخلافة عبد الله ابن الحارثيه ابن محمد بن علي فخطب بالناس وقال انا السفّاح فلحق اللقب به وقد كافأ السفّاح ابا مسلم فعينه واليا على خراسان. وقد كان الخليفة سفاحا بالفعل. دعا ثمانين من كبار الامويين الى مأدبة على نهر العوجا بجوار مدينة يافا يوم ٢٥ يونيو ٧٥٠ فلما اجتمعوا دخل عليهم حرسه فقتلوهم ومدوا البسط فوقهم واحضروا الطعام فاكل السفاح ومن معه وهو يسمع انينهم. ولاحق السفاح والخلفاء بعده بقايا الامويين حتى كادوا يفنوهم. وفعلوا ما يشابه ذلك بالعلويين.

كانت الكوفة عاصمة الدولة. لكن السفاح لم يطمأن الى اهلها وهم اصحاب الامام علي فنقل عاصمته الى الانبار على ضفاف الفرات (تُعرف ايضا باسم الرمادي) وانشأ فيها مقراً سماه "الهاشمية" وتوفي سنة ٧٥٤ بالجدري بعدما اوصى بالخلافة الى اخيه ابي جعفر عبد الله ابن محمد الملقب بالمنصور.

خلافة ابي جعفر المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥)

ولد المنصور في الحُمَيمة من امّ بربرية اسمها سلامة وحكم واحدا وعشرين عاما ويعتبر المؤسس الحقيقي للدولة العباسية.

واجه حين توليه الخلافة ثورة عمه عبد الله بن علي الذي ادعى انه احق بالخلافة من ابن اخيه فوجه اليه المنصور قائده ابا مسلم الخراساني فحاربه في شهر نوفمبر ٧٥٤ في مدينة نصيبين (تقع شمال شرق سوريا حاليا) واخذه الى بغداد أسيرا بعدما امنه المنصور على حياته.

وقد كلف المنصور ابن المقفع بكتابة صيغة الامان فبالغ في الاحتياط فيها كي لا يجد المنصور منفذا للاخلال بعهده. بقي عبد الله في السجن سبع سنوات ثم اراد المنصور التخلص منه فنقله الى بيت جعل اساسه من ملح ثم اجرى الماء في اساس البيت وعمه فيه فتداعى البيت وانهار وقتل من فيه. (٤)

دعا المنصور أبا مسلم لزيارته وهو راجع الى خراسان وكان قد بدأ يخشى قوته وشعبيته، فلما دخل عليه وثب عليه الخدم بالسيوف وقتلوه فتخلص المنصور من منافس خطر.

ثم استدار المنصور لشيعة الامام علي فقتل في المدينة من ائمتهم محمد الملقب بالنفس الزكية في شهر ديسمبر ٧٦٢. وقتل اخاه ابرهيم في السنة نفسها في الكوفة. والاخوان هما ابنا عبد الله حفيد الحسين بن علي (٥).

في تلك السنة (٧٦٢) وضع المنصور حجر الاساس لمدينة بغداد على ضفة دجلة الغربية التي استغرق بناؤها اربع سنوات وجعلها على شكل مستدير وسماها دار السلام فاصبحت اعظم عواصم ذلك العصر.

لكن الامور لم تستقر له سريعا فقد واجه ثورات في خراسان تطالب بثأر ابي مسلم، وثورة قام بها العلويون، وناهضه المعتزلة لانه اضطهد رئيسهم عمرو بن عبيد لكنه تغلب على هذه المعارضة واخمدها.

عاش المنصور عيشة بسيطة وكان محبا للشعر لكنه كان مقتصدا في بذله لا يحب الموسيقى وحياة البذخ مما لم يرق للندماء والشعراء. وقد توفي سنة ٧٧٥ وهو في طريقه الى مكة للحج ودفن بقربها. (٦)

خلافة محمد المهدي (٧٧٥ - ٧٨٥)

كان المنصور يكره ابن اخيه محمد ويزدري ابنه جعفر لمجونه وتهتكه فلما اراد ان يبايع بالخلافة بعده لابنه المهدي، وكان ابنه جعفر يعترض على ذلك، دعا الناس ذات يوم فاجتمعوا وتكلم الخطباء والشعراء في مديح المهدي وفضائله. فلما فرغوا اقبل الشاعر مطيع ابن اياس على المنصور وقال يا امير المؤمنين، حدثني فلان عن فلان عن النبي انه قال : المهدي منّا محمد ابن عبد الله، وامه من حِمير، يملأها عدلا كما مُلئت جوراً. وهذا العباس ابن محمد اخوك يشهد على ذلك. ثم اقبل على العباس وقال له :

أنشدك الله، هل سمعت هذا؟ فقال العباس نعم، خوفا من المنصور، فامر المنصور الناس بالبيعة للمهدي. وهكذا وضع مطيع بن اياس الحديث وكذب على النبي ولم يكتفِ بذلك حتى استشهد اخا المنصور على انه صادق، فشهد خوفا من اخيه (٧). وكان المنصور والحضور يعرفون ان الحديث كاذب لكنهم تظاهروا بتصديقه تنفيذا لرغبة الخليفة وخوفا منه.

وقد كافأ المهدي مطيع على عمله بعدما تولى الخلافة فقرّبه واجزاه مع علمه انه زنديق.

كان المهدي شديداً على الزنادقة وهو الذي انشأ "ديوان الزندقة" ووكل القائم عليه بملاحقتهم والتشديد عليهم ومعاقبتهم. ولعب الحسد والوشايات دورا في اتهام الناس بالزندقة فعوقب الكثيرون ظلما. وقد قتل المنصور العالم الشهير ابن المقفع بتهمة الزندقة، وقتل المهدي بشارا ابن برد وكثيرين غيره بهذه التهمة، بعضهم عن حق وبعضهم بوشاية.

في زمن المهدي قام هشام ابن الحكَم الملقب بالمقنع بثورة وهو من مدينة مرو في خراسان وبشّر بدين هو خليط من الاسلام والزرادشتية. دامت ثورته ثلاث سنوات ثم تحصن في قلعة سنام وبقي يقاوم سنتين الى ان تغلبت عليه جيوش المهدي فانتحر سنة ٧٧٩.

قبل وفاته اوصى المهدي بالخلافة لابنه موسى الهادي، ومن بعده الى ابنه هارون.

خلافة موسى الهادي (٧٨٥ - ٧٨٦)

هو رابع خليفة عباسي خلف اباه المهدي وحكم سنة واحدة. اضطهد آل البيت فاشتعلت ثوراتهم في المدينة والعراق ومصر فاخمدها بقسوة. حاول ان يقصي اخاه هارون عن ولاية العهد ويأخذ البيعة لابنه جعفر فسجن هارون لكنه اصطدم بارادة امه الخيزران. والخيزران جارية يمنية وهي والدة الهادي والرشيد وكانت ذات نفوذ وقوة ايام زوجها المهدي يقصدها اصحاب الحاجات من كبار الناس فتقضيها لهم. فلما تولى ابنها الهادي أرادت ان تسلك به مسلك ابيه فمنعها وأقصاها فحقدت عليه حتى اذا علمت انه يريد خلع اخيه هارون وانه سجنه ويسعى لاخذ البيعة لابنه جعفر، امرت بعض

جواريها فوضعن الوسائد فوق وجهه وهو نائم فاخمدن انفاسه.

خلافة هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩)

هو هارون ابن محمد المهدي لُقب بالرشيد، وامه الخيزران جارية يمنية. ولد في الري نحو سنة ٧٦٤ وتوفي في طوس. اي انه عاش نحو خمسا واربعين سنة. . تولى تربيته وتعليمه يحيى البرمكي الذي كان من انصار والدته الخيزران. في سنة ٧٨٢ كان هارون القائد الاسمي لحملة ضد البيزنطيين وصلت الى مضيق البوسفور مقابل القسطنطينية. ثمّ اجرت صلحاً مع البيزنطيين بشروط ملائمة للمسلمين.

بعد هذه الحملة اوصى له والده بالخلافة بعد اخيه الهادي وعيّنه واليا على تونس ومصر وسوريا وارمينيا واذربيجان وكان يحيى البرمكي الى جانبه يقوم بالادارة الفعلية.

تولى هارون الخلافة وهي في قمّة العزّ والازدهار تمتد اراضيها من غرب البحر المتوسط الى الهند. وكان لوالدته الخيزران نفوذ كبير في الدولة حتى وفاتها عام ٧٨٩.

البرامكة (٨)

ظهرت الوزارة كمؤسسة سياسية لاول مرة في الحكومة الاسلامية على عهد الخليفة المنصور وكان خالد ابن برمك اول من قام باعمالها.

كان ابو خالد "برمكا" اي سادنا في معبد بوذي في بلخ، وكانت ام خالد من سبي قتيبة بن مسلم وقد قرّب ابو العباس السفاح وابو جعفر المنصور خالداً البرمكي يستشيرانه في امور الدولة وفي ادارة شئونها ويعتمدان علية لقلة خبرتهما بشئون الحكم.

خلف خالد في الوزارة ابنه يحيى الذي اوكل اليه المهدي تربية ابنه هارون. ولما ولي هارون الخلافة استمرّ يحيى في منصب الوزارة وكان هارون يناديه "يا ابتِ" وفوّض اليه السلطة المطلقة وكان يساعده في الوزارة ابناه جعفر والفضل.

بالاضافة الى مهامهم في الحكم كان جعفر ابن يحيى رفيق الطفولة

لهارون وبقي مقربا جدا منه ينادمه ويعاشره رغم تحذير ابيه يحيى له بأن القرب من الخلفاء يلازمه الوبال.

كان لهارون اخت اسمها العباسة تسرّه مجالستها والتحدث معها. وبلغ من شغفه بعشرة جعفر البرمكي وبمجالسة اخته انه اراد ان يجمع بين الاثنين فكتب قرانا لجعفر على العباسة ليحلّ له النظر اليها ومجالستها واشترط عليه ان لا يمسّها فكان ترتيبا اخرق كمن يجمع بين البارود واللهب.

حصلت ثورات مختلفة في عهد هارون في مصر وسوريا واليمن وعدد من المقاطعات الشرقية لكن الحكومة اخمدتها. وعين هارون سنة ٨٠٠ ابرهيم ابن الاغلب واليا على تونس على ان يتعهد له بمبلغ سنوي كبير ويكون شبه مستقل بادارة شئونها. وطبق الخليفة هذا الاسلوب في مناطق اخرى من الدولة. وقد كان هذا الترتيب مريحا للخليفة من الناحية المالية لكنه كان نذيرا ببداية تفكك الدولة واضعاف سلطة الخلفاء.

كان هارون اول خليفة عباسي يعيد تطبيق "الاحكام العمرية" على اهل الذمة (راجع الفصل الثالث) فامر سنة ٨٠٧ بهدم الكنائس في مدن الحدود، وما بُني منها بعد الفتح الاسلامي، وبوجوب مخالفة اهل الذمة لهيئة المسلمين في لباسهم ومركبهم (١) لكن ذلك لم يمنعه من اللجوء الى الاطباء النساطرة للعلاج والتداوي فجعل جبريل ابن بختيشوع النسطوري طبيبه الخاص وعيّنه رئيسا لمستشفى بغداد وكان يدعوه الى مجالسته وتناول الطعام معه. ولا ندري اذا كان جبريل يلبس لباس اهل الذمة في حضرة الخليفة.

سنة ٨٠٢ اثناء حجّه الى مكة اوصى هارون بالخلافة الى ابنه الامين على ان تكون بعده لاخيه المأمون مع ان المأمون كان اكبر سنا من الامين بستة اشهر، وقسم البلاد بينهما. فاعترف المأمون بخلافة الامين في بغداد والغرب، في حين اعترف الامين بسيادة المأمون على مقاطعات الدولة الشرقية حيث جعل مقره في مدينة مرو في خراسان.

بعد مدة حج هارون الى مكة فعلم ان العباسة حملت من جعفر وولدت غلاما ارسلته مع حواضن الى مكه. فغضب على جعفر وامر بقتله ونكّل بالبرامكة جميعا سنة ٨٠٣ وقبض على والده يحيى وهو شيخ هرم فسجنه مع

اولاده الثلاثة الفضل واثنين اخرين فمات يحيى في السجن سنة ٨٠٦ ومات اولاده بعده.

لا يُعلم مدى صحة هذا الرواية وكونها سبب التنكيل بالبرامكة. فقد خدم هؤلاء الدولة باخلاص منذ تاسيسها طيلة ثلاث وخمسين سنة. وكان يحيى نصيراً للخيزران في مسعاها لايصال هارون الى الخلافة. وقد اداروا ملكه بكفائة وحملوا عنه اعباء الدولة باخلاص. بالاضافة الى ذلك اشتهر البرامكة بالكرم الفائق وقضاء حاجات المظلومين ورعاية الاداب والفنون فانتشر صيتهم وتحدث الناس بفضلهم وضربت بكرمهم الامثال. ولا تزال لفظة "برمكي" الى هذا اليوم تؤدي معنى الكرم في بعض الاقطار العربية ولعل هذا هو ما استغلّه حسادهم لاثارة غيرة هارون منهم فنكّل بهم دون ان يسند اليهم جرما او نقيصة وصادر املاكهم واموالهم الكثيرة لحسابه وربما كان هذا الكسب سببا مهما للتخلص منهم.

مما يلفت النظر في نكبة البرامكة ومن تلاهم من الوزراء غياب مبدأ "حكم القانون" من المفهوم العام. فلم تكن توجّه تهمة، ولا يجري تحقيق قضائي فيها، ولا يقدم المتهمون الى المحاكمة، بل كانت تكفي كلمة من الخليفة لينفذ القتل والسجن ومصادرة الاموال. وهذا دليل على تدنّي المستوى السياسي والقانوني في الدولة.

لم يكتفِ الخليفة هارون بقتل آل برمك فشملت نقمته كل من والاهم وتمتع برعايتهم وفضلهم. وبلغ الاضطهاد حدًا انه لم يعد يجروء احد على ذكرهم بحسنة او بخير دون ان يتعرض لنقمة الخليفة وزبانيته.

حصل هارون على لقب "الرشيد" ممن جاءوا بعده. ربما لان حكمه تصادف مع ظروف اختمرت مع الزمان لم يكن له يدٌ فيها، اوصلت الدولة العباسية الى ذروة اتساعها وازدهارها في بعض النواحي فالبسوه شخصيا عزّتها. لكننا لا نرى في الاعمال التي قام بها كثيرا من الرشد، كما لا نرى في اخلاقه كثيرا من النبل.

فقد ربّاه يحيى البرمكي وخدمه بتفاني واخلاص وكان يدعوه هارون "يا أبتِ" لكنه تناسى كل ذلك وحبسه حتى الموت وصادر امواله دون ان يجد تهمة يوجهها اليه وفي ذلك منتهى العقوق.

ثم عقد الزواج لجعفر بن يحيي على اخته العباسة واشترط عليه ان لا يمسّها لارضاء نزوته بمجالستهما معا. فلما اتم جعفر الزواج بموجب الشرع قتله، وقتل انسان بسبب نزوة لا يصدر عن رجل رشيد.

وبدأ هارون بتفكيك الدولة لما اتفق مع ابرهيم ابن الاغلب عام ٨٠٠ على الاستقلال بتونس وراثيا مقابل مبلغ سنوي وهو عمل لا يصدر عن سياسي واداري عاقل يهمه مستقبل بلاده. وانتشر هذا الترتيب بعدئذ في مختلف انحاء الدولة وساعد على انهيارها.

ختم هارون حياته بعمل اخر اكبر ضررا لما قسم المملكة بين ولديه الامين والمامون فتفككت عمليا وحدة الدولة. وادى ذلك الى حروب بين الاخوين بعد سنة من وفاته كان على هارون ان يتوقعها

خلافة محمد الامين (٨٠٩ - ٨١٣)

هو ابن هارون من زوجته زبيدة بنت اخ الخليفة المنصور، تولى الخلافة بعد وفاة ابيه هارون وانصرف الى اللهو والمجون. وقد ذكرنا شيئا عن اتجاهاته وسلوكه في بداية الفصل السابق. بعد عام من توليه استخلف الامين ابنه مخالفاً وصية والده بان تنتقل الخلافة منه الى اخيه المأمون. وما لبثت الحرب ان نشبت الحرب بين الاخوين سنة ٨١١.

نصر العرب الامين، ونصر الفرس المأمون فوالدة المأمون جارية فارسية. وسانده الفضل ابن سهل وهو من سلالة الساسانيين، وكان قائده طاهر ابن الحسين الخراساني فتغلب على جيش الامين في موقعه قرب مدينة طهران الحالية واستولى على ايران الغربية. ثم زحف الى بغداد وحاصرها واستولى عليها بعد مقاومة عنيفة. ويقال ان الامين حاول الاستسلام لكنه قُتل سنة ٨١٣ خلافا لرغبة المأمون.

خلافة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣)

هو ابو العباس عبد الله المأمون ابن هارون الرشيد من جارية فارسية اسمها مراجل، وُلد في بغداد سنة ٧٨٦ وتوفي في طرسوس وهي مدينة تقع شمال غرب مدينة الاسكندرونة على البحر المتوسط اي انه عاش سبعا

واربعين سنة.

سعى المأمون الى انهاء النزاع بين السنة والشيعة وتوحيد أمة الاسلام فاوصى بالخلافة بعده الى ابي الحسن علي الرضا وزوّجه من ابنته، وهو الامام الثامن عند الشيعة الاثني عشرية. ولبس المأمون اللباس الاخضر وهو شعار الشيعة فانتقض عليه اهل بغداد واكثر السنة وبايعوا عمه ابرهيم المهدي عام ٨١٧ فلم يتمكن المأمون من مغادرة مرو والعودة الى بغداد الا بعد ست سنوات من موت الامين (١٠).

اعتمد المأمون على الفرس في نزاعه مع اخيه الامين فعيّن نصيره الفضل بن سهل وزيرا ولقبّه "ذا الرئاستين" اي رئاسة القلم ورئاسة الحرب، وولى اخاه الحسن بن سهل ديوان الخراج وتزوج ابنته بوران ويروي صاحب الاغاني انه صرف على حفلات زواجه اموالاً لا تحصى.

توفي الامام علي الرضا سنة ٨١٩ بعد مرض قصير فتخلص المأمون من الاحراج الذي وقع فيه. واغتيل الوزير الفضل بن سهل في السنة ذاتها وكان وراء سياسة التقارب مع الشيعة فحامت الظنون بان المأمون تخلص من الاثنين. وعند دخوله بغداد رفع المأمون العلم العباسي الاسود فاسترضى السنّة الناقمين على سياسته الماضية.

كافأ المأمون قائده طاهر ابن الحسين الذي انتصر على الامين فعيّنه سنة ٨٠٢ واليا على خراسان وكل البلاد الواقعة شرق بغداد فجعل مرو عاصمته. مات طاهر بعد سنتين لكنه قبل ان يموت توقف عن الدعاء للخليفة ايام الجمع اي انه اعلن شبه استقلال. تتابع على الحكم بعده جماعة من بيته دانوا للخلافة اسميا لكنهم استقلوا بالفعل ووسعوا نطاق حكمهم حتى حدود الهند ونقلوا عاصمتهم الى نيسابور حيث ظلت لهم السلطة الى عام ٨٧٢ حين ازاحهم الصفاريون وعُرفت دولتهم باسم "الدولة الطاهرية" فكانت اوّل دويلة نشأت في العهد العباسي.

في زمن المأمون قامت ثورة باطنية تدعى الخرّمية في اذربيجان دامت عشرين سنة من ٨١٦ الى ٨٣٧ وقادها شخص فارسي يُدعى بابك. يدّعي الخرّميون انهم يقبلون الاسس العامة للاسلام لكنهم يؤمنون ايضا بتناسخ الارواح وبالثنائية الزرادشتية بين النور والظلمة. ويعتقدون ايضا بالامامية وانها

وراثية لكنهم يختلفون مع الشيعة بان الامامة يجب ان تكون وراثية في ذرية ابي مسلم الخراساني الذي قتله المنصور. وقد ادعى بابك انه من نسل ابي مسلم وبتلك الصفة قاد ثورته ضد الخلافة العباسية. اشترك الفلاحون بهذه الثورة لانه منّاهم بتوزيع الاراضي عليهم وامتدت سلطته من اذربيجان الى المقاطعات على ساحل بحر قزوين وارمينيا وبقي ينخر في الدولة العباسية الى ان قُضي عليه في عهد المعتصم.

لا شك ان المامون كان ارقى الخلفاء العباسيين ثقافة وفكرا وعلما وحسن ادارة. ففي الاربعة عشر عاما الباقية من حياته راقب شخصيا امور الدولة وتصرفات ولاته في الاقاليم ولم يعيّن وزيرا مطلق التصرف كمن سبقه من الخلفاء.

كان للمامون ميل للفلسفة والعلوم على اختلافها فاسّس "بيت الحكمة" في بغداد واستورد كتب العلوم اليونانية من بيزنطية، وجمع علماء النساطرة لترجمتها، وانشأ مراصد فلكية حيث قام المسلمون بتحقيق المعلومات المعلومات الفلكية التي اطّلعوا عليها.

مال المامون لمبدأ المعتزلة منذ كان في مرو فقربهم اليه واقتنع بتعاليمهم. وفي سنة ٨٢٧ اعلن عقيدته بمبدأ "خلق القرآن". بعد ست سنوات قرر ان يفرض على الشعب تعاليم المعتزلة والقول "بخلق القرآن" واوكل ذلك الى اسحق بن ابرهيم مدير شرطة بغداد واقام محاكم في جميع انحاء البلاد تستجوب القضاة والفقهاء للتأكد من استجابتهم فانصاع اكثرهم تقيّة، وامتنع اخرون وعلى رأسهم الامام احمد ابن حنبل، فتعرضوا للجلد وللسجن.

توفي الخليفة المأمون في طرسوس وهو يقود حملة ضد البيزنطيين لكن العمل لفرض تعاليم المعتزلة لم يتوقف في عهد اخيه المعتصم وابن اخيه الواثق اي انه دام نحو عشرين سنة وقد سمّى اهل الحديث هذه الفترة باسم "المحنة" لما لاقاه المعارضون من اضطهاد. لكن "اهل النقل" تغلبوا بنهايتها على "اهل العقل" ونكلوا بهم وفشل مسعى المأمون. وسبب ذلك ان مبادئ المعتزلة الدينية المشبعة بالفلسفة اليونانية كانت مفهومة لدى الخاصة من الناس وصعبت على مدارك العامة الذين تمسكوا بتعاليم الاسلام التقليدي.

كان المأمون اكثر الخلفاء تحررا في تفكيره واطلاعا على الفلسفة،

واعتمادا على العقل والمناقشة المنطقية كما يقضي مذهب الاعتزال. ومع ذلك لجأ هو والمعتزلة الى العنف والقسوة في فرض مبدأ "خلق القرآن" وغيره من مبادئ المعتزلة. وكان الاجدر به وبهم ان يدركوا ان الاراء والعقائد ان لم تُقبل اختيارا فمن العبث فرضها بالقوة اذ ان العقيدة المفروضة تزول بزوال القوة التي تدعمها.

اختار المامون قبل وفاته اخاه المعتصم لولاية العهد مفضلا اياه على ابنه العباس. وكادت تحصل فتنة في الجيش الذي كان يميل للابن لكن المامون تداركها.

خلافة المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢)

هو ثامن خليفة عباسي، ابن هارون الرشيد من جارية اسمها ماردة. خلف اخاه المامون وكان اول من استخدم العبيد الاتراك في الجيش ليتخلص من النفوذ الفارسي. ولما كثرت تجاوزات الجنود وضج منهم اهل بغداد، لم يستطع ان يضبط عسكره فبنى مدينة سامراء شمال بغداد على نهر دجلة ونقل اليها عاصمة الملك فاصبح اسير القواد الاتراك.

في سنة ٨٣٧ تغلب على ثورة قادها بابك الخرّمي الذي ناصره قيصر الروم ثيوفيلوس وكان قد غزا اراضي المسلمين ودمر مدينة زبطرة فرد عليه المعتصم بغزوة قهره فيها ودمر انقرة وعمورية.

سار المعتصم على مبدأ الاعتزال وتابع سياسة اخيه المامون في موضوع خلق القرآن وفي التشديد على المخالفين.

خلافة الواثق (٨٤٢ - ٨٤٧)

هو ابن الخليفة المعتصم من جارية اسمها قراطيس تولى الخلافة بعد ابيه وسار مثله على مبدأ الاعتزال واشتد بملاحقة المعترضين وبقي يتخذ سامراء عاصمة له. في زمنه تنامى نفوذ القواد الاتراك حتى اضطر الواثق الى منح قائد حرسه التركي لقب "سلطان".

وكان الواثق خاتم الخلفاء في الدور العباسي الاول الذي هو العصر الذهبي الذي كان فيه العنصر الفارسي متغلبا في الدولة. وبموت الواثق انتهت

"المحنة" وهي فترة اضطهاد المعارضين لمبدأ "خلق القرآن" وانقلب الامر الى التنكيل بالمعتزلة في عهد المتوكل ومن بعده.

الازدهار الاقتصادي (١١)

تمتعت الدولة العباسية في الدور الاول بانتعاش اقتصادي شمل النواحي الزراعية والتجارية وساعد عليه استقرار الاحوال السياسية نسبيا. فقد اهتمت الدولة بصيانة اقنية الري التي لاحياة للعراق بدونها، وزادت في عددها. والتفتت نحو التجارة وعمادها سهولة المواصلات وأمن الطرقات فانشات شبكة من الطرقات محورها بغداد تتشعب نحو جميع بلاد المملكة.

كانت خراسان اهم مقاطعة في الدولة العباسية لعبت دوراً حاسماً كما رأينا وكانت اكبر كثيرا بالمساحة من منطقة خراسان التي تقع الان في الدولة الايرانية. فقد ضمت الجزء الشمالي الغربي من افغانستان الحالية، وامتدت شرقا الى مقاطعة باداخشان، وشمالا الى نهر جيحون (امو داريا) وصحراء خوارزم. وقد قسم الجغرافيون المسلمون خراسان الى اربع مناطق على اسماء مدنها الاربع الرئيسية وهي : نيسابور، ومرو، وهرات، وبلخ. وشكّل نهراها الكبيران نهر هرات ونهر مرو ظاهرة طبيعية ميزت المنطقة واغنتها.

فيما وراء نهر جيحون، وبينه وبين نهر سيحون (سير داريا)، تقع منطقة الصغد التي تضم المدينتين العظيمتين في التاريخ الاسلامي سمرقند وبخارى كلتاهما على نهر الصغد. مع امتداد نهر سيحون من فرغانة قرب حدود الصحراء الصينية الى مدينة شاش (طاشقند الحديثة) تقع مواطن الاتراك الذين سيطروا فيما بعد على الدولة.

اشهر الطرق في الدولة العباسية كان طريق خراسان الذي يصل بغداد مع مدن الحدود على نهر سيحون قرب الحدود الصينية. وكان هذا "طريق الحرير" ذا الشهرة العالمية في ذلك الزمن الذي يصل الصين بالمناطق الغربية واوروبا. وبواسطته حصل المسلمون على صناعة الورق التي كانت اساس ازدهار العلوم، عدا عن فوائده التجارية العظيمة.

كان هذا الطريق يبدأ من بوابة خراسان في بغداد ويسير شرقا فيقطع عددا كبيرا من الانهر والترع على جسور حسنة البناء ويتسلق مرتفعات

فارس الى مدينة كرمنشاه عاصمة كردستان. ومنها يسير شمالا شرقا الى مدينة همدان ثم مدينة الري. ويتجه شرقا الى نيسابور وطوس ثم الى مرو. من مرو كان الطريق يقطع الصحراء الى ضفاف نهر سيحون ثم يصل الى بخارى وبعدها الى سمرقند في مقاطعة الصغد. ثم يتفرع الطريق بعد مسافة قصيرة شرق سمرقند .فيذهب فرع شمالا الى طاشقند وفرع اخر الى فرغانة. وكانت تتفرع من طريق خراسان الرئيسي طرقات عديدة لمناطق ومدن اخرى.

من بغداد كان طريق اخر يتجه جنوبا فيمر بواسط والبصرة ثم يتجه شرقا الى خوزستان ومنها الى مدينة شيراز التي كانت مجمعا لعدة طرق متفرعة احدها يسير شمالا الى اصفهان ثم الى الري، وطريق اخر يتجه شمالا شرقا فيقطع الصحراء الايرانية الكبرى الى نيسابور، وطريق ثالث يتجه جنوبا الى موانيء الخليج الفارس.

نعود الى بغداد حيث يسير طريق الحج الكبير جنوبا الى الكوفة ثم يقطع الصحراء في خط مستقيم الى الحجاز. وطريق اخر للحج يذهب الى البصرة ومنها الى الحجاز.

من بغداد ايضا يتجه طريق الى مدينة الانبار على الفرات ويصعد مع مجرى النهر شمالا الى الرقة حيث تتفرع عدة طرقات غربا الى حلب ودمشق، وشمالا الى مدن الحدود مع بيزنطية. كذلك كانت هناك طرق تسير من بغداد شمالا على ضفتي دجلة الى الموصل ومنها الى الثغور (مدن الحدود). بهذه الشبكة من الطرقات استطاعت بغداد ان تصبح احدى اهم المدن التجارية في العالم. بالاضافة الى ذلك طوّر العباسيون ميناء البصرة فاصبح مركزا لتخزين البضائع وتوزيعها وتحولت اليه التجارة الدولية ومنه سافر التجار الى الهند وسيلان والصين.

لم يكن للعباسيين باع طويلة في الفتوحات فقد استكملت كلها تقريبا في عهد الامويين وانصرف اهتمام آل عباس الى المحافظة على ما ورثوه. وعندما استقرت لهم الخلافة عادوا الى المناوشة مع الروم فكانوا يتبادلون الغزوات دون نجاح يذكر لاي من الفريقين. وقد اعاد العباسيون تحصين الثغور، اي مدن الحدود. من غزواتهم وصولهم الى باكو على شاطيء البحر

الاسود والى قندهار وكشمير حيث هدموا فيها تمثالا كبيرا لبوذا. لكنها كانت غزوات عابرة لم تؤدِ الى احتلال دائم.

خلاصة الدور العباسي الاول

خلاصة ما يقال عن الدور العباسي الاول انه بعد فترة اختمار دامت قرنا، ادى الامتزاج الجنسي واللقاح الفكري الى نهضة علمية رائعة. ففي ذلك الزمن وضعت باللغة العربية اسس كل العلوم تقريبا ودوّنت، ولم تكن قبل ذلك محفوظة ومجموعة، منها علم الحديث وتفسير القرآن، وعلم النحو الذى كتب فيه سيبويه وغيره، وعلم عروض الشعر للخليل بن احمد. وجمع حماد الراوية المعلقات كما جمع المفضّل الضبّي المفضّليات، ودوّن الاصمعي الاصمعيات، ووضع الجاحظ وابن قتيبة اسس الكتب الادبية، ودوّن التاريخ ابن اسحق والواقدي. وقلّ ان نرى علماً اسلاميا نشأ ولم يكن قد وضع في الدور العباسي الاول.

وقد ذكرنا عن الشعر وتطوره وانتقاله من شعر البداوة الجاف المعقد الى الجذالة والسهولة، وتخليه عن وصف حياة الخيام الى تصوير مجتمع الحضارة الجديدة.

في هذا العصر ايضا وضعت المذاهب الفقهية الاربعة وانتشرت، وترجم السريان الفلسفة اليونانية التي اخذت طريقها الى العلوم الاسلامية فظهرت اثارها في علم الكلام وفي مبادئ المعتزلة، كما ترجموا كتب المنطق والفلك والطب والهندسة والرياضيات فاغترف منها العلماء المسلمون واضافوا اليها.

نشأت الى جانب هذه العلوم الدينية والفلسفية والادبية نواة للعلوم الطبيعية تركزت حول الطب. فقد اسس النساطرة مدرسة للطب في مدينة جنديسابور مقتبسين من علوم الطب اليوناني، وتكّونت حولها دراسة فروع العلوم الطبيعية الاخرى كعلم الفلك والكيمياء والفيزياء ولم تكن هذه العلوم بعيدة عن الفلسفة فقد كانت الفلسفة متلازمة مع الطب كما نرى في الفارابي وابن سينا فقد كانا طبيبين وفيلسوفين.

وكان هذا العصر ايضا عصر الانفتاح العقلي على مختلف التيارات. وكان عصر تشكيك بكل شيء تناول المعتقدات الدينية، والقيم الاخلاقية،

والحياة الاجتماعية وعاداتها وكل ما يحيط بها.

وكان عصرا انتعشت فيه الفنون من شعر وغناء ورقص ونقش وبناء وما يرافقها من تحسّس بالجمال وسعي وراء اللذة والعيش الرغيد لمن استطاع. وكان العنصر الاهم المساعد كثرة الجواري والرقيق. وبالاجمال كان عصر تحرر فكري نسبي وشك بالمعتقدات، واقبال على العلم وتذوق للادب والشعر الجديد، وتمتع بالملذات.

هذا من ناحية الاداب والعلوم. وقد ترافق ذلك مع تنظيم دوائر الدولة التي تتعاطى بامور الناس وقد ذكرنا شيئا عنها. في النواحي الادارية، وضع القاضي ابو يوسف كتابه "الخراج" في عهد هارون الرشيد نظم فيه الضرائب على الارض الزراعية وغيرها، ووضع الفقهاء قوانين تتعلق بالمسائل الجنائية والاحوال الشخصية، ووضع الاداريون نظما ادارية للشرطة والجيش والبريد والتجارة وغيرها، ورعى بعض الخلفاء والولاة العلوم على اختلافها دون ان تتحمل الدولة مسئولية نشر العلم وتعميمه. لكن هذه التدابير التي لا تقوم دولة بدونها تغلب عليها الصفة الادارية والتنظيمية ولا تخبرنا شيئا عن النظرية السياسية الاسلامية في هذا العصر التي تستوعب الادارة وتشمل صلاحية الحكام وحقوق المواطنين وطبيعة العلاقة بين الفئتين، سواء كانت هذه النظرية ثيوقراطية اي حكما دينيا، او دكتاتورية، او ملكية وراثية، او ديمقراطية، كما لا نجد ذكرا للمؤسسات السياسية التي اقامها الخلفاء والتي لا تستطيع الدولة ان تطبق نظريتها في الحكم الا من خلالها. وهذا هو موضوع كتابنا.

ما هي حقيقة هذه المدنية بصورة عامة؟ يقول الدكتور فيليب حتي :

"لقد استولى العرب على امصار كانت اقدم مراكز الحضارة في العالم باسره. ولم يكن للعرب القادمين من الجزيرة علم او ادب او نظام يطبقونه على الامم المغلوبة بل اقتبسوا كل ذلك عنها. ففي المدائن والرها ونصيبين ودمشق والقدس والاسكندرية شاهدوا امثلة رائعة من بدائع المهندسين والصناع والصاغة فقلدوها. لقد غلبوا امما متحضرة عريقة وخضعوا بدورهم لحضارة الامم التي غلبوها فاصبح المغلوب غالبا.

"اذن فهذه المدنية التي ندعوها المدنية العربية لم تكن عربية في اصولها

او اركانها ولا بجنسية اربابها. وانما كان أثر العرب فيها مقتصرا على اللغة والدين. وقد برّز الفرسُ العرب حتى في هذين المجالين. ولم تزدهر دول الاسلام حتى قام السوريون والفرس والمصريون وغيرهم سواء من اسلم منهم ومن بقي على نصرانيته او يهوديته او مجوسيته طوال تلك الحقب يتقدمون صفوف الامة حاملين مشعل النور والعرفان، شأن اليونان لما غلبهم الرومان.

"فالمدنية الاسلامية اذن قامت على اساس المدنية الارامية - الهيلينية، والمدنية الايرانية وعبرت عن نفسها باللسان العربي. وبكلام اخر، فهذه المدنية العربية - الاسلامية هي تكملة للمدنية السامية العريقة التي زهت في الهلال الخصيب ابتدعها ورعاها الاشوريون والبابليون والفينيقيون والاراميون والعبرانيون ثم اكمل العرب عملهم" (١٢). (انتهى)

ويقول الاستاذ الصادق النيهوم : "ان منجزات العلماء المسلمين لا علاقة لها بالاسلام، بل بموقع المسلمين في الشرق. انها ثمرة حضارة قديمة قِدَم الاهرام نفسها تكفلت منذ الازل بارتياد المعارف العلمية في الحساب والجبر والطب والكيمياء والفلك والهندسة ونجحت في تطويرها قبل الاسلام وبعده الى مستويات رفيعة من الدقة والابداع.

"ان الجبر والهندسة والفلك ليست علوما اسلامية بل علوم فقط. اما العلوم الاسلامية فهي الشرع الجماعي، وحرية الراي والعقيدة، ومسئولية المواطن عن سير الادارة، وحقوق الانسان، وتحرير الرقيق، وهي علوم لم يعرفها المسلمون، ولم تسمع عنها اداراتهم - لاول مرة - الا في لغة رجل غير مسلم اسمه نابوليون بونابرت" (١٣) (لما احتل مصر عام ١٧٩٨). (انتهى)

لقد سبق وقلنا ان المسلمين اخذوا عن اليونان كثيرا من الفلسفة والعلوم المختلفة عدا علم السياسة. ففي باب السياسة والحكم قلّد الخلفاء الامويون والعباسيون قياصرة الروم واكاسرة فارس فحكموا حكما شخصيا استبداديا مطلقا برّره اكثر الفقهاء في تاكيدهم على وجوب طاعة الرعية ووحدة الصف مهما بلغ ظلم الخليفة او السلطان طالما لم يخرج على الدين.

وقد مارس الخلفاء حق القتل والسجن ومصادرة الاموال بلفظ منهم دون توجيه اتهام واجراء تحقيق قضائي واحالة الى المحاكم، فاصبحت حرية الانسان وحياته متوقفة على نزوة من الحاكم الذي يتأثر بنميمة او سعاية او

وشاية او غرض. وما اكثر ما قُتل الخلفاء على هذا الشكل فغاب "حكم القانون" الذي هو اساس كل مجتمع متحضر. ولم تكن الشريعة كافية لتحد من هذا الظلم ما دام الخليفة او السلطان يتقيد بالمظاهر الدينية. وقد سارت الاقوال في هذا الامر. منها : امور ثلاثة لا يجتريء عليها الا أهوج ولا يسلم منها الا القليل : صحبة السلطان، وائتمان النساء على الاسرار، وشرب السمّ على التجربة. ومنها : قد خاطر من لجج في البحر، واشدّ منه مخاطرة من صاحبَ السلطان. ومنها : احذر صحبة السلطان فان إقبالَه تَعَبٌ، وإعراضَه مَذلّة.

هذا كان رأي المسلمين في خلفائهم وسلاطينهم لانهم كانوا يعيشون في مجتمع غاب عنه "حكم القانون".

لم يكن العباسيون في دور ازدهارهم اكثر كفاءة من الامويين والراشدين فيما يتعلق باقامة المؤسسات السياسية التي تنظم انتقال الحكم، وتحمي المواطنين من تعسف الحكام. فقد اقتبسوا من الساسانيين الحكم الاستبدادي المطلق لكنهم اهملوا قانون تسلسل الملك وتركوا ذلك لاهواء الخلفاء فرأينا الخيزران تغتال ابنها الهادي لانه حاول حرمان اخيه هارون واستخلاف ابنه. وقتل المأمون اخاه الامين الذي حاول ايضا نقل الخلافة الى ابنه خلافاً لوصية والده، ثم كادت تحدث فتنة لما استخلف المأمون اخاه المعتصم وحرم ابنه جعفر. وقتل المنتصر اباه المتوكل بمساعدة القواد الاتراك لانه خاف ان يحرمه من الخلافة، اربعة احداث جسام خضت الدولة العباسية في دور ازدهارها وقوتها في اقل من مئة عام لكن ذلك لم ينبه المسلمين الى ضرورة اقامة المؤسسات السياسية التي تتلافى هذا النقص الدستوري.

الدور العباسي الثاني
الدور التركي (٨٤٧ - ٩٤٥)

بدأ انهيار السلطة العباسية من خلافة المعتصم (٨٣٢ـ٨٤٢) الذي اكثر من استخدام الجنود العبيد في حرسه وكان اكثرهم اتراك، وفقد السيطرة عليهم فعاثوا في بغداد خرابا وتعديات فاضطر الى نقل عاصمته الى سامراء سنة ٨٣٦، التي بناها على بعد حوالي مابة كيلومتر الى الشمال من بغداد على

نهر دجلة فاصبح شبه اسير قواده.

تنامى نفوذ الاتراك خلال عهد ابنه الواثق الذي اضطر ان يمنح قائد حرسه التركي لقب "سلطان". واستكمل ضياع السلطة الخليفية لما تآمر المنتصر ابن المتوكل مع القواد الاتراك على قتل والده لانه خاف ان يوصي بالخلافة لغيره. وتولى المنتصر الخلافة (٨٦١) لكنه لم يهنأ بها لان الاتراك عزلوه بعد سنة.

منذ ذلك الوقت، والى ان دخل المغول بغداد سنة ١٢٥٨ ودمروا المدينة وقتلوا المستعصم اخر خليفة عباسي، وخلال ادوار الاتراك وآل بويه وآل سلجوق توالى على الحكم عشرون خليفة في نحو اربعماية سنة عاشوا في ذلّ ومهانة ولم يكن لهم من الامر شيء، عدا قلّة منهم سنذكرهم.

واذا كان من الصعب التكلم عن نظرية سياسية اسلامية ومؤسسات سياسية في عهود الراشدين والامويين والخلفاء التسع الأول من العباسيين، فان الحكم بعد ذلك اصبح غابة سائبة يتناتشها القواد المسلحون الاقوياء ويتخذون من الخليفة ستارا شرعيا تجاه العامة.

ولما قام فقيهان في هذه العهود الذليلة يبحثان في السياسة والحكم كابي الحسن الماوردي (٩٧٤ - ١٠٥٨) وابي حميد الغزالي (١٠٥٨ - ١١١١) انصرف اهتمامهما الى استنباط الاراء التي تبرّر تسلط السلاطين على الخلفاء، واختراع الاسباب الشرعية التي تحتم الطاعة على المسلمين لاي حاكم مغتصب، ودعوة الناس الى الرضوخ لما كان وسيكون. وما ذلك الا لان المسلمين خلال اربعة قرون سابقة رفضوا ان يضعوا نظرية سياسية تتلاءم مع اوضاعهم كما رفضوا ان يقيموا المؤسسات السياسية التي تصون النظرية وتحميها.

وسنستعرض فيما يلي احوال الخلفاء واحدا بعد اخر.

خلفاء الدور الثاني

المتوكل	٨٤٧_٨٦١
المنتصر	٨٦١_٨٦٢
المستعين	٨٦٢_٨٦٦
المعتز	٨٦٦_٨٦٩

المهتدي	٨٦٩ـ٨٧٠
المعتمد	٨٧٠ـ٨٩٢
المعتضد	٨٩٢ـ٩٠٢
المكتفي	٩٠١ـ٩٠٨
عبد الله ابن المعتز	٩٠٨
المقتدر	٩٠٨ـ٩٣٢
القاهر	٩٣٢ـ٩٣٤
الراضي	٩٣٤ـ٩٤٠
المتّقي	٩٤٠ـ٩٤٤

الخليفة المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١)

هو ابن المعتصم واخو الواثق. ولد في بغداد سنة ٨٢٢ وتوفي في سامراء سنة ٨٦١ فيكون عمّر ٣٩ سنة. لم يشغل المتوكل مناصب سياسية او عسكرية في شبابه لكنه كان مهتما بالمناقشات الدينية القائمة بين المعتزلة والتقليديين وكان منحازا الى التقليدين "اهل النقل" معاكساً للتيار الفكري والديني الذي ساد خلال خلافة المأمون والمعتصم والواثق.

تولى المتوكل الخلافة بمساعدة القواد الاتراك وتزلّف الى مشاعر العامة فبدأ حملة من الاضطهادات كانت سِمَةَ عهده. اضطهد الشيعة ونكل بهم وهدم قبر الحسين في كربلاء واستولى على النذور الثمينة فيه ثم مسح ارضه ولم يترك له اثرا ومنع الشيعة من الحج اليه.

واستدار الى اهل الذمة فاعاد العمل بالشروط العمرية التي فصّلناها في الفصل الثالث، وهدم الكنائس، ومعابد اليهود سنة ٨٥٠ واجبر النصارى واليهود على لبس ازياء تميزهم عن المسلمين. وقال الفقهاء في هذه الحقبة ان شهادة النصراني او اليهودي لا تقوم على المسلم.

لكن هذا الاضطهاد لم يؤخر المتوكل عن اللجوء الى طبيب نصراني هو حنين بن اسحق والاستعانة به وتعيينه طبيبا للقصر.

ونكّل المتوكل بالمعتزلة وحارب مباديهم ومنعهم من الدعوة اليها فاضطر المعتزلة الى الاختفاء حتى لم يعد لهم اثر واستقر الامر بعدئذ "لاهل

النقل".

في سنة ٨٥١ غضب المتوكل على وزيره ابن ابي داود فصادر ضياعه وامواله وحبسه مع سائر اولاده واحضر يحيى بن اكثم من بغداد الى سامراء وولاه رئاسة القضاء ثم ديوان المظالم.

شعر ابنه المنتصر ان والده ينوي ان يقدّم عليه اخاه المعتز فتآمر عليه مع القائدين التركيين وصيف وبغا وقتله سنة ٨٦١ وتولى الخلافة.

الخليفة المنتصر (٨٦١-٨٦٢)

تولى الخلافة بعد مقتل والده وحكم سنة واحدة ثم خلعه الجند.

الخليفة المستعين (٨٦٢-٨٦٦)

اسمه احمد بن محمد ابن الخليفة المعتصم. بويع بعد المنتصر وعمره ٢٨ سنة. حاول ان يحدّ من سيطرة الاتراك مما ادى الى حصار بغداد (٨٦٥ - ٨٦٦) والاستيلاء عليها ثم اجبره القواد الاتراك فخلع نفسه وبايع ابن عمه المعتز ابن المتوكل الذي امر بعدئذ بقتله.

الخليفة المعتز (٨٦٦-٨٦٩)

هو ابن المتوكل تولى الحكم بعدما تنازل له عنه المستعين مضطرا فلم يلبث ان امر بقتل المستعين. ما بين ٨٦٢ و ٨٦٩ حاول الخلفاء ان يحدّوا من تسلط الاتراك فعزل المعتز القائدين وصيف وبغا وقام الجند عليهما وقتلوهما لانهما عجزا عن دفع الرواتب. ثم ثار الجند على المعتز وطالبوه بالمال ولم يكن عنده شيء منه وانما كان لوالدته اموال كثيرة مخبأة لكنها رفضت ان تنجده فضربوه بالدبابيس واقاموه في الشمس ومنعوا عنه الطعام والشراب حتى مات.

الخليفة المهتدي (٨٦٩ - ٨٧٠)

هو محمد ابن الخليفة الواثق امه جارية رومية ولقّب بالمهتدي. جاء القواد بالمعتز قبل قتله فخلع نفسه واستخلف ابن الواثق اي ابن عمه فبايعه الناس. ثم ثار عليه الاتراك فقاتلهم فاسروه ثم احضروا ابا العباس احمد ابن

المتوكل وكان محبوسا فبايعه الاتراك والناس تحت اسم "المعتمد" وقتلوا المهتدي ثاني يوم البيعه. وفي رواية انهم جرّوا المهتدي وداسوا خصيتيه وضربوه حتى مات.

في عهد المهتدي بدأت ثورة الزّنج (٨٦٨ - ٨٨٣) واستمرت طوال عهده وعهد خلفه المعتمد اي طيلة سبع عشرة سنة فانهكت الدولة وهدرت مواردها.

ثورة الزنج (٨٦٩ - ٨٨٢)

قام بالثورة عبيد سود استوردهم من شرق افريقيا ملاّك زراعيون في البصرة لتجفيف المستنقعات المالحة شرق المدينة وعاملوهم بقسوة.

في شهر سبتمبر من عام ٨٦٩ قام شخص يدعى علي بن محمد ادّعى الانتساب الى الامام علي وفاطمة الزهراء، يحرّض العبيد على الثورة مشيرا الى الظلم الذي يعانون ويَعِدُهم بالحرية والثروة. صارت وعوده اكثر استمالة للعبيد لما اتخذ مذهب الخوارج واعلن ان اي مسلم ولو كان عبدا يستطيع ان يتولى الخلافة، وان كل من ليس خارجيا فهو كافر يتوجب الجهاد ضده. وهكذا بدأت الحركة ثورة اجتماعية ثم ما لبثت ان امتزجت بالدين على عادة تلك الايام.

تزايدت قوة الثوار بسرعة وانضمت اليهم كتائب من الجنود السود في جيش الخليفة واعداد من الفلاحين الناقمين على اوضاعهم.

بعد شهر من قيام الثورة تغلّب الثوار على قوة قادمة من البصرة وانشأوا عاصمة لهم سموها المختارة على بقعة ارض جافة ضمن المستنقعات تحيط بها اقنية مياه.

ثم استولوا على جنوب العراق وقطعوا المواصلات الى البصرة كما استولوا على الاهواز في جنوب غرب ايران.

الخليفة المعتمد (٨٧٠ - ٨٩٢)

بعدما قتل الاتراك الخليفة المهتدي عيّنوا ابن عمه المعتمد على الله ابن المتوكل الذي انشغل طيلة عهده باخماد ثورة الزنج ثم بثورة القرامطة.

وضع المعتمد اخاه الموفق على راس الجيش لمحاربة الثوار لكنه لم يفلح

في البداية فقد نهب الزنج مدينة البصرة في شهر سبتمبر ٨٧٠ وهزموا الموفق نفسه سنة ٨٧٢ واحتلوا جنوب العراق. ثم استولوا على مدينة واسط سنة ٨٧٨ وتمركزوا في خوزستان فيما كان الموفق في شرق ايران يقاوم مطامع ليث الصفّار الذي اقام الدولة الصفرية. على ان الموفق تمكن سنة ٨٧٩ من تجريد حملة كبيرة فاستولى على مدينة "المنيعة" وهي المدينة الثانية للزنج، ثم طردهم من خوزستان، وفي ربيع ٨٨١ حاصر المختارة وبعد سنتين قضى على الثورة وعاد الى بغداد برأس علي ابن محمد. وقد توفي الموفق بمرض نحو سنة ٨٨٩.

بالاضافة الى هذه الثورة الاجتماعية قامت اضطرابات في خراسان وطبرستان ومصر ومناطق اخرى، وبدأت اقاليم الدولة البعيدة تنفصل عمليا عن العاصمة.

في اخر عهد المعتمد سنة ٨٩٠ قامت ثورة اخرى اكبر في جنوب العراق قادها حمدان قرمط وهي ثورة لفرقة من الاسماعيلية ضد الخلافة السنيّة استمرت الى سنة ١٠٧٨ وشملت عدة مناطق في بلاد الخلافة.

في تلك السنة ايضا (٨٩٠) اسس الحمدانيون امارة مستقلة في الموصل وحلب. وهكذا بعد اقل من قرنين من بداية الحكم العباسي، وبعد سبع وثلاثين سنة من وفاة المأمون الذي ترك مملكة موحّدة، صار العراق بفضل القواد الاتراك، المنطقة الوحيدة التي تحكمها الخلافة. فقد صارت خراسان وما وراء النهر لابن سامان وذريته من بعده، وبلاد البحرين وعُمان للقرامطة، واليمن لابن طباطبا، واصفهان وفارس لبني بويه، ومصر لابن طولون، وحلب للحمدانيين، وانحصرت سلطة الخليفة في دائرة ضيقة حول بغداد فاختفت الوحدة السياسة والفكرية والاجتماعية التي كانت توحّد اتجاه المسلمين وصار كل قطر وحاكم على رايه (١٤٤). (راجع الدويلات الاسلامية في الفصل الثامن).

مما يذكر للمعتمد انه اعاد العاصمة من سامراء الى بغداد حيث بقيت الى نهاية الخلافة العباسية.

الخليفة المعتضد (٨٩٢ - ٩٠٢)

كان المعتمد قد استخلف ابنه جعفر الملّقب المفوّض الى الله. لكنه عندما

توفي الموفق اخو المعتمد سنة ٨٨٩ اجتمع القواد وبايعوا ابن الموفق ابا العباس على ان يلي الخلافة بعد المفوّض الى الله، ولقبوه المعتضد بالله. لكن المعتمد، تحت ضغط المعتضد والقواد الذين ناصروه، خرج الى الناس سنة ٨٩١ وجلس للقواد والقضاة ووجوه الناس واعلمهم انه خلع ابنه جعفر المفوّض الى الله من ولاية العهد لمصلحة المعتضد بالله ابي العباس ابن الموفق. وفي صبيحة الليلة التي مات فيها المعتمد بويع للمعتضد.

تصالح المعتضد مع الطولونيين في مصر وتزوج منهم، وفي عهده تعزّز استقلال السامانيين والحمدانيين.

عمل المعتضد على تنظيم الادارة واصلاح النظام المالي واخمد ثورات قام بها العلويون والصفريون لكن اهم ما شغله كانت ثورة القرامطة الذين حاربهم لكنهم انتصروا عليه.

الخليفة المكتفي (٩٠٢ - ٩٠٨)

هو ابن المعتضد وامه جارية تركية. قاد حروبا على عدة جبهات رغم ضعف الدولة. واجه القرامطة وتغلب عليهم سنة ٩٠٣ وهزمهم في معركة كبرى سنة ٩٠٧ لكنهم لم يستسلموا. انهى المكتفي الحكم الطولوني في مصر وان لم يستطع منع قيام الدولة الفاطمية في تونس. في حرب مع البيزنطيين تغلب عليهم في معارك جرت في طرسوس وجوارها. وتوفي بمرض وكان عمره ثلاث وثلاثين سنة.

عبدالله ابن المعتز، والمقتدر (٩٠٨ - ٩٣٢)

المقتدر هو ابو الفضل جعفر ابن المعتضد لُقّب المقتدر بالله امه جارية تركية. تولى الخلافة بعد ابيه المكتفي لكنه خُلع بعد سنة وبايع الناس لعبد الله ابن المعتز سنة ٩٠٨ واتخذ لقب المرتضي فكتب الى المقتدر يأمره بتسليم دار الخلافة. فاجابه بالقبول وسأله الامهال الى الليل. في خلال ذلك انقلب الوضع على عبد الله ابنَ المعتز ووقعت الفتنة والنهب والسلب في بغداد فخُلع ابن المعتز وقُتل وعادت الخلافة الى المقتدر. فكانت مدة خلافة ابن المعتز يوما واحداً. كان اديبا شاعرا من اوائل الذين طوّروا الادب العربي في القرن

التاسع. الّف كتاب "البديع" الذي وصف فيه حياة الخلفاء ومجتمعهم في ذلك العصر.

اما المقتدر فدامت خلافته اربعا وعشرين سنة وكان عاجزا عن الحكم. وزاد في الفوضى تدخل امه التركية بشئون الدولة. وقد اسند المقتدر ادارة الدولة الى الخصّي مؤنس المظفر رئيس حرسه وخصته بلقب امير الامراء فاستبد بالامور.

في هذا العهد، وبسبب عجز الحكومة عن دفع رواتب الجنود، بدأت الدولة توزع الامصار بين الولاة والقواد يستغلونها لمصلحتهم ويدفعون مصاريف الجيش من مواردها مع تقديم اتاوة سنوية للعاصمة وعدد من الجنود وقت الحرب وقد كانت سابقة سيئة اذ استمر العمل بهذا الترتيب الاقطاعي العسكري في عهد البويهيين والسلاجقة مما كان سببا رئيسيا في تفكك الدولة ونشوء امارات مستقلة في اقطار كثيرة.

توالى على الوزارة في عهد المقتدر ثلاثة عشر وزيرا منهم الخطاط الشهير ابن مقلة الذي تولى الوزارة ثلاث مرات ومات مسجونا. ومن الوزراء علي بن عيسى الذي امتاز بالمقدرة والنزاهة وتولى الوزارة مرتين. ومنهم ابو الحسن ابن الفرات الذي تولى الوزارة ثلاث مرات وكان المقتدر يقبض عليه في كل مرّة ويصادر امواله.

في عهد المقتدر استولى القرامطة على البصرة والكوفة سنة ٩٢٥ وهددوا بغداد وهاجموا مكة في موسم الحج سنة ٩٢٩ ونقلوا الحجر الاسود الى الاحساء لاظهار قدرتهم على تحدي الخلافة العباسية وإثبات عجزها عن حماية المقدسات الاسلامية.

في زمنه ظهر عبيد الله الفاطمي في شمال افريقيا (٩٠٩)، وعبد الرحمن الثالث الاموي في الاندلس (٩٢٩) واعلن كلٌ منهما خلافته بحيث وُجد في العالم الاسلامي ثلاث خلفاء في وقت واحد، فكان ذلك احباطا لفكرة ومبدأ الخلافة الاسلامية الجامعة.

في اواخر عهده خلعه مؤنس وبايع اخاه القاهر فكانت المرة الثانية التي يُخلع فيها المقتدر بعدما خلعه عبد الله ابن المعتز ليوم واحد سنة ٩٠٨. وعاد المقتدر مرة ثانية الى العرش لكن قوما من العساكر المغاربة والبربر قتلوه

وحملوا رأسه الى مؤنس. (١٥)

الخليفة القاهر (٩٣٢-٩٣٤)

هو ابن المكتفي واخو المقتدر. بايعه أمير الامراء مؤنس بالخلافة لكن القواد الاتراك غضبوا عليه فخلعوه وسملوا عينيه فصار يستعطي في شوارع بغداد وهو يلبس ثوبا قطنيا وقبقابا خشبيا.

الخليفة احمد الراضي (٩٣٤-٩٤٠)

هو ابن الخليفة القاهر. في عهده اصبح ابن رايق امير الامراء يُخطب له مع الخليفة على جميع المنابر وهو امر لم يُعرف في تاريخ الاسلام من قبل. تنازل الراضي لامير الامراء عن السلطة السياسية والزمنية واحتفظ فقط بالزعامة الدينية التي تضفي شيئا من الشرعية على تجاوزات القواد. وكان الراضي من الخلفاء القلائل الذين لم يُخلعوا لكنه قُتل كغيره بيد الجند.

الخليفة المتقي (٩٤٠-٩٤٤)

هو اخر الخلفاء في الدور التركي وهو ابن القاهر واخو الراضي. تآمر عليه ابن عمه عبد الله ابن الخليفة المكتفي مع القواد الاتراك فعزلوه وسملوا عينيه فصار مصيره كمصير والده القاهر.

بالاضافة الى ما فعله القواد الاتراك بالخلفاء من ذلّ واهانة فقد عجزوا عن القيام بابسط واجباتهم وهو حفظ الامن والنظام في المدن والريف فقد قامت النزاعات فيما بين القواد الاتراك الطامعين بالسلطة، وبينهم وبين القواد من الديلم وعناصر اخرى في الجيش، بحيث عمت الفوضى وساد القلق والاضطراب حتى في بغداد، واستقلت اقطار عديدة لعجز السلطة المركزية، واصبحت بعض امارات الاقاليم وراثية.

مع نهاية الدور الثاني يدخل تاريخ الخلافة الاسلامية متاهات يصعب تبيّنها. فقد سيطر آل بويه ثم آل سلجوق على الخلافة. وفي حين بقي الخليفة في بغداد فقد اتخذ السلاطين لهم عواصم اخرى : آل بويه في

شيراز، وآل سلجوق في اصفهان ثم في همدان وابقوا الخليفة كرمز ديني معزولا في بغداد ليس له من الامر شيء. ثم طبقوا عادتهم باقتسام المناطق بين الاخوة والابناء فانهارت الدولتان وكانت مصادفة غريبة اذ بدأ انهيار آل بويه بعد السلطان الثالث عضد الدولة. كذلك بدأ انهيار الدولة السلجوقية بعد السلطان الثالث ملكشاه. فكانت فترة الانهيار في الدولتين اطول بكثير من فترتي التسلط والازدهار.

ترافق الانهيار مع تقاتل السلاطين افراد العائلة الواحدة فيما بينهم بل كان الانهيار نتيجة لهذا التقاتل. وبالنظر لكثرة عددهم صار من الصعب تتبع حروبهم وتحالفاتهم ونتائجها خصوصا وان التحالفات كانت تتغير وتتبدل فالاخ الذي يقاتل اخاه يصبح حليفا له ضد اخ ثالث اوْ ضد عمّ او ابن عم.

وقد رأينا من الضروري، ونحن نحاول استكشاف النظرية السياسية الاسلامية ان نَصِفَ بعض هذه الاحداث واحْوال الخلفاء والسلاطين ليأخذ القاريء فكرة عن المجتمع الاسلامي في هذين العهدين اللذين داما زهاء ثلاثة قرون من ٩٤٥ ـ ١٢٥٨، اي اطول من نصف مدة الخلافة العباسية بكاملها. وقد فعلنا ذلك رغم صعوبة متابعة الاحوال المتشابكة فيما بين السلاطين، وبينهم وبين الخلفاء الذين عاصروهم. ولم يذهب جهدنا عبثا فقد رأينا عالمين من علماء المسلمين هما ابو الحسن الماوردي (٩٧٤-١٠٥٨) وابو الحميد الغزالي (١٠٥٨-١١١١) يتحفاننا بنظريات سياسية تتلاءم مع العصر الذي عاشا فيه سنشرحهما في اخر هذا الفصل.

الدور العباسي الثالث

دور آل بويه (٩٤٥-١٠٥٥)

الدولة البويهية دولة فارسية شيعية تنتسب الى احمد بن ابي شجاع بويه زعيم قبيلة في منطقة الديلم في شمال ايران تقع على الساحل الجنوبي من بحر قزوين كان في خدمة آل سامان وهو يدّعي الانتساب الى الملوك الساسانيين.

اسس الدولة اولاده الثلاثة علي وحسن واحمد الذين توغلوا جنوبا فاحتلوا اصفهان وفارس ومنطقة الجبال وخوزستان وكرمان (٩٣٥-٩٣٦) وجعلوا شيراز عاصمتهم.

زحف احمد على بغداد وهزم الحرس التركي فأنهى بذلك الدور العباسي الثاني ودخل المدينة في ديسمبر (كانون الاول) ٩٤٥ فاستقبله الخليفة المستكفي وجعله امير الامراء وانعم عليه وعلى اخوته بالقاب شرفية طنانة فصار أحمد معزّ الدولة كما انعم على علي بلقب عماد الدولة، وعلى حسن بلقب ركن الدولة.

ابقى آل بويه على الخلافة السنية بمظهرها الديني استمالة للعامة لكنهم فرضوا سيطرتهم على الخليفة فورا فامر معزّ الدولة ان يُذكر اسمه مع اسم الخليفة في خطبة الجمعة وضَربَ اسمه على المسكوكات النقدية.

اقام آل بويه شعائر الشيعة واخصّها اعلان المناحة في عاشورار ذكرى مقتل الحسين، والاحتفال بعيد الغدير تذكارا لما يقولون بان النبي اختار علياً خليفة له في غدير الخم بقوله "من كنت مولاه فعلي مولاه"، كما ساعدوا على انتشار الدعوة الفاطمية الاسماعيلية في العراق وغيره من الامصار بوجهيها الديني والثقافي.

حكم آل بويه الخلافة من عاصمتهم شيراز ولم يقيموا في بغداد ففقدت هذه مكانتها ونافستها مدن اخرى مثل قرطبة والقاهرة وشيراز واصفهان. وفي عهدهم ازدهرت جمعية "اخوان الصفا" الاسماعيلية فقد شجع آل بويه الحركات الشيعية على اختلافها ليستقووا بها لكن دولتهم تداعت بسرعة لاسباب من اهمها انهم تبعوا التقليد التركي بقسمة البلاد بين الابناء والاخوة فكان من الطبيعي ان تستعر الخصومات العائلية وتنشب الحروب فقد كان كل حاكم وسلطان يطمع بتوسيع ملكه على حساب غيره من اقاربه، كما ان مذهبهم الشيعي ابعد عنهم رعاياهم السنة.

في سنة ١٠٥٥ دخل طغرل بك السلجوقي بغداد وقضى على سيادة آل بويه وكان اخر امرائهم في العراق الملك الرحيم (١٠٤٨-١٠٥٥) وقد قضى سجينا.

سلاطين آل بويه (٩٤٠-١٠٥٥)

احمد بن بويه (معز الدولة)	٩٤٠ - ٩٦٧
عزّ الدولة ابن معز الدولة	٩٦٧ - ٩٧٧
عضد الدولة ابن ركن الدولة	٩٧٧ - ٩٨٣
شرف الدولة ابن عضد الدولة	٩٨٣ - ٩٨٩
بهاء الدولة الابن الثاني لعضد الدولة	٩٨٩ - ١٠١٢
سلطان الدولة ابو شجاع ابن بهاء الدولة	١٠١٢ - ١٠٢٤
(ولّى اخاه جلال الدولة البصرة،	
واخاه ابا الفوارس اقليم كرمان)	
جلال الدولة ابن بهاء الدولة	١٠٢٤ - ١٠٤٤
محيي الدين ابو كاليجار المرزبان	
ابن سلطان الدولة	١٠٤٤ - ١٠٤٨
الملك الرحيم ابن ابي كاليجار	١٠٤٨ - ١٠٥٥

تفكك دولة آل بويه

يُلاحظ ان تماسك دولة آل بويه استمر تحت حكم معز الدولة وابنه عز الدولة، وبلغت اوجها في عهد عضد الدولة ابن ركن الدولة، اي من سنة ٩٤٠ الى ٩٨٢ حين وفاة عضد الدولة. ثم بدأ الانهيار السريع. من اسباب ذلك كما قلنا ان قبائل آل بويه الديلمية، مثلها مثل باقي القبائل التركية، كانت تعتبر ان الحكم والملك من حق افراد العائلة جميعا وليس محصورا في كبير العائلة وذريته المباشرة. فكان الاخوة يقتسمون المناطق ويحكمونها بما يشابه الاستقلال، ثم يقسمون هذه المناطق بين اولادهم فيتكاثر عدد السلاطين وتزداد المناحرات والحروب بينهم وتزول وحدة الدولة وتصبح كل مدينة او مقاطعة صغيرة دويلة مستقلة تتقاتل مع جاراتها.

في الصفحات اللاحقة اخبار بعض هذه المناحرات. وقد ساعد عامل اخر على هذا التفتّت. فسيرة الدور التركي ودور آل بويه مليئة بالاشارات الى عصيان الجند وثوراتهم على الخلفاء والسلاطين حينما يعجزون عن دفع

استحقاقاتهم. تلافيا لذلك تابع السلاطين سياسة منح القواد اقطاعات اي مقاطعات يجبون منها الضرائب بدل الدولة ويدفعون استحقاقات الجند من هذه الضرائب. ومع الوقت استقل هؤلاء القواد بمقاطعاتهم. وجرى مثل ذلك في دور آل سلجوق.

الخلفاء في عهد آل بويه (٩٤٥-١٠٥٥)

المستكفي	٩٤٤ - ٩٤٦	امر السلطان معز الدولة بعزله وسَمَل عينيه.
المطيع	٩٤٦ - ٩٧٤	
الطائع	٩٧٤ - ٩٩١	عزله السلطان بهاء الدولة.
القادر	٩٩١ - ١٠٣١	
القائم	١٠٣١ ــ ١٠٥٥	

الخليفة المستكفي (٩٤٤-٩٤٦)

هو عبد الله ابن الخليفة المكتفي وقد تآمر مع القواد الاتراك على ابن عمه المتقي ليحل محله فعزلوه وسملوا عينيه وألقوه يستجدي في شوارع بغداد. ولم يطل الامر بالمستكفي حتى لحقه ما لحق بالقاهر والمتقي فقد امر امير الامراء البويهي معز الدولة بعزله وسمل عينيه فاصبح في بغداد في وقت واحد ثلاث خلفاء مخلوعين وعميان يستجدون في الشوارع.

في زمن المستكفي تقلّصت سلطة الخليفة حتى لم تعد تتجاوز مدينة بغداد.

الخليفة المطيع (٩٤٦-٩٧٤)

هو ابن المقتدر واخو الراضي والمتقي. ترك لنا رسالة تدل على منزلة الخليفة في تلك العهود. فقد طلب منه امير الامراء معزّ الدولة مالاً بحجة ان الجهاد هو من واجبات الامام واصرّ بالطلب فاجابه المطيع بالرسالة التالية :

"ان الجهاد يُلزمني اذا كانت الدنيا في يدي. اما الان وليس لي منها الا القوت القاصر عن كَفافي، وهي في ايديكم، وايدي اصحاب الاطراف

الاقاليم). فما يلزمني غزو ولا حجّ ولا شيء مما تنظر الائمة فيه، وانما لكم مني هذا الاسم الذي تخطبون به على منابركم تسكنون به رعاياكم. فان احببتم ان اعتزل اعتزلت عن هذا المقدار ايضا وتركت لكم الامر كله". (١٦)

كان معز الدولة وغيره من سلاطين بني بويه غير مكترثين باحوال الشعب فقد كانوا يعرضون الوظائف على من يدفع فيها ثمنا اكبر ثم يعزلون الموظفين بعدما يفتنون ويصادرون اموالهم واملاكهم، ويعيدون بيع الوظائف. ومن الطبيعي ان من يشتري الوظيفة يحاول ان يستعيد ما دفعه فيحصّله من اموال السكان عن طريق الرشوة والفساد فساءت احوال البلاد والادارة العامة.

الخليفة الطائع (٩٧٤-٩٩١)

هو ابن المطيع لم تكن حاله افضل من حال ابيه. فقد قبض عليه امير الامراء البويهي بهاء الدولة طمعا بماله لان الاموال قلّت عنده وشغب الجند عليه فدخلوا على الخليفة وجرّوه ونهبوا ما في داره، ونهب الناس بعضهم بعضا وكان من جملة الذين نهبوا الامام الشريف الرضي.

وحُمل الطائع الى بيت بهاء الدولة فاشهد عليه بالخلع ونصّب مكانه القادر ابن المتقي.

الخليفة القادر (٩٩١-١٠٢١)

القادر هو ابن المتقي ترافقت خلافته مع تفكك الدولة البويهية. فقد قُسمت الدولة بعد عهد عضد الدولة (٩٤٩-٩٨٣) بين اولاده واولاد اولاده وادّت كثرة الحروب بين افراد هذه الاسرة الى اضعافها وزوال ملكها. ولهذا عمّت الفوضى في البلاد واستفحلت الفتن. ويبدو ان الخليفة القادر آنس فرصة في ضعف آل بويه فقاوم الدعوة الفاطمية وعزل القضاة الشيعة وعيّن قضاة سنّة محلهم.

في زمن القادر استفحل امر العيارين والشطار في بغداد وكان فيهم من هو عباسي وعلوي فاعتدوا على الناس ونهبوا المتاجر والمنازل. والعيارون

جماعات مسلمة من سكان بغداد ارهبوا العاصمة في عهد آل بويه بسبب ضعف الحكومة ففرضوا الضرائب على الاسواق والطرقات واحرقوا الاحياء الغنية والمخازن بعد نهبها، واستغلوا المصادمات المتواصلة بين السنّة والشيعة فانحازوا الى الفريق الاكثر قدرة على الدفع. ودام هذا الوضع الى ما بعد دخول السلاحقة الى بغداد. من جملة هذه الاضطرابات أنه في سنة ١٠١٢ حصل خلاف بمناسبة جنازة للنصارى فهاجموا الكنيسة ونهبوها كما نهبوا دورهم ومنازلهم.

تكررت الاصطدامات بين السنّة والشيعة كل سنة تقريبا في موعد الاحتفال بعاشوراء وبالغدير وكان اهمها ما جرى عام ١٠٢١ اذ احرقت الجماهير في هذه الفتنة دور الفقهاء وضريح الامام موسى ابن جعفر الصادق، وقبر زبيدة زوجة هارون الرشيد وقبور الخلفاء العباسيين وامراء بني بويه وخربت مخازن بغداد وقتل من الفريقين عدد كبير.

ووقعت فتنة عظيمة أيضا بين الحنابلة والاشاعرة حتى توارى الاشاعرة عن المجتمعات خوفا من الاعتداء.

الى جانب هذه الفتن المذهبية وقعت في بغداد والبصرة فتن ومصادمات بين الاتراك والديلم قُتل فيها عدد كبير كما حدثت مواقع بين الاتراك والهاشميين.

في زمن الخليفة القادر توفي السلطان البويهي سلطان الدولة ابو شجاع ابن بهاء الدولة سنة ١٠٢٤ وخلفه ابنه محي الدين ابو كاليجار المرزبان لكن عمه ابا الفوارس حاكم كرمان نازعه على المتلكات الايرانية فتغلب عليه ابو كاليجار وضم كرمان الى اراضيه. ثم هاجم اراضي عمه الاخر جلال الدولة الذي كان يتولى البصرة وما حولها وتسبب بقيام حرب بين فرعي العائلة البويهية في ايران والعراق انتهت صلحاً عام ١٠٢٧.

بعد وفاة عمه جلال الدولة عام ١٠٤٤ في عهد الخليفة القائم اصبح ابو كاليجار السلطان الوحيد في العراق لكن قوة آل بويه تداعت امام زحف آل سلجوق. وقد حصّن ابو كاليجار عاصمته شيراز عام ١٠٤٤ ثم عقد حلفا مع طغرل بك السلجوقي لدرء خطره. لكن طغرل بك الغى الحلف بعد فترة قصيرة وهاجم ابا كاليجار الذي قُتل عام ١٠٤٨ وهو يقود الجيش.

خلفه ابنه الملك الرحيم الذي كان آخر سلاطنة آل بويه وتوفي سجينا بعد دخول طغرل بك الى بغداد عام ١٠٥٥.

الخليفة القائم (١٠٢١-١٠٧٥)

تولى القائم الخلافة بالوصية من والده القادر وهو ابن جارية ارمنية، وقيل رومية، اسمها قطر الندى. يُقسم عهده الطويل الى قسمين : القسم الاول من ١٠٣١-١٠٥٥ مضّاه تحت سلطة آل بويه الشيعة. اما القسم الثاني من ١٠٥٥-١٠٧٥ فكان فيه متعاونا مع السلطان السلجوقي طغرل بك على اعادة الهيبة للخلافة السنيّة ومقاومة الدعوة الاسماعيلية المنتشرة في العراق بتاييد الخلافة الفاطمية في مصر. ونبحث الان القسم البويهي من خلافته. في اول سنة من خلافته تجددت الفتنة في بغداد بين السنّة والشيعة فقد كانت الدعوة الاسماعيلية الوافدة من مصر ذات نشاط وعزم وكان آل بويه يناصرونها بصفتهم شيعة واستمرت القلاقل على هذا الشكل الى نهاية عهدهم. ثم عجز السلطان البويهي جلال الدولة عن دفع رواتب الجنود الاتراك فنهبوا بيته وفرّ من بغداد. وعظم امر العيارين الشطار فسادت الفوضى في العاصمة.

تكررت هذه الاحداث خلال ما بقي من عهد آل بويه. ففي سنة ١٠٤٨ توفي السلطان ابو كاليجار وهو يقاوم طغرل بك السلجوقي وخلفه ابنه الملك الرحيم الذي حكم سبع سنوات حتى دخول طغرل بك بغداد. ولم يكن السلطان الجديد اكثر قدرة من سابقيه على حفظ الامن. ففي سنة ١٠٥٢ تكررت الفتنة بين السنّة والشيعة وتبع ذلك مطالبة الجند الاتراك باستحقاقاتهم فعجز الملك الرحيم عن دفعها فسطا الجند على الاسواق والبيَع ينهبونها كما نهبوا بيوت القائد البويهي رسلان البساسيري وامواله واملاكه. وتجددت الفتن ايضا بين الاشاعرة والحنابلة.

رغم ما اصاب بني بويه من تفكك وانهيار سريع بعد السلطان الثالث عضد الدولة (٩٨٣-٩٨٩) فان بعضهم رعى الاداب والعلوم فابو الفرج الاصفهاني مؤلف "الاغاني" عاصر السلطان عزّ الدولة، وبديع الزمان الهمذاني واضع فن "المقامات" عاصر السلطان بهاء الدولة، اما القاضي ابو الحسن الماوردي (٩٧٤-١٠٥٨) فقد عاصر معظم سلاطين آل بويه وتمتع برعايتهم.

الدور العباسي الرابع : دور آل سلجوق ١٠٥٥-١١٩٤

تتحدّر العائلة من سلجوق زعيم قبائل اوغوز التركمانية. كانت مواطنها في تركستان فيما وراء نهر جيحون. في اوائل القرن الحادي عشر (١٠١٦) عبر النهر احفاد سلجوق : طغرل واخوه شاغري وعمهما ارسلان مع قبائلهم وكانوا قد اعتنقوا المذهب السني، واصطدموا مع محمود الغزنوي ثم تغلبوا على ابنه مسعود عام ١٠٤٠ وانشأوا ولاية في خراسان لشاغري في حين تابع طغرل زحفه شرقا في الاراضي الايرانية نحو العراق.

فيما يلي لائحة بسلاطين آل سلجوق في المشرق الذين تسلطوا على الخلافة تمييزا لهم عن الفرع الثاني لآل سلجوق الذين استقروا في الاناضول.

طغرل بك	٩٩٠ - ١٠٦٢
ألب ارسلان ابن شاغري بك	
وابن اخ طغرل بك	١٠٦٢ ـ ١٠٧٢
ملكشاه ابن ألب ارسلان	١٠٧٢ - ١٠٩٢
بركياروق ابن ملكشاه	١٠٩٢ - ١١٠٥
ملكشاه الثاني ابن بركياروق (طفل)	١١٠٥ عزله عمه محمد
محمد ابن ملكشاه	١١٠٥ - ١١١٨
محمود ابن محمد	١١١٨ - ١١٣٤
مسعود ابن محمد واخو محمود	١١٣٤ - ١١٥٢
طغرل الثالث اخر سلاطين آل سلجوق	١١٧٧ - ١١٩٤

السلطان طغرل بك (٩٩٠-١٠٦٢)

احتل طغرل شرق العراق وشماله ووصل الى بغداد عام ١٠٥٥ وكان حاكم المدينة قائدا تركيا شيعيا اسمه ارسلان البساسيري فانسحب منها. عمّت العراق وباقي أنحاء الخلافة موجة فرح وابتهاج لتخلّص السكان السنّة من حكم السلاطين الشيعة في حين أُصيب الشيعة بخيبة.

أسرع الخليفة القائم الى الترحيب بالغازي السلجوقي وكلمه بواسطة

ترجمان ونادى به منقذا للاسلام من السيطرة الشيعية وولاه جميع الامصار ومنحه لقب "سلطان" وأوكل اليه اعادة وحدة الاسلام والقضاء على الدولة الفاطمية الاسماعيلية في مصر وسوريا.

كان هذا بداية عصر جديد دخلت فيه الخلافة تحت حماية دولة جديدة كانت اكثر رفقا بالخلفاء من سابقاتها (١٧). تزوج طغرل بك من ابنة الخليفة القائم في حين تزوج الخليفة من اميرة سلجوقية. وكان اسم السلطان السلجوقي يقرن باسم الخليفة على المنابر في خطبة الجمعة.

بعد ثلاث سنوات، وبينما طغرل بك في حملة في الشمال، ظهر البساسيري على ابواب بغداد سنة ١٠٥٨ ومعه جنود من الديلم وغيرهم وكان قد التحق بالفاطميين وساعدهم على نشر دعوتهم.

لم يكن لدى الخليفة القائم جيش أو قوة يدافع بها عن المدينة فاضطر الى توقيع وثيقة تُعتبر بمثابة استسلام، تنازل فيها عن حقوقه وحقوق غيره من العباسين عن الخلافة وبايع فيها منافسه الخليفة الفاطمي المستنصر (١٠٢٥-١٠٩٤) في القاهرة. وارسل القائم فوق ذلك للمستنصر شعار الخلافة ومعه بردة النبي والذخائر النبوية وعمامة النبي. لكن طغرل لمّا عاد الى بغداد ارجع القائم الى منصبه وقتل البساسيري سنة ١٠٦٠ وحلّ جيش الديلم فكانت تلك آخر محاولة قام بها البويهيون لاستعادة سلطتهم. (١٨)

لم يقيم طغرل بك في بغداد. اما خليفته ألب ارسلان فلم يدخل بغداد ولم يَرَها قط بل جعل اصفهان عاصمته وكانت مرو عاصمة سلفه. ولم تنتقل العاصمة الى بغداد الا سنة ١٠٩١ قبيل انقضاء عهد السلطان ملكشاه.

السلطان ألب ارسلان (١٠٦٢-١٠٧٢)

اسمه الكامل عضد الدولة ابو شجاع، ولقّب بالاسد الشجاع. هو ابن شاغري بك حاكم خراسان وابن اخ طغرل بك. توفي والده عام ١٠٦١ وتوفي عمه طغرل بك دون عَقَب عام ١٠٦٢ فصار ألب ارسلان وريث جميع بلاد آل سلجوق.

دشّن عهدا من الفتوحات شملت جورجيا وارمينيا واجزاء كبيرة من آسيا الصغرى انتزعها من البيزنطيين بعد معركة مع الامبراطور رومانوس

الرابع ديوجين في مانزيكرت (ارمينيا) انتصر فيها ألب ارسلان واسر الامبراطور فانتشر صيته في العالم الاسلامي.

كان ألب ارسلان كوالده شاغري بك وعمه طغرل بك، امياً لا يقرأ ولا يكتب. كان غازيا بارعا لكنه كان قليل الاهتمام بامور الادارة والحكم التي تركها لوزيره نظام الملك الفارسي كما ترك له الاهتمام بامور العمران والثقافة. قبل وفاته اوصى بالملك بعده الى ابنه ملكشاه وكان صبيا صغيرا فوضعه تحت وصاية وزيره نظام الملك.

السلطان ملكشاه (١٠٧٢-١٠٩٢)

خلف ملكشاه والدَه ألب ارسلان وكان عهده قمّة الحكم السلجوقي. تغلب في بداية عهده على ثورة قام بها عمه، وعلى هجوم قام به حاكم بخارى على خراسان. ثم وطد حكمه ومدّ سلطته بالاساليب السياسية مستفيداً من خلافات خصومه اكثر مما لجأ الى الحرب. بسط سيطرته على المقاطعات التي تمتعت باستقلال داخلي في شمال العراق واذربيجان واستولى على سوريا وفلسطين، وبسط نوعا من الحماية على مكة والمدينة واليمن ومناطق الخليج الفارسي.

اظهر ملكشاه اهتماما بالعلوم والاداب وجمّل عاصمته اصفهان بالمساجد والعمران واتكل على وزيره نظام الملك الذي كان من نوابغ الاداريين والسياسيين في الاسلام، وضع رسالة فريدة في باب اصول الحكم باللغة الفارسية سماها "سياسة نامة". وفي عهده جمع كبار الفلكيين ومنهم عمر الخيام، وطلب منهم اصلاح تقويم السنة الفارسية فوضعوا التقويم "الجلالي" اكراماً للسلطان ملكشاه جلال الدين ابي الفتح. ويعود الى نظام الملك الفضل بتاسيس دور علم عالية اخصتها "النظامية" في بغداد (١٠٦٨) التي درّس فيها حجة الاسلام الغزالي.

لم يكن للسلاجقة الاتراك ارث ادبي خاص بهم كما انهم لم يكونوا عريقين بالتقاليد الاسلامية ولغتها العربية لذلك سهل عليهم اقتباس لغة الفرس الذين ادخلوهم في الاسلام وهكذا انتشرت اللغة الفارسية كلغة الاداب في جميع ارجاء الامبراطورية السلجوقية وتقلص دور اللغة العربية. اما

السلاطين فلم يتكلم احدهم بالعربية.

من ناحية ثانية، فان سلاطين آل سلجوق لم يتخذوا بغداد عاصمة لهم وفضلوا عليها اصفهان ومدنا ايرانية اخرى فبقيت بغداد عاصمة الخلافة دون ان ترافقها سلطة سياسية.

مما يُذكر لملكشاه ان المملكة السلجوقية امتدت في عهده من كاشغر في اقص بلاد الترك شرقا الى القدس غربا وكانت القوافل تسير من اراضي ما وراء النهر الى اقصى الشام بطمانينة، ونَعُمَ الناس في ذلك العهد بالسلام والاستقرار والتسامح الديني.

مع ذلك لم تخلُ تلك المناطق الواسعة من بعض القلاقل فقد ثار عليه اخوه تَكَش حاكم خراسان فسجنه ملكشاه وسَمَل عينيه. واستفحل امر الاسماعيلية في قلعة ألاموت حتى اغتالوا الوزير نظام الملك عام ١٠٩٢.

تفكك الدولة السلجوقية

يصدق على دولة آل سلجوق ما قلناه عن دولة آل بويه. فعند وفاة السلطان الثالث ملكشاه (١٠٩٢) دخلت الدولة دور انهيار سريع. والسبب الرئيسي هو ذاته اي توزيع الامارات والمقاطعات على الاخوة والابناء وتقاتلهم مع بعضهم. وهذا ما حصل بعد وفاة السلطان السلجوقي الثالث ملكشاه اي بعد سبعة وثلاثين عاما فقط من قيام الدولة السلجوقية. فقد خلّف عدة اولاد من امهات مختلفات كلهم صغار مما ادى الى توزيع السلطنة بين بركياروق الابن الاكبر (١٠٩٢-١١٠٥) الذي اخذ العاصمة شيراز وفارس والعراق، واخيه محمد الذي تولى على شمال غرب ايران، والاخ الثالث سنجار الذي تولى على خراسان. لكن هذه القسمة لم تكن مرضية فقامت الحروب بين الاخوة.

من اسباب الانهيار السريع ايضا ان الوزير نظام الملك تابع التدبير البويهي السابق فجعل نظام الاقطاعيات العسكرية سنة ١٠٨٧ وراثية فنشأت دويلات تتمتع بالاستقلال تحت سيادة اسمية للسلطان الى جانب المقاطعات التي ورثها اخوة السلاطين وابناؤهم. مع الوقت بلغ تفتت المملكة ان كل مدينة وبلدة في المشرق اصبح لها حاكم مستقل يتقاتل مع جيرانه بغياب

سلطة مركزية ضابطة.

توفي بركياروق عام ١١٠٥ وخلفه ابنه ملكشاه الثاني وكان طفلا فسارع عمه محمد الى عزله والاستيلاء على ممتلكاته (١١٠٥-١١١٨).

خلف محمود اباه محمدا (١١١٨-١١٢٤) وعاصر الخليفة المسترشد وقتله.

ثم خلفه اخوه مسعود الذي حكم من ١١٢٤-١١٥٢ وكان معاصراً للخليفة الراشد فقتله ونصّب المتقي. ثم انتقلت السلطنة الى سلاجقة فارس وهو طغرل الثالث الذي عاصر الخليفة الناصر.

انتهز بعض الخلفاء ضعف السلاطين وانهماكهم بالحروب ضد بعضهم فاعادوا الى الخلافة بعض هيبتها الى ان جاء الخليفة الناصر وانهى حكم آل سلجوق عام ١١٩٤.

ذكرنا الاحداث التي جرت في ايام الخليفة القائم الذي انقسم حكمه الطويل (١٠٣١-١٠٧٥) ما بين اخر عهد آل بويه، ودخول طغرل بك السلجوقي الى بغداد وعودة الحكم السنّي الى الخلافة وكانت فترة سادها العنف والتقاتل بين السلاطين والامراء والقواد واختل فيها الامن، وفيما يلي لائحة الخلفاء الذين تولّوا في العهد السلجوقي مع ذكر شيء من سيرتهم وأعمالهم.

الخلفاء في الدور الرابع

القائم (١٠٢١ ــ ١٠٧٥) مضّى قسما من خلافته في عهد آل بويه والقسم الثاني في عهد آل سلجوق.

المقتدي (١٠٧٥ ــ ١٠٩٤)

المستظهر (١٠٩٤ ــ ١١١٨)

المسترشد (١١١٨ ــ ١١٢٥)

الراشد (١١٢٥ ــ ١١٢٦)

المقتفي (١١٣٦ ــ ١١٦٠)

الخليفة المقتدي (١٠٧٥-١٠٩٤)

هو ابن القائم وامه جارية ارمنية اسمها ارجوان. خلف اباه عند وفاته وتزوج عام ١٠٨٧ من ابنة السلطان ملكشاه ورزق منها ولدا فاراد السلطان ان يجمع الخلافة والسلطنة في حفيذه فلم يطاوعه المقتدي وحصل فتور بينهما.

في زمن المقتدي تولى السلطنة بركياروق ابن ملكشاه وكانت ايامه كلها حروب وفتن وكان وزيره عزّ الملك ابن الوزير الشهير نظام الملك. توفي المقتدي فجأة وتولى الخلافة ابنه المستظهر بالله.

الخليفة المستظهر (١٠٩٤-١١١٨)

مَلأ السلطان بركياروق عهد المستظهر بالحروب الداخلية المستمرة الى ان وافته المنية سنة ١١٠٥. فقد حارب عمّه تكَش ابن ألب ارسلان في شمال الموصل سنة ١٠٩٦ وبعدما انهزم امامه عاد بعد سنة وتغلب على عمه وقتله. ثم قاتل عمه ارسلان ارغون واستولى على خراسان وسلمها لاخيه سنجار. ثم تقاتل مع اخيه محمد عام ١١٠٣ قرب همدان فانهزم بركياروق وصارت خطبة الجمعة تقام باسم محمد. ثم عاود الاخوان الاقتتال بعد سنة فتغلب بركياروق وسار السلطان محمد الى اخيه سنجار في خراسان وهما من ام واحدة فزحف الاخوان على بغداد عام ١١٠٤. بعدها جرت المصالحة بين بركياروق واخيه محمد على ان يكون لمحمد ديار بكر والجزيرة والموصل والشام وبعض العراق. وعادت الخطبة في بغداد لبركياروق الذي توفي في السنة ذاتها.

في تلك السنين استفحلت الحركة الاسماعيلية في خراسان بسبب انشغال السلاطين عنهم بالاقتتال فيما بينهم. ولم يتمكن السلاجقة من التغلب على الاسماعيلية الذين تحصنوا في قلعة ألاموت وهددوا منها الولايات الشرقية حتى انهم اغتالوا الوزير نظام الملك عام ١٠٩٢.

وقد حاول السلطان محمود القضاء على الحسن الصباح فارسل امراءه يحصارون القلعة بعدما استولوا على عدة قلاع للباطنية لكن محمد توفي اثناء الحصار فانفض عسكره ونهب الباطنية ارزاقهم.

اما السلطان سنجار فقد كان اخر سلطان سلجوقي قوي في ايران وخراسان وقد حكم من ١١١٨ الى ١١٥٧ لكنه فشل في النهاية بصد القبائل التركية الزاحفة من تركستان التي اعتقلته عام ١١٥٣ وابقته اسيرا حتى وفاته.

الخليفة المسترشد (١١١٨-١١٣٥)

هو ابن المستظهر تولى الخلافة بعد موت ابيه. وفي عهده قامت الحرب بين السلطان محمود واخيه السلطان مسعود الذي كانت له الموصل واذربيجان.

في ذلك الزمن عظم امر الاسماعيلية في بلاد الشام وقويت شوكتهم وملكوا قلعة بانياس عام ١١٢٦.

شعر الخليفة المسترشد بضعف السلاطين وانقسامهم فبدأ يسعى لاستعادة مكانة الخلافة. وتابع مسعاه الخلفاء بعده حتى تخلصوا من بني سلجوق في عهد المنتصر وان ادت مساعي بعض الخلفاء الى مصرعهم.

فقد وقع خلاف بين الخليفة والسلطان محمود وكانت البلاد في حالة فقر شديد، فسار محمود وحاصر بغداد وبعد مناوشات تصلح الفريقان. ثم وقعت الحرب بين الخليفة والسلطان مسعود في همدان وكان قد خلف اخاه محمود فانتصر السلطان مسعود واسر الخليفة وقتله. وقيل انه وضعه في خيمة فدخل عليه جماعة من الباطنية وقتلوه. وكان المسترشد اول خليفة منذ العهد التركي يجند جيشاً ويقوده محاولا تثبيت سلطة الخلافة.

الخليفة الراشد (١١٣٥-١١٣٦)

بعد مقتل المسترشد بايع السلطان مسعود والاخرون الراشد ابن المسترشد بالخلافة ثم ارسل اليه السلطان يطالبه بما كان استقر على المسترشد من المال وهو اربعماية الف دينار سنويا. فقال الراشد ان ليس عنده شيء من ذلك وان المال كله كان عند المسترشد وقد نُهب حين مقتله. فزحف السلطان مسعود على بغداد وجمع العلماء فخلعوا الخليفة وكان موجودا في الموصل عند اتابك زنكي حاكم المنطقة.

بعد خلعة انتقل الراشد الى اصفهان حيث وثب عليه نفر قيل انهم من

الباطنية وقتلوه.

الخليفة المقتفي (١١٣٦-١١٦٠)

هو محمد ابن المستظهر تصالح مع السلطان مسعود وتزوج اخته فاطمة. في زمنه ثار العيارون في بغداد وفتكوا بالبلد ونهبوا الاموال وقُتل كثير من السكان. عند وفاة السلطان مسعود عام ١١٥٢ ضعفت قوة السلاطين فتمكن المقتفي من استعادة بعض سلطة الخلافة الزمنية بالاضافة الى سلطتها الدينية.

خلف المقتفي ابنه المستنجد (١١٦٠-١١٧٠) ثم حفيده المستضيء (١١٧٠-١١٨٠) اللذان تابعا سياسته. وفي زمن المستضيء تمكن صلاح الدين الايوبي من القضاء على الدولة الفاطمية في مصر وسوريا وصار اسم المستضيء يُعلن في خطبة الجمعة من مصر الى ايران.

الدور الخامس العباسي (١١٩٤-١٢٥٨)

الخليفة الناصر (١١٨٠-١٢٢٥)

هو ابن الخليفة المستضيء تولى الخلافة في اخر مراحل انهيار الحكم السلجوقي وتابع محاولة سلفانه باستعادة السلطة السياسية التي اغتصبها السلاطين فشكا القواد من هذه المحاولة وخاطبوا الشعب قائلين حسب رواية المؤرخ الفارسي الراوندي : "بما ان الخليفة هو الامام فان الصلاة يجب ان تكون شغله الدائم. فالصلاة هي اساس الايمان وافضل الاعمال، ومقام الخليفة الديني يفوق كل ما عداه وهو يشكل قدوة للناس. هذه هي السيادة الحقيقية ويجب ان يكتفي الخليفة بها. اما تدخله بشئون الحكم فليس له معنى ويجب ان يترك ذلك للسلاطين". (١٩)

لم يكترث الخليفة الناصر لهذا الاعتراض. فحرّض الامير تكَش حاكم خوارزم (١١٧٢-١٢٠٠) على مهاجمة السلاجقة فاستجاب الى طلبه وانتصر على طغرل بك الثالث عام ١١٩٤ وبذلك انتهى امر السلاجقة في العراق وكردستان.

ربح الخليفة الناصر من هذه الحرب مقاطعة خوزستان ومناطق ايرانية

اخرى بالاضافة الى التخلص من سيطرة سلاطين آل سلجوق. لكنه لم يلبث ان وجد نفسه مضطرا لمقاومة مطامع حليفه الجديد الذي اراد ان يفرض وصايته على الخلافة. فقد طلب الامير تكَش قبل وفاته عام ١٢٠٠ ان يُذكر اسمه في خطبة الجمعة مع الخليفة الناصر. ولما رفض الناصر طلبه سيّر عليه حملة عام ١١٩٦ وهزمه.

خلف علاء الدين محمد والده تكَش (١٢٠٠-١٢٢٠) وتابع فتوحاته فاستولى على القسم الاكبر من فارس واحتل بخارى وسمرقند وغزنة. وكرر على الناصر طلب والده فرفض ثانية. وفي سنة ١٢١٧ سار علاء الدين قاصدا بغداد ومصمما على انهاء الخلافة العباسية وتنصيب خليفة علوي (٨٠) لكن جيشه تحطم في معركة مع الاكراد. ويقال ان الناصر كان التمس مساعدة جنكيز خان ضد شاه خوارزم لكن خطر خوارزم على الخلافة انتهى لما قضى جنكيز خان على مملكتهم عام ١٢٢٠.

قضى الناصر اعوامه الاخيرة في خوف مستمر من الزحف المغولي المتّجه شرقا.

بعد وفاة الناصر (١٢٢٥) توالى على الخلافة ثلاثة خلفاء هم ابنه الظاهر (١٢٢٥-١٢٢٦)، والمستنصر ابن الظاهر (١٢٢٦-١٢٤٢) وكان المغول قد بلغوا سامراء في تقدمهم فاستولى الذعر على اهالي بغداد لكن الخطر توقف عنهم حينا.

خلف المستعصم اباه المستنصر (١٢٤٢-١٢٥٨) فطلب منه هولاكو خان ان يستسلم فرفض فحاصر بغداد سبعة اسابيع ودخّلها عنوة في ١٠ فبراير ١٢٥٨. فقتل المستعصم وثلاثماية من اهله ونهب بغداد ودمرها. فكانت نهاية فاجعة للخلافة العباسية واصبح الاسلام دون خليفة.

بعد مقتل المستعصم بقي الاسلام ثلاث سنين بدون خليفة. يقول الشيخ علي عبد الرازق : "كان الملْك في مصر يومئذ للسلطان الظاهر بيبرس وهو من السلالة الشركسية، ولامر ما اخذ ينبش بين مصارع العباسيين حتى وقع على رجل زعموا انه من فلول الخلافة العباسية، فانشأ منه بيتا للخلافة في مصر وحمل المسلمين على ان يدينوا للخليفة الجديد ولمن يليه، في حين حصر السلطان المملوكي أزمّة الحكم في يده. ثم كانت تلك سنّة الملوك

الجراكسة في مصر بعد الملك الظاهر الى ان اخذ الخلافة الملوك العثمانيون عام ١٥١٧". (٢١)

السلاجقة والحروب الصليبية

تعطينا الحروب الصليبية دليلا على حالة الشعور الاسلامي لدى سلاطين آل سلجوق وتفضيلهم الحرب مع منافسيهم من اقربائهم على الجهاد في سبيل الدين. فلما احتل الصليبيون القدس عام ١٠٩٩ جاء وفد من الشام يستغيث بخليفة المسلمين المستظهر ويحثه على الجهاد فاحالهم إلى السلطان بركياروق لانه لم يكن بيده شيء من امور الخلافة. لكن بركياروق كان منشغلا بالحروب مع اعمامه واخوته فلم يهتم بالغزو الصليبي.

وفي سنة ١١٠٨ في عهد السلطان محمد ابن ملكشاه والخليفة المستظهر احدق الفرنج بطرابلس فسار وفد من اهلها الى بغداد يحثون الخليفة والسلطان على الجهاد فلم يلتفت اليهم احد:

بعد ثلاث سنوات نهب الصليبيون مراكب لتجار من حلب واخذوها بمن فيها فسار وفد من حلب الى بغداد طالبين النجدة وقابلوا الخليفة والسلطان دون طائل. (٢٢)

انحصرت مساهمة السلاجقة في تلك الحرب بأنه عندما عيّن السلطان محمود، عماد الدين زنكي واليا على الموصل وشمال العراق دشّن سلسلة من الاحداث أدّت الى التغلب على الصليبيين وان لم يتوقّع هو نتائجها.

إذ أنه عند وفاة رضوان امير حلب عام ١١١٣ ضمها عماد الدين الى ممتلكاته واسس سلالة جديدة عام ١١٢٨. وبعد وفاته خلفه ابنه نور الدين محمود (١١٤٦-١١٧٤) الذي عاصر السلطان محمود السلجوقي والخلفاء المقتفي والمستنجد والمستضيء.

أهمية نور الدين انه حارب الصليبيين وعيّن صلاح الدين أيوب قائدا للجيوش فقضى على الدولة الفاطمية وتغلّب على الصليبيين. وبعد وفاة نور الدين زنكي استقل صلاح الدين بمصر وأسس فيها الدولة الأيوبية على عادة ولاة تلك الايام.

دور الاتابك

ذكرنا ان من اسباب الانهيار السريع للدولتين البويهية والسلجوقية عادتهم بتوزيع المقاطعات على الاخوة والابناء فتنشأ دويلات وسلطنات عديدة مستقلة غالبا ما تتحارب فيما بينها.

وقد اضاف آل سلجوق الى هذه العادة انهم كانوا يعيّنون اولادهم الصغار امراء على المناطق ثم يعينون لهم مرشدين معظمهم من العبيد الاتراك والتركمان يدربونهم ويديرون الامور عنهم الى ان يبلغوا سن الرشد وكانوا يسمّون هؤلاء المرشدين "اتابك".

لم يطل الوقت على هؤلاء "الاتابك" حتى استطابوا الحكم فازالوا السلطان الصغير واسسوا سلالات استقلت بحكم المناطق وعرف عهدهم بعهد "الاتابك" فازداد التفكك في الدولة السلجوقية.

مصائر الخلفاء العباسيين

استعرضنا في الصفحات السابقة الادوار الاربعة التي مرت بها الخلافة العباسية واحوال الخلفاء التسع والثلاثين الذين تعاقبوا على الحكم خلال خمسماية وثمانية اعوام من قيام الدولة العباسية عام ٧٥٠ الى ان قضى عليها هولاكو خان المغولي عام ١٢٥٨ وغايتنا من ذلك ان نتبيّن النظرية السياسية التي تصرّف هؤلاء الخلفاء بموجبها خلال ذلك الزمن الطويل.

لا شك ان مصير الخلفاء يعطي اشارة واضحة عن طبيعة النظرية السياسية التي قادت خطاهم وعن صلاحها لمعالجة الاحداث التي صادفوها.

في الدور الاول الذي سميناه الدور الفارسي تعاقب تسع خلفاء ابتداءً بابي العباس السفاح وانتهاءً بالواثق. من هؤلاء قُتل اثنان : قُتل موسى الهادي الخليفة الرابع، قتلته والدته الخيزران لما اراد حرمان اخيه هارون من ولاية العهد. وقُتل محمد الامين ابن هارون، الخليفة السادس للسبب نفسه اذ اراد حرمان اخيه المأمون من ولاية العهد كما اوصى والدهما هارون.

اما في الدور العباسي الثاني الذي سمّيناه الدور التركي فقد تعاقب ثلاث عشرة خليفة ابتداءً من المتوكل وانتهاءً بالمتقي.

من هؤلاء عشر خلفاء قُتلوا او خُلعوا او سُمِلَت عيونهم وأُلقوا في الشوارع يستعطون، واليكم التفصيل.

الخليفة العاشر المتوكل ابن المهدي قتله ابنه المنتصر بالتعاون مع القواد الاتراك.

الخليفة الحادي عشر المنتصر الذي قتل والده، خلعه القواد الاتراك بعد سنة.

الخليفة الثاني عشر المستعين ابن المعتصم اجبره القواد الاتراك على خلع نفسه ومبايعة المعتز ابن المتوكل الذي بادر الى قتله.

الخليفة الثالث عشر المعتز ابن المتوكل قبض عليه الجند فخلع نفسه واستخلف المهتدي ابن الواثق. وبعدما فعل ذلك ضربوه ثم قتلوه.

الخليفة الرابع عشر المهتدي ثار عليه الاتراك واحضروا ابا العباس احمد ابن المتوكل وكان محبوساً فبايعه الناس وقتلوا المهتدي ثاني يوم البيعة.

الخليفة الثامن عشر عبد الله ابن المعتز تولى الخلافة ليوم واحد ثم قُتل.

الخليفة التاسع عشر المقتدر ابن المعتضد قتله أمير الأمراء مؤنس المظفر وهو عبد خصيّ عيّنه المعتز.

الخليفة العشرون القاهر ابن المكتفي واخو المقتدر غضب عليه القواد الاتراك فخلعوه وسَمَلوا عينيه فصار يستعطي في شوارع بغداد.

الخليفة الواحد والعشرون احمد الراضي ابن القاهر قتله الجند.

الخليفة الثاني والعشرون المتقي ابن القاهر عُزل وسَمَل القواد عينيه.

في الدور العباسي الثالث اي دور آل بويه تعاقب أربع خلفاء هم المستكفي والمطيع والطائع والقادر. اما الخليفة القائم فقد انهى عهده في ظل آل سلجوق.

من هؤلاء، أمر امير الامراء معز الدولة البويهي بعزل المستكفي الخليفة الثالث والعشرين وسمل عينيه.

الخليفة الخامس والعشرون الطائع قبض عليه بهاء الدولة وخلعه ونصّب مكانه القادر ابن المتقي.

اي انه من اربع خلفاء عزل آل بويه وقتلوا اثنين.

في الدور العباسي الرابع اي دور آل سلجوق تصرف السلاطين باحترام وتقدير اكبر للخلفاء وقد توالى منهم تسع ابتداءً بالقائم وانتهاءً بالناصر.

من هؤلاء قتل السلطان مسعود السلجوقي الخليفة المسترشد وابنه الخليفة الراشد. وكانت الدولة السلجوقية قد شارفت على الافول.

وكان المستعصم اخر خلفاء بني العباس وقد قتله هولاكو خان لما احتل بغداد عنوة.

خلاصة هذا العرض انه من تسع وثلاثين خليفة قُتل او عُزل او سُمِلَت عيون سبع عشرة خليفة اي نسبة ٤٢،٥ بالماية. ونادرا ما حصل هذا في تاريخ الشعوب. فما هي النظرية السياسية التي سادت المجتمع الاسلامي وسمحت بحدوث هذه الاحوال؟

لنستمع الى الفقيهين ابي الحسن الماوردي (٩٧٤-١٠٥٨) وابي حميد الغزالي (١٠٥٨-١١١١) اللذين عاصرا تلك العهود وبرّرا هذه الوقائع.

النظرية السياسية لابي الحسن الماوردي

ابو الحسن الماوردي (٩٧٤-١٠٥٨) فقيه شافعي عاصر عهد آل بويه بكامله اذ عاش اربعة وثمانين عاما وتولى لديهم مناصب قضائية وسياسية، وتنقّل في مدن الخلافة واطّلع على احوالها ثم استقر في بغداد وعايش القتال المتكرر بين السنة والشيعة، وشاهد فتن الدعاة الاسماعيليين واستفحال امرهم في مختلف انحاء الخلافة، ورأى الحنابلة يقاتلون الاشاعرة ويضطهدونهم، واطلع على سوء الاحوال الاقتصادية في المدن والريف، وفقدان انضباط القواد والجند وسطوتهم على الاهالي وعجز الخليفة والسلاطين عن حفظ الامن حتى صار العيارون والشطار يفرضون الضرائب على السكان وينهبون ويسرقون علانية دون رادع. ورأى القتال يدور بين السلاطين فيغزو بعضهم بعضا فتبور الزراعة وتهدم القرى وتتعطل التجارة. ولم تكن هذه احداثا عابرة بل تلازمت مع عصر بني بويه بكامله.

كان ابو الحسن مطّلعا ايضا على احداث الدور التركي السابق حيث

قتل القواد الاتراك والجند او عزلوا عشر خلفاء من مجموع ثلاث عشرة خليفة ولم يشابه هذا الوضع المضطرب الا مقتل ثلاث خلفاء راشدين من اصل اربع.

بالاجمال، تميّز العصر الذي عاش فيه الماوردي بانتشار الفوضى والاضطراب الداخلي، وبنشاط الدعوة الاسماعيلية المحلية والوافدة من مصر. فكيف عالج ابو الحسن الماوردي هذه الاوضاع في نظريته السياسية التي يتضمنها كتابه "الاحكام السلطانية".

ينطلق الماوردي من الفكرة بان الخلافة واجبة شرعا لانها "خلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا" فلا يجوز ان يوجد مجتمع اسلامي دون امام. واهم ما شغله هو الحفاظ على وحدة "الامة الاسلامية" التي ترتبط برباط ديني – اخلاقي تمثله الشريعة وتجسده الامامة الجامعة. لكنه اصطدام بواقع قائم فالامامة في عهده لم تعد جامعة اذ وُجد في زمنه ثلاث خلفاء متعادين : عبد الرحمن الثالث الاموي في اسبانيا وخلفاؤه، والمعز لدين الله الفاطمي في مصر وخلفاؤه، والخلفاء العباسيون في المشرق. وكان هدف الفاطميين الاول تهديم العباسيين باعتبارهم اغتصبوا الخلافة من آل البيت اصحابها الحقيقيين.

وواقع اخر هو ان وحدة الامة الاسلامية كانت مفقودة ضمن الخلافة العباسية نفسها. فكيف يمكن الكلام عن "الخلافة الجامعة للامة الاسلامية" وقد اصبح الامام الخليفة موظفا متواضعا يُعيّن ويُعزل ويُقتل بمشيئة السلطان الاعتباطية. واين الوحدة في بلاد يتناتشها السلاطين ويقتسمونها ويتحاربون عليها فتسيل دماء الاهالي المساكين وتتلف مزروعاتهم وتُنهب اموالهم ومتاجرهم وتُحرق بيوتهم، ويطبّق كل سلطان في منطقته ما شاء من التدابير والاجراءات الاعتباطية، في حين يقف الخليفة، المسئول شرعا عن حفظ البلاد وصيانة العباد، متفرجا لا يملك من أمره شيئا؟

لقد رجع ابو الحسن الماوردي الى نظرية الخلافة التي شرحناها بتفصيل في الفصل الثالث فقال ان الخلافة تاتي باسلوبين : بالاستخلاف اي ان يسمي الخليفة من يريد ان يخلفه، او باختيار "اهل الحل والعقد" الذين يسميهم "اهل الاختيار".

بعد المرحلة الاولى التي هي اما الاستخلاف او الاختيار، يشدّد ابو الحسن الماوردي على الخطوة الثانية وهي "البيعة" فيقول : "اذا اجتمع اهل الحل والعقد للاختيار وتفحصوا احوال اهل الامامة الموجودة فيهم شروطها، قدموا للبيعة منهم اكثرهم فضلا واكملهم شروطا ومن يسرع الناس الى طاعته ولا يتوقفون عن بيعته" (٢٢).

بعدها تجري البيعة اي ياتي الناس ليعلنوا موافقتهم على من اختاره "اهل الحلّ والعقد"، او على الذي استخلفه الخليفة السابق فتصبح البيعة ملزمة للشعب، وطاعة الخليفة واجبة عليه في كل امر مهما بلغ ظلمه الا اذا خرج عن الدين (راجع موضوع الطاعة في الفصل الثالث).

لقد شاهد الماوردي قتل خليفة وعزل خليفة اخر قبل ان يستخلفا احدا. فقد قتل السلطان معز الدولة (٩٤٦) الخليفة المستكفي ونصّب بعده الخليفة المطيع. ثم شاهد السلطان بهاء الدولة يخلع الخليفة الطائع وينصّب الخليفة القادر. وكان الحدثان فرصة نادرة ليخبرنا الماوردي عن وضع نظريته موضع التطبيق فيما يتعلق بدور "اهل الحل والعقد" في اختيار الخليفة الجديد وتنصيبه. فمن هم الذين شكلوا اهل الحل والعقد في عهدي السلطانين معز الدولة وبهاء الدولة حين تنصيب الخليفة المطيع ثم الخليفة القادر، وكم كان عددهم، وهل مثلوا مختلف المناطق والمذاهب، ومن دعاهم للاجتماع، واين اجتمعوا، وما هي اسماء الذين كانوا صالحين لمنصب الخلافة واستعرضوهم ثم اختاروا منهم المطيع وبعده القادر، وما كان مدى حرية "اهل الحل والعقد" واستقلالهم في اختيار الاصلح للخلافة، وهل كان للسلطان البويهي دور في هذا الاختيار، وكيف تم الاختيار : بالاكثرية ام بالاجماع ام باسلوب اخر، اي كيف كانت آلية عمل "اهل الحل والعقد". وكيف كان المجتمعون يفضّون خلافاتهم اذا حصلت؟

غريب ان يسكت الماوردي عن ايراد هذه التفاصيل في حين انه يجعل "اهل الحل والعقد" الركن الاساسي في نظريته السياسية ويبني عليها شرعية الامامة كوكالة عن الامة الاسلامية.

تفسير ذلك ان نظرية "اهل الحل والعقد" نظرية خيالية وهمية ليس لها سند في الواقع الاسلامي ولم يلتفت اليها السلطانان معزّ الدولة وبهاء الدولة

او غيرهما من الخلفاء والسلاطين. واذا استثنينا اللجنة التي جمعها الخليفة عمر بن الخطاب ورتبها بشكل يستبعد حصول علي بن ابي طالب على الخلافة (راجع الفصل الرابع)، لا نجد في التاريخ الاسلامي ذكراً لاجتماع "اهل الحل والعقد" في اي عهد قديم او حديث. اما البيعة فلم تكن الا تغطية لامر واقع وهو سوق الناس الى اظهار القبول بمن تسلّط على الحكم والخلافة.

اما قول بعض الكتاب "بان البيعة عقد وكالة بين الامة وحاكمها المنتخب، وانه عقد مشروط خاضع لرقابة الاصيل" فليس اكثر من تخريج فقهي استخدمه المحدثون لتقريب الممارسة الاسلامية من النظرية الديمقراطية المعاصرة وهي محاولة ليس لها اساس في التاريخ الاسلامي. فاين الترتيب الدستوري الذي ينظم مراقبة الامة لتصرّف خلفائها وحكامها، ومن هم المراقبون، وكيف يمارسون عملهم، وكيف ينفذون قرارهم على الحاكم الذي يخالف شروط العقد. ليس في الشريعة او في التعامل شيء من ذلك. وقد رأينا كثيرا من الخلفاء والحكام يُقتلون ويُعزلون على اثر ثورات دينية ومذهبية وحروب وفتن داخلية، على يد سلاطين وقواد وجند، لكننا لم نسمع او نقرأ انه وجدت مؤسسة سياسية مكلّفة بمراقبة الحكام وتنفيذ شروط البيعة لو كانت البيعة تعني حقيقة "عقد وكالة مشروط بين الامة وحاكمها خاضع لرقابة الاصيل".

مما ليس له تفسير في نظرية ابي الحسن الماوردي ايضا غياب اي بحث يتعلق بتنظيم انتقال السلطة من خليفة الى اخر، ومن سلطان الى خلفه مع انه عاش في عصر مضطرب تحمّل الويلات من تقاتل السلاطين وتنازعهم على الحكم. فكيف يمكن لنظرية سياسية ان تُغفل موضاعا خطيرا كهذا وكأن الماوردي اعتبر الفوضى التي رافقت ولاية الخلفاء والسلاطين على مدى العصور قضاءً منزلا لا راد له وتعاملا اسلاميا طبيعيا.

ولا نرى الماوردي اهتم بالتناقض القائم بين خليفة سني وسلاطين شيعة كل منهم يعمل لتغليب مذهبه.

لقد اراد الماوردي من بحثه، وهو موظف لدى سلاطين آل بويه، ان يوفّق بين نظرية الخلافة الجامعة التي لم يعد لها وجود والمتمثلة بشخص الخليفة (الذي فقد عمليا كل سلطة)، وبين السلطة الفعلية التي اغتصبها

السلاطين ومارسوها مستقلين في مناطقهم يصدرون اوامر وقرارات تتعلق بحياة الناس بما يوافق مصالحهم ويعزز نفوذهم وقوتهم. اما الشريعة فاصبحت مبدأ سلبياً بمعنى ان الحاكم كان يحاول ان لا يخالف اوامرها لكنه لم يعد يقتدي في سلوكه بتعاليمها اذا حالت دون تحقيق مطامعه. فباي حق اذن يحكم السلاطين "الامة الاسلامية" او اجزاء منها؟ واذا كانوا مغتصبين لهذا الحكم فهل يعني ذلك ان الامة الاسلامية التي اسسها الرسول لم يعد لها وجود؟

هذا ما اراد الماوردي وبعده ابو حميد الغزالي تلافيه. فقال الماوردي ان باستطاعة الخليفة تفويض سلطته الى امير. وهذا التفويض قد يجري رضائيا او نتيجة اغتصاب وتسلط يستولي بواسطته السلطان على الحكم فيقبل الخليفة بالامر الواقع ويعترف بالسلطان. والغرض من ذلك المحافظة على الاساس القانوني والشرعي للحكم الواقعي بكونه مستمداً من الخليفة الذي يحتفظ نظريا بسلطاته السياسية والادارية وان توقف عن ممارستها عمليا.

مقابل هذا التفويض يتوجب على السلطان ان يعترف بضرورة استمرار الخلافة، وان يظهر طاعته للخليفة، وان يحافظ على الشريعة ويطبق احكامها. ولم يلتفت الماوردي الى تناقض هذه النظرية الوهمية مع الواقع الحقيقي بان السلطان هو الذي كان يعيّن الخليفة ويقتله ويعزله ولم يكن يحتاج الى تفويضه ليتولى السلطة.

لقد جعل الماوردي محور نظريته حضّ الناس على طاعة الخليفة والسلاطين مهما اساءوا إلاّ ان يخرجوا عن الدين. وهو بذلك يتابع الفكر الاسلامي الذي شرحناه في الفصل الثالث وسردنا الآيات والاحاديث التي تدعو الى الطاعة. وقد استمر الفقهاء يدعون الناس الى ذلك في مختلف العهود حتى رسخت الاستكانة في النفوس وساد الاعتقاد لدى المؤمنين ان سلطة الحاكم المسلم ضرورة ارادها الله بصرف النظر عن كيفية حصوله عليها او طريقة ممارستها. ولا نعلم هل قال الفقهاء بذلك عن قناعة ام تزلفا لاصحاب السلطان فقد توالى على المسلمين خلفاء وسلاطين كان يجب ان تكون مقاومتهم لا طاعتهم واجباً دينيا.

من مظاهر هذه الاستكانة والتقيّة التي عمّت بين الناس بعض الاقوال

الشائعة في البلاد الشامية مثل : "كل من اخذ امي صار عمي"، و"اليد التي لا تقدر عليها، بوسها وادعي عليها بالكسر".

مقابل هذا الحضّ على الطاعة المطلقة يدهشنا في النظرية السياسية الاسلامية غياب اي بحث في حريات الناس وحقوقهم وكيفية صيانتها والمحافظة عليها تجاه ظلم الخلفاء والحكام وتعسفهم. وما اكثر ما تعسّف الحكام وظلموا وقتلوا وصادروا.

في عهد الماوردي والغزالي ظهر فن كتابي جديد في تآليف تقدم نصائح عملية للحكام. فكتب "الاحكام السلطانية" و"قوانين الوزارة وسياسية الملك"، و"نصيحة الملوك" للماوردي تبحث في تنظيم الدولة الاداري اكثر مما تبحث في النظرية السياسية ومع ذلك اعتبرها الباحثون كتباً سياسية. ومثل ذلك كتاب "نصيحة الملوك" للغزالي وغني عن القول ان "النصائح للحكام" التي تضمنتها هذه الكتب بقيت طوباوية كالخطب التي تُلقى في اماكن العبادة يسمعها الناس ويُعجَبون بها لكن قلّ من يعمل بموجبها.

نظرية ابي الحميد الغزالي (١٠٥٨-١١١١)

من غرائب الصدف ان ابا الحميد الغزالي وُلد في العام الذي توفي فيه ابو الحسن الماوردي وكان ذلك في عهد آل سلجوق السنّة. عاصر الغزالي السلاطين ملكشاه ابن ألب ارسلان، وبركياروق ابن ملكشاه، واخاه محمداً، وعاصر الخلفاء القائم والمقتدي والمستظهر. ويُعتبر الغزالي المنظّر السياسي لآل سلجوق. وقد ذكرنا شيئا عن سيرته في الفصل السادس.

من مؤلفاته : احياء علوم الدين، وتهافت الفلاسفة، والاقتصاد في الاعتقاد، ونصيحة الملوك، التي سار فيه على منوال الماوردي في وعظ الحكام عن طريقة الحكم الفضلى.

اكد الغزالي كالماوردي ان وجود الامامة ضرورة للمسلمين، وان اهم واجبات الامام هو تطبيق الشريعة لانها الرباط الذي يجمع الامة الاسلامية ويوحّدها وينظم حياتها الدينية والزمنية ويضمن لها السعادة في هذه الدنيا والآخرة. وقال ان السلطة في الامة الاسلامية هي ولاية من الله خاضعة لمشيئته

وهذا يستتبع وجود امام مطاع. اما من يكون، وما هي صفاته، وكيف يستولي على السلطة فان الغزالي، تمشيا مع ظروف عصره وسيطرة السلاطين على الخلفاء، اعتبر كل ذلك امورا ثانوية وافتى بانه يمكن التخلي عن شروط الفقهاء السابقين المتعلقة بصفات الامام وطريقة تنصيبه وضرورة ان يكون تقيًا عادلا نزيها اذا كان التمسك بهذه الشروط يؤدي الى اختلاف الامة. بذلك اصبحت الشرعية تحتاج الى شرطين فقط : حيازة الامام على قوة عسكرية كافية تمكنه من القبض على السلطة والبقاء فيها، وان يكون مسلما. اما درجة تمسكه بالاخلاق الاسلامية فمتروك للغيب. واعلن الغزالي ايضا ان الضرورة تضفي الشرعية على ما كان يعتبر في الاحوال العادية غير شرعي، كما قال ان اية امامة هي افضل من غيابها، واية سلطة افضل من توزع الاراء (٢٤). اما بالنسبة للحكم السياسي فقال ان اي حاكم، ولو كان مغتصبا للحكم بقوة السلاح والتآمر ومهما كان مصدر سلطته، فهو افضل من الفوضى التي تنشأ في حال غيابه. (٢٥)

ان اخشى ما يخشاه الغزالي على الامة الاسلامية هو توزع الاراء وتنازعها واختلافها وانقسامها. ولتدارك ذلك يرضى لها ان يحكمها حاكم ظالم ومغتصب. لكن الغزالي عاصر السلطان بركياروق (١٠٩٢-١١٠٥) وشاهد حروبه مع اخوته واعمامه وادرك ان السلاطين الذين يدعو المسلمين الى طاعتهم طاعة مطلقة تجنبا للخلاف كانوا هم اكبر مصدر لاختلاف الآراء وتفكك الامة وانتشار الفوضى وفقدان الامن، فكيف يوفق بين نظريته وبين الواقع الذي عاشه؟

اما في موضوع الطاعة للحكام فقد ذهب الغزالي الى ابعد مما قاله الماوردي. فقد دعا الى طاعة الحاكم الظالم وعدم جواز عزله اذا كان ذلك يؤدي الى اختلاف الاراء والنزاع. فالاساس عنده ان تبقى الامة ساكنة راضية قانعة بما يحلّ بها من خلفائها وسلاطينها لا تحرك ساكنا لئلا تتنازع وتتفرق ففي ذلك كل البلاء حسب رأيه. لكنه حاول ان يغطّي إلحاحه على الطاعة والاستكانة المطلقة بنصيحة لا تؤذي السلاطين والخلفاء فقال انه على المسلم ان يتجنب صحبة الحكام الظالمين، ويجب عليه ان يوبخهم بالكلام اذا كان ذلك لا يجلب عليه مضرة، او بالسكوت اذا كان الكلام يمكن ان يحرض

على الاضطراب والثورة. فوضَع السلامة الشخصية فوق مبدأ مقاومة الظلم. اما العمل على ازالة حاكم جائر واستبداله بحاكم عادل فيبدو من فحوى تعاليم الغزالي انه أمر مرذول.

لما صعب على الغزالي الادعاء بان السلطان السلجوقي يستمد سلطته من الخليفة في حين كان السلطان هو الذي يعيّن الخليفة ويعزله، فانه طلع بالنظرية القائلة بان وجود سلطان قوي الى جانب خليفة ليس له شيء من السلطة هو ضمانة لتمكين الخليفة من الدفاع عن الاسلام ونشره في العالم. وهذا منطق غريب : يريد خليفة ضعيفا والى جانبه سلطان قوي لكي يتمكن السلطان الضعيف من الجهاد ونشر الاسلام بواسطة السلطان المغتصب، فما الحاجة الى الاثنين معاً؟ ولماذا لا يكتفي بسلطان قوي يتولى الجهاد. بل لماذا لا يدعو المسلمين الى تنصيب خليفة قوي دون حاجة الى سلاطين. لعله ادرك ان الدعوة الى الطاعة المطلقة حتى للحكام الظالمين قتلت في نفوس المسلمين حافز الانتفاض على الظلم وامكان قيامهم بتنصيب خليفة قادر.

لقد عاصر الغزالي الحروب الصليبية مدة ستة عشر عاما ايام السلطانين بركياروق واخيه محمد فلا نراه حثّهما على الجهاد، كما لا نرى هذين السلطانين القويين قد ساعدا الخليفة المستظهر او المسترشد على القيام باولى واجباتهما وهو الجهاد ضد الغزاة الصليبيين حسب نظرية الغزالي القائلة ان السلطان القوي هو ضمانة لتمكين الخليفة من الدفاع عن الاسلام ونشره، بل نراهما انشغلا بالحروب بين بعضهما، ثم حارب السلطان محمود الخليفة المسترشد بدلا من ان يساعده على محاربة الصليبيين. وخلفه اخوه السلطان مسعود الذي حارب الخليفة الراشد ايضا وقتله، ولم يلتفت الى واجب الجهاد فانهارت نظرية الغزالي في الواقع العملي.

نظرية بدر الدين ابن جماعة (١٢٤١-١٣٣٣)

مع بدر الدين ابن جماعة نخرج من العصر العباسي ونتابع تطور النظرية السياسية الاسلامية في العهد اللاحق وهو عهد المماليك (١٢٥٠-١٥١٧). والمماليك، كما يدل اسمهم، جنود من العبيد الاتراك والشراكسة، قتلوا خليفة الملك الصالح ايوب عام ١٢٤٩ وعيّنوا احدهم سلطانا مكانه. ثم نقلوا الى

القاهرة احد العباسيين الذين نجوا من فتك هولاكو خان لما احتل بغداد (١٢٥٨) واعلنوه خليفة عام ١٢٦١ أملا ان يكسبهم الخليفة العباسي شرعية للحكم الذي اغتصبوه.

مع المماليك سقط كل ادعاء ان السلطة تنتقل بطريق "الاستخلاف" او باختيار "اهل الحل والعقد"، وصارت القوة العسكرية المجردة من اية تغطية شرعية هي التي توصل القائد الى الحكم ويبقى فيه الى ان يقوم قائد اخر يجمع حوله قوة عسكرية اكبر ويغتصب السلطة بصرف النظر عن كفائته السياسية والادارية.

عالج ابن جماعة الاوضاع المستجدة في كتابه "تحرير الاحكام في تدبير اهل الاسلام" فقال ان وجود الحاكم ضرورة دينية اذ بدونه لا يوجد عدل في الارض، وهو "ظل الله" وطاعته واجبة دينا ايّما كان، اي انه لم يعد من الضروري ان يكون الخليفة من قريش.

فاذا قام من يطالب بالامامة وليس لديه الصفات اللازمة، واجبر المسلمين بالقوة وبواسطة جيوشه على الاعتراف به دون بيعة او استخلاف، فان سلطته تصبح شرعية وطاعته واجبة للمحافظة على وحدة المسلمين. وهذا واجب وان كان الحاكم شريرا. فاذا تسلط احدهم بهذا الشكل ثم قام اخر وتغلب عليه بقوة عسكرية فان طاعة الثاني تصبح واجبة ويجب ان يكون المسلمون "مع اي حاكم يستولي على السلطة". (٢٦)

كذلك لم يعد من الضروري الاهتمام بكيفية وصول الحاكم الى السلطة بالاختيار او بالاغتصاب فطاعته واجبة في الحالتين حتى تبقى الامة متماسكة ومتضامنة. واذا استولى سلطان على بلاد بالقوة فعلى الخليفة ان يفوّض اليه الامور وان يدعو الرعية لطاعة الحاكم الجديد لئلا تنقسم الامة وتضعف. فاذا اخطأ السلطان وظلم فلا يجوز خلعه لئلا تضطرب الامة (٢٧).

هذه النظرية، كما نرى ، هي خطوة اوسع، بعد الماوردي والغزالي، في تبرير الحكم العسكري الاغتصابي القائم على القوة المادية مجردا من أي سند شرعي او أخلاقي.

نظرية تقي الدين ابن تيمية (١٢٦٢-١٣٢٨)

ولد ابن تيمية في حرّان في العراق، ودرس في دمشق التي اتاها هربا من الزحف المغولي، وتوفي سجينا بامر من سلطان المماليك في القاهرة. ويُعتبر ابن تيميّة من اشهر الفقهاء الحنابلة وأحد المنابع الفكرية للحركة الوهابية التي قامت في الجزيرة العربية في منتصف القرن الثامن عشر.

من اهم مؤلفاته "السياسة الشرعية" و"منهاج السنّة". وقد اوردنا في الفصل الثالث بعض تعاليمه الدينية ـ السياسية ونضيف الى ذلك انه تخلّى عن ضرورة وجود امامة جامعة شاملة لجميع المسلمين، واعترف بشرعية قيام امارات متعددة تجاوبا مع مقتضيات عصره، واوصى المسلمين بوجوب طاعة حكامهم كواجب ديني حفاظا على تطبيق الشريعة، وقد سار في موضوع الطاعة على ما قاله قبله الغزالي والماوردي وابن جماعة.

* * *

ملحق الفصل

تسلسل الخلفاء العباسيين

١ ـ عبد الله أبو العباس السفاح أخو ابرهيم الامام ٧٥٠ـ٧٥٤

٢ ـ أبو جعفر المنصور أخو السفاح ٧٥٤ـ٧٧٥

٣ ـ محمد المهدي ابن المنصور ٧٧٥ـ٧٨٥

٤ ـ موسى الهادي ابن المهدي ٧٨٥ـ٧٨٦

٥ ـ هارون الشيد ابن المهدي ٧٨٦ـ٨٠٩

٦ ـ محمد الامين ابن هارون ٨٠٩ـ٨١٢

٧ ـ أبو العباس المأمون ابن هارون ٨١٢ـ٨٣٢

٨ ـ المعتصم ابن هارون ٨٣٢ـ٨٤٢

٩ ـ الواثق ابن المعتصم ٨٤٢ـ٨٤٧

١٠ ـ المتوكل ابن المعتصم ٨٥٧ـ٨٦١

١١ ـ المنتصر ابن المتوكل ٨٦١ـ٨٦٢

١٢ ـ المستعين ابن محمد ابن المعتصم ٨٦٢ـ٨٦٦

١٣ ـ المعتز ابن المتوكل ٨٦٦ـ٨٦٩

١٤ ـ المهتدي ابن الواثق ٨٦٩ـ٨٧٠

١٥ ـ المعتمد ابن المتوكل ٨٧٠ـ٨٩٢

١٦ ـ المعتضد ابن الموفق (أخو المعتمد) ٨٩٢ـ٩٠٢

١٧ ـ المكتفي ابن المعتضد ٩٠١ـ٩٠٨

١٨ ـ عبد الله ابن المعتز تولّى الخلافة يوما واحدا ٩٠٨

١٩ ـ المقتدر ابن المكتفي ٩٠٨ـ٩٣٢

٢٠ ـ القاهر ابن المكتفي واخو المقتدر ٩٣٢ـ٩٣٤

٢١ ـ الراضي ابن القاهر ٩٣٤ـ٩٤٠

٢٢ ـ المتقي ابن القاهر واخو الراضي ٩٤٠ـ٩٤٤

٢٣ ـ المستكفي ابن المكتفي ٩٤٤ـ٩٤٦

٢٤ ـ المطيع ابن المقتدر ٩٤٦ـ٩٧٤

٢٥ ـ الطائع ابن المطيع ٩٧٤ـ٩٩١

٢٦ ـ القادر ابن المكتفي ٩٩١ـ١٠١٢

٢٧ ـ القائم ابن القادر ١٠٣١ـ١٠٧٥

٢٨ ـ المقتدي ابن القائم ١٠٧٥ـ١٠٩٤

٢٩ ـ المستظهر ابن المقتدي ١٠٩٤ـ١١١٨

٣٠ ـ المسترشد ابن المستظهر ١١١٨ـ١١٣٥

٣١ ـ الراشد ابن المسترشد ١١٣٥ـ١١٣٦

٣٢ ـ المقتفي ابن المستظهر ١١٣٦ـ١١٦٠

٣٣ ـ المستنجد ابن المقتفي ١١٦٠ـ١١٧٠

٣٤ ـ المستضيء ابن المستنجد ١١٧٠ـ١١٨٠

٣٥ ـ الناصر ابن المستضيء ١١٨٠ـ١٢٢٥

٣٦ ـ الظاهر ابن الناصر ١٢٢٥ـ١٢٢٦

٣٧ ـ المستنصر ابن الظاهر ١٢٢٦ـ١٢٤٢

٣٨ ـ المستعصم ابن المستنصر ١٢٤٢ـ١٢٥٨

مراجع الفصل السابع
السياسة في الدولة العباسية

١ ـ احمد امين، ضحى الاسلام، ج ٢، ص ٢٢.

٢ ـ حتي، فيليب، تاريخ العرب، ص ٤٠٣.

٣ ـ المصدر السابق، ص ٢٩٤.

٤ ـ المصدر السابق، ص ٢٦١.

٥ ـ المصدر السابق، ص ٢٦١.

٦ ـ المصدر السابق، ص ٢٩٤.

٧ ـ طه حسين، حديث الاربعاء، ص ٤٧٤.

٨ ـ حتي، فيليب، سبق ذكره، ص ٢٦٦ وما بعدها.

٩ ـ الطبري، ح ٣، ص ٧١٢، ٧١٣، وابن الاثير، ج ٦، ص ١٤١.

١٠ ـ حتي، سبق ذكره، ص ٢٩٤.

١١ ـ The Lands of the Eastern Caliphate, pp. 9-12

١٢ ـ حتي، سبق ذكره، ص ٢٢٢.

١٣ ـ الصادق النيهوم، صوت الناس، محنة ثقافة مزورة، ص ١٢٦.

١٤ ـ عبد الرازق، علي، الاسلام واصول الحكم، ص ٨٤.

١٥ ـ حتي، فيليب، تاريخ العرب، ص ٥٦٣.

١٦ ـ صلاح الدين بسيوني رسلان، الفكر السياسي عند الماوردي، ص ٢٠.

١٧ ـ حتي، فيليب، سبق ذكره، ص ٢٦٩.

١٨ ـ المصدر السابق، ص ٥٧٠.

١٩ ـ Lewis, Bernard, The Political Language of Islam, pp. 47, 48

٢٠ ـ حتي، فيليب، سبق ذكره، ص ٥٧.

٢١ ـ عبد الرازق، الاسلام واصول الحكم، ص ٨٥ .

٢٢ ـ حتي، فيليب، ص ٥٧٥ و ٥٧٦.

٢٣ ـ الماوردي، ابو الحسن، الاحكام السلطانية، ص ٥.

٢٤ ـ الغزالي، ابو الحميد، الاقتصاد في الاعتقاد، ص ١٠٧ و ١٠٨.

٢٥ ـ المصدر السابق، ص ١٠٥.

٢٦ ـ ابن جماعة،، بدر الدين، تحرير الاحكام في تدبير اهل الاسلام، ص ٢٧٥ .

٢٧ ـ المصدر السابق، ص ٢٦٣ و ٢٦٤.

• • •

الفصل الثامن

الفتوحات والانظمة السياسية

مقدمة

ما علاقة الفتوحات الاسلامية ببحثنا عن "النظام السياسي في الاسلام"؟

لقد رسخ في اذهان المسلمين على مدى قرون ان الاسلام الذي ينظم علاقة المسلم بربّه (العبادات)، وعلاقة المسلم بمجتمعه وبالافراد الآخرين (المعاملات)، ينظم ايضا شئون الحكم والسياسة والادارة. وهذا اعتقاد يتفق فيه اكثر المسلمين من سنّة وشيعة وقد عبّر عنه فقهاء كثيرون من المذهبين.

ان الاسلام من ناحية المعتقدات والايمان من اهم الاديان التوحيدية يمتاز ببساطته ووضوحه، وهو ككل دين يزوّد الانسان بمستوى من القيم الاخلاقية ملزمة للفرد وللمجتمع، تبيّن الصواب من الخطأ، والصالح من المنكر. وهذا واضح ومفصّل في الاسلام ومقبول من جمهرة المسلمين. وقد عمّت "الاخلاقيات الاسلامية" حتى تأثر بها السكان غير المسلمين في المجتمعات الاسلامية.

لقد تابعنا مسيرة الحكم الاسلامي خلال عهد الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين فلم نرَ الا حكما فرديا مطلقا يتصرف فيه الخليفة او السلطان بمشيئته ما دام لا يخالف احكام الشريعة، وما على الرعية الا الرضوخ والطاعة حتى للحكّام الظالمين. يقول الاستاذ سيّد قطب في ذلك وهو من زعماء "الاخوان المسلمين" في مصر : "فعلت الموجة الامويّة فعلها في تصوّر الحكم حتى انتهت به ايام العباسيين الى نظرية الحق الالهي المقدّس الذي لا يُنازَع". (١) ولربما امكن تسمية هذا الحكم المطلق باسم "الحكم بمشيئة الله" لولا ان اربابه فشلوا ايضا بوضع نظام لتسلسل الحكم وكانهم تعمّدوا ترسيخ

الفوضى في الحياة السياسية الاسلامية.

ان التاريخ السياسي للاسلام لا يقتصر على زمن الخلافة الذي استعرضناه في الفصول السابقة وشمل ادوار قوّة الخلافة وانحطاطها، إذ قد نشأت ايام الخلافة وبعدها، دول عديدة ممتدة من الهند الى اسبانيا حكمت باسم الاسلام، وسيكون بحثنا ناقصا اذا قصّرنا في استكشاف ما اذا كانت هذه الدول التي قامت ضمن اطار الخلافة او خارجها قد طوّرت نظاما سياسيا ذا صفات خاصة يمكن وصفه بانه نظام إسلامي. وننبّه الى ما يلي :

اولا : ان غرضنا من هذا الاستعراض ينحصر في الاطّلاع على الانظمة السياسية التي قامت في هذه الدول ولا يتعرض لنواحي الحكم الاخرى من ادارة وقضاء ومال وغيرها.

ثانيا : اننا حصرنا استعراضنا بنحو عشرين دولة رئيسية في التاريخ الاسلامي نشأت في اقطار وشعوب مختلفة ومتباعدة لا يجمع بينها الا الاسلام. ولم نجد من المفيد ان نتعرض للدويلات العديدة التي قامت واندثرت في فترة زمنية قصيرة.

ثالثا : ان استعراضنا للدول التي اخترناها لا يشكل تاريخا لها لاننا حصرنا اهتمامنا كما قلنا بالاطّلاع على انظمتها السياسية ولم نتعرض لانجازاتها الثقافية والحضارية وقد كان لبعضها باع طويل في هذه الميادين.

نضيف الى هذه التحفظات انه اذا دعت بعض الفئات الان الى نظام سياسي تنسبه الى الاسلام يختلف جذريا عما مارسته الدول الاسلامية خلال قرون، فان دعوتهم تفتقر الى سند تاريخي يدعمها ولا تتعدى ان تكون نظرية سياسية يحق لهذه الفئات ان تسعى اليها لكن لا يجوز لها الادعاء انها تمثل النظرية السياسية الاسلامية.

الفتوحات

يُجمل اكثر المؤرخين الانتشار الاسلامي في العالم تحت عنوان "الفتوحات الاسلامية". ويحلو لبعضهم ان يسميها "الفتوحات العربية" ربما لان العرب بدأوا بها وان كان دورهم تقلص ثم زال بعدماية عام او اكثر قليلا.

ولعل بعض الاتراك يسمونها "الفتوحات التركية" نظرا للدور الهام

والطويلَ الذي قامت به القبائل التركية المختلفة في غزو بلاد جديدة وانشاء دول فيها.

يُقسم عهد الفتوحات برأينا الى دورين رئيسيين، الاول دور الفتوحات العربية التي بدأت بالخليفة عمر بن الخطاب واستمرت في عهد الخلافة الاموية، والثاني دور الفتوحات التركية - المغولية التي بدأت في العهد العباسي ودامت الى نهاية الدولة العثمانية.

دور الفتوحات العربية

فتوحات الخلفاء الراشدين

بدأت الفتوحات في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وكانت الجيوش مؤلفة بكاملها من رجال القبائل العرب يمتطون الخيول والجمال. وكانت طريقتهم في القتال هي الهجوم في صف طويل وإمطار اعدائهم بالنبال والجريد ثم الارتداد الى خط معيّن سابقا. ثم يتكرر هذا الهجوم الى ان يكتشفوا ضعفا في الجبهة المعادية فيركزون عليه ثم يشتبكون بالسيوف والرماح.

كان سلاح العرب السيف والرمح والقوس والنبال والجريد ولم يكونوا بذلك اضعف عتادا من اعدائهم. كما ان قبائل الحدود العربية كانت خبيرة باساليب الروم والفرس الحربية فقد قاتلت مع هذا الجانب او ذاك قرونا طويلة. كانت ميّزة الجيوش العربية قدرتها على التحرك السريع، وبما انها كانت هي المهاجمة فقد كان لها ان تختار مكان المعركة وزمانها. وقد جرت بعض المعارك المهمة على حدود الصحراء، وهي موطن العرب، بحيث أمنوا الهجوم على مؤخرتهم وضمنوا استمرار امداداتهم. وفي المعارك المهمة ندر ان كان العرب اقل عددا من اعدائهم.

فتح بلاد الشام

سلمت دمشق لخالد بن الوليد في ٤ سبتمبر (ايلول) ٦٣٥، على صلح اعطى خالد فيه لسكان دمشق "أمانا على انفسهم، واموالهم، وكنائسهم، وسور

مدينتهم، لا يُهدم، ولا يُسكن شيء من دورهم، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء والمؤمنين لا يعرض لهم الا بخير اذا اعطوا الجزية". (٢)

وصالح اهل حمص على مثل ذلك. (٣)

لكن احترام نصوص هذا العهد لم يدم طويلاً. فقد استولى المسلمون على نصف الكنيسة الكبرى في دمشق المعروفة باسم كنسية مار يوحنا المعمدان وحولوها الى مسجد. وفي عهد الخليفة الوليد ابن عبد الملك (٧٠٥ - ٧١٥) صادروا النصف الثاني لما رفض المسيحيون بيعه، وضموه الى المسجد وغطوا الفسيفساء على جدرانه بالكلس لانها تمثل حياة السيد المسيح، فتشكل بذلك المسجد الاموي الشهير.

كانت جيوش الروم مؤلفة من خليط من الشعوب لا يشعرون بولاء كبير للامبراطورية البيزنطية التي انهكتها الحروب الطويلة مع بلاد فارس واستنزفت مواردها. وكان السكان المحليون غير مكترثين بدولتهم، واحيانا معادين لها.

تابع المسلمون تقدمهم فاشتبكوا مع جيش الروم في معركة اليرموك يوم ٢٠ اغسطس (آب) ٦٣٦ فانتصر المسلمون وتخلى الامبراطور هِرَقل عن سوريا.

بعد معركة اليرموك استسلمت القدس الى الخليفة عمر شخصيا سنة ٦٣٨، وسقطت قيصرية وغزة سنة ٦٤٠ وبقيت عسقلان وطرابلس آخر معاقل الروم تقاومان الى سنة ٦٤٥.

في سنة ٦٣٩ عين الخليفة عمر معاوية بن ابي سفيان حاكما على سوريا وكان ذلك اللبنة الاولى في بناء الدولة الاموية. وقد بنى معاوية اسطولا غزا به جزيرة قبرص سنة ٦٤٩ فاستسلمت. وفي سنة ٦٥٢ اغار اسطول الروم على الاسكندرية بقصد استعادتها فتصدى له عبد الله بن ابي سرح والي مصر باسطول مصري ورده.

لكن الانتصارات على الامبراطورية البيزنطية بقيت جزئية واقتصرت على السواحل الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط، وامتدت شمالاً في الداخل الى ما دعاه العرب منطقة "الجزيرة" وهي الاراضي السهلية الخصبة ما بين الفرات ودجلة واشهر مدنها الموصل بجوار بقايا مدينة نينوى، وعامد على مجرى

دجلة الاعلى، والرقة على نهر الفرات، ونصيبين، وبقيت منابع النهرين الجبلية مناطق متنازع عليها تتعرض للغزو من الفريقين.

شكلت جبال طوروس حداً طبيعيا بين العرب والروم وكان الفريقان يتبادلان الغزوات سنويا تقريبا عبر ممراتها دون ان يتغلب فريق على آخر.

فتح بلاد فارس

لم يستطع الخليفة عمر ان ينظم حملة كبيرة على بلاد فارس الا بعد انتصاره في معركة اليرموك وفراغه من بلاد الشام. فجهز جيشا بقيادة سعد بن ابي وقاص وارسله الى العراق حيث اشتبك مع جيش كسرى في معركة القادسية في حزيران (يونيو) ٦٣٧ فتراجع الفرس واستولى المسلمون بعد شهر على "المداين" عاصمة ملوك الساسانيين على شاطىء دجلة.

احتل المسلمون ما بين ٦٣٧ - ٦٣٩م جميع اراضي ما بين النهرين، وبنوا مدن البصرة والكوفة كمعسكرات للجند فاصبحت جميع البلاد التي تسكنها الشعوب السامية، اي فلسطين، وسوريا، وما بين نهري الفرات ودجلة، واشور، وبابل، في قبضة المسلمين.

استمر الفرس بالمقاومة وكانت اهم المعارك بعد القادسية معركة نهاوند سنة ٦٤١ التي فتحت امام العرب الهضبة الايرانية.

بعد معارك مستمرة انسحب الملك يزدَجَرد اخر الملوك الساسانيين الى مدينة مرو التي تقع الان في تركستان السوفياتية حيث توفي سنة ٦٥١. ووقعت بناته الثلاث سبابا فارسلن الى المدينة وعوملن معاملة خاصة. اخذهن علي بن ابي طالب فزوّج احداهن شهر بانو لابنه الحسين فولدت له زين العابدين. وزوّج اختها كيهان لعبدالله ابن عمر ابن الخطاب، وزوّج الثالثة لمحمد ابن ابي بكر.

في السنة التالية لوفاة الملك يزدَجَرد استولى المسلمون على مرو وبَلْخ وهرات فانتهى فتح بلاد فارس وبعض ما حولها وقُضي على الدولة الساسانية. تابع العرب فتوحاتهم فاستولوا على اذربيجان وارمينيا وكرجستان وجيلان وجرجان وطبرستان على بحر قزوين. كما استولوا على كردستان وعاصمتها كرمنشاه وعلى مدن همدان والري ومشهد واصفهان.

اهم المناطق الفارسية بالنسبة للتاريخ العربي هي بلا شك خراسان موطن ابي مسلم الخراساني الذي كان عنصرا اساسيا في انتصار الدعوة العباسية. وقد شرحنا في الفصل السادس مدى اعتماد العباسيين على الفرس وخصوصا على اهل خراسان.

كانت خراسان في ذلك الزمن اوسع كثيراً بالمساحة من خراسان الحالية. فقد ضمت ما هو الان شمال شرق افغانستان، وامتدت شمالاً الى نهر جيحون وصحراء خوارزم، وشرقا الى مقاطعة باداخشان. ومن مدنها نيسابور، وطوس، ومرو، وهرات، وبلخ التي تقع على نهر بالاسم نفسه وكانت لمدة من الزمن ايام العباسيين عاصمة خراسان.

كان نهر جيحون في القديم يشكل الحد بين الشعوب الايرانية والشعوب الطورانية وكان العرب يسمون بلاد الطورانيين "ما وراء النهر" الى ان خرج الطورانيون (الاتراك) من موطنهم في آسيا الوسطى وانتشروا واستولوا على بلاد فارس وغيرها فزال الحد القديم.

ما بين نهر جيحون او (اكسوس) حسب التسمية اليونانية القديمة او امو داريا حسب التسمية الحالية، ونهر سيحون (جاكستارتس) حسب التسمية اليونانية وسيرداريا اسمه الحالي، تقع المدن الاسلامية المهمة : سمرقند وبخارى كلاهما على نهر الصغد، والى الشرق في منطقة نهر سيحون نجد منطقة فرغانة قرب الحدود الصينية وعاصمتها مدينة طاشقند (شاش) على نهر سيحون، والنهران العظيمان يصبان في بحر آرال الذي سماه العرب بحر خوارزم.

في خلافة عثمان بن عفان انشأ العرب سنة ٦٥٤ امارة في تفليس (اسمها الروسي حاليا تبيلسي) في منطقة جورجيا ما بين البحر الاسود وبحر قزوين. وفي زمن الامويين (٧٢٧) تغلبت القوات العربية على تحالف قبائل بدوية من الخزر في شمال بلاد القوقاس ودمرت عاصمتهم.

اثناء هذه الفتوحات هاجرت قبائل عربية كثيرة الى البلاد الجديدة وتوطنت فيها بجانب السكان الاصليين.

يجب ان نلاحظ الفرق بين استيلاء العرب على بلاد الشام واستيلائهم على ايران. فقد تخلى البيزنطيون عن بلاد الشام بعد مقاومة خفيفة لكنهم

اوقفوا الامتداد الاسلامي نحو بلادهم مدة طويلة اذ لم تسقط القسطنطينية الا سنة ١٤٥٢. اما الفرس فقد قاوموا الزحف العربي مقاومة شديدة في البداية واضطر العرب الى التغلب على الولايات واحدة بعد اخرى. لكن ايران بعد هزيمتها استكانت للحكم الاجنبي من عربي وتركي ومغولي اجيالا طويلة.

كان الفتح العربي في بدايته هشّا اذ كان كثير من سكان البلاد والمدن يقبلون الاسلام ويخضعون للحكم العربي لكن ما ان تنسحب الجيوش او تضعف السلطة المركزية حتى يعودوا الى عاداتهم ومعتقداتهم السابقة. يدل على ذلك كثرة الثورات والقلاقل في هذا الدور.

فتح مصر

ننتقل في الفتوحات العربية من الشرق الى شمال افريقيا. ففي سنة ٦٤٠ هاجم عمرو بن العاص مصر واستولى على الاسكندرية احدى اشهر مدن الامبراطورية البيزنطية واسّس مدينة الفسطاط كمعسكر للجند. ويبدو ان الاقباط سكان مصر لم يناصروا حكومتهم البيزنطية ضد العرب نظرا للخلافات المذهبية بين الاقباط سكان البلاد وبين القسطنطينية.

حافظ العرب في البداية على الوضع الراهن وعقد عمر بن العاص معاهدة مع سيروس مطران الاسكندرية تعهد فيها بالمحافظة على الكنائس المسيحية وعلى وضع السكان مقابل دفع مبلغ سنوي. وكان العرب اقلية عنصرية ودينية صغيرة.

مكتبة الاسكندرية

كانت المكتبة مع متحفها أشهر مؤسسة ثقافية في العالم الاغريقي أسستها وتعهدتها سلسلة طويلة من الاباطرة البطالسة منذ القرن الثالث ق.م.

سَعَت المكتبة ان تكون شاملة للمعارف اليونانية ومعارف المناطق المجاورة فضمّت كتبا مترجمة من لغات بلاد البحر الابيض المتوسط وبلاد الشرق الاوسط والهند. ويقال ان المكتبة كانت تحوي خمسماية الف مخطوطة تبحث في علوم اليونان من ايام هوميروس وما بعده بما فيها علوم الرياضيات والفلك والجغرافيا والطب والفيزياء والفلسفة. وكانت الاسكندرية مركزا علميا

رئيسيا في الدولة البيزنطية.

تقول بعض الروايات ان العرب حين استولوا على الاسكندرية دمروا مكتبتها ورموا محتوياتها في النيل باعتبار ان القرآن يحوي جميع العلوم ولا حاجة لهم بغيره. وينفي المسلمون هذه التهمة بشدة. وتقول مصادر اخرى ان المكتبة دُمرت في عهد الرومان أثناء الحرب الاهلية التي جرت في عهد الامبراطور اوريليان في اواخر القرن الثالث بعد الميلاد أي قبل دخول العرب الى مصر بزمن طويل.

حافظ العرب ايضا على نظام الضرائب البيزنطي الذي يتضمن ضريبة على الارض وعلى الافراد. وبقي الموظفون الاقباط قائمين على ادارة مصالح الدولة. وعلى ذلك فان الفتح في البداية لم يغيّر كثيرا في الحياة اليومية للسكان المصريين وقد عزل العرب انفسهم عن السكان المحليين في البداية واقاموا في معسكرات خاصة وبقيت اللغة اليونانية اللغة الرسمية للدولة الى سنة ٧٠٦ كما بقيت اللغة القبطية هي اللغة المحكية.

لكن هذا الوضع لم يدم طويلا. فقد انتقلت قبائل عربية برمتها الى مصر في خلافة عثمان بن عفان وبعده، كما سمح الخليفة الجديد للعرب باستملاك الاراضي فزادت الكثافة العربية.

تقدم العرب من مصر جنوبا وغربا. ففي سنة ٦٥١ - ٦٥٢ احتلوا بلاد النوبة وفرضوا على اهلها اتفاقية تقضي بدفع ضريبة سنوية والقبول بان يمارس المسلمون الاسلام وينشروه بين السكان. ثم تقدم العرب غربا في شمال افريقيا. بعد ذلك سادت مصر فترة قلاقل واضطرابات. وبعد نحو قرن ونصف قام الاقباط وبعض القبائل بثورة ضد الحكم العباسي فسار الخليفة المامون الى مصر على رأس جيش وتغلب على الاقباط سنة ٨٣٠ فكان ذلك عاملا هاماً في سرعة انتشار الاسلام بين السكان.

بعدما بدأ الخليفة المعتصم بادخال العبيد الاتراك في حرسه الخاص صار الخلفاء بعده يسلمون حكم المقاطعات وقيادة الجيوش، طوعا او كرها، الى قواد اتراك. وفي عصر الانحطاط الذي بدأ بعد الخليفة المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١) لم يعد باستطاعة الخليفة ان يدفع رواتب القواد والجنود الاتراك فصار يمنح القواد "اقطاعات" يجبون منها الضرائب لدفع هذه النفقات. من ذلك ان

الخليفة المعتمد (٨٧٠ - ٩٠٢) منح مصر كاقطاع لقائده التركي بابك الذي عيّن ابن زوجته احمد بن طولون وكيلا عنه في مصر. ولم يلبث هذا ان استقل بحكم مصر واستولى على سوريا (٨٧٩) واقام الدولة الطولونية (٨٦٨ - ٩٠٥) وجرى ما يماثل ذلك في الاقاليم الاسلامية الاخرى.

الدول المصرية

بقيت مصر ٢٢٠ سنة خاضعة مباشرة لحكم الخلفاء الامويين ثم العباسيين. لكنها منذ سنة ٨٦٨ توالت عليها الدول التالية :

١ - الدولة الطولونية (٨٦٨ - ٩٠٥) دامت ٢٧ سنة وعاصرت الخليفتين المعتمد والمعتضد في بغداد.

٢ - الدولة الاخشيدية (٩٣٥ - ٩٦٩) دامت ٣٤ سنة عاصرت آل بويه.

٣ - الدولة الفاطمية (٩٦٩ - ١١٧١) دامت ٢٠٢ سنة وعاصرت البويهيين والسلاجقة وبداية الحروب الصليبة.

٤ - الدولة الايوبية (١١٧١ - ١٢٥٠) دامت ٧٩ سنة عاصرت السلاجقة وانتصرت على الصليبيين وقضت على الدولة الفاطمية.

٥ - دولة المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧) دامت ٢٦٧ سنة من احتلال هولاكو خان لبغداد الى استيلاء الاتراك العثمانيين على مصر.

٦ - الدولة العثمانية في مصر (١٥١٧ - ١٧٩٧) دامت ٢٨١ سنة الى الاحتلال النابوليوني.

٧ - الاحتلال الفرنسي (حملة نابوليون) (١٧٩٨ - ١٨٠٥) دام ٧ سنوات.

٨ - محمد علي الالباني وسلالته (١٨٠٥ - ١٩٥٢) دام ١٤٧ سنة.

٩ - الحماية الانكليزية (١٨٨٢ - ١٩٢٢) دامت ٤٠ سنة.

١٠ - الجمهورية المصرية (١٩٥٢ - ...).

يُلاحظ ان جميع هذه الدويلات الاسلامية في مصر كان يحكمها الى سنة ١٩٥٢ حكام من جنسيات تركية وكردية والبانية وشركسية ليس بينهم مصريون او عرب الا الفاطميين. وقد اهتمت جميعها بالشأن المحلي الداخلي، ومن توسع منها فعل ذلك على حساب مناطق اسلامية اخرى (سوريا

وفلسطين) انتزعها من حكامها وضمها اليه.

فتوحات الخلافة الاموية

تابع الامويون الفتوحات ووسعوها فاجتازت الجيوش المتمركزة في خراسان نهري امو داريا وسير داريا ودخلت آسيا الوسطى بلاد الطورانيين (القبائل التركية) واستولت على بخارى وسمرقند وطاشقند وبلاد خوارزم على بحر آرال وفرغانة القريبة من الحدود الصينية.

وانحدر العرب جنوبا الى مقاطعة السند واحتلوها سنة ٧٢٤ في خلافة هشام بن عبد الملك واقاموا فيها واليا يحكم باسم الخليفة الاموي. والسند مقاطعة كبيرة وخصبة تمتد جنوبا الى بحر العرب وتقع على شاطئها مدينة كراتشي وهي الان جزء من باكستان.

تقدم العرب ايضا في البنجاب وكشمير لكن المقاومة الهندية صدتهم.

بقيت السند وشمال غربي الهند نحو ثلاثة قرون تحكمها سلالات مسلمة محلية تعترف بسلطة الخليفة في دمشق ثم في بغداد الى ان تغلبت عليها في القرن الثاني عشر موجات غازية تركية ثم مغولية قادمة من آسيا الوسطى.

فتح شمال افريقيا

تقدم القائد الاموي عقبة بن نافع من مصر سنة ٦٧٠ ودخل تونس التي كان يسميها العرب "افريقيا" واسّس فيها مدينة القيروان فحلّت محل مصر كقاعدة للتوسع غربا. وتقدم عقبة من القيروان سنة ٦٨٢ حتى وصل الى مدينة سوس جنوب مراكش لكن قبائل البربر قاومته وقتلته فتراجع العرب الى برقة.

بعد محاولات دامت عشرين سنة تمكن موسى ابن نصير والي الخليفة الوليد، من اخضاع كامل اراضي شمال افريقيا حتى مدينة طنجة للسيطرة الاموية ما بين ٧٠٢ ـ ٧١١ مستخدما في الجيش قبائل بربرية اعتنقت الاسلام. وترك قائده طارق بن زياد من البربر واليا على طنجه لادارة البلاد ومتابعة نشر الاسلام بين قومه.

بقي الحكم الاموي في شمال افريقيا بين مد وجزر نحو ماية سنة تكررت في اواخرها ثورات الخوارج منتهزين ضعف الدولة الاموية فتراجع الجيش الى القيروان سنة ٧٤٠ في عهد الوليد الثاني ولم يستطع الامويون استعادة ما خسروه. وقامت في شمال افريقيا ممالك للخوارج وللسنّة منها مملكة الادريسيين (٧٨٩ - ٩٢٦) التي بنت مدينة فاس، ومملكة عبد الرحمن ابن رستم (٧٨٧ - ٩١١). ومملكة بني الاغلب (٨٠٠ - ٩٠٩) الذين جعلوا القيروان عاصمتهم وشمل حكمهم تونس وشرق الجزائر، وهي البلاد التي سكنها العرب بكثافة، كما استولوا على جزيرة صقلية. وكانت هذه الممالك تعترف اسميا بالخليفة الاموي ثم بالخليفة العباسي.

فتح اسبانيا (٧١١ - ١٢١٢)

تقول المصادر العربية ان طارق بن زياد حاكم طنجة واحد القواد البربر لدى موسى ابن نصير، عبر المضيق المعروف الان باسمه مع جيش قليل العدد من البربر، واحرق السفن التي عبر بها ثم اشتبك مع جيش رذريق (رودريك) ملك القوط سنة ٧١١ فتغلب عليه وقُتل رذريق في المعركة وانتهت دولة القوط.

اما المصادر الغربية فتقول ان فتح اسبانيا كان بدعوة من القوط بسبب خلافات داخلية. اذ لما توفي ويتيزا ملك القوط (٧٠٠ - ٧١٠) اغتصب العرش رودريك رئيس فريق ثاني فاستنجدت عائلة ويتيزا بالمسلمين في شمال افريقيا ليساعدوهم على الاطاح به فجاء طارق بن زياد تلبية لطلبهم.

بعد مقتل رذريق بقي القوط بدون رئيس يوحّدهم ويقودهم فسهل على طارق اجتياح البلاد. سار الى طليطلة واحتلها ودهش من انه لم يلقَ مقاومة من الاسبان. في السنة التالية جاء موسى بن نصير على رأس جيش عرم واحتل مريدة وساراغوسا في شمال اسبانيا. وبعد مدة قصيرة سقطت معظم البلاد الاسبانية تحت الحكم العربي ويعود سبب استسلام اسبانيا لجيش لا يزيد عدده عن بضعة عشر الفا الى الخلافات التي مزقت المجتمع الاسباني والى التنافس بين ملوكها الذي منعهم من الاتحاد في وجه الغزاة.

معركة بواتييه ٧٢٢

اجتاز عبد الرحمن الغافقي حاكم قرطبة في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (٧٢٤ - ٧٤٣) جبال البيرينيه التي تفصل بين اسبانيا وفرنسا وهاجم منطقة أكويتين في جنوب غرب فرنسا. وهنا تختلف الروايات بعضها يقول انها كانت غزوة صيفية تهدف الى الغنيمة ولا تقصد الاحتلال، ويقول اخرون انها كانت هجوماً قرر مصير اوروبا. على كل حال وصل الجيش الى مدينة بواتييه واشتبك مع قوة شارل مارتيل الذي كان الحاكم الفعلي للممالك الفرنكية فقُتل عبد الرحمن الغافقي في المعركة وتراجع جيشه وكان ذلك اخر هجوم قام به المسلمون على الاراضي الفرنكية كما كان اقصى ما وصلوا اليه في غرب اوروبا وان بقيت غزوات الحدود مستمرة.

وقد خلّد الشاعر الفرنسي رولان معركة بواتييه في قصائد انتشرت في اوروبا وغنّاها الناس وعرفت باسم "اغاني رولان".

ما بين ٧١١ و ٧٥٦ كان يحكم اسبانيا ولاة يعينهم الخليفة في دمشق. لكن الدولة الاموية زالت سنة ٧٥٠ واستولى العباسيون على الخلافة وحاولوا ان يقتلوا جميع من يمكن ان ينازعهم من بني امية. لكن اميرا من الامويين يُدعى عبد الرحمن نجا من القتل وتسلل سرا عبر شمال افريقيا حتى وصل الى قرطبة حيث اعلن استقلال امارته وبه بدأ العصر الأموي.

تُقسم فترة الحكم الأموي في الاندلس (٧٥٦ - ١٠٣١) الى دورين : دور الامارة المستقلة (٧٥٦ - ٩٢٩)، ودور الخلافة الاموية (٩٢٩ - ١٠٣١) وكانت عاصمتها قرطبة. وفي الدورين بلغت الحضارة العربية في اسبانيا أوجها في الاداب والعلوم والفنون على اختلافها.

توفي عبد الرحمن الداخل عام ٧٨٨ وتعاقب بعده على الحكم هشام الاول (٧٨٨ - ٧٩٦)، الحكم الاول (٧٩٦ - ٨٢٢)، عبد الرحمن الثاني (٨٢٢ - ٨٥٢)، ومحمد الاول (٨٥٢ ـ ٨٨٥)، والمنذر (٨٨٦ ـ ٨٨٨)، وعبد الله (٨٨٨ ـ ٩١٢) ثم جاء عبد الرحمن الثالث (٩١٢ - ٩٦١) الذي اعلن نفسه خليفة عام ٩٢٩ فوحّد المقاطعات الاسلامية ووصلت الدولة الاموية في عهده الى قمة القوة والحضارة والابداع كما ان عاصمته قرطبة صارت اكبر مدينة في اوروبا وارقاها حضارة ومدنية.

درج الحكام الامويون على مشترى العبيد الصقالبة وهم صغار السن ودفعهم الى اعتناق الاسلام ثم تدريبهم على الجندية او على الشئون الادارية اسوة بما كان يفعله خلفاء العباسيين مع العبيد الاتراك.

وفي عهد عبد الرحمن الثالث زاد عددهم من اربعة الاف الى اربعة عشر الفا وتحسّن وضعهم الاجتماعي والسياسي مع الزمن حتى اصبح لهم سلطة ونفوذ. وكان على عبد الرحمن ان يوفق بين سياسته وبين طبيعة جيشه المؤلف من عرب ومن افراد قبائل بربرية وعبيد صقالبة.

خلف عبد الرحمن الثالث ابنه الحكم (٩٦١ - ٩٧٦) وكان عهده مماثلا لعهد ابيه في الرفعة والازدهار وفي زمنه انتهى بناء جامع قرطبة الكبير (٩٧٦) الذي ما زال اثرا رائعا من اثار الفن الاسلامي.

بعد الحكَم بدأ الحكم الاموي يضعف وازداد عليه الضغط الاسباني وسادت فترة من القلاقل ادت الى عزل الخليفة هشام الثاني سنة ١٠٠٩. ومنذ ذلك التاريخ الى انتهاء دور الخلافة الاموية سنة ١٠٢١ برز الصقالبة كاحدى القوى الرئيسية الثلاث التي تحكّمت باختيار الخلفاء وعزلهم، الى جانب البربر والعرب.

ثم سادت فترة فوضى بعد عام ١٠٢١ وصارت الصدامات مستمرة بين العرب والبربر والجنود الصقالبة دون ان تستطيع احدى الفرق ان تلغي الاخرين وتخضعهم لها. ترافق ذلك مع مسعى أمراء المقاطعات للتحرر من السلطة المركزية ابتداءاً من سنة ١٠٠٩ ثم تنازعهم وتحاسدهم الذي ادّى الى حروب بينهم. ولم يختلف هذا عما كان يجري في المقاطعات البويهية والسلجوقية في المشرق فقد كانت الطبيعة واحدة رغم بعد المسافات وقلّة الاتصالات.

الهجوم الاسباني المعاكس

بعد الفتح الاموي سنة ٧١١ برزت بضع دول مسيحية في شمال اسبانيا مدفوعة بعامل حماية نفسها والعداء الديني للغزاة المسلمين، كان اهمها ممالك اراغون وكاستيل وليون التي تمتد ممالكها مجتمعة من البحر المتوسط الى شمال البرتغال على المحيط الاطلسي.

في تفكير اكثر العرب ان الاحتلال الاسلامي لاسبانيا يمتد ٧٨١ سنة من تاريخ دخول طارق بن زياد (٧١١) الى سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢. والحقيقة ان الفتح الاسلامي وردّ الدول الاسبانية المسيحية عليه بقي في حالة مدّ وجزر طيلة قرنين من الزمن او اكثر. فالدول المسيحية الاسبانية كانت مختلفة فيما بينها تتنافس على الزعامة والنفوذ ولم تؤلف كتلة متحدة الا في القرن الثالث عشر. وقد راينا ان خلافات مماثلة كانت مستشرية في الجانب الاسلامي ما بين العرب والبربر والصقالبة، وبين دول الطوائف التي كانت تتقاتل فيما بينها وتستنصر احيانا بالاسبان ضد بعضها. ومع ذلك كان يمكن للمسلمين طلب النجدة من اخوانهم في شمال افريقيا وقد طلبوها بالفعل مرتين لرفع الخطر المسيحي : طلبوها من المرابطين في القرن الحادي عشر، ومن الموحدين في القرن الثاني عشر. ومع ذلك كان زحف الممالك المسيحية مستمرا لا يتوقف وان كان تقدمه بطيئا في البداية.

المرابطون (١٠٨٥_١١٢٦)

استولى المسيحيون على مدريد (١٠٨٣) وعلى طليطلة (١٠٨٥) فاستنجد المسلمون بدولة المرابطين في مراكش (١٠٦٢ - ١١٤٧). قامت حركة المرابطين في المغرب (١٠٤٥) بين قبائل البربر الصحراوية وخاصة قبيلة صنّاجة الملثمة التي تشبه قبيلة الطوارق حاليا. برز منهم يوسف ابن تاشفين الذي ما بين ١٠٥٤ الى ١٠٩٢ استولى على المغرب وعلى غرب الجزائر الى حدود مدينة الجزائر وجعل عاصمته مدينة مراكش واتخذ لقب "امير المسلمين" وبقي يعترف بالخليفة العباسي في بغداد.

دخل يوسف ابن تاشفين اسبانيا سنة ١٠٨٥ على اثر سقوط طليطلة بذعوة من الحكام المسلمين، فاوقف الزحف المسيحي موقتا لكنه بسط سيطرته على الدويلات الاسلامية وضمها الى مملكته. خلفه ابنه علي ابن يوسف (١١٠٦ - ١١٤٢) فوثق العلاقات بين المغرب واسبانيا ونشر الحضارة الاندلسية في بلاده.

عاد الزحف المسيحي يتقدم رغم وجود المرابطين فاستولوا على ساراغوسا (١١١٨) وعلى لاريدا (١١٤٩)، ثم تعرض المرابطون لمصاعب في

اسبانيا وفي المغرب في بداية القرن الثاني عشر، ففي اسبانيا لم يستطع الاسلام ان يوحّد بين العنصرين العربي والبربري وكانت الصدامات تتزايد مع ضعف السلطة المركزية. وفي المغرب ضعفت سلطة المرابطين عندما قامت ثورة الموحدين في جبال الاطلس حوالي عام ١١٢٥ فانسحب المرابطون من اسبانيا وكانت مدة اقامتهم فيها اربعين سنة من ١٠٨٥ الى ١١٢٥.

الموحدون (١١٧٠ - ١٢٦٩)

ينتسب الموحدون الى قبائل البربر الجبلية في حين كان المرابطون يعتمدون على بربر الصحراء. وبدأ الموحدون حركة اصلاح دينية قادها محمد بن تومرت ضد المرابطين ودامت ثورتهم اثنين وعشرين سنة حتى سقطت العاصمة مراكش بيدهم سنة ١١٤٧ وانتهت دولة المرابطين.

خلف محمد تومرت عبد المؤمن الذي اتخذ لقب خليفة وبسط سيطرته على المناطق الافريقية حتى حدود طرابلس الغرب فكانت اكبر مملكة ظهرت في شمال افريقيا، وهكذا برز في العالم الاسلامي لاول مرة اربع خلفاء في وقت واحد يتنازعون لقب الخلافة وسلطتها وكلّ يدعي انه الخليفة الشرعي : خليفة اموي في الاندلس، وخليفة من البربر في مراكش، وخليفة فاطمي اسماعيلي في القاهرة، وخليفة عباسي في بغداد لا يملك من امره شيئا.

خلال ذلك، وابتداءً من انسحاب المرابطين نحو سنة ١١٢٥، سادت المناطق الاسلامية في اسبانيا فترة اخرى من الفوضى والاضطراب، فالتجأ المسلمون مرة اخرى الى اخوانهم في شمال افريقيا فلباهم الخليفة ابو يعقوب يوسف (١١٦٣ - ١١٨٤) من الموحدين ودخل اسبانيا نحو عام ١١٧٠ فبسط سيطرته على الاقاليم الاسلامية واوقف الزحف المسيحي.

لكن الخليفة الناصر (١١٩٩ - ١٢١٤) الذي جاء بعد ابي يعقوب يوسف تعرض لهزيمة كاسحة على يد حلف اسباني مؤلف من ممالك ليون وكاستيل ونافار واراغون في موقعة لاس نافاس دي تولوزا عام ١٢١٢ ادّت الى انسحاب الموحدين من اسبانيا فكانت مدة اقامتهم فيها ٤٢ سنة من ١١٧٠ الى ١٢١٢. ولم يطل الامر بالموحدين حتى خسروا مقاطعاتهم في شمال افريقيا بالتتابع لحكام محليين فذهبت تونس (١٢٣٦) ومنطقة تلمسان في

الجزائر (١٢٢٩) واخيرا مراكش (١٢٦٩). وبذلك انتهت اكبر دولة عرفها المغرب.

بعد انسحاب الموحدين سادت المناطق الاسلامية في اسبانيا فترة اخرى من الفوضى استغلتها الممالك المسيحية لتحرير البلاد من الحكم الاسلامي وكان تقدمها في هذه الفترة سريعا وصاعقا.

سقطت جزيرة مايوركا (١٢٢٩)، والعاصمة قرطبة (١٢٣٦)، وفالنسيا (١٢٣٨) ومرسيا (١٢٤٣)، واشبيلية (١٢٤٨)، وقادس (١٢٦٢)، وبقيت غرناطة ليس لانها استطاعت المقاومة بل لانها اعترفت بسيادة مملكة كاستيل وكانت تدفع لها جزية سنوية.

خلال هذه الفترة اتحدت مملكتا اراغون وكاستيل اقوى الدول المسيحية في اسبانيا بزواج فردينان ملك اراغون مع ايزابيلا ملكة كاستيل (١٤٦٩). ولم يطل الوقت حتى صمّم الملكان على تحرير ما تبقّى من اسبانيا فهاجموا إمارة غرناطة واستولوا عليها يوم ٢ يناير ١٤٩٢ وبذلك انتهى الوجود السياسي الاسلامي في اسبانيا.

بقي الوجود البشري. وقد انتهز الاسبان ثورة قام بها السكان المسلمون (١٤٩٩ - ١٥٠٠) فاخمدوها وخيّروا السكان بين اعتناق المسيحية وبين الطرد من البلاد. وقد قبل الكثيرون الدين المسيحي وبقوا، في حين هاجر الكثيرون ايضا ومعهم الجزء الاكبر من الجالية اليهودية الى افريقيا الشمالية وبذلك انتهى الوجود البشري الاسلامي

ملخص تاريخ الوجود الاسلامي في اسبانيا :

٧١١ - ١٠٠٩	(٢٩٨ سنة)	حكم بني امية الفعلي.
١٠٠٩ - ١٠٨٥	(٧٦ سنة)	عهد فوضى (ملوك طوائف).
١٠٨٥ - ١١٢٥	(٤٠ سنة)	حكم المرابطين.
١١٢٥ - ١١٧٠	(٤٥ سنة)	عهد فوضى (ملوك طوائف).
١١٧٠ - ١٢١٢	(٤٢ سنة)	حكم الموحدين.
١٢١٢ - ١٢٥٠	(٣٨ سنة)	استعاد الاسبان كل الاراضي التي

احتلها المسلمون عدا امارة غرناطة.

١٤٩٢ سقطت غرناطة اخر امارة اسلامية.

يتضح من هذا الملخّص ان الحكم الاموي العربي دام في اسبانيا ٢٩٨ سنة،

وان عهود الفوضى دامت ١٢١ سنة في فترتين فصلت بينهما سيطرة المرابطين،

وان البربر من مرابطين وموحدين حكموا ما مجموعة ٨٢ سنة،

فيكون المجموع العام للحكم الاسلامي في اسبانيا من ٧١١ الى ١٢٥٠ نحو خمسماية سنة على اختلاف اشكاله.

جزر البحر المتوسط
قبرص، صقلية، مالطا، سردينيا

ليس ادلّ على قوة المسلمين البحرية ما بين القرن السابع والحادي عشر من احتلالهم جزر البحر الابيض المتوسط الكبيرة ذات الاهمية الستراتيجية الفائقة. وهي قبرص وصقلية ومالطا وسردينيا.

فقبرص قريبة جدا من سواحل الدولة البيزنطية (٦٠ كلم). تهدد برّ الروم، وكذلك سردينيا بالنسبة للبر الايطالي. اما صقلية ومالطا فانهما في وسط المتوسط وفي اضيق مكان منه بين القدم الايطالي المتوغل جنوبا في البحر، وبين الشاطيء التونسي فتتحكم الجزيرتان بالمنافذ البحرية وبسير الاساطيل والسفن التجارية في الاتجاهين بين شرق البحر وغربه.

وقد احتل المسلمون هذه الجزر جميعا في العهد الاموي ما بين منتصف، القرن السابع والثامن وخسروها عدا قبرص في القرن الحادي عشر.

قبرص (٦٤٩ - ١١٩١)

احتل معاوية والي الخليفة عثمان بن عفان في دمشق جزيرة قبرص سنة ٦٤٩ وبقيت في حوزة العرب الى ان سقطت سنة ١١٩١ بيد ريتشارد الاول (قلب الاسد) ملك الانكليز الذي كان يقود الحملة الصليبية الثالثة في اخر زمن حكم السلطان صلاح الدين الايوبي (١١٧٣ - ١١٩٣). وقد منح

الملك ريتشارد الجزيرة الى ملك القدس المخلوع غي دي لوسينيان مقابل تنازل هذا لريتشارد عن حقه بالادعاء بعرش القدس. وكان صلاح الدين قد استولى على المدينة في ٢ اكتوبر ١١٨٧ لكن العرش بقي شاغرا بنظر الافرنج يتنازع عليه غي دي لوسينيان مع كونراد دي مونتفرات.

بقيث قبرص في حوزة سلالة غي دي لوسينيان نحو اربعماية وخمسين سنة الى ان احتلها العثمانيون سنة ١٥٧٣، لكنهم اضطروا سنة ١٨٧٨ الى تسليم ادارتها الفعلية الى الانكليز بموجب اتفاق مع السلطان وبقيت بيد هؤلاء الى ان استقلت عام ١٩٦٠.

صقلية (٨٢١ - ١٠٦١)

منذ ان دخل العرب شمال افريقيا شكلوا تهديدا مباشرا لجزيرتي صقلية ومالطا وجنوب ايطاليا. فجزيرة صقلية يفصلها عن البر التونسي نحو ماية كيلومتر. ويفصل مالطا نحو ضعف المسافة.

كانت الجزيرتان تابعتان للامبراطورية البيزنطية وقد قامت في صقلية ثورات صعب على الدولة اخمادها فطلب قائد الاسطول البيزنطي مساعدة بني الاغلب في تونس فلبوا طلبه ونزلوا في ميناء مازارا عام ٨٢٧. لكنهم بدلا من نصرة من استعان بهم تابعوا تقدمهم واحتلوا معظم الجزيرة ودخلوا العاصمة باليرمو سنة ٨٣١ وصارت صقلية مقاطعة تابعة للاغالبة. ولما تغلب الفاطميون على الاغالبة انتقلت الجزيرة الى حكمهم (٩١٠).

نزحت جماعات كثيرة من شمال افريقيا الى صقلية وتوطنت فيها كما أسلم قسم من السكان المحليين فاصبحت الجزيرة سياسيا وحضاريا جزءا من العالم الاسلامي ازدهرت فيها الحضارة والفنون الاندلسية. ومن ناحية عسكرية اصبحت صقلية القاعدة الرئيسية للغارات على الملاحة في البحر وعلى شواطيء ايطاليا الجنوبية والوسطى. ففي سنة ٨٤٦ دخلت حملة بحرية نهر التيبر ونهبت كاتدرائية بطرس وبولس في روما. بعد ثلاث سنوات (٨٤٩) جرت محاولة مماثلة لكن القوات الايطالية تغلبت على الاسطول المهاجم وردته.

نجح المسلمون ايضا باقامة قاعدة لهم على مصب نهر كاريغليانو في

جنوب ايطاليا استخدموها لغزو المدن والاديرة الغنية في الداخل مع تخريب واسع للمدن والقرى، وبقيت هذه القاعدة بيد المسلمين الى عام ٩١٥.

احتلوا ايضا جزيرة سردينيا وهددوا منها شواطيء ايطاليا الوسطى. وبقيت بيدهم الى ان استعادتها اساطيل جنوا وبيزا في القرن الحادي عشر.

بعد قرن من الحكم الاسلامي (١٠٤٠) قامت نزاعات داخلية بين امرائهم في صقلية فطلب امير مقاطعة سيراكيوز مساعدة النورمانديين، كما سبق لقائد الاسطول البيزنطي ان طلب مساعدة الاغالبة قبل قرنين وكانت النتيجة مماثلة. فقد دخل روجر الاول قائد النورمانديين مدينة مسّينا سنة ١٠٦١ ولم ينصر حليفه بل تابع زحفه على باليرمو فاحتلها سنة ١٠٧٢ واكمل احتلال الجزيرة عام ١٠٩١. وجرى للمسلمين في صقلية ما جرى في الاندلس فقد هاجر قسم من السكان الى شمال افريقيا، وتنصّر الباقون وزال بذلك الوجود الاسلامي من الجزيرة.

مالطا (٨٧٠ - ١٠٩١)

تقع جزيرة مالطا نحو مائة كيلومتر جنوب صقلية وعلى بعد مائتي كيلومتر من البر التونسي وهي عبارة عن مجموعة جزر، ثلاث منها مأهولة واربع صغيرة غير مأهولة.

تقول الروايات ان السفينة التي ركبها القديس بولس متوجها الى روميه تحطمت على شواطيء مالطا سنة ٦٠ فاقام بولس فيها مدة وبشر بالسكان فتنصّروا.

احتل المسلمون مالطا بعد اربعين سنة من احتلال صقلية (٨٧٠) وبقوا فيها الى ١٠٩١ عندما اخرجهم منها روجر الاول بعدما انهى احتلال صقلية ولم تعد مالطا بعد ذلك الى الحكم الاسلامي، فقد تخلى عنها النورمانديون لمنظمة (Hospitalers) او "فرسان سان جون" الذين استخدموها ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر قاعدة للهجوم على التجارة العثمانية في المتوسط.

انهى نابوليون دور الفرسان باستيلائه على الجزيرة اثناء حملته على مصر. وبعدما دمر الاسطول البريطاني المراكب الفرنسية في موقعه ابو قير

(١٧٩٨) طلب سكان مالطة حماية بريطانيا وبقوا تحت حكمها الى ان نالوا استقلالهم سنة ١٩٦٤.

نرى مما تقدم ان انتهاء الحكم الاسلامي في اسبانيا بعد معركة ١٢١٢ التي ادت الى انسحاب الموحدين من البلاد وعودتهم الى المغرب، سبقه تطور مماثل شمل الوجود الاسلامي في جميع جزر المتوسط.

دول الخلافة العباسية (٧٥٠ - ٨٦١)

ننتقل من الفتوحات العربية - البربرية، في شمال افريقيا واسبانيا الى المشرق والى الخلافة العباسية التي شكلت مرحلة تاريخية لنقل سلطة الخلافة، من العرب الى الفرس لبرهة قصيرة، ثم الى الاتراك والمغول لقرون عديدة.

لعل اول ما يجب تكراره هو اختلاف الاتجاه العام بين الدولتين الاموية والعباسية في امور اساسية. فبينما اعتمد بنو امية على العنصر العربي وحقّروا غيره، كان الفرس السند الاول لبني العباس الذين اهملوا العنصر العربي واستبعدوه.

وبينما اتجهت الدولة الاموية غربا الى البحر المتوسط وشمال افريقيا وجنوب اوروبا واسبانيا، اتجهت الدولة العباسية شرقا الى ايران وآسيا الوسطى وبلاد "ما وراء النهر".

وفيما نرى الامويين فتحوا بلادا جديدة في شمال افريقيا وجزر البحر المتوسط واسبانيا، لا نجد للدولة العباسية انجازا في موضوع الفتح فهم لم يزيدوا كثيرا في رقعة الاراضي التي استولى عليها العرب من عهد الخليفة عمر بن الخطاب الى اخر العهد الاموي وانصرف جهدهم الى تثبيت وضعهم. وقد بحثنا ذلك في الفصلين السادس والسابع.

ما بين سنة ٨١٩ الى ٩٤٥ ظهرت اربع دويلات فارسية في المشرق قبل اجتياح القبائل التركية للمنطقة، هي الدول السامانية، والطاهرية، والصفرية، والبويهية. كما ظهرت دولتان عربيتان هما الحمدانيون والفاطميون. بعض هذه الدول عمّرت فترة زمنية تدل على رسوخ وثبات في الحكم كالدولة الفاطمية والبويهية، والسامانية الى درجة ما. اما بعضها الاخر فكان ظهورها كلمحة برق في الافق.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دولة آل سامان (٨١٩ - ١٠٠٥)

ينتسب آل سامان الى سامان خودة احد ملاكي الاراضي في منطقة بلخ وهو فارسي اعتنق الاسلام وخدم احفاده الخليفة المامون باخلاص فعينهم ولاة على اربع مناطق هي سمرقند وفرغانة وشاش وهرات.

توسع السامانيون بعد ذلك الى "ما وراء النهر" سنة ٨٧٥ ثم تغلبوا على الصفريين في خراسان سنة ٩٠٠، وعلى طبرستان التي تقع على الشاطيء الجنوبي لبحر قزوين واقاموا امارة شبه مستقلة وجعلوا عاصمتهم بخارى.

انعش السامانيون الاقتصاد وحموا طرق التجارة المتجهة عبر آسيا الى الغرب فازدهرت مدن بخارى وسمرقند وهرات وقد دل على ذلك ان النقود الفضية السامانية اصبحت العملة المتداولة في البلاد المجاورة.

لبى السامانيون مطالب الخلفاء في بغداد فكانوا يحمون الحدود الشمالية من غزوات القبائل التركية، ويوفرون للخلفاء امدادا متواصلا من العبيد الاتراك لاستخدامهم في الجيش فيجنون من هذه التجارة ربحا مهما ويقيمون شعائر المذهب الرسمي للدولة معترفين بولائهم للخليفة فيمنحهم شرعية حكم مناطقهم، ويعززون ذلك بنشر الاسلام بين القبائل التركية على الحدود.

من ناحية ثانية، اصبحت بخارى وسمرقند وهرات مراكز ثقافية مهمة احيَت مجد الدولة الساسانية وضاهت بخارى بغداد كعاصمة ثقافية للاسلام. وفي عهد السامانيين وبتشجيعهم عادت اللغة الفارسية والادب الفارسي الى البروز بعد افول دام قرنين واخذت اللغة الفارسية شكلها الجديد الذي استمر مع تغيير قليل الى يومنا هذا. بالاضافة الى ذلك بعث السامانيون شعور الاعتزاز بالتاريخ الفارسي القديم فعبّر عن ذلك الشاعر الشهير الفردوسي في ملحمته شاه - نامه (كتاب الملوك) التي وصف فيها شعرا امجاد الفرس القديمة وختمها سنة ١٠١٠ في مدينة طوس بخراسان.

منذ ايام السامانيين وفي الاجيال اللاحقة لم تعد الثقافة تعني ان المثقف يجب ان يتكلم ويكتب باللغة العربية وحدها فقد عادت اللغة الفارسية الجديدة تُستعمل كلغة ثانية للثقافة العالية، بل انها استعملت وحدها كلغة العلم في الدولة الغزنوية وفي دول الاسلام الهندية.

ارتكب السامانيون نفس الخطأ الذي ارتكبه الخلفاء العباسيون فاستخدموا العبيد الاتراك في الجيش واكثروا منهم فلم يلبثوا ان تسلطوا على الحكم. وتفاقمت هجمات القبائل التركية من آسيا الوسطى واغتيل عباس الثاني اخر السامانيين سنة ١٠٠٥ فاقتسم قواده البلاد وزالت الدولة السامانية لكن اللغة الفارسية بقيت حية ومنتعشة. وقد دامت الدولة السامانية ٨٦ سنة.

الدولة الطاهرية (٨٢١ - ٨٧٢)

اسس هذه الدولة القائد الفارسي طاهر ابن الحسين الذي انتصر على الامين لصالح اخيه المأمون. وقد فكر المأمون، بعد الصعوبات التي لاقاها والده هارون الرشيد في ضبط أوضاع خراسان، ان افضل وسيلة لتثبيت حكم الخلافة في المناطق الشرقية هي ان يعين على خراسان قائدا مشهورا يضبط تلك المناطق.

كان طاهر من الموالي العرب فتولى امارة خراسان وجعل عاصمته في مرو اولا ثم في نيسابور ومدّ حكمه الى حدود الهند وتمتعت عائلته بعدئذ باستقلال فعلي عن بغداد الى ان خلفتهم الدولة الصفرية. وكانت مدة الدولة الطاهرية ٥٢ سنة.

الدولة الصفرية (٨٦٩ - ٩٠٠)

اسس هذه الدولة ليث الصفّار وهو فارسي لا يعرف اللغة العربية صنعته نحّاس (يصنع الاواني النحاسية) وموطنه منطقة بلوخستان. استولى على منطقته ثم طرد الوالي الطاهري من نيسابور وضم الى حكمه مناطق اخرى فاعترف الخليفة المعتمد به واليا على خراسان واصفهان وفارس وسيستان والسند.

ثم حاول ليث ان ينتزع بلاد ما وراء النهر من آل سامان فانكسر وخسر سلطته على مناطقه. ودامت الدولة الصفرية ٣١ سنة.

دولة آل حمدان (٩٠٥ - ١٠٠٤)

هي دولة عربية تُنسب الى حمدان ابن حمدون موطنها في شمال العراق

وسوريا (منطقة الجزيرة) عاصرت الدولة البويهية والدولة الفاطمية. تولى اولاد حمدان وظائف لدى العباسيين فكان ابو الهيجاء عبد الله واليا على الموصل (٩٠٥ - ٩٢٩) ووضع اساس الدولة الحمدانية، وتولى اخوه الحسين قيادة عسكرية.

اخذت الدولة اتجاها استقلاليا في ولاية ناصر الدولة ابن عبد الله (٩٢٩ - ٩٦٩) الذي توسع غربا في سوريا واحتل حلب وحمص (٩٤٥) لكن الحمدانيين خسروا الموصل لما الحقها عضد الدولة البويهي بالعراق، وبذلك انتقل ثقلهم الى سوريا.

برز في سوريا الامير سيف الدولة (٩٤٣ - ٩٦٧) في عهد الخليفة المستكفي وجعل مقره حلب. في عهده نشطت الاداب العربية ولازمه الشاعر الشهير المتنبي (٩٤٨ - ٩٥٧) ومدحه بقصائد خلدته.

مضى سيف الدولة اكثر ايام حكمه في رد الغزوات البيزنطية من الشمال في حين كان عليه ان يقاوم ايضا زحف الفاطميين الذين استولوا على حلب (١٠٠٤) فانتهت الدولة الحمدانية وكانت مدة دوامها ٩٩ عاما.

الدولة الفاطمية (٩٠٩ - ١١٧١)

هي الدولة العربية الثانية التي قامت خلال العصر العباسي وكانت معادية لهم.

ينتسب الفاطميون الى فاطمة الزهراء إبنة النبي وزوجة الأمام علي بن أبي طالب وهم يتبعون المذهب الأسماعيلي الشيعي وقد عملوا للقضاء على الخلافة العباسية لانهم انكروا شرعيتها الدينية والسياسية.

سكن زعماؤهم بلدة سلَمية السورية الواقعة شرق حماه ومنها نشروا دعوتهم. ثم غادر سلَمية أحد زعماء الدعوة المسمى عبيد الله عام ٩٠٥ إلى شمال أفريقيا، وهناك تمكن مع مريديه من الأنتصار على الأغالبة واستولى على ما يعرف الآن باسم تونس وشرق الجزائر واتخذ لقب الخليفة عبد الله المهدي وجعل عاصمته القيروان.

وقد أنشأ الفاطميون خلافة شيعية توصلت في عهد الخليفة المعز لدين الله الى بسط سيطرتها على المغرب والجزائر وتونس وجزيرة صقلية ووصل

جوهر الصقلي قائد المعتز الى البحر الأطلسي. الا ان انظار الفاطميين وافئدتهم كانت متجهة الى الشرق وهدفهم القضاء على الخلافة العباسية.

عند وفاة كافور الأخشيدي في مصر عام ٩٦٩ أرسل المعز قائده جوهر فاستولى على مصر وأسس مدينة القاهرة عام ٩٧٢ فنقل المعز عاصمته إليها وبنى فيها جامع الأزهر.

في عهد المعز وابنه العزيز (٩٧٦ - ٩٩٦) وسّع الفاطميون ملكهم فاستولوا على سوريا والحجاز والجزيرة واليمن، واعترفت مقاطعة السند الهندية بسيادتهم وتولى الحكم فيها دعاة أسماعيليون.

وفي عهد المعز سمعنا الشاعر إبن هاني الأندلسي يثبت كون الخليفة يحكم بمشيئة الله لا عن طريق البيعة وإرادة المسلمين فمدحه قائلاً :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فانت الواحد القهار
انتم أحباء الاله وآله خلفاه في أرضه الأبرار
شرفت بك الافاق وانقسمت بك الأرزاق والآجال والاعمار

انتهت الدولة الفاطمية بتغلب صلاح الدين عليها في مصر وانشاء الدولة الايوبية سنة ١١٧١.

دور الفتوحات التركية

تابعنا في الصفحات السابقة الفتوحات العربية - البربرية - الاسلامية على الشاطيء الجنوبي للبحر الابيض المتوسط وفي اسبانيا. وننتقل الان الى فتوحات مختلفة من حيث الشعوب التي قامت بها وهي الشعوب التركية - المغولية، ومن حيث منشأها الجغرافي في آسيا الوسطى ثم اتساعها الى الهند شرقا والى روسيا وبلاد اوروبا الشرقية غربا.

بالحقيقة فانه يصعب فهم التاريخ الاسلامي دون معرفة الدور الذي لعبته هذه الشعوب التي سيطرت منذ القرن الحادي عشر على البلاد الاسلامية في آسيا الوسطى والهند وايران والعراق وسوريا ومصر لقرون طويلة، وانشأت في هذه المناطق دويلات كثيرة قضت على النفوذ العربي والفارسي سياسيا وثقافيا وبدأت عهدا جديدا من الفتوحات وصلت فيه الى اواسط اوروبا ولم يكن فيه للعرب والفرس دور يذكر.

ويمكن التأكيد انه منذ بداية القرن الثاني عشر اصبح الاسلام السني تركيا، كما صار الاسلام الشيعي بعدئذ ايرانيا فارسيا.

استولى الاتراك على هذه البلاد الشاسعة باسلوبين : اسلوب اغتصاب الحكم من الداخل عن طريق الجنود الاتراك العبيد ضمن الدولة، واسلوب القوة العسكرية للقبائل التركمانية والمغولية الزاحفة من آسيا الوسطى وبلاد المغول التي اكتسحت كل ما امامها.

بعدما دشّن الخليفة المعتصم العباسي (٨٣٣ - ٨٤٢) سياسة استخدام العبيد الاتراك في الجيش انتشرت هذه العادة في جميع انحاء العالم الاسلامي واصبحت علامة مميزة للمجتمعات الاسلامية.

كانت النتيجة السياسية لهذا التصرف واحدة في جميع الاحوال. فقد استغل العبيد قوتهم العسكرية وسيطروا على اصحاب السلطان الشرعي. وهكذا رأينا انه بعد المعتصم اصبحت الخلافة نفسها فريسة للقواد الاتراك الذين صاروا يعزلون الخليفة ويقتلونه لاتفه الاسباب.

وقد جرى شيء مماثل في جميع الدول الاسلامية التي قامت في الهند وآسيا الوسطى والشرق الاوسط ومصر.

في القرن الحادي عشر وما بعده بدأ الغزو التركي المباشر للبلاد الاسلامية حين نزحت موجات متلاحقة من القبائل التركية البدوية من آسيا الوسطى الى الشرق الاوسط واستولت على بلدانه. وقد شكل رؤساء هذه القبائل الطبقة العسكرية الجديدة التي انجبت حكام الهند وايران وبلاد ما وراء النهر والعراق وسوريا ومصر والاناضول.

استغرق دخول الاتراك في الاسلام، ومثلهم المغول، زمنا طويلا. وكان للصوفيين فضل كبير في ذلك اذ انه من منتصف القرن الثاني عشر كانت الطرق الصوفية قد انتشرت في مختلف ارجاء العالم الاسلامي وخلقت شعورا روحيا مفعما بالحيوية استولى على خيال البدو والحضر وعزز فكرة الجهاد لنشر الدين مع ما يرافقه من غنيمة متوقعة في حال الانتصار.

ان استيلاء الاتراك والمغول على جميع اراضي المسلمين في آسيا الوسطى والشرق الاوسط ومصر واقامة دول جديدة على انقاض دول اسلامية سابقة مع ما رافق ذلك من تخريب وتدمير وسفك دماء المسلمين موضوع مهم لكننا لا

نأخذ منه الا ما يعيننا على تبيّن اشكال الانظمة السياسية التي سادت في تلك الدول.

مواطن الاتراك والمغول

تشكل آسيا الوسطى مواطن القبائل البدوية التركية ـ المغولية. وهي منطقة شاسعة تمتد من بحر قزوين غربا، الى شمال غربي الصين ومنغوليا شرقا، ومن جنوب سيبيريا شمالا، الى شمال ايران وافغانستان جنوبا.

ينتسب الاتراك والمغول الى العائلة اللغوية المدعوة "ألتاي" (Altai) نسبة الى سلسلة الجبال في آسيا الوسطى التي تمتد نحو ١٦٠٠ كيلومترا وتتجه من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي ابتداءاً من صحراء غوبي المغولية الى سهول سيبيريا الغربية مخترقة اراضي صينية ومغولية وسوفياتية.

تتألف عائلة "ألتاي" اللغوية من ثلاث مجموعات هي المجموعة التركية، والمجموعة المغولية، ومجموعة المانشو الصينية. وتضم المجموعات الثلاث نحو اربعين لغة يتكلمها نحو ماية مليون شخص.

تتألف المجموعة التركية من اللغة التي يتكلمها سكان تركيا وجوارها وهي اشهر لغات هذه المجموعة وتضم لغات سكان ازبكستان واذربيجان وكازاخستان وتركستان. ويدّعي حاليا بعض الاتراك المتحمسين للقومية الطورانية ان جميع هذه الشعوب يجمعها جنس واحد ولغة مشتركة. لكن الواقع ان هذه اللغات التركية، كاللغات السامية، وان انتسبت الى اصل واحد، فان التفاهم بين متكلميها صعب ان لم يكن مستحيلا. ويصح القول نفسه عن اللغات المغولية، اما لغة المانشو فتكاد تكون منقرضة.

ديانة هذه الشعوب : كان رجال الدين في القبائل التركية والمغولية يُدعَون "شامان" (Shamans). والشامان هو من يستطيع ان يُحدِث في نفسه حاله غشوة او غيبوبة يتصل خلالها بعالم ما فوق الطبيعة ويخبر الاخرين بما سمع او رأى وبما يجب ان يفعلوا. وقد مارس رجال الشامان نفوذا واسعا على الجتمعات التركمانية والمغولية. وفي القرن الثالث عشر اعتنق كثير من المغول المجاورين للصين الدين البوذي.

الدول التركية

الدولة الغزنوية (٩٦٢ ـ ١١٥٠)

في منتصف القرن العاشر استولى عبد تركي سابق يُسمّى الباتيجين على مدينة غزنة (في افغانستان حاليا) ثم خلفه عبد اخر باسم سوبكتجين الذي مدّ سلطته الى كابول والسند.

خلفه ابنه الشهير محمود الغزنوي الذي حكم من ٩٩٨ ـ ١٠٣٠ فاستولى على منطقة البنجاب وتوغل في الهند لكن حروبه كانت تستهدف الغنيمة لا تأسيس دولة. في زمنه ازدهرت عاصمته غزنة وصارت مركزا مهما للاداب الفارسية.

بدأت عناصر الانحلال تظهر بعد وفاته في عهد ابنه مسعود مما شجع علاء الدين حسين من منطقة غور في أواسط أفغانستان، وهو أمير مغولي، على مهاجمة البلاد فانتصر على مسعود قرب مدينة مرو (١٠٤٠) ودخل غزنة ونهبها.

قبل ان نسترسل مع الدولة الغورية التي تنقلنا الى الهند، يستوقفنا دخول القبائل التركية من آسيا الوسطى.

السلاجقة الاتراك (١٠٥٥ ـ ١١٩٤)

يشكل تاريخ السلاجقة بداية سيطرة القبائل التركية على الشرق الادنى والاوسط. وكان آل سلجوق العائلة الحاكمة لقبائل أوغوز التركمانية التي أدّت بها الهجرات والمنازعات في آسيا الوسطى وجنوب شرق روسيا في القرن العاشر الى النزوح بقيادة رئيسها سلجوق الى المنطقة السفلى لنهر سيحون (سير داريا) وهناك اعتنقت الاسلام ربما على يد الصوفيين.

انقسمت غزوات السلاجقة الى قسمين : قسم دخل ايران وبلاد المشرق الاسلامية واستولى على معظمها، وقسم دخل الاناضول أي اراضي الدولة البيزنطية وبدأ المد التركي الذي أنتهى بالقضاء على الامبراطورية البيزنطية واحتلال القسطنطينية سنة ١٤٥٣.

السلاجقة في الشرق الاوسط

استخدم آل سامان، وهم ايرانيون، القبائل السلجوقية في الدفاع عن حدودهم اسوة بما فعله الخلفاء كما ذكرنا، فلما انهارت دولة السامانيين اسكن محمود الغزنوي السلاجقة في مناطق خراسان الحدودية ليدفع شرّ القبائل التركمانية الاخرى. بعد ذلك بزمن قويت شوكة السلاجقة فقام اثنان من احفاد سلجوق الاول، شاغري بك وطغرل بك، يسعيان لتأسيس حكم مستقل. ساعدهما على ذلك نبلاء الفرس السنّة ورجال الدين المعارضين لانتشار المذهب الشيعي الذي كان يؤيده امراء آل بويه والدولة الفاطمية في مصر وسوريا.

وقد بحثنا عهد السلاجقة المشرقيين في الفصل السابع.

السلاجقة في الاناضول

رأينا ان معركة مانزيكرت التي انتصر فيها ألب أرسلان على الامبراطور البيزنطي سنة ١٠٧١ فتحت الاناضول امام زحف القبائل التركية البدوية فدخلها فرع ثاني من السلاجقة عملوا كجنود مرتزقة في البداية لدى القواد البيزنطيين الذين كانوا يتنافسون على عرش القسطنطينية. لكنه لم يطل الزمن على هذه القبائل حتى استولت تدريجيا على الاناضول ووصلت الى بحر ايجه وعاثت فسادا في البلاد، كما يفعل البدو في كل بلد يحلّون فيه، فحوّلوا الاراضي الزراعية الى مراعي للمواشي ونهبوا المدن، وخربوا العمران وعطلوا الحياة الطبيعية. لكن الصليبيين استطاعوا ان يعيدوهم الى الداخل لمدة من الزمن عام ١٠٩٧ حيث أقام آل سلجوق ما عُرف باسم "سلطنة الروم" التي ازدهرت فيها الاداب واللغة الفارسية وانتشرت الطرق الصوفية التي مالت اليها القبائل التركمانية

لم يمضِ وقت طويل حتى انفصلت ولايات عن هذه السلطنة، وبقيت القبائل التركَمانية تثير القلاقل، وكان على سلطنة الروم ان تقاوم ايضا هجمات بيزنطية وصليبية، ثم اشتبكت السلطنة سنة ١٢٣٠ بمعركة مع امارة خوارزم تلاها معركة مع المغول خسر فيها السلاجقة سيادتهم واصبحوا مقاطعة مغولية.

دولة خوارزم (١٠٧٧ ـ ١٢٢٢)

تشغل منطقة خوارزم الآن جزءا من جمهورية الاوزبك والتركمان السوفياتية أسس سلالتها عبد تركي اسمه انوستيجين غَرَشاي عيّنه ملكشاه السلجوقي حاكما على خوارزم سنة ١٠٧٧ واستمرت سلالته على هذا الوضع الى ان انهارت الدولة السلجوقية فاستقلت خوارزم وأنشأ علاء الدين محمد (حَكَم من ١٢٠٠ ـ ١٢٢٠) امبراطورية قصيرة العمر امتدت من الهند شرقا الى الاناضول غربا بما في ذلك منطقة نهري جيحون وسيحون (سير داريا).

انتهت هذه الدولة بهجوم مغولي كاسح سببه ان علاء الدين محمد أمير خوارزم أمر سنة ١٢١٨ بقتل بعثة ارسلها جنكيز خان لاقامة علاقات تجارية معه. وفي رواية اخرى ان حاكم مدينة أوترار في خوارزم نهب قافلة تجار يتمتعون بحماية جنكيز خان وقتل افرادها وامتنع علاء الدين عن الاعتذار وتقديم تعويض مقبول.

مهما كان السبب فقد سار جنكيز خان سنة ١٢٢٢ على رأس جيش للانتقام. في هذه الحرب اكتسب المغول سمعة الارهاب والبطش الفظيع فقد دمروا المدن والقرى والحقول وقنوات الري وذبحوا السكان وخربوا البلاد العامرة : بخارى وسمرقند وهرات وطوس ونيسابور وقتلوا سكانها، وهرب علاء الدين الى جزيرة في بحر قزوين حيث توفي.

دولة المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧)

عندما استولى السلطان الكردي صلاح الدين الايوبي على مصر (١١٩٦)، تبع التقليد العسكري السائد من ايام الخليفة المعتصم وادخل في جيشه فرقة من العبيد الاتراك الى جانب العناصر الحرة من عرب واتراك واكراد وغيرهم، وجرى خلفاؤه على مجراه فكان السلطان الصالح أيوب (١٢٤٠ ـ ١٢٤٩) اكبر مشتري للعبيد الاتراك ليحمي نفسه وبلاده من منافسيه الايوبيين ومن هجمات الصليبيين.

بعد وفاته حصل صراع على خلافته، كالعادة في الدول الاسلامية، فقتل القواد الاتراك المماليك خليفته وعيّنوا احدهم سلطانا. من ذلك الوقت ولاكثر من ٢٥٠ عاما حكم مصر وسوريا عبيد او اولاد عبيد لا يتكلمون العربية

وبقوا طبقة غريبة تتسلط بالقوة على شعوب عربية اللسان والثقافة.

يُقسم تاريخ المماليك الى حقبتين حسب جنس العبيد الذين سيطروا : الحقبة الاولى (١٢٥٠ ـ١٣٨٢) تُنسب الى المماليك من أصل تركي وسمّوا البحرية لان ثكناتهم كانت على الشاطيء. والحقبة الثانية (١٣٨٢ ـ ١٥١٦) تُنسب الى المماليك من أصل شركسي وسمّوا البرجية لان ثكناتهم كانت داخل القاهرة.

بعدما قضى هولاكو خان المغولي على الخلافة العباسية ودمّر بغداد، نقل المماليك أحد افراد العباسيين الى القاهرة عام ١٢٦١ بامل ان يُكسبهم الخليفة العباسي شرعية للحكم الذي اغتصبوه. وبطبيعة الحال لم يكن للخليفة أية سلطة فعلية. ولم يتقيد المماليك، كغيرهم من السلاطين، بأي مبدأ للقبض على السلطة الا مبدأ القوة المادية المجرّدة، فالقائد الذي يحصل على تأييد الجيش كان يحكم بصرف النظر عن كفاءته السياسية والادارية. وقد توالى على الحكم في عهد المماليك الذي دام ٢٦٧ سنة ٤٥ سلطانا.

كانت أهم انجازات المماليك تغلبهم على من بقي من الصليبيين، ونجاحهم في صدّ غزوة هولاكو خان في موقعة عين جالوت (١٢٦٠). لكنهم لم يستطيعوا ان يحموا سوريا من غزوة تيمورلنك المغولي سنة ١٤٠٠.

جاءت نهاية المماليك على يد السلطان العثماني سليم الاول (١٥١٢ ـ ١٥٢٠) الذي تغلب عليهم سنة ١٥١٦ وهزمهم في معركة مرج دابق شمال حلب وقتل السلطان قانصوه الغوري واستولى على سوريا ومصر.

من اسباب سقوط المماليك انهم بقوا جسما غريبا في البلاد التي حكموها فلم يخالطوا السكان ولم يتكلموا العربية. وفي الفن العسكري لم يتعلموا استعمال البارود ومدافع الميدان كسلاح في المعارك واستخدموه فقط في حصار المدن.

بعد انتصار السلطان سليم اصبحت مصر وسوريا ولايات في الدولة العثمانية لكن المماليك بقوا محافظين على مكانتهم في مصر كطبقة سياسية ذات نفوذ الى ان استولى محمد علي باشا الالباني على ولاية مصر ودبّر لزعمائهم مذبحة في القاهرة (١٨١١) أكملها ابنه ابرهيم باشا بطرد الناجين منهم واخراجهم من مصر العليا.

دور الفتوحات المغولية

كان المغول قبائل بدوية وثنية تتوطن السهول الشمالية الشرقية في آسيا الوسطى وما وراءها ولم تكن القبائل موحدة تحت زعيم واحد حتى ظهر فيهم جنكيز خان وقادهم في حركة توسع عالمي اوصلتهم الى داخل الصين شرقا والى روسيا وبلاد الاسلام غربا. لكنهم اكتسحوا البلاد الاسلامية كوثنيين ولم يعتنقوا الاسلام الا فيما بعد.

وقد ذكرنا ان صلات لغوية وعنصرية جمعت بين المغول والاتراك. وقد تأرجح تاريخ المغول بين نزاعات داخلية، وبين محاولات توحيد الصفوف عندما يبرز زعيم قوي. أبرز قبائلهم في التاريخ : التتار، والقبائل "الذهبية"، وقبائل الشاغاتاي.

نستطيع ان نرى أثر المغول على الاسلام في فترتين : الفترة الوثنية عندما دمروا بقيادة جنكيز خان واولاده كل من عارض توسعهم، وبدأت الفترة الثانية عندما اعتنقت بعض قبائلهم الاسلام وقامت بنشره في الهند وجنوب روسيا.

عهد تيموجين (جنكيز خان ١١٥٥ ـ ١٢٢٧)

ولد تيموجين قرب بحيرة بايكال في منغوليا وكان زعيما لقبيلة صغيرة لكنه استطاع بالحيلة تارة، وبالحرب تارة اخرى ان يخضع خصومه من رؤساء القبائل واحدا بعد اخر وغايته ان يضمن مؤخرته قبل ان يبدأ توسعه. بعد معارك شديدة مع قبائل التتار القوية تغلب عليهم ويقال انه قتل منهم كل من زاد طوله عن محور دولاب العربة. وفعل ما شابه ذلك مع القبائل التي قاومته فأصبح مرهوب الجانب في محيط لا يخضع الا للقوة فدان له جميع المغول وجعل منهم أمة واحدة أعلنته سنة ١٢٠٦ زعيما عالميا (جنكيز خان) على جميع قبائل المغول.

بعد تأكده من ثبات قاعدته بدأ حملات عسكرية مدّت سيطرته غربا الى روسيا، وشرقا الى شمال الصين فاحتل بكين سنة ١٢١٥ وأسس ابنه قبلاي خان فيها مملكة دُعيت "يوان" دامت الى عام ١٢٦٨. ثم هاجم دولة

خوارزم (تقع الان في جمهورية ازبكستان السوفياتية) فدمّرها تدميرا شاملا فيما احتل قواده ايران وآسيا الوسطى. ويُعتبر جنكيز خان بنظر المؤرخين فاتحا وغازيا من اعظم القادة العسكريين في تاريخ الحروب.

قبل وفاته قسم جنكيزخان مملكته بين اولاده الاربعة : اوغوداي، وجوشي، وشاغاتاي، وتولوي.

سمّى ابنه اوغوداي "الخان الاكبر" وجعله متقدما على اخوته وأعطاه شمال مقاطعة سينكيانغ الصينية وغرب منغوليا، وأعطى ابنه جوشي الغرب الممتد الى روسيا، وحصل شاغاتاي على ايران وجنوب سينكيانغ، وحاز تولوي على شرق منغوليا.

توفي اوغوداي عام ١٢٤١ وحصل بعده نزاع على الزعامة ففاز مونغكي ابن تولوي بلقب الخان الاكبر عام ١٢٤٨.

دولة "وكلاء الخان" (ايل خان) (١٢٥٦ ــ ١٣٥٣)

قاد جيوش مونغكي في الشرق الاوسط أخوه هولاكو (١٢١٧ ــ ١٢٦٥) وهو حفيد جينكيز خان فاجتاز نهر أمو داريا سنة ١٢٥٦ وقضى على الحصن الاسماعيلي في قلعة ألاموت في جبال الديلم وأنهى السيطرة الاسماعيلية، وثبّت قبضته على ايران وجعلها قاعدة توسعه. كان هدفه ان تمتد فتوحاته حتى يصل الى البحر المتوسط لتشمل الامبراطورية المغولية جميع البلاد من الصين الى سواحل سوريا ولبنان لكن المماليك حالوا دون ذلك كما رأينا.

في ذلك الوقت كانت الدولة السلجوقية في اواخر ايامها فزحف هولاكو خان على بغداد وطلب من الخليفة المستعصم ان يستسلم فرفض واجاب على الطلب بكبرياء وتعجرف مع علمه بانه لا يملك القوة لمنع الاحتلال. حاصر هولاكو المدينة ودخلها عنوة في ١٠ فبراير ١٢٥٨ وقبض على الخليفة المستعصم وقتله ودمّر المدينة والعراق. وفي رواية ان المستعصم قُتل دعسا بالارجل. بعدماية عام جاء غازي مغولي اخر هو تيمورلنك اعاد تدمير بغداد وقتّل سكانها.

سار هولاكو من العراق الى سوريا فدخل حلب ودمشق ووصل الى

شاطيء المتوسط ثم أرسل موفدا الى القاهرة (١٢٦٠) يطلب خضوع سلطان المماليك قُطُز فردّ هذا بقتل المبعوث المنغولي فلم يعد بدّ من الحرب. وقعت المعركة في عين جالوت قرب مدينة الناصرة في فلسطين فانتصر المماليك. وانشغل هولاكو بنزاع على السلطة داخل الامبراطورية المغولية فانسحب عائدا الى أواسط آسيا وسلمت مصر من الاحتلال وان بقيت بلاد الاسلام الى شرق مصر وسوريا تحت حكم الوثنيين.

أسّس هولاكو خان دولة عُرفت بأسم "ايل خان" التي تعني بالفارسية "وكلاء الخان" الذين كانوا يدينون بالطاعة للخان الاكبر في الصين، وجعلوا قاعدتهم في أذربيجان وعاصمتهم تبريز. اظهر هولاكو تسامحا دينيا واسعا شمل جميع الاديان وجعل قانون "الياسا" قانون البلاد عوضا عن الشريعة او الى جانبها.

توالى على الحكم أربعة سلاطين هم : أباغا، وأرغون، وغزان، واوجيتو. وشمل حكمهم وادي دجلة والفرات وايران وجزءاً من أفغانستان ومن البنجاب، وبقوا على ولائهم للخان الاكبر في الصين الى حين وفاة قبلاي خان فبدأوا ينفردون بالسلطة.

دولة "وكلاء الخان" تعتنق الاسلام

في سنة ١٢٩٥ قرر السلطان الثالث غزان ان يجعل الاسلام دين الدولة. والسبب في ذلك ان المغول بعدما عاشوا فترة غير قصيرة في محيط اسلامي، استساغوا حياته وعاداته وتقاليده وتعاليمه ولم يعد لديهم سبب لرفضه فاسلم السلاطين والامراء وقواد الجيش وعليّة القوم وتبعهم الشعب على عادة تلك الايام حسب القول الشائع "الناس على دين ملوكهم" وهكذا عاد الاسلام الى مكانته في ايران وجوارها.

كانت هذه الدولة على خصومة مع المماليك ومع العثمانيين في الاناضول رغم انتماء حكامها الى عروق متقاربة. ولم يطل الزمن حتى ظهرت على دولة "إيل خان" عوارض الانحلال ونشأت فيها عدة دويلات اقليمية اضمحلت تدريجيا بعد عام ١٣٢٥.

"القبيلة الذهبية" (١٢٢٧ - ١٢٨٠)

قلنا ان بلاد الغرب الممتدة الى روسيا كانت من حصة جوشي ابن جنكيز خان فجعل عاصمته على نهر الفولغا قرب مدينة فولغوغراد الحالية.

خلف جوشي ابنه باتو خان (توفي سنة ١٢٥٥) الذي شكّل ما عرف باسم "القبيلة الذهبية" (The Golden Horde) نسبة الى خيمته الذهبية اللون. في سنة ١٢٣٥ انتُخب باتو قائدا عاما للقسم الغربي من الامبراطورية المغولية واوكلت اليه مسئولية الاستيلاء على روسيا واوروبا. فهاجم مدينة كييف ودمرها واحرقها، وكانت المدينة الرئيسية في روسيا بذلك الوقت. وتم استيلاؤه على كامل الاراضي الروسية بحلول سنة ١٢٤٠. في السنة التالية تغلبت قبائله على قوات اوروبية متعددة وبسطت سيطرتها على بولونيا وبوهيميا وهنغاريا ووادي نهر الدانوب فامتدت حدود مملكة باتو خان من جبال الاورال التي تشكل حدود روسيا الاوروبية الى جبال الكاربات في اوروبا الشرقية، مع امتداد عميق في سيبيريا الجنوبية.

اما في الجنوب فكانت حدوده البحر الاسود وجبال القوقاس وشمال ايران التي كان يحكمها المغول التابعون للخان الاكبر.

إسلام المغول

بعد باتو خان وفي عهد خليفته بيرك (١٢٥٧ - ١٢٦٧) بدأت قبائله تدخل في الاسلام اي في زمن سبق بقليل اعتناق دولة "وكلاء الخان" الدين الاسلامي. وانشأ بيرك علاقات وثيقة مع المماليك في مصر الذين يمتّون بالاصل مثله الى قبائل الكيبتشاك التركية.

وصلت قوة "القبيلة الذهبية" الى اوجها في عهد عبد الله خان اوزبك (١٣١٢ - ١٣٤١) وكانت الطبقة الحاكمة مؤلفة من مغول مسلمين يتكلمون اللغة التركية في حين كان السكان روس مسيحيين.

بعد وقت قصير بدأت الامبراطورية المغولية الواسعة بالانهيار. تجزأت اولا الدولة التي انشأها هولاكو خان في ايران وجوارها الى امارات متفرقة سنة ١٢٢٥ وتغلبت سلالة مينغ الصينية سنة ١٣٦٨ على سلالة يوان التي اسسها قبلاي خان الشهير. وانهزمت "القبيلة الذهبية" في روسيا سنة ١٣٨٠ في

معركة مع حلف روسي تزعمته موسكو، ولم يبقَ للمغول المسلمين وجود في روسيا الا في ثلاث امارات هي قازان واستراخان وشبه جزيرة القرم.

وهكذا تقلصت الامبراطورية المغولية الى مواطنها الاصلية مع بضع امارات خارجية متفرقة.

الغزو المغولي الثاني : تيمورلنك (١٣٣٦ - ١٤٠٥)

في القرن الذي شاهد زوال الامبراطورية المغولية ظهر فاتح مغولي اخر هو تيمورلنك الذي نشأ مسلماً قرب مدينة سمرقند واستطاع ان يعلن نفسه اميرا على قبيلة المغول المنسوبة الى شاغاتاي ابن جنكيز خان.

اشتهر تيمورلنك في حروبه بهمجية وبربرية فاقت ما فعله من سبقه من الفاتحين. ويحتار الذين يؤمنون بالتضامن الاسلامي في امره لانه وجّه جميع حملاته العسكرية ضد دول وشعوب اسلامية في بلاد آسيا الوسطى وافغانستان، وايران، واذربيجان، والعراق، وسوريا، والاناضول، وروسيا والهند. كما ان جميع حكام الدول الذين حاربهم وقتلهم كانوا مثله من اصل تركي او مغولي. فهو لم يستهدف نشر الاسلام ولا اعلاء شأن العنصر المغولي - التركي اذ قتل ودمر دون تمييز وكانه وباء حلّ بالاسلام. ولم تنجُ الامارات المغولية في روسيا من نقمته فقد سار في مناطق "القبيلة الذهبية" ودمر مدنها واحدة بعد اخرى فقضى عليها وسهل على الروس استعادة بلادهم فيما بعد. ولم تسلم منه الا امارة شبه جزيرة القرم الذي تحالف حاكمها المغولي معه.

ثم استدار تيمورلنك نحو الدولة العثمانية فتغلب على سلطانها بايزيد الاول في معركة انقرة (١٤٠٢) واسره فمات في السجن بعد سنة. وقفل تيمورلنك عائدا الى بلاده. وبما ان الشريعة الاسلامية لم تنص على طريقة انتقال الحكم فان كل امير من اولاد تيمورلنك واحفاده كان يعتبر، حسب التقليد التركي والمغولي، ان من حقه ان يملك من امبراطورية تيمورلنك ما يستطيع. من هؤلاء كان ظاهر الدين بابور ملك فرغانة الذي خسر ملكه لما هاجمه محمد شيبان خان، احد احفاد جنكيزخان وحاكم قبائل الاوزبك في ما وراء نهر سير داريا وتغلب عليه سنة ١٥٠٦ فوجه جهوده الى الهند كما سنرى.

الاتراك والمغول في الهند

ذكرنا ان العرب احتلوا منطقة السند وشمال غرب الهند سنة ٧٢٤ وبقيت هذه المناطق نحو ثلاثة قرون تحت حكم امراء مسلمين محليين يعترفون بسيادة الخلافة الاموية ثم العباسية.

الدولة الغورية (١١٩٢ - ١٢٠٥)

بعد انهيار دولة السلاجقة وتنازع الامراء الاتراك على وراثتها برز منهم محمد الغوري منتصرا فارسل قائده قطب الدين ايباك في حملة على الهند فتغلب على الامراء المسلمين المحليين واحتل دلهي سنة ١١٩٣ وجعلها قاعدته. ثم فرض الغوريون سلطتهم على مدن البنجاب والسند وسهل نهر الغانج. لكن حملة من خوارزم هزمت محمد الغوري سنة ١٢٠٥ ثم اغتيل في السنة التالية في مدينة لاهور فكان ذلك بداية النهاية للدولة الغورية.

الدولة الخالجية (١٢٩٦ - ١٢٩٨)

برزت بعد ذلك سلالة تركية اخرى استولت على سلطنة دلهي هي دولة الخالجيين. اشتهر منهم علاء الدين الخالجي (١٢٩٦ - ١٣١٦) وكان حاكما عاقلا وحّد الادارة وفتح ابواب الحكم لنبلاء الهنود الذين أسلموا ليجعل حكمه اكثر تمثيلا للشعب، ووسع حدوده جنوبا في المناطق الهندية. توفي علاء الدين سنة ١٣١٦ وتلى ذلك كالعادة نزاعات على السلطة بين اولاده.

انتصر منهم غياث الدين طغلق وتولى الحكم (١٣٢٠ - ١٣٢٥) فضم اليه منطقة البنغال التي كانت مستقلة تحت حكم امراء مسلمين اخرين.

خلفه ابنه محمد بن طغلق الذي بسط سلطته على جزء كبير من اراضي الهند لكن هذا السلطان لم يدم طويلا فقد غزا تيمورلنك الهند واحتل دلهي سنة ١٣٩٨ ودمرها وقضى على الدولة الخالجية ثم انسحب عائدا الى آسيا الوسطى حيث توفي سنة ١٤٠٥. حكم الهند باسم تيمورلنك احد قواده ثم استقلت سلالته بالحكم، كما قامت على انقاض الدولة الخالجية امارات اسلامية متعددة.

الامبراطورية المغولية في الهند (١٥٢٦ - ١٧٦١)

بعد نحو قرن من الانحلال ومن الدويلات الاسلامية المتفرقة عاد احد احفاد تيمورلنك ليقيم الامبراطورية التي دامت قرنين من الزمن وهو ظاهر الدين بابور (النمر) (١٤٨٣ - ١٥٣٠) ملك فرغانة الذي ذكرناه وهو السليل الخامس لتيمورلنك من جهة والده، والسليل الرابع عشر لجنكيز خان من ناحية والدته.

بعد اربع محاولات فاشلة، تمكن بابور من التغلب على سلطان دلهي باستعماله البارود والمدافع ودخل المدينة سنة ١٥٢٦. ثم احتل مدينة اغرا. ومد سلطانه على اكثر الامارات الاسلامية الباقية وتوفي سنة ١٥٣٠.

خلفه ابنه همايون فنازعه الوراثة اخوته وغيرهم من المدّعين لكن الحكم استقرّ له بعد اربع سنوات من القتال وتوفي بعد ذلك بسنة.

السلطان اكبر "الكبير" (١٥٥٦ - ١٦٠٥)

خلف همايون ولده السلطان اكبر وكان ملكا حكيما منفتح العقل سعى لتحقيق رؤياه للهند كمجتمع متسامح تتحد فيه مختلف الجماعات الدينية والقومية وتعيش في سلام وتآلف تحت حكمه.

كانت اكثر حملاته العسكرية ناجحة. في سنة ١٥٧٠ عقد مؤتمرا للامراء الهنود في شمال غربي الهند وافقوا فيه على عقد حلف ودّي والاعتراف للسلطان اكبر بالسيادة.

توسع السلطان اكبر بعدئذ في منطقة غوجارات فوصلت حدوده الى البحر وهناك وجد التجار البورتغاليين الذين عقدوا سلاما معه.

في السنين التي تلت ذلك استولى السلطان اكبر على بهار والبنغال وضم اليه افغانستان وكشمير وجنوب السند الى مصب نهرها. ثم استولى على بلوخستان ومدينة قندهار الستراتيجية التي تتحكم بالطريق بين افغانستان والهند. بعد ذلك توسع في الولايات الجنوبية.

قسم السلطان اكبر ممتلكاته الى خمس عشرة منطقة ادارية غطت ثلاثة ارباع القارة الهندية. ضمن هذا الترتيب الاداري كان يوجد في مختلف انحاء

الامبراطورية عدد من الولايات يتمتع امراؤها بدرجات متفاوتة من السلطة والمكانة داخل مناطقهم.

ادرك السلطان اكبر ان مملكته المؤلفة من اجناس واديان ومذاهب كثيرة لا تستطيع ان تعيش بسلام وتآلف اذا لم يتبع سياسة متسامحة وعادلة. فعقد لذلك مجلسا دينيا عام ١٥٧٥ دعا اليه ممثلين عن المسلمين والهندوس والزورواستريين والمسيحيين والبراهمة وغيرهم بقصد اكتشاف ارضية عامة تجمع بينهم. وعلى اثر دراسة قارنت بين الاديان والمذاهب اقتنع السلطان اكبر ان كل واحد منها يحوي شيئا من الحقيقة لكن ما من واحد منها يحوي الحقيقة بكاملها.

في سنة ١٥٧٩ اصدر قرارا اتخذ لنفسه بموجبه الحق بان يفسر الشريعة الاسلامية عندما تختلف الاراء حول معاني القرآن. وسعى لانهاء تدخل رجال الدين بشئون الدولة. لكن هذا التدبير لم يرضِ طبعا الفقهاء ورجال الدين.

اكد السلطان اكبر ايضا ما مارسه الخلفاء والامراء المسلمون قبله من ان الملك هو ممثل الله على الارض لكنه اضاف انه يجب ان يكون حاكما حياديا متسامحا مع جميع الاديان، ناشراً السلام في اراضيه عاملا لرفاه كل طبقات الشعب.

في سبيل تحقيق هذه الرؤيا نزع السلطان اكبر عن الاسلام صفة دين الدولة وشمل برعايته جميع المذاهب، وسمح بالتبشير والدعاية الدينية وبانتقال الانسان بحرية من مذهب الى اخر. من معتقداته ان محمداً كان نبيا لكنه لم يكن النبي الوحيد او اخر الانبياء او اعظمهم. واقتبس كثيرا من معتقدات الهندوس والفرس وعاداتهم.

تبعا لذلك الغى اكثر القوانين الاسلامية ضد غير المسلمين وعدّل القوانين الشخصية للمسلمين والهنود على السواء ليوثق بينهم بقوانين مشتركة. ثم سعى الى توحيد شمال الهند ثقافيا. جعل اللغة الفارسية اللغة الرسمية الوحيدة. وفي عهده ظهر الاندماج في فن البناء والموسيقى والرسم بين الحضارتين الاسلامية والهندية.

لقد اراد السلطان اكبر من هذه الاصلاحات ان يحقق الوحدة

الاجتماعية بين عناصر مملكته لكن عصره لم يكن بعد مستعدا لقبول برنامج مثالي كهذا.

ازعج السلطان اكبر في اواخر ايامه ثورة ابنه البكر سليم عليه في مدينة الله اباد. لكن سليم تاب واعتذر فسامحه والده وعينه خليفته الشرعي. وتوفي اكبر بمرض سنة ١٦٠٥.

نظرا لما ذكرناه عن معتقدات اكبر وسياسته فانه من الصعب اعتباره ملكا مسلما.

بعد وفاة اكبر بدأت ظاهرة جديدة بين الحكام المغول والمسلمين. فقد اعتدنا ان نرى الاخوة واولاد العم يتقاتلون لوراثة الحكم لان الشريعة تركت الموضوع حائراً، ولان الفقهاء خلال عشرة قرون لم يستطيعوا اصدار نظام مستقر للوراثة.

اما الظاهرة الجديدة فهي استعداد الاولاد لقتل ابيهم استعجالا للحكم. تجلى ذلك بين خلفاء اكبر. وقد راينا ان سليم ثار على والده السلطان اكبر ثم تاب فعينه والده خليفته الشرعي. وما كاد يستلم الحكم (١٦٠٥ - ١٦٢٧) ويتخذ لقب جاهنجير حتى ثار عليه ابنه البكر خسرو لكن هذا هُزم قرب مدينة لاهور وسُملت عيناه جزئيا وعومل انصاره بقسوة كما قُتل زعيم السيخ الذي ناصر خسرو فاحدث ذلك شرخا دائما بين الدولة المغولية وطائفة السيخ.

تابع جاهنجير سياسة والده في التوسع الجغرافي وفي التسامح الديني والتآلف الاجتماعي وصار يستطيع الادعاء انه ما خلا منطقة أسام في شمال شرق الهند فان جميع مناطق الهند الشمالية اصبحت بحوزته.

في السنين الاخيرة من ملكه ثار عليه ابنه خرّام (١٦٢٣) لما شعر بان والده يفضّل عليه اخاه شهريار وقامت حرب داخلية دامت ثلاثة اعوام انهزم بنتيجتها خرّام واستسلم لوالده الذي سامحه وعينه خليفته الشرعي.

توفي جاهنجير بمرض سنة ١٦٢٧. وفي عهده بلغت الفنون درجة عالية من التقدم. ومع انه، كوالده، لم تكن له ثقة كاملة بعقائد اي دين، فانه كان على العموم مسلما متحررا.

تولى خرام الحكم واتخذ لقب "شاه جهان" (١٦٢٨ - ١٦٥٨) وكان قد

قتل اخاه خسرو خنقا (١٦٢٢) وفتك بجميع الامراء من عائلته الذين كان يمكن ان ينازعوه الحكم. رغم هذا الفعل الدموي فقد كان شاه جهان من ناحية اخرى حاكما متنورا ومتسامحا رعى العلماء والشعراء الذين نظموا باللغة الفارسية والسنسكريتية والهندية، وكان هو ايضا شاعرا مرموقا. اكثر ما يذكر به شاه جهان بناء تاج محل وهو المدفن الذي بناه قرب مدينة اغرا تذكارا لزوجته "ممتاز محل" التي توفيت اثناء الوضع سنة ١٦٢١ واستغرق بناء تاج محل اثنين وعشرين سنة من ١٦٣٢ - ١٦٥٤ وهو اية في فن البناء.

قبل وفاته (١٦٥٨) اوصى شاه جهان بان يخلفه ابنه الاكبر دارا. لكن اولاده الثلاثة الاخرين، اورانغزب ومراد وشجاع، عارضوا قرار والدهم. ونجح اورانغزب باغتيال اخويه مراد وشجاع وحبس والده شاه جهان في حصن اغرا حيث توفي سنة ١٦٦٦ واعلن اورانغزب نفسه امبراطورا (١٦٥٨ - ١٧٠٧).

تبع اورانغرب سياسة اسلامية متشددة واتخذ دور المدافع عن الاسلام التقليدي فعين "محتسبا" لمراقبة اخلاق الناس وضمان طاعتهم للتعاليم الاسلامية فيما يتعلق بالقمار والشرب والصلاة والصوم والعلاقات الجنسية. ثم عكس سياسة من سبقوه تجاه رعاياه غير المسلمين فاعاد فرض "الجزية" ومنع بناء معابد جديدة او تصليح معابد قديمة للطوائف الهندية، واصدر اوامر بهدم جميع المدارس والمعابد الهندية ومنعهم من تعليم دينهم واقامة شعائره. وضاعف الضرائب على الهنود ورفعها عن المسلمين، وشجع الهنود على اعتناق الاسلام بمنحهم مساعدات وهدايا وتوظيفهم في دوائر الدولة. واضطهد الشيعة والصوفيين وكان طموحه ان يجعل الهند دولة اسلامية صرفة.

كان اورانغزب ايضا شكوكا كثير الظنون باقرب الناس اليه. فبالاضافة الى قتل اخوته، سجن اولاده الثلاثة فتوفي اكبرهم في السجن وكذلك احدى بناته.

ادت سياسته المتعصبة الى ثورات متلاحقة شارك فيها ابن اورانغزب الثالث الذي فرّ بعدئذ الى ايران. وبذلك بدأ انحلال الامبراطورية المغولية.

خلف اورانغزب ابنه الثاني باهادور شاه (او شاه علم) سنة ١٧٠٧ بعدما

قتل اخويه. وتابع سياسة والده المتعصبة وتوفي سنة ١٧١٢.

ما بين ١٧١٢ و ١٧٦٠ توالى على الحكم سبعة ملوك ضعفاء وكانت وفاة كل ملك مناسبة لحروب بين الورثاء والمدّعين فتداعت الامبراطورية واستعاد الامراء الهنود قوتهم وتوسعوا حتى تقلصت الدولة المغولية بحلول عام ١٧٧١ الى مدينة دلهي وجوارها.

لقد تبسطنا نوعا ما في وصف الامبراطورية المغولية في الهند لانها ابرزت ظواهر جديدة في الحكم الاسلامي. اولها ان هذا الحكم يمكن ان يتارجح ما بين التسامح المطلق في عهد السلطان اكبر وابنه جاهنجير وحفيده خان جهان، وبين التعصب المغرق في التقليد في عهد اورانغزب وابنه شاه علم دون ان يوجد ضابط سياسي يمنع التطرف في الاتجاهين.

الظاهرة الثانية اننا اعتدنا ان نرى ابناء واخوه الخلفاء والامراء والسلاطين المسلمين يتقاتلون فيما بينهم على الوراثة بعد وفاة كل حاكم وكان ذلك من اهم اسباب انهيار الخلافات والدويلات. وكل ذلك لان الاسلام لم يستطع ان يضع نظاما واضحا لانتقال الحكم بصورة شرعية وسلمية الى هذا الوقت. الا ان الظاهرة الجديدة في الدولة المغولية في الهند هي اقدام الطامعين بالحكم من اولاد السلطان على قتل والدهم استعجالا للحكم، او اقدام الحاكم على قتل اولاده او سجنهم استبعادا لشرّهم.

وقد سار بعدهم سلاطين بني عثمان على ما يشابه ذلك.

الظاهرة الثالثة هي ان الحكام المسلمين في الهند كانوا مقطوعي الصلات مع الخلافات الاسلامية في دمشق وبغداد والقاهرة واسبانيا فلم يحدث تفاعل سياسي وحضاري معها.

الظاهرة الرابعة ان الحكام المسلمين الاتراك والمغول بقوا غرباء في المحيط الهندي الذي سيطروا عليه فلم يمتزجوا به اذ كان يفرّق بينهم الدين واللغة فقد كانت الطبقة الحاكمة تتكلم التركية الى ان جعل السلطان اكبر اللغة الفارسية لغة البلاط والثقافة، ولم يتخذ احدى اللغات الهندية.

يلاحظ ايضا ان حكام الهند المسلمين تنكروا للغة العربية فلم يكن لها وجود في بلادهم مع انها لغة الاسلام. وعندما اختاروا لغة اخرى للثقافة

اختاروا الفارسية وليس العربية.

الهند تحت الاحتلال الانكليزي

اذا كان المسلمون من عرب واتراك ومغول قد غزوا واحتلوا اجزاءا من الهند فان الدول الاوروبية بدأت تنازعهم احتلالهم منذ بداية القرن الخامس عشر عندما وصل فاسكودي غاما البورتغالي بالبحر الى شاطيء الهند الغربي واقام عليه مراكز محصّنة للتجارة.

تبعه الهولنديون عام ١٥٩٨ ثم الانكليز (١٦٠٠) ثم الفرنسيون (١٦٦٤) بشكل شركات تجارية. وكان العصر عصر نزاع وحروب في اوروبا شكلت المستعمرات في الشرق وفي القارة الاميركية سبباً غير رئيسي من اسبابها. بعد مساومات ومقايضات خرجت بريطانيا الدولة الاقوى في الشرق وبدأت عملية الاستيلاء على الهند حتى ضمّتها بكاملها الى امبراطوريتها بما فيه الولايات الاسلامية والهندية. ودام الحكم الانكليزي الى عام ١٩٤٧ حينما حصلت الهند والباكستان على الاستقلال.

لقد المنا في الصفحات السابقة باكثر الفتوحات الاسلامية من عربية وفارسية وبربرية وتركية ومغولية ولم يبق الا ذكر الدولة العثمانية وهي اطول الدول الاسلامية بقاءً وارسخها اساساً، واوسعها انتشارا.

لكننا نتوقف قليلا امام الدولة الصفوية في ايران التي عاصرت الدولة العثمانية وهي، وان لم تقم بفتوحات، فقد انشأت حالة جديدة في منطقة الشرق الاوسط استمرت الى هذا اليوم لانها نمّت وجدانا وطنيا فارسيا موحدا بين الفئات العنصرية واللغوية الكثيرة في ايران استمر حياً الى ثورة الامام الخميني التي تحاول ان تُغرق هذا الشعور الوطني المميّز في حركة اسلامية جامعة.

الدولة الصفوية (١٥٠٢ - ١٧٢٢)

ينحدر الصفويون من الشيخ صفي الدين (١٢٥٢ - ١٣٣٤) الاردبيلي (مدينة في شرق اذربيجان تبعد ستين كيلومترا عن بحر قزوين) الذي كان رئيس الطريقة الصوفية المعروفة باسم "الصفوية". وقد انتقلت هذه الطريقة

من المذهب السني الى المذهب الشيعي (الامامية) بنهاية القرن الرابع عشر بتأثير خلفاء الشيخ سني الدين.

في بداية القرن السادس عشر كان بدو التركمان في الاناضول يقاومون محاولات العثمانيين لاخضاعهم ومالوا الى الطرق الصوفية والى الدعوة الشيعية كرد فعل ضد المؤسسة الاسلامية السنية. وقد استمالهم الشيخ اسماعيل رئيس الطريقة الصفوية ومؤسس الدولة التي عرفت بهذا الاسم وتمكن بمساعدتهم من التغلب على قبائل الاوزبك السنية واحتل مدينة تبريز.

بعدها اعلن الشيخ اسماعيل نفسه شاها على اذربيجان وعلى ايران عام ١٥٠١ وقضى السنين العشر التالية في اخضاع باقي المقاطعات الايرانية، ثم ضم اليه المقاطعات العراقية بما فيها بغداد والموصل، واعلن المذهب الشيعي كالدين الرسمي للدولة الايرانية وفرضه على جميع السكان. وقد حكم الصفويون كممثلين للامام الثاني عشر واستمدوا شرعيتهم من هذا الادعاء.

ولما كان يوجد علماء شيعة في العراق ولبنان اكثر مما كان يوجد في ايران فقد اسس الصفويون مدارس عديدة استدعوا اليها العلماء من البلدين.

يمكننا النظر الى الدولة الصفوية بانها تحقيق لاقصى طموحات الحركة الشعوبية التي قامت في العصر العباسي. فقد اعطت الايرانيين طابعا دينيا يميزهم الى الابد عن العرب والاتراك الذين يجاورونهم، وساعد ذلك من جهته على ابراز الشخصية الوطنية الايرانية بثقافتها ولغتها وادابها كشخصية متميزة ومستقلة عن العالم السني الذي يحيط بها.

كان الشاه اسماعيل نشطاً في نشر الدعوة الشيعية فاكثر من الدعاة بين قبائل التركمان في الاناضول مما سبب قيام ثورات متلاحقة ضد الحكم العثماني.

ردا على ذلك شن السلطان سليم الاول (١٥١٢ - ١٥٢٠) حملة عنيفة ضد القبائل التركمانية في شرق الاناضول واعلن انه يقوم بجهاد مقدس ضد اعداء الدين فقتل منهم اعدادا كبيرة ثم توجه سنة ١٥١٤ نحو اذربيجان فالتقى مع جيش الشاه اسماعيل في موقعة شالديران شمال شرق بحيرة "فان" في شرق الاناضول مستخدما المدافع والبارود فهزم الايرانيين الذين

كانوا يستخدمون الرماح والنبال. في السنوات التالية تابع السنيّون العثمانيون في الغرب وقبائل الاوزبك في الشمال الشرقي ضغطهم على الصفويين الذين خسروا كردستان ودياربكر وبغداد فنقلوا عاصمتهم من اردبيل الى موقع اكثر أمنا في اصفهان.

شاه عباس (١٥٨٨ ـ ١٦٢٩) : بدأ شاه عباس الاول (الكبير) اصلاحاته بتحديث الجيش وكلف بذلك ضابطا بريطانيا هو سير روبرت شيرلي فنظّمه حسب الاساليب الاوروبية وسلّحه بالاسلحة الحديثة بما فيها المدافع والبارود. في سنة ١٥٩٨ اوقع هزيمة كبرى بقبائل الاوزبك واستعاد خراسان. وفي سنة ١٦٠٢ وما بعدها اشتبك بعدة معارك مع العثمانيين فانتصر واستعاد منهم الاراضي التي كانوا ربحوها بما فيها بغداد.

في زمنه وصلت ايران الى منزلة الدول الكبرى وانتعشت تجارتها مع الدول الغربية والهند وتواردت الوفود والبعثات الدبلوماسية من سائر الجهات الى اصفهان التي اصبحت من اجمل المدن في ذلك العصر. واظهر الصفويون تسامحا دينيا تجاه الاديان الاخرى.

بعد وفاة شاه عباس (١٦٢٩) دامت الدولة الصفوية نحو قرن لكنها كانت فترة انحطاط استولى في نهايتها قائد تركي على الحكم تحت اسم نادر شاه وعزل الشاه الصفوي طاهماسب الثاني (١٧٣٢)، وحاول ان يعيد المذهب السني الى ايران فلم ينجح ثم غزا الامبراطورية المغولية في الهند وعاد منها بغنائم هائلة منها "عرش الطاووس" وماسة "كوهي نور". وفي النهاية ثار عليه جنده لقساوته وقتلوه سنة ١٧٤٧.

السلالة القاجارية (١٧٩٦ - ١٩٢٥)

مع نهاية الدولة الصفوية ثم مقتل نادرشاه سادت فترة فوضى في ايران انتصر بنهايتها زعيم قبيلة قاجار التركمانية السنية اغا محمد وبسط سيادته على البلاد وأعلن شاهاً سنة ١٧٩٦ وجعل طهران عاصمته.

في عهد خلفه بدأ التوسع الروسي جنوبا. ففي حربين (١٨٠٦ - ١٨١٢) و (١٨٢٦ - ١٨٢٨) احتل الروس جورجيا وارمينيا وشمال اذربيجان.

وجاءت نهاية السلالة القاجارية لما اجتمع المجلس الوطني الايراني في اكتوبر ١٩٢٥ واعلن عزل اخر شاه قاجاري وتنصيب رضا شاه بهلوي.

وهكذا بعد احد عشر قرنا من الحكم العربي والتركي والمغولي قطعتها فترة ٢٥٠ عاما من الحكم الصفوي الايراني، وجدت ايران نفسها عام ١٩٢٥ محكومة من ملك فارسي شيعي يتكلم اللغة الفارسية.

* * *



الفصل التاسع

الفتوحات العثمانية
(١٣٠٠ - ١٦٨٣)

بعد انتصار السلطان ألب ارسلان السلجوقي على الجيش البيزنطي في معركة مانزيكرت (١٠٧١) زحفت مجموعات ضخمة من قبائل اوغوز التركمانية البدوية على شرق الاناضول واواسطها مدفوعة برغبة الجهاد لنشر الاسلام والمكاسب التي ترافق الغزو فدمروا مناطق واسعة وحولوا الاراضي الزراعية العامرة الى مراعي لمواشيهم.

وقد ذكرنا ان السلاجقة اقاموا دولة في الاناضول الى جانب دولتهم في العراق وايران قضت عليها جيوش جنكيزخان (١٢٤٢) وفرضت السيادة المغولية على امراء القبائل التركية.

برز من هؤلاء نحو سنة ١٣٠٠ عثمان امير منطقة بيثينيا في شمال غرب الاناضول التي تجاور بحر مرمرة والبوسفور والبحر الاسود. استولى عثمان على المناطق المجاورة واخضع القبائل التركية فكان المؤسس للدولة العثمانية التي دامت مدة اطول من اية دولة اسلامية اخرى.

كانت الصفة الحربية العسكرية هي الغالبة في تاريخ بني عثمان والدولة التي انشاوها التي كان دأبها التوسع بحروب متواصلة على اربع جبهات.

كانت جبهتها الاولى داخلية ضد قبائل التركمان في الاناضول ودامت الحملات ضدهم نحو قرنين حتى تم اخضاعهم تماما.

وكانت الجبهة الثانية في الشرق ضد الدولة الصفوية الشيعية التي لقيت دعوتها وعقائدها استجابة لدى اعداد كبيرة من قبائل التركمان البدوية في الاناضول. وكانت المعارك بين الدولتين غير حاسمة وقد نجح الصفويون بصدّ تقدم العثمانيين نحو آسيا الوسطى.

اما الجبهة الثالثة فكانت في الجنوب استهدفت مناطق اسلامية هي

سوريا وفلسطين ومصر والحجاز.

وكانت الجبهة الرابعة والأهم هي الجبهة الغربية في اوروبا حيث كانت الحروب مستمرة طيلة ستة قرون (١٣٠٠ - ١٩٢٢) ويمكن ان تقسم الى قسمين واضحين : فترة التوسع والانتصار ما بين عام ١٣٠٠ الى نهاية القرن السابع عشر، وفترة التقلص والانحسار من القرن السابع عشر الى القرن العشرين التي خسر فيها العثمانيون جميع ممتلكاتهم الاوروبية والروسية وارتدوا الى الاناضول مع مساحة صغيرة عبر البوسفور. وفيما يلي بعض التفاصيل.

في عهد خلفاء عثمان : اورهان (١٣٢٤ - ١٣٦٠) ومراد الاول (١٣٦٠ - ١٣٨٩) وبايزيد الاول (١٣٨٩ - ١٤٠٢) استولى العثمانيون على معظم اراضي الاناضول، لكن اتجاههم منذ البداية كان نحو الغرب الاوروبي. في سنة ١٣٥٤ استولوا على غاليبولي على الشاطيء الاوروبي من الدردنيل وجعلوها قاعدتهم للتوسع في اوروبا. وفي سنة ١٣٦١ استولى مراد الاول (١٣٦٠ - ١٣٨٩) على مدينة ادرنه وجعلها عاصمته، وهي تسيطر على الطريق الرئيسي لغزو البلقان مما مكنه من الاستيلاء على مكدونيا وتراقيا وبلغاريا واجزاء من صربيا. وقد شكل امراء البلغار حلفا ضده لكنه تغلب عليهم في موقعة كوسوفو سنة ١٣٨٩ التي قُتل فيها.

خلفه ابنه بايزيد الاول (١٣٨٩ - ١٤٠٢) الذي انتصر على حملة صليبية في نيكوبوليس على نهر الدانوب (١٣٩٦) فمنحه الخليفة العباسي في القاهرة لقب سلطان تقديرا لعمله. وانهى بايزيد اخضاع الامراء الاتراك في شرق الاناضول. ثم هاجمه تيمورلنك واشتبك معه في معركة انقرة (١٤٠٢) التي خسرها بايزيد لان جزءا من جيشه تخلى عنه بحجة انه ترك واجب الجهاد وتقارب مع البيزنطيين، فلم يصمد معه الا اتباعه من الاقطاعات المسيحية.

والحقيقة ان النفوذ المسيحي في البلاط العثماني كان قويا خلال القرن الرابع عشر فقد تزوج السلطان اورهان ابن عثمان الاميرة ثيودورا ابنة الامبراطور البيزنطي يوحنا السادس التي انجبت له مراد الاول. وهذا تزوج بدوره اميرات يونانيات وبلغاريات، كما تزوج السلطان بايزيد الاول الاميرة ديسبينا ابنة الامير الصربي لازار. وكانت كل اميرة تجلب معها حين زواجها

اتباعا ومستشارين الى البلاط العثماني وبتاثيرهم تخلى سلاطين آل عثمان عن عاداتهم البدوية واقتبسوا العادات البيزنطية في بلاطهم واسلوب معيشتهم.

اعاد تيمورلنك سلطة الامراء الاتراك في الاناضول ونفوذ رجال الدين لكن الحكم العثماني في اوروبا بقي سالما من تأثيره.

اختلف اولاد بايزيد الاربعة على الخلافة وتقاتلوا فانتصر محمد (١٤١٣ - ١٤٢١) على اخوته وقتلهم. ولما كان رجال الدين قد ناصروه في حربه فانه اعطى الدولة طابعا اسلاميا تقليدياً. خلفه مراد الثاني (١٤٢١ - ١٤٥١) الذي احتل مدينة سالونيكا (١٤٣٠) وغزا باسطوله مرافيء تجار البندقية في بحر الادرياتيك وبحر ايجه ثم صدّ حملة نظمها بابا روما واشترك فيها البيزنطيون وهنغاريا والبندقية. واشتبك الطرفان في موقعة فارنا على البحر الاسود (١٤٤٤) فانتصر مراد.

حين وفاته (١٤٥١) بدت حدود المملكة حتى جنوب الدانوب مضمونة وكأن الامبراطورية العثمانية في اوروبا وجدت لتبقى.

نتوقف هنا لنبحث موضوعين اثرا في مسيرة الدولة العثمانية وتطورها.

اولهما يتعلق بالتنظيم العسكري، والثاني يتعلق باسلوب تسلسل الحكم، وهي المشكلة الدائمة في انظمة الحكم الاسلامية التي لم تجد حلا.

كانت الدولة العثمانية دولة عسكرية تضع في أول اهدافها التوسع المستمر، والسيطرة على شعوب جديدة واستنزاف مواردها، ونشر الاسلام فيها.

التنظيم العسكري

في القرن العثماني الاول من عثمان الى مراد الثاني كانت قوتان تتجاذبان الامبراطورية في اتجاهين متعاكسين. فقد حاز النبلاء الاتراك خلال تلك الفترة على ممتلكات واسعة في الاناضول وفي البلاد الاوروبية المفتوحة وكانوا يشكلون قوة سياسية كبرى بمساعدة رجال الدين والتقليديين.

مع ان مراد الثاني وصل الى الحكم بمساعدة هذه الفئات، فانه بدأ يتضايق من نفوذهم وسعى لاقامة قوة مقابلة فاتجه الى الجماعات غير التركية. ولما كان الفتح بموجب الشريعة الاسلامية يستتبع رقا فان مراد بدأ ياخذ

الذكور المسيحيين وهم صغار السن من بلاد البلقان ويدخلهم في الاسلام، ونظّم منهم فرق مشاة عرفت باسم الانكشارية اصبحت مع الوقت عماد قوة الجيش. وبما ان جنود هذه الفرق كانوا عبيداً لشخص السلطان وليس لهم ولاء لغيره، فانه شعر بالاطمئنان نحوهم ثم عزز مكانتهم بمنحهم اقطاعات في اكثر الاراضي الجديدة المفتوحة فنافسوا القوى التقليدية السابقة وازداد عددهم كثيرا.

كان كل توسع جديد في اوروبا يزيد عدد الانكشارية وبالتالي يعزز نفوذهم فصار قوادهم يرغبون بان تستمر الحروب وتتوسع، في حين كان الامراء الاتراك ورجال الدين يريدون لها ان تتوقف حتى يحدّوا من قوة الانكشارية.

خلف محمد الثاني (١٤٥١ - ١٤٨١) السلطان مراد الثاني فطوّر نظام الانكشارية الذي ادخله سلفه. اصدر امرا بانه يجب على جميع اعضاء الحكومة والموظفين وضباط الجيش وجنوده سواءً كانوا اتراكا، او من بلاد البلقان، احرارا او عبيدا، مسلمين او مسيحيين، ان يصبحوا عبيداً شخصيين للسلطان. ومن ذلك الوقت لم يعد بوسع احد ان يتوظف في الحكم او الادارة او الجيش الا اذا قبل وضع العبودية فاصبحت الطبقة الحاكمة بكاملها مستعبدة نظريا للسلطان وملزمة بالولاء لشخصه.

لكن حظ العثمانيين مع الجنود العبيد الانكشارية لم يختلف عن حظ الحكام المسلمين السابقين مع جنودهم العبيد من الاتراك. فبعد فترة من الزمن قويت شوكة الانكشارية وشعروا انهم صاروا العنصر المرجح في توازن القوى الداخلية يتحكمون بتنصيب السلطان وعزله ويتصرفون بمقدرات الدولة ويمنعون تحديث الجيش الى ان تمكن السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) من تدبير مذبحة قضى فيها عليهم سنة ١٨٢٦ وانشأ جيشا حديثا يتقاضى رواتبه من الدولة.

قضية تسلسل الحكم

منذ قيام الاسلام شكلت قضية تسلسل الحكم مشكلة رئيسية لم تجد لها حلاّ على مدى الاجيال. فالشريعة كما رأينا لم تتعرض لهذه الناحية،

والفقهاء لم يستنبطوا مبدأ مقبولا ومحددا. فبعضهم دعى الى الشورى دون ان يحدد ميكانيكيتها (اي اسلوب ممارستها) فبقيت دعوتهم طوباوية في اطار النظريات، وبعضهم ايّد الحكم المطلق بمشيئة الخليفة او السلطان، وكانت نتيجة هذا الضياع اننا نادرا ما نرى في تاريخ الشعوب الاسلامية عربية كانت او فارسية او تركية او مغولية انتقالا سلميا للحكم بموجب قاعدة واضحة مسلّم بها بل بالعكس فقد خلّفت وفاة الحكام فتنا واغتيالات وقتل وثورات في اغلب الاحيان.

لم يختلف الحال في عهد العثمانيين حتى جاء محمد الثاني (١٤٥١ - ١٤٨١) وابتكر حلاً غريبا. لم ينشر قانونا للوراثة اذ قد يكون ذلك مخالفا للشريعة، لكنه عالج الموضوع من ناحية عملية وان كانت بربرية فادخل تقليدا سار عليه هو ومن بعده من السلاطين يقضي بقتل جميع اخوة السلطان القائم لانهم هم الذين يُحتمل ان ينازعوا اولاد السلطان على الحكم، بحيث يبقى تسلسل الحكم للاولاد.

فلما جاء السلطان سليم الاول (١٥١٢ - ١٥٢٠) طوّر تقليد الوراثة ولم يكتفِ بقتل اخوته بل قتل جميع اولادهم السبعة، ثم قتل اربعة من اولاده وترك ابنه سليمان الوريث الوحيد.

وقد سار سلاطين بني عثمان على ما يشابه ذلك الى نهاية الخلافة وان صاروا اكثر ليونة فاستبدلوا القتل بوضع اخوتهم ومن يشكّون بمطامعهم أسرى في القصور ودوائر الحريم وبعزلهم عن الاتصال بالناس.

نعود الى الفتوحات العثمانية. اهم ما اشتهر به محمد الثاني انه استولى على القسطنطينية وجعلها عاصمته (١٤٥٣) بعدما كانت الامبراطورية البيزنطية قد تقلّصت الى حدود المدينة وضواحيها. وقد قُتل الامبراطور قسطنطين اخر امبراطور بيزنطي على اسوار المدينة وهو يدافع عنها. بعد ثمان سنوات (١٤٦١) سقطت مدينة طرابزون في شمال شرق تركيا على البحر الاسود وكانت اخر معقل بيزنطي فزالت الامبراطورية البيزنطية التي دامت نحو الف عام.

وقد هلل المسلمون لهذا الانتصار لانه أزال آخر قوة مسيحية في بلاد المشرق. بعد ذلك اخضع محمد الثاني خانات التتار في شبه جزيرة القرم

الذين اعترفوا بالسيادة العثمانية، كما سيطر على منطقة الموريا في اليونان وعلى البوسنة والبانيا ووصل الى بحر الادرياتيك.

خلفه ابنه بايزيد الثاني (العادل) (١٤٨١ - ١٥١٢) وكان متديّنا متأثرا باتجاه العلماء والفقهاء وكبار الموظفين الموالين لهم ومعارضا لميول ابيه الغربية. من ذلك انه ازال من القصور الرسوم التي كلف والده الفنانين الايطاليين برسمها، واعاد الاوقاف الخيرية التي كان محمد الثاني قد ضمها الى املاك الدولة.

في زمنه أقام شاه اسماعيل الدولة الصفوية في ايران (١٥٠٢) وكان قسم كبير من القبائل التركمانية في شرق الاناضول قد قبل دعوته الشيعية وشكلوا القسم الاكبر من الجيش الصفوي. وقد ثارت هذه القبائل في الاناضول على الحكم العثماني (١٥١١) فحاربها بايزيد وفتك بها وعزز حكمه في الاناضول وفي البلقان وباقي المناطق. وفي سنة ١٥١٢ تنازل عن الحكم لابنه سليم.

السلطان سليم الفاتح

اشتهر السلطان سليم الاول (١٥١٢ - ١٥٢٠) باخذه الخلافة من اخر خليفة عباسي في القاهرة بعدما قهر المماليك في معركة مرج دابق شمال مدينة حلب (١٥١٧) واستولى على سوريا وفلسطين ومصر والجزائر فتضاعفت مساحة الامبراطورية العثمانية. وحاول ان يضم ايران فوجه حملة ضخمة (١٥١٤) ضد الدولة الصفوية لم تحقق غايتها وبقي شاه اسماعيل سيدا في بلاده.

ادعى السلطان سليم ان الخليفة العباسي المغلوب على امره والذي قبض عليه في القاهرة جيّر الخلافة له. ثم احتل الحجاز وضم اليه مدينتي مكة والمدينة فذاع صيته وارتفعت مكانته بين المسلمين. واتخذ السلطان التركي من ذلك الوقت لقب "الخليفة" و "خادم الحرمين الشريفين".

مع احتلال مصر والحجاز اصبح البحر الاحمر بحيرة عثمانية وسيطر العثمانيون على تجارته.

السلطان سليمان القانوني

خلف السلطان سليم ابنه سليمان الملقب "بالقانوني" (١٥٢٠ - ١٥٦٦) الذي وصلت الدولة في عهده الى اقصى امتدادها ويعتبر عهده العصر الذهبي للدولة العثمانية.

في زمنه كان العثمانيون يسيطرون على شواطيء البحر المتوسط الشرقية والجنوبية : سوريا ولبنان وفلسطين ومصر وليبيا وتونس والجزائر عدا مراكش، بالاضافة الى جزيرتي مالطة وكريت. وكان القراصنة من ليبيا والجزائر يهاجمون الملاحة الاوروبية بتشجيع من السلطان.

في الغرب شمل حكم السلطان سليمان الدول التي تعرف حاليا باسم رومانيا وبلغاريا واليونان وتشكسلوفاكيا وهنغاريا ويوغسلافيا والبانيا على بحر الادرياتيك بما فيه جزيرة كورفو وجزر اخرى صغيرة. وحاصر مدينة فيينا عام ١٥٢٩ ثم ارتد عنها دون نتيجة.

في الشرق انتزع السلطان سليمان العراق من الدولة الصفوية الشيعية ودخل بغداد (١٥٢٤) واستولى على الشاطيء الغربي من الخليج الفارسي (الكويت وابو ظبي) لكن الصفويين وقفوا سدا منيعا حال دون امتداد الزحف العثماني الى ايران وآسيا الوسطى.

في الشمال اصبح البحر الاسود وبحر ازوف بحيرتين عثمانيتين تحيط بهما اراضي تركية من جميع الجهات بما في ذلك شبه جزيرة القرم وجزء من القوقاس.

بعد عهد سليمان القانوني بدأت عوامل الانحلال تنخر تدريجيا في الدولة. ومع الوقت فَشَت الرشوة والفساد والمحسوبية ومحاباة الاقارب في دوائر الحكم واصبحت طريقة حياة اشتهرت بها السلطنة العثمانية في العهود المتأخرة.

محمد الرابع وحصار فيينا الثاني

مع ذلك بقيت للعثمانيين قوة كافية ليقوموا بمحاولة ثانية للسيطرة على الامبراطورية النمسوية. ففي عهد محمد الرابع (١٦٤٨ - ١٦٨٧) حاصرت قوة

عثمانية مؤلفة من ثلاثماية الف جندي مدينة فيينا في شهري يوليو وسبتمبر ١٦٨٣ بتاييد ضمني من ملك هنغاريا واستطاعت ان تخترق خطوط الدفاع الخارجية للمدينة وبدأت تحفر انفاقا تحت الاسوار الداخلية فهرب الامبراطور من المدينة. تجاه هذا الخطر نجح البابا اينّوسنت الحادي عشر بتشكيل قوة مؤلفة من ملك بولونيا سوبييسكي، وشارل دوق لورين وامراء بافاريا وساكسوني ومقاطعات المانية اخرى، استطاعت ان تتغلب على المهاجمين وتفك الحصار فكانت اخر محاولة عثمانية للتوسع في اوروبا.

لم يوقف هذا المجهود العسكري الضخم الذي قام به السلطان محمد الرابع تقهقر الدولة العثمانية رغم جهود اصلاحية متاخرة كالقضاء على الفرق الانكشارية عام ١٨٢٦ في عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) وانشاء جيش حديث تحت ادارة ضباط اوروبيين. ففي مدة قرنين تقلصت الامبراطورية العثمانية العاتية وانحصرت في اراضيها الاسيوية مع مساحة صغيرة في اوروبا عبر الدردنيل تضم مدينة ادرنة كما خسرت جميع المناطق المفتوحة في اوروبا والشرق الاوسط وشمال افريقيا والبحر الاحمر والخليج الفارسي.

قيام "تركيا الفتاة"

بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) وتقلص مساحتها الى تركيا الاسيوية حدث انقلاب عميق في تركيا بتأثير الحركة الوطنية الطورانية التي دعيت باسم جمعية "تركيا الفتاة" بزعامة الضابط مصطفى كمال الذي اتخذ لقب "اتاتورك" الذي يعني "ابو الاتراك". وقد اعتقدت هذه الحركة ان الاسلام هو سبب تاخر الاتراك وان لا امل للشعب التركي بمواكبة الحضارة الحديثة المتغلبة بالعلوم والفنون والقدرة الحربية الا بالانفصال عن الاسلام واقتباس الانظمة الغربية. لذلك الغت الخلافة واقامت مكانها جمهورية علمانية فصلت ما بين الدين والدولة مخالفة بذلك ما قال به الفقهاء المسلمون من اتحاد الدين والدولة في الاسلام، وتخلت عن الشريعة الاسلامية ووضعت قانونا مدنيا مستمدا من القانون السويسري، وادارت ظهرها للشرق المسلم واتجهت بكليتها الى الغرب. وقد انضمت

الجمهورية التركية العلمانية بعد الحرب العالمية الثانية الى الحلف العسكري الاطلسي وشكلت احد اركانه الرئيسية، كما قدمت طلبا للانظمام الى السوق المشتركة الاوروبية مما يعني اندماجها الكامل بالمجتمع الاوروبي الغربي.

قبل الختام يجب ان نورد ملاحظتين تتعلقان بوضع العرب في الدولة العثمانية. اولهما انها كانت اول دولة تركية اعتمدت اللغة التركية في مراسلاتها وادابها ولم تلجأ الى اللغة العربية او الفارسية كمن سبقها من الاتراك الذين تسلطوا على المنطقة.

والملاحظة الثانية، انه في عهد استعمارها للبلاد العربية انحدرت اللغة العربية الى ادنى درجات الانحطاط. وقد وصل الامر بالعثمانيين ايام تركيا الفتاة الى انهم كانوا يرسلون معلمين اتراك الى المدارس الرسمية في البلاد العربية ليعلموا التلاميذ اللغة العربية بركاكة تركية.

وقد سكت العرب المسلمون عن هذا التردي وقبلوه على مدى اجيال مع انهم حملة القرآن الكتاب العربي المبين. ولم ينهض باللغة العربية ويعيد اليها مكانتها واشراقها ويبعث ماضيها المجيد وآدابها الا المسيحيين في جبل لبنان في القرن التاسع عشر لانهم كانوا تحرروا نسبيا من الحكم العثماني المباشر.

قبل ان نختم هذا الفصل، نلحق به اللائحة التالية بتسلسل سلاطين آل عثمان من عثمان الاول مؤسس الدولة الى عبد المجيد الثاني الذي قامت في عهده الجمهورية التركية العلمانية، وكان عدد السلاطين اربعة وثلاثين تعاقبوا على الحكم مدة ٦٤٣ سنة.

سلاطين آل عثمان

١ - عثمان الاول	١٢٨١ - ١٣٢٥
٢ - اورخان	١٣٢٥ - ١٣٦٢
٣ - مراد الاول	١٣٦٢ - ١٣٨٩
٤ - بايزيد الاول (ابن مراد)	١٣٨٩ - ١٤٠٢
٥ - محمد الاول (ابن بايزيد)	١٤٠٣ - ١٤٢١
٦ - مراد الثاني	١٤٢١ - ١٤٥١
٧ - محمد الثاني (استولى على القسطنطينية)	١٤٥١ - ١٤٨١
٨ - بايزيد الثاني	١٤٨١ - ١٥١٢
٩ - سليم الاول (تغلب على المماليك واستولى على العراق وبلاد الشام ومصر)	١٥١٢ - ١٥٢٠
١٠ - سليمان الاول (الكبير) حاصر فيينا ١٥٢٩	١٥٢٠ - ١٥٦٦
١١ - سليم الثاني	١٥٦٦ - ١٥٧٥
١٢ - مراد الثالث	١٥٧٥ - ١٥٩٥
١٣ - محمد الثالث	١٥٩٥ - ١٦٠٣
١٤ - احمد الاول	١٦٠٣ - ١٦١٧
١٥ - مصطفى الاول وعثمان الثاني	١٦١٨ - ١٦٢٢
١٦ - مصطفى الاول (اعاد الانكشارية تنصيبه)	١٦٢٢ - ١٦٢٣
١٧ - مراد الرابع	١٦٢٣ - ١٦٤٠
١٨ - محمد الرابع (حصار فيينا الثاني)	١٦٤٠ - ١٦٨٧
١٩ - سليمان الثاني	١٦٨٧ - ١٦٩١
٢٠ - احمد الثاني	١٦٩١ - ١٦٩٥
٢١ - مصطفى الثاني	١٦٩٥ - ١٧٠٣
٢٢ - احمد الثالث	١٧٠٣ - ١٧٣٠
٢٣ - محمود الاول	١٧٣٠ - ١٧٥٤

٢٤ - مصطفى الثالث	١٧٥٧ - ١٧٧٣
٢٥ - عبد الحميد الاول	١٧٧٣ - ١٧٨٩
٢٦ - سليم الثالث	١٧٨٩ - ١٨٠٧
٢٧ - مصطفى الرابع	١٨٠٧ - ١٨٠٨
٢٨ - محمود الثاني (فتك بالانكشارية)	١٨٠٨ - ١٨٣٩
٢٩ - عبد المجيد الاول	١٨٣٩ - ١٨٦١
٣٠ - عبد العزيز (اخو عبد المجيد)	١٨٦١ - ١٨٧٦
٣١ - عبد الحميد الثاني (عزل عام ١٩٠٩)	١٨٧٦ - ١٩٠٩
٣٢ - محمد الخامس (ابن عبد الحميد الثاني)	١٩٠٩ - ١٩١٨
٣٣ - محمد السادس وحيد الدين (عزل)	١٩١٨ - ١٩٢٢
٢٤ - عبد المجيد الثاني (ابن عم وحيد الدين)	١٩٢٢ - ١٩٢٤

كان اخر خليفة عثماني توفي في باريس
بعدما اعلنت الجمهورية التركية العلمانية.



الفصل العاشر

ردّ اوروبا على الفتوحات الاسلامية

كان من الطبيعي ان يردّ الاوروبيون على الفتوحات الاسلامية ذات الطابع الديني والاعتدائي بنظرهم. فقد احتل المسلمون مناطق مسيحية واسعة في الشرق الاوسط وشمال افريقيا في القرنين الثامن والتاسع واهمها البلاد المقدسة في فلسطين، بالاضافة الى احتلال اسبانيا في اقصى غرب اوروبا، ثم التغلب على الامبراطورية البيزنطية وإزالتها من الوجود، واخيرا في سلسلة تلك الفتوحات، احتلال مناطق واسعة من روسيا، وبلاد البلقان بكاملها. فليس من الغريب ان تسعى اوروبا لرد هذا الاعتداء ودحره اذا شعرت بقدرتها على ذلك.

حدث هذا الرد في فترتين متباعدتين. بدأت الفترة الاولى في أواخر القرن الحادي عشر واحتوت حدثين مهمين هما : استعادة الاسبان لبلادهم وخروج المسلمين منها وهو ما بحثناه في الفصل السابق، والحدث الثاني هو الحملات الصليبية التي قام بها الاوروبيون ما بين عامي ١٠٩٥ و ١٢٩١ اي خلال قرنين من الزمن لاستعادة الاراضي المقدسة. وكان الدافع لهذين الحدثين العاطفة الدينية بالدرجة الاولى وان امتزجت بالنسبة لتحرير اسبانيا بالعاطفة الوطنية.

اما الفترة الثانية للرد الاوروبي فبدأت في القرن السادس عشر واتخذت مجريَين : حررت روسيا بلادها من اخر اثار الاحتلال المغولي ثم اتجهت جنوبا وشرقا فاحتلت مناطق اسلامية واسعة شملت اجزاءاً من ايران وآسيا الوسطى بكاملها. اما المجرى الثاني فاستهدف تحرير اوروبا الشرقية من الاحتلال العثماني ولم تنتهِ هذه الفترة الا بزوال مؤسسة الخلافة (١٩٢٤) واعادة

الاتراك الى المنطقة الاسيوية مع قطعة صغيرة على البر الاوروبي. وفي هذه الفترة امتزج الدافع الديني مع الشعور الوطني في الشعوب الاوروبية التي ثارت على الاحتلال العثماني.

الحملات الصليبية (١٠٩٥ - ١٢٩١)

بعد خمسة قرون من سقوط الامبراطورية الرومانية وروما (٤٧٦) تحت هجمات القبائل الجرمانية والسلافية التي دمرت الحضارة الرومانية، وبعد اربعة قرون من احتلال القبائل البدوية العربية للاقطار البيزنطية في سوريا ومصر وشمال افريقيا ثم اسبانيا، عمّت اوروبا منذ القرن العاشر روح دينية مسيحية غذّتها الكنيسة التي كانت المؤسسة الوحيدة التي خرجت في اوروبا من فوضى الهجمات البربرية محتفظة بكيانها وبتنظيمها الكهنوتي لتنقل الى شعوب العالم الغربي بعض مدنية العصر الروماني. وكان من الطبيعي لهذا السبب ان تمارس الكنيسة نفوذا كبيرا على المؤمنين باعتبارها الملاذ الروحي والزمني الوحيد لهم.

في اواخر القرن الحادي عشر كانت الاخبار ترد من المشرق عن اضطهاد السلاجقة الاتراك للمسيحيين، والتعديات على الحجاج الاوروبيين الوافدين الى القدس، وتدنيس الاماكن المقدسة في فلسطين، ثم تهديد المسلمين للامبراطورية البيزنطية وللقسطنطينية عاصمة النصرانية الشرقية، واحتلالهم لانطاكية (١٠٨٥) وهي من اهم مراكز النصرانية.

رداً على كل ذلك دعا البابا اوربان الثاني الى مؤتمر عقد في مدينة كليرمونت الفرنسية (١٠٩٥) حث فيه المسيحيين على انقاذ بيت المقدس.

ما بين ١٠٩٥و١٢٩١ سارت ثمان حملات مسيحية نحو الاراضي المقدسة عُرفت باسم "الحروب الصليبية" لان رسم الصليب كان بارزا على صدور المحاربين.

احتل الصليبيون مدينة الرها (اورفه) سنة ١٠٩٨ واستعادوا انطاكية في السنة نفسها ثم دخلوا القدس في ١٥ يوليو (تموز) ١٠٩٩ واحتلوا الشاطيء الشرقي للبحر المتوسط الممتد من انطاكية الى عسقلان في جنوب فلسطين واقاموا امارات مستقلة في الرها وانطاكية وطرابلس وبيروت وعكا كما اقاموا

مملكة القدس وانشأوا قلاعا كثيرة على طول الساحل لحمايتهم من الغارات البحرية.

تصدى للصليبيين عماد الدين زنكي (١٠٨٤ - ١١٤٦) وهو قائد تركي عيّنه السلطان السلجوقي محمود واليا على الموصل ثم امتدت سلطته الى شمال سوريا وحلب. واوكل اليه السلطان مقاومة الصليبيين. وكان عماد الدين زنكي معاصرا للخليفة العباسي المسترشد.

في سنة ١١٤٤ استعاد عماد الدين منطقة الرها بعد ٤٦ سنة من احتلالها فكانت اول نكسة للقوات الصليبية مما دعا البابا اوجينيوس الثالث لتجريد الحملة الصليبية الثانية التي قادها الامبراطور كونراد الثالث الالماني والملك لويس السابع الفرنسي اللذان جمعا قواتهما في القدس ثم تقدما عام ١١٤٨ على راس خمسين الف جندي وحاصروا دمشق.

في ذلك الوقت خلف عماد الدين ابنه نور الدين محمود (١١٤٦ - ١١٧٤) الذي نجح برفع الحصار عن دمشق واحتل المدينة سنة ١١٥٤ فانتهت الحملة الصليبية الثانية بالفشل.

دور صلاح الدين الايوبي (١١٣٧ - ١١٩٣)

يُلقب ايضا باسم "الملك الناصر صلاح الدين". وُلد في تكريت على نهر الفرات في عائلة كردية وجيهة. بعد ولادته انتقل والده نجم الدين ايوب الى مدينة حلب ودخل في خدمة السلطان عماد الدين زنكي. نشأ صلاح الدين في بعلبك ودمشق ثم التحق بعمه القائد اسد الدين شيركوه الذي كان يعمل بخدمة السلطان نور الدين محمود والذي قام بثلاث حملات على مصر التي يحكمها الفاطميون. بعد وفاة شيركوه سنة ١١٦٩ عيّن السلطان نور الدين محمود صلاح الدين قائدا للجيوش السورية ووزيرا على مصر.

بعد سنتين (١١٧١) تغلب صلاح الدين على الخلافة الفاطمية الشيعية والغاها واعاد مصر الى المذهب السني فاصبحت مصر بكاملها تحت حكمه. وبعد وفاة السلطان نور الدين (١١٧٤) استقل صلاح الدين بالحكم واسس السلالة الايوبية التي دامت ٧٩ سنة.

ما بين ١١٧٤ و ١١٨٦ تمكن صلاح الدين من بسط سيطرته على مصر

وسوريا وفلسطين، واحتل حلب وشمال العراق سنة ١١٨٣ ووحد قوات المسلمين فاصبحت القوات الصليبية تواجه جبهة عريضة متحدة. تقدم صلاح الدين بعد ذلك نحو القدس واشتبك مع الصليبيين في معركة حطين قرب بحيرة طبريا (٤ يوليو ١١٨٧) فكانت خسائر الصليبيين فادحة مما مكّن المسلمين من احتلال القدس (٢ اكتوبر ١١٨٧) بعد ٨٨ سنة من بقائها في يد الصليبيين، واحتلوا ايضا المدن الفلسطينية : عكا ويافا ونابلس والناصرة وقيصرية وعسقلان بالاضافة الى صيدا. لكن صور والمعاقل الصليبية الاخرى الى الشمال بقيت سالمة.

كان لسقوط القدس وقع هائل في اوروبا فدعا البابا غريغوار الثامن للحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩) التي قادها الامبراطور الالماني فردريك بربروسّا واشترك بها ملك فرنسا فيليب الثاني وملك انكلترا ريشارد الاول (قلب الاسد) وكانت اكبر الحملات. توفي الامبراطور فردريك غرقا في السنة التالية لكن الحملة تابعت مسيرتها فاحتل الملك ريشارد جزيرة قبرص البيزنطية ثم تعاون مع ملك فرنسا على حصار عكا التي استعادوها في شهر يوليو ١١٩١. لكن الحملة فشلت في الوصول الى القدس. عندها عقد الملك الانكليزي مع السلطان صلاح الدين اتفاقية لمدة خمس سنوات سمحت للاوروبيين بالحج الى القدس، وعاد الملك ريشارد الى بلاده عام ١١٩٢ وهكذا انتهت اكبر حملة صليبية دون ان تحقق غرضها.

اما السلطان صلاح الدين فعاد الى عاصمته دمشق حيث توفي بعد سنة. بعد سبع سنوات من سقوط القدس دعا البابا اينوسنت الثالث الى الحملة الصليبية الرابعة (١١٩٨) وكان غرضها مهاجمة مصر باعتبارها ركن المقاومة الاسلامية. لكن هذه الحملة حادت عن قصدها فهاجمت القسطنطينية (١٢٠٤) ونهبتها وانشأت فيها دولة لاتينية دامت ستين سنة. ومع ان البابا استنكر عمل هذه الحملة فانها اوقعت شرخا في التعاون المسيحي وعمقت الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية.

بعد ثلاث سنوات دعا البابا نفسه الى حملة خامسة ضد العالم الاسلامي كان عمادها الفرنسيون والالمان الذين احتلوا دمياط في مصر سنة ١٢١٩ لكن فيضان النيل اوقف الزحف نحو القاهرة وانتهت الحملة بهدنة لمدة تسع

سنوات. وكانت هذه اخر حملة صليبية نظمها بابا روما.

بعد ذلك قاد الامبراطور فردريك الالماني الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٩) وتبعه الملك لويس التاسع الفرنسي بالحملة السابعة سنة ١٢٤٨ ضد مصر ففشلت كما فشلت الحملة الخامسة.

عاد الملك لويس بعد ٢٢ سنة الى تجديد الحملة الثامنة. لكنها ما كادت تحط في تونس حتى اصابها وباء مات فيه الملك واكثر الجيش.

خلال هذه الحملات الصليبية الفاشلة وسيئة التنظيم، استولى العبيد الاتراك والشراكسة في الجيش المصري على الحكم وقضوا على الدولة الايوبية واقاموا في مصر وسوريا ما عرف بدولة "المماليك" (١٢٥٠ - ١٥١٧) فانتقلت اليهم مهمة صد الصليبيين. وقد ذكرنا ان المماليك صدوا هجوم هولاكو خان على سوريا في موقعة عين جالوت (١٢٦٠) فتفرغوا بعدها لحرب الصليبيين وكانت جهودهم ناجحة.

استولوا على انطاكية عام ١٢٦٨، وسقطت طرابلس (١٢٨٩)، وعكا (١٢٩١)، وكانت اخر معقل صليبي وهكذا انتهت القصة الصليبية في بلاد المشرق بعد ان دامت ١٩٦ عاما ولم تخلف الا المرارة والفرقة وبقيت فلسطين والقدس من ذلك التاريخ في يد المسلمين الى ان خسروها في حربهم مع اسرائيل عام ١٩٦٧.

يلاحظ في الحملات الصليبية التي عددناها باختصار انها كانت سيئة التنظيم، بعيدة عن مصادر تموينها، متعددة القيادات، للقائمين بها اهداف مختلفة، قابلتها ابتداءا من تولي السلطان صلاح الدين القيادة، جيوش من اهل البلاد خبيرة بالارض والمواقع، موحدة تحت قيادة واحدة بثت في المقاتلين حماس الجهاد للدفاع عن الدين والبلاد في وجه جيوش اجنبية وقد وقعت مهمة الدفاع ضد الصليبيين على عاتق سوريا وفلسطين ومصر ولم تشارك الخلافة العباسية والدول الاسلامية في شمال افريقيا وفي آسيا الوسطى بالمعارك. وقد ذكرنا في الفصل السادس انه عندما بدأت الحملات الصليبية توجهت وفود متعددة من البلاد التي احتلها الصليبيون الى بغداد تطلب نجدة الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي فلم تحظ بأي اهتمام.

اثار الحروب الصليبية

حمّل كتاب مسلمون الحروب الصليبية معاني بعيدة تعبر عن شعور شعبي. فقالوا انها كانت اول صدام بين جبهة اوروبية متحدة نوعا ما وبين الاسلام، وانها سبب سوء العلاقة المستمرة بين المسيحية والاسلام. من هؤلاء الكاتب السيد محمد أسد وهو من أصل يهودي بولوني اعتنق الاسلام وعاش فترة في الحجاز ايام الملك عبد العزيز ثم مثّل الباكستان في الامم المتحدة وترجم القرآن الى الانكليزية. يقول السيد أسد في كتابه "الطريق الى مكة"، وغيره من الكتاب المسلمين، ان الحروب الصليبية "سمّمت العلاقة بين اتباع الدينيين وكانت شراً فكريا مستديما لانها غذت الفكر الاوروبي الذي يزدري. الاسلام، (١) وان ما يفكر به الغربيون ويشعرونه عن الاسلام نابع من الانطباعات التي تكوّنت لديهم أثناء تلك الحروب، كما انها شجعت مسيحيي اسبانيا على استعادة بلادهم من الاحتلال الاسلامي" (٢) وهذا برايه على ما يظهر، عمل منكر.

يناقش الغربيون هذا المنطق ويردّون عليه بما يلي :

يلاحظون أولا، ان ذلك يعني بانه لو لم يحاول الاوروبيون استعادة الاراضي المقدسة، ولو قبلوا بدوام الاحتلال الاسلامي لاسبانيا، ولو سكتوا عن تهديم القبائل التركمانية البدوية للامبراطورية البيزنطية واحتلال اراضيها الذي بدأ قبل الحروب الصليبية وانتهى باحتلال القسطنطينية عاصمة المسيحية الشرقية، ولو رضوا بالذل الذي كان يفرضه السلاطين المسلمون او بعضهم على المسيحيين باعتبارهم أهل ذمّة، ولو لم يقاوموا الاحتلال العثماني لاوروبا بعد الحروب الصليبية، لكانت العلاقة بين المسيحية والاسلام على ما يرام، هذا يتوسع وينتشر ويفرض دينه ومفاهيمه على المجتمعات المسيحية، وتلك تتراجع وتنحسر دون ان تبدي مقاومة.

ويتابع الغربيون، ان القول بان الفكر المسيحي يزدري الاسلام منذ الحروب الصليبية لا يتفق مع الواقع. فالمسيحيون في القرون الوسطى بعد تلك الحروب، وفي زمن كانت الكنيسة مسيطرة على الاذهان، انفتحوا على الحضارة الاسلامية وترجموا علوم المسلمين واستفادوا منها وعلموها في جامعاتهم وبنوا عليها ولم يزدروها ويهملوها ويرفضوها كما يفعل بعض المسلمين الان

بالنسبة للحضارة الاوروبية،

ويقولون، لماذا نحمّل سوء العلاقة بين المسيحية والاسلام، اذا كانت موجودة في هذا العصر، الى حالة جرت في القرن الثاني عشر ولا نحمّلها لسلسلة متلاحقة من الاعتداءات والاحتلالات بدأت في القرنين السابع والثامن على بلاد الشرق الادنى وشمال افريقيا وجنوب اوروبا واسبانيا، ثم تتابعت في البلقان واوروبا الشرقية الى القرن العشرين. أليس هذا الاعتداء المتواصل والاستعمار الطويل أحرى بان يكون مسئولا عن سوء العلاقة؟

ثم انه اذا كان للحروب الصليبية هذا الاثر الكبير على العقلية الاوروبية فجعلتها معادية للاسلام كما يقول الاستاذ محمد أسد وغيره، الا يمكن القول ان تأثيرها كان اشد على العقلية الاسلامية اذ خلقت فيها روحا سلبية رافضة لما جاء به الغرب من تفكير حديث ونظريات سياسية واجتماعية واقتصادية هي في اساس القوة الغربية المشكو منها.

واذا كان هناك حقا ازدراء غربي للمسلمين فلماذا ننسبه الى حروب مضى عليها الف سنة ونسيها الناس ولا ننسبه الى الواقع الحالي اي الى امتناع كثير من المسلمين عن المساهمة بالحضارة الحديثة بحيث عندما يستعرض باحث غربي الدول الاسلامية القائمة وعددها ثلاث واربعون لا يجد بينها الا عددا قليلا تساهم بنشاط في الحضارة الحديثة وعلومها.

واخيرا، لعل بعض المسلمين ينسبون التأخر الحالي الى الاستعمار الغربي الذي شمل مناطق اسلامية عديدة منذ القرن التاسع عشر الى نهاية الحرب العالمية الثانية. وفي هذا شيء من الصحة. لكن الغربيين يلاحظون ان الشعوب الاسلامية لما زال عنها الاستعمار منذ خمسين سنة، لم يستطع كثير منها ان ينشيء نظاما عصريا لحكم متمدن بل رضخت شعوبها لحكومات فاسدة من اهلها تمارس على مواطنيها اساليب من القهر والبطش والاستبداد والامتهان تفوق بشاعتها ما فعله الاجنبي وقد ادّى كل ذلك الى تأخر هذه الشعوب سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، وهذا سبب احرى للازدراء.

قلنا في بداية هذا الفصل ان الرد الاوروبي على الفتوحات الاسلامية جرى في فترتين : الفترة الاولى هي التي استعاد فيها الاسبان بلادهم، وحارب الصليبيون لاستعادة الاراضي المقدسة. وخُتمت هذه الفترة بنجاح

المسعى الاول وَفشل المسعى الثاني.

اما الفترة الثانية من الرد الاوروبي فقد ترافقت مع ظهور عوامل الانحلال الداخلية في الدولة العثمانية بعد فشل حصار فيينا الثاني سنة ١٦٨٣ واستمرت حتى زوال مؤسسة الخلافة (١٩٢٤) واعادة الاتراك الى آسيا الصغرى مع احتلال معظم الاقطار الاسلامية في افريقيا وآسيا.

فيما يلي سرد مختصر للرد الاوروبي في الفترة الثانية.

الامتداد الروسي في آسيا

في بداية القرن الخامس عشر برزت مدينة موسكو كزعيمة للبلاد الروسية ووحّدت الامارات الروسية تحت قيادتها. وكان فلاديمير امير مدينة كييف قد اعتنق الديانة المسيحية سنة ٩٨٨ حسب الطقوس البيزنطية وتبعه باقي الامراء. وبقي المذهب الاورثوذكسي دين الدولة الرسمي تربطه علاقة وثيقة بالدولة وبالعائلة المالكة الى زمن الثورة الشيوعية.

كان للروس هدفان في توسعهم : هدف تجاري محض تناول منطقة سيبيريا وكان امتدادهم فيها من الغرب الى الشرق سريعا لا يُضاهى. فحوالي سنة ١٦٣٩ وصلت اول مجموعة صغيرة من الروس الى الاوقيانوس الهادي بقرب مدينة اوخوتسك الحالية. وبنهاية ذلك القرن توصل الامتداد الروسي الى احتلال شبه جزيرة كامتشاكا في اقصى شمال شرق سيبيريا فاصبحت سيبيريا بكاملها منطقة روسية.

اما الهدف الثاني للتوسع الروسي فكان حماية انفسهم من الغزوات المغولية والتركية التي استعبدتهم في القرون السابقة. في وقت لاحق امتزج هذا الهدف مع الهدف السياسي - الاقتصادي في الوصول الى المياه الدافئة في البحر المتوسط والخليج الفارسي والاوقيانوس الهندي للتجارة وللانطلاق من القيد الجغرافي الذي يعيق تحركهم فاصطدموا بمصالح بعض الدول الاوروبية وعلى رأسها بريطانيا.

تولى عرش روسيا امراء من سلالة روريك منهم ايفان الثالث (١٤٦٢ - ١٥٠٥) الذي استولى سنة ١٤٧٨ على مدينة نوفغورود وعلى منطقة اعالي نهر الفولغا فاعترف له امراء الروس بالتقدم عليهم.

خلف ايفان ابنه فاسيلي الثالث الذي تابع توسعه. ثم جاء ايفان الرابع (المخيف) ابن فاسيلي (١٥٣٣ - ١٥٨٤) الذي اتخذ لقب "قيصر كل روسيا" واستولى على امارة قازان المغولية (١٥٥٢) ثم على استراخان فاصبح مجرى نهر الفولغا بكامله في ايدي روسية ولم يبقَ من الامارات المغولية في روسيا الا شبه جزيرة القرم.

في ذلك الزمن (القرن السادس عشر) استمر التفاعل الايجابي بين الدولة والكنيسة الارثوذكسية فنشأت ثقافة وطنية موحدة ودولة مركزية قوية ترتكز على امتزاج الشعور الوطني والديني مع السلطة الملكية غير المقيدة. وبقيت هذه صفة الثقافة والوطنية الروسية الى زمن الانقلاب الشيوعي.

توفي اخر ملك من سلالة روريك عام ١٥٩٨ فسادت البلاد خمس عشرة سنة من الاضطرابات انتهت عندما انتخب "مجلس البلاد" سنة ١٦١٨ قيصرا جديدا هو ميشيل رومانوف (١٦١٣ - ١٦٤٥) الذي اسس سلالة رومانوف المالكة التي حكمت روسيا ثلاثماية سنة الى عام ١٩١٧.

تولى بطرس الاكبر الحكم (١٦٨٢ - ١٧٢٥) فدفع المجتمع الروسي قسرا ليحاكي المجتمعات الاوروبية الغربية التي زارها ونقل منها الى بلاده كثيرا من الصناعات والعلوم، كما اجرى اصلاحات في نظام الحكم والجيش والكنيسة، واستولى على مناطق واسعة حول بحر قزوين.

في عهد الامبراطورة كاترين الثانية (١٧٦٢ - ١٧٩٦) الذي تزامن مع السلطان العثماني مصطفى الثالث نشبت حرب بين البلدين دامت ست سنوات (١٧٦٨ - ١٧٧٤) وانتهت بانتصار روسيا وبمعاهدة كوتشوك كاينارجي (مدينة في بلغاريا) التي وقعها الطرفان في ٢١ يوليو ١٧٧٤ وبموجبها انتهت السيطرة العثمانية على البحر الاسود واستولت روسيا على مواقع في شبه جزيرة القرم التي ضمتها نهائيا بعد تسع سنوات فلم يعد للمغول وجود في روسيا. في ذلك العهد ايضا توسع الروس في السهول شرق جبال الاورال وحول بحر قزوين.

حازت روسيا بموجب المعاهدة ايضا حق انشاء قنصليات اينما شاءت في السلطنة العثمانية، وحق العبور الحر في المياه العثمانية وفي الدردنيل والبوسفور، بالاضافة الى ميزات تجارية، كما اقرت المعاهدة لروسيا بحق حماية

الرعايا العثمانيين الارثوذكس في مقاطعات مولدافيا ووالاشيا (رومانيا الحالية) وفي جزر بحر ايجه. وفي وقت لاحق فسّرت روسيا هذا الحق بانه يشمل حماية الارثوذكس في كل مناطق الدولة العثمانية.

في عهود القياصرة اسكندر الاول ونقولا الاول واسكندر الثاني واسكندر الثالث (١٨٠١ - ١٨٩٤) اي في فترة قرن كامل كان التوسع الروسي في ايران وآسيا الوسطى الاسلامية لا يُرَد.

في سنة ١٨١٣ تخلت ايران لروسيا عن شمال مقاطعة اذربيجان وعن شبه جزيرة باكو ثم عن مقاطعة اريفان الارمنية (١٨٢٨) كما استولت روسيا على جورجيا وجزء من القوقاس. وسنة ١٨٥٧ تخلت ايران لروسيا في عهد الامبراطور اسكندر الثاني (١٨٥٥ - ١٨٨١) عن القسم الغربي من افغانستان الحالية بموجب معاهدة باريس بما في ذلك مدن بخارى وطاشقند وسمرقند وكيفا والشاطيء الشرقي لبحر قزوين. وسنة ١٨٦٤ تغلب اسكندر الثاني على مقاومة قبائل الشاشان والشركس المسلمين في شمال القوقاس واحتل بلادهم.

واستمر الزحف الروسي. ففي سنة ١٨٨١ استولى القيصر اسكندر الثالث (١٨٨١ - ١٨٩٤) على مدينة مرو في افغانستان وعلى منطقة تاجاكستان والقسم الاكبر من بلاد التركمان في آسيا الوسطى. في المقابل بسطت بريطانيا نفوذها على قسم كبير من بلوخستان فقد كان البلدان يتزاحمان على النفوذ في آسيا.

وفي سنة ١٩٠٧ سوّت روسيا وبريطانيا خلافاتهما في الشرق الاوسط واتفقتا على تقسيم ايران الى منطقتي نفوذ : لروسيا القسم الشمالي ولبريطانيا القسم الجنوبي، وتركتا المنطقة الوسطى للشاه.

وهكذا شمل الامتداد الروسي ازالة الاحتلال المغولي والعثماني لاراضي روسية كما شمل احتلال اراضي واسعة من ايران والمناطق الاسلامية في القوقاس واذربيجان بالاضافة الى بلاد آسيا الوسطى الاسلامية التي تشكل الان الجمهوريات السوفياتية الاسلامية والتي تزيد مساحتها على مساحة روسيا الاوروبية.

وفي ما يلي لائحة باسماء هذه الجمهوريات وعدد سكانها ضمن الاتحاد السوفياتي حسب احصاء صدر عام ١٩٨٧.

	مليون
اوزبكستان	١٩ ، ٠٠
كازاخستان	١٦ ، ٢٠
اذربيجان	٦،، ٨٠
طاجكستان	٤ ، ٨
كيرجيزتان	٤ ، ١
المجموع	٩ ، ٤٣

(يبلغ مجموع سكان الاتحاد السوفياتي ٢٨١،٧ مليون، وسكان الجمهورية الروسية وحدها ٣، ١٤٥ مليون، وسكان اوكرانيا ٢، ٥١ مليون).

الامتداد الغربي في المناطق العثمانية الاوروبية

ننتقل الى دور اخر من الامتداد الغربي وهو يشمل مناطق اوروبا الشرقية وحوض البحر المتوسط. لم تكن دول اوروبا متفقة على موقف موحد تجاه الوجود العثماني. فقد انشأ ملك فرنسا فرانسوا الاول (١٥١٥ - ١٥٤٧) علاقات طيبة مع السلطان سليمان القانوني وحصل على اتفاقية سنة ١٥٣٦ عرفت باسم "الامتيازات" تعطي الفرنسيين معاملة مميزة في اراضي السلطنة كحرية التجول والتجارة مع بقائهم خاضعين للقانون والمحاكم الفرنسية في علاقاتهم مع بعضهم، وامتيازات اخرى في علاقاتهم مع العثمانيين.

مع ضعف الدولة العثمانية حازت دول اوروبية اخرى على امتيازات مماثلة ثم توسعت هذه الامتيازات فصارت تشمل في نهاية القرن الثامن عشر حماية الرعايا العثمانيين المسيحيين لتخفيف وطأة معاملتهم كرعايا "ذميين" اي مواطنين من درجة ثانية فازداد بذلك تدخل الدول الغربية في شئون السلطنة الداخلية.

ان حسن العلاقة بين العثمانيين وفرنسا لم يشمل الدول الاوروبية الاخرى. فلما حاول العثمانيون احتلال جزيرة قبرص تصدى لهم "الحلف المقدس" المؤلف من بابا رومية وفيليب الثاني ملك اسبانيا وجمهورية البندقية

واشتبك الفريقان في معركة ليبانتو البحرية في الادرياتيك سنة ١٥٧١ فتحطم الاسطول العثماني.

ولما حاصر السلطان محمد الرابع مدينة فيينا سنة ١٦٨٣ شكّل البابا اينوسنت الحادي عشر جبهة من ملك بولونيا جان سوبييسكي وشارل دوق لورين وامراء بافاريا وساكسوني ومقاطعات المانية اخرى واجبروا العثمانيين على التراجع.

في القرنين السابع عشر والثامن عشر بدا ضعف الامبراطورية العثمانية واضحا وصار يُرمز اليها في اوروبا باسم "رجل اوروبا المريض". وترافق ذلك مع تيقظ الشعور المسيحي في الشعوب البلقانية ومع شهية الروس والنمسويين للتوسع فتقدمت الدولتان في الخطوط الاضعف مقاومة. تقدمت روسيا في مناطق البحر الاسود وبحر قزوين ثم في آسيا الوسطى كما مر معنا، وتقدمت النمسا مع مجرى نهر الدانوب وروافده. والدانوب من اهم انهار اوروبا ينبع في الغابة السوداء في المانيا الغربية ويجري عبر ما يعرف حاليا باسم المانيا والنمسا وتشكسلوفاكيا وهنغاريا ويوغوسلافيا وبلغاريا ورومانيا حيث يصب في البحر الاسود وهو صالح للملاحة على طول مجراه فيشكل بذلك طريقا سهلا للاتصال بين جميع هذه المناطق.

ثورة اليونان

كانت اليونان اول منطقة ثارت على العثمانيين سنة ١٨٢١ وساندها رأي عام اوروبي متأثر بما للثقافة اليونانية القديمة من علاقة وثيقة بالحضارة الغربية فاتفقت روسيا وبريطانيا وفرنسا في معاهدة لندن (١٨٢٧) وارسلت اسطولا مشتركا لمساعدة اليونان على تحقيق استقلالها فاشتبك مع اسطول عثماني - مصري في خليج نافارينو في اليونان سنة ١٨٢٧ ودمره بكامله.

بعدها اعلن الامبراطور نقولا الاول الحرب على العثمانيين واجتازت جيوشه نهر الدانوب وجبال البلقان ووصلت الى مدينة ادرنة عام ١٨٢٩ وهي قريبة جدا من القسطنطينية فانهارت المقاومة العثمانية ووقّع السلطان محمود الثاني معاهدة ادرنة سنة ١٨٢٩ قبل فيها جميع الشروط الروسية فاعلنت اليونان استقلالها سنة ١٨٣٢، وحصلت بلاد الصرب ومقاطعتا مولدافيا

ووالیشیا (في رومانیا) على استقلال داخلي، واعتبرت المعاهدة القيصر ضامنا لتنفيذ الاتفاقية. وهكذا اصبح القيصر يشارك عمليا بالسيادة على اقسام كبيرة من اراضي السلطنة في البلقان وحصل على ما يشابه حق الحماية على الولايات الثلاث.

كان لهزيمة العثمانيين والمصريين في معركة نافارينو أثر آخر. فقد طلب محمد علي باشا والي مصر (١٧٦٩ - ١٨٤٩) من السلطان محمود الثاني ضم سوريا اليه كمكافئة على مناصرته. ولما رفض السلطان زحف جيش مصري على الاناضول وتغلب على الجيش العثماني سنة ١٨٣١ وكاد يدخل اسطنبول لولا ممانعة القيصر نقولا. وتجددت الحرب سنة ١٨٣٩ فتدخلت الدول الاوروبية وتقرر في معاهدة لندن (١٨٤٠) بقاء سوريا ضمن السلطنة والاعتراف لمحمد علي وذريته بحق الولاية على مصر. وقد استمر ذلك حتى حصول الانقلاب العسكري المصرى عام ١٩٥٢ الذي اطاح بالملك فاروق اخر سلالة محمد علي.

بعد ظهور ضعف الدولة العثمانية في حرب اليونان وفي الحرب مع المصريين ادرك الامبراطور نقولا الاول ان هذه الدولة سائرة الى الزوال وان ورثاءها سيكونون روسيا وبريطانيا والنمسا وفرنسا. لذلك كانت روسيا تسعى باستمرار لعقد اتفاق مع هذه الدول لاقتسام الامبراطورية العثمانية.

لكنه لما كان كل اتفاق من هذا النوع سيجعل القسطنطينية ومضائق البوسفور والدردنيل من حصة روسيا مما سيفتح الطريق امامها للوصول الى البحر المتوسط وتهديد مواصلات بريطانيا مع مستعمراتها في آسيا، فان سياسة هذه الدولة تركزت على ابقاء المضائق تحت سيطرة السلطنة العثمانية الضعيفة واقصاء روسيا عنها. اما النمسا التي كانت امبراطوريتها تضم او تجاور شعوبا سلافية فكانت تسعى الى اضعاف النفوذ الروسي لئلا يحرك الشعوب السلافية ضدها.

الاصلاحات العثمانية

في فترة الضعف هذه حاولت الدولة العثمانية اجراء بعض الاصلاحات الداخلية فقضى السلطان محمود الثاني على فرق الانكشارية (١٨٢٦) وانشأ

جيشا حديثا على النمط الاوروبي. وخلفه ابنه السلطان عبد المجيد الاول (١٨٣٩ - ١٨٦١) الذي تابع الاصلاحات فاصدر سنة ١٨٣٩ (خط شريف غولخانة) ثم (خط همايون ١٨٥٦) لتحديث اجهزة الدولة. وبموجبها اعيد تنظيم الجيش (١٨٤٢) وفرضت الخدمة الاجبارية، وصدرت قوانين جزائية وتجارية وبحرية، وتأسست محاكم مختلطة من قضاة عثمانيين واوروبيين للنظر في قضايا مدنية وجزائية، وتشكلت وزارة للتعليم مع مدارس ابتدائية وثانوية.

كان لقانون ١٨٥٦ (٢) اهمية عملية ورمزية كبيرة لانه اقرّ لاول مرة في دولة اسلامية هي مقرّ الخلافة مبدأ المساواة السياسية والمدنية بين الرعايا المسلمين وغير المسلمين، والغى رسميا القيود التي فرضتها "عهدة عمر"، وأدان بوضوح مبدأ اذلال غير المسلمين (المادة الثامنة)، كما فتح مناصب الدولة على اختلاف درجاتها امام المواطنين دون تمييز بسبب المذهب او العرق.

خلف السلطان عبد المجيد الاول اخوه السلطان عبد العزيز ثم ابنه السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩) الذي تابع سياسة "التنظيمات" فاعلن سنة ١٨٧٦ اول دستور لدولة اسلامية ينص على الحريات التي طورتها الدول الاوروبية وعلى انشاء مجلس تشريعي. لكن المجلس ما كاد يجتمع في شهر مارس ١٨٧٧ حتى اصدر السلطان قرارا بحله ثم علق الدستور في فبراير ١٨٧٨.

مع هذه التقلبات في الاتجاه الاصلاحي كانت احوال السلطنة المالية تزداد سوءاً. فقد عقدت السلطنة اول قرض اجنبي سنة ١٨٥٤ وما كاد يحل عام ١٨٧٥ حتى بلغ الدين العام مائتي الف مليون ليرة انكليزية وبلغت الاقساط السنوية مع الفوائد اثني عشر الف مليون ليرة سنويا اي ما يزيد عن نصف موارد الدولة. وكانت الدول والبنوك الدائنة في ذلك الزمن تتوقع ان يدفع المدين دينه. ولما عجزت الدولة العثمانية عن السداد اضطرت سنة ١٨٨١ الى قبول رقابة اوروبية مالية على موارد الدولة وخصّصت ايرادات معينة لدفع اقساط الدين عن طريق "مديرية الدين العام" التي كانت تستوفي الضرائب المخصصة تحت اشراف اجنبي.

احتدمت المنافسة بين الدول الاوروبية الكبرى على النفوذ في الدولة العثمانية وتعارضت مصالحها مما ادى الى حرب للقرم (١٨٥٣ - ١٨٥٦) التي تحالفت فيها تركيا وبريطانيا وفرنسا ضد روسيا. وقد انتهت الحرب بمعاهدة باريس (١٨٥٦) التي حاولت ايقاف الزحف الروسي على السلطنة العثمانية والحد من نفوذه حتى يتساوى مع نفوذ الدول الاوروبية الاخرى. ولم يكن هذا المسعى ناجحاً.

لم يمضِ وقت طويل حتى ثار سكان مقاطعتي البوسنة والهرسك سنة ١٨٧٥ وناصرتهم بلاد الصرب والجبل الاسود (تقع جميع هذه المقاطعات حاليا في دولة يوغوسلافيا) وسارعت روسيا لمساعدتهم فاعلنت الحرب على العثمانيين في شهر ابريل ١٨٧٧ ودخلت جيوشها رومانيا. وفي شهر يناير ١٨٧٨ عسكرت الجيوش الروسية على شاطيء بحر مرمرة مقابل مدينة القسطنطينية فاضطر السلطان عبد الحميد الثاني الى طلب الصلح والقبول بشروط معاهدة سان ستيفانو في ٣ مارس ١٨٧٨.

لكن بريطانيا والنمسا اعترضتا على شروط هذه المعاهدة وما حققته لروسيا من مكاسب، فانعقد مؤتمر برلين (١٨٧٨) لاعادة النظر بهذه المعاهدة. جاءت قرارات المؤتمر معادية لروسيا وحرمتها من نتائج انتصارها، وارضت مصالح بريطانيا والنمسا، وحرمت شعوب البلقان من الاستقلال، وغرست بذور ازمات مقبلة في المنطقة، لكنها مددت في عمر الدولة العثمانية، ومنعت الاساطيل الحربية (اي الروسية) من عبور مضائق الدردنيل والبوسفور، وسلمت مقاطعتي البوسنة والهرسك الى الدولة النمسوية خلافا لرغبة سكانها. فازداد النفوذ النمسوي في البلقان على حساب المصالح الروسية. وهكذا نجت الدولة العثمانية موقتا من التفكك بسبب تنافس الدول الاوروبية فيما بينها.

منطقة البحر المتوسط

في القرن التاسع عشر طمعت بريطانيا وفرنسا بالمناطق العثمانية القائمة على شاطئه الجنوبي فاحتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٢٠ واتبعتها بالحماية على تونس سنة ١٨٨١ ثم بالحماية على مراكش سنة ١٩١٢.

واحتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ ثم السودان.

واحتلت ايطاليا ليبيا سنة ١٩١١ فاصبح الساحل الجنوبي للبحر المتوسط بكامله تحت السيطرة الاوروبية.

ثم استولت الدولتان بريطانيا وفرنسا على الساحل الشرقي (سوريا ولبنان وفلسطين) بنهاية الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) تحت نظام الانتداب فاصبح البحر الابيض المتوسط بحيرة اوروبية.

حروب البلقان (١٩١٢ - ١٩١٣)

ناتي الى اخر مرحلة من زوال الوجود الاسلامي في اوربا. كان هدف الحرب رغبة الدول المسيحية الصغيرة في البلقان التي استقلت عن السلطنة العثمانية وهي اليونان وبلغاريا وصربيا والجبل الاسود بتحرير ما تبقى من اراضي مقدونيا واقتسامها. وقد شكلت هذه الدول حلفا واعلنت الحرب على الدولة العثمانية بتأييد روسيا في شهر اكتوبر ١٩١٢. وكان حزب تركيا الفتاة قد استولى على السلطة في تركيا منذ سنة ١٩٠٨ لكنه لم يستطع الصمود امام هجوم الحلفاء الذين استولوا على مقدونيا وحاصروا القسطنطينية في شهر نوفمبر فاستغاث الاتراك بالدول الاوروبية التي وافقت على عقد مؤتمر في لندن (٣٠ مايو ١٩١٣) تقرر فيه تخلي العثمانيين عن جميع الاراضي في البلقان باستثناء القسطنطينية ومساحة صغيرة حولها على الشاطيء الاوروبي تضم مدينة ادرنة. وبذلك خرجت الدولة العثمانية من اخر موقع لها في اوروبا.

يلاحظ ان ردّ اوروبا على الفتوحات الاسلامية بدأ رداً دينيا في اسبانيا، وفي الحروب الصليبية، وفي الدفاع عن قبرص، وفك حصار فيينا الثاني في القرن السابع عشر.

وكان هدف الردّ الروسي إزالة ما تبقى من الاحتلال المغولي وضمان عدم تكرر الغزوات التي كانت آسيا الوسطى مصدرها. وقد تم ذلك باحتلال كامل تلك المنطقة. ومع ان روسيا القيصرية كانت دولة مسيحية ملتزمة فلا يبدو ان هدفها الرئيسي كان نشر النصرانية في البلاد الاسلامية التي ضمتها.

اما في منطقة البلقان الرازحة تحت الاحتلال العثماني، فقد شكّل الدين عنصرا من عناصر الشعور الوطني ولا شك انه لعب دورا في حروب تحرير

هذه البلاد. لكن هذا الشعور الديني كان مفقودا في سياسة الدول الاوروبية الكبرى في القرن التاسع عشر والعشرين التي تصرفت بدافع مصالحها السياسية والاقتصادية. وقد رأينا ان عمر الامبراطورية العثمانية طال في البلقان نحو قرن من الزمن لان مصالح بريطانيا وفرنسا والنمسا كانت متعارضة مع مصالح روسيا. بل رأينا ان بريطانيا وفرنسا تحالفتا مع الخلافة الاسلامية ضد روسيا المسيحية في حرب القرم وفي الغاء معاهدة سان ستيفانو مما ينفي ان الشعور الديني لعب دورا رئيسيا في سياسة الدولتين الاوروبيتين.

ولا يمكن القول ان فرنسا وبريطانيا وايطاليا احتلت الشاطيء الجنوبي ثم الشاطيء الشرقي من البحر الابيض المتوسط بدافع ديني فقد كانت المصالح الاقتصادية والمنافسة السياسية واضحة في هذه الاحتلالات وتقدمت على اي دافع اخر.

شمل الامتداد الاوروبي دولا اسلامية اخرى خارج اوروبا وبلاد الشرق الاوسط وآسيا الوسطى. فقد حكم الهولنديون اندونيسيا، وحكم الانكليز الملايو والجزر التي حولها، والهند بسكانها الهندوس والمسلمين ولم يخرج الاوروبيون من هذه المناطق الا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وكان الدافع لهذه الاحتلالات تجاريا واقتصاديا.

وهذا يختم بحثنا عن الرد الاوروبي على الفتوحات الاسلامية.

* * *

مراجع الفصل

١ ـ أسد محمد، الاسلام على مفترق الطرق (بالانكليزية) ص ٥٢ـ٥٦.

٢ ـ أسد، محمد، الطريق الى مكة، (بالانكليزية) ص ٥ و ٧ .

٣ ـ شابري، لوران وآني، السياسة والاقليات في الشرق الاوسط (بالفرنسية) ص ٥٣.



الخاتمة

تستهدف الاديان تزويد الانسان بقواعد أخلاقية ثابتة تبيّن له الصحيح من الفاسد، والحق من الباطل، والصواب من الخطأ، وتميّز بين العمل الطيّب والمنكَر، وبين الصدق والكذب، وبين الشرف والرذيلة، وتحثه على الاستقامة واتباع الطريق القويم في تصرفاته وفي حياته الخاصة والعامة بحيث تصبح القِيَم الاخلاقية جزءا من التركيب النفسي للفرد والمجتمع يمارسها الجميع بعفوية دون الشعور بضغط او اكراه.

وقد قلنا في المقدمة ان الاسلام من اشد الاديان حرصا في هذا الزمن على التمسك باخلاقياته وتقاليده في مجتمعاته مما يؤهله لتقديم نظرية سياسية مستقلة ينبعث منها نظام حكم يختلف عن الانظمة المعروفة حاليا وقد يتفوّق عليها.

تتمحور النظرية السياسية قبل كل شيء حول علاقة المواطن بالسلطة والتوازن الذي يجب ان يسود هذه العلاقة بحيث لا يطغى الحاكم ولا تفلت الرعية نحو الفوضى. وأهم ما في ذلك الحريات السياسية والمدنية للشعب وطريقة صيانتها ثم كيفية مشاركة الشعب بالحكم.

عند بحث هذه الامور تظهر أفكار مختلفة تدعو الى نظريات متباينة لكنه مهما تعددت الاجتهادات فلا بد في النتيجة من ان يختار المجتمع نظرية تلاءم اوضاعه فينظّمها ويسير بموجبها حتى يحلّ الاستقرار فلا يبقى الوضع عرضة لنزوات الحاكم او لانتفاضات شعبية متهورة وعابرة.

وقد ادركت الشعوب ان الضامن الوحيد لهذا الاستقرار هو المؤسسات السياسية التي تحظى بشرعية شعبية ناتجة عن موافقة المواطنين وقبولهم العلني او الضمني بحيث تقف هذه المؤسسات بوجه تجاوزات الحكام، وتحول التيارات الشعبية الى مجاري سياسية سلمية، فتشكل أقنية للحوار بين النوازع المتعارضة

ضمن المجتمع، وبين الحاكمين والمحكومين تفاديا للعنف والفوضى.

تحتاج كل نظرية سياسية الى معالجة المواضيع التالية التي ذكرناها في خلاصة الفصل الثالث:

اولا: الحريات السياسية والحقوق المدنية التي يتمتع بها الفرد والمجتمع والضمانات التي تحميها.

ثانيا: حق المواطنين بالمشاركة بالحكم وتنظيم اسلوب هذه المشاركة.

ثالثا: كيفية اختيار الحاكم وتنصيبه ودور الشعب في ذلك.

رابعا: كيفية انتقال السلطة من الحاكم الى من يليه بصورة سلمية وبموجب قواعد مقررة ومعروفة مسبقا.

خامسا: صلاحيات الحاكم وحدوده في ممارسة السلطة.

سادسا: الضوابط التي تمنع الحاكم من الطغيان على الارواح والاموال والحريات.

تجاه تأكيد الكثيرين ان الاسلام أنشأ بالفعل نظاما سياسيا فذاً مستمَدا من الشريعة مارسه الخلفاء الراشدون فقد حاولنا في الفصول السابقة ان نستطلع ماهية هذا النظام مما ورد عنه في الاصول، ومن تصرفات الخلفاء والسلاطين.

تضمنت الاصول مبادئ واضحة في التعامل السياسي في بعض المسائل الهامة.

وفيها اشارات عامة في مسائل اخرى تحتاج الى تفصيل وتوضيح.

وغابت عن الاصول عناصر عديدة من مقوّمات النظرية السياسية لم يرد لها ذكر.

اما بالنسبة للاستفادة من التعامل السياسي، فقد استعرضنا الفتوحات الاسلامية واحوال ٢٣ دولة نشأت عنها قامت في الهند، وفي آسيا الوسطى، وفي الشرق الاوسط والادنى، وفي روسيا واوروبا، وفي شمال افريقيا واسبانيا، ضمّت شعوبا مختلفة باجناسها ولغاتها وثقافاتها ومواطنها الجغرافية لا يجمع بينها الا الدين. وكانت كلها تلتزم بالشريعة الاسلامية في حياتها السياسية والاجتماعية. فهل طوّرت هذه الدول على مدى القرون الطويلة نظاما سياسيا استمدته من تعاليم الاسلام؟

هذا ما حاولنا ان نتبيّنه في بحثنا فوجدنا الاوضاع التالية :

البداوة

بقي الحكم الاسلامي في جميع عهوده قريبا جدا من البداوة وهي أدنى مراتب التطوّر الاجتماعي والثقافي والسياسي. فما كاد الفاتحون العرب البدو يتحضّرون في القرنين الثامن والتاسع حتى استولى العبيد الاتراك على السلطة في الخلافة العباسية، ثم داهمتهم القبائل البدوية الديلمية والتركية ثم المغولية ابتداءا من القرن العاشر مع آل بُوَيه الى القرن الخامس عشر مع تيمورلنك ومن خلفه. وقد احتلت هذه القبائل المساحات الشاسعة في آسيا الوسطى التي تشكل الان الجمهوريات الجنوبية في الاتحاد السوفياتي، وافغانستان، وبلاد خوارزم، وايران، وبلاد الشرق الاوسط، والاناضول، ثم امتدت الى البلقان واواسط اوروبا، وشرقا الى الهند التي انشأ الاتراك فيها دولا عديدة ذكرناها.

كانت موجات القبائل التركية متتابعة ما تكاد تستقر موجة وتتحضّر حتى تأتي موجة ثانية تعيدها الى البداوة. وفعل العرب والبربر مثل ذلك في شمال افريقيا واسبانيا.

بعد العرب والاتراك جاءت موجات القبائل البدوية المغولية ممّثلة بجنكيز خان (١١٥٥ـ١٢٢٧) وحفيده هولاكو خان (١٢١٧) والقبيلة الذهبية في روسيا (١٢٥٥) ثم غزوات تيمورلنك (١٣٣٦ـ١٤٠٥) الذي دمر جميع الدول الاسلامية واعادها الى الحالة البدائية.

يجب الملاحظة ان القبائل التركية لم تدخل في الاسلام مندحرة ومغلوبة كالشعوب السامية بل قَبِل بعضها الاسلام وهي في مواطنها وبقي كثير منها وثنيا، وكلها دخلت الاقطار الاسلامية غازية فاتحة. اما المغول ففتحوا البلاد الاسلامية وهم وثنيون وفرضوا قانونهم (الياسا) على المسلمين بدل الشريعة ولم يدخلوا في الاسلام الا بعد فترة طويلة. وهكذا وقع العالم الاسلامي في آسيا الوسطى والشرق الاوسط وشمال افريقيا تحت سيطرة دول وجيوش تركية ـ مغولية طيلة سبعة قرون.

في مجتمعاتنا المدنية يصعب علينا ان ندرك معنى البداوة وأثرها في المجتمع لظنّنا اننا ابتعدنا عنها في مدننا وريفنا المستقر. لكن ظنّنا ليس في

محله لان البداوة لا تزال مستقرة بيننا تشكل جزءا من محيطنا وتراثنا في الجزيرة العربية والعراق والاردن وسوريا وليبيا والسودان وتونس والجزائر والمغرب، وأقل من ذلك في مصر. ولا تزال العلاقة بين البدو والحضر في جميع هذه البلاد علاقة عدائية معرضة للانفجار اذا لم تضبطها قوّة سياسية قادرة. ومع وجود البداوة يبقى تأثيرها فاعلا في عقلية هذه الشعوب.

وصف ابن خلدون (١٣٣٢ـ١٤٠٦) البدو العرب الذين دخلوا شمال أفريقيا وصفا دقيقا ينطبق على جميع اجناس البدو الى اليوم. قال : "انهم أهل انتهاب وعبث (أي يخربون دون ان يكون لهم فائدة من التخريب) ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ثم يفرّون الى القفر، ولا يذهبون الى المحاربة الا للدفاع عن انفسهم. فكل أمر مستصعب عليهم فهم تاركوه الى ما يسهل عنه ولا يعرضون له. اما الاراضي المبسوطة متى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة فهي نهب لهم يرددون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها حتى يصبح أهلها مغلّبين لهم الى ان ينقرض عمرانهم.

"وهذه الطبيعة مناقضة للعمران ومنافية له. فغاية الاحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتنقل وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومنافٍ له، فالحجر مثلا انما حاجتهم اليه لنصبه أثافي للقدر فينقلونه من المباني ويخربونها عليه ويعدّونه لذلك. والخشب ايضا انما حاجتهم اليه ليقيموا منه عمداً لخيامهم ويتخذوا الاوتاد منه فيخربون السقف لذلك. فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو اصل العمران.

"وايضا فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس، فرزقهم في ظلال رماحهم وليس عندهم في أخذ مال الناس حدّ ينتهون اليه بل كلما امتدت اعينهم الى متاع او ماعون نهبوه. فاذا تم اقتدارهم على ذلك بالتغلّب والملك بطلت السياسة في حفظ اموال الناس وخرب العمران.

"وهم ايضا متنافسون في الرياسة. وقلّ ان يسلّم أحد منهم الامر لغيره ولو كان أباه او أخاه او كبير عشيرته الا في الاقل، فيتعدد منهم الحكام والامراء وتختلف الايدي على الرعية في الجباية والاحكام فيفسد العمران وينتقص.

"وانظر الى ما ملكوه وتغلّبوا عليه من الاوطان كيف تقوّض عمرانه وأفقر

ساكنه وبُدلت فيه الارض غير الارض. فاليمن ارضهم خراب الا قليلا من الامصار، وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس، والشام لهذا العهد كذلك، وافريقية والمغرب لما جاز اليها بنو هلال وبنو سليم منذ اول المائة الخامسة هجرية (القرن الثاني عشر) وتمرّسوا بها لثلاثماية وخمسين سنة، قد لحق بها الذمار وعاد عمرانها خرابا كله بعد ان كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمرانا تشهد بذلك أثار العمران وتماثيل البناء وشواهد القرى". (١) (انتهى كلام ابن خلدون)

فعل البدو الاتراك في بلاد الشرق الاوسط والاناضول منذ القرن الحادي عشر مثلما فعل البدو العرب فقد استمروا ينهبون المزارعين ويدمرون القرى والمزروعات عاما بعد عام حتى قضوا على العمران وحولوا الاراضي الزراعية الى مراعي لمواشيهم.

اما بدو المغول فقد فاقوا في التخريب والتدمير من سبقهم.

لم تتغيّر طبيعة البدو على مدى العصور فبعد ستماية سنة من وصف ابن خلدون لهم، جاء الفيلسوف والرحّالة اللبناني أمين الريحاني يَصِف في كتابه "تاريخ نجد الحديث" ما شاهده في نجد في فترة الخلاف بين الملك عبد العزيز و"الاخوان الوهابيين" في العشرينات من هذا القرن. قال :

"البدو مثل ذوات الاجنحة طيّارون او ان لهم ميزة الزئبق. رفاقك في الطريق اليوم واعداؤك غدا. ولا اظنهم لولا الجنّة والحور يخضعون لربّ الكائنات. اما الدين عندهم فكالرداء يلبسونه ردحا من الزمن فيغسلونه مرة او مرتين ثم يلبسونه مقلوبا، ثم ينبذونه وقد تمزّق نبذ النواة.

"يقولون : كيف نتوضّأ ونحن نبغي الماء للشرب، ولِمَا الصوم والسنة كلها عندنا رمضان، ولِمَا الصلاة وليس لله وقت يسمعنا.

"وكانوا كذلك في ولائهم لهذا الامير او ذاك. فما الفرق وربّك بين أبي مقرن وابن هاشم، او بين ابن الصباح وابن الرشيد. كلهم عرب يقيمون في بلاد العرب ويغزون غزو العرب ونحن ان حاربنا مع هذا او ذاك عرب.

"ما تغيّر العرب من ايام الرسول وايام مسيلمة وأبي طاهر. دينهم حاجات لتلك الردات، وولاؤهم غايات لتلك الخيانات. فلطالما ارتدّوا وخانوا

وعادوا تائبين من أيام عبد العزيز الاول (١٧٦٥_١٨٠٢) الى عبد العزيز الثاني (١٩٠٢_١٩٥٣) وهم كما وصفناهم لا يوالون طويلا ولا يعادون طويلا. لايثبتون ولا يستقيمون في مسراهم او في مغزاهم.

"البدو سيف في يد الامير اليوم وخنجر في ظهره غدا. مجاهدون اذا قيل غنائم، متمارضون اذا قيل جهاد. يحاربون ما زالوا آمنين على اموالهم وانفسهم، يفرّون شاردين عند اول خطر يلوح لهم". (٢) (انتهى كلام الريحاني)

ووصف البدو وصفا مشابها الكولونيل توماس لورانس في كتابه "أعمدة الحكمة السبعة" وهو الذي قاد فريقا من بدو الحجاز والاردن في الثورة العربية الكبرى (١٩١٧) ضد الجيش التركي.

ولما كانت البداوة متلازمة مع الجهل والخراب، ومعادية للعمران كما رأينا، فان رؤساء هذه القبائل العربية والبربرية والتركية والمغولية حكم اكثرهم البلاد الاسلامية حكما بدائيا قائما على البطش والاستبداد ولم تكن عندهم الاهلية او الرغبة لتكوين نظرية سياسية تضبط تصرفاتهم.

عدم الاستقرار السياسي

من الدول التي استعرضناها وعددها ثلاث وثلاثون، نجد ان خمس دول فقط نفّذت اوامر الشريعة بنشر الاسلام بواسطة الجهاد بعد الخليفتين عمر وعثمان هي : الدولة الاموية، والدولة السلجوقية في الاناضول، والقبيلة الذهبية في روسيا، والدول التركية والمغولية في الهند، والدولة العثمانية في اوروبا وروسيا.

اما الدول الاسلامية الباقية وعددها ثمان وعشرون فلم تكترث بالجهاد بل دارت تنهش بعضها بعضا بشراسة ونَهَم. فالدولة الاموية قضى عليها العباسيون، وهؤلاء وقعوا تحت سيطرة العبيد الاتراك بعد أقل من قرن ثم تحت سيطرة آل بويَه وهم شيعة من بلاد الديَلم. وهؤلاء تغلب عليهم آل سلجوق الاتراك وحكموا العباسيين مكانهم الى ان قضى عليهم وعلى الخلافة العباسية هولاكو خان المغولي الوثني، كما قضى جدّه جنكيز خان على دولة خوارزم.

وقامت دولة آل سامان في مناطق تابعة للدولة العباسية وسقطت، كالعباسيين، تحت سيطرة العبيد الاتراك وهجمات القبائل التركية البدوية

بعدما كانت قضت على الدولة الصفرية التي كانت قضت بدورها على الدولة الطاهرية.

وقضت الدولة الفاطمية على الدولة الحمدانية في شمال سوريا، كما ان الدويلات المصرية : الطولونية، والاخشيدية، والفاطمية، والايوبية، والمماليك، قضت على بعضها البعض بالتتابع الى ان جاء العثمانيون واستولوا على الشرق الادنى ومصر وغيرها (١٥١٧).

وجرى شيء مماثل ذكرناه في شمال أفريقيا، وبين دول الطوائف في اسبانيا.

كان من نتيجة هذه النزاعات المستمرة والدموية ان ثمان عشرة دولة دامت اقل منماية عام، وسبع دول دامت اقل من قرن ونصف، وثمان دول فقط عمّرت مايتي سنة او اكثر وكان اطولها عمرا الدولة العثمانية.

ان عدم الاستقرار السياسي الذي تلازم مع البداوة وأخلاقياتها وكان في بعض وجوهه احد نتائجها، أدّى الى قصر عمر الدول التي قامت وانشغالها الدائم بدفع اذى الطامعين بها من الدول الاسلامية المجاورة، وشَغَل حكامها عن الاهتمام بموضوع التنظيم السياسي، هذا اذا افترضنا ان بعضهم، كالسلطان اكبر في الهند، كانت عندهم القابلية الفكرية او شعروا بمصلحة لهم في تنظيم حكم يقيّد حريّة تصرفهم.

الغربة بين الشعب وحكّامه

من سمات الحكم الاسلامي الغربة بين الشعب وحكّامه خلال تاريخه الطويل مما منع قيام الثقة والتعاطف بين الجانبين. فقد فتح العرب بلاد الشام وسكانها اراميون ولغتهم سريانية، وفتحوا بلاد فارس وسكانها ايرانيون ولغتهم فارسية، وفتحوا مصر وهي قبطية الجنس واللغة، وفتحوا شمال افريقيا وسكانها بربر يتكلمون لهجات مختلفة، وفتحوا اسبانيا ولغتها الاسبانية، وفتحوا آسيا الوسطى وشعوبها ولغاتها تركية، وفتحوا الهند وهي هندية الشعوب واللغات. واشتدت الغربة لان المسلمين عاملوا أهل البلاد بموجب أحكام الشريعة، ككفرة او أهل ذمة، وهم كثرة السكان. وهكذا بقيت السلالات الفاتحة من عرب واتراك ومغول تحتفظ بطبقيّتها المتعالية على السكان المحليين، وبلغتها وعاداتها

وتقاليدها منعزلة عنهم لا تمتزج بهم الا عن طريق الأماء والجواري.

تولد عن هذا التعامل ان الشعوب لم تشعر يوما بالولاء لحكّامها بل رضخت لهم مرغمة. وبادلها الحكام شعور الريبة والحذر فاصبح العنف والقسوة والشدة اسلوب الحكم الوحيد. وبما ان عهد الحكام بالبداوة كان دوما قريبا فان نهب الاقطار المفتوحة واستنزاف مواردها كان غاية اكثر الحكام فتأخرت المجتمعات الاسلامية ثقافيا وحضاريا واقتصاديا مع كل حاكم جديد. وقد وجد الحكام في الاصول الاسلامية التي الحّت على وجوب الطاعة، وعلى وحدة الصفّ، وبررت شرعية العنف، مادّة تعينهم على ممارسة السلطة المطلقة على الارواح والاموال الى اقصى الحدود. وقديما قال الشاعر :

والظلم من شِيَم النفوس فان   تجد ذا عفّة فلعلة لا يظلمُ

في ظلّ هذه الاوضاع هل يُستغرب استنكاف الحكام المسلمين على اختلاف اجناسهم وطوال تاريخهم عن وضع نظرية سياسية تضبط تصرفاتهم؟

لقد بقي الحكم المطلق سِمَة الحكم الاسلامي ثلاثة عشر قرنا الى ان جاء السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ـ١٩٠٩) واضطر في ظروف غير عادية، الى اعلان اول دستور في تاريخ الخلافة الاسلامية يوم ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦. وتبع ذلك انتخاب اول مجلس نيابي في تاريخ الاسلام. لكن هذا التطور الديمقراطي لم يعمّر اذ ما لبث الخليفة ان الغى البرلمان سنة ١٨٧٧ ثم علق الدستور في فبراير ١٨٧٨ وعاد يحكم حكما استبداديا مطلقا الى ان قام الضباط المنتمين الى جمعية "تركيا الفتاة" بثورة عسكرية في ٢٣ يوليو ١٩٠٨ اضطرته الى اعادة العمل بالدستور واجراء انتخابات لمجلس نيابي كان يُعرف باسم "مجلس المبعوثين".

بذلك كانت الخلافة العثمانية أول دولة في الاسلام تنظّم حكمها بموجب نظرية سياسية واضحة استمدتها من الاصول الديمقراطية الغربية وطوّرتها حسب حاجاتها في اطار الشريعة.

ثم جاءت الفكرة القومية في بداية هذا القرن تباعد بين المسلمين من الاجناس المختلفة فتعزز الخلاف بين السنّة والشيعة، وبين العرب والفرس والاتراك، وكانت الحرب بين العراق وايران (١٩٧٩ـ١٩٨٨) أعنف مظاهره الحديثة.

خلاصة هذا الاستعراض التاريخي لمارسات الدول الاسلامية انها لم تقدم نظرية سياسية تحظى بصفات مميزة يمكن ان يبني عليها المسلمون في هذا العصر ولا يبقى امام الساعين لاستنباط نظرية سياسية اسلامية الا الرجوع الى الاصول وممارسة الاجتهاد.

من المبادئ السياسية الواضحة الواردة في الاصول ان السيادة في الدولة الاسلامية هي للشريعة، وان الحاكمية لله وحده.

وان الجهاد واجب ديني لنشر الاسلام بالاقناع او القوة حتى يعمّ العالم.

وانه يترتب على الجهاد أحكام ذكرناها في الفصل الثالث تتعلق بالفتح، وكيفية معاملة المحاربين والاسرى والمدنيين.

من المبادئ الواضحة ايضا، الاحكام التي تنظم علاقة الدولة الاسلامية بالدول غير الاسلامية حيث قسمت العالم الى قسمين : احدهما "دار الاسلام" للمسلمين وهي تنعم بالسلام والهدوء والاستقرار، والاخر "دار الحرب" التي تشمل العالم غير المسلم المهدد دوما بالحرب حتى يعتنق الاسلام او يخضع له ويدفع الجزية.

من الاصول ايضا الاحكام المتعلقة بمعاملة غير المسلمين في الدولة الاسلامية كمواطنين من درجة ثانية.

وفي الاصول حضّ على طاعة الحكام وان ظلموا، ودعوة ملحة الى وحدة الصف ونبذ الاختلاف بالاراء، واعتبار العنف واللجوء الى استعماله امرا مشروعا لتحقيق الاهداف السياسية.

اما الاشارات العامة في الاصول فأهمها تتعلق بموضوع "الشورى" وما تفرّع عنها من اصطلاحات غامضة مثل "أهل الشورى" و"أهل الحل والربط" و"أهل الحلّ والعقد" دون ان يبيّن الفقهاء السابقون ممن تتألف هذه الجماعات، ومتى تجتمع وأين، وما هو عملها، وممّن تستمدّ شرعيتها، بحيث بقي الكلام فيها عاما لا يفيد ولم يوضع يوما موضع التطبيق.

وغابت عن الاصول والاجتهادات الماضية شئون سياسية اساسية في تكوين النظرية هي المبادئ الستة التي ذكرناها والتي لاتكتمل أية نظرية سياسية دون ايجاد الحلول لها. وهذه ايضا تحتاج الى الاجتهاد.

قلنا في مقدمة الكتاب ان تيارَين تقليدي وتحرري يتنازعان المسلمين. اولهما يعتبر عهد الراشدين قمّة الكمال السياسي ويريد الرجوع اليه، ويتمسك بالاجتهادات الماضية ويسعى الى تطبيقها في المجتمعات الحالية دون تغيير.

اما التيار الثاني فلا يتقيّد بعهد الراشدين مع احترامه له، ولا بالاجتهادات السابقة، ويريد العودة الى الاصول لاستنباط النظرية الملائمة لهذا العصر الذي شهد صدور "شرعة حقوق الانسان" عن الامم المتحدة والتزام اعضائها، ومنهم الدول الاسلامية، بتطبيق مبادئها في بلادهم وتعديل قوانينهم المحلية لتتلائم معها.

موقف التقليديين

ان دعوة التقليديين للعودة الى اوضاع القرن السابع، والى الاجتهادات التي توقفت في القرن التاسع تثير الاسئلة التالية التي تحتاج الى ايضاح :

اولا : ما دامت الحاكمية لله، والسيادة للشريعة، فهل للشعب دور في تقرير مصيره في المواضيع التي لم تتعرض لها الشريعة، اي هل له حق التشريع وكيف يمارس هذا الدور، أم ان علماء الدين يغتصبون حق الشعب ويحلون محله بالتشريع عن طريق التفسير والاجتهاد. وهذا ما نصّ عليه دستور الدولة الاسلامية في ايران.

ثانيا : ما موقف الاصوليين من واجب الجهاد حتى يعمّ الاسلام العالم بالاقناع او بالقوة في زمن صارت فيه القوة المتغلبة لغير المسلمين، وصار المجتمع الدولي يحول دون التوسع والاعتداء.

ثالثا : ان قواعد الفتح استتبعت قتل المحاربين، واحيانا الاسرى، واسترقاق المدنيين، والاستيلاء على اموالهم كغنيمة او فيئ، في حين ان قوانين الامم المتحدة وانظمتها وشرعة حقوق الانسان التي وقعتها الدول الاسلامية تنقض هذه القواعد كلها. ففي أي مجرى يسير التقليديون؟

رابعا : قسم الاسلام العالم الى "دار الاسلام" و"دار الحرب" ودعا المسلمين الى جهاد دائم ضد الاخرين حتى يقبلوا الاسلام. وقد أوضح ذلك الاستاذ سيّد قطب لما قال "ان الصراع العالمي ليس بين الكتلتين الشرقية والغربية، بل

بين الاسلام وبين الكتلتين معا" كما اوردنا في المقدمة. وقد تحقق شقّ من كلام الاستاذ قطب لما انهارت الانظمة الشيوعية عام ١٩٨٩ في اكثر بلاد العالم ولم يعد يوجد كتلتان متنازعتان فاصبح العالم كله في جانب، بنظر التقليديين، والمسلمون وحدهم في جبهة مقابلة. هذا يعني في الزمن الحاضر ان هدف التقليديين هو الجهاد المستمر بالسلم او بالحرب ضد الدول المسيحية في القارات الاوروبية والاميركية والاوسترالية، وضد الدول الوثنية في الشرق الاقصى أي الصين واليابان والهند وتايلاند وغيرها. ويجب ان لا يغيب عنا ان الصين وحدها تعدّ الف مليون، وتعدّ الهند ثمانماية وخمسين مليونا، فهل يلتزم التقليديون بتصنيف "دار الاسلام" "ودار الحرب" ويهيئون للحرب، وهل هذا خيار حقيقي لهم، وما هي حظوظهم في التغلب على هذه الامم الزاخرة بالاف الملايين من السكان وفرض الاسلام عليها؟

خامسا : في القرن التاسع عشر شعرت الدولة العثمانية ان لا بقاء لها اذا لم تأخذ بأساليب المدنية الحديثة، فأصدرت في عهد السلطانين عبد المجيد الاول (١٨٣٩ـ١٨٦١) وعبد العزيز (١٨٦١ـ١٨٧٦) سلسلة من القوانين الاصلاحية باسم "التنظيمات" منها "خطي شريف غلخانة" و"الخط الهمايوني" لعام ١٨٦٥. يهمنا من هذه الاصلاحات موضوعان :

المساواة بين المواطنين : أعلن الخليفة عبد العزيز المساواة الكاملة المدنية والسياسية بين جميع الطوائف الدينية فالغى بذلك "عهدة عمر" وجميع الاجتهادات المتعلقة بها، وأدان بصورة خاصة في المادة الثامنة مبدأ اذلال غير المسلمين فخالف القانون بذلك نصّا صريحا في الشريعة. فهل يلتزم التقليديون بقانون خليفة المسلمين أم يعودون للشروط العمرية؟

سادسا : تقنين عصري للشريعة

من جملة الاصلاحات الرئيسية قيام لجنة من كبار رجال القانون بمراجعة النصوص والاجتهادات الحنفية المتعلقة بالاحكام القانونية في الشريعة فاختاروا أفضلها تعبيرا عن روحها، واوضحها تفسيرا، وأكثرها توافقا مع حاجات المجتمع المعاصر، فجمعوها ورتبوها ونسّقوها بموجب اجتهادهم، أي انهم "قنّنوا" الشريعة واصدروا خلاصة عملهم فيما عُرف باسم "مجلة الاحكام العدلية" التي أصبحت قانون البلاد تطبقها المحاكم الشرعية في مختلف أرجاء الخلافة على

كافة المذاهب السنّية وبقيت سارية المفعول في سوريا الى عام ١٩٤٩ وكانت برأي كبار القانونيين العرب انجازا حقوقيا رائعا.

أفلا يجد المسلمون الان في هذا الجهد مثالا يُقتدى لعمل مشابه يجري في أواخر القرن العشرين لتقنين الشريعة بما يتوافق مع حاجات هذا العصر؟ وهل يقبل الاصوليون بذلك؟

سابعا : قلنا ان في الاصول إشارات لموضوع "الشورى" تُرك تفصيلها للاجيال اللاحقة لتجاري حاجات كل عصر. لكن الفقهاء السابقين لم يستنبطوا الاحكام التي تنظّم الشورى وأهملوا الموضوع بكامله ربما لانه كان يتنافى مع رغبة الخلفاء والسلاطين بالحكم المطلق.

وفي العصر الحاضر، يُكثر التقليديون من ذكر الشورى لكنهم يتجنّبون التفصيل فلا نجد لديهم برامج تبيّن بوضوح نظام الحكم الذي يدعون اليه، وشكل الشورى التي يريدون تطبيقها، بحيث بقيت فكرة ضبابية كما كانت خلال الاربعة عشر قرنا الماضية. واذا أُحرجوا بالسؤال قالوا "ان القرآن دستورنا" مع علمهم ان القرآن لم يبحث نظام الحكم واسلوبه.

ثامنا : غابت عن الاصول، كما سبق وقلنا، أية اشارة تتعلق بالمبادىء الستة المكملة لاية نظرية سياسية، كما غابت مبادئ شرعة حقوق الانسان التي تتناول الحريات المدنية والسياسية والتي اصبحت مطلبا ملحّا لجميع البشر. ولا نرى للتقليديين رأيا واضحا في هذا الموضوع.

تاسعا : اذا استعرضنا الحركات الاسلامية التقليدية الناشطة حاليا في الاردن ولبنان ومصر والسودان وتونس والجزائر بالاضافة الى الجزيرة العربية، والباكستان نراها اكتفت بالسعي للوصول الى الحكم وبالدعوة والعمل لتطبيق أحكام الشريعة في مجتمعاتها. لكننا لا نرى لها رأيا واضحا في موضوع النظام السياسي.

عاشرا : لا شك ان التقليديين أعداء للنظرية الديمقراطية عن عقيدة ويقاومون كل ما تمثله من مبادئ وقِيَم وقد أوردنا أراءهم في المقدمة وفي متن الكتاب. ومع ذلك يستفيدون من الحريات التي توفرها لهم الديمقراطية، ويساهمون في الانتخابات النيابية حيثما سمحت لهم الانظمة الحكومية سعيا للوصول الى الحكم. فاذا وصلوا يُخشى ان تكون الديمقراطية اولى ضحاياهم

لانهم يستعملونها الآن كمطيّة لا اقتناعا بمبادئها واساليبها. ولا بأس بذلك لان الديمقراطية تستوعب الاصدقاء والاعداء. لكن ما يهم الناس هو ان يوضّح التقليديون نوع الحكم الذي سيقيمونه اذا نجحوا.

حادي عشر : لكي لا يجري الكلام في فراغ نجد أمامنا الان اربعة نماذج لحكم اسلامي اصولي أيّدها التقليديون وناصروها ولا يزالون، وهي تعبّر عن حقيقة تطلعاتهم وما يهيئونه للمستقبل. هذه النماذج هي :

الحكم الوهابي السعودي الذي يدعم ويساعد اكثر المنظمات الاصولية ماديا ومعنويا.

والتجربة السودانية عندما تحالف الرئيس جعفر النميري مع الاخوان المسلمين من عام ١٩٧٧ الى ١٩٨٤ وطبق أحكام الشريعة.

وحكم الرئيس الباكستاني ضياء الحق الذي نفّذ احكام الشريعة في بلد شديد التمسك بالاسلام.

والدولة الاسلامية في ايران،

ومن المفيد ان نتفحص هذه النماذج ببعض التفصيل.

الدعوة الوهّابية

ان الدعوة الوهابية هي الحركة الاصولية الوحيدة التي أنشأت دولة لا تزال قائمة بفضل ارتباطها بالعائلة السعودية منذ نشأتها. فهي اذن نموذج يستحق ان نبحثه بشيء من التفصيل.

قام بهذه الدعوة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب من قرية عُيَينة في وادي حنيفة في نجد الذي استمد مبادءه من فقه الامام أحمد ابن حنبل. لكنه لاقى مقاومة شديدة من أهل المناطق المجاورة لصرامة تعاليمه فلجأ عام ١٧٤٤ الى قرية الدرعية التي تبعد نحو عشرين كيلومترا عن الرياض حيث رحّب به شيخها محمد ابن سعود ووعده بمناصرته لنشر تعاليمه بشرط ان لا يلجأ الشيخ محمد لنصير اخر. منذ ذلك الوقت دخل آل سعود التاريخ وارتبط مصير الدعوة الوهابية بهم، كما ارتبط مصيرهم السياسي بالدعوة.

وبما ان هذه الدعوة لا تميّز بين السياسة والدين فان زعامتها، أي الامامة، تعود حكما الى المتسلط من آل سعود. وعلى هذا كان محمد ابن

سعود الامام الوهابي الاول.

كان اول ما فعله الشيخ محمد ابن عبد الوهاب وحليفه محمد ابن سعود انهما دعيا انصارهما الى الجهاد، اي الى مهاجمة القرى والقبائل المجاورة ودعوتها الى الالتزام بالتعاليم الوهابية. واعتبروا كل مسلم لا يقبل دعوتهم كافرا يحلّ قتله ونهب امواله. ومنذ ذلك الوقت تلازَم انتشار الدعوة مع تنامي قوة آل سعود القتالية، وترافق انحسارها مع ضعفهم.

في عهد الامام سعود ابن عبد العزيز (١٧٨٨ـ١٨١٤) اخضع الوهابيون اكثر المناطق النجدية وهاجموا الشيعة في الاحساء ونكّلوا بهم. ثم هاجموا شيعة العراق سنة ١٨٠١ فدخلوا كربلاء (بلد الحسين) "وقتلوا غالب أهلها في الاسواق والبيوت (نحو الفي رجل)، وهدموا القبة الموضوعة على قبر الحسين كما أخذوا النصيبة التي كانت على القبر وهي مرصوفة بالزمرد والياقوت والجواهر. وأخذوا جميع ما في البلد من الاموال والسلاح والذهب والفضة وغير ذلك". (٣)

بعدها توجه الوهابيون سنة ١٨٠٢ الى الحجاز فاحتلوا الطائف التي قاومتهم فقتلوا كل ذكر لم يتمكن من الهرب ونهبوا البلد. (٤) ثم دخل الامام سعود مكة سنة ١٨٠٣ ففعل بها وبأهلها ما فعله بأهل الطائف. "ومنع الامام سعود وصول المحملين السوري والمصري والحج الذي يرافقهما فانقطع عن أهل مكة والمدينة ما كان يصل اليهم مع المحمل من الصدقات والعلائف والصرر التي كانوا يتعيّشون منها وينتظرونها كل عام. (٥) (العلائف والصرر هي الاموال الحكومية، وعائدات اوقاف الحرمين، واوقاف سلاطين آل عثمان التي كانت ترافق المحمل وتُشكل موردا رئيسيا لاعاشة أهل مكة والمدينة).

كان احتلال الطائف ومكة والمدينة وما فعله الوهابيون بسكانها من قتل وسفك ونهب، ومنع الحج الشامي والمصري، تحدّيا لقوى دينية وسياسية ليس الوهابيون في مستواها. فما كان العالم يعير الوهابيين اهتماما لما كانوا يضربون في الجزيرة شرقا وغربا، او يغزون اطراف الشام والعراق فتلك أمور متوقعة من البدو. لكنه عندما تصدّى الامام سعود لمقدسات اسلامية تحت حماية الخليفة العثماني، كان عليه ان يتوقع ردّ فعل يناسب عمله.

ردّت عليه الدولة العثمانية بواسطة محمد علي باشا واليها في مصر الذي

جرّد حملة ارسلها الى الحجاز عام ١٨١١ فاحتلته، وتابعت سيرها الى نجد واخضعته، ودخلت الدرعية موطن آل سعود سنة ١٨١٨ فدمّرتها وتركتها أطلالا. بعد ثمانية عشر عاما (١٨٣٦) عاد محمد علي باشا الذي بقيت قواته في الحجاز فجرّد حملة ثانية على نجد فاحتلها وأقام فيها اماما سعوديا مواليا له.

بعد ثمانين سنة من الاحتلال المصري الثاني استطاع الامام عبد العزيز ابن عبد الرحمن (الملك عبد العزيز) ان يستعيد مدينة الرياض من آل رشيد (١٩٠٢) ويبدأ بتأسيس الدولة السعودية الحديثة.

وجد عبد العزيز امامه حركة وهابية جديدة سُمّي أتباعها "الاخوان" تُدين بنفس العقيدة الوهابية السابقة يتزعمها ثلاثة من أقوى زعماء القبائل البدوية في نجد هم : فيصل الدويش شيخ عشيرة المطير ومنازلها على بعد اربعماية كيلومتر شمال الرياض ومركزه قرية الارطاوية، وسلطان ابن بجاد شيخ عشيرة العُتَيبة ومنازلها بين نجد والحجاز ومركزه قرية غطغط وهو صهر فيصل الدويش، وضيدان ابن حثلين شيخ قبائل العجمان في الاحساء. وقد تجمّع في كل واحد من هؤلاء شروط ابن خلدون للزعامة وهي : العصبية البدوية المستندة الى قرابة الدم، وكون الزعيم من أقوى عائلة في تلك العصبية، أُضيف الى ذلك عصبية دينية ملتفة حول الزعيم. وقد كانت هذه القبائل عماد حركة الاخوان الوهابية التي بنى عليها عبد العزيز مملكته.

في بعض الاقوال ان الامام عبد العزيز هو الذي أسس حركة الاخوان وأسكنهم في قرى سمّيت "هِجَر" حيثما وُجدَت مياه ثم أمدّهم بُالمال والسلاح. ويقول آخرون ان عبد العزيز وجد الحركة قائمة بين البدو فتزعمها باعتباره امام الوهابية:

لم تختلف عقلية الاخوان ايام عبد العزيز عمّا كانت عليه قبل ماية سنة في عهد الامام سعود ولم تختلف تصرفاتهم ايضا. فكل مسلم ليس من الاخوان كافر يحلّ قتله ونهبه، وكل البلاد الاسلامية حولهم بلاد كفار يجب حربها.

عندما قرّر الامام عبد العزيز الاستيلاء على الحجاز هاجم نحو ثلاثة الاف من الاخوان بقيادة سلطان ابن بجاد شيخ العُتَيبة مدينة الطائف في شهر سبتمبر ١٩٢٤ واعادوا فيها ما فعله الوهابيون عام ١٨٠٢ من قتل ونهب. ثم توجهوا الى مكة وفعلوا بها مثلما فعلوا بالطائف. (للاطلاع على معلومات أوفى

عن هذه الاحداث، راجعوا كتابنا "آل سعود ، ماضيهم ومستقبلهم").

بعد فتح الحجاز واحتكاكه بالدول الاجنبية، وجد الامام عبد العزيز ان مصلحته تقضي بالتآلف مع عصره ودخول المجتمع الدولي، وهذا يتطلب تغييرا في مسلكه. لكن "الاخوان" المتمسكين بالعقيدة الوهابية عارضوه واتهموه بالخروج على الدين في مؤتمرهم الذي عقدوه في الارطاوية عام ١٩٢٦ (راجع قرارات المؤتمر في كتابنا "آل سعود ، ماضيهم ومستقبلهم"). ولما لم يستجب لمطاليبهم ثاروا عليه وكادوا ان يطيحوا به لولا المساعدة الانكليزية بالسلاح والمال التي مكّنته من التغلب عليهم واعدام زعمائهم.

بقيت نار الاخوان تستعر تحت الرماد مدة خمسين سنة والبلاد السعودية تنعم بالاستقرار وأموال النفط الوفيرة الى صباح يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٧٩ حين استولى جهيمان العتيبي ورفاقه على المسجد الحرام وتحصنوا به واعلنوا الثورة على آل سعود وأتهموهم بالخروج على الدين وانهم ليسوا سلفيين بالقدر الكافي. ومن يراجع بيانات جهيمان ورفاقه ويقارنها مع مقررات مؤتمر الارطاوية يجد انها تنبع من مصدر واحد ، وان فكرة الاخوان الوهابية ما زالت تتفاعل في نفوس فريق من الناس.

تمكنت الحكومة بعد حصار خمسة عشر يوما من التغلب على جهيمان ورفاقه والقضاء على ثورتهم. لكن ما دامت الدولة السعودية تستمر بالترويج لمفاهيم الوهابية كما وضعها الامام محمد ابن عبد الوهاب دون تغيير فهل يمكنها التأكد ان جماعة جديدة من "الاخوان" لن تكرر محاولة اغتصاب الحكم لتطبيق هذه المبادئ؟

ثم كيف يمكن التوفيق بين تشجيع الحركات الاصولية في البلاد الاخرى، وهي ليست اقل تطرفا وعنفا من جهيمان العتيبي ورفاقه، وبين كبت هذه الحركات في المملكة السعودية.

ان شرعية الدولة السعودية ما تزال مرتبطة بتطبيق العقيدة الوهابية كما وضعها ومارسها الشيخ محمد ابن عبد الوهاب، وجاراه فيها الامام سعود الاول، ثم احياها الاخوان والملك عبد العزيز وساروا عليها في بداية عهده، فلما اعتقدوا انه غيّر مسلكه حسب ما فهموه من التعاليم الوهابية، ثاروا عليه وحاربوه. في سياق هذا التواصل التاريخي يبدو ان ثورة جهيمان العتيبي واتباعه واتهامهم

الحكم السعودي الحالي بالخروج على العقيدة ليست الا حلقة في المسيرة الوهابية السابقة يمكن ان تتجدد.

نحن اذن امام خط ديني متصل عبر ثلاثة قرون من ١٧٤٤ الى عصرنا الحالي يؤمن بعقيدته الوهابية ويصرّ على ان تبقى هي قاعدة التعامل داخليا وخارجيا دون تعديل او تغيير. فاذا وجد تبدلا في اتجاهات حكامه اتهمهم بالكفر وثار عليهم.

من ناحية اخرى، يدرك الحكام السعوديون، وان لم يُعلنوا، ان التعاليم الوهابية لم تعد تتلاءم مع تطور المجتمع الداخلي وتشابك مصالح الشعوب ويتصرفون عمليا على هذا الاساس. وهكذا يبقى التناقض قائما بين النظام وما يدعو اليه نظريا، وبين المسلك العملي للحكام. ولا يساعد استمرار هذا التناقض على استقرار الحكم.

نعود الى النظرية السياسية الاسلامية لنرى ماذا قدم لها الحكم الاصولي السعودي في عهده الطويل. ما بين ١٧٤٤ الى ١٩٢٩ كان حكما بدويا صرفا فرض الوهابية على السكان بغزوات وحروب متواصلة. اما انشاء الدولة الاصولية الحديثة فبدأ بعد القضاء على ثورة الاخوان سنة ١٩٢٩ والتفات الملك عبد العزيز لتثبيت ملكه.

أنشأ ملكا وراثيا في عائلة آل سعود، ووضع نظاما لانتقال للحكم بالتسلسل بين اولاده من الاكبر الى من دونه سنا فكان اول حاكم مسلم يضع قاعدة لتسلسل الحكم في التاريخ الاسلامي.

والملك السعودي غير مقيّد بدستور او قانون في ممارسة سلطته لكنه مقيد عمليا بالعرف والتعامل. فللعائلة السعودية التي تعدّ عدّة آلاف، مجلس عائلي مؤلف من كبار العائلة نادرا ما يتخذ الملك قرارا هاما دون استشارته او استطلاع رأيه. ولا يزال آل عبد الوهاب يلعبون دورا دينيا واداريا مهما وهم على علاقة وثيقة بالعائلة الحاكمة، كما ترتبط العائلة السعودية بالزواج والمصاهرة والمصالح مع عدد من العائلات النجدية النافذة وتأخذ اراءها بعين الاعتبار في مجتمع لا يزال متصلا بالبداوة.

ثم ان افراد العائلة منبثّون في دوائر الحكم والمصالح والقوات المسلحة وينقلون الى كبار العائلة الاتجاهات الشعبية فلا تحصل قطيعة بين الحكم

والشعب.

انه نظام فريد لا ينطبق عليه أسم معروف للانظمة السياسية فهو يأخذ من الديمقراطية البدوية، ومن الشورى المحصورة في دوائر معيّنة، وهو ليس "سلطويا" authoritarian بمعنى ان الملك يفرض ارادته على الشعب بمحض مشيئته، ولعل أفضل وصف له انه نظام "أبَوي" paternalistic يعتبر فيه الحاكم انه مسؤول عن رفاه رعيّته.

وقد برهن هذا الطراز من الحكم في المجتمع السعودي انه قادر على التغلب على الازمات دون عنف. فقد حلّ ازمة الملك سعود سنة ١٩٦٤ سلميا بقرار عائلي وفتوى من العلماء، وتغلب على التهديد المصري في الحرب اليمنية بهدوء وحكمة. وفي المجال الداخلي حقق استقرارا اجتماعيا وسياسيا دون اللجوء الى العنف عدا في حالة جهيمان العتيبي. وحقق ازدهارا اقتصاديا شمل اكثر الطبقات ساعدت عليه ايرادات البترول، ونقل المجتمع في برهة اربعة عقود من بداوة شبه كاملة الى وضع متقدم بين الدول النامية. ومن الطبيعي ان يخالط هذا التقدم السريع أخطاء وتجاوزات تبقى مقبولة اذا قورنت بما جرى في اكثر البلاد النامية الاخرى.

لكن للحكم السلفي السعودي وجه اخر. فالسلفية الوهابية تضطهد الحريات الدينية بشكل غير مقبول في عصرنا، وتتدخل في أخص خصائص الحياة والسلوك اليومي للافراد، وتعاني النساء من ذلك اكثر من الرجال.

وتعمل السلفية على تطويق الافكار بطوق حديدي منذ نشاة الطفل وطول حياته المدرسية والجامعية وما بعدها فتحرمه من الاطّلاع على ما تراه مخالفا لفكرها بالمراقبة الصارمة لكل ما يُقال او يُكتب ضمن البلاد وخارجها فتتجمد العقول في قوالب يصعب التخلص منها، وهذا الكبت لا يتوافق مع اقيام مجتمع راقي ومتمدن:

والنظام السلفي السعودي، يضيق بالاراء المعارضة، ويحرّم الحريات السياسية ويعاقب من يحاول ان يمارسها فيضطرهم الى العمل سرًا، وليس ذلك من عوامل الاستقرار.

ان هذه الممارسات ليست خاصة بالنظام السعودي بل هي ملازمة لكل نظام سلفي كما سنرى في النماذج التالية.

التجربة السودانية

يوم ٢٥ مايو ١٩٦٩ قام الجيش السوداني بزعامة جعفر النميري بانقلاب على الحكم المدني واستولى على السلطة بأسم "مجلس قيادة الثورة" والغى جميع المؤسسات والمنظمات السياسية وأطلق على السودان اسم "جمهورية السودان الديمقراطية" على عادة الانقلابات العسكرية في ذلك الزمان التي كانت تستوحي الانقلاب المصري.

بعد خمسة اشهر (اكتوبر ١٩٦٩) أجرى المجلس استفتاء ثبّت جعفر النميري رئيسا للبلاد فشكّل حكومة جديدة حلّت محل مجلس قيادة الثورة وصار "الاتحاد الاشتراكي السوداني" الحزب السياسي الوحيد تشبها "بالاتحاد الاشتراكي المصري".

من انجازات هذه الفترة ان الحكومة تصالحت مع ثوار الجنوب واعترفت لهم بالاستقلال الذاتي باتفاقية أديس أبابا ١٩٧٢ التي أنهت حربا دامت سبعة عشر عاما وصار السودان يستطيع ان يوجه جهوده ويخصص موارده للاصلاح الداخلي.

لكن هذه المساعي لم تكن ناجحة واشتدت الازمة الاقتصادية ورافقتها الاضرابات والاحتجاجات فسعى النميري لحلفاء يناصرونه ووجدهم عام ١٩٧٧ في "الاخوان المسلمين" رغم ان فئات اسلامية اقوى واكثر عددا هي المهدية او الانصار، والميرغنية عارضت هذا التحالف فلم يأبه لهما.

تقاضى "الاخوان" ثمنا مرتفعا لقاء مساندتهم اذ حصل زعماؤهم على مناصب رفيعة وحساسة في الحكم والادارة، وفي الحزب الوحيد وهو "الاتحاد الاشتراكي" فقد تعيّن زعيمهم السيد حسن الترابي مدعيا عاما، ثم مستشارا سياسيا للرئيس وعضوا في اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي. وتولى أعضاء من "الاخوان" ايضا رئاسة المجلس النيابي، ورئاسة الاستئناف في محكمة الجنايات، ووظائف اخرى عديدة.

وسمح الرئيس "للاخوان" بتاليف منظمات شبه عسكرية وتدريب الطلاب في جامعة الخرطوم وغيرها على القتال.

لكن اخطر ما فعله النميري بتحريض من "الاخوان" انه اصدر قرارا عام

١٩٨٣ ألغى به اتفاقية أديس أبابا مع سكان الجنوب الذين يعدّون ستة ملايين من المسيحيين والوثنيين فعاد القتال بين "جيش تحرير السودان" بقيادة جون غارانغ وبين `الجيش السوداني في ظروف اقتصادية سيئة لا تسمح للجيش السوداني بالانتصار.

أتبع ذلك باصدار "قوانين ١٩٨٣ الاسلامية" الخاصة بتطبيق الشريعة الاسلامية في شمال السودان وجنوبه ومن بنودها شهادة غير المسلم لا توازي شهادة المسلم. وقد عارض هذه القوانين حزبا الانصار والميرغنية، وموظفو الادارة واكثر ضباط الجيش، والمحامون والاطباء، لكن النميري استعان بالدكتور حسن الترابي زعيم الاخوان المسلمين و"الجبهة الاسلامية" ليكون نائبا له وكلفه الاشراف على انشاء محاكم الاسلامية لتطبيق احكام الدين.

استعمل "الاخوان" هذه المحاكم للتخلص من خصومهم وفرض عقوبات "اسلامية" وتنفيذها بسرعة وهكذا حاكموا السيد محمود طه رئيس منظمة "الاخوان الجمهوريين" بتهمة الكفر وحكموا عليه بالاعدام ونفذوا الحكم بظرف يومين فاعطوا مثلا سيئا عن العدالة "الاسلامية" وكانت اول حادثة من زمن بعيد يُعدم فيها انسان بسبب عقيدته الدينية.

وطالب "الاخوان" بحلّ "الاتحاد الاشتراكي" واستبداله بمجموعات "الامر بالمعروف والنهي عن المنكر" التي شكّلوها لتكون جاهزة لتسلم مواقع الاتحاد الاشتراكي. وتقوم هذه المجموعات بمهمات "المحتسب" في العهود الاسلامية السابقة الذي ذكرناه في الفصل السابع، وتشابه عمل "المطاوعة" حاليا في الدولة السعودية.

تابع "الاخوان" مسيرة العودة الى القرن السابع فالغوا الضرائب والرسوم واستبدلوها بالزكاة فتناقصت واردات الخزينة وشارفت على الافلاس وارتفع الدعم عن الخبز وغيره من المواد الضرورية فقامت المظاهرات ضد الحكم وسياسته التي هدمت الاقتصاد وخربت البلاد، وقاد المظاهرات طلبة جامعة أم درمان الاسلامية، كما اشتبك الطلاب الجنوبيون مع "الاخوان" في جامعة الخرطوم مما أدّى الى اغلاقها.

نفر العالم الاجنبي من هذه الاتجاهات السلفية ومن نظرتها المتعصّبة الى العالم فأوقفت شركات البترول التي تنقّب في الجنوب أعمالها، وتوقف العمل في

مشروع قناة الري الكبرى، وانقطعت المساعدات المالية الاجنبية.

سقط نظام النميري يوم ٥ ابريل ١٩٨٥ بينما كان في القاهرة عائدا من واشنطن بعد مظاهرات عارمة قامت في الخرطوم شاركت بها منظمات الطلاب والاحزاب والنقابات فقام الفريق عبد الحمن سوار الذهب بانقلاب عسكري شكل بعده الصادق المهدي حكومة ائتلافية كان اول اعمالها تجميد العمل بالقوانين الاسلامية.

كان السودان فرصة نادرة للسلفيين ليثبتوا للعالم ان نظريتهم في الحكم الاسلامي صالحة لهذا العصر، وانها تعالج المشاكل الحياتية للشعوب الاسلامية، وتوفر لها الحرية والكرامة والرخاء.

لكنهم استلموا بلدا موحّدا فقسموه،

واوقدوا فتنة أهلية كانت أسبابها محلولة،

وأثبتوا أنهم لا يستطيعون التعايش مع المذاهب الاخرى اسلامية كانت او غير اسلامية،

وتبيّن ان نظرياتهم الاقتصادية لا تصلح لهذا العصر المتشابك والمعقد فافقروا البلد وأهله.

واستعملوا الارهاب الفكري والديني ضد خصومهم وسخروا اجهزة الدولة ومحاكمها للتنكيل بهم، فنفر الشعب منهم وتوجّس بهم شرا فلم يأسف لسقوطهم.

من المؤسف ان الذين تصرفوا في السودان بهذا الشكل هم من زملاء واتباع السادة عبد القادر عودة وسيّد قطب وغيرهما ممن نقلنا افكارهم المثالية في صفات الدولة الاسلامية، فاذا الكلام في واد والواقع عند التطبيق في وادٍ اخر سواء بالنسبة للوهابية في الجزيرة او للاخوان المسلمين في السودان.

ثم لابد من التساؤل هل الفضائل والمزايا الاسلامية، وابراز حقيقة الاسلام، لا تتم الا بقطع يد السارق ورجم الزانية واضطهاد غير المسلمين مع ان قوانين الخليفة العثماني قالت بغير ذلك؟

التجربة الباكستانية

كان الاسلام أساس قيام دولة باكستان عام ١٩٤٧ التي انفصلت عن الهند

وأقامت دولة مستقلة لتحافظ على هويتها الاسلامية وعلى تميّزها عن الاكثرية الهندية، مدفوعة بعواطف شعبية جارفة. فلا شك اذن بشعورها الاسلامي السائد في جميع طبقات الشعب.

مع ذلك عانت باكستان من نزاعات داخلية عنيفة أدّت عام ١٩٧٢ الى انفصال المناطق الشرقية واستقلالها تحت اسم بانغلادش. على أثر ذلك برز ذو الفقار علي بوتو زعيما وطنيا غير منازع وتولى رئاسة الحكومة عام ١٩٧٣ وكانت ميوله اشتراكية معتدلة.

ما بين ١٩٧٣ و ١٩٧٧ اشتدّت النزاعات السياسية الداخلية وتزايدت الصعوبات الاقتصادية فدعا رئيس الوزراء الى انتخابات نيابية طعن المعارضون بنتائجها وحصل شغب في البلاد فأعلن ذو الفقار علي بوتو الاحكام العرفية وأوكل ادارتها الى محمد ضياء الحق رئيس اركان الجيش.

كان ضياء الحق مسلما متديّنا فلم يلبث ان استولى على الحكم بعد سنة واعلن نفسه رئيسا للبلاد عام ١٩٧٨. ثم اتّهم بوتو بضلوعه في مؤامرة اغتيال احد خصومه السياسيين وحاكمه ونفّذ فيه حكم الاعدام عام ١٩٧٩ فظن انه تخلص من منافس سياسي خَطِر.

بعد ذلك بدأ ضياء الحق برنامجه "لأسلمة" الحياة السياسية والثقافية، فألغى الاحزاب السياسية، واوقف السياسيين المعارضين لحكمه ولاسلوبه، ومنع الاضرابات العمالية، وفرض رقابة صارمة على الصحافة والنشر وأجهزة الاعلام، ومدد الاحكام العرفية الى أمد غير معلوم.

تابع ضياء الحق تنفيذ برنامجه فاصدر قانونا سنة ١٩٧٩ يقضي بتطبيق العقوبات الشرعية في المحاكم، وأجّل الانتخابات النيابية دون تحديد موعد لها.

في عام ١٩٨١ اصدر دستورا موقتا أبقى على الاحكام العرفية ومنحه حق تعديل الدستور. ثم أجرى استفتاءا عام ١٩٨٤ أيّد سياسته الاسلامية وأنهى الاحكام العرفية.

انتهى عهد ضياء الحق عندما انفجرت الطائرة التي كانت تقلّه مع عدد من كبار الضباط وعادت باكستان بعده الى الحكم الديمقراطي.

ماذا تفيدنا التجربة الباكستانية عن نظرية الحكم الاسلامي؟

ان الرئيس محمد ضياء الحق، كالرئيس جعفر النميري وكالمئات غيرهما

من السلاطين والحكام المسلمين السابقين، استولى على السلطة بقوة الجيش لا بالارادة الشعبية، وعمد في تثبيت حكمه الى اضطهاد المعارضين والتنكيل بهم، والى الاحكام العرفية، وكبت الحريات على اختلافها، فلماذا يحتاج الاسلام الى هذه الاجراءات التعسفية كي يسود في شعب اسلامي هو من اكثر الشعوب تمسكا بدينه؟

لقد تبيّن بعد وفاة الرئيس ضياء الحق ان حكمه وما سعى اليه كان مكروها من الناس الذين اظهروا شعورهم بدليلين : فقد انتخبوا امرأة لرئاسة الوزارة خلافا لكل التقاليد والاعتبارات التي يتمسك بها التقليديون، وكانت السيدة التي انتخبوها ابنة ذي الفقار علي بوتو الخصم العنيد الذي اعدمه ضياء الحق. ولا يبدو ان صفة الباكستان الاسلامية نقصت بهذا التغيير الذي أزال حكما دكتاتوريا عسكريا واعاد الديمقراطية الى البلاد. على انه ليس مؤكدا بعد ان الصراع بين السلفيين الباكستانيين وبين المتحررين للسيطرة قد حُسم نهائيا لمصلحة أحد الفريقين.

دولة ايران الاسلامية

هي الدولة السلفية الثانية في العالم الاسلامي هدفت منذ قيامها الى القضاء على فكرة القومية الايرانية واستبدالها بالعقيدة الاسلامية الجامعة. انه الفتح العربي في القرن السابع الذي قضى على الشخصية الايرانية واحتواها في الأسلام يتكرر حدوثه في اواخر القرن العشرين لكن من ضمن المجتمع الايراني وبيد رجال دين ايرانيين.

يقول وطنيون ايرانيون انهم لم يستكينوا للفتح العربي بل استوعبوه وقاوموه من الداخل عن طريق الشعوبية اولا، ثم بمناصرة آل البيت واعتناق المذهب الشيعي الذي ميّزهم عن باقي المسلمين واوصلهم الى اقامة الدولة الصفوية الشيعية في القرن السادس عشر التي قاومت الدول السنيّة في جوارها. فتاريخ ايران اذن، منذ الفتح العربي، هو تاريخ الكفاح بمختلف الوسائل، للمحافظة على الشخصية القومية والثقافة الايرانية من خطر اغراقها في الخضم الاسلامي.

في سنة ١٩٧٩ تشكلت جبهة ايرانية مختلطة من رجال الدين، وسياسيين

ناقمين على الشاه وعلى اسلوب حكمه، ويساريين، وشيوعيين، استطاعت بمساعدة دول غربية ان تجبر الشاه على مغادرة البلاد وتولى زعامة المجموعة آية الله الخميني.

لم يطل الوقت حتى تخلص الامام من حلفائه وأقام الجمهورية الاسلامية معتمدا على طبقة العلماء المنتشرة في ايران في جميع أحياء المدن والقرى الريفية والتي استطاعت ان تثير المشاعر الدينية في أوساط الجماهير وتوجّه عداءهم في الداخل ضد الطبقات المنتجة والمتعلمة تعليما عصريا وضد الجيش الموالي للشاه، وفي الخارج، ضد الدول الغربية وخصوصا الولايات المتحدة. وقد استطاعت طبقة العلماء ان تخفي عن الجماهير الشعبية ان آية الله خميني قاد ثورته من فرنسا وكان يُصدر بياناته ويرسل الكاسيتات التي تحرّض على الثورة الى ايران بعلم الحكومة الفرنسية وموافقتها خلافا لانظمة اللجوء السياسي. وساهمت الاذاعة البريطانية في نشراتها اليومية الموجهة الى ايران باثارة العداء للشاه. أما الولايات المتحدة فلعبت الدور الاول في إزالة الشاه فقد عارضت استخدام الجيش لمقامة الثورة، ثم دفعته الى مغادرة البلاد.

بعدها سيطرت الثورة وقضت على معارضيها ونكّلت بهم فهاجر مئات الالوف من المتعلمين ورجال الفكر وأصحاب الاعمال الى الخارج حاملين اموالهم وخبرتهم. وطال التنكيل والاضطهاد بصورة خاصة ضباط الجيش فتضعضع كيانه ولما قامت الحرب مع العراق كان ذلك سببا رئيسيا لانكسار ايران.

في العلاقات الدولية اتّبعت الثورة منهجا واساليب تخالف ما وضعه المجتمع الدولي وسار عليه منذ بضعة قرون ربما استمدته من نظرية "دار الاسلام ودار الحرب". فقد عاملت جميع الدول غير الاسلامية كأعداء، وحتى بعض الدول الاسلامية كالسعودية. واستخدمت الارهاب خارج بلادها، وخطف المدنيين الاجانب كوسيلة مشروعة في التعامل السياسي.

لما استتب الامر للثورة وضع الامام خميني نظرية سياسية جديدة دعاها نظرية "ولاية الفقيه" مع دستور ينظم شؤون الحكم استمدهما من الفقه الشيعي. وقد شرحنا ذلك في الفصل الثالث ولا داعي لتكراره.

مع أهمية ايران وشعبها فان الثورة الخمينية، بعدما أثارت عواطف المسلمين في بدايتها، عادت لتكون حركة شيعية مقتصرة على ايران لان نظرية

"ولاية الفقيه" ليس لها اساس في الفقه السنّي. وقد قامت شعبية الامام الخميني على اعتباره زعيما اسلاميا يتحدّى الدول الكبرى خصوصا الولايات المتحدة، وانه قبل وفاته في يونيو ١٩٨٩ بعث برسالة الى الرئيس السوفياتي يقول له فيها ان الاتحاد السوفياتي على وشك الانهيار وان الزعيم السوفياتي يستطيع إن ينقذ نفسه وبلاده باعتناق الاسلام. (٦) ورأى الناس بهذا العمل تشبّها بما فعله الرسول عندما راسل الملوك.

لكن شعبية الثورة الخمينية تقلصت كثيرا بسبب اجراءاتها الداخلية المتعسفة ضد فئات كثيرة من السكان، وعلاقتها بعدد من المنظمات الارهابية، ومحاولة تصدير ثورتها الى دول الخليج، وتصرفها في مكة في مواسم الحج. أضف الى ذلك الصعوبات الاقتصادية التي تعانيها بسب محاولتها تطبيق ما تنسبه الى الشريعة من أحكام تتعلق بالاقتصاد.

بكل الاحوال فان الثورة الايرانية كما قلنا غير مقبولة في البلاد السنيّة التي هي موضوعنا وليس لها تأثير في مصير حركاتها الاصولية رغم تشابه الاهداف في فرض المفاهيم الدينية على السكان بالرضا او بالعنف.

كما لا نظنّ ان المعركة بين القومية الايرانية والاتجاه الاسلامي قد حُسمت وقد يكون انتصار الاسلاميين في ايران موقّتا.

مواقف المتحررين

عندما بدأت بجمع المعلومات لهذا الكتاب عام ١٩٨٧ في بيروت، قصدت احد الاصدقاء من كبار "الاخوان المسلمين" وأخبرته بما انويه ثم قلت له انه توجد في البلاد الغربية جماعات مسيحية تتقيد بحرفية النصوص الدينية ويُطلق عليهم اسم الاصوليين (fundamentalists) أما الذين يلجأون الى التفسير (الاجتهاد) فيسمونهم المتحررين (liberals) وانتم معروفون باسم الاصوليين او السلفيين فماذا نسمي المسلمين الاخرين، هل نستعمل الاصطلاح الغربي ونسمّيهم متحررين؟

قال لا، لانك اذا سمّيتهم كذلك فانه يعني اننا نحن غير متحررين.

قلت، ماذا ادعوهم اذن؟

أجاب، "نحن المسلمون.

قلت، أعرف ذلك لكنني أسال عن تسمية المسلمين الاخرين.

فكرر القول "نحن المسلمون". فلم أتابع الموضوع.

وقد فهمت من هذا الحديث، وقد أكون مخطئا، ان "الاخوان" او بعضهم، لا يعتبرون من ليس منهم مسلما وهم بذلك يتبعون الاجتهاد الوهابي القديم. لذلك لم اجد بدا من استعمال ترجمة الاصطلاح الغربي الشائع.

ليس المتحررون فئة واحدة. فمنهم المشككون بكل شيء كما شكك أسلافهم في القرنين الثامن والتاسع. هؤلاء لا يقبلون للدين أي دور في الحياة المعاصرة. وفريق من غير "المبالين" لا يمارسون شعائر الدين ولا يلتزمون بأوامره ويقولون ان الحاجة الى الدين لا تتعدّى كونه ثقافة وأخلاقا. وفريق يرى في محاولة التوفيق بين النصوص وبين حاجات المدنية الحديثة مضيعة للوقت، ويشيرون الى ان محاولة مماثلة جرت في القرون الوسطى للتوفيق بين تعاليم الكنيسة المسيحية وبين مستجدات العصر عُرفت باسم scholasticism فلم تنجح، ولم يتقدّم المجتمع الغربي الا في عصر النهضة (القرن السادس عشر وما بعده) عندما أخذ العلم والمجتمع منحى مستقلا عن الدين.

بحثنا يتعلق بالفريق الذي يسعى للاصلاح من ضمن الدين لا من خارجه. هؤلاء يحاولون ان يعيدوا تفسير المباديء الاساسية في ضوء الاوضاع القائمة والمستمرة التغيير. وفي حين يعارض التقليديون الاجتهاد في أي موضوع ويتمسكون بأراء فقهاء القرن التاسع وما قبله، فأن المتحررين يقولون ان كثيرا من تلك الاجتهادات تأثرت بالبيئة الاجتماعية والفكرية السائدة في عصرهم التي تختلف كثيرا عن بيئتنا. لذلك فأن النتائج التي توصلوا اليها تتباين مع ما يمكننا التوصل اليه لو بحثنا المسالة نفسها اليوم. لذلك يعتبرون الاجتهاد الذي يأتي بحلول جديدة واجبا ملحّا لا غنى عنه وان خالف الاجتهادات السابقة. انهم يسعون الى التوفيق بين جوهر الاسلام وبين أفضل أفكار الحضارة الغربية وانجازاتها، ويعتقدون ان الاسلام يستطيع ان يستوعب هذه الافكار والانجازات ويتكيّف معها ويعطيها محتوى وشكلا اسلاميا.

يقول المتحررون ايضا انه عندما يصرّ التقليديون على القول ان العصر الذهبي للاسلام انتهى مع الخلفاء الراشدين وأن كل ما جاء بعده كان "إنحرافا"

عن الدين الصحيح، فكيف يفسّرون ان تألق الاسلام وامجاده في دمشق وبغداد والقاهرة والقيروان ومراكش وقرطبة وأصفهان وبلخ وبخارى وسمرقند وغيرها من المدن والامصار فيما يتعلق بنشر الاسلام وتطوير العلوم والفنون والاداب، حصلت كلها في الازمنة التي يعتبرونها منحرفة عن الدين الصحيح؟ وما هو بنظرهم وضع ملايين المسلمين الذين عاشوا الفا وثلاثماية سنة في تلك العهود "المنحرفة" وكانوا يؤمنون انهم يعيشون حياة اسلامية صحيحة، فهل كان اسلام اولئك الملايين ناقصا؟

يقول السيد محمد أسد الذي كان ممثلا للباكستان في الامم المتحدة وترجم القرآن للانكليزية وشرحه، ويوافقه بالرأي أكثر المتحررين : يجب ان نتخلى عن اعتمادنا العقيم على ما اعتبره العلماء السابقون "قرارا نهائيا" في الامور الاجتماعية ـ السياسية، وان نبدأ بمعالجة هذه الامور مجددا في ضوء دراسة حديثة للنصوص. (٨) (أي القرآن والحديث والاجتهادات السابقة).

يستطيع المتحررون ان يتابعوا مسلك الخلافة العثمانية في مجالي القضاء والحياة السياسية حين قنّنت الشريعة في "مجلة الاحكام العدلية"، وأخذت من النظرية السياسية الغربية مبادئ تسلسل الحكم وضمنت حريات المواطنين ومساواتهم، وحقهم بالمشاركة بالحكم. لكنهم يواجهون صعوبات شتّى. أولها، ان الخلافة العثمانية تصرفت بموجب سلطة دينية مركزية لم يكن لها منازع في بلاد الخلافة. وليس للمتحررين سلطة مادية او معنوية مماثلة.

ثانيا، لم يستطع المتحررون في اي بلد ان ينشئوا تنظيما يجمعهم ولم يتفقوا على برنامج موحّد، ويكتفي المهتمون بينهم بالدعوة الى ممارسة الاجتهاد، في حين ان التقليديين ناشطين اجتماعيا وسياسيا في أكثر البلاد العربية يسعون بحماس لفرض مفاهيمهم والتوصل الى الحكم ولا يستبعدون اللجوء الى العنف في بعض الحالات.

ثالثا، لا نرى للمتحررين موقفا فكريا مجتمعا يتصدى للدعوة التقليدية ويناقش أراءها بشكل منظم ومستمر ويدعو المسلمين الى تحديث الاسلام. وكل ما نراه مقالات وكتابات متفرقة في بعض الصحف والمجلات.

رابعا، عندما يدعونّ الى فتح باب الاجتهاد فان دعوتهم تبقى طوباوية وناقصة لانهم تجنبوا افهام الناس من الذين برأيهم يحق لهم الاجتهاد في هذا

العصر، ومن أين يستمدّون سلطتهم الدينية والمعنوية.

خامسا، يزيد في صعوبات المتحررين ان الذين يشغلون مراكز دينية كبرى في كل دولة، وكانوا يستطيعون ان يشكلوا نقطة الارتكاز لحركة اصلاحية، هم في النظام الاسلامي المتّبع، موظفو حكومة يتقاضون رواتبهم وأرزاقهم منها مما يقيّد حريتهم بالتصرف وينقص مكانتهم المعنوية بنظر الناس فلا يعودوا قادرين على القيام بهذا الدور حتى لو أرادوا، مع العلم ان كثيرا منهم يميلون الى التقليد لا الى التجديد.

سادسا، ان التقليديين الناشطين اجتماعيا وسياسيا قد أقاموا تنظيمات تنفق الاموال وتضمّ الانصار المتفرغين من المفكرين والعاملين، وليس عند المتحررين شيء من هذا.

سابعا، لكل ذلك فان حركة المتحررين التي تدعو الى تحديث النظام السياسي في البلاد الاسلامية عن طريق الاجتهاد مع الالتزام باحكام الشريعة تبدو غير فعالة شعبيا وفكريا.

ثامنا، نأسف ان ننهي هذا البحث بلهجة تشاؤمية إذ اننا نرى "أهل النقل" الذين انتصروا على "أهل العقل" في القرن التاسع يتهيّئون لانتصار جديد في القرن العشرين، ويبقى المسلمون المتطلعون الى الحرية والتقدم حائرين تتقاذفهم الامواج.

* * *

مراجع الخاتمة

١ ـ ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، ص ٢٦٢ـ٢٦٧ .

٢ ـ الريحاني، امين، تاريخ نجد الحديث، ص ٢٥٩ـ٢٦٠ .

٣ ـ ابن بشر، عثمان، عنوان المجد في تاريخ نجد، ص ١٠٦ .

٤ ـ المصدر السابق، ص ١٢٣ .

٥ ـ غالب، محمد أديب، أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي، ص ١١٦ و ١١٨ .

٦ ـ مجلة الايكونوميست، لندن، ٢٠ يناير ١٩٩٠، ص ٤٢.

٧ ـ أسد، محمد، الدولة والحكم في الاسلام، (بالانكليزية) ص ١١، ١٦ .



محتويات الكتاب

المقدمة

الفصل الاول
المجتمع العربي في عصر النبوة

الفصل الثاني
النبي في المدينة

الفصل الثالث
الاسلام : منابع الدين ومبادىء الحكم

الفصل الرابع
السياسة في عهد الخلفاء الراشدين

الفصل الخامس
السياسة في الدولة الاموية

الفصل السادس
تغيّر المجتمع في العصر العباسي

الفصل السابع
السياسة في الدولة العبّاسية

الفصل الثامن
الفتوحات والانظمة السياسية

الفصل التاسع
الفتوحات العثمانية

الفصل العاشر
رد اوروبا على الفتوحات الاسلامية

الخاتمة



فهرس الأسماء

أ

ب


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لائحة المراجع

في بحثي عن مصادر لهذا الكتاب، قضت الظروف ان اتنقّل بين بيروت وباريس ومونتريال ما بين ١٩٨٧ و ١٩٩٠ وكنت حيثما حللت أقصد المكتبات العامة والجامعية ومراجعة ما تحويه عن موضوع الكتاب.

وجدت فيها مراجع مفيدة لكن صادفتُ مشكلة هامة. فدور النشر في بيروت والقاهرة وغيرهما من المدن العربية تناولت كثيرا من المصادر القديمة والحديثة وأعادت طبعها وترتيبها بأحجام وأشكال مختلفة وقسّمتها احيانا الى أجزاء غير متساوية العدد.

وبما اني راجعت أعمال بعض المؤلفين في عدة طبعات بحكم تنقلي، فان اشارة الحواشي في كتابي الى رقم الصفحات في المصادر قد لا تدل في بعض الاحيان على مكان الفقرة المقتبسة اذا أراد القارئ الرجوع اليها واستعمل نسخة اخرى من المصدر ذاته.

بعدهذا التنبيه، اقدّم لائحة بأهم المراجع العربية والاجنبية التي استعنت بها.

١ ـ ابن الاثير، أبو الحسن عز الدين
الكامل في التاريخ (١٠ أجزاء)
دار الكتاب العربي بمصر ١٩٨٣

٢ ـ ابن تيميّة، تقي الدين
السياسة الشرعية في اصلاح الرعية
دار الكتاب العربي بمصر ١٩٦٩

٣ ـ ابن جماعة، بدر الدين
تحرير الاحكام في تدبير أهل الاسلام

٤ ـ ابن خلدون، عبد الرحمن
المقدّمة
دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٢

٥ ـ ابن عبد ربّه

العقد الفريد
٦ ـ ابن قيّم الجوزية
شرح الشروط العمرية، تحقيق الشيخ صبحي الصالح
دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١
٧ ـ ابن هشام، أبو محمد ابن أيوب الحميَري
السيرة النبوية، دار القلم، بيروت
٨ ـ أبو نواس، الحسن ابن هاني الحكم (ديوانه)
دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٨٢
٩ ـ الاصفهاني، أبو الفرج
الاغاني، ٢٠ جزء
دار الفكر للجميع، بيروت ١٩٧٠
١٠ ـ أمين، أحمد
زعماء الاصلاح في العصر الحديث
مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧١
١١ ـ أمين، أحمد
ضحى الاسلام (٣ أجزاء)
دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٢٣ـ١٩٣٦
١٢ ـ فجر الاسلام (جزءان)
مطبعة الاعتماد ، القاهرة ١٩٢٨
١٣ ـ بشّار ابن برد (ديوانه)
الشركة التونسية للتوزيع، تونس ١٩٦٧
١٤ ـ البلاذري، أحمد ابن جابر البغدادي
فتوح البلدان
مطبعة الموسوعات، القاهرة
١٥ ـ البنّا، حسن
مجموعة الرسائل
المؤسسة الاسلامية للطباعة والصحافة والنشر
بيروت ١٩٨٤

١٦ ـ البيضاوي، عبد الله ابن عمر
أنوار التنزيل وأسرار التأويل
(أعيد طبعه في بيروت دون ذكر الناشر)

١٧ ـ تفسير الجلالين
جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي
دار المعرفة، بيروت

١٨ ـ الجبرتي، عبد الرحمن
عجائب الاثار في التراجم والاخبار
دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، جدة ١٩٧٥

١٩ ـ جلال، أحمد محمد
فكرة الدولة في الاسلام
الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون
الرياض ١٩٨٦

٢٠ ـ حتي، فيليب
تاريخ العرب (المطوّل)
دار الكشاف للطباعة والنشر، بيروت ١٩٥٤

٢١ ـ الحريري، أبوموسى
قسّ ونبي
دار لاجل المعرفة، لبنان ١٩٨٥

٢٢ ـ حسين، طه
حديث الاربعاء (٣ أجزاء)
دار الكتاب اللبناني
بيروت ١٩٨٠

٢٣ ـ حسين، طه
الفتنة الكبرى، عثمان
دار المعارف بمصر ١٩٥١

٢٤ ـ حسين، طه
الفتنة الكبرى، علي وبنوه، دار المعارف بمصر

٢٥ ـ حوّى، سعيد
دروس في العمل الاسلامي
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع
حلب ١٩٨١
٢٦ ـ خالد محمد خالد
وجاء أبو بكر
دار المعارف، القاهرة
٢٧ ـ خالد محمد خالد
وداعاً عثمان
دار المعارف، القاهرة
٢٨ ـ خالد محمد خالد
في رحاب علي
دار المعارف، القاهرة
٢٩ ـ خربوطلي، علي حسني
الاسلام والخلافة
٢٠ ـ رسلان، صلاح الدين البسيوني
الفكر السياسي عند الماوردي
دار الثقافة للنشر والتوزيع
القاهرة ١٩٨٣
٣١ ـ رضا، محمد رشيد
الخلافة أو الامامة العظمى
مطبعة المنار، القاهرة
٣٢ ـ الريحاني، أمين
تاريخ نجد الحديث
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت ١٩٨٠
٣٣ ـ الريحاني، أمين
ملوك العرب

دار الريحاني للطباعة والنشر، بيروت

٢٤ ـ الريّس، رياض نجيب
المسيحيون والعروبة
مؤسسة رياض الريّس للكتب والنشر
لندن ١٩٨٨

٢٥ ـ السعيد، رفعت
حسن البنّا
دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٩

٣٦ ـ السيرة الحلبية
الامام علي ابن برهان الدين الحلبي
المكتبة الاسلامية، بيروت

٣٧ ـ شامية، جبران
آل سعود، ماضيهم ومستقبلهم
مؤسسة رياض الريّس للكتب والنشر
لندن ١٩٨٧

٣٨ ـ الطبري، أبو جعفر محمد ابن جرير
تاريخ الرسل والملوك
دار المعارف بمصر ١٩٦٠

٣٩ ـ عبد الرازق، علي
الاسلام واصول الحكم
دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٢٥

٤٠ ـ العجلاني، منير
عبقرية الاسلام في اصول الحكم
دار النفائس، بيروت ١٩٨٥

٤١ ـ العظم، صادق جلال
نقد الفكر الديني، دار الطليعة، بيروت ١٩٦٩

٤٢ ـ عودة، عبد القادر
الاسلام واوضاعنا السياسية

المختار الاسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة
٤٣ ـ عودة، عبد القادر
المال والحكم في الاسلام
المختار الاسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة
٤٤ ـ الغزالي، أبو حميد
الاقتصاد في الاعتقاد
٤٥ ـ الغزالي، محمد
نظرة على واقعنا الاسلامي
دار ثابت للنشر والتوزيع، القاهرة
٤٦ ـ فضل الله، حسين
الاسلام ومنطق القوة
المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والطباعة، بيروت
٤٧ ـ القاسمي، ظافر
نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الاسلامي (جزءان)
دار النفائس، بيروت
٤٨ ـ القرآن الكريم
طبعة دار المعرفة، بيروت
٤٩ ـ القرطبي، أبو عبد الله محمد الانصاري
الجامع لاحكام القرآن
دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، مصر ١٩٦٧
٥٠ ـ قطب، سيّد
العدالة الاجتماعية في الاسلام
منشورات دار الشروق، بيروت ١٩٨١
٥١ ـ قطب، سيّد
معالم في الطريق، دار الشروق، بيروت ١٩٨٢
٥٢ ـ قطب، سيّد
معركة الاسلام والرأسمالية
دار الشروق، بيروت ١٩٨٣

٥٣ ـ الكواكبي، عبد الرحمن
طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد
المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت

٥٤ ـ لاغا، محمد علي
الشورى والديمقراطية
المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٣

٥٥ ـ لوك بارسكو وفيليب كاردينال
رأيهم في الاسلام
دار الساقي ، لندن

٥٦ ـ المتنبي، أبو الطيّب (ديوانه)
دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٨٣

٥٧ ـ محفوظ، محمد
الذين ظُلموا، التنظيمات الاسلامية في مصر
مؤسسة رياض الريّس للكتب والنشر ١٩٨٨

٥٨ ـ النفيسي، عبد الله فهد
عندما يحكم الاسلام
الناشر : طه، لندن

٥٩ ـ النفيسي، عبد الله فهد
في السياسة الشرعية، دار الدعوة، الكويت ١٩٨٤

٦٠ ـ النفيسي، عبد الله فهد
الكويت والرأي الاخر، دار الدعوة، الكويت

٦١ ـ النيهوم، صادق
صوت الناس
مؤسسة رياض الريّس للكتب والنشر، لندن ١٩٨٧

٦٢ ـ هيكل، محمد حسين
حياة محمد
مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٨

Bibliography

AJAMI, Fuad. The Vanished Imam. London: Cornell University Press; 1986.

ASAD, Muhammad. Islam at the Crossroads. Gibraltar: Dar Al Andalus Ltd; 1982.

ASAD, Muhammad. The Message of the Quran. Gibraltar: Dar Al Andalus Ltd; 1980.
Note: English translation and explanation.

Asad, Muhammad. The Principles of State and Government in Islam. Gibraltar: Dar Al Andalus Ltd; 1980.

ASAD, Muhammad. The Road to Mecca. Gibraltar: Dar Al Andalus Ltd; 1980.

BANNERMAN, Patrick. Islam in Perspective. London: Routledge; 1988.

CHABRY, Laurent & Annie. Politique et minorites au Proche-Orient. Paris: Maisonneuve & Larose; 1984.

CHAMIEH, Jebran. Record of the Arab World. Beirut: The Research and Publishing House; 1966-1973.

The Concise Encyclopedia of Islam. London: Stacey International; 1989.

Encyclopaedia Britannica. Chicago: Encyclopaedia Britannica Inc.; 1988.

HOURANi, Albert. Arabic Thought in the Liberal Age 1798-1939. Cambridge: Cambridge University Press; 1984.

JANSEN, G.H. Militant Islam. London: Pan Books; 1979.

KEPEL, Gilles. The Prophet & Pharaoh, Muslim Extremism in Egypt. London: Al Saqi Books; 1985.

LAMANS, Henri. L'age de Mahomet et le Sira.

LAMANS, Henri. Le Triumvirat.

LEWIS, Bernard. The Political Language of Islam. Chicago, Ill.: University of Chicago Press; 1988.

MITCHELL, Richard. The Society of Muslim Brothers. London: Oxford University Press; 1969.

MOTTAHEDEH. The Mantle of the Prophet. New York: Pantheon Books; 1985.

NAHAVANDI, Houchang. Le Grand Mesnonge. Paris: Nouvelles Editions Debresse; 1984.

NAHAVANDI, Houchang. Iran, Anatomie d'une Revolution. Paris: SEGEP; 1983.

PROCTOR, Harris (ed.). Islam & International Relations. London: Pall Mall Press; 1965.

LE STRANGE, G. (ed.). The Lands of the Eastern Caliphate. London: Cambridge University Press; 1905.





Includes Index
ISBN 0-921632-00-2

PRINTED IN CANADA BY: LETRA LITHO CANADA INC. • MONTREAL